

مجلة التأليف والترجمة والنشر

# الاسلام والحضارة العربية

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الثاني

الطبعة الثالثة

١٩٦٨

الطبعة

مطبعة كتّاب التأليف والترجمة والنشر

## فهرس الجزء الثانى

سنة

### العلوم والمذاهب فى الإسلام :

أصول الشريعة وتأسيس المذاهب	١
علم الكلام وعلم الحديث	١٨
علم الصوف	٢٧
الفلسفة فى الإسلام	٣٨
الأداب ، الشعر والنثر والخطابة	٥٠
الفرق الإسلامية ..	٥٧
الاضطهاد فى سبيل المذاهب والأفكار	٦٩

### الإدارة فى الإسلام :

إدارة الرسول	٩٤
إدارة الخلفاء الراشدين - إدارة أبى بكر الصديق	٩٠٧
إدارة عمر بن الخطاب	١١١
إدارة عثمان بن عفان	١٣٨
إدارة علي بن أبى طالب	١٤١
إدارة الأمويين - الإدارة علي عهد معاوية بن أبى سفيان	١٤٦
إدارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عهد الملك	١٦١
إدارة الوليد وسليمان	١٧٠
إدارة عمر بن عبد العزيز	١٧٣
إدارة يزيد بن عبد الملك وهشام وزيد بن الوليد ومروان بن محمد	١٩٠
إدارة العباسيين - تدابير السفاح والمتصور	١٩٦
إدارة المهدي والهادي والرشيد	٣٠٩

ملحة

٢٢٠	إدارة الأمين والمأمون
٢٣٦	الإدارة على عهد المعتصم وأخلافه
٢٤٣	إدارة المعتز والمعتدى والمعتد
٢٤٨	الإدارة على عهد المكتفى والمقتدر وكلام فى الوزراء
٢٥٦	الإدارة على عهد القاهرة والراضى ومن بعدهما
٢٦٣	الإدارة فى العهد العباسى الأخير
٢٦٥	إدارة دول الشرق والغرب
٢٩٢	إدارة المالكة
٢٩٩	إدارة الترك العثمانيين

السياسة فى الإسلام :

٣٣١	سياسة الرسول
٣٥١	سياسة الخلفاء الراشدين - سياسة أبى بكر الصديق
٣٦٤	سياسة عمر بن الخطاب
٣٧٣	سياسة عثمان بن عفان
٣٧٩	سياسة على بن أبى طالب
٣٩٣	سياسة الأمويين
٤١٧	سياسة العباسيين
٤٥٨	الدبلوماسية فى الشرق والغرب - دول الشرق
٤٦٨	دول الغرب
٥٧٨	سياسة الترك العثمانيين

٥٣٨	الخاتمة
٥٤١	تعالىق
٥٦٨	مراجع الكتاب

## العلوم والمذاهب في الإسلام

### أصول الشريعة وتأسيس المذاهب :

كان خاصة الصحابة علماء بالشريعة ، أخذوا علمهم عن الشارع الأعظم ، فتعلموا القرآن ، وتلقنوا السنة بطول الاختلاط بصاحبها ، أو بالرواية الصحيحة عن ثقات الناقلين عنه ، والقرآن معدن الأحكام ، وهو المرجع الوحيد الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل القبلة ، والسنة مفسرة له ، وهي مجموع ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول ، أو عمل ، أو تقرير ، والعبادات تعلم بالعمل يعرفها الخاص والعام ، وإذا أشكل فيها أو في المعاملات شيء رُجع إلى العارفين من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والقضاة الذين يوليهم الخليفة ، وكانوا يدعون القضاء حكومة .

كانوا إذا عرض لهم حادث يضطرون إلى القضاء فيه ، يحكمون العقل واللغة لتفهم الشرع واستنباط ما لا يجدون فيه نصاً صريحاً ، ولا معول لهم إذا اختلفوا في شيء على غير هذين الأصلين الكتاب والسنة . وكان الممتازون من الصحابة وغيرهم في هذا الضرب من العلم يعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس ، وهم المرجع في القضاء والفتيا بين المؤمنين ، في مصالحهم الدينية والدنيوية . يبعث الرسول ثم الخلفاء من بعده بأفصى القراء إلى الأمصار ، يحكمون بين الناس ويعلمونهم دينهم ، ولم تخل بلدة من البلاد التي دخلها الإسلام من نزول بعض الصحابة المدركين فيها ، كانوا لأهلها مناراً ، وعلى الشريعة أمناً ، وفي الدعوة إلى الدين مؤمنين صادقين ، يقرأون القرآن ، ويعلمون الشرائع والأحكام ، وإذا لم يجدوا نصاً صريحاً في القرآن ، ولا نصاً حتمياً من السنة ، يعتمدون إلى القياس أو الرأي .

يقول ابن تيمية<sup>(١)</sup> ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها ، فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام حدثت جميع أجناس الأعمال ، فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وإنما تكلم بعضهم بالرأى في مسائل قليلة ، والإجماع لم يكن يحتاج به عامتهم ولا يحتاجون إليه ، إذ هم أصل الإجماع فلا إجماع قبلهم . ثم ذكر كيف كان التابعون يقضون بالكتاب والسنة وبما قضى به الصالحون ، قال وهذا هو القضاء وهذا هو الصواب . ولما بعث الرسول معاذ بن جبل إلى اليمن قال : « بم تقضى إن عرض لك قضاء ؟ » - قال : أقضى بما في كتاب الله . قال : « فإن لم يكن في كتاب الله . قال : أقضى بما قضى به الرسول . قال : فإن لم يكن فيما قضى به الرسول . قال : أجتهد رأى ولا آلو . قال : فضرب صدرى وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله » .

وكان الشيخان يسألان أصحابهما إذا أراد أن يبتا برأيهما في أمر أشكل عليهما . وكتب عمر إلى قاضيه شريح : « أما بعد إذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتك عنه الرجال ، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ، فانظر سنة رسول الله فاقض بها ، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، فاختر أى الأمرين شئت ، إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تأخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيراً » اهـ . وأراد عمر قاضيه أن يترك أمداً للخصوم عليهم يتصالحون ، ومما أثر عنه قوله : « ردوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس » . ولعمر كتب كثيرة صدرت عنه في القضاء وغيره ، ومما أبقت الأيام كتابه إلى أبى موسى الأشعري ( عبد الله بن قيس ) وإليكه بنصه المعجب الذى لم تبل الأيام جدته : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب

(١) معارج الوصول لابن تيمية .

أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يئأس ضعيف من عدلك . البيتة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيت به بالأمس ، فراجعت فيه عقلت ، وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك بنظائرها . واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحلت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والإيمان . وإياك والغلق<sup>(١)</sup> والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شأنه الله ، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

وكتب إلى أبي عبيدة : « أما بعد فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً ، الزم خمس خلال يسلم لك دينك ، وتحظ بأفضل حظك . إذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول ، والأيمان القاطعة ، ثم أدن الضعيف حتى ينبسط لسانه ويجترئ قلبه ، وتعاهد الغريب فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته ، وانصرف إلى أهله ، وإذا الذي أبطل حقه من لم يرفع به رأساً ، واحرص على الصلح ما لم يتبين لك القضاء والسلام عليك » وكتب إلى معاوية وغيره بهذا المعنى .

(١) الغلق : ضيق الصدر .

فعمر هو الذى وضع أساس النُظُم الإسلامية فى القضاء ونهج طريقه ،  
وبقدر ما يحدث للناس من حوادث كانت تنفرع المسائل ، ولكنه « لم يوضع<sup>(١)</sup> »  
للتشريع أسلوب مقرر لا يجوز تعديه ، فترك لكل ناظر الخيار فى انتخاب  
أسلوبه ، فلذلك تخالفت أساليبهم إلى حد بعيد ، وأشد ما تكون تخالفاً بين  
أصحاب الرأى والقياس ، وكانوا يرون أن القياس أولى بالاتباع من الأحاديث  
التي رواها الآحاد ، ولم يصح عندهم من الأحاديث التي رواها جماعة أى  
المتواترة التي لا عذر لأحد فى الشك فيها إلا بضعة عشر حديثاً » ودم على  
ابن أبي طالب اختلاف العلماء<sup>(٢)</sup> فى الفتيا بقوله « ترد على أحدهم القضية  
فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره  
فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضية بذلك عند الإمام الذى استقضاهم  
فيصوب آراءهم جميعاً ، وإلهم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد » ،  
وقال فى صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل : « وإن أظلم  
عليه أمر اكنتم به لما يعلم من جهل نفسه ، تصرخ من جور قضائه الدماء ،  
وتعج المواريث » . « وانتشرت<sup>(٣)</sup> أحكام على وفتاويه ولكن الشيعة أفسدوا  
كثيراً من علمه بالكذب عليه ، ولهذا تجد أصحاب الحديث من أهل الصحيح  
لا يعتمدون من حديثه وفتاواه إلا ما كان من طريق أهل بيته ، وأصحاب  
عبد الله بن مسعود كعبيدة السلماني وشريح وأبي وائل ونحوهم » .

والواقع أن الصحابة كانوا يعملون « بمقتضى<sup>(٤)</sup> » ما يغلب على ظنونهم من  
المصلحة ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد ، فرجح  
كثير منهم القياس على النصوص حتى استحالت الشريعة وصار أصحاب القياس  
أصحاب شريعة جديدة « ( كذا ) وقد كان رسول الله يخالف فلا ينكر .  
ولا يرى بأساً فيما كان به مصلحة لله والملة ، فقد خالفه عمر فى أخذ الفداء

( ١ ) الإسلام دين عام خاله محمد فريد وجدى . ( ٢ ) نهج البلاغة جمع الشريف الرضى .

( ٣ ) إعلام المرقمين لابن قيم الجوزية . ( ٤ ) نهج البلاغة بشرح ابن أبي الحديد .

من أسارى بدر فرجع إلى تصويب رأيه ، وأراد الرسول أن يصالح الأحزاب على ثلث تمر المدينة ليرجعوا عنه فأتى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فخالفاه فرجع إلى قولها . وقال لأبي هريرة اخرج فناد في الناس : من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة ، فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك ، فدفعه في صدره حتى وقع على الأرض فقال : لا تقلها فإنك إن تقلها يتكلوا عليها ويدعوا العمل ، فأخبر أبو هريرة الرسول بذلك . فقال لا تقلها ودعهم يعملون . وأسقط الصحابة سهم ذوى القربى وسهم المؤلفة قلوبهم ، وعملوا حد الخمر اجتهداً ولم يجد الرسول شارب الخمر ، وقد شربها الجهم الغفير في زمانه بعد نزول آية التحريم .

يقول السرخسى إن « مرجع<sup>(١)</sup> الناس في أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا اشتبه عليهم أمر من الأمور رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة واستخاروا الله فيه ، واستظهروا باجتهادهم رأياً عملوا به ؛ وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبي وفتاوى الصحابة خشية أن يجرمهم ذلك إلى الاعتماد على الكتب ، وإهمال حفظ القرآن الكريم والسنة ، ولأن الكتاب عرضة للضياع وللتنحيف والتحريف » . ولما « تعددت المذاهب وكثرت الأقوال والفتاوى ، والرجوع فيها إلى الرجال والرؤساء ، ومات أكثر الصحابة ، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله فدونوا الحديث » .

وحفظت الفتوى<sup>(٢)</sup> من أصحاب الرسول عن مائة ونيف وثلاثين نفساً ما بين رجل وامرأة والمكثرون منهم سبعة ؛ عمر وعلى وابن مسعود وعائشة وزيد ابن ثابت وابن عباس وابن عمر . وكان الناس في عصر التابعين يكرهون الخوض بالرأى ويهابون الفتيا والاستنباط إلا لضرورة لا يجدون عنها بداً ، وكان أكبر همهم رواية الحديث . واختلفت مذاهب الأصحاب وأخذ عنهم التابعون كذلك كل واحد ما تيسر له ، فحفظ ما سمع من الحديث ومذاهب

(١) المبسوط للسرخسى . (٢) الفتوى في الإسلام لجمال القاسمى .

الصحابة وعقلها وجمع المختلف على ما تيسر له ، ورجح بعض الأقوال على بعض واضمحل في نظرهم بعض الأقوال ، فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حياله . والقول بمذهب الواحد من الناس ، واتخاذ قوله والحكاية له والتفقه على مذهبه ، لم يكن معهوداً للناس في القرنين الأول وصدر الثاني ، ثم حدث فيهم شيء من التخريج ولم يكن أهل المئة الرابعة مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله ، وكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهد ولا يسمى الفقيه إلا مجتهداً .

وكان الخلفاء الراشدون أئمة مهدين فقهاء في الأحكام<sup>(١)</sup> ، مستقلين بالفتاوى في الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا إليها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى ، وما تعلق بأمور الخلق في الدنيا ، فلما أفضت الخلافة إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحبهم في جميع أحوالهم ، لاستفتائهم في أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول ، مواظب على سميت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولى القضاء والحكومات ، وكانوا يستقضون أنفذ الناس وأعلمهم وأحلمهم . والذين كانوا يتدافعون الفتاوى ، ويتخرجون من تولى الأحكام الشرعية ، كان مرماهم أن يربأوا بدينهم عن أن يتورطوا في حكم لا ترضى عنه أنفسهم ، ويخافون مغيبته على الإسلام والمسلمين ، لما ورد عن الشارع الأعظم من الوعيد لمن جعل قاضياً ، وحكم بغير العدل ، وكانه القضاة لا يستغنون أن يجلس إليهم بعض العلماء يقومونهم إذا أخطأوا .

لما قدم مروان<sup>(٢)</sup> مصر سأل عن القاضي ف قيل هو عابس بن سعيد فدعاه . فقال : « أجمعت القرآن ؟ قال : لا . قال : فتفرض الفرائض ؟ قال : لا . قال : فتكتب بيدك ؟ قال : لا . قال : فبم تقضى ؟ قال : أقضى بما علمت ،

( ١ ) إحياء علوم الدين للغزالي . ( ١ ) الولاة والقضاة لأمكندي .

وأسأل عما جهلت . قال : أنت القاضي . « وكانت <sup>(١)</sup> القراءة والفقه والتفسير والحديث في أول الإسلام علما واحداً ، فجعلت تتميز على توالى الأيام . إلى أن أصبح كل علم مستقلاً عن أخيه . فلما استقل الفقه سمي أصحابه الفقهاء ، وكانوا قبلاً يسمون بالقراء ، تعظيماً لشأن القراءة التي كن يجهلها العرب في أول أمرهم » ولما تم تأثير الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعي التابعين في البلدان التي نزلوها « أتى بعد <sup>(٢)</sup> التابعين فقهاء الأمصار كأبي حنيفة ومالك وغيرهما ، فاتبع أهل كل مصر مذهب فقيهه في الأكثر ، ثم قضت أسباب بانتشار بعض المذاهب في غير أمصارها ، وبانقراض بعضها ، فلم يطل العمل بمذهب الثوري والبصري لفاة أتباعهما ، وبطل العمل بمذهب الأوزاعي بعد القرن الثاني ، وبمذهب أبي ثور بعد الثالث وابن جرير بعد الرابع كما انقرض غيرها من المذاهب ، إلا الظاهري فقد طالت أيامه وزاحم الأربعة ، بل جعله المقدسي في أحسن التقاسيم رابع المذاهب في زمنه أي في القرن الرابع بعد الحنبلي ، وذكر الحنبلي في أصحاب الحديث ، وعده ابن فرحون في الدباج الخامس من المذاهب المعمول بها في زمنه أي في القرن الثامن ، ثم درس بعد ذلك ولم يبق إلا الأربعة ، ومذاهب أخرى خاصة بطوائف من المسلمين لا يعدها جمهورهم من مذاهب أهل السنة » وتأصل مذهب مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة بسلطان تلاميذهم وأنصارهم ، وراح كل ملك يحرص على نشر مذهبه ، إذا مكن له في الأرض ، بادر الناس إلى الأخذ بمذهبه ، وحرصوا على اتباع ملكهم أو أميرهم حرصهم على اتباع إمامهم . يقول ابن حزم : إن مذهبين انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : الحنفي بالمشرق ، والمالكي بالمغرب .

والاختلاف بين أهل هذه المذاهب لا يتعدى الفروع ، أما الأصول فكل أهل القبلة متفقون عليها ويقول ابن القيم : إن الصحابة تنازعوا في كثير

(١) القضاء في الإسلام للكندي .

(٢) نظرة تاريخية في حدوث المذاهب وانتشارها لأحمد تيمور .

من الأحكام ولكن لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال أى المسائل التى تتعلق بالإيمان ، وصرح الذهبي<sup>(١)</sup> أن بعض الصحابة كفر بعضهم بتأويل ما ، والله يرضى عن الكل ويغفر لهم فاهم بمعصومين ، وإن الصحابة بساطهم مطوى وإن جرى ما جرى وإن غلطوا كما غلط غيرهم من الثقات ، فما كاد يسلم أحد من الغلط ، لكنه غلط نادر لا يضر أبداً ، إذ على عدالتهم وقبول ما نقلوه العمل ، وأما التابعون فيكاد يعلم فيهم من يكذب ولكن لهم غلط وأوهام ، وكان المسلمون كلمة واحدة في أبواب العدل<sup>(٢)</sup> والتوحيد والوعد والوعيد وفي سائر أصول الدين ، وإنما كانوا يختلفون في فروع الفقه كبراث الجد مع الإخوة ، والأخوات مع الأب ، والأم مع الأب ، وكمسائل العدل والكلالة والرد وتعصيب الأخوات من الأب والأم ، أو من الأب مع البنت أو بنت الابن ، وكاختلافهم في جر الولاء في مسألة الحرام ونحوها ، وأهل السنة والجماعة من فريقى الرأي والحديث وفقهاء هذين الفريقين وقراؤهم ومحدثوهم ، ومتكلمو أهل الحديث منهم ، كلهم متفقون على مقالة واحدة في توحيد الصانع ، وفي النبوة والإمامة ، وفي أحكام العقبي ، وفي سائر أصول الدين ، وإنما يختلفون في الحلال والحرام من فروع الأحكام .

ولقد خالف ابن عباس عمر وعلياً وزيد بن ثابت وكان أخذ عنهم ، وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة وإنما أخذوا العلم عنهم ، وخالف مالك كثيراً من أشياخه ، وخالف الشافعى وابن القاسم وأشهب مالكا في كثير من المسائل . قال ابن الأزرقي وكان مالك أكبر أساتيد الشافعى وقال لا أحد أمتن على من مالك كاد كل من أخذ العلم عنه يخالفه بعض تلامذته في عدة مسائل ، وماعد ذلك من سوء أدب التلميذ مع شيخه ولا من الخروج عن مراجعة الحق الذى توزعته عقول الناس ونال كل منهم قسطاً منه .

(١) خمس رسائل نادرة . (٢) الفرق بين الفرق لأبي منصور البخارى ..

والغالب أن العارفين كانوا حتى في القرن الثاني غير راضين عن هذا الاختلاف . ويرون وضع كتاب جامع يرجع إليه رجال القضاء وغيرهم ، تخفيفاً عن القضاة ، وتيسيراً للمتقاضين . وقد كتب ابن المقفع إلى الخليفة المنصور على الأرجح يقول له من (١) كتاب : « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصريين ( البصرة والكوفة ) وغيرهما من الأمصار والنواحي ، اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في السماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالخيرة ، وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحل في ناحية منها ، ويحرم في ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ في المسلمين في دمائهم وحرهم ، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لج بهم العجب بما في أيديهم ، والاستخفاف ممن سواهم ، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يشنع بها من سمع من ذوى الألباب .

« أما من يدعى لزوم السنة منهم ، فيجعل ما ليس له سنة سنة ، حتى يبلغ ذلك منه إلى أن يسفك الدم بغير بينة ، ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة ، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له أى دم سفك على هذه السنة التي تزعمون . قالوا : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وأما من يأخذ بالرأى فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأى منه لا يحتاج بكتاب ولا سنة ، فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه القضية والسير المختلفة ، فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتاج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ، ويعزم له عليه ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتاباً جامعاً ،

لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ، ورجونا أن يكون اجتماع السير قرينة لإجماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آثر الدهر إن شاء الله .

« فأما اختلاف الأحكام فيما شئء ماثور عن السلف غير مجمع عليه ، يدبره قوم على وجه ، ويدبره آخرون على وجه آخر ، فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق ، وأشبه الأمرين بالعدل ، وإما رأى أجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر ما يغلط في أصل المقايسة ، وابتداء أمر على غير مثاله ، وإما لطول ملازمته القياس ، فإن من أراد أن يلزم القياس ولا يفارقه أبداً في أمر الدين والحكم وقع في الورطات ، ومضى على الشبهات ، ونغمض على القبيح الذي يعرفه ويصره ، فأبى أن يتركه كراهة ترك القياس ، وإنما القياس دليل يستدل به على المحاسن ، فإذا ما كان يقود إليه حسناً معروفاً أخذ به ، وإذا قاد إلى القبيح المستنكر ترك ، لأن المبتغى ليس غير القياس يبغي ، ولكن محاسن الأمور ومعروفها ، وما ألحق الحق بأهله » .

والأرجح أن هذه الرسالة أثرت في المنصور فكانت له يد طولى في سبيل التدوين ، فحمل الفقهاء والمحدثين على تدوين ما وصل إليهم ، فأصبح للناس مراجع معتمدة يرجعون إليها ، وقلت الفوضى بعض الشيء ودخلت الأحكام في نظام . روى ابن سعد في الطبقات عن مالك بن أنس قال : لما حج المنصور قال لى : قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم . اهـ .

وعلى هذا لم توحد مذاهب البلاد ، ولو تم ذلك لاستراح الناس ، وحسروا الجهد في جهة معينة ، وقل الأخذ والرد وبطل انتصار كل واحد لمذهبه

وإمامه ، مما أدى إلى فتن سنم بها عما قريب . وآخر من وقعت إلينا سيرته من أصحاب السلطان الذين عرفوا مضار هذه الاختلافات ، والشرع واحد والأصل واحد ، الوزير ابن هبيرة من علماء الحنابلة . رأى هذا الاختلاف بين الفقهاء وقدر الضرر تقدير الإداري الحازم والحاكم العادل ، فصنف في وزارته كتاباً في مسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين ، وجمع عليه أئمة المذاهب وأوفدهم من البلدان إليه لأجله ، وحدث به ، وجمع الخلق العظيم لسماعه . وكتب به نسخة لخزانة المستنجد وبعث ملوك الأطراف ووزرائها وعلمائها فاستنسخوه ليقضوا به على فوضى المسائل الفقهية في بلادهم . وقيل إن الوزير ابن هبيرة أنفق على هذا مئة ألف واثني عشر ألف دينار ، وما أمكن التوحيد بين أهل التوحيد .

ولقد ثبتت مذاهب وانتشرت ، وتداعت أخرى وانقرضت ، وما كان ثبات الثابتة لشيء لم يكن في غيرها ، ولا انقرض المنقرضة لأنها غير صالحة للبقاء ، فالمصدر واحد والاجتهاد مختلف في بعض المسائل ، وما كان بروع المسلمين « الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى وجعلوا ذلك علماً خاصاً ، سموه علم الخلاف ، يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه ، وقالوا إن اختلاف الأئمة رحمة » قال الغزالي في المستصفى : أشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع ، واصطحب فيه الرأي والشرع ، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل ، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلماه الشرع بالقبول ، ولا هو مبنى على محض التقليد ، الذي لا يشهد له العمل بالتأييد والتشديد . ومن الأسباب في انقراض مذهب الأوزاعي والحسن البصري والثوري وابن جرير وغيرهم عدم التوسع في الفروع ، وإطالة المسائل ، كما كان عليه الإمام محمد وأبو يوسف وأمثالهما من أصحاب أبي حنيفة ، فإنهما دوناً من الكتب ككتب ظاهر الرواية وغيرها ما بقي إلى اليوم متداولاً في الأيدي ، ومسائل الأصول تسمى ظاهر الرواية ، وهي مسائل مروية عن أصحاب المذاهب ، وسميت بظاهر الرواية لأنها رويت

عن الأئمة بروايات الثقات ، فهى ثابتة عنهم ، إما متواترة أو مشهورة عنهم « وكذلك دون مالك والشافعى وابن حنبل أو من أخذ عنهم ، وجمع ما تفرق ، وفسر ما أبهم .

وما زال الأمر يتسع حتى نضج الفقه فى القرن الرابع ، وظل على نضجه مدة ثم أخذ فى الضعف لانحطاط العلماء ، بحيث أصبحوا غير قادرين على استخراج الأحكام بأنفسهم ، فقال بعض الفقهاء ومنهم ابن الهمام باغلاق باب الاجتهاد - « والاجتهاد<sup>(١)</sup> » بذل الجهد فى استنباط الحكم الشرعى مما اعتبره الشارع دليلا ، وهو كتاب الله وسنة نبيه - وبالأخذ « بالتقليد » وهو تلقى الأحكام من إمام معين واعتبار أقواله كأنها من الشارع نصوص يلزم المقلد اتباعها . ولما أوصدوا باب الاجتهاد حتى على من تمت أدوات العلم فيه حجروا على العقل « وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق » كما قال ابن قيم الجوزية وتكلم على الاجتهاد والتقليد وما أدخله المتأخرون من الخيل التى يتعالى أئمة المذاهب عن القول بها ، وهى مدسوسة لا محالة ، وذكر فصلا ممتعاً فى تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعادات مما وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه .

ونسوا أن من المسائل ما هو « سياسة جزئية بحسب المصلحة تختلف باختلاف الأزمنة » . « وأن الكتب العظيمة التى أبقاها عظماء المتقدمين صارت أثراً بعد عين ، وقصر الفقهاء همهم على الكتب التى كتبها أصحابها فى عصر التقهقر . وقد ضعفت سليقتهم العربية فتحول كلامهم إلى ما يشبه الألفاظ ، فكان المؤلف لم يكتب ليفهم بل ليجمع » ثم « إن كثرة<sup>(٢)</sup> الاختلاف بين المخرجين

( ١ ) تاريخ التشريع الإسلامى لمحمد الحضرى .

( ٢ ) أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظمى .

« والمرجحين ، حتى على المسألة الواحدة ، جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لأحد من الناس أن يتناول منه حكماً جازماً إلا بواسطة الفقهاء والمفتين ، وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض ، فيحلل أحدهم من طريق أحد المرشحين ما يحرمه الآخر من طريق غيره ، هذا بين علماء المذهب الواحد ، فما بالك بتعدد المذاهب أيضاً » وربما قصدوا بهذه الرموز لإبعاد الدخلاء في العلم حتى لا يكون العلم فوضى . ولأجل هذا أنشأ الأمويون في قرطبة في القرن الثالث دار شورى القضاء ثبت بين العلماء في تقرير الأحكام وقد خالفت الإمام مالكاً في عدة أحكام أخذت فيها بقول أبي قاسم .

وإن اقتصار الفقهاء المتأخرين على فقه من نقلوا عن إمامهم وحده ، دون إتقان الآداب العربية والتاريخ وتكوين البلدان والحديث والأصول والفلسفة ، زاد في ضعف ملكاتهم وأورثهم جهوداً ، وما كان في العهد الماضي يحرز الرجل لقب فقيه « إلا بالرحلة والتلقي من علماء الأمصار سوى علماء بلده يرحلون في تلقى الحديث والفقه ، وكانت مكة تجمعهم في الموسم فيستفيد كل من الآخر ما عنده من علم وحديث وفكر » . وأصبح العلم الديني في القرن التاسع ظاهر الضعف في بعض مظاهره ، ليس فيه إلا شرح كتاب للمتقدمين ، أو ذيل على شرح لأحد المشهورين ، أو جمع متفرق ، أو تليف مجتمعة ، أو اختصار مطول ، قلما تجد فيه أثراً للبحث أو للعقل ، وأصبح المبرزون من العلماء يعدون في كل قرن على أصابع اليد في بلاد الإسلام ، وحال رجال كل قرن أضعف ممن تقدموهم ، وفشت البدع والضلالات ولا من ينكر ، بل جاء من المتفقيين والمحدثين من شاركوا المتصوفين والخرفين . وقصارى رجال الدين تولى المناصب الدينية ينشدونها من أصحاب السلطان ، وكانوا في القرون الحالية لا يتطلب الخلفاء غير رضاهم .

« ولضيق عقول أكثر هذه الطبقة من المتفقهة على الناس قرروا<sup>(١)</sup> أن المتأخر

ليس له أن يقول بغير ما يقول به المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنهم لا ينظر لهم في الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمر الجماعة والدولة هو مما فرض النظر فيه على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم ، فهو متعرض لما لا يعنيه ، وإن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مال ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفي الموضوعات والضعاف ما شد أزركم في بث هذه الأوهام .

« هذا الجمود في أحكام الشريعة جبر إلى عسر حمل الناس على إهمالها : كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً ، سمحة تسع العالم بأسره . وهي اليوم تضيق عن أهلها حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها ، وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى إليها ، وأصبح الأتقياء من حماة يتخاصمون إلى سواها . صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، أفلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلاً لا يعد شيئاً إلى من لا يعرفها ، وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ، فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم ، بل أسقط احترامهم من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ، وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

وكانت البدع إذا ظهرت يحاربها قادة الإسلام بسلاح القرآن « يدحضون<sup>(١)</sup> الحجة بالحجة ، ويقرعون البدعة بالسنة ، إلى أن تمكن حب التقليد من النفوس ، وفل الاشتغال بالتفسير والحديث ، وأهل التاريخ فاختلف الحابل

(١) حالة المسلمين الاجتماعية لمحمد المهدي (مجلة المائدة ٤ م ٤) .

بالنابل ، بل راجت سوق الأحاديث الموضوعة ، وانتفخت بها بطون. التآليف ، لا سيما ما يتعلق منها بالزهد والرغائب ، والحث على القناعة باليسير ، والكفاف من الرزق ، وإماتة المطالب النفسية ، كحب المجد والرياسة والإقدام على عظام الأمور ، ودب إلى الأمة داء التواكل ، واسترسلت وراء الأوهام ، وعلق بالقلوب كثير من أدران الشرك « وأسدلوا بين الأمة وكتائبها سترًا من الأوهام ، وحرموها لذة النظر والتدبر ، فأصبح لا يتلى إلا في المآتم. وعلى المقابر ( تبركا ) يتأكل به أناس من الكسالى ، يتغنون به على قارعة الطرق وأبواب المساجد » .

« واقتسم هذا الدين فريقان : فريق اطمأنت نفسه إلى القديم فهو يريد أن يرجع بالناس القهقري ، يحمل أهل القرن الرابع عشر على أن يتخلقوا بأخلاق أهل القرون الوسطى ، ويحذوا حذوهم في أحكامهم وآرائهم ومدنيتهم ولا يتخطوها قيد شبر ، يكابرك في المحسوسات ، ويجادل في الحق ، وينكر سنة الله في خلقه أن لكل عصر طوراً من أطوار الحياة يأخذ قسطه من النمو والارتقاء ، بحسب استعداد أهل ذلك العصر . وفريق رأى من وعورة المسلك وصعوبة الفهم في كتب القوم ما يقطع نياط القلب ، دون الوصول إلى الغاية ، وإن كثيراً منها على تشته وتشيوشه ، لا ينطبق على مقتضيات العصر الحاضر ، ولا يأنف ومدنيته ، ففرطوا في أمر الدين ، وأهملوا مجد آبائهم ، وذهبوا يتلمسون الإصلاح من غيرها » .

ومن أعظم الطامات على العلم الديني أن يقضى أحد مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية بأن لا توجه الوظائف الدينية إلا على أبناء أربابها ، بمعنى أن يحصر خبز الأب في الابن ، ولولم يكن لهذا نصيب من العلم ، أو لو كان في القماط . كأن العلم يورثه صاحبه كالسكة والقدان ، والدار والزريرة والدكان قال « البيري من فقهاءهم : « يبقى أبناء الميت ولو كانوا صغاراً على وظائف آبائهم مطلقاً من إمامة وخطابة وغير ذلك لأن فيه إحياء خلف العلماء ومساعدتهم على بذل الجهد في الاشتغال بالعلم ، وقد أفتى بجواز ذلك طائفة من أكابر

الفضلاء الذين يعول على إفتائهم . فقلت بذلك الرغبات في الدرس لأن الطالب لا أمل له مهما استعد أن يعيش من علمه ، وما هلك جيل أو جيلان حتى انحصرت الوظائف الدينية في أيدي الجهلة إلا قليلا ، ودخلت في حظيرة العلم الديني عناصر جاهلة ، عبثت بالدين ، وكانت عاراً على قومها في الدنيا . بل أصبحت المناصب الدينية خاصة في كثير من المدن ببعض الأسر لا تتعدها احتكروها دون سائر الناس ، ومن تعلم من صنف العامة أو التجار أو الزراع يكون نصيبه الحرمان . وكم من أمثال هذه الفتوى المميتة للعلم من الطامات على الإسلام خلت من العقل ، وجمدت بهؤلاء الأنعام هذه الشريعة المرنة ، وكلما تقدم الزمن عصت على الارتقاء وكانت سمحة .

طلب قوم من الروس إلى الدولة العثمانية أن يدينوا بالإسلام على أن يسمح لهم بتناول قليل من الخمر واستعمال لحم الخنزير ، فأفتى أحد مشايخ الإسلام ممن اشتهروا بعلمهم وورعهم ، بأن لا يسمح لهم بالإسلام مطلقاً على هذا الشرط ، فأضاع بهذا الجمود مئات الألوف من البشر كان الإسلام يقوى بهم ، ولو أدخلهم في الإسلام لما كانت روسيا بعد قرن أو قرنين تجد في بلادها من يقاتل جيوش الدولة العثمانية لمكان الدين الإسلامي من قومها ، ولو ذهب المفتي إلى أمر الحكام بأن لا يتعرضوا لشارب الخمر بحد أو غيره كان أهون عليه من بقائهم على غير الإسلام وعدم الانتفاع بهم .

ظهرت قهوة البن فأفتى الفقهاء بتحريمها ، فانفسح المجال لأرباب الجهالة من الحكام يقتلون من تعاطاها . وظهر الدخان فأفتى الفقهاء أيضاً بتحريمه . وقطعت بسببه رؤوس ألوف من الناس في الأرض العثمانية . وأرادت الدولة العثمانية أن تستعيض عن لبس « القاوق » على الرؤوس بلباس للرأس اختارت له « الطربوش » فحرم الفقهاء لبسه وقالوا إنه شعار الروم . وأحب الناس أن يلبسوا المعاطف والسراويلات الغربية فقال الفقهاء : إن هذا لباس الكفار ، وحرجوا على الناس في لبسه . وصحت عزيمة الدولة العثمانية على أن تقتبس الطباخة

فمنع الفقهاء بالطبع من طبع القرآن تكريماً له . وجرت في هذا المعنى أمور مضحكة حتى استطاعت الدولة أن تطبع القرآن والحديث وكتب الشريعة .

يحرمون كل ذلك بشده لأنه مدرجة التمدن ، والمدنية عندهم مدرجة إلى الانحلال ، إلى ما شاكل ذلك من الجهل الناشئ من الجمود على فرع واحد . هكذا كان فقهاء الترك في العهد الأخير ، وفقهاء العرب تبع لهم . لأن الزعامة العلمية الدينية كانت للترك ودعوى الخلافة فيهم ، حتى لقد أفتوا بحل دم الملك الذي تصدى للإصلاح على الطريقة الغربية ، وبالفعل أهلكوا غير واحد ممن قالوا بهذا القول المنكر ، ومثل هذه العقول لا يليق بها الاجتهاد ولا التقليد ، وهى فى الواقع ما استطاعت أن تطبق من الشريعة إلا ما جرى قبلها بقرون تنفيذه ، وتم بحكم العادة فى الناس . وما زالت الشريعة فى هبوط وضعف ، تنفذ بنفاذ بصيرة القائمين عليها فى الحملة ، وبجهل معظم رجال القضاء وفساد تربيتهم ولتلتطخهم بحمأة الرشاوى ، ارتفعت ثقة أوروبا من المحاكم الشرعية ، واقترحت على الدولة العثمانية والمصرية أن تنشأ محاكم نظامية منقولة قوانينها عن قوانين الغرب ( ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م ) ، وحصرت أعمال المحاكم الشرعية فى مسائل الأحوال الشخصية ومسائل قليلة غيرها ، ثم ألغت الدولة لجنة عهدت إليها تأليف كتاب جامع لأحكام الفقه سمته مجلة الأحكام العدلية ، فسهل على المتقاضين وعلى القضاء الرجوع إلى ما دون من مذهب أبى حنيفة ، وليتهم توسعوا فى هذا العمل ، ونادوا بإبطال كثير من كتب الفقه ، وفتاوى المتأخرين وأقضيتهم ، وتوسعوا فى الأخذ من مذاهب معتمدة وأغفلوا ما عداها مما لا يوافق روح العصر . وحاول خديو مصر إسماعيل أن يحمل علماء الأزهر فى عصره على تأليف كتاب فى الحقوق والعقوبات موافق للعصر سهل العبارة ، فرفضوا ذلك ظناً منهم أن هذه بدعة ، فاضطر إسماعيل إلى إنشاء المحاكم الأهلية واعتمد على قوانين فرنسا ، جارياً على مثال ما كان من ذلك فى البلاد العثمانية .

وهكذا قضى على الشرع بأيدي أهله لإيغالهم في تعسفهم ، ورضاهم بجهلهم ، وجمودهم جموداً جمدت معه العقول ، وخذت جذوة الإيمان واليقين وكان أهم باعث عليه إسناد المناصب الدينية إلى غير أهلها من حكام السوء ، ولو صحت عزائم الحكام على أن يختاروا الأطايب من القضاة لما آضت الحال إلى ما آضت إليه . وما خلا قرن من رجال كانوا جدّ كفاة في معرفة الشرع ، والبصر بما يصلح لكل زمان ومكان ، وكان من أثر الجهلاء أن انتقل الناس إلى عالم آخر في تفاضيتهم ، وضرب القانون الحديد الشريعة القديمة ضربة كادت تقضى عليها ، لولا أنها بقيت موقرة في النفوس ، على رغم عبث العابثين وجهل الجاهلين .

### علم الكلام وعلم الحديث :

دخل في الإسلام من أهل الأديان المعروفة قبله أناس لم تنزع من صدورهم تعاليمهم ومعتقداتهم ، ولاصقت نفوسهم من لوثات جاهلية وثنية ، ومنهم المانوية والديسانية والصابئة واليهود واليعاقبة والنساطرة فكان من الطبيعي أن يوردوا شياً على الإسلام في الخالق والمعاد وحشر الأرواح والقدر وغير ذلك من العضلات المعقدة التي كثر في كل عصر التفكير فيها . فأنبرى لهم أناس من العلماء يردون ما أوردوه على الدين من الشبهات ، ويتعرفون إلى معتقداتهم فيقاتلون أهواءهم بسلاح اتخذوه من نوع سلاحهم ، ويستعماون عقولهم في إحاض كل بدعة ، جامعين في حجاجهم بين المعقول والمنقول ؛ فكان من ذلك علم جديد أواخر المئة الأولى سموه علم الكلام ، وهو من العلوم التي تُعَلِّم وتُعَلِّم بالكلام ، فأطلق عليه هذا الاسم ثم خص به ولم يطلق على غيره . ومداره على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها ؛ وموضوعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المتقدمين . وقيل موضوعه الموجود من حيث هو موجود ، وعند المتأخرين موضوعه المعلوم من حيث ما يتعلق به من إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً .

يقول الغزالي<sup>(١)</sup> « إن علم الكلام ينظر في ذات الله وصفاته وأحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأئمة بعدهم والموت والحياة والقيامة والبعث والحساب وروية الله ، وأهل هذا العلم متمسكون أولاً بالأخبار والآيات ثم بالدلائل العقلية » وقالوا إن الأصول<sup>(٢)</sup> معرفة الباري تعالى بوحدانيته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبياناتهم وكل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول . ولما كان الدين منقسماً إلى معرفة وطاعة ، والمعرفة أصل ، والطاعة فرع ، كان أصولياً من تكلم في المعرفة والتوحيد ، وكان فروعياً من تكلم في الطاعة والشرعية ، والأصول هي موضوع علم الكلام ، والفروع هي موضوع علم الفقه . وقالوا إن كل ما هو معقول ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول ، وكل ما هو مضمون ويتوصل إليه بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع .

نشأ الكلام مع غيلان بن مروان الدمشقي ومعبد الجهنى من قدماء أئمة المعتزلة ، وإذا أطلق اسم علماء الكلام فالمراد بهم المعتزلة ، فأخذوا يدرأون عن الدين شبه الملحدين ، ممن كانت لهم عقائد مقررة وأساليب خاصة في الجدل ، ولما لم ترق طريقة علماء الكلام رجال الحديث والفقه ، وناهضوا من أخذوا أنفسهم بدفع الشبهات على الإسلام من المتكلمين ، أصبح هؤلاء بين فريقين فريق أهل دينهم ممن لم يحمدا الطريقة المتبعة في رد حجج الخصوم ودفع ما عساه يعلق بالأذهان من كتب اليونان وغيرهم التي شرع في نقلها إلى العربية ، والفريق المعادي الذي يتربص الدوائر بالإسلام ويحاول نقضه من أساسه ليمزق بذلك الشمل ، ويبحث<sup>(٣)</sup> الفرع والأصل ، وجمهور<sup>(٤)</sup> المؤمنين مقرون بحدوث العالم وتوحيد صانعه وقدمه وصفاته وعدله وحكمته ونقى التشبيه عنه وبنبوة محمد ورسالته إلى البشر كافة وبتأييد شريعته ، وبأن كل ما جاء به حق ، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة .

(١) الرسالة الدنية للغزالي .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني .

(٣) اجتهاد : قطع .

(٤) الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي .

سار المتكلمون في خطتهم التي رأوا بها الإبقاء على الإسلام ، وتابعهم على مذهبهم أناس من شأنهم أن يولعوا بالعلم مطلقاً ، وألفوا في هذا العلم تأليف كثيرة لم يصلنا منها غير نتف نقلها عنهم خصومهم ، أما ما كتبوه بأيديهم في عصر الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل فلم يكتب له البقاء والنشر ، لأن الحرية التي أطلقت لهم على عهد هؤلاء الخلفاء الخمسة سلبوها بعد ، ولا سيما على عهد ملوك الديلمة . وكان الفقهاء ورجال الحديث استأسدوا فقلبوا لعلماء الكلام ظهر المحن<sup>(١)</sup> وانتقل الحوار من اللسان إلى السيف والسنان ، واتفقت<sup>(٢)</sup> كلمة أهل الحديث على الوقوف أمام هذه الحركة الكلامية والجمهور منهم فنالوا منهم ما أرادوا ، وتنازعت الأمة عوامل مختلفة من المتفهمة والمتكلمة والمتفلسفة والمتصوفة ، وراجت أسواق التبديع والتكفير والتفسيق ، وكتبوا الكتب وشحنوها بالمطاعن والتقول بعضهم على بعض ، حتى أفتوا بمنع الصلاة<sup>(٣)</sup> خلف من يخوض في علم الكلام وإن تكلم بحق .

قال الشافعي : حكى في أصحاب الكلام أن يضربوا<sup>(٤)</sup> بالجريد ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام . وروى عنه أن رجلاً إذا أوصى بكتب العلم لشخص لا تدخل كتب الكلام في الوصية ، لأن الكلام ليس بعلم . وقال مالك : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، وقال أصحابه إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا . وقال أحمد بن حنبل لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل<sup>(٥)</sup> ، وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه ، بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألسنت تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ، ألسنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكير في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك

( ١ ) المحن والمحنة بكسرهما : الترس وقلب فلان مجنه أى أسقط الحياء وفعل ما شاء وملك أمره واستبد به .

( ٢ ) قاريغ التشريع الإسلامى لمحمد الخضرى . ( ٣ ) دستور العلماء لأحمد فكرى .

( ٤ ) الجريد : قضبان النخل المجردة من خوصها أى ورقها الواحدة جريدة .

( ٥ ) الدغل : الفساد والريهة .

إلى الرأى والبحث . وروى عنه أنه قال علماء الكلام زنادقة . وقال أبو يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق . وسواء صح أم لم يصح ما روى عن أئمة المذاهب في تقييح رأى المتكلمين ، فالثابت أن رجال الحديث كانوا غير راضين عنهم ، ووسع مدى الخلاف بين الفقهاء والمحدثين وبين المتكلمين من جاءوا بعد من التلاميذ والأنصار فزادوا في إضرار نار الخلاف « وكثرت النحل وتقطعت العصم »<sup>(١)</sup> وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضاً .

هذا إجمال ما يقال في نشأة الكلام والقضاء عليه وعلى أهله بأيدي أهل الإسلام . أما الحديث فهو علم بأصول يعرف بها أحوال حديث الرسول من صحة النقل عنه وضعفه ، وطرق التحمل والأداء . وفي اصطلاح المحدثين قول النبي وفعله وتقريره وصفته حتى الحركات والسكنات في اليقظة والنمائم ويرادفه السنة عند الأكثر ، ولقد كثرت الأحاديث المروية والمتكررات منه ، ودخلها الشوب<sup>(٢)</sup> من وجوه ثلاثه<sup>(٣)</sup> منها الزنادقة واجتياهم<sup>(٤)</sup> على الإسلام وتهجينه ، بدس الأحاديث المستشعنة والمستحيلة ، ومنها القصاص على قديم الزمان ، فإنهم ما كانوا يميلون وجوه العوام إليهم ، ويستندون ما عندهم إلا بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث ، ومنها أخبار متقدمة كان الناس في الجاهلية يرونها تشبه أحاديث خرافة . وغلا الوضاعون في الحديث فنهم من وضع أحاديث لتقوية المنازع السياسة تلمح فيها لأول نظرة أثر الوضع والكذب ، ومنها أحاديث في فضائل بعض الصحابة . « وإن أصل<sup>(٥)</sup> الكذب في حديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقة في صاحبهم » اضطرتته في حياته إلى أن ضرب على أيدي من جاهر منهم بالغلو فيه . ووضعوا أحاديث في فضائل بعض البلدان وفي تفضيل بعض القبائل على بعض .

( ١ ) العصم جمع عصمة : أى ما يمنع من الضياع والحاجة . ( ٢ ) الشوب : الخلط .

( ٣ ) ذيل مختلف الحديث لابن قتيبة . ( ٤ ) اجتالد القوم : حولهم عن قصدهم واستجالتهم الشياطين صرقتهم عن أهوائهم إلى ضلالتهم وأخذتهم بأن يحولوا معها واختارتها لأنفسهم .

( ٥ ) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

بل بلغت بهم السخافة أن وضعوا أحاديث في الطعام ، ووضع عبد الكريم بن أبي<sup>(١)</sup> العوجاء الذي ضربت عنقه على الوضع أربعة آلاف حديث يحرم فيها ويحلل ، ومنها ما هو في التشبيه والتعطيل ، وفي بعضها تغيير أحكام الشريعة . ووضع الوضعاءون أحاديث في المرجئة<sup>(٢)</sup> والجهمية والقدرية والأشعرية ووصف ما يكون بعد الثلاثين ومائة ، والستين ومائة وظهور الآيات بعد المائتين . وفي مدح بعض قبائل العرب وفضائل أبي بكر وعلى ووضعت الرافضة في فضله ثلاثمائة ألف حديث إلى غير ذلك مما رده نقاد الحديث . ومنهم من وضع أحاديث في الترغيب والترهيب لا يقبلها العقل ، ولا خطرت ببال الرسول وأصحابه وكبار التابعين ، ذلك لأن ما كان من أصل<sup>(٣)</sup> هندي أو يوناني أو فارسي أو من شروح التوراة أو الإنجيل لا يؤبه له ، فصبغها أصحابها بصبغة دينية ليقبل عليها الناس ، وما وجد أولئك الوضعاءون إلا الحديث فدخلوا منه على الناس ، وكان من ذلك أن ترى في الحديث الحكم الفقهي المصنوع والحكمة الهندية والفلسفة الزرادشتية والمواعظ الإسرائيلية أو النصرانية . ١ هـ .

والذي زاد في تبلبل الأحاديث كونها لم تدون إلا أواخر المائة الأولى . ذلك لأن الرسول كان ينهى عن تدوينها لئلا تختلط بالقرآن ، وكذلك كان من أصحابه بعده ، وفي صحيح مسلم أن النبي قال : « لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحاه » . وفي كتب السير أن الرسول دعا اليهود فحدثوه حتى كذبوا على عيسى فصعد النبي المنبر فخطب الناس وقال :

( ١ ) قال ابن الجوزي : الوضعاءون كثيرون ومن كبارهم وهب بن وهب القاسمي ومحمد بن السائب الكلبي ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب وأبو داود النخعي وإسحاق بن نجيع المملطي وعباس بن إبراهيم النخعي والمغيرة بن شعبة الكوفي وأحمد بن عبد الله الجويباري ومأمون بن أبي أحمد الهروي ومحمد بن عكاشة الكرماني ومحمد بن القاسم الطائيكاني ومحمد بن زياد الليثكري . وقال النسائي الوضعاءون المعروفون بوضع الحديث أربعة ابن يحيى بالمدينة والوافدي ببغداد ومقاتل بخراسان ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام .

( ٢ ) المنقح عن الحفظ والكتاب لابن بدر الموصل . ( ٣ ) فجر الإسلام لأحمد أمين .

« إن الحديث سيمشّر عني فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو عني ، وما أتاكم عني يخالف القرآن فليس مني » ثم قال العلماء<sup>(١)</sup> بإباحة كتابة الحديث لمن خشى عليه النسيان ، ونهى عن الكتابة عنه من وثق بحفظه ، مخافة الاتكال على الكتاب ، أو نهى عن كتابة ذلك حين خاف عليهم اختلاف ذلك بصحف القرآن ، وأذن في كتابته حين أمن ذلك ، ولولا تدوينه في الكتب للدرس في الأعصر الآخرة . ويقول ابن تيمية<sup>(٢)</sup> إن الدواوين المشهورة في السنن إنما جمعت بعد انقراض الأئمة المتشوعين ، ومع هذا فلا يجوز أن يدعى انحصار الحديث في دواوين معينة . ثم لو فرض انحصار حديث رسول الله ، فليس حل ما في الكتب بعلمه العالم ، ولا يكاد ذلك يحصل لأحد ، بل قد يكون عند الرجل الدواوين الكثيرة وهو لا يحيط بما فيها ، بل إن الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين أسلم بالسنة من المتأخرين بكثير ، لأن كثيراً مما بلغهم وصح عنه لم يدركوا إلا عن مجهول أو بإسناد منقطع أولاً بلعن بالكلية ، فكانت دواوينهم مملوكة من التي تحوي أضعاف ما في الدواوين . اهـ .

ونقلت أحاديث بالمعنى لا باللفظ ، وما كان الناقلون نعتاً واحداً في أحكام منكرة الديان ، ذلك لأن منهم الموالى والأعاجم البعيدين عن السليقة العربية فحاء في بعضها ما يستحيل أن يصدر من لسان أفصح الناطقين بالفساد ولقد قال ابن قتيبة<sup>(٣)</sup> « إن من المحدثين من يرون كل سخافة تبعث على الإسلام انقطاعين ، وتضحك منه الملحدون . وتزهد من الدخول فيه المرتادين ، وتزيد في شكوك المرتابين » قال ولا أعلم أحداً من أهل العلم والأدب إلا وقد أسقط<sup>(٤)</sup> في علمه كالأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة وسيبويه والأخفش والكسائي والقراء وأبي عمرو الشيباني ، وكالأئمة من قراء القرآن والأئمة من المفسرين ، وقد أخذ الناس على الشعراء في الجاهلية والإسلام الخطأ في المعاني وفي الإعراب

( ١ ) علوم الحديث لابن الصلاح . ( ٢ ) رفع اللام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية .

( ٣ ) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . ( ٤ ) أسقط : أخطأ .

وهم أهل اللغة وبهم يقع الاحتجاج ، فهل أصحاب الحديث في سقطهم إلا كصنف من الناس ، على أنا لا نخلى أكثرهم من العذل في كتبنا تركهم الاشتغال بعلم ما قد كتبوا والتفقه بما جمعوا ، وتهافتهم على طلب الحديث من عشرة أوجه وعشرين وجهاً ، وقد كان في الوجه الواحد الصحيح والوجهين مقنعاً هـ . وذكروا أن صحيح البخارى وهو من أصح كتبهم المحررة اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة والأسانيد عليها مختلفة في كل باب . على أن مسألة تدوين الحديث لم تقف عند عبث العابثين من الزنادقة وغيرهم بل قبض الله لها رجالاً كيحيى بن معين وأمثاله ، محصوا الرجال العدول من غيرهم ، وأسسوا علم الحديث المبني على معرفة الصحيح منه والحسن والمتواتر ، وبيّنوا الضعيف والموضوع ، وألفوا في طبقات الرجال ما عرف به الثقات ، وعندها ميزوا الصحاح من الضعاف وغيرها .

رئيس من الغلو أن يدعى أن علماء الملة لم يعانون علماً من العلوم كما عانوا علم الحديث ، وما دون من الكتب أكثر من كتب الحديث وما يلزم له ، وخدم الحديث علم التاريخ كثيراً لأنه يتوقف على معرفة الرجال وطبقاتهم ومواطنهم ، وخدم علم الاجتماع لأن المحدثين كانوا يرحلون إلى أقصى المشرق والمغرب في طلب حديث واحد ، يسمعون من راويه إما لعلو إسناده أو لثقتهم بالرواية ، فنشأت من تدوين الحديث وتنقل رواته في الأمصار طريقة في التهذيب ، فكان المحدثون يجتمعون يأخذ بعضهم عن بعض في جملة ما يأخذون من الحديث آراء ومنازع ونقداً وأسلوباً ، كلها أورثت وحدة فكرية بين الأقطار الإسلامية ، وكان اجتماع العلماء في الموسم من أكبر المعونات على رواية الحديث ، يجتمع ابن خراسان وابن الأندلس وابن بخارى وابن إفريقية . ومن رجع إلى طبقات الأندلسيين ككتاب الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتبس للضبي ، والمعجم لابن الأبار وتكملة الصلة له ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، ونفع الطيب للمقرئ وغيره — من رجع إلى مثل هذه الكتب وقرأ

تراجم المترجم لهم عرف عناية أهل الشرق والغرب من علماء الإسلام بالرحاة في طلب الحديث ، وولع العلماء بالأخذ بعضهم عن بعض وتبادل العلم .

ولقد احتاج الحديث أيضاً لما جعلوا لتصحيحه من شروط وقيود إلى أن لا تنسى الأمة ماضيها ، وكان على المحدث أن يكون له حظ وافر من أخبار الناس وأنسابهم وتقويم بلادهم ، كما كان الواجب أن يكون له قسط من علوم العربية . وإدمان تلاوة الأحاديث واستظهارها أيضاً من أساليب تقوية ملكة العربية وتمارين الحافظة على الحفظ والذاكرة على التذكر . وقد رأينا في القرون الأولى من رجال الحديث جماعة وضعوا التواريخ المعتبرة على أسلوب المحدثين بالرواية وتصحيح السند . والسند<sup>(١)</sup> عند علماء الإسلام شرط في العمل بما في الكتب والاحتجاج بها . والسند أن يعطى المصنف كتابه إلى آخر ويقول له أذنت لك أن تروى عنى هذا الكتاب ويعطيه الذى أخذه عن المصنف إلى آخر بهذا الشرط ، وهكذا نسبة كل علم ، ولا يكون الكتاب معتبراً إذا عدم هذا السند ، ولو ضم شتات العلوم الكثيرة . ولا يصح نسبة ما في الكتاب إلى من نسب إليه الكتاب إلا بشرط السند . وهذا شيء خص به علماء الإسلام وشريعته .

وانقرض المحدثون في القرن السابع أو كادوا وصار أهلهم « شردمة قليلة العدد ضعيفة العدد لا تغنى على الأغلب في تحمله بأكثر من سماعه غفلاً ، ولا تعنى في تقييده بأكثر من كتابته عطلاً<sup>(٢)</sup> » وعلى كثرة عناية السلف من المحدثين واشتراطهم في المحدث أن يعرف المسانيد والعلل وأسماء الرجال والعلى والنازل وأن يحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون ويسمع الكتب الستة ومسند أحمد وسنن البيهقي ومعجم الطبراني ويضم إلى هذا القدر ألف جزء

( ١ ) ذكرى العاقل لعبد القادر الحسنى .

( ٢ ) علوم الحديث لابن الصلاح .

من الأجزاء الحديثة ويحفظ كتب الطبقات ويزيد على الشيوخ - مع كل هذه العناية وما ألفوه في المدلسين والضعفاء « لقبوهم <sup>(١)</sup> بالخشوية والناطقة والمجبرة وربما قالوا الجبرية وسموهم الغشاء والغثر . وهذه كلها أنباذ <sup>(٢)</sup> لم يأت بها خبر عن رسول الله » ومع أن المحدثين تحاموا كل ما هجم على الأحاديث من وضع وتصنيع واطرح المحققون منهم الغث وأثبتوا السمين في الحملة ، فقد وقع لهم لكثرة ما تناولته الأيدي المختلفة ما وقع في تفسير القرآن ، ونقل من كانوا من أصل يهودي أو نصراني ككعب الأخبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وابن جريج وأمثالهم أخباراً لا صحة لها وملاً المفسرون كتب التفسير بهذه المنقولات <sup>(٣)</sup> .

يقول الذهبي إن غالب المحدثين في زمانه أى في القرن الثامن لا يفهمون ، ولا هم في معرفة الحديث ولا في الدين به ، بل الصحيح والموضوع عندهم بنسبة ، وإنما همته في السماع على جهلة الشيوخ ، وتكثير العدد من الأجزاء والرواية لا يتأدبون بأداب الحديث ولا يستفيقون من سكرة السماع ، إلى أن قال فأى شيء ينفع السماع على جهلة المشايخ الذين ينامون والصبيان يلعبون ، والشبية يتحدثون ويمزحون ، وكثير منهم ينعسون ويكابرون ، والقارئ يصحف . وقال بعد أن ذكر من طلب الحديث منذ عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم : ثم تناقص هذا الشأن في المائة الرابعة بالنسبة إلى المائة الثالثة ولم يزل ينقص إلى اليوم ، فأفضل من في وقتنا اليوم من المحدثين على قلتهم نظير صغار من كان في ذلك الزمان على كثرتهم ، وكم من رجل مشهور بالفقه والرأى في الزمن القديم ، أفضل في الحديث من المتأخرين ، وكم من رجل من متكلمي القدماء أعرف بالآثر من مشيخة زماننا .

(١) مختلف تأويل الحديث لابن قتيبة .

(٢) الغشاء : الوسخ والغثر جمع أغثر : وهم سفلة الناس وأردأهم والأنباذ جمع نبز : وهو اللقب .

(٣) مقدمة ابن خلدون .

## علم التصوف :

رأى الجمهور من الصحابة الذين عاشروا الشارع الأعظم ورأوا قوله وعمله أن الواجب على المسلم أن يكون إلى الاعتدال حتى في العبادة وأن يعنى بأمر دنياه . ومن أجل هذا رأينا عمر بن الخطاب يمر برجل يصوم الدهر فيضربه بمخفقه أى بدرته التى يضرب بها ويقول : كل يا دهر كل يا دهر . ورأيناه يعس<sup>(١)</sup> المسجد بعد العشاء فلا يرى فيه أحداً إلا أخرجه وأمر الناس أن يتفرقوا . وشاهدنا على بن أبى طالب يكتب إلى أحد عماله « وخادع نفسك العبادة وارفق بها ولا تقهرها ، وخذ عفوها ونشاطها ، إلا ما كان مكتوباً عليك من القريضة فإنه لا بد من قضائها وتعاهدها عند محلها » وقال لمن لبس العباء<sup>(٢)</sup> وتخلّى عن الدنيا « ياعدو نفسه لقد استهام بك الخبيث ، أما رحمت أهلك وولدتك ، أنرى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ، أنت أهون على الله من ذلك » .

وبدا لأبى ذر الغفارى من كبار الصحابة ، وأحد أوعية العلم في الإسلام ، أن يأخذ بظاهر القرآن في قوله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . وذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته ، أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم ، فتأذى الأغنياء بما دعا إليه ، وكثرت سلاطة الفقراء عليهم ، فشكا معاوية بن أبى سفيان أبا ذر الغفارى إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان فتفاه إلى الربذة . ورأى أبى ذر أشبه بالآراء الاشتراكية ، لكنه منبعث من زهد كثير وتقوى جميلة ، إذا سار المسلمون على طريقهما ضعف سلطانهم في الأرض ، ومن ضعف سلطانه ضعفت مقدساته ومشخصاته لا محالة .

(١) عس : طاف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة .

(٢) العباء والجمع أعبئة : كساء مفعوج من قدام يلبس فوق الثياب .

وعد بعض الباحثين من المعاصرين حذيفة بن اليمان فاتح الري وهمدان والدينور في صف أبي ذر الغفاري في التصوف . وحذيفة بن اليمان هو الذي قال فيه عمر بن الخطاب - وقد قال لأصحابه أن يتمنوا ، فتمنوا ملء<sup>(١)</sup> البيت الذي كانوا فيه مالا وجواهر ينفقونها في سبيل الله - قال : لكني أتمنى رجالا مثل أبي عبيدة ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان .

ونشأ في القرن الأول رجال رهبانيون<sup>(٢)</sup> أتقياء عزفت نفوسهم عن بهرج الدنيا وزخرفها ، فانصرفوا إلى العبادة والزهادة ، لمزاج خاص بهم ، أو جبلة دفعتهم فتماشوا معها ، أو لسبب من الأسباب التي تعرض للبشر من إخفاق في طلب مجد أو مال أو وصال . ومنهم من فتن به الناس فاتبعوه لما رأوا من جميل تمسكه وحسن سمته ، وبعده عن سفساف أمور هذا العالم . وكان هذا الرعيل من أوائل المتصوفة في الإسلام . ويقول ابن تيمية : إن أول ظهور الصوفية كان في البصرة وأنهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري ، والمظنون أن التصوف جاء الإسلام من الآريين فقد كان في المجوس والبراهمة أيضاً زهاد ، وما خلت الأمم كلها من زهاد وعباد في كل العصور<sup>(٣)</sup>

ويرى ماسنيون<sup>(٤)</sup> أن الميل إلى حياة النسل كانت في كل بلد وفي كل عنصر فلم تنشب أن انتشرت في الإسلام في قرنيه الأولين ، وذكر الجاحظ وابن الجوزي أسماء أكثر من أربعين ناسكاً حقيقياً . وأن الاستعداد للتصوف ينشأ في العادة من ثورة باطنية تخامر القلوب ، فيثور صاحبها على المظالم

( ١ ) أسد الغابة لابن الأثير .

( ٢ ) رجل ربي ورباني مثاله أي متعبد وفي الروض الأنف : أن الرهبانيين الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره وقيل نسبوا إلى علم الرب والفقه فيما أنزله وزيدت الآف والنون لتفخيم الاسم .

( ٣ ) معلمة الإسلام ، مادة تصوف ومادة طرق .

الاجتماعية ولا يقف عند مقاومة غيره ، بل يبدأ بجهاد نفسه وإصلاح خطيئاته ، وذلك بنية سليمة في الباطن لابقى الله ثاباً منياً . على نحو ما تجل ذلك كل التجلي في الأمثال والمطهبة التي أثارت عين الحسن البصري ، وذكر أن الظهور في الإسلام ظهرت في القرن الثاني عشر من الميلاد .

كان الخطب في الشمس<sup>(١)</sup> بالدين ، والتمطع<sup>(٢)</sup> من العبادة ، والتناغم بالآخرة والتمناج الدنيا ، من السهل على المجتمع الإسلامي لو انحدر في أفراط معينهم ، ونكبه تعدي إلى العوام ، والعام في كل عصر ومصر لا يفرجون للحدثان ورياء ، ولا يهتدون إلا لما تزينه لهم ظواهر النسب والشراف ، وهم أقرب الطوائف إلى غلط الحسن ، والمغالطة في السماع والفتار . ولقد أطلق على من أدخلوا أنفسهم بهذه الطريقة تلك الصوفية والمنصوفة ، ومن علمهم اسم الصوف ، نسبة إلى الصوف الذي كانوا يلبسونه . أو إلى صوفه البنية ومعناها الحكمة ، أو إلى رجل يقال له صوفة كان في الجاهلية هو وأخوته ممن انقطعوا إلى الله ورموا الكعبة فمالوا لمن تشبه بهم الصوفي . وقال السهروردي إن سبب تسميتهم بالصوفية لبسهم الصوف . أو لأنهم كانوا من الانكسار كالخرقة المائقة والصوفة المرمية . أو لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل ، وأن الأول في اسمهم صفوة نسبة إلى الصفة ، وهي موضع منتطع من مسجد النبي مطلق عليه ، كان الأوفاض<sup>(٣)</sup> ، الأخلاط من الفقراء يأوون إليه على خلاف بين الباحثين في أصولهم . وقال ابن تيمية<sup>(٤)</sup> : كان السلف يسمون أهل الدين والعلم القراء فيدخل فيهم العلماء والنسك . ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء ، واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح وقد قيل إنه نسبة إلى صوفة الفقهاء ، وقيل إلى صوفة بن اد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفة ، وقيل

(١) الشمس ، الأمر ، تلبس به . (٢) تمطع في الآلام : تمصغ فيه وتمطع في عمله تهذق .

(٣) الأوفاض : الجماعة من الناس والأخذط .

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية .

إلى الصفا وقيل إلى الصفوة وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى ، وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقليل صني أو صفائي أو صفوي أو صني ولم يقل صوفي ، وصار أيضاً اسم الفقراء يعنى به أهل السلوك وهذا عرف حادث اهـ . ولأبي الفتح البستي :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف  
ولست أنحل هذا الاسم غير في صافي فصوفي حتى لقب الصوفي  
وقال المعري :

سوفية ما ارتضوا للصوف نسبتهم حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا  
وأشبه الظاهر<sup>(١)</sup> لنفسه :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهم وأهون بالحلول  
أقال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي  
ويقول الكلابذي في التعرف لمذهب أهل التصوف إن الصوفية سموها بهذا  
الاسم لقرب أو صافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة أسفارهم سمو سياحين ، ومن سياحتهم في  
البرارى وإيوائهم الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار شكفتيه  
والشكفت بلغتهم الغار والكهف ، وأهل الشام سموهم جوعية لأنهم إنما ينالون  
من الطعام قدر ما يقيم الصلب قال : ولما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة  
ولبسهم وزيمهم زى أهلها سموها صفية صوفية وقال : فقد اجتمعت هذه  
الأوصاف كلها ومعانى هذه الأسماء كلها فى أسامى القوم وألقابهم ، وصحت  
هذه العبارات وقربت هذه المآخذ ، وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة فى الظاهر  
فإن المعانى متفقة لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وإن  
أضيفت إلى الصف أو الصفة كانت صفية أو صفية ، ويجوز أن يكون تقديم  
الواو على الفاء فى لفظ الصوفية وزيادتها من لفظ الصفية والصفية إنما كانت من

( ١ ) رسالة ابن القارح فى رسائل البلغاء للمؤلف .

تداول الألسن ، وان جعل مأخذه من الصوف استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة ، وجمع المعاني كلها من التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عنها ، وترك الأوطان ولزوم الأسفار ، ومنع النفوس حظوظها وصفاء المعاملات وصفوة الأسرار إلخ .

قال : وممن نطق بعلومهم وعبر عن مواجيدهم ونشر مقاماتهم ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً بعد الصحابة رضوان الله عليهم على بن الحسين زين العابدين وابنه محمد بن علي الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق بعد علي والحسن والحسين رضي الله عنهم وأويس القرني والحسن بن أبي الحسن البصري وأبو حازم سلمة بن دينار المدني ومالك بن دينار وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض إلخ وممن نشر علوم الإشارة كتباً ورسائل الجنييد والثوري والحراز ويقال له لسان التصوف إلخ وممن صنف في المعاملات منهم أبو محمد عبد الله بن محمد وأبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكيان وعبد الله بن خبيق الأنطاكي والحارث بن أسد المحاسبي ويحيى بن معاذ الرازي وغيرهم وهم « الأعلام المذكورون المشهورون المشهود لهم بالفضل الذين جمعوا علم الموارث إلى علوم الاكتساب سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن وبذلك تشهد كتبهم ومصنفاتهم إلخ » .

وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة ١٥٠ هـ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ ، مثل كلاب وكليب وهاشم الأوقص وصالح بن عبد الجليل . وأول من تكلم على التصوف وعلوم الأحوال بكورة خراسان شفيق بن إبراهيم الزاهد أبو علي البلخي المتوفى سنة ١٥٣ هـ . وكان من كبار مشايخ خراسان وله لسان في التوكل . وكان أبو حمزة الصوفي أول من تكلم ببغداد في هذه المذاهب سنة ٢٦٩ من صفاء الذكر وجمع الهمة ، والمحبة والشوق ، والقرب والأنس .

وكان جابر بن حيان صاحب الكيمياء<sup>(١)</sup> متقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام كالحارث بن أسد المحاسبي وسهل ابن عبد الله التستري ، ونظرائهم . وظهر المتصوفة في الإسكندرية<sup>(٢)</sup> في مستهل القرن الثالث يأمرؤن بالمعروف ويعارضون السلطان في أمره وكانت كلمتهم نافذة .

عرف الغزالي<sup>(٣)</sup> التصوف بأنه « علم خاص بطريقة واضحة مجموعة من العلمين الشرعي والعقلي » وعلمهم يشتمل على الحال والوقت والسماع والوجد والشوق والسكر والضحو والإثبات والحو والفقر والغنى ، والولاية والإرادة ، والشيخ والمريد ، وما يتعلق بأحوالهم مع الزوائد والأوصاف والمقامات » ويفهم منه أنه علم لدني يتم من لدن المولى ويكون بالذوق والرياضة وليس هو بعلم كسبي يتكون بالدرس والنظر . وذكر الأشعري<sup>(٤)</sup> من أهل المائة الرابعة أن من النساك الصوفية من يقول بالحلول ، وأن البارئ يحل في الأشخاص وأنه جائز أن ينحل في إنسان وسبع وغير ذلك من الأشخاص . وأصحاب هذه المقالة إذا رأوا شيئاً يستحسنونه قالوا : لا ندرى لعل الله حال فيه ، ومالوا إلى اطراح الشرائع وزعموا أن الإنسان ليس عليه فرض ولا يلزمه عبادة إذا وصل إلى معبوده اه . وكان كل من تنسك في ذلك الزمان سمي دورقياً نسبة إلى لبس القلانس التي تسمى الدورقية<sup>(٥)</sup> ويلبس أكثرهم المرقعات .

وفي الحق إن سيرة من شغفوا حباً بهذا الضرب من الأخلاق والعادات الذي سمي بالتصوف بعد ، كانت في الصدر الأول مما يغبط عليه صاحبه ، ويشرفه بين الأنام . وما أثر من كلماتهم أو لا ثم من بعض مدوناتهم آخرها لو تم

(١) طبقات الحكماء للقفطي .

(٢) قضاة مصر للكندي .

(٣) الرسالة الدنية للغزالي (مخطوطة) .

(٤) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري .

(٥) تاريخ بغداد لابن الخطيب .

له نقل إلى لغات العلم الحديث اليوم : لما حوت من الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، لما خجل منها مسلم منور ، وربما عدها بعضهم مفخرة من مفاخر الملة . بيد أن هذا العمل الصالح الذي كان يقصد منه تخفيف شره التكالب على حطام الدنيا بإصلاح أهلها ، أصبح في القرون التالية آلة من آلات التفريق بين أجزاء الأمة ، وملهاة يتلهى بها العامة ومن في حكمهم من الناس ، صدمتهم على الجلال في ميدان الحياة . وخرجت من هذا المجموع الغض عناصر حيوية لو حسن استخدامها في المصالح ، لما ترتب عليها بعد ذلك أمور غريبة ، كالمواجيد والأذواق والشطح والكشف والأحلام . ولما أدت إلى اعتقاد الحلول ووحدانية الوجود ثم إلى الإباحة ، والتجرد من كل قيد . والدين لا يقر كثيراً مما يتوهم<sup>(١)</sup> به بعض أدعياء التصوف أو أرباب الطرق من الأذكار والأوراد المصطلح عليها والتبتل والسماع والرقص ورفع الأعلام وضرب الطبول وإظهار الكرامات التي يزعمون ، مثل مسك الثعابين والحيات ودخول النار وأكلها وبلع قطع الحديد والزجاج والآنية ، واستعمال السلاح لضرب البطون وإدخال المدى والأدوات الجارحة في الأفواه والحلوق ، أضف إلى ذلك ما يأخذون أنفسهم به من التوكل وترك السعى والعمل للمعاش ، والناسهل بالفروض والواجبات ، وإجهاد النفس في الترييض والتقشف إلى غير ذلك من الحالات التي أنكرها حجة الإسلام في كتابه إحياء علوم الدين إنكار بعض العلماء وقوع الكرامات من الأولياء .

قال الشاطبي<sup>(٢)</sup> : وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء يزعمون أنهم سلكوا طريق الصوفية فيجتمعون في بعض الليالي ويأخذون في الذكر الجهوري على صوت واحد ثم في الغناء والرقص إلى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء يرتسمون برسم الشيوخ الهداة إلى سلوك ذلك الطريق ، هل هذا العمل صحيح في الشرع أم لا ؟ فوقع الجواب بأن ذلك كله من البدع المحدثات المخالفة لطريقة رسول الله وطريقة أصحابه والتابعين لهم بإحسان فنفى الله بذلك

( ١ ) مبحث في التصوف - المؤلف المقتطف م ٢٨ . ( ٢ ) الاعتصام للشاطبي .

من شاء من خلقه . ثم إن الجواب وصل إلى بعض البلدان فقامت القيامة على القائلين بتلك البدع وخافوا اندراس طريقتهم وانقطاع أكلهم بها فأرادوا الانتصار لأنفسهم بعد أن راموا ذلك بالانتساب إلى شيوخ الصوفية الذين ثبتت فضيلتهم ، واشتهرت في الانقطاع إلى الله والعمل بالسنة طريقتهم ، فلم يستقر لهم الاستدلال بكونهم على ضد ما كان عليه القوم ، فإنهم كانوا بنوا نجاتهم على ثلاثة أصول : الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام في الأخلاق والأفعال ، وأكل الحلال ، وإخلاص النية في جميع الأعمال ، وهؤلاء قد خالفوهم في هذه الأصول ، فلا يمكنهم الدخول تحت ترجمتهم . ١٥ .

وقال : إن هؤلاء أي أصحاب الطرق المحدثه لم يشسوا من أوصاف الفضلاء رائحة فأخذوا بالنسبه بهم فأبرز لهم هواهم التشبه بالخوارج ، وباليتم وقفوا عند هذا الحد المذموم ولكن زادوا على ذلك الرقص والتمر والدوران والضرب على الصلور وبعضهم يضرب على رأسه وأشبه ذلك من العمل المضحك للحمقى لكونه من أعمال الصبيان والمجانين ، المبكى للعقلاء رحمة لهم ، إذ لم يُتخذ مثل هذا طريقاً إلى الله وتشبهاً بالصالحين . ويقول ابن الجوزي<sup>(١)</sup> تأملت أحوال الصوفية والزهاد فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة بين جهل بالشرع وابتداع بالرأى ، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها وبأحاديث لها أسباب وجمهورها لا يثبت الخ .

وما كان المتصوفون الأوائل يعرفون مصطلحات المتأخرين من المتصوفين ، لأنها من اختراعات المحدثين منهم ، مزجت بشيء من الزندقة والفلسفة اليونانية فخرجت بها الشريعة عن سدايتها ويسرها . وكان الاعتقاد السليم مهمازاً للمؤمنين يحفزهم إلى العمل لما كانت الشريعة خالية من تأويلات تأباها نصوصها ولا تنطبق على رءسها . وغلا القوم في هذا المعنى حتى خرجوا في بعض أوضاعهم ومعتقداتهم عن كنه الشريعة السمحة على ما حقق المحققون في كل عصر ، ومن أهمهم في القرن السادس أبو الفرج بن الجوزي فقد

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي .

ذكر في كتابه « تلبس إبليس » ما جناه علم التصوف . ومن انتحلوه على الإسلام والمسلمين ، ومن أهمهم في القرن الثامن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، فقد حملت كتبهما فصولا كثيرة في نقد حال من افتاتوا على الشرع وعبثوا بهائه .

ومن الغريب أن المتلبسين باسم التصوف على مخالفتهم الظاهرة للشرع ، كادوا يسلمون من اضطهاد الدول ، ولم يذكر سوى مرات قليلة أن أخذوا بما اجتروا أو عوقبوا على زندقته ، ومن يدعون الانتساب إلى التصوف في البلاد التي لم يبق منها في العهد الأخير من الإسلام إلا رسومه . أناس جاءت أعمالهم محض لإباحة يقضون عامة شهوات النفوس بما لا يسوه من العادات ، وتلبسوا به من الأوضاع . ومن هذه الجمعيات الدينية أو الطرق ما هو أشبه بمجالس عهر وفجور منه بمجالس ذكر وعبادة ، فيه أطرب الأصوات وأمتع الموسيقى وأجمل الوجوه وألطف الرقص وأغرى الأشعار الغرامية ، ولطالما كان من بعض أهل هذه الطرق مطية لرجال السياسة يستخدمونهم في فتنة العامة . ليوطدوا لهم أسباب الملك والغلبة . أما هؤلاء المتصوفة أو المتعبدة أو المتفكرة أو المتزهدة فإنهم لا يتخرجون من مناصرة كل قائم رجاء الخطوة لديه ، وهوي بالغ في إغداق حسناته عليهم يتمتعون بها من دون الناس .

كان من التصوف إفراط في إطراح الدنيا أولا ، ثم تفریط أدى إلى اتخاذ ذريعة لكل رغبة ، لم يقف المتحاون له عند مناهى الشرع ، اللهم إلا ما راعوا فيه الظواهر من عبادات دخلت في حكم العادات . وكثر عدد هذه الطرق في العالم الإسلامي حتى ما تكاد تعد ، وأصبحت الطرق إلى الله تعالى كما قال لسان الدين ابن الخطيب على عدد أنفاس الخلائق ، يدخل في غمارها كل من ترغب نفسه في الكسل ، وتحدثه بالدجل ، وسماع الغرائب وإسماعها ، فينغمس فيها بقدر استعداده . ويقرب مجموع المتألفين في إحدى الطرق من الدين أو يبعدون من تعاليمه بحسب علم الشيخ الملقن وعقل مريديه ؛

وأكثر الملقنين المتأخرين أشبه بالعامية يمتازون بشيء من الجريزة والدهاء<sup>(١)</sup> . وقد يكون لهذه الطبقة من القبول في القلوب أكثر مما لو كانت على شيء من العلم .

وما برح منذ القديم يلتف حول أدعياء التصوف أناس من عُمَّار بيوت البطالة والجهالة . وفي أفرادهم من لو حلت تراكيب عقولهم لما رأيتها إلا مائلة عن الاعتدال . بيد أن هذه الفئات التي كانت وطأنها أشد ما تكون في القرون الثلاثة الأخيرة حتى ما يكاد يخلو من انتحالها من كان يظن أنهم استناروا بقبس من نور العلم . عادت مؤخراً فتحولت في عالم الكون والفساد ، وثاب أشد المتحمسين لها إلى رشدهم في الجملة ، وزهد الناس في تصوفهم هذا ، اللهم إلا أناساً ممن لا تميل فطرتهم إلى النشاط في العمل ، أو من كان تحصيل الرزق في أرجائهم هيناً ليناً ، ويرون من حكوماتهم معاضدة ضمنية بالسكوت عنهم ، بحجة حرية المعتقدات ، وكأننا بتلك المعتقدات المدخولة وصبيان المكاتب يردونها ، وكانت من قبل تمتلك قلوب طوائف من الناس ، هم بحسب العرف عليّة كل بلد .

يقول مارتان هارتمان من علماء المشرقيات الألمان : إن الطرق الدينية في الإسلام تختلف عن الطرق الدينية في النصرانية لأن لها تأثيراً سيئاً . وإن ما يظهر من أمرها يفسد الدين ويقلل من اعتباره ، فأهل الطرق البكتاشية والملامتية والمولوية والنقشبندية والقادرية على اختلاف أسمائهم هم خطر على الأمة مهما كانت مكانتهم . ويقول بعض كبار رجال الطرق المنتشرة في إفريقية : إن الطرق أداة من أدوات التهذيب الديني يعاد بواسطتها إلى حظيرة الدين كل من انسلخوا منه أو كادوا ، وأن مظاهر تلك الطرق تستميل قلوب العامة . والواقع أن من الطرق في إفريقية ما نفع في هداية العامة خصوصاً ما كان منها يحث المتلبسين بها على العمل . ومن الطرق ما وقفت عثرة في حلق المبشرين بالأديان الأخرى .

(١) الجريز : كقنط الحب الحبيث والجريزة مصدر .

وبعد فقد وقف بعض رجال الشريعة موقف المخاصم للمتصوفة لخروج بعضهم على قواعد الملة ، ولأنهم حرفوا ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية في التأويلات ، مما توصلوا به إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم « فأصبح كل ما ارتضاه الساف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع محدث » كما قال الغزالي . وتخاف الأمة بما يخالف دينها وعاداتها ، مضرباً بها وبمن يتولى أمرها ، وقد تنحط بذلك إلى أدنى دركات الفساد ، ويكثر فيها المكر والخديعة والكذب والإباحة والظلم على ما قال العارفون .

هذا هو التصوف في أصله وما انتهى إليه حاله عند المتأخرين ممن لا يفقهون معناه ، وإذا دخل فيه زيف<sup>(١)</sup> كثير فقد دخل أيضاً على علماء الظاهر خلل غير قليل ، وما دام هذا العلم منبعثاً عن أمور روحية تحتاج إلى ذوق لا يؤخذ أرباب الأصول منه بما فعل أرباب الفروع ممن لم يتذوقوا هذا الفن ، وجعلوه آلة يتصرفون بها على أهوائهم ، ويتكسبون به وما يحتقون<sup>(٢)</sup> إلا ضعف العقول والتأكل بالفضول .

( ١ ) يقال درهم زيف للذي دخله غش .

( ٢ ) احتقبه الإثم جمعه .

### الفلسفة في الإسلام :

بينما كان رجال الدين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمتصوفين يتباحثون ويتناقشون وينحى بعضهم على بعض ، كانت تترجم منذ عصر المنصور كتب الحكمة والفلسفة بهمة غربية ، وما مضى القرن الثالث حتى كان العرب ترجموا كتب السريان واليونان والهند وفارس ، فدرسها بعض علماء المسلمين والعرب وأخذوا في شرحها والتعليق عليها وإظهار غوامضها ، فبدأ الفلاسفة يظهرون بظهور هذه العلوم الطارئة على الأمة . والفلسفة هي علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصح<sup>(١)</sup> . هكذا عرفها القدماء ، وعرفها المحدثون بأنها علم الميادئ والعلل والبحث عن العموميات العالية للكائنات والبحث في النفس والعالم وخالق الموجودات من طريق النظر الفكري . وكان يدخل في الفلسفة علم الطبيعة والأمور الإلهية والتعليمية والرياضية ، ويدخل في العلم الطبيعي الطب والآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان والكيمياء وفي العلم التعليمي علم النجوم والموسيقى .

كانت الفلسفة في القرن الثاني معروفة للباحثين ولا سيما لمن تعلموا في مدرسة حران وفي مدرسة جُنْدَيْسَابُور من الصابئة والمانية واليعاقبة وغيرهم ولكن لم تنبعث شعلتها إلا في القرن الثالث ، فسقط فيها بعض رجال الدين من المحدثين والفقهاء على أمور أنكروها ، فقاوموها وما قاوموا في الحقيقة إلا ما جهلوا . ومن سوء بخت الفلاسفة أن كانوا فئة قليلة في كل بقعة إسلامية ، وكان خصومهم كثرة في كل أرس ، ولذا استضعفهم في الفترات وأنحوا عليهم ، وحاول هذا الكثير أن يقضى على ذلك اليسير وقد يكون الحق في

( ١ ) مفاتيح العلوم للخوارزمي .

جانب هذا القليل . كانت مع القوى المادة والسلطة والعوام<sup>(١)</sup> أتباع كل ناعق ، أو من كان مذهبه مذهب إمامهم يعتقدون صوابه وأن ما عداه باطل ، ويوهمهم أنهم وصاحبه الناجون وغيرهم في النار مخلد أو معذب . وليس مع الفئة القليلة من الخواص سوى أسلآت أقلامهم ونبرات ألسنتهم ، وثقوب أذهانهم ، ونفوذ بصائرهم وأبصارهم ، وكانوا على كثير من الحق ، وكان منازعوهم على شيء من الباطل ، وكانت عاقبة هذه الحرب التي شبت قروناً نكبة العلم ، وإفلاس العقل ، وشل حركة البحث والنظر . ولكن الفلاسفة مع هذا ظهروا على من عاداهم بقوة علمهم وقوة بصيرتهم ، ونشروا تعاليمهم بالقدر الذي ينفع في إنارة العقول وثقافة الجمهور وعمارة البلاد . وغلط بعض من اشتغلوا بالفلسفة أن استخدموا بعض فروعها في تأييد العقائد فاتخذوها سلاحاً في علم الكلام يقولون به برهانهم ، ومزجوا الإلهيات بالفلسفيات ، فكان في ذلك ضرر على الكلام وعلى الفلسفة معاً ، ولما زج بعض علماء الفلسفة<sup>(٢)</sup> أنفسهم « في المجادلات الدينية التي أثارها من ادعى الإسلام من شيع الفرس والأعاجم ، وحملهم الجدل ولد<sup>(٣)</sup> العناء على الخلط بين العقائد الدينية وما لا ينطبق على أصول النظر ، انبرى لهم من بين الجماعة من أدحض لهم بعض قضاياهم ، وخاف الخلفاء شر الفتن فأمسكوا عليهم حريتهم ، وسقطوا في هاوية كانت خاتمة أمرهم في الإسلام ، ولولا ذلك ما وقف أمام العلم والصناعة متعنت ، ولا وقفت الحضارة الإسلامية عند حد محدود » هذا والإسلام<sup>(٤)</sup> أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر في أسرار هذا الخلق العظيم من حيوان

(١) قال الجاحظ : « ذا سمعتموني أذكر العوام فإن لست أعنى الفلاحين والحشوة والصناع والباء . ولست أعنى الأكراد في الجبال وسكان الجرائر في البحار . ولست أعنى من الأمم مثل البتر والطيلسان ومثل موتان وجيلان ومثل الزنج وأمثال الزنج ، وإنما الأمم المذكورون من جميع الدس أربع : العرب ، وفارس والهند والروم ، والباقيون همج وأشياء الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعرتنا ولفتنا وأديننا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم لم يلفوا . مرحلة الخاصة منها على أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضاً . ام .

(٢) أصول الفلسفة لأمين والجصف . (٣) اللدد : الخصومة الشديدة .

(٤) من مبحث إمامنا عبد الرزاق .

ونبات وجماد ، ورفع القرآن من شأن العقل فأطلق العنان للفكر ما شاءت قوته عظمة واستدلالاته ، وما قولك في دين يقول أئمنته بترجيح العقل عل ظاهر الشرع عند التعارض ، والدين طريق القلب والعواطف ، والفلسفة طريقها العام والنظر .

اشتغل الفلاسفة في الإسلام بشيء من التقية في فلسفتهم ، حتى عند ما كانوا يرون من حماية بعض الخلفاء لهم ما ينشطهم على ما هم فيه ، كعهد المأمون الذي اغتبطه أعداء الفلسفة ، رقصى بعض أرباب الشهرة في سجنه المشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظناً منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده . واعتقد المأمون بخاق القرآن<sup>(١)</sup> فوضع هذا المبحث موضع المناقشة بين العلماء فقال السواد الأعظم بقوله ، وأبى بعضهم تورعاً أن يوافق على أن للقرآن مخاوق ، فطلب أن يمتحن القضية والمحدثون لكشسهم عما يعتقدون في هذه المسألة ، وأن يكتب إلى الآفاق . بذلك ، فوافق أكثر المستحقين . وهرب أفراد وحاولوا التملص ، فأحدث هذا الرأي ضجة في الأمة شأن كل فكر جديد ، وأوذى بعضهم ، وما كان المأمون يريد أذاهم . أراد لحكيم العقل فاتخذ أعداؤه من ذلك حجة للطنع عليه وسموا ذلك الخنة . على أن بعض المتأخرين من خلفاء بني أمية في أول القرن الثاني كانوا يرون رأيه لكن شعلتهم عن الجهر بما اعتقدوا على ما يظهر مسائل أهم من هذه وهى مسائل الملك والخلافة .

وعلى ما تخلل تلك الخنة من الثورة على الفاسفة رأينا عقلاء منهم في أواسط القرن الرابع كالبيسى والزنجاني والمهرجاني والعرفى وزيد بن رفاعه يوائفون في البصرة جماعة إخوان الصفاء ويضعون رسائلهم المشهورة . يودعونها آراءهم . ومذهبهم خلاصة أقوال الفلاسفة الإسلاميين في عصرهم بعد أن أخذوا الفلسفة عن اليونان والفرس والهند وعدلوا بها ، وقالوا<sup>(٢)</sup> إن الشريعة.

( ١ ) البلاغة سبيل الوزارة ؛ للمؤلف المجلد السابع من مجلة المجمع العلمى العربى .

( ٢ ) تاريخ الحكماء للذهلى .

قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات فلا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . وستر إخوان الصفاء أمرهم وأخفوه عن الشمس والقمر ، مخافة أن يحل بهم ما يعوقهم ويقطع عليهم طريقهم ، وكانوا في الغاية أدباً وعلماً وذكاء ، وكان زيد بن رفاعه أحد رجالهم من أذكى علماء العالم . وهو والخليل بن أحمد وأبو الأسود الدؤلى من أفراد الدنيا في تلك الأيام .

بل شهدنا صورة من الحرية في القرن الثاني من أدهش ما دون . شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم على ما قال خاف بن المثنى<sup>(١)</sup> : الخليل بن أحمد صاحب العروض سني ، والسيد محمد الحميري الشاعر رافضى ، وصالح بن عبد القدوس ثنوى . وسفيان بن مجاشع صفرى . وبشار بن برد خليع ماجن ، وحامد عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت شاعر يهودى وابن نظير النصراني متكلم ، وعمر بن أخت المؤيد مجوسى ، وابن سنان الحراني الشاعر صابئ ، فبتناشدون أشعراً وأخباراً ، وبنآلفون كما كان يتألف في بغداد جماعة أبى سليمان المنطقي محمد بن طاهر السجستاني ، الذين قيد كلامهم أبو حيان التوحيدى في كتاب المقابسات<sup>(٢)</sup> أو آخر القرن الرابع ، ومنهم يحيى بن عدى والبوشجاني والمقدسى والعروضى والقومسى وعيسى ابن ثقيف الرومى وابن مقداد وأبو القاسم الأنطاكى وكان يعرف بالجبتي وأبو محمد الأندلسى النحوى وأبو اسحاق الصابى والحوارزمى الكاتب ووهب ابن يعيش الرقى وابن سوار ومانى المجوسى وأبو الحسن محمد بن يوسف العامرى وعبيد الكاتب وغيرهم « من كل من هو واحد في شأنه وفرد في صناعته ، وكان فيهم المجوسى والصابى واليعقوبى والنسطورى والملحد والمعتزلى والشافعى والشيعى . ولم تصل إليهم يد السلطة الزمنية لاتصالحهم على ما يظهر

( ١ ) الأشراف لابن أبى الدنيا .

( ٢ ) بحث في أبى حيان التوحيدى المؤلف في مجلة الجمع العلمى العربى م ٨ .

بالأمراء . وكانوا فئة راقية وجمعيتهم أشبه بمجمع علمي ، وربما كان بعض المتعصبة ينظرون إليهم شذراً<sup>(١)</sup> ، وودوا لو يماشهم رجال الدولة ليناقشوهم الحساب بالحق والباطل .

لاجرم أن بغداد كانت منذ أواسط القرن الثاني إلى أواخر القرن الخامس ميدان الأفكار الجديدة ، كما كانت البصرة كذلك منذ القرن الأول ، يقصدها العلماء من القاصية ويتألفون ويتذاكرون صنوف العلم ويتفاوضون الحكمة . وكانت دار السلام مدة ثلاثة قرون سرّة العالم ، ومبعث الحركات الفكرية ، ومبارة العلم الوحيدة ، بل حاضرة الثروة والرفاهية والمدنية ، هان فيها على العلماء أن يوحّدوا مقاصدهم ، وينظموا صفوفهم ، ويتناغوا بعلومهم وآدابهم ، ويرى معظمهم من الخلفاء تنشيطاً ومسامحة تقل وتكثر تبعاً لعلم صاحب الشأن ، ومبلغه ومبلغ رجاله من العقل .

وإذا قسنا حرية بني العباس في معنى السماح للفلسفة بحرية ملوك الطوائف والمراطين والموحدين في الأندلس ، نجد العباسيين أرقى كعباً من منافسيهم في الغرب ، حاشا عهد الحكم المستنصر بالله الأموي الذي خدم هذا العلم ، لما جمع للعلماء من كتبه ، وأخذ بأيديهم وأطلق لهم العنان يعملون ، وربما كان من ملوك الأندلس من يحبون الفلسفة سرّاً ويظهرون خلاف ما يضمرون تقريباً من الجمهور . وكانت الفلسفة في القرن الخامس في الأندلس علماً ممقوتاً لا يستطيع صاحبه إظهاره كما قال ابن حزم . ومع هذا نبغ هناك عشرات من الفلاسفة أمثال ابن زهر وابن طفيل وابن رشد وابن باجة وابن الصائغ وأشباهم ، كما نشأ في المشرق أمثال الرازي وابن سينا والفارابي والبيروني . وكان هوى ملوك الأندلس بعد دولة بني أمية مع العامة ، وهؤلاء يسيطر عليهم المتفكّهة ، والملوك يفادون بالفلاسفة لإرضاء العامة ، هذا إذا لم يدرس بعض الملوك على الفلاسفة ، ويشوقوا العامة إلى النيل منهم ليفتر صوها<sup>(٢)</sup> حجة

(١) النظر الشذر : هو النظر بجانب الأمن مع إعراض أو غضب .

(٢) افترص الفرحمة : انتهزها .

في تشريدهم ، ويشتدوا في التضييق على الفلاسفة ؛ إذا شعروا أنهم غير راضين عن الدولة الحاضرة . ومن الفلاسفة من هاجم على وجهه لا يلوى على شيء ، ومنهم من لزم بيته أو مسجده ، ومنهم من تظاهر بالجنون كما فعل ابن الهيثم الرياضي مع الحاكم بأمر الله .

واشتدت الحكومات في القرن السادس في مطاردة علوم الحكمة ، ولم يكن في الدولتين النورية والصلاحية سلطان لغير حملة الشريعة ، وحرّم ابن الصلاح في المئة السابعة المنطق والفلسفة ، ولم يمكن أحداً في دمشق من قراءة كتبهما . وقال المؤرخون إن الملوك كانوا يطيعونه في ذلك . وابن الصلاح هو الملقب بتقي الدين وهو غير نجم الدين أبي الفتوح أحمد المتوفى سنة نيف وأربعين وخمسةائة وكان هذا فيلسوفاً طيباً . ولما ولي الأشرف موسى نادى في مدارس دمشق من ذكر غير التفسير والحديث والفقه أو تعرض لكلام الفلاسفة نفية . وهذا كان في أوائل القرن السابع . وقال الذهبي في القرن الثامن : « إن الفلسفة الإلهية ما ينظر فيها من يرجي فلاحه ، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه ، فإن هذا العلم في شق ، وما جاء به الرسل في شق ، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمون بها علماء وعملا إلا التحريق والإعدام من الوجود ، إذ الدين وما زال كاملاً حتى عربت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلو أعدم لكأن فتحاً مبيناً » . وهذا كلام الفقيه المتعصب . واشتد المتفهمة في إرهاب من علم الفلسفة ، لكنهم لم يرهقوا المرحقين<sup>(١)</sup> في دينهم من المتصوفة لأن عددهم كثير وجمهرة العامة منهم ، وقد اتخذهم بعض الملوك قوة الظهور لهم ، والجميع على طلب رضاهم والبعد عن غضبهم ، وعلى قدر ما كانت محالب أرباب القوة تستطيع أن تنشب في العزل<sup>(٢)</sup> إلا من سلاح عقولهم ، كنت ترى إرهاب الحرية وإرهاب أرواح دعائها يشتد بعد المئة الثامنة . ولا نعرف فيما وقفنا عليه أنه جاء فيلسوف يذكر بعد هذا القرن . وأشبهت الأسباب

---

( ١ ) أَرَهَقَهُ ظُلْماً : ألحقه به والمرهق الموصوف بالرهق أى بخفة العقل والجهد والسادس المتهم في دينه .

( ٢ ) العزل من لا سلاح له والجمع أعزال .

التي دعت إلى اضمحلال الفلسفة في الأقطار العربية أسباب اضمحلالها في مختلف الأقطار والأمصار<sup>(١)</sup>، فقد اضطهدت الفلسفة في أثينا بسبب الشهوات السياسية والعصبيات الحزبية التي كثيراً ما تصبغ بصبغة دينية . وعنت آثار الفلسفة من بلاد اليونان كلها عند ما رقت حالهم وفقدوا استقلالهم باستيلاء الرومان على بلادهم ، على نحو ما كان من ذلك في الأقطار العربية ، وقد التصق بالفلسفة أناس ليسوا من أهلها من الزنادقة الظاهرين بالإلحاد والكفر ، المستهترين<sup>(٢)</sup> بما يأتون من المنكورات تحت ظل حرية التفكير السامي ، بريئة من كل منكر .

يقول رنان لما تغلب علماء التوحيد في الملة الإسلامية وأصبحت لهم منذ سنة ١٢٠٠ م السيادة الكلية ، هجرت الفلسفة في البلاد الإسلامية ، وأصبح المؤرخون والكتاب لا يذكرونها إلا من قبيل الذكرى بشيء من النفرة . ورأينا بعد ذلك كتب الفلسفة تنعدم وتندر والخطر يتناول تعليم علم الفلك إلا بقدر الضرورة لمعرفة اتجاه القبلة . وجاء الأتراك واستولوا على بلاد الإسلام وغلبت عليهم طبائعهم فأطفأوا نور الفلسفة والعلوم جملة ، وفي عهدهم انخفض لواء العلم والحكمة ، ولم ينبغ في الإسلام عالم ذو فكرة وقادة إلا نادراً مثل ابن خلدون . اهـ .

تم للمتجرين بالدين ما أورده من سد منافذ العقل وأبواب النظر ، وقل في هذه العصور المظلمة من تاريخ الإسلام من يعد في المميزين المفكرين ، وبطلت علوم الحكمة جملة ، وصار من يتعاطاها بغيضاً إلى المسيطرين على الأفكار كأنه أتى أمراً إدأ<sup>(٣)</sup> وخان دينه وملته ، وذلك في العصر الذي بطل فيه النظر في الأصول ، وتحتم على كل عقل أن لا ينظر في غير الفروع مما أملتته خواطر المتأخرين . اعتبر ذلك بما تلوه في تراجم أعيان العلماء في هذه القرون ،

( ١ ) مقدمة علم الأخلاق لأرسطوطاليس تعريب أحمد لطفي السيد .

( ٢ ) المستهتر بالشئ : المولع به ولماً شديداً أو الذي كثرت أباطيله .

( ٣ ) الإد والإداة : الأمر القطع .

فإنك لا ترى أعمالهم تتعدى الأقوال والآراء التي لا كتبها الألسن ، بقدر أهل كل جيل قول من سلفهم ولو بأعوام قليلة ، ولا تكاد تجد لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والبحث ، والخلاص من التقليد والجمود ، وراح الفقهي يكفر الفلسفي<sup>(١)</sup> ، والصوفي ينقم على الحديثي<sup>(٢)</sup> ، والأصولي يحمل على الفروعي ، واشتغل أهل كل قطر بل أهل كل مصر بتقديس من تواطأوا على تقديسهم ، والظعن على من عداهم ، وامتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمباحكات ، وتفاحش الاختلاف بين الشريعة أمس واليوم ، أو بين ما يطبق منها وما بقي في النظريات ، حتى كادت بانتشار أطرافها يصعب الجمع بين أجزائها كما يصعب الجمع بين النقيضين .

قال أحد علماء الملة : الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء ، والأطباء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعثرهم مرض أصلاً ، فبين من يدبر المريض وبين من يدبر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف .

أصبح الناس بعد المائة السادسة تفتر همهم شيئاً فشيئاً في طلب العلم ، ورغبوا عن الافتتان بفنونه ، وحصروا نطاقه وعفوا بعض معاملة فأصبحت مجاهل ، وكثرت البدع وكثر الدعاة إليها . والتعويل عليها<sup>(٣)</sup> ، وأشبه طالب الحق في تلك العصور طلابه في أيام الفترة وهم سلمان الفارسي وزيد بن عمرو ابن نفيل وأضرابهم « وإن نشأة الإنسان على ما عليه أهل شارع وبلده وجيرانه وأترابه صنيع أسقط الناس همه وأدناهم مرتبة » وكان عمل من انحصر فيهم الدفاع عن حوزة الدين ضاراً ونافعاً ، قاتلوا الخارجين على الإسلام ومن انتحلوا نحلاً جديدة ، فوحدوا الكلمة في الحملة ، وأنزلوا الضرر بكل من خالفهم ولو قليلاً في أفكارهم ، هذا وهو لم يمس الجوهر ، وربما كان ظاهر سعيه لتأييد هذا الجوهر ، وراحوا يطلقون ألفاظ التبديع والتكفير على خاصة العلماء ممن لم يكونوا قرأوا كلامهم ، أو إذا قرأوه لا يفهمون أسرارهم ،

(١) إيتار الحق على الخلق للمرتضى النجاشي .

فاضطر كثير من العارفين الأذكياء إلى أن يقبعوا في كسر<sup>(١)</sup> بيوتهم أو يعتصموا بالتقية المذلة ، وكانوا بين خوف العامة ، وعلى رؤوسهم بعض أولئك المتعصبة يهيجون أرواحهم ، وخوف السلاطين ومعهم أسواط العذاب بسوطون بها ويصولون ، وكلما اشتدت نعمتهم على العلماء صفق السواد الأعظم سروراً ، ولما يعرفوا السبب في تصفيقهم ، والجمهور مجنون كما قيل .

وما يدرينا أنه جاء في الأمة رجال كتموا شيئاً من الحقائق مخافة أن يعرفوا بها فيهلكوا ، وبذلك حقنوا دماءهم ، واثقوا ثقة أنجبتهم من تسلط العتاة الطغاة ، والملاحظ أنه ضاعت أخبار كثيرة من هذا القبيل ، لأن من دونوا استصغروا على ما يظهر شأن ما وقع في هذا الباب فأغفلوه ، إهمالاً له أو تقية ومتافاة ، وتجافى كثير من أرباب الأفكار المستنيرة عن تدوين ما وقع في نفوسهم ، أو وقع لهم من المشاكل والمشايخ ، خشية أن تسقط مدوناتهم في أيدي أعدائهم فتكون حجة في الخلاص منهم .

وربما لا يخطئ من يدعى أنه خرف النظام القريب المأخذ ، وشعبوا منه ما لم يكن لأحد من أهل القرنين الأولين عهد بمثله ، تساهلوا في إدخال ما يضر أو ما لا يضر ولا ينفع ، وضيقوا الحناق على الفكر ، ورموا إليه بالتافهات [ يشغلونه بها ، ومنعوا عنه الطيبات ، وتحكموا في القرائح فأخرجوها عما وضعت له ، فتقلقت أو جمدت ، والحمود هو الموت بعينه ، وقفت الأذهان بالجهل والتعصب فجنى الجهلة على الدين والدنيا ، ذلك لأنهم نظروا إلى كل أمر بمنظار الدين ، ولم يتركوا الدنيا تسير بما هو أصلح لها ، ولطالما كانوا ولا يرضيهم إلا إهلاك من خالفهم تقريباً إلى الله ووسيلة .

وقف الجاحد عند الحد الذي تصور فيه السلامة ، وآلى أن لا يتقدم إلى الأمام لأن قريحته خانته ، وأظلم طريقه ، وما كان وقوفه تراجعاً بل

(١) قع : استتر . والكسر بفتح الكاف وكسر ما . الجانب من البيت .

فناء ، ووقف الجاحد عند حد إنكار كل ما لا ينطبق على رأيه وعقله ، من دون روية ولا درس ، وكان الاثنان بين جاهل وأجهل : الأول قضى على الدنيا ، والثاني قضى على الدين . جاءت طائفة من الجاحدين تقول إن النجوم ناطقة مدبرة وكذلك الفلك ، ورأت أن إنكار كل شيء في الدين أسهل عليها فأنكرت . وجاءت طائفة من الجاحدين تدعى أن الأرض على حوت ، والحوت على قرن ثور ، والثور على صخرة ، والصخرة على عاتق ملك ، والملك على الظلمة ، والظلمة على ما لا يعلمه إلا الله ، فأى جمود أكثر من هذا وجمود أبشع من ذلك .

وما أجمل ما قال محمد عبده : « لم أر كإسلام ديناً حفظ أصله ، وخطأ فيه أهله ، ولا مثله سلطاناً تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده . ووعدده ، وخفى على الغافلين قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خسارة<sup>(١)</sup> من الآخرين ، لاهم فهموه فأقاموه ولاهم رحموه فتركوه ، سواسية<sup>(٢)</sup> من الناس اتصلوا به ، ووصلوا سببهم بسببه ، وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه في شيء إلا كما : يكون الجهل من العلم ، والطيش من الحلم ، وأفن<sup>(٣)</sup> الرأى من صحة الحكم اه .

ضاع العلم بين جامد في دينه ، وجاحد في يقينه ، وكان طالع الفلسفة النحس لأن أصحابها كانوا أبدأ بين نارين ، نار الملوك ومعهم السلطات كلها ، ونار رجال الدين وسلطانهم ، ووقر<sup>(٤)</sup> في نفوس المسلمين كما كان النصارى في بعض عصورهم أن السلامة في ترك الفكر ، والأخذ بالتسليم والاستسلام

( ١ ) الإشارة : سفة الناس .

( ٢ ) سواسية : أى سواء .

( ٣ ) الأفن : ضعف الرأى .

( ٤ ) وقر في القلب : سكن فيه وثبت .

للأمر الواقع ، وسرت إلى الناس قاعدة « الجهالة أم التقوى » وكان بعضهم يتشدد ويقول « اللهم إيماناً كليمان العجائز » وتغير الزمان وارتقت العقول ، وهجمت المدنية الغربية على الإسلام ، وذلك الجاحد مازال على جموده « يمهده<sup>(١)</sup> لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية ، محتجين بأن التأخر الذى عليه العالم الإسلامى إنما هو ثمرة تعاليمه ، والجاحد هو سبب الفقر الذى ابتلى به المسلمون ، لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط . والحال أن الإسلام هو دين دنيا وآخرة ، وأن هذه مزية له على سائر الأديان . فلا حصر كسب الإنسان فيما يعود للحياة التى وراء هذه ، كما هى ديانات أهل الهند والصين ، ولا زهد فى مال الدنيا وملوكها ومجدها كتناليم الإنجيل . ولا حصر سعيه فى أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هى مدنية أوروبا الحاضرة .

« الجاحد هو الذى شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها ، بحجة أنها من علوم الكفار فحرم الإسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبناءه الفقر الذى هم فيه وقص أجنتهم ، فإن العلوم الطبيعية هى العلوم الباحثة فى الأرض ، والأرض لا تخرج أفلاذها إلا لمن يبحث فيها ، فإن كنا طول العمر لا نتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة قالت لنا الأرض : اذهبوا توءاً إلى الآخرة فليس لكم نصيب منى . ثم إننا بحصر كل مجهوداتنا فى هذه العلوم والمحاضرات الأخروية ، جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بإزاء سائر الأمم التى توجهت إلى الأرض ، وهؤلاء لم يزالوا يعملون فى الأرض ، ونحن ننحط فى الأرض إلى أن صار الأمر كله فى يدهم ، وصاروا يقدر أن يأفكونا<sup>(٢)</sup> عن نفس ديننا فضلاً عن أن يملكوا علينا ديننا . . . والمسلم الجاحد لا يدري أنه بهذا المشرب يسعى فى بوار ملته ، وحطها عن درجة الأمم الأخرى ، ولا ينتبه لشيء من المصائب التى جرّها على قومه إهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذى هم فيه ، وصاروا عيالاً على أعدائهم الذين لا يرقبون

( ١ ) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم لتكيب أرسلان .

( ٢ ) أمكه أفكاً عن رأيه : صرغ وقلب رأيه .

فيهم إلا<sup>(١)</sup> ولاذمة ، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة عليها بالقضاء والقدر بادي<sup>\*</sup> الرأي ، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا يحيلون على الأفذار. هـ .

وأقوى الأسباب في هذا الجمود الذي أدّى إلى فناء العلم والصنائع كون العلوم التي تقوى ملكة العقل . وتعين على نجاح الصنائع وجلب الثروة ، قد بطلت جملة واحدة بعد القرن العاشر وأصبحت العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخية من علوم الكفر ، لا يدرسها إلا من يهون عليه بزعم المتعصبين أن ينحل من معتقداته ومقدساته ، وغدا ينظر إلى من كان له إلام خفيف بفرع من فروعها كأنه بعض المتهوسين<sup>(٢)</sup> والقصاصين ، بل القصاصون أرفع مقاماً من المؤرخين<sup>(٣)</sup> ، وربما اعتبر المجاذيب والحشاشون والطبالون والمؤذنون أكثر من المهندسين والمتطبيين والمؤرخين والفلكيين والجغرافيين ، وجاء عصر المتجربين على الفتيا يقولون بتحريم هذه العلوم ، وكانت تقرأ في مدارس المسلمين منذ القرن الثالث إلى التاسع في جملة العلوم التي لها مساس بالشرع .

هذا إلى ما هنالك من انتشار الفوضى العقلية بين المسلمين<sup>(٤)</sup> « وتحت حماية الجبهة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد في الإسلام قبل باحتماله ، غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن ينايع الدين أعواناً ، فشدوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا في التضييل والتكفير ؛ وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم في دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام » .

الفلسفة علم الخاصة وإضعاف أمرها إضعاف للعقول المفكرة في الأمة<sup>(٥)</sup> ولطالما قال القائلون إن قليلاً من الفلسفة يبعد عن الدين وإن كثيراً منها يعيد

(١) الإل : العهد . (٢) الهوس : طرف من الجنون . وهوس : صاربه هوس .

(٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للنجم الغزى (مخطوط) .

(٤) الإسلام والنصرانية لمحمد عبده .

(٥) نظرات في سير الأفكار والحوادث في العصور الحديثة لكورنو (بالفرنسية) .

إلى حظيرته . وهذه الكلمة لا تخلو من غموض ، فيها إشارة إلى قدرة العقل الإنسانى وإلى ضعفه وعجزه ، ولها نتائج أخرى غير التى يراد إلصاقها بها . إذ من البديهي أن جمهور الناس لا يكونون فلاسفة فهم بين حاليين إما أن يتذوقوها قليلا وإما أن يبتعدوا عن الأخذ بمذاهبها جملة . ولئن سدت الذريعة دون كل فلسفة تنسرب إلى آراء الجمهور ، فإنه مما لا مناص منه أن تأثير المعتقدات الدينية يضعف إذا كان الناس على استعداد لذلك ، أو كانوا يدعون أن أفكارهم تحسن فهم الفلسفة أو يظهرون أن الأوهام لا سلطان لها على عقولهم فيجادلون فى المعتقدات والتكاليف ، ويرون من الأفكار ما لا ينطبق على عقولهم ولا يخرج عن حدود الطبيعة . وفى هذه الحال لا يحول دون سريّة الأفكار الفلسفية غير سيطرة المجتمع فهو أفضل ضامن للقضاء على ما لا يصح من الحقائق . وهذا أفضل من اللجوء إلى المحاكمات والتعذيب فى السجون والمطابق بما لا يقبل الجدل .

### الآداب ؛ الشعر والنثر والخطابة :

كان الأدب العربى يرتقى ويتدنى بفعل الحكومات ، وعلى مقدار أخذها بأيدي الشعراء والكتاب ، فالشاعر المشهور فى الدولة الأموية هو الذى خاض فى مسائل سياسية ، ودعا إلى عصبية ، ومدح بعض القائمين بالأمر أو قذح فيهم ، وفاخر بقومه وماتته ، والموافقون للخلفاء يلقون منهم أبداً معاضدة ورفدا ، والشعراء أدوات دعاية للعظماء والزعماء ، وعلى هذا جرى الشعر فى دولة بنى العباس ولا يكاد يشتهر فيها إلا من لابس الكبرياء ، وتقرب من قلوب الخلفاء والأمراء ، بهذه الضروب من الشعر ، وأهمها فى نظرهم المديح والهجاء . وكان الشعراء منذ عهد الراشدين بل منذ عهد صاحب الشريعة يُدعون إلى قول الشعر بما يخدمون به الدعوة الدينية أو لاثم الدعوة السياسية : ومنذ عهد حسان وأغراض الشعر تدور على صاحب السلطان إلى أن تأذن الله بانقراض الدول العربية ، وتولى أمر العرب ملوك من الأعاجم لا يفهمون الكلام العربى فضلا عن أن يقيحوا للبلاغة وزناً .

فالشعراء الذين اشتهروا مثلاً في عهد الرشيد والمأمون هم الذين مدحوا هذين الخلفيتين وخدموا الدعوة العباسية ، والشعراء الذين اشتهروا في عهد معاوية وعبد الملك هم الذين تطوعوا في إيراد محامد الأمويين والمروانيين ، ونالوا من خصومهم ، والشعراء الذين اشتهروا في دولة الأندلس الأموية ثم في الدول الخالفة هم الذين تعلقوا من خدمة سلطانهم بسبب ؛ وشعراء الفاطميين وشعراء سيف الدولة بل شعراء ملوك الطوائف عامة ، هم الذين كانوا سيدهم سبيل غيرهم في الدفاع عن الحوزة وتبجيل صاحب القوة . وما راج الشعر إلا إلى جانب سلطان يفضل في الحملة على صاحبه ، ويستنشده ويعصده ويهتز لمديحه ، ويحاذر من سلاطة لسان صاحبه .

وهكذا كان من النثر ولكن على مقياس مصغر ؛ لأن النثر لا يتناقل كالشعر ، ولا يسهل حفظه ، وإن كانت أغراضه أوسع رقعة ، والحاجة إليه في التأليف والتصنيف ظاهرة محسوسة ؛ ومع هذا اشتهر الكتاب الذين خدموا الدول أكثر من أقوانهم الذين 'عزفت نفوسهم عن الخدمة ، حاشا أفراداً من المبرزين اشتهروا على بعدهم عن السياسيين ، وما كانت شهرتهم تستفيض هذه الاستفاضة أيضاً لولا أنه كان في رجال الدولة ، بل من الخلفاء أنفسهم ، من كانوا يعرفون أقدارهم ، ويغدقون عليهم 'الهابات لتأليف لهم يهدونها إليهم ، كلما وضعوا شيئاً . ويفضلون خصوصاً على المبرزين منهم أمثال البلاذري والجاحظ والأصفهاني وابن قتيبة<sup>٢</sup> والثعالبي .

وبدأ الشعر ينحط منذ قل في الولاة من يقدره قدره ويثيب عليه ، وأخذ النثر في القرن الرابع يتبدل بظهور أناس من الكتاب تعلقوا بالأسجاع ، ومن أشهرهم الصابي وابن عباد وابن العميد والحوارزمي وأضرابهم ممن أخرجوا الكتابة عن طريقها المرسلة التي حصرت في التأليف ، وتشبث كتاب الدولة بالسجع ومنه الطبيعي وأكثره متكلف . فاعتور الانحطاط علوم الآداب

وما إليها كما اعتور علوم الدين ، منذ انقطع في القرن الخامس ظهور كبار الشعراء ، وبقي في الشعراء ذمء<sup>(١)</sup> من قوة إلى حوالى القرن السابع ، وتدهور بعد ذلك تدهوراً عظيماً ، إلى أن جاءت القرون الأخيرة فأصبح هيكلاً من العظم لادم فيه ولا لحم . وكان ضعف الإنشاء على تلك النسبة ، فأمست كتابة المؤلفين ضعيفة معقدة لا رشاقة فيها ولا سلاسة ، إذا خرجت عن قوانين السجع والترصيع تفقد جمال الديباجة ، وتندر المعاني وينعدم الإبداع ، ويستغرب في القرنين الثامن والتاسع ظهور مؤلفين مثل ابن خلدون وابن الخطيب في المغرب والمقرئى والقلقشندي في المشرق يكتبون العربية بهذه الرشاقة وهذا الإبداع ، وما كان لهم شيء من لطف الأداء ، لو لم يكونوا استقوا مادتهم من فحول الأقدمين ، ولم ينطووا على علم كثير ومعارف واسعة . أصبح الأدب في عهده الأخير عبارة عن شعر مبتذل ركيك ، واستحال إلى أماديح لا غرض منها إلا الكذب على الممدوحين لتلقف هباتهم ، أو غزل فيج لا يعدو غزل كل عصر بمعناه ، وهو ساقط مبتذل . وللنثر أساليب منقولة ، وألفاظ مدخولة ، وجماعه جناسات واستعارات ، أفسدت اللغة بهذا البديع المريع . ولو أردت أن تنقل إلى لغة أخرى ما كتبه أكثر المسجعين لاقتضى لك على الأقل أن تحذف نصف جملة ومترادفات المكررة . هذا إذا لم يكن لمعنى المراد أدأؤه تافهاً في ذاته . ولا يطالعك شاعر بصورة من صور عصره إلا إذا كان مما أخذ فيه بحظ وافر من التكلف والتعسف ، خلافاً لما نرى مثلاً في بعض شعراء عصرنا ممن إذا قرأت شعرهم تتجلى لك منه روح العصر أو أكثره .

ولم يأت أحد بعد القرن التاسع في هذا الشرق العربي بضرب من الأدب يخلد صاحبه ، وينتفع به على غابر الأيام ، أو بتأليف طريف لا يستغنى عنه جمهور الناس ، ويعدُّ ضياعه ثلماً في بنيان التأليف العربية . وإذا

(١) الذمء : بقية الروح .

كتب لأحدهم الولوع بالأدب فيكون ذلك عن باعث نفسه فقط يتزين به صاحبه بين الملأ ويتجمل بطرائفه أمام الأقران والجيران ، وضاق المحيط على الشاعر والكاتب فأصبح ابن اليمن منعزلاً عن البشريتهم أن أفق العالم ينتهي ببلده ، وابن الشام لا يعرف شيئاً يذكر عن ابن بغداد ، وابن أصفهان ونيسابور لا يبلغه عن ابن سمرقند وبلخ إلا أخبار متقطعة في السنين الطويلة ، بل ابن فسطاط مصر لا يعرف من أخبار ريفها إلا ما لا بال له ، وابن فاس لا صلة له بابن الجزائر ، وابن القيروان لا يكاد يعرف أمراً عن ابن برقة ، إلا كما نعرف عن بلاد واق الواق . وصعب الارتحال على الناس لفتور همهم في كل شيء ، واكتفى كل قوم بما وقع تحت أنظارهم من الأفكار ، وكانت الحكومات من أهم العوامل في هذا التباعد والجهل .

هذا ما كان من أمر الشعر والنثر ، وتاريخهما في الجاهلية والإسلام طويل ، وتدنيهما أيام الانحطاط إلى حد السخف والهراء أطول . بقي أن نقول كلمة في الخطابة ، وكانت العرب في جاهليتها لا تعدم كل قبيلة خطيباً أو خطباءها كما لا تخلو من شاعرها أو شعرائها . ورقيت الخطابة في الإسلام بفضل الرسول وأصحابه والخلفاء وقويت حين نجمت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين<sup>(١)</sup> والذي دوت من كلام الخطباء وروى من خطبهم ، آية البلاغة على وجه الدهر . وجاء الإسلام وصاحبه أخطب أمتته ، وفي أصحابه من مصاقع الخطباء كالراشدين ومن قاموا باستصفاء هذا الملك ونشر الدين واللسان في الأمصار ، ما هو مفخرة من مفاخر الأمم ، وأتى خلفاء الأمويين ومعظمهم خطباء<sup>(٢)</sup> ومنهم من يعد في أرق طبقات الكتاب ، وفي قوادهم وعمالهم نبغ الخطباء الأبيناء ، والكتاب الذين لا يشق لهم غبار . وكذلك خلفاء بني هاشم ورجالهم ، وكذلك خطباء بني علي وكذلك خطباء الخوارج وخطباء المعتزلة .

(١) في الأدب الجاهلي لطلح حسين .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ .

ولم يبدُ الضعف إلا لما أخذوا يوسدون الخلافة إلى الجهلة ، فأنشأ هؤلاء ينيبون عنهم في خطب الجمع والمواسم والمجتمعات العامة ، وبقدر ما كان يقل اشتراك النباة الناهين بأمر الدولة . كان خطباء السياسة يقلون بل يندرون ، وعلى نسبة تدنى العلم والعمل كان خطباء الجوامع إلى التقليد بعدين عن المسائل التي تشتد رغبات العقالين في حلها أو سماع ما يقال فيها ، لا يأتون في الأكثر إلا بالساقط من الكلام . والضعيف من المعاني والأحكام ، حتى غدوا سبة على البيان ، وعدم الانتفاع بخطبهم الملققة ، وأصبح معظم الناس يتجافون عن سماع خطب توجع الرؤوس بلا فائدة .

كان القصاص منذ الصدر الأول أشبه بخطباء في الجيوش والمساجد يوم الحفل ، فضعفوا أيضاً وضعف بيانهم بضعف العلم وشلل الأدب وفساد السياسة ، وقلما جاء قاص أو واعظ أو خطيب يؤثر كلامه بعد أن انحل أمر العرب أو كاد ، ودخل الأعاجم يكاثرونهم ويجاذبونهم جبل السلطة ، وبقدر ما كانت النفوس تزهد بالعلم ، والعجمة تدخل على اللغة وأبنائها ، واللسان يفسد بملاسة العرب لمن عداهم من الأمم ، كانت الخطابة تتراجع ، والبلاغة تستحيل إلى فهاة . وأخذ خطباء السياسة وخطباء الدين يعمدون إلى إعداد خطبهم ، وإذا كانوا ضعافاً في صيغ الكلام ، جاءت خطبهم مثالا ظاهراً من الضعف والتقعر ، ثم انحطوا بعد عصور إلى أكثر من ذلك ، فأصبح الخطيب يأخذ كلام غيره ، ولا يحسن تلاوته أو التصرف فيه . وتولى خطابة الجوامع<sup>(١)</sup> العامة ومن في طبقتهم ، فغدا نصف خطبهم في الزهد على غير طريقة السلف ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لا يخرمون منه كلمة ، ثم هم يدعون بأدعية مردودة ، ويتعلقون ببيان فضائل الشهور والأيام والبلدان والأماكن والجوامع إلى آخر ما يرددونه من البدع التي ينكرها الشرع ، فلا هم يعرفون

(١) القديم والحديث للمؤلف .

كيف يعالجون حقائق الحياة ، ولا هم ممن استعدوا بالثقافة لبث الأفكار الصحيحة ، وتهذيب النفوس على ما ينفعها في المعاش والمعاد .

وبعد أن كان الخطيب أعظم أداة فعالة في قيام أمر الجماعة وسياسة الملك والدولة ، وأنفع مدرس يلتقى على أهل البلد في الجمعة والعيد والحج كل ما يصلحهم ، أصبحت الخطابة من العوامل في صد الناس عن التحلي بالفضائل ، تلقى الانكسار المذموم ، وتعبث بعقولهم فتلقى في القلوب أموراً لا تنفع بل تضر ، وتسمعهم مواعظ تخدش الملكات الطبيعية ، وتلقى بالأمة في عالم من الخيال لا أثر للعمل فيه . وتسوقها إلى حياة لو جرى الناس فيها على ما يريدهم لبطل حتى الكدح للمعاش . وفقدت كل دعوة إلى إصلاح وفضل ، وآضت دواوين الخطب فجوة سخيفة تلوكها ألسن جاهلة ، قد لا تصحح حتى الآيات والأحاديث المأثورة . وعلى هذا أُمست مطالب الناس في واد ، وخطب الخطباء في واد آخر .

وكان من أكبر الدواعي إلى هذا الجمود المميت أن كان من تولوا أمر هذه الأمة في القرون الأخيرة أعاجم جهلة ، لا يعرفون غير شهواتهم ، ولا يهتمون لتعليم الناس ولا لإصلاح نفوسهم ، بل يعدون الجهل ضرباً من ضرور الإدارة والسياسة ، وغاية ما يتطلبونه من خطباء الجوامع في الأعياد والمواسم أن يشيدوا بذكر الدولة القائمة ، ويدعوا لخليفة الوقت ودولته الظالمة بالنصر والتمكين إلى يوم الدين !

نعم كانت الجوامع في الإسلام مدارس دائمة الفيض في تعليم العامة والخاصة ، فأصبحت بالمستبدين من السلاطين بؤرة لتلقين الحمول ، لا تؤوى إلا الكسول . وكانت قصور الملوك والأمراء ميداناً يتنافس فيه الشعراء والعطاء من العلماء ، فيكون من مساجلاتهم وإنشاداتهم عموم النفع في تنقيف الطبقات المختارة ، تسرى سريعاً إلى صفوف الجماعة يتلقفونها ويتدارسونها فأصبحت مصادر الشهوات والدسائس والمظالم ، والكلام فيها لا يعدو قانوناً معيناً ، وفيه كثير من السخف والركاكة . وكانت دواوين الإنشاء في العواصم

الإسلامية الكبرى من أعظم دور الأدب في تخريج المنشئين والكاتين ، فأصبحت تتقيد بالمثل الذي يريده صاحب السلطان ، وكل من يأتى يستظهره أو ينقله برمته ، وقد لا ينطبق على منطق معقول ، ولا يوفى بمقصود العصر .

ولولا أن هبت على مصر معلمة الأقطار العربية ، هبة مباركة نحو المعالى ، فقام فيها فى مفتتح هذا القرن خطباء نهاء فى السياسة المدنية والشرعية ؛ ونشأ فى وادىها البهيج من الكتاب والشعراء أو المؤلفين أناس أعادوا إلى اللغة بعض رونقها ، وألبسوها حلة من حلل العلم الحديث مطرزاً بآيات فصيح القديم ، فنسجت بعض الأقطار العربية الأخرى على منواله ، لما شهدنا هذا الفرق المحسوس بين أدب هذا القرن وأدب القرون الستة التى سبقتة . وأقل مقارنة بين ما تنتجه مصر اليوم مثلاً فى جامعتها ومدارسها وأزهرها وصحافتها وطباعتها ، وما كانت تنتجه فى القرن الماضى ، تتجلى بها للناقد البصير الدرجات العالية التى تصل إليها أمة تعمل وتعلم بفضل حكوماتها وأفرادها ، وأمة قضت عليها جهالة سلاطينها ففنت فيهم ، حتى تركوها كالسائمة ترسف فى مؤخرة الشعوب ، وباعدوا بين حاضرها وغابرها .

والواقع أن مصر كانت ولا تزال المجلية فى هذا المضمار ، ومشت على آثارها الشام ثم تونس ثم بعض الأقطار العربية . فربط شعراؤها وكتابتها ومؤلفوها وخطباؤها حديثهم بقديمهم ، وأصبحوا يعدون شيئاً بين أرقى أمم الحضارة فى الآداب . والآداب أول ما يرقى من المظاهر فى الأمة الآخذة بالنهوض . وهذه دور العلم فى معظم الأقطار العربية تذكر العرب بأيامهم الغر المحجلة ، وبلغاء أساتذتها يعيدون إلى لغتهم نضارتها أيام عزة الأمة ، حتى لو عاد رجل إلى الحياة من أهل القرن الماضى وشاهد هذه النهضة الأدبية لما صدق أن الناس يبرزون فى الفضل هذا التبريز ، والله أعلم ما سيكون منهم بعد نصف قرن آخر ، وقد تشبع بحب اللغة والقومية حتى أضعف طبقات المجتمع ، وغدا كل إنسان يشعر بضعفه ويسعى إلى قوته وكماله .

## الفرق الإسلامية :

بدأت الاختلافات في الأصول في آخر أيام الصحابة، بمقالة معبد الجهنى وغيلان الدمشقي ويونس الأسواري ، في القول بالقدر ، وإنكار إضافة الخير والشر إليه ، ومذهبهم القول بالقدر خيره وشره من العبد واختياره في أفعاله ، وأن الإمامة تصلح في غير قريش ، وكل ما كان قائماً بالكتاب والسنة كان مستحقاً لها . ونسج على منوالهم واصل بن عطاء وكان تلميذ الحسن البصري ، وتلمذ له عمرو بن عبيد . واعتزل واصل عنهم فسمى هو وأصحابه المعتزلة ، وسمى من جادلهم بالحشوية<sup>(١)</sup> ، والحشوية بمنزلة السفسطائية عند الحكماء لأنهم وضعوا من العقل ما رفع الله من شأنه وكان يجلس من خالفوا في حلقة الحسن البصري ، فلما وجد في كلامهم حشواً أى كلاماً لا فائدة فيه قال : ردوا هؤلاء إلى حشى الحاقة أى جانبها ، فسماهم الناس حشوية لذلك ، وقيل إنهم منسوبون إلى الحشو بمعنى العامة ، والشيعية تطلق اسم العامة على أهل السنة . وقيل إن المعتزلة سمو بهذا الاسم لاعتزالهم أقوال الأمة ، وقيل لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، ذلك لأنهم قالوا إن الفاسق لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين .

قوى أمر المعتزلة وهم أئمة العقل والبحث ، وكان بعض الخلفاء يسمع لمقالاتهم ومنهم من كان يريد بهم الشر ، ويسوموهم سوء العذاب ، ولو خلا مذهبهم من عقبة السياسة ولم يتشدّدوا في شروط الخلافة لانتشر في الآفاق

(١) نظن أبا بكر الخوارزمي يقصد بالحشوية في إحدى رسائله جماعة أهل السنة كما قال : وسموذ بالله من رعونة الحشوية ، ومن لحاج الضرورية ، وشك الواقفية وإرجاء الخنافية ، وتخالف أقوال الشافعية ، ومكابرة البكرية ، ونصب المالكية ، وإجبار الجهمية والنجارية ، وكسل الراوندية ، وروايات الكيسانية ، وجمعد الثمائية ، وتشبيه الحنبلية ، وكذب الغلاة الخطابية ، ولو أنصف لقال ومن المبالغات للفارسيه والتعصبات الغالية . وقد أطلق بعض الفقهاء اسم الحشوية على بعض المحدثين لأنهم ينقلون الغث والسمين وفي الأساس : « التوابت » طائفة من الحشوية أحدثوا بدعاً غريبة في الإسلام وقرنهم الجاحظ بالرافضة في رسالة له فيهم .

وقع هذا سرعان إلى الأندلس غرباً وإلى خراسان وما وراء خراسان شرقاً ، وانتشر على عهد المأمون لأنه كان عالمياً بقواً عربية الذوق ، مسحياً بعلم راجح ، وفذاً بالعلم . وقاؤه يوم المتوكل مراعاة للعامة ، وكانوا أبدأ كما قال أسدنا ابن الزبير<sup>(١)</sup> بغرضين إلى العامة والأمراء أما الأمراء فلما يشترطونه في الخلافة من الشروط إذا انتشر في أفكار العامة لا يتيسر الأسير أو الملك أو خليفة أن يطلق في أمر الأمة بما يشاء . وأما العامة فلهنهم ينشرون من يخرجهم عن الدين بمجرده إتيان المنكرات التي أطلق لهم الحنان فيها من طرف خفي أمراء السوء . فمن بهمهم أن تكون العامة بمن يمينونهم على مقاصدهم . وكانت المعتزلة أعظم الفرق المناخلة عن الدين وشبه الملحدين . ١٠ هـ .

يقول نيرج<sup>(٢)</sup> : يظهر أن المذهب الاعتزال أصلاً يرجع إلى السياسة نشأ على مثال ما نشأ مذهب التشجيع والحوارج ، فإن استخلاف على كان الخطر الأعظم الذي سبغت منه المجاري في تاريخ الإسلام . ومعلوم أن كثيراً من المشار إليهم بالبيان من أصحاب الرسول أبوا أن يعترفوا لعل بما طلبه منهم ، أو بايعوه ، خلافاً لما كانوا يبطنون ، وفي مقدمتهم طلحة والزبير ومنهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وصهيب ومسلمة بن وقش وزيد بن ثابت . وكان من طلحة والزبير أن ثارا علناً على علي ، ومعظمهم نزلوا على حبيبتهم ، وتابع أهل المدينة هؤلاء الرجال على خطتهم وكذلك الأحنف بن قيس في البصرة مع ستة آلاف من بني تميم ورأس الأزدي صبرة بن شيان امتنعوا عن الدخول في الفتنة . وقد وردت في النصوص التي تشير إلى ذكر هؤلاء الناس كلمة اعتزال ، ومعناها الاستنكاف والامتناع والابتعاد ، وهي لفظ أصبح يعبر عن السياسة الحاضرة بمعنى أن صاحبه يربأ بنفسه عن الدخول في الفتنة بين علي وخصومه . ويقول النوبختي في كتاب فرق الشيعة إن فريقاً من الصحابة عندما بويع لعل قد اعتزل الدخول مع الداخلين واتبعوا سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة

( ١ ) بحث المعتزلة في كتاب القديم والحديث للمؤلف . ( ٢ ) معلمة الإسلام . المعتزلة .

ابن زيد فاعتزل هؤلاء علياً وأبوا أن يقاتلوه أو يشايعوه فدعوا « المعتزلة » وهم أجداد جميع المعتزلة اللاحقين ، فذهب الاعتزال الديني قد سبقه اعتزال سياسى قام به هذا المذهب . اهـ .

وهناك طائفتان الجبرية<sup>(١)</sup> والتدريية ، فأما الجبرية فإن الذى أداهم إلى ما يعتقدونه هو نظرهم واعتبارهم عواقب الأمور وخواتيمها . ذلك أنهم لما تبين لهم أن الأمور كلها التى تخرج إلى الكون والفساد والوجود والعدم فعلى ما فى مقدور الله وسابق علمه لا يكون خلاف ذلك شىء ، وزعموا عند ذلك وظنوا أنهم لا يقدرّون على شىء من الأفعال التى تظهر على أيديهم ، ولا يستطيعون الامتناع عن شىء من ذلك ولا التبرك لها بالحقيقة ، نسبوها كلها إلى القضاء والقدر . وأما خصماؤهم ومخالفوهم فكان نظرهم واعتبارهم فى هذه المسألة الأوامر والنواهى والمدح والذم والوعيد والوعيد المتوجهة على الإنسان العاقل المستطيع ، ورأوا أنه محجوج بها مزاح العلة فيها ، وليس له أن يحتج على أحد لا عند الله ولا عند الناس بالقضاء والقدر ، وعلم الله السابق فى الكائنات ، لأنه لا يدرى أحد فى مبدأ أمره وأول أفعاله قضاء الله وقدره وعلمه السابق ، وإنما تبين له ذلك بعد فراغه مما قد فعل أو ترك ما أمر الله به ، وهذا النظر نظر أولئك واعتبارهم ، قالوا فلا جرم أن المسألة قائمة بخالها والخلاف باق ، والحكومة لم تنفصل ، بل كلما ازدادوا فيها نظراً واعتباراً وبحثاً وجدالاً ، ازدادوا خلافاً على خلاف إلى يوم القيامة « والله يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

ونشأت الشيعة فى الحجاز<sup>(٢)</sup> ، وكان بعض الصحابة من أنصار على بن أبى طالب ، ثم شاع مذهبهم فى العراق وخالفوا أهل السنة بالإمامة ، وخالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلاً ، والأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعاً . وقال الإمامية منهم إن خلافة على منصوص عليها من الرسول ،

(١) رسائل إخوان الصفا .

(٢) خطط الشام للمؤلف ج ٦ .

ولا تكون في غير أهل البيت وأن الرسول أوصى لعلي بالخلافة يوم غدِير خُم<sup>(١)</sup> ، وأنه معصوم وآله عن الكبائر والصغائر ، وأنه وآله لا يخطئون ولا ينسون ولا يسهون ، وأن محمداً المهدي أحد أئمتهم مستور عن الناس كالخضر وإلياس إلى أن يؤذن له في الظهور .

وخالف الشيعة الأشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى ، وقالوا كالمعتزلة باستحالتها مطلقاً ، وخالفوا في مسائل طفيفة ليست جوهرية ومنها ما يقول به بعض الفرق الأخرى . وهم يقولون إن علياً يرجع . ولما قتل على قال عبد الله بن سبأ لو أتيتمونا بدماعه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . « وفكرة الرجعة<sup>(٢)</sup> هذه أخذها ابن سبأ من اليهودية ، وكان يهودياً قبل الإسلام ، فعندهم أن النبي إلياس صعد إلى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون ، ووجدت الفكرة في النصرانية أيضاً في عصورها الأولى ، وتطورت عند الشيعة إلى الأئمة ، وأن الإمام الختفي سيعود فيملأ الأرض عدلاً ، ومنها نبعت فكرة المهدي المنتظر » .

والشيعة عدة فرق ومنهم الغالي ومنهم المعتدل والرافضة فرقة من فرقهم . قال زيد<sup>(٣)</sup> بن علي : الرافضة حربى وحوب أبى في الدنيا والآخرة ، مردت الرافضة علينا كما مردت الخوارج على علي عليه السلام ، قالوا : والرافضة أول ما ترفضت جاءت إلى زيد بن علي حين خرج فقالوا : تبرأ من أبى بكر وعمر حتى نكون معك فقال : بل أتولاهما وأبرأ ممن يبرأ منهما قالوا : فإذا نرفضك فسميت الرافضة ، وأما الزيدية فقالوا نتولاهما ونبرأ ممن يتبرأ منهما فخرجوا مع زيد فسموا الزيدية . ورأى المعتزلة في الخلافة لم يتعد القول كثيراً ، ولكن رأى الشيعة فيها تجاوز إلى العمل ، ووضع الغالون منهم لتأييد مذهبهم أحاديث لا يصححها جمهور الأمة ، ومن ذلك نهج البلاغة الذى ألفه الشريف الرضى من كلام

( ١ ) اعتقادات الإمامية للعالمى . ( ٢ ) فجر الإسلام لأحمد أمين .

( ٢ ) تاريخ دمشق لابن عساكر .

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وروى فيه خطباً له وكلاماً يستحيل أن يقوله ، ومنه ما لا يصدر عن عربي من أهل الصدر الأول لأن فيه ألفاظاً من مصطلحات القرن الثاني والثالث (١) .

واضطرب بعض علماء الملة أن يبحثوا في الدين على طرق فلسفي منطقي (٢) لأن كثيرين ممن دخلوا في الإسلام في القرنين الأولين كانوا من النصارى واليهود والثنية ولا سيما أصحاب ماني ، وكان مركزهم القديم في العراق ، وكثير منهم على مذهب الديصانية والمرقيونية وغيرهم من فرق الثنية ، ثم فرق الدهرية وهم الفلاسفة والسُّمَنِيَّة ، والسُّمَنِيَّة أصحاب سُمَّن عبدة أوثان ، بقولون بقدم الدهر وبتناسخ الأرواح وأن الأرض تهوى سنفاً أبداً . وكان الناس على وجه الدهر سُمَنِيَّين وكلدانيَّين ، والكلدانيون هم الذين يسمون الصابئين والحرانيين وبقاياهم بخران والعراق ، ويزعمون أن نبيهم بوذاسف الخارج في بلاد الهند ، وبعضهم يقولون هرمس ، فأما بوذاسف فقد كان في أيام طمهوروث الملك

(١) يقول ابن تيمية في منهاج السنة : إن أكثر الخطب التي ينقلها صاحب نهج البلاغة كذب على علي ، وعلى رضي الله عنه أهل وأعلى قدراً من أن يتكلم بذلك الكلام ، ولكن هؤلاء وضعوا أكاذيب وظنوا أنها مدح فلا هي صدق ولا هي مدح ، ومن قال إن كلام علي وغيره من البشر فوق كلام المخلوق فقد أخطأ ، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم فوق كلامه وكلامهما مخلوق . وأيضاً فالمعاني الصحيحة التي توجد في كلام علي موجودة في كلام غيره ، لكن صاحب نهج البلاغة وأمثاله أخذوا كثيراً من كلام الناس فجعلوه من كلام علي ، ومنه ما يحكى عن علي أنه تكلم به ، ومنه ما هو كلام حق يليق به أن يتكلم به ، ولكن هو في نفس الأمر من كلام غيره . ولهذا يوجد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من الكتب كلام منقول عن غيره على : وصاحب نهج البلاغة يجعله عن علي ، وهذا الخطب المنقولة في كتاب نهج البلاغة لو كانت كلها عن علي من كلامه لكانت موجودة قبل هذا المصنف منقولة عن علي بالأسانيد وبغيرها ، فإذا عرف من له خبرة بالمنقولات أن كثيراً منها بل أكثرها لا يعرف قبل هذا علم أن هذا كذب وإلا فليبين الناقل لها في أي كتاب ذكر ذلك ، ومن الذي نقله عن علي وما إسناده ، وإلا فالدعوى المجردة لا يعجز عنها أحد ، ومن كان له خبرة بمعرفة طريقة أهل الحديث ومعرفة الآثار والمنقول بالأسانيد وتبيين صدقها من كذبها ، علم أن هؤلاء الذين ينقلون مثل هذا عن علي من أبعد الناس عن المنقولات والتميز بين صدقها وكذبها .

(٢) مقدمة كتاب الانتصار لنيبرج .

وأتى بالكتابة الفارسية وسمى هؤلاء صابئين في أيام المأمون ، فأما الصابئون على الحقيقة ففرقة من النصارى ، وبقايا السمنية بالهند والصين . والدنصانية منسوبون إلى ابن ديصان وهم ثنوية ، والمرقيونية ينسبون إلى المرقين هم ثنوية أيضاً ، والمنانية هم المانوية منسوبون إلى مانى . وفي القرن الثانى كان فى العراق يهود وصابئة ونصارى ومجوس وسامرة . وبعض من دخلوا فى الإسلام منهم لم يتخلوا عن شعورهم وعاطفتهم فانسل بهم فى الإسلام ما ليس منه ، وظاهره الإسلام وما هو به .

وكان لكل مذهب من هذه المذاهب القديمة<sup>(١)</sup> كلام مدقق ، وعقائد محررة مقررّة على أصول فلسفية ، استعد أربابها منذ قرون للرد على خصومهم ببراهين ودلائل ، واعتادوا الجدل ومقارعة الخصوم . وكانت الشيعة محل امتزاج الثنوية بالإسلام خاصة ، إذ كان فى أفكارها الرئيسة من الموافقة مع مذهب الثنوية ما لا يخفى . مثال ذلك قولها فى أئمتها وتجسيمها الذى هو أقرب شىء إلى تجسيم الثنوية . وقد ثبت عن كثير من رجالها أنهم جمعوا بين الرفض والزندقة ، والزندقة هى مذهب الثنوية . والزنادقة والمعطلة والمهملّة والملاحدة والدهرية والمزدكية شىء واحد . قال فيهم صاحب البدء والتاريخ : وما قط انتشروا فى أمة من الأمم ، ولا أقروا فى وقت من الأوقات انتشارهم فى هذه الأمة لإعطائهم الأقرار بالديانة ظاهراً ، وحقق الشريعة دم من أجاب إليها ، وهم هؤلاء الباطنية الباطلية الذين تخلعوا عن الأديان<sup>(٢)</sup> . وقال المعرى<sup>(٣)</sup> : إن المسلمين لما اتسع ملكهم مازج العرب منهم غيرهم من الطوائف وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق فالت منهم طائفة كثيرة ، ولم يزل الإلحاد فى بنى آدم على ممر الدهور ، ولا ملة إلا ولها قوم ملحدون ، يرون أصحاب شرعهم أنهم موالفون ، وهم فيما نظن مخالفون .

وقام مذهب الخوارج منذ القرن الأول يكفرون علياً وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بتحكيم الحكمين فى وقعة صفين ، والإكفار

(١) مقدمة كتاب الانتصار لنيرج .

(٢) خرجوا منها .

(٣) رسالة الغفران للمعرى .

بارتكاب الذنوب ووجوب الخروج على الإمام الجائر ، سماهم خصومهم بالخوارج لأنهم خرجوا<sup>(١)</sup> على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه ، ويسمى خارجياً كل من خرج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدها على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان . وسبوا أنسبهم بالشُّراة لقولهم إنا شرينا أنفسنا في طاعة الله ، أي بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة ، وقاتلهم على ثم من بعده من الأمويين وغيرهم ، وهم يخالفون من حيث المذهب أهل السنة في مسائل طفيفة . وقد اختلفوا كالشيعة والمعتزلة فرقاً كثيرة ذكرت في كتب الملل والنحل . وكانوا الغاية في الصلابة في الدين والشجاعة والصدق ، ومذهبهم لم يتأثر بمؤثرات خارجية ، وكانت بقايا الخوارج الإباضية ببلاد حضرموت إلى القرن الرابع<sup>(٢)</sup> ، والإباضية هم أصحاب عبد الله بن أباض الذي خرج في أيام مروان بن محمد .

وأهم الفرق التي خرجت على الجماعة وأضررت بالإسلام فرق الباطنية ، ادعوا أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً . وقد وضع أساس مذهبهم أناس من أبناء الجوس دخلوا في الإسلام ، وتأولوا آيات القرآن وسنن الرسول على ما يوافقهم . استتروا لنشر مذهبهم وراء دعوى الخلافة لآل علي . ومن الباطنية الإسماعيلية القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل ، انتقلت إليه بعد أبيه دون أخيه موسى الكاظم ، وهم يرون أن الأرواح مسجونة في هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر ، والعقل عندهم هو حقيقة معبودهم . والإسماعيلية طبقات كالماسونية ، والذين يرنصص لهم بالاطلاع على أسرار الدين تسع طبقات . ومن فرق الباطنية النصيرية أتباع نصير غلام علي بن أبي طالب ، يدعون ألوهية علي مغلاة فيه ، ويزعمون أن مسكنه السحاب ، ويدعى بعض منتحلي هذا المذهب أن ليس لهم ديانة خاصة أو مذهب خاص بل إنهم مسلمون شيعيون جعفريون لا فرق بينهم وبين سائر الجعفرية وليس بينهم قيود دينية أو اجتهادات علمية مع الإمامية إلا ما أوجبه السياسة

(١) الملل والنحل للهمبرستاد . (٢) مروج الذهب للمسعودي .

والبيئة ، ويعتقدون كسائر مذاهب الشيعة أن الأئمة الاثني عشر معصومون من الخطأ .

قال ابن الجوزي في المنتظم (١) : « لما جاء النبي وقهر الأملاك وقمع الإلحاد اجتمع جماعة من الثانوية والمجوس والملحدون ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فأعملوا رأيهم وقالوا ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومخرقوا (٢) على أممهم ، وأعظم الكل علينا بلية محمد ، فإنه نبغ بين العرب العظام وخدعهم بناموسه ، فنصروه وبذلوا له أموالهم وأنفسهم ، وأخذوا بمالكنا وقد طالت مدتهم ، والآن فقد تشاغل أتباعه ، ومنهم مقبل على كسب الأموال ، ومنهم على تشييد البنيان ، ومنهم على الملاحى ، ومنهم يتلاعنون ويكفر بعضهم بعضاً ، فقد ضعفت أبصارهم ، ونحن نطمع في إبطال دينهم ، إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم ، فليس الطريق إلا إنشاء دعوة والانتماء إلى فرقة منهم ، وليس فيهم أضعف عقولا من الرافضة ، فندخل عليهم بذكر ظلم سلفهم الأشراف من آل نبيهم ، ودفعهم عن حقهم وقتلهم ، وما جرى عليهم من الذل ، لنستعين بهؤلاء على إبطال دينهم ، فتناصروا وتكاتبوا وتوافقوا وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق ، وأخذوا بعض آرائهم من المجوس وبعضها من الفلاسفة ومخرقوا على أتباعهم ، وقصدهم المجد المطلق ، ويسمون الإسماعيلية والباطنية والقرامطة والخُرُمِيَّة والبابكية والحمرة والشيعة والتعليمية وأكثر مذهبهم يوافق الثانوية ، والفلاسفة في الباطن ، والروافض في الظاهر . وقد نبغ منهم قوم أظهروا إمامة محمد بن الحنفية ، وقالوا إن روح محمد انتقلت إليه ، ثم انتقلت منه إلى أبي مسلم صاحب الدعوة ، ثم إلى المهدي ثم إلى رجل يعرف بابن القصرى ، ثم خمدت نارهم ، ثم نبغ في أيام المأمون لهم رجل بينهم (٣) فاحتال فلم تنفع حيلته ، ثم تناصروا في أيام المعتصم وكاتبوا

(١) نشر هذا دى سوموجى فى مجلة الدروس الشرقية الإيطالية Rivista degli studi Orientali

(٢) المخرفة : الكذب والاختلاق . (٣) بيت العدو : هجم عليه ليلا .

الأفشين وهو رئيس الأعاجم قال إليهم واجتمعوا على بابك ، ثم زاد جمعهم على ثلاثمائة ألف فقتل للعنصم منهم ستين ألفاً ، وقتل الأفشين أيضاً ثم ركدت دولتهم ، ثم نبغ منهم جماعة قصدوا إبطال الإسلام ورد الدولة الفارسية ، وأخذوا يحتالون في تضعيف قلوب المؤمنين ، وأظهروا مذهب الإمامية وبعضهم مذهب الفلاسفة ، وجعلوا لهم رئيساً كان مشعبذاً ممخرقاً ، ادعى أن الأرض تطوى له ، وكان يبعث خواص أصحابه إلى الأطراف ومعهم طيور ويأمرهم أن يكتبوا إليه الأخبار عن الأبعاد ثم يحدث الناس بذلك . « ونبغ رجل<sup>(١)</sup> متمسك بالزهد من سجستان يقال له أبو عبد الله بن الكرام ، قليل العلم قد قمش من كل مذهب ضغناً<sup>(٢)</sup> وأثبتته في كتاب ، وروجه على أغنام<sup>(٣)</sup> غزنة وغور وسواد بلاد خراسان فانتظم ناموسه<sup>(٤)</sup> ، وصار بعد ذلك مذهبا قد نصره محمود بن سبكتكين السلطان وجر البلاء على أصحاب الحديث والشيعة من جهتهم ، وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج وهم مجسمة<sup>(٥)</sup> » .

( ١ ) الملل والدحل للشهرستاني . ( ٢ ) قمش القماش جمعه من هنا وهناك وانضفت قبضة حشيش يختلط فيها الرطب باليابس والاضفت من الخبر والأمر ما كان مختلطاً لا حقيقة له وجمعه أضماث . واضافات أحلام ، أحلام مختلطة لا يصح تأويلها باختلاطها . ( ٣ ) الأغنم والغنمى ؛ من لا يفصح في كلامه يقال : رجل أغنم وقوم غنم وأغنم وامرأة غنماء ، وغور جبال وولاية بين هراة وغزنة .

( ٤ ) الناموس : القانون والشرية . ( ٥ ) زعم عبد القادر البغدادي المتوفى سنة ٨٤٢٩ في الكتاب الذي أسماه ( التفرق بين الفرق ) وبيان الفرقة الناجية منهم ، وبني كتابه على حديث مأثور أن الأمة الإسلامية تفترق على ثلاث وسبعين فرقة - أنه لم يكن بحمد الله في الخوارج ولا في الروافض ولا في الجهمية ولا في القدرية ولا في المجسمة ولا في سائر أهل الأهواء الضلالة إمام في الفقه ولا إمام في رواية الحديث ولا إمام في اللغة والنحو ، ولا موثق به في نقل المغازي والسير والتاريخ ، ولا إمام في الوعظ والتذكير ، ولا إمام في التأويل والتفسير ، وإنما كان أئمة هذه العلوم على الخصوص والعموم من أهل السنة والجماعة . هذا ما قاله وفيه من المبالغة ما لا يخفى محله على ناقد بصير ، ولعله تناسى رجالاً عظاماً كانوا في الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم لم ينسج في العلم والأدب كثير أمثالهم في هذه الأمة ، وما برح بعض أرباب المذاهب يدخلون في جهلهم كل من امتازوا بعلم ، وثبتت لهم العبقريّة والنبوغ ، وقد وقع في العهد الأخير لأحد فتناء الشيعة أن ألف كتاباً في الشيعة وفنون الإسلام نسب التشيع فيه إلى كثير من علماء العصر الأول وقد قلنا في فقدده : « فإن كان كل من يحب علياً كرم الله وجهه يعد في نظر المؤلف شيعياً فإن جمهور المسلمين شيعة إلا قليلاً » .

ومن الفرق الباطنية المذهب الدرزي يقول إن روح آدم انتقلت إلى علي ابن أبي طالب ، ومنه إلى أسلاف الحاكم بأمر الله ملك الفاطميين ، متمصة من واحد إلى آخر ، والدين الحق توحيد الحاكم ، ويفترض عندهم صدق اللسان بدل الصرم ، وحفظ الإخوان بدل الصلاة ويقرأون القرآن ويؤلونه ويذهبون إلى قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ، ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص ، وأن الهوية الإلهية تنتقل من قالب وتحل في قالب آخر في كل عصر فتجلى في كل زمن بصورة وتجلت أخيراً في الحاكم .

ونشأت أيضاً فرق غريبة يصعب بعد التتبع الشديد معرفة العصر الذي وجدت فيه ، وإن زعم الزاعم انقراضها يعسر عليه إثبات زمن انقراضها ، كما تصعب معرفة ترجمة رجل من حذاقها ، والذين كتبوا في هذا الشأن منهم الناقل غير الناقد ، ومنهم المموه لغلبة الهوى عليه ، ومنهم من لم تنشر كتبه . قاله شيخنا الجزائري . وفي كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري والملل والنحل للشهرستاني والملل والنحل لابن حزم والفرق بين الفرق للبغدادى وصف هذه الفرق وتنوعها ، ودعوى كل فرقة أنها ذاهبة بالحق اليقين . وأنها الماجية وحدها يوم الدين .

والأصل في جميع هذه الفرق وما تشعب عنها دعوى « الخلافة » أو مسائل دينية غير جوهرية استخدمها الدعاة لأجل الخلافة والملك . فالخلافة هي أساس البلاء جرت على الأمة ما جرت ، وهلك في سبيل تحقيقها لفريق دون فريق الأخضر واليابس ، وغدا « لكل »<sup>(١)</sup> فرقة مقالة على حيالها ، وكتب صنفوها ودولة عاونتهم ، وصوله طاوعتهم « وأهل السنة والجماعة يطلقون على أكثر هذه الفرق اسم المبتدعة ؛ والبدعة عندهم على ضربين<sup>(٢)</sup> بدعة صغرى كغلو التشيع أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرف ، ، فهذا كثير في التابعين وأتباعهم مع الدين والورع والصدق ، ثم بدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه والخط على أبي بكر وعمر والدعاء إلى ذلك ، فالشيعي الغالى في زمن السلف

( ١ ) الملل والنحل للشهرستاني . ( ٢ ) لسان الميزان لابن حجر .

وعرفهم هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة وطائفة ممن حارب علياً وتعرض لسبهم ، والغالى هو الذى كفر هؤلاء السادة وتبرأ من الشيخين أيضاً . وهناك فرق الملاحدة من المتفلسفة ظهوروا كما ذكر ابن تيمية في كل (١) زمان ومكان ضعف فيه نور الإسلام . وكان من أسباب ظهورهم أنهم ظنوا أن دين الإسلام ليس إلا ما يقوله أولئك المبتدعون ، ورأوا ذلك فاسداً في العقل ، فكان غلاتهم طاعنين في دين الإسلام باليد واللسان ، كالحرمية أتباع بابك الحرمى . وقرامطة البحرين أتباع أبي سعيد الجنابي وغيرهم ، وأما مقتصدتهم وعقلاؤهم فرأوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فيه من الخير والصالح ما لا يمكن القدح فيه ، بل اعترف حذاقهم بما قاله ابن سينا وغيره من أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموس محمد ، وكان هذا موجب عقلهم وفلسفتهم اهـ .

يقول المقدسى (٢) : إن التعصب قد ثوره الجهال المسرفون من القصاص وغيرهم ، وأما الأمة فهى على النقيض من ذلك . قال هذا في القرن الرابع وما زال الأمر على ذلك في أكثر العصور إلى يومنا . ولذلك كان واجب العقلاء من أهل المذاهب الإسلامية كافة ، وكلها في جوهرها مسلمة ، أن تسدل اليوم دون حوادث الماضى حجاباً كثيفاً ، وتسعى قلباً وقالباً لأن يتناسى المسلمون ما شعب وحدثهم في الدهر الغابر ، فالخلاف مهما كان وكانت الدواعى إليه قد انقضت عصره . وإن أهل بيت واحد يرون الخطر يهددهم من كل مكان لأحرياء بأن يتناسوا ما بينهم من اختلافات طفيفة ، ويهبوا يداً واحدة للقضاء على من يريد السوء بهم ، ويفترص ما شجر بينهم ليستغلهم ويجعلهم مطية لمطامعه وأغراضه .

وبعد فقد تبين من عدة إحصاءات قام بها بعض الغربيين في أدوار مختلفة أن المخالفين من المسلمين لعقائد أهل السنة والجماعة لا يتجاوزون العشرين

(١) منهاج السنة لابن تيمية .

(٢) أحسن التقاسيم للمندسى .

مليوناً في البلاد الإسلامية والباقيون من أهل المذاهب الأربعة المتعارفة . والغالب<sup>(١)</sup> على المغرب الأقصى اليوم المذهب المالكي وهو الغالب أيضاً على الجزائر وتونس وطرابلس لا تكاد تجد فيها من مقلدى غيره إلا الحنفية بقلة ، وهم من بقايا الأسر التركية وأكثرهم في تونس ، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها . ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفى مشاركاً للقضاء المالكي وأما سائر أعمالها فقضايتها مالكية . ويغلب في مصر الشافعي والمالكي ، الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان ، ويكثر الحنفى وهو مذهب الدولة والمتبع في الفتوى والقضاء ، والحنبل قليل بل نادر . ويغلب الحنفى في بلاد الشام ويكاد يشمل نصف أهل السنة بها ، والرابع شافعية والرابع حنابلة . ويغلب الشافعي على فلسطين ويليهِ الحنبلي ، فالحنفى فـالمالكي ، ويغلب الحنفى على العراق ويليهِ الشافعي ويليهِ مالكية وحنابلة ، والغالب على الأتراك والألبان وسكان بلاد البلقان الحنفى ، وعلى بلاد الأكراد الشافعي وهو الغالب على بلاد إرمينية لأن مسلميها من أصل تركماني أو كردي . والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية . والغالب على بلاد الأفغان الحنفى ويقل الشافعي والحنبل ، وعلى تركستان الغربية التي فيها بخارى وخيوه الحنفى . وأما تركستان الشرقية المسماة أيضاً بالصينية ، فكان الغالب عليها الشافعي ثم تغلب الحنفى بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى . والغالب على بلاد القوقاز ، وما والاها الحنفى وفيهم الشافعية . والغالب في الهند الحنفى ، ويقدر أتباعه بنحو ٤٨ ألف ألف ، وأتباع الشافعي بنحو ألف ألف ويكثر بها أهل الحديث والآثار . . . ومسلمو جزيرة سرنديب ( سيلان ) وجزائر الفلبين والجاوة وما جاورها من الجزائر شافعية ، وكذلك مسلمو سيام ، ولكن بها حنفية بقلة ، نقله النازحون إليها من الهنود . ومسلمو الهند الصينية شافعية وكذلك مسلمو استراليا . وفي البرازيل من أمريكييها نحو ٢٥ ألف مسلم حنفية ، وفي البلاد الأمريكية الأخرى مسلمون مختلفو المذاهب ، وتبلغ عدة الجميع نحو ١٤٠ ألفاً . والغالب على أهل

( ١ ) حدوث المذاهب الأربعة لاحقاً .

الحجاز الشافعي والحنبلي ، وفيه حنفية ومالكية في المدن ؛ وأهل نجد حنابلة وأهل عسير شافعية ؛ والسنينيون في اليمن وعدن وحضرموت شافعية أيضاً ، وقد يوجد في نواحي عدن حنفية ، والغالب على عمان مذهب الإباضية ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية . ويغلب على قطر والبحرين المالكي وفيها حنابلة من الواردين عليها من نجد ، والغالب على أهل السنة في الأحساء الحنبلي والمالكي ، والغالب على الكويت المالكي ، انتهى كلام تيمور .

وقال غولد صهير في معلمة الإسلام : إن المذهب الحنفي انتشر في معظم بلاد الإسلام كتركيا وآسيا الوسطى والهند ، والشافعي في مصر وجنوبي بلاد العرب وجاوة وإفريقية الشرقية وسورية ، والمالكي في المغرب وأحياناً في صعيد مصر وإفريقية الغربية الألمانية والإنجليزية ، والحنبلي الذي كان إلى القرن الثامن ( الرابع عشر ) شائعاً جداً في العراق ومصر والشام وفلسطين قد اقتصر اليوم من بلاد العرب على نجد .

### الاضطهاد في سبيل المذاهب والأفكار<sup>(١)</sup> :

منذ ظهر الإسلام كان من يخالف الجمهور في المعتقدات والآراء يحمل إلى الولاة فلما أن يستتيبوه أو يعاقبوه ، وما فتئ المهيمنون على الشريعة يثيرونها شعواء على كل من جاهر بفكرة دعا إليها أو لم يدع ، ويكنى في بلاتته خروجه عن المألوف والعرف ، وكانت أهم مسائل القرن الأول مسألة القدرية اهتزت لها الخلافة واهتز لها الناس وما هي بالأمر المهم إذا قيست بالمظالم والمنكرات التي حدثت . وبعضها مما يشغل مثات من العاملين في إصلاحه . ورأوا من أهمتهم مسائل القدر فقط انفراج ما بين الشرع ومتحليه فما أنكروا ولا انتقدوا . وذهبوا يناوئون سراً وجهراً كل باحث خالف لهم فكراً ، خصوصاً إذا شعروا أن صاحب الأمر موافق لهم على ما يذهبون إليه ، أو أنه يريد أن يلبس المخالف له ثوب الدين لينتقم منه من أجل السياسة

(١) سافر المؤلف بهذا الفصل في كلية الآداب من فروع الجامعة المصرية بالقاهرة

سنة يوم ٣٠ شعبان ١٣٥٢ ( ١٧ ديسمبر ١٩٣٣ ) .

ولذا كان بعضهم يغفلون في المثالب والمناقب فأفسدوا وما قدروا مدى إفسادهم .

وما خلا عصر من جامدين كان لهم السلطان الأكبر على العقل فعبثوا به وبأهله . وهؤلاء هم الذين خاطبهم الغزالي في القرن الخامس<sup>(١)</sup> بقوله : « وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم<sup>(٢)</sup> وإرادتهم جاههم وشهواتهم وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم وسواسهم ، وكثرهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم » .

ولو جئنا نعدد من قضوا شهداء فكرهم لطال بنا الأمر ، لأن لكل بلد منهم غير واحد أوذوا وعذبوا وأهلكوا ، وما كانت السلطة التنفيذية على ما يظهر تنزل على إرادة السلطة القضائية في معنى اضطهاد الأفكار ، إلا إذا كان للسلطان مأرب من ذلك ، يحاول أن يسد الذريعة<sup>(٣)</sup> في وجه من يرجي أن يستخدم السياسة لمأرب ، فيتخذ الملك من الدين حجة .

أول زندقة عرفت في زمن الخليفة الرابع زندقة أناس غاوا فيه فأذوه فأحرقهم بالنار ، وقتل هشام بن عبد الملك غيلان بن مروان من القائلين بالقدر ، غيل لأنه نال كثيراً من بني أمية ، وكان من مذهبه أن الخلافة تصلح في غير قریش إذا استوفى الخليفة الشروط المطلوبة ، وهو رأس المعتزلة ومن نوابغ العلماء الذين حاربوا الظلم والتظالم . وضرب الحجاج عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه الراوى من التابعين أربعاً سوط ثم قتله ، والسبب في ذلك السياسة . وضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة سوط وكان لقي العلماء وقرأ الكتب وكان من النساك ، ويذكرون أنه كان تعلم علماً كثيراً لا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه ، يشبه ما يدعى الناس من علم النجوم ، فأمر الوليد بن عبد الملك

( ١ ) فصل التفرقة للغزالي .

( ٢ ) الرعونية ، الحق .

( ٣ ) الذريعة الوسيلة .

( ٤ ) ذكر المعتزلة للمرتضى .

فضرب بالسوط وبرد له ماء في جرة ثم صب عليه في غداة باردة فكز<sup>(١)</sup> فمات بها . وضرب أبو عمرو بن العلاء خمسمائة سوط ، وضرب مالك بن أنس سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان ، سعى به إلى جعفر بن سليمان عم أبي جعفر المنصور وقالوا إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء واتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالزندقة . وقتل عمرو بن آخر ملك بني أمية<sup>(٢)</sup> جهنم بن صفوان لما ظهرت دعوته بتر مذ ، لا لأن له رأياً في الدين بل لأنه قام مع الحارث بن سريح في خراسان يجاذب الأمويين حول السلطة ، وقتل الوليد أبا بهس الهيصم بن جابر صاحب البيهسية وأمر أن تقطع يداه ورجلاه أولاً .

واتهم المهدي العباسي شريكا القاضي بالزندقة لأنه كان يكره العباسيين ، وقتل المهدي صالح بن عبد القدوس على الشبهة<sup>(٣)</sup> متهماً إياه بالزندقة مع أنه لما وافاه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحكمته ، وقتل المهدي بشار بن برد بدعوى الإلحاد ، وروى قوم أن كتبه<sup>(٤)</sup> فقتلت فلم يصب فيها شيء مما كان يرمى به وأصيب له كتاب فيه إنى أردت هجاء آل سليمان بن علي ( بن عبد الله ابن العباس ) فذكرت قرابتهم من رسول الله فأمسكت عنهم إلا أنى قلت :

دينار آل سليمان ودرهمهم      كبا بلين حُفّاً بالعفاريت  
لا يرجيان ولا يرجي نواهما      كما سمعت بهاروت وماروت

وجد هذا الخليفة في سنة ١٦٧ في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وتوفر على تقصيب<sup>(٥)</sup> الفلاسفة وتقطيع كتبهم والإمعان في قتال الملحدين لما انتشر من كتب ماني<sup>(٦)</sup> وابن ديصان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنفه في ذلك الوقت ابن أبي العوجاء وحامد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع ابن إياس تأييداً لمذهب المانية والديصانية

( ١ ) كز الرجل فهو مكزوز أصابه الكزاز وهو يبس وانقباض من البرد .

( ٢ ) الملل والنحل للشهرستاني . ( ٣ ) تاريخ بغداد للخطيب .

( ٤ ) الكامل للمبرد . ( ٥ ) تقصيب ؛ تقطيع .

( ٦ ) مروج الذهب للمسعودي .

والمرقيونية ، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس . وأنشئ\*  
للزنادقة ديوان خاص دعوا القائم عليه صاحب ديوان الزنادقة ، وجعل لهم  
حبس يدعونه حبس الزنادقة . وكان المهدي<sup>(١)</sup> قد قال للهادي يوماً وقد قدم إليه  
زنديق فقتله وأمر بصلبه : يا بني إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصاة ،  
يعني أصحاب ماني فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد  
في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ومس الماء  
الطهور وترك قتل الهوام تخرجاً ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور  
والآخرة الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول  
وسرقة الأطفال من الطرق لتنفذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . وكان  
عبد الكريم بن أبي العوجاء بالبصرة يفسد الأحداث فقال له عمرو بن عبيد  
قد بلغني أنك تخلوا بأحداث من أحداثنا وتدخلهم في دينك ، فإن خرجت من  
مصرنا وإلا قمت فيك مقاماً أخاف منه على نفسك ، فلاحق بالكوفة فدل عليه  
محمد بن سليمان فقتله وصابه بها .

قال المسعودي : وكان المهدي أول من أمر الجدلبيين من أهل البحث من  
المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم  
فأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين ، فأوضحوا الحق  
للساكين . أما الرشيد فنزع من الجدل في الدين وحبس أهل علم الكلام ثم  
أخرجهم . وأما ابنه المأمون فأطلق للحرية العنان فتمتع علماء الكلام والفلاسفة  
وغيرهم في أيامه بأجل حسنات الحرية المطلقة .

ولقد كاد المعتزلة للمحدثين في عصر المأمون والمعتصم ، لأن المعتزلة  
يتشددون في قبول الحديث ولا يعملون به إلا بعد جهد ، فلما تراجع أمر  
المعتزلة وقوى المحدثون كال هؤلاء لخصومهم الصاع صاعين . واتهم أحمد

(١) تاريخ الطبري .

ابن أبي داود من عطاء العباسيين حميد بن سعيد من وجوه المعتزلة بالزندقة. « وأحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلم يجب إلى القول بخلقه فجلده حتى غاب عقله وتقطع جلده وقيد وحبس » وقتل الواثق « ٢٣١ » في المحنة على القرآن أحمد بن نصر من علماء عصره وصلبه وكتب في أذنه رقعة : « هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتل الله على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفى التشبيه ، وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق ، فأبى إلا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذي عجل به إلى ناره وأليم عقابه ، وأن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه ، وتكلم بالكفر ، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه » وقيل إن ابن نصر قال للواثق أثناء المناقشة في خلق القرآن (مه يا صبي) ، وأمر أن يتبع من وسم بصحبة أحمد بن نصر ممن ذكر أنه كان مشايحاً له فوضعوا في الحبوس ثم جعل نيف وعشرون رجلاً في حبوس الظلمة وضيق عليهم<sup>(١)</sup> . وحمل أبو يعقوب البويطي<sup>(٢)</sup> خليفة الشافعي في حلقة بعده إلى بغداد مغاولاً مقيداً وأريد على القول بخلق القرآن فامتنع فحبس ببغداد إلى أن مات في القيد والسجن . ونشأت أولاً وآخرها غوائل وخصومات منع من اشتدادها ما كان عليه الناس من أخلاق حسنة كان الدين المؤثر الأول فيها ، وكان على شيء من نصارته الأولى .

وفي سنة (٢٧٧) منع المعتضد من بيع كتب الفلسفة والمنطق وتهدد على ذلك . وفي سنة (٢٨٩) حالف الوراقون في دار السلام ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة وكان لهذا المنع ما يبرره بعض التبرير ، لأن الفلسفة أخذت في هذه الحقبة تهاجم الدين بمقياس واسع . وكانت فتنة ابن قريش بمصر (٢٨٥) وذلك أنه أنكر أن يكون أحد خيراً من أهل رسول الله فوثب به الرعية فضرب بالسياط فمات بعد يومين . وقتل الخليفة ابن حبان البستي من أعلم أهل عصره .

(١) تاريخ أبي الفداء .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي .

ومن طبقة البخارى فى الحديث ، بدعوى أنه يعرف بعض العلوم الرياضية<sup>(١)</sup> (٣٥٤) ولعل السبب لأنه ألف كتاباً فى القرامطة وقال حاسدو فضله إن هواد كان معهم .

وتتبع محمود الغزنوى لما فتح الرى وغيرها فى سنة (٤١٠) طائفة من المعتزلة ونفاهم وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة ، فلقى منه علماء المعتزلة الألاقى مع أنه كان يحب الفلسفة ويعطف على الفلاسفة . وربما كان هذا مما حمل ابن الطيب المتكلم البصرى المعتزلى (٤٣٦) ، وكان عالماً بعلم كلام الأوائل ، أن يتقى أهل زمانه فى التظاهر به ، فأخرج ما عنده فى صورة متكلمى الملة الإسلامية وأحكم ما أتى من ذلك . وكان مذهب الاعتزال انتشر فى مصر فى جملة ما انتشر فيه من الأفكار ، ولكن المقاومة كانت شديدة له أكثر من مقاومة مصر للتشيع فى عهد الفاطميين ، لأنه كان من وراء التشيع قوة تحميه ودولة تمليه ، والاعتزال رائده العلم والنظر ، حتى قال أحدهم فى القرن الرابع من قصيدة

فإن سلكت طريق العلم تطلبه بالبحث أبت بتكفير من الناس  
وكان قائل هذا سيبويه المصرى من علماء المعتزلة فاختلف فقال المؤرخ  
ابن زولاق مدون أخباره : وإنما كان الناس يتابعونه لم اشتهر عنه من اختلاطه ،  
ولو تكلم بهذا أبو بكر بن الخداد أو أبو جعفر الطحاوى « وكلاهما من أكبر  
قضاة مصر وعلمائها » ، ومن يشبههما لقتل لوقته يغير مشاورة .

ومن الأمور الطبيعية أن يخاف الأمويون والعباسيون على ملكهم ممن يخالفونهم ويتربصون الدوائر بدولتهم ، ولكن ليس من العدل فى شيء أن يقتل مخالفوهم باسم الدين والذود عن الشريعة ، وفى الغالب أن يكون المعاقبون من أعيان الملة ومن أوعية العلم ، ولقد أودى العلماء بحجج كثيرة وفى مقدمتهم علماء المعتزلة ، وأودى الشيعة والخوارج لأن مذهبهم من المذاهب السياسية

الصرفة . والإسلام في الحقيقة ممزوج بالسياسة وهو لها ملازم غير مفارق . ولو جردوا العلم عن السياسة لما استطاع خليفة أن يدعى أنه قتل فلاناً لأنه خالف الشرع ، وكان الأولى أن يقال إنه خالف السياسة .

مثال من ذلك الحسين بن الحلاج فهو رجل عظيم ، وربما كان في كلامه بعض العهدة ، ولكنه ظل متمتعاً بحريته إلى اليوم الذي ثبت فيه للخليفة أنه كان بينه وبين رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة<sup>(١)</sup> وعند ذلك قتله متهماً إياه بالإلحاد ، وما كان بالملحد شأن عشرات غيره اتهمهم بالإلحاد علناً ، والتهمة في جوهرها سياسية لا يريد الخليفة أن يقول إن فلاناً يريد القضاء على سلطاني ويتهمه بأنه - لاول أن يعيث بالدين ، ولطالما كان الدين تكأة يتكى<sup>(٢)</sup> عليها بعض السياسيين .

جد الشيعة في نشر مذهبهم ، والدعوة إليه من أركان المذهب ، ولما قامت دولة الفاطميين من بني عبيد في إفريقية ( ٢٩٦ هـ ) ثم استولت على مصر حاولت نشر مذهبها بالسيف ، فن قبله نجا ومن أبي قتل ، وأفتت في إفريقية من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلاً ونفياً وتشريداً ويروى ابن الأثير أن أبا عبد الله الشيعي لما وصل إلى رقاده من عمل القيروان جلس رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعوهم إلى مذهبهم فن أجاب أحسن إليه ، ومن أبي حبس ، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس وهم قليل ، وقتل كثير ممن لم يوافقهم على مذهبهم . وأخرج الظاهر الفاطمي ( ٤١٦ ) من بمصر من فقهاء المالكية وغيرهم . وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام ومختصره وجعل لمن يحفظ ذلك مالا . وألف يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر كتاباً في فقه الإسماعيلية حرج على الناس أن لا يطالعوا غيره ، ونشط الفاطميون كل من حضره ووعاه : وكان ابن كلس<sup>(٣)</sup> أحضر في سنة ( ٣٨٠ ) جماعة الفقهاء وأهل الفتيا وأخرج لهم كتاب

( ١ ) الشامل لإمام الحرمين . ( ٢ ) انتكأة : ما يتكأ عليه كالعصا والقوس ونحوهما

( ٣ ) الإشارة إلى من قال الوزارة لابن الصيرفي .

فقه. عمله وقال هذا عن مولانا الإمام العزيز بالله عليه السلام عن آبائه الكرام ، وقرأ عليهم رسالته وبعض كتاب الطهارة ، وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية. ويقال إنه جمع على عمل هذه الرسالة أربعين فقيهاً . وقتل الفاطميون<sup>(١)</sup> أبا بكر ابن هديل وأبا إسحاق بن البرذون من فقهاء السنة وسحبوهما في أذنان الخيل لعدم إفتائهما بمذهب جعفر بن محمد الذي سموه مذهب أهل البيت . وابتنى الحاكم<sup>(٢)</sup> المدارس بمصر وجعل فيها الفقهاء والمشايع ثم قتلهم وخرّبها وأحرق نحو ثلث مصر ونهب نحر نصفها ، ومن جملة من قتلهم الحاكم من أهل العلم أبو شامة جنادة اللغوى المروى لما قدم مصر وكان من الفضلاء<sup>(٣)</sup> النبلاء .

ولما قدم المعز في القرن الرابع عطل مذهب الفاطميين وأمر بقتل الشيعة في إفريقية حواضرها وبواديها<sup>(٤)</sup> فلم يبق منهم أحد ، وحمل الناس على مذهب الإمام مالك ومنع ما عداه . وكان بإفريقية مذهب الصّنفريه والشيعة والأباضية والنعكارية والمعتزلة ، ومن مذاهب السنة الحنفية والمالكية ، فلم يبق في أيامه غير مذهب مالك . ووصف النويري<sup>(٥)</sup> هذه المذبحة فقال : ركب المعز في القيروان ، والناس يسلمون عايه ويدعون له ، فر بجاعة فسأل عنهم فقليل هؤلاء رفضة والذين قبلهم سنة . فقال : وأى شيء الرفضة والسنة . فقالوا : السنة يترضون عن أبي بكر وعمر ، والرفضة يسبونهما . فقال : رضى الله عن أبي بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها إلى ناحية تشتمل على جماعة منهم فقتلوا منهم جماعة ، ووقع القتل فيهم فصادفت شهوة العسكريين وأتباعهم طمعاً في النهب . وانبسطت أيدي العامة فيهم ، فأقبل عامل القيروان يظهر أنه يسكن الناس وهو يحرضهم ويشير إليهم بزيادة الفتنة ، فقتل من الرفضة خلق كثير في ديارهم وحوانيتهم وأحرقوهم بالنار وانتهت ديارهم

( ١ ) خطط المقرئى . ( ٢ ) حسن المحاضرة للسيوطى .

( ٣ ) سكردان السلطان . ( ٤ ) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار .

( ٥ ) البيان المذهب في أخبار الملوك لابن عذارى المراكشى .

وأموالهم وزاد الأمر واتصل القتل فيهم في جميع بلاد إفريقية . وقيل إن القتل وقع فيهم في جميع المغرب في يوم واحد في المدائن والقرى ، فلم يترك رجل ولا امرأة ولا طفل إلا قتل وأحرق بالنار ، ونجا من بقي منهم بالمهدية إلى الجامع الذي بالحصن فقتلوا فيه عن آخرهم ، وخرج من بقي من المشاركة وهم الرفضة إلى قصر المنصور بظاهر المنصورية وهم زهاء ألف وخمسمائة وتحصنوا به فحاصرهم أهل السنة واشتد عليهم الحصار فقتلوا عن آخرهم . اهـ

ولابن العذارى في هذه المأساة الإفريقية تعليل برواية أخرى قال :

كان المعز بن باديس صغيراً فربى في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال وكان ورعاً زاهداً ، وكانت إفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله المهدي لها ، فأدب ابن أبي الرجال المعز على مذهب مالك ، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى وهو غلام فكبا به فرسه فقال عند ذلك أبو بكر وعمر ، فسمعت الشيعة التي كانت في عسكره فبادروا إليه ليقتلوه ، فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتنم السنة من أهل القيروان ووضع السيف في الشيعة فقتل منهم ما ينيف على ثلاثة الآلاف ، وصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا في سائر بلاد إفريقية . وكان التشيع في القرن الرابع غالباً على أهل قم<sup>(١)</sup> في فارس وأهل الكوفة في العراق وبلاد إدريس ابن إدريس وهي طنجة وما والاها في المغرب . وجاء زمن وليس في الأندلس إلا مذهب<sup>(٢)</sup> مالك فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه .

وكان في الدولة الفاطمية ديوان عظيم يتولى الدعوة لمذهبهم واسم رئيسه « داعي الدعوة »<sup>(٣)</sup> تقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم ، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم على أن يستتر جميع ما عرف إلا ما أطلق

(١) - أحسن التباسم للمدسي . (٢) - معجم البلدان لياقوت .

(٣) - صحيح الأعشى للقلقشندى .

له أن يتكلم به ، وأن ينصح ويخلص للإمام . وكان الشيعة إذا قوى سلطانهم قتلوا في ناحية من خالفهم بعد دعوته إلى مذهبهم ، وإذا قويت المذاهب الأخرى قتلوا هم فرادى وجماعات . وهكذا الحال في بعض المذاهب الأخرى ، ولكن منها ما اتصل به الحماسة إلى قتل مخالفه ، ومنهم من يكتفى باضطاده . ونفيه وتشريده وإهانته .

ومع هذا فقد لحق الاضطهاد بالفقهاء قليلا لأنهم كانوا متصلين بأصحاب السلطان ، وسهل عليهم تغيير مذهبهم خصوصاً إذا كانوا من أهل السنة ، حتى لا يستهدفوا لغضب السلطان أو يحرموا مناصب القضاء والفتيا وغيرها من المناصب الدينية كالحسبة والإمامة . ونال الاضطهاد الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم من أرباب البحث والنظر ، والمحرك الأعظم في كل ما يعامل به العلماء سياسة الملوك ، وما يخطر ببالهم وينطبق مع رغائبهم ورغائب الحافين بهم ، والعامة أداة تحريكها يد الملوك من حيث يدرون ولا يدرون . قال ابن أبي جواد بخاق القرآن في إفريقية فاشتد سحنون عليه وضرب حتى مات تحت السياط . ولما ولي محمد بن عبدون القضاء بعد موت سحنون بالقيروان ضرب طائفة من أهل العلم (١) من أصحاب سحنون وطيف بهم على الجمال بغضاً منه في مذهب مالك وأصحابه ومنهم أبو إسحاق بن المضا وأبو زيد بن المديني فماتا على الجمال ، ومنهم أحمد ابن معتب وابن مفرج . وكان ابن عبدون حنيفياً ولو ساعده أمير البلاد على ما يريده لملأ من العلماء مقبرة كبيرة .

وضرب (٢) ابن البرذون « إبراهيم بن محمد الضبي » خمسمائة سوط ودارت عليه دائرة ثم دارت عليه دائرة أخرى فضم إلى السجن هو ورجل كان يعرف بابن هذيل فخرج فيهما التوقيع في إفريقية أن يضرب ابن هذيل خمسمائة سوط وأن تحبسط رقبة إبراهيم بن البرذون ليلا فضربه العامل العدة المذكورة ثم أعاده إلى السجن ثم أخرج ابن هذيل فضرب رقبته ، ثم انتبه للغلط فأخرج إبراهيم فضرب رقبته ، ثم ربطت أرجلهما بالحبال وجرا مكشوفين غير مستوردين

(١) تاريخ الفقه الإسلامي للحجوى . (٢) طبقات علماء إفريقية وعلماء تونس للتميمي والحشني .

من دار الإمارة ، ثم صلبا ثلاثة أيام ، وكان ذلك في زمن أبي عبد الله الشيعي .  
وضرب أيضاً أبو العباس بن السندی وعذب وأخذت نعمته .

ودارت دوائر على ناس كثير في إفريقية من قتل واضرب إلا أنهم ليسوا<sup>(١)</sup>  
من العلماء كدائرة ابن عروس في خلع لسانه وابن معتب في ضرب ظهره وأشياء  
كثيرة في هذا الباب من جهة ترك « حى على خير العمل » في الأذان وترك  
قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الفريضة . وضرب أبو العباس ابن  
التستري الشافعي زمن العبيدين في إفريقية وعذب وأخذ ماله . وضرب  
أبو القاسم مولى مهرويه وعلى السدرى من أهل الخير والعبادة سنة (٣٠٨)  
بالمهدية ثم قتلا وصلبا بكلام حفظ عليهما في السلطان . وضرب أبو القاسم  
الطوري صاحب المظالم في الجامع على رؤوس الأشهاد وفعلوا ذلك بجماعة  
من رجال المدنيين ممن لم يكن لهم اسم في العلماء دخلوا في جملتهم بلحبة والصحبة.  
ومثل ذلك وقع للعلماء والقضاة في إفريقية كابن عتاب وابن القطان والعبيدى .  
ودارت من ابن عبدون دائرة على رجال المدنيين فضربهم ونكل بهم وطوف  
بعضهم وضربوا البهاول بن راشد وكان أخذ عن مالك وسفيان وغيرهما ، ولما  
مات البهاول بن عمر التجيبي وحملت جنازته رمى نعشه بالحجارة وقال الناس :  
الوادى الوادى ، أى ألقوه في الوادى لأنه كان على ما يقال يقول بخلق القرآن  
وهو ممن سمع مالكا والليث وابن لهيعة وغيرهم .

ويقول محمد عبده : إن الأمراء لما أمعنوا في الفتك بالصوفية بإغراء  
الفقهاء ، كان الصوفية يعقدون اجتماعات سرية للبحث في كف الأذى عنهم ،  
ويقررون فيها ما يتفتمون عليه ، ثم يسعون لتنفيذه بالوسائل الكسبية . وقد  
يكون منه قتل بعض خصومهم ، فهذا أصل ما يسمى التصرف في الأكوان ،  
وليس تصرفاً بالكرامات ، ولا بخوارق العادات . قلنا فالمتصوفة إذاً أشبهوا  
في إطالة الأيدي بالقتل جماعة الإسماعيلية فقد مضى عليهم زمن طويل يقتلون

( ١ ) طبقات علماء إفريقية وعلماء تونس للتميمي والخشني .

الملوك والخلفاء ويوقعون' بالعلماء حتى خافهم الناس . وكم من عظيم قتلوه وكم من عالم مسلم أباحوا دمه . وقيل إنه قتل في يوم واحد في القاهرة خمسمائة صوفي . وزعم بعض المعاصرين أن فقهاء السنة وحكامهم ما عاملوا المتصوفة بأشد مما عاملوا سائر الفرق فحكموا ببدعة بعضهم وكفروا كثيراً من أكابر شيوخهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم غلوا بعد ذلك في تعظيمهم والتسليم الأعمى لهم غلوا كبيراً . وإن اضطهادهم للمتصوفة كان أشد من اضطهادهم للفلسفة ، وما ذلك إلا لأن علم التصوف القريب من فهم الفقهاء أمس بالدين ، بل هو ثمرة التمسك بفضائل الدين وآدابه .

اتهم محمد بن مسرة القرطبي (٣١٩) بالزندقة<sup>(١)</sup> لما ظهر من كلامه بالوعد والوعيد ونخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم ، ففر إلى المشرق ، ولحقت ابن الإقليلي الأندلسي تهمة في دينه في أيام هشام المرواني في جملة من تتبع من الأطباء في وقته كابن عاصم والسنايسى والخمار وغيرهم وطلب ابن الإقليلي وسجن بالمطبق .

وامتنحن حكم بن محمد المقرئ القيرواني مع أبي عبد الله الشيعي فسجنه من أجل صلاته كانت فيه في السنة ، وإنكار شديد على أهل البدع . ولما غلب عبد الواحد بن علي على المغرب ألزم العلماء الاجتهاد وترك التقليد لما رأيهم انغمسوا فيه فأحرق كتب الفروع كلها ، وأمر بوضع كتب أحاديث الأحكام ، وكذلك فعل حفيده أبو يوسف يعقوب سنة (٥٩٥) فأمر بإحراق كتب الفروع ، وكان يقصد بذلك محو مذهب مالك من المغرب ، وحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة . هذا والاجتهاد المطلق لم يوجد كما قال النووي من لدن القرن الرابع ، وإنما هم أهل الاجتهاد المقيّد ، وهم مجتهدو المذاهب الذين لهم قوة على المسائل من الكتب والكتاب والسنة وبقية الأصول ، ولكنهم مقيّدون بقواعد مذهب إمامهم .

(١) تاريخ علماء الأندلس للفرغى .

وتمالاً للفقهاء على ابن حزم الأندلسي<sup>(١)</sup> (٤٥٦) لأنه ترك مذهب الشافعي إلى مذهب داود الظاهري وأجمعوا على تضليله وسعوا به حتى أحرقت كتبه ومزقت علانية في إشبيلية . ووقع مثل ذلك لكتب الفيلسوف ابن رشد فزقوها وأحرقوها في سلحات بعض المدن من الأندلس . ونفى المنصور بن أبي عامر من ملوك الأندلس الفلاسفة ومن جملتهم ابن رشد وأبو جعفر الذهبي وأبو عبد الله قاضي بجاية وغيرهم ، وأحرق كتب المنطق والحكمة في بلاده ، وشدد النكير على المشتغلين بها ، وفوض ذلك إلى وزيره ابن زهر الفيلسوف لئلا يظهر ما عنده من كتب المنطق والحكمة ، ولا ينقل أنه يشتغل بها ولا يناله مكروه بسببها . وقتل المنصور بن حبيب في إشبيلية بسبب الفلسفة وترك ابن زهر الفيلسوف ، وقطع الطريق على الناس في النيل منه ، لأنه كان عنه راضياً ينذر تصرف مثله في تدبير مملكته .

وأوذى أبو بكر بن عربي لأنه التزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأخذت كتبه وماله وصرف عن القضاء . وجرت محنة على أبي بكر الجبائي الأندلسي (٥٩٦) وشي به للمنصور بن عبد المؤمن أنه لزم ترك التقليد والعمل بالحديث . وأوقعت الحيلة في أيام الناصر العباسي على الركن عبد السلام ابن عبد القادر الجبلي لأنه قرأ علوم الأوائل وأجادها واقتنى كتباً كثيرة في هذا الفرع ، فاتهم بأنه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة ، فصدر الأمر بإحراق كتبه في إحدى ساحات دار السلام ، وخطبوا خطبة لعنوا فيها الفلاسفة زمن يقول بقولهم : واجتمع قواد عسكر أحمد خان صاحب سمرقند وقبضوا عليه بسبب زندقته ولما قبضوه أحضروا الفقهاء والقضاة وأقاموا خصوماً ادعوا عليه الزندقة فجحد فشهد عليه جماعة بذلك وأفتى الفقهاء بقتله فخنقوه (٤٨٨) . ولزم محمد بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الوليد أبو علي المتكلم من رؤساء المعتزلة (٤٨٧) بيته خمسين سنة لم يقدر على أن يخرج منه من عامة بغداد .

(١) الذخيرة لابن بسام .

ونجا عمر الخيام الفيلسوف الشاعر النيسابوري من أهل المائة السادسة من اضطهاد العامة والملوك بشيء من التقية « ولما <sup>(١)</sup> قدح أهل زمانه في دينه ، وأظهروا ما أسره من مكنونه ، خشى على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحجج متافاة لاتقية » ووقف المستنجد العباسي على حكايات أخذها ابن حمدون صاحب التذكرة من التواريخ توهم في الدولة غضاضة ، فأخذ من دست منصبه وحبس . ( ٦٠٨ ) . وقتل الظاهر غازي الحكيم الشهاب السهروردي ، وكان ناقش علماء حلب فبذهم فشكوه إلى صلاح الدين فأمر ابنه بقتله <sup>(٢)</sup> مع حرص الظاهر على إنقاذه . وغريب كيف نجا مثل أبي العلاء المعري على ما بدر في شعره ، ونثره من فلتات ينكرها فريق المتعصبين ، ولعل الأصل في نجاته كونه زاهداً حقيقة ، لا ينازع أرباب المذاهب الدينية في شيء من دنياهم ، أو كما قال له أحدهم فغضب من قوله إنه ترك لهم دينهم ودنياهم .

ووقع سيف الدين الآمدي أحد أذكى العالم من أهل المائة السادسة أن حسده جماعة من فقهاء مصر ، ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة ، فهرب واستوطن حماة في الشام فنجا من العطب بالحرب . وتبع أعداء لسان الدين بن الخطيب ، رجل الأندلس علماً وفصاحة ، كلمات زعموا أنها صدرت منه في بعض تأليفه ، فأحصوها عليه ورفعوها إلى قاضي غرناطة فسجل عليه بالزندقة ، ثم أخذ وأحضره في مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء وعظم عليه التكبير فيما يكتب ، فوبخ ونكل وامتنحن بالعذاب ، وأفقت بعض الفقهاء بقتله ثم طرقوا عليه السجن فخنقوه وأخرجوا شلوه <sup>(٣)</sup> وأحرقوه .

كان الانتقام من العلماء يتم على أيدي الخلفاء والسلاطين ، فلما جاء ملوك الطوائف وضئف العباسيون وأصبح لكل قطر ملك أو أمير غدا الانتقام من أرباب الأفكار محصوراً في العامة أو من كان على مثالهم من العلماء ، وكثرت

( ١ ) أخبار الحكماء للقفطي . ( ٢ ) تاريخ الأطباء لابن أبي أصيبعة .

( ٣ ) الشلو والشلاء : الجسد من كل شيء وأشلاء الإنسان أعضاؤه بعد البلى والتفريق .

مجالس المناظرات<sup>(١)</sup> بين الفقهاء حتى لا تكاد تخلو مدينة كبيرة من عقد المجالس بين كثيرين من علمائها ، ولا سيما في العراق وخراسان ، تعقد أمام الوزراء ممن كانوا بالأمس يميلون إلى الفقه لاحتياجهم إليه في الحكومات ، ثم صاروا يميلون إلى استماع مقالات الناس في قواعد العقائد ، ومالوا إلى أسماع الحجج فيها ، فأفضت إلى فتح باب العصبية الفاحشة والخصومات المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد وأصبح الكبراء يميلون إلى المناظرات لبيان الأولى من مذاهب السنة فنجمت من هذا الانكباب على المسائل الخلافية فتن أفضت إلى قتل النفوس بالألوف ، وإلى خراب مدن برمتها ، خربت بأيدي أناس كان مشايخهم يتفاخرون بالمناظرات والخلافات ، يوقدون نار الفتنة بين أتباعهم وخصومهم ، وينال بعضهم من بعض بالنميمة والحسد والرياء والختل مما نهى عنه الشرع .

ومن هذه الفتن فتنة نشبت بنيسابور عاصمة خراسان بين الحنفية والشيعة ، وأمر السلطان بأن تلعن المبتدعة على المنابر ، وحسن له بعضهم فيما قيل الأزرار بمذهب الشافعي وبالأشعرية ، وأدى التصريح بلعن أهل السنة في الجمع ، وتوظيف سبهم على المنابر ونفى بعض الشافعية ، وهاجر من تلك البلاد أربعمائة قاض من قضاة الشافعية والحنفية ، وشمل الضرر من ذلك خراسان والشام والحجاز والعراق .

وكانت تقع في سجستان<sup>(٢)</sup> وسرخس عصبية بين الشيعة والكرامية في نيسابور ، وبهراة بين العمليّة والكرامية . وخرجت الرى بسبب هذه المنافسات بين الفقهاء ، وكان فيها شافعية وحنفية وشيعة وتطاولت بينهم الحروب ، حتى لم يتركوا من الشيعة من يعرف . فلما أفنواهم وقعت العصبية بين الشافعية والحنفية فنشبت بينهم حروب . واشتد التطاحن بين الطوائف الإسلامية ، بل بين أرباب مذاهب السنة ، وكل فريق منهم يتهم خصمه أنه حشوى ليس على شيء من العلم . . قال السبكي : وكثرت مذاهب الحشوية

( ١ ) تاريخ التشريع الإسلامى للخصرى . ( ٢ ) معجم البلدان لياقوت .

وهم فريقان فريق لا يتحاشى في إظهار الحشو ، ويحسبون أنهم على شيء ، وفريق يتستر بمذهب السلف لسحت يأكله أو حطام يأخذه أو هوى يجمع عليه الطغام الجهلة والرعاك السفلة ، وفي هذا الفريق من يكذب على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ويزعم أنهم يقولون بمقالته ، يتستر بالسلف حفظاً لرياسته ، والحطام الذى يجتلبه ، ويتحلى بالرياء والتكشف زاهداً فى الذرة ليصل الدرة ، وأظهروا للناس نسكاً وعلى المنقوش داروا . ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه ، والمبتدعة تزعم أنها على مذهب السلف اه .

ولعل السبكي يقصد من قوله هذا مذهب الحنابلة وكان ابن تيمية منهم ، وعليه اشتد المشايخ بنو السبكي فى القرن الثامن مستعينين بما لهم من النفوذ فى دواوين الدولة فى مصر والشام فعاملوا هذا المصلح معاملة جائزة هو وتلميذه ابن قيم الجوزية ليقضوا عليه وعلى تعاليمه التى ما خرجت عن الكتاب والسنة والرد على المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة والرافضة<sup>(١)</sup> والنصارى ، وتوصلوا إلى حبس ابن تيمية سنين طويلة فى الإسكندرية والقاهرة ودمشق ولم يخرجوه من محبسه إلا إلى قبره ، ونكبوا ابن القيم وتلميذه وحبسوه آخر مرة مع شيخه فى حجرة منفردة . ومن الغريب أن يعقد فى القاهرة لابن تيمية مجلس حاكمه فيه على اعتقاده واعتقلوه بعدها فى جب يوسف هو وأخوته وأن يكتب السلطان إلى دمشق أنه رسم أن من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه .

وما زالت العصبية تقع بين أهل ساوة ، وسكانها سنة ، وأهل آوة ، وسكانها شيعة ؛ أوائل القرن السابع ، ومنشأ الخراب فى أصفهان إلى هذا العهد أيضاً وقبله ، وكثرت الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية ، وكلماً ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وأخربتها . ولقد كانت الغلبة

(١) إنما قيل لهم الرافضة لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر ولم يرتضهما أحد من أهل الأهواء غيرهم . والشيعه دونهم وهم الذين يفضون علياً على عثمان ويتولون أبا بكر وعمر فأما الرافضة فلها غلر شديد فى على ذمهم مذهب النصارى فى المسيح وهى السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ وقد أحرقتهم على بالنار - قاله ابن عبيد ربه فى العقد .

للحنفية في القرن الخامس ببلاد فارس ومنها ما كثرت حنابلته ومنها ما كانت شيعة غالبية يحبون معاوية . ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث وأكثر لإقليم خوزستان معزلة ، والفتن على الدين في الجبال متصلة ه وكان للخوارج بسجستان ونواحي هراة وللمعزلة بنيسابور ظهور بلاغلبة وللشيعة والكرامية بها جلبة ، وفي تلك الديار شافعية وحنفية وبرساتيق هيطل أقوام يقال لهم بيض الثياب مذاهبهم تقارب الزندقة وأقوام على مذهب عبد الله السرخسي لهم زهد وتقرب ، وأكثر أهل ترمذ جهمية وأهل الرقة شيعة وأهل كندرقدرية ، ثارت فتن كثيرة في بغداد بين الحنابلة وغيرهم ، وبين السنة والشيعة خربت بها بعض أحياء بغداد غير مرة فقد هاجت في سنة ( ٣٩٨ ) فتنة هائلة بين أهل السنة والرافضة واقتتلوا وقتل جماعة . وفي سنة ( ٤٠٨ ) كانت الفتنة الكبرى فيها بين أهل السنة والشيعة وقتل طائفة منهما واستتاب القادر جماعة من الرافض والاعتزال وأخذ خطوطهم بالتوبة . وبعث إلى محمود ابن سبكتكين صاحب خراسان يأمره بنشر مذهب أهل السنة وقتل جماعة ، ونفى خلق من الإسماعيلية والرافضة والمعزلة والمجسمة وأمر بلعنهم على المنابر بعد أن عمزت الشرطة عنهم وأطلقت النيران في الشوارع . وفي سنة ( ٤٢٢ ) هاجت الفتنة بين السنة والشيعة في بغداد فنهبت وأحرقت ، ومن جملة ما أحرق أربعة أسواق وثاروا بالسلطان فأرضاهم الخليفة المقتدر بالعطاء . وفي سنة ( ٤٤٣ ) عاد السنة والرافضة إلى أشد مما كانوا في بغداد . وقتل جماعة ونبشت قبور الرافضة وأحرقوا عظام رجالهم وقتلوا هم أناساً من علماء السنة ، وكتبوا على الأبراج « محمد وعلى خير البشر فمن أبي فقد كفر » ووقع التقييح على الرافضة وأحرقت كتبهم في بغداد لسبهم الصحابة ومنهم من قتل كما وقع في سنة ( ٥٧٤ ) فإنه وقع فيها ما لم يتبها منذ نحو مائتين وخمسين سنة كما قال المؤرخون .

هذه أمثلة مما وقع بين السنة والشيعة في فارس والعراق وما وقع بينهم في مصر وإفريقية على عهد الفاطميين ، وكان الشيعة في الشام أكثرية في القرن

السادس ثم قلوا لما قضى صلاح الدين على دولة الفاطميين بمصر. ولما قطعت خطبة العاضد الفاطمي<sup>(١)</sup> بمصر استطال أهل السنة على الإسماعيلية وتبعوهم وأذلّوهم وصاروا لا يقدرّون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه وعظمت الأذية بذلك ، وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد ، وأخذ للناس بمذهب السلطان ، إن كان شافعيّاً زاد الشافعية ، وإن كان حنفيّاً أقبل القوم على مذهب الحنفي . وهكذا كانت الحال في كثير من الأقطار يتظاهر الناس بمذهب القائم بالأمر فيهم ، فإذا تولى رقابهم من بخالفه في رأيه انقلب الناس معه ، كما وقع في مصر مع الدولة الفاطمية ، فإنها طُبعت الأذهان بطابعها ، فلما انقرضت دولتهم عاد التسنن إلى ما كان عليه .

وقعت في بغداد فتن كثيرة بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب الأخرى وكان الحنابلة فيها يتشدّدون على خصومهم ويقابلونهم بالعنف ، ومنها فتنة عظيمة بين الحنابلة وخصومهم قتل فيها خلق كثير من الجند والعامّة بسبب تفسير قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » اختلف الفريقان بتفسيرها فكان المهرج والمرج . وفي سنة ( ٣٢٣ ) عظم أمر الحنابلة على الناس فصاروا ينكرون المنكرات بشيء من الغلظة يدخلون بيوت القواد والعامّة ليطلعوا على ما فيها من الموبقات ، فهددهم الخليفة الراضى باستعمال السيوف في رقابهم والنار في منازلهم فكفّوا . ووقعت فتن في بغداد بين الحنابلة وغيرهم من أرباب المذاهب فقتل عمر بن الحسن الجرتي من رجالهم .

ومن غرائب وقائع الحنابلة أن محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ ( ٣١٠ ) ألف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر أحمد بن حنبل ، فقليل له في ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ، فاشتدّ ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ولما هلك منعوا من دفنه نهائياً ، وادعوا عليه الرفض

( ١ ) كتابه الروضتين لأبي شامة .

والإلحاد . وكان على بن عيسى الوزير يقول : والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه .

ومن غريب أمر الحنابلة أنهم بنوا مسجداً في بغداد<sup>(١)</sup> وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة فتظلم إلى على بن عيسى من أمره فوقع على ظهر القصة « أحق بناء بهدم . وتعفية رسم ، بناء أسس على غير تقوى من الله ، فليحق بقواعده إن شاء الله » . ولما أبدى الإمام القشيري شعار الأشعرية في بغداد ثارت فتنة العامة (٤٦٩) « وقصدت<sup>(٢)</sup> الحنابلة سوق المدرسة وقتلوا جماعة وأظهروا شناعة » .

وهكذا ظلت بغداد ميدناً للقتال بين الشيعة والسنة والحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب زمناً طويلاً فهلكت أنفس وخرب عمران بل « تنابعت<sup>(٣)</sup> الفتن ووقع الخراب ، وما زالت الفتن والمحن متواترة إلى أن وقع بين الرافضة وأهل السنة فتنة أحرقوا من الجانب الغربي ما لا يحصى من الدور والمساكن والخوانيت وقلت المعاش وكثر الجور ، وفترت الهمم عن طلب العلوم وغيرها ، وكان أهلها في سعة من الأرزاق ورخص الأسعار فانتقل عنها معظمهم » . وكانت بغداد في القرن الثاني والثالث والرابع عاصمة العلم والفلسفة والأفكار فأُمست في القرن الخامس والسادس والسابع بؤرة الحمود والانحطاط الفكري .

وفي سنة (٨٣٥) ثارت فتنة عظيمة في دمشق بين الحنابلة والأشاعرة حتى صدر مرسوم السلطان أن لا يعترض أحد غيره في مذهبه ، ومن أظهر شيئاً مجمعاً عليه سمع منه . والحاصل أن الحنابلة كالرافضة أظهروا شدة في اختلافاتهم مع الطوائف الأخرى حتى تراجع أمرهم من العراق والشام إلا قليلاً . وأهل نجد اليوم حنابلة المذهب وهم مثال من المبالغة في إنكار المنكرات ، والتحامل على بعض المذاهب الإسلامية الأخرى .

( ١ ) تاريخ الوزراء للصافي . ( ٢ ) زبدة النصرة للهاد الكاتب .

( ٣ ) مناقب بغداد لابن الجوزي .

وكم من فتنة حدثت لأن قوماً يتعصبون للعالم الفلاني وآخرين يحطون منه كما جرى للبخاري والرازي . وكم فتنة قام بها العوام لأنه شاع أن فلاناً العالم قال كذا في فلان الذي يقدسونه . فقد توفي الصولي (٣٣٦) نديم الخلفاء وأوحد العلماء بالبصرة مستتراً لأنه روى في حق علي بن أبي طالب حديثاً ، فطلبته الخاصة والعامة لتقتله فلم تقدر عليه . ومات أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١١) بالبصرة وكان يرى رأى الخوارج ولم يحضر جنازته أحد من الناس حتى اكثرى لها من حملها . ومثل هذا وقع لياقوت الحموي في دمشق ذكر كلاماً في حق عليّ كان قد قرأه في كتاب الخوارج فعذوه من النواصب المنحرفين عن أمير المؤمنين ، وأراد بعض أهل دمشق قتله فهرب . ومما يذكر أنهم كثيراً ما يتنازعون الرجل كل يدعيه كما حدث لما توفي عيسى بن سعادة الفاسي (٣٥٥) فتنازع علماء فاس فيمن يصلي عليه الفقهاء أم المحدثون ، كل يدعيه ويقول إنه أحق بالصلاة عليه .

أما في قرون الانحطاط أي القرون الخمسة الأخيرة فكان من خالف الجمهور ولو في مسألة صغيرة عرضة للقتل إذا لم يكن له أحد يحميه في قصر الملك أو الأمير ، لأن القوم أصبحوا ونفوسهم لا تشتقي ممن يخالفهم في معتقد أو فكر إلا أن يضرب عنقه ، بل أصبح الحديثي ينظر إلى الفقيهي ، والشافعي إلى الحنبلي ، والفروعي إلى الأصولي نظراً شزراً . وبدأ ذلك منذ انسحب القراء عن صفوف الفقهاء والمحدثين ، ثم ابتعد الصوفية عن الفقهاء ، ثم عرف أهل كل مذهب مذهبهم وثبتوا عليه في القرن الثامن لأنهم قاتلوا دونه في بعض البلاد ، وأصبحوا كلما نبت نابت من الرجال يقول بمقالة تخالف من بعض الوجوه مذاهب السياسة يقتل على مذهب مالك . فقد ذهب مالك ومن وافقه من أصحاب الشافعي إلى قتل الداعية إلى البدع ، وذهبت طائفة من أصحاب أحمد إلى جواز قتل الجاسوس . وكان الخليفة قد يحتاج إلى قتل أمثالهم لأن حكمه شريعة يجب تنفيذها في نظره ، فلما ضعف الملوك لم يجدوا أحسن

من العمل برأى مالك في قتل كل من خالف في مسائل إذ لا توبة له ، والدين يقول إن المولى يقبل توبة التائبين .

أخذ الأمناء على الدين يتيهون في بيداء الفوضى العنالية ، لا يرون في تأديب المبتدعة أو من سموهم هم كذلك ، إلا تطبيق أسد مفاصل القانون عليهم ، وإنزال آخر العقوبات المسطورة ، ويتجافون عن سماع أقوالهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن . وادعوا لضعف فهم أن المبتدع يحضر لكل سؤال من بدعته جواباً قلما يستطيع مجادل نقضه . ولذلك كان من الحزم أن يعامل لأول أمره بالعنف . ويعمد إلى صاحب السلطة في تأديبه ، ولا يسمع له كلام ولا حوار . بل لم ير المسيطرون على الدين أن يكتب المبتدعة أو المتفلسون كلامهم ليرد عليهم بالكتابة لأن كتابتها زعموا تكون سبباً في نشرها ، فهم يرون أن يصموا آذانهم عن كل جديد ، ويكتفوا بما لقفوا من العلم وقرروا من المذاهب .

وماذا يعنيهم من المقالات الجديدة ، والاجتهاد في الدين موصل الأبواب ، وهو محظور حتى على من بلغ رتبة عالية في العلم ، واستعد للخوض في ميدان الأحكام ، والرجوع إلى مصادر الشريعة ليأخذ من لبابها الأوفق للزمن والمصلحة لا ما رآه غيره ، مع عدم الخروج عن قواعد الشرع . وتحت حماية مذهب مالك الذي يرى القتل ضرباً من التعزير قتل بين القرن الثامن والثاني عشر عشرات من الأذكياء والباحثين في أوقات مختلفة في فارس والعراق والشام ومصر وإفريقية وغيرها ، يتهم أكثرهم في دينهم دينهم ويسألون بضع مسئلة إذا كان في أجوبتها بعض العهدة بحسب فهم المسيطرين ، تقطع أعناقهم ويصلبون وتطهر الأرض منهم .

وبهذا الهول الأكبر انقطعت الرغبات في البحث واستعمال الفكر إلا في الدائرة المعينة الحدود والأوصاف التي قرروها . وأنشأوا يحرمون علناً بسائط علم الفلسفة كالطبيعيات والرياضيات بل والتاريخ وتقويم البلدان فضعفت

ملكة هذه العلوم على تلك النسبة ، ضعف الملكات الدينية ، وضعفت العقول معها ، « وزاد الحق غموضاً »<sup>(١)</sup> وخفاء أمران : أحدهما خرف العارفين مع قلتهم من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق ، مع جواز التقية بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام ، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، ولا برح الحق عدواً لأكثر الخلق . . . وكان العلم في أول الأمر يبذل من أهله لأهله مشافهة ولو سراً وذلك أول النقص وهو محفوظ في الصدور ، فلما قل الحفظ وكتب ليحفظ ، وتعذرت الصيانة وخيف العدوان من أعداء أهل الإيمان كتم بعضهم فلم يظهر علمه فازداد النقص ، واتى بعضهم فتكلم بالمعاريض الموهمة للباطل خوفاً على نفسه ، ورمز بعضهم فغلط عليه بما قصده في رمزه فتفاحش الجهل .

نعم كان مما لقيه العلماء من الآلاقي<sup>(٢)</sup> ما وقف القرائح ، وثبط المهمل ، وتعد بالعزائم ، وتجاهل الناقمون والمنتقمون ، أن في قتل عالم قتل عالم ، وأن في إرهاب العقول مدرجة إلى ظهور كل جهول ، وما نفع قط الجهلاء في قيام دين أو دنيا . استسهل الضاغظون على الأفكار تشريد العلماء وتعذيبهم وسجنهم أو قتلهم بدعوى أن في عملهم ضم شمل الجماعة وإغلاق أبواب التفرقة ، والتقضاء على البدع والضلالات ؛ وهيات أن يجدوا عاقلاً يضطلع بالدفاع عن أعمالهم اللهم إلا المأخوذ بالتقاليد الموروثة ، الذي خلق ليدهن لكل من سودته مناصبة . والعلم يتطلب غير هذه السياسة الخرقاء . والعلماء يشتمون ليسعدوا بعملهم الخلق ، يبيتون حياتهم على مثل حساك السعدان<sup>(٣)</sup> ليحلوا المشكلات والمعضلات ، وينصروا الحق الذي يعرفونه ، فيتجلى للأفكار نقياً ينتفع به من يعقلون . ولا سبيل إلى تأويل إهانة العلماء باسم الدين إلا بأن معظم أولياء الأمر ما كانوا يباليون بإطفاء أنوار الأفكار ، فحالوا بعملهم دون ظهور النابغين ، وقصروا همهم على اصطناع المتوسطين ،

(١) إيثار الحق على الخلق المرتضى إيماني . (٢) الشدائد .

(٣) الحسك : الشوك . والسعدان : مفتاح السين : نبت من أفضل مراعي الإبل مادام رطباً .

حجروا على العقول ، فكانوا أعدى أعداء العلم الصحيح . وبدون حرية يموت العلم ، وتفسد ثمرات المدارك ، وكل من أبطلوا حركة البحث وشلوا الأعصاب عن الانبعاثات باءوا بسبة الدهر ، وكل من اتخذوا العلماء مطايا لأغراضهم ، وفرحوا بتمزيق أجزاء القلوب ليسلم سلطانهم ، كانوا أسقط الناس ورذالتهم في المجتمع .

\* \* \*

رأينا بما قدمنا صورة من نشأة الشرع وعلوم الكلام والحديث والتصوف والفلسفة والآدب وقيام الفرق الإسلامية ، وما لحق الناس والبلاد من اضطهاد وقتل وتخريب بسبب الدين . ورأينا كيف ضعف الدين منذ دهمته الزيادات المرضيات ، وأن الدنيا كان شأنها كذلك منذ أصبح كل أمر يتوقف على فتوى العلماء مراعاة من السياسيين للظواهر ، فكانت السحافات والترهات التي قضت على سلطان العقل . وماتت النفوس والهمم ، وقعدت عن العمل الصالح ، وطفئت شعلة الذكاء ، وأبدلت بظلام دامس ، وشغل الناس بأمور تافهة كان منها خراب بلادهم ، وخراب عقولهم ، وزهدوا في الجوهر الذي لا يقصد من العمل به إلا إنهاض النفوس ، وتشبعوا بما لم ينزل به سلطان ، قضوا بهذا الجمود عن اللحاق بمن سبقوهم إلى فك القيود الثقيلة ، وظلوا على تحجيرهم يفاخرون بالآباء والحدود .

وربما كان في المقاومين لمثل هذه المسائل من كان رائد الإخلاص في قوله وعمله ، ولكن كثيراً منهم كانوا تبعاً للسلطان أو تبعاً لما يرضى العامة ، والعلم كما يقول الراغب الأصفهاني<sup>(١)</sup> ذو منازل لكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والشعور ، وقلما يتفك كل منزل منها من شريير في ذاته ، وشره في مكسبه ، وطالب لرياسته ، وجاهل معجب بنفسه ، بصير لأجل تنفيق سلعته ، صارف عن المنزل الذي هو فوق منزلته من العلم وعائب له ، فلهذا نرى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلم دون الغاية ، عائباً لما فوقه صارفاً

( ١ ) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني .

عن رامة ، فإن قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل ، أو ينفر الناس عنه فعل اهـ . وفي تاريخ الدين صورة عجيبة من هذا التهالك على الدنيا في الطبقة التي تدعى أنها أبعد الناس عن زخارفها ، وليس من المبالغة أن يقال إن من الدينيين من ليس له هم إلا أن يستأكل<sup>(١)</sup> بالدين ويضرب لصاحب القوة أبدأ على الوتر الحساس فيه . فقد ذكر الغزالي<sup>(٢)</sup> أنه بعد عهد المناظرات في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة ترك الناس الكلام وفتنوا العلم ، وانثأوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذاهب ، وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباط ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات . قال فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة ، أو إلى علم آخر من العلوم ، لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

وبعد فن الاثم للنفس اليوم تذكر من قضوا ضحايا أفكارهم في بعض عصور الإسلام ، فكان القضاء عليهم قضاء على الحرية . على أن ما وقع في بلاد المسلمين في غضون ألف سنة من هذه النكبات لا يعد جزءاً صغيراً مما حدث في الغرب بسبب المذابح الدينية وديوان التحقيق الديني وبضغط الكنيسة على العقول وحربتها . أدى تفاعل العوامل الفكرية في الإنسلاام إلى ما لم تحمد مغبته فتأخر سير العلم بعض التأخر ، وأخذت جرة التفكير الحر في بعض العصور ، وكان ما جرى أشبه بحوادث أفراد دخلت العامة غمارها: فهلك أنفوس وخرب عمران وتراجعت عقول . والمهم في تاريخنا أن نغلبه كل مقلب لا ندلس فيه ولا نوالس ، لتتعرف الحقائق في صورتها

(١) فلان يستأكل الضعفاء : يأخذ أموالهم . (٢) أحياء علوم الدين للغزالي .

الجلية النافعة . والتبعة فيما حدث في الإسلام تقع على صنفين العلماء والرؤساء ، ولما كان أغلب الرؤساء جهلاء كانت معظم التبعة على العلماء . وليس (٢) تكايف العتلاء كتكليف الجهلاء ولا آلة الفريقين في الأفعال واحدة ، ولا مؤاخذتهما بالأعمال متساوية ، وكذلك قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . ولو أخذ الجاهلون كما يؤخذ العالمون ، لكان ذلك جوراً في القضاء ، وحيفاً في الجزاء لأن الله تعالى كلف كل نفس بحسب قوتها ، وأخذها بما جعله في قدرتها ، ولو أن أحداً غلط غلطاً جاهلاً لحكمه ، وأخطأ خطأ خارجاً عن عامه ، لما تعين عليه حكم ، ولا تعلق به حد ، وعلى ذلك فتي كان علم الإنسان أكثر من عتله كان حتمه في علمه ، أو عقله أكثر من علمه أمكن به جبر عجزه وإتمام نقصه . وما دبر العقل شيئاً إلا أقام أوده وعدل ميده (٣) ، ولا دخل الجاهل أمراً إلا حل نظامه وأحال الثنائه . فقد ثبت أن الفضل فرع أصله العقل ، ثم تدعو الحاجة مع وجود هذا الأصل إلى بان يعلى أساسه ويسقى غراسه من أدب يقتبس ، وعلم يكتسب ، ورياضة تصلح وتوفيق يباحق ، فإذا التقي من ذينك فرع وأصل ، واقرن أدب وعقل ، اجتمع بهما قوى العقل ، ولمع بينهما نور الحزم ، وأمكن رافع البناء أن يرتقى ذروته ، وغارس الغرس أن يجنى ثمرته اه .

( ١ ) تاريخ الوزراء لأبي هلال • ( ٢ ) الأرد : الاموجاج . والميد : الاضطراب •

## الإدارة في الإسلام<sup>(١)</sup>

### إدارة الرسول :

لما ظهر الإسلام على الشرك وطفق الرسول يدعو إلى دينه جهره ، أخذ يرسل أمثله من دخلوا في الإسلام من الرجال لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . وإذا وفد عليه وافد يعهد إليه أن يعلم قومه دينهم « وإمام كل قبيلة منها لنفور طباع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها » وإذا كان الوافد من رؤوس قبيلته تسند إليه جباية النية ، ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، ويوصيه أن يلين للناس في الحق ويشد عليهم في الظلم ، وأن ينههم إذا كان بين الناس هياج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين في الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن<sup>(٢)</sup> عنها . وبعث معاذاً إلى اليمن<sup>(٣)</sup> فقال له : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . وكتب إلى عمرو بن حريث عامله على نجران كتاباً في الفرائض والسنن والصدقات والديات .

---

( ١ ) مقتبسة من محاضرات ألقاها المؤلف في شهر رمضان سنة ١٣٥٢ في الجامعة الجغرافية الملكية تحت إشراف كلية الآداب من فروع الجامعة المصرية بالقاهرة في إدارة الرسول والراشدين والأمويين وأوائل عهد العباسيين . وقد أضيفت إليها زيادات وتعليقات جديدة .  
( ٢ ) فتى الرجل في دينه : ماله عنه . ( ٣ ) تيسير الوصول لابن الديع .

وضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالاً بين الكتاب العزيز أصنافها في عدة آيات وبين حكم إنفاقها فقال :  
( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة<sup>(١)</sup> بين الأغنياء منكم ) (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ) ، ( يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ) (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ) .

فالنبي يخرج يؤخذ من أرض العنوة<sup>(٢)</sup> والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح<sup>(٣)</sup> ، ومما فتح عنوة وأكثر أهله عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والعشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها كأرض العرب . وما أسلم عليه أهله أو فتح عنوة وقسم بين الغزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين في الأرض العربية<sup>(٤)</sup> ، ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الإسلام . ومن الأرض ما صولح أهله على النصف من ثمارهم كأهل فدك ، وجعل النبي فدك له خاصة ، لأنه لم يوجف<sup>(٥)</sup> عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . والأنفال الغنائم في القتال ، والصدقة أنواع هي الزكاة وهي عشر الغلات التي تأتي من الأرض التي خلت من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات الماشية هي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلولة ، والصدقات عروض التجارة .

ولقد شكوا يهود خيبر<sup>(٦)</sup> - « وكانت قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالا » . وكان فيها عشرون ألف مقاتل<sup>(٧)</sup> - عبد الله بن رواحة . وكان الرسول يبعث

( ١ ) الدولة في المال : أن يتداوله الأغنياء فيكون مرة لهذا ومرة لذاك .  
( ٢ ) العنوة : القهر وفتح البلد عنوة أى قسراً . ( ٣ ) مفاتيح العلوم للخوارزمي .  
( ٤ ) الخراج لأبي يوسف . ( ٥ ) أوجف الفرس : أعداه والمراد تجهيزه جيش لفتح البلد ( ٦ ) المعارف لابن قتيبة . ( ٧ ) الخراج لأبي يوسف .

كل عام يتخَرَصُ<sup>(١)</sup> عليهم تمرهم ثم يقول : إن شئتم فلکم وإن شئتم فلی ، فكانوا يضمّنونه ، بيد أنهم شكوا إلى الرسول شدة خرصه<sup>(٢)</sup> وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فجللوا له حلياً من حلى نسائهم فقالوا : هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القسم . فقال عبد الله ، يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إلى : وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم ، وأما ما عرضتم على من الرشوة فلإنها السحت وإننا لا نأكلها ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض<sup>(٣)</sup> .

ولقد كان الرسول يتخير عماله من صالحى أهله وأولى دينه وأولى علمه ، ويختارهم على الأغلب من المنظور إليهم في العرب ليوقروا في الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، يحسنون العمل فيما يتولون ، ويشربون قلوب من ينزلون عليهم الإيمان ، ويكشف أبدأ عملهم أى يفتشهم ، ويسمع ما ينقل إليه من أخبارهم . وقد عزل العلاء بن الحضرمي عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس شكاه وولى أبان بن سعيد وقال له : استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سرائهم<sup>(٤)</sup> . وكان يستوفى الحساب على العمال بحاسبهم على<sup>(٥)</sup> المستخرج والمصروف . وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا أهدي إلى . فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدي إلى ، أفلا تعد في بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا . وقال . من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد بعد ذلك فهو غلول<sup>(٦)</sup> .

وما انفك الرسول من استشارة أهل الرأي والبصيرة ، ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأبانوا عن قوة إيمان ، وتفان في بث دعوة الإسلام . وهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وسليمان وعمار وحذيفة وأبو ذر والمقداد وبلال . وسموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول لإسلام قومهم ، والنقيب الضمين . وكان

(١) يقدر . (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر . (٣) تيسير الوصول لابن الديبع .

(٤) طبقات ابن سعد . (٥) الحسبة في الإسلام لابن تيمية . (٦) خيانة .

له عرفاء أى رؤساء جند . ويكتب له بعض جلة الصحابة من الكلمة<sup>(١)</sup> والكلمة فى الجاهلية وأول الإسلام هم الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرمى .

كان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح على بن أبى طالب . ومن كتب له أبو بكر وعمر وعثمان والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص وحنظلة الأشيدى والعلاء بن الحضرمى وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن أبى بن سلول والمغيرة بن شعبة وعمر بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان يكتب فيما بينه وبين العرب ، وجهم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وبلغ كتاب الرسول اثنين وأربعين رجلا . وكان صاحب سره حذيفة بن اليمان . وكان الحارث ابن عوف المرمى على خاتمه . وخاتمه من حديد ماون عليه فضة نقش ثلاثة أسطر : محمد ، سطر ، ورسول ، سطر ، والله ، سطر . ويضع خاتمه أيضاً عند حنظلة بن الربيع بن صيفى ابن أخى أكرم ، ويكون خليفة كل كاتب من كتاب النبى غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب .

وكان معيقيب بن أبى فاطمة يكتب مغامم الرسول ، وكذلك كعب بن عمرو ابن زيد الأنصارى كان يقال له صاحب المغامم ، وحذيفة بن اليمان يكتب حرص تمر الحجاز ، والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس فى قبائلهم ومياهم ، وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبد الله ابن الأرقم يجيب الملوك عن الرسول ، والزبير بن العوام وجهم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات ، والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات ، وشرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك . ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك انتدبهم لهجو المشركين ، وخطيبه ثابت بن قيس . وزيد بن ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية

( ١ ) طبقات ابن سعد .

والحبشية واليهودية . وناجية الطفاوى ونافع بن ظريب النوفلى يكتبان المصاحف .  
وشفاء أم سليمان بن أبي حنيفة تعلم النساء الكتابة ، وعبادة بن الصامت يعلم .  
أهل الصفة القرآن ، وكانت دار مخزومة بن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن .

وأول قاض فى المدينة عبد الله بن نوفل ، ومقرئ المدينة مصعب بن  
الزبير . وأول لواء عقد فى الإسلام لواء عبد الله بن جحش ، وعقد لسعد  
ابن مالك الأزدي راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض ، وكان لوائه  
أبيض أو أصفر أو أغبر ، وله راية تدعى العقاب من صوف أسود ، مكتوب  
على رايته : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأول مغنم قسم فى الإسلام مغنم  
عبد الله بن جحش . ومن عماله أبو دجاجة الساعدى وسباع بن عرفة عاملاه  
على المدينة ، وكان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية لأنه إنما طلب للأعمال<sup>(١)</sup> أهل  
الجزاء والغناء من المسلمين ، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف .  
عنها كما قال معاوية . واستعمل الرسول أباً سفيان بن حرب على نجران فولاه  
الصلاة والحرب ، ووجه راشد بن عبد الله أسيراً على القضاء والمظالم .

وكان الرسول كثيراً ما يقول أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدّهم فى  
دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلل  
والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقروهم أبى بن كعب ،  
ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وقال : خذوا القرآن  
من أربعة ، من عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى  
أبى حذيفة . وجمع القرآن أى حفظه جميعه من الأنصار أبى ومعاذ وزيد بن  
ثابت وأبو قيس بن السكن ، هؤلاء أهم رجال الإدارة والقضاء والفقهاء  
والقرآن .

وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتاب بن أسيد الذى استعمله  
والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهماً فقام بخطب ويقول : أيها الناس أجاج

( ١ ) تاريخ الطبرى .

الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله درهماً كل يوم . فليست في حاجة إلى أحد . وهذا الراتب من أول ما وضع من الرواتب للعمال . وقد يكون رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أجرى على قيس بن مالك الأرجبي من همدان لما استعمله على قومه : فأقطعه من ذرة نثار مائتي صاع ومن زبيب خيوان<sup>(١)</sup> مائتي صاع جار له ذلك ولعقبه من بعده أبداً أبداً أبداً . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتبلغون به من الغنائم وغيرها ، ومنهم من كان غنياً في الجاهلية والإسلام فجهز من ماله جنداً في سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله في هذا الغرض وهو راض مغتبط .

أقطع الرسول القطائع<sup>(٢)</sup> ، وكان يتألف على الإسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد تأليف قلوبهم ، فدعى من يأخذون ذلك « المؤلفة قلوبهم » وهم أحد وثلاثون رجلاً من سادة العرب ، تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم في الإسلام ، ولثلاث<sup>(٣)</sup> تحملهم الحمية ، مع ضعف نياتهم ، على أن يكونوا إلهاً مع الكفار على المسلمين ، وما منهم إلا الشريف المسود والعالم والخطيب والشاعر والداهية الباقعة ؛ قال صفوان بن أمية : لقد أعطاني رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلى . وقال الرسول : إني لأعطي قوماً أتألف ظلمتهم<sup>(٤)</sup> وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغبى . وكان يعامل المسلمين بقواعد المساواة ويفضل من الأزد الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر ، وهم أعز نفساً وأشرفهم ، لم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك .

كانت الحكمة في تأليف من قضت المصلحة بتأليفهم ، أعطى كل واحد من المؤلفة قلوبهم في إحدى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس في الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء

(١) آلاف في اليمن ونسار جبل في حمى ضرية . (٢) القطيعة من الأرضين طائفة من أرض الحجاج . (٣) تاج العروس للزبيدي . (٤) الظلم : العيب .

للموئلة قاوبهم ، ودخل بعضهم في خدمة الدولة وتولوا العائلات وقيادة الجيوش ولم يبق عربي بعد واقعة حنين والطائف<sup>(١)</sup> إلا أسلم ؛ ومنهم من قدم على الرسول ومنهم من لم يقدم ، وقنع بما أتاه به وافد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانت العرب لقريش وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته . جاء قيس بن نُسْبة السُلَمي ، فأسلم ورجع إلى قومه فقال : يا بني سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأسفار الرهاب والكهان ومقاول<sup>(٢)</sup> حير ، وما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم . وقال أبو سفيان ابن حرب : ما رأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً .

وكثرت الوفود في السنة التاسعة للهجرة حتى سمي عام الوفود . وفي سنة سبع بعث دحية الكلبي بكتاب إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل ليدفعه إلى قيصر ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ، وعمر بن أمية إلى النجاشي ، وحاطب . ابن أبي بلتعة إلى المقوقس في مصر ، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحرث بن أبي شمر الغساني ، والمهاجر بن أبي أمية إلى الحرث ملك اليمن ، يدعوهم كلهم إلى الإسلام .

وجاءت وفود العرب من كل وجه ، وكان الرسول يكرمهم ويفضل عليهم بعطائه ، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد القيس ، ومنهم من يبالغ في إكرامه كملوك اليمن ، وإنما سمو ملوكاً<sup>(٣)</sup> لأنه كان لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه ، وكانت كتبه إلى ملوك الأطراف خارج الجزيرة بلغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظاً في بعض كتبه إلى أهل اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة إلا في قبيل واحد ، وذلك إرادة لفهام القوم ومخاطبتهم بمألوفهم من العبارات<sup>(٤)</sup> ، قال علي للرسول وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما

( ١ ) أسد الغابة لابن الأثير . ( ٢ ) مقاول ج مقول وهو القبل أي الملك الصغير بلغة

اليمن . ( ٣ ) طبقات ابن سعد . ( ٤ ) المعتد التمريد لابن عبد ربه .

لا نفهم أكثره . فقال : أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد ، فكان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون .

ولم يكن للرسول بيت مال ، وكان يخبأ الأموال في بيته وبيوت أصحابه ، وفي الغالب أن النبي يقسم من يومه ، خصوصاً إذا كان من الناطق كالإبل والشيء والخيل والبغال . والرسول يعطي الأهل<sup>(١)</sup> من النبي حظين والعزب حظاً<sup>(٢)</sup> . وبلغ من تبادل الثقة<sup>(٣)</sup> والحب بين المسلمين في صدر الإسلام أنهم كانوا خلطاء بالمال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقاً لقوله تعالى : ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) . ولقد أهديت لعبادة بن الصامت<sup>(٤)</sup> هدية وإن معه في الدار اثني عشر من أهل بيته فقال عبادة : اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا . قال الوليد بن عبادة فأخذتها ، فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

كان بالمدينة في زمن النبي شاب يقال له مالك بن ثعلبة الأنصاري ، ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فر بالنبي والنبي يتلو هذه الآية ( والذين يكنزون إلى قوله فذوقوا ما كنتم تكنزون ) فغشى على الشاب فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة ؟ فقال له النبي : نعم يا مالك . قال : والذي بعثك بالحق لمسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهماً قال : فتصدق بماله كله .

وما كان أصحاب رسول الله بالمنخرقين<sup>(٥)</sup> ولا المتماوتين<sup>(٦)</sup> ، يتناشدون الأشعار ، ويجلسون في مجالسهم ، ويذكرون جاهليتهم ، فإن أريد إنسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه فترى حاليتها<sup>(٧)</sup> غضبا . بل كان منهم من إذا ارتكب

( ١ ) الأهل : المزوج . ( ٢ ) تيسير الرسول لابن الديع . ( ٣ ) الإحياء

لغزالي . ( ٤ ) تاريخ دمشق لابن عساكر . ( ٥ ) المنخرق السريع . ( ٦ ) تمارت أظهر من نفسه والتخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم . ( ٧ ) الحلق باطن الأجفان المحمر إذا قلبت للكحل بدت حررتها وقيل الحلق ما غطي الجفن من بياض المقلة .

كبيرة يعاقب عليها الإسلام يأقى الرسول يطلب إقامة الحد الشرعى عليه ، أو يسمع منه ما ينقلب به إلى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تثلج بها نفسه ، ويعتقد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول .

وأراد النبي مرة لإحصاء المسلمين فقال : اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبوا له ألفاً وخمسمائة رجل . وما كان يجمع المسلمين فى أول أمرهم كتاب حافظ أى ديوان مكتوب<sup>(١)</sup> . وكان إذا نودى للزحف وتحلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر ، يلومه الرسول وأصحابه ، وإذا تبين أنه تعمد أن يكون مع المتخلفين عن القتال يعاتب ، ويقاطعه الجماعة ويحتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيو لغزو الروم فى نبوك ، تناقل المسلمون عنها وأعظموا غزوهم ، فنافق من نافق من المنافقين ، حين دعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، وكان « ذلك فى زمن عسرة<sup>(٢)</sup> من الناس ، وشدة من الحر ، وجذب فى البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه » وجاء المتخلفون عن هذه الغزاة وكانوا ثمانين رجلاً فقبل الرسول منهم علانيتهم وأيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ، وفى هذه الغزوة حض الرسول أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا . وكان من أفضل القربات أن يجهز أرباب اليسار أناساً للغزو يتكفلون بطعامهم ولطعام ذويهم ، ويعطونهم السلاح والكراع واللباس ليغزوا ويرابطوا<sup>(٣)</sup> . وكان المسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبداً من يبذل شطراً صالحاً من ماله فى وجوه البر والقرب ، لا يريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وكان الرسول يورى بغزواته ، وقل أن يعين لأصحابه الوجهة التى يقصدها فى غزواته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره

( ١ ) سيرة ابن هشام . ( ٢ ) سيرة ابن هشام .

( ٣ ) المراقبة أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغرة وكل مستعد للقاء صاحبه . فكانوا يربطون أى يقيمون على جهاد عدوم بالحرب ، ومرابطات المسلمين مرابض خيلهم والمراقبة هم الجماعة رابطوا .

أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا . وكان لا يستكره من أصحابه أحداً  
 أى لا يندبهم للعمل قسراً ، وذلك ليرصد بذلك قريباً ويعلم له من أخبارهم .  
 ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز . وسلاحهم القوس والنبل والحرية  
 . والسيف والدرع والمغفر<sup>(١)</sup> والتسبغة<sup>(٢)</sup> ثم اتخذ أنواع السلاح التي كانت موجودة  
 إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هوازن<sup>(٣)</sup> مئة درع بما يكفيها من  
 السلاح من صفوان بن أمية ليلقى بها العدو ، على أن تكون عارية مضمونة  
 حتى يودعها إليه . ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض  
 أصحابه صنعة الدبابات والمجانيق والضبور<sup>(٤)</sup> أى صنائع القتال ، فأرسل إلى  
 جرّش اليمن اثنين من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رمى  
 بالمنجنيق . وأخذ المسلمون بعيد ذلك يعدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة  
 ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به  
 الرسول فقال لعدى ابن حاتم : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول في  
 هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى  
 لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة  
 عددهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية  
 على بغيرها تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه  
 أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع  
 بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . وقال مرة : أبشروا  
 وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن  
 تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها فتهلككم  
 كما أهلككم .

( ١ ) المغفر زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس وفي المحكم هو ما يجمل من فضل درع  
 الحديد على الرأس مثل القلنسوة . ( ٢ ) التسبغة المغفر لا ترى من لابه إلا عيناه .

( ٣ ) سيرة ابن هشام .

( ٤ ) الضبور جلود نفثى خثيباً فيها رجال وقالوا هي الدبابات تقربد للحصون لتتقب  
 من تحتها الواحدة ضبرة .

كان إذا سقط في يد الرسول أحد أذكىاء المشركين أبقي عليه في الغالب. علّ في حياته ما يستفيد منه الإسلام إذا أسلم . أما من قتلوا النفس التي حرم الله فهو لاء لا تأخذه بهم رحمة . قدم عليه نفر من العرب قد ماثوا هزالا فأسلموا واجتروا<sup>(١)</sup> المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربون من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمنوا فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل فبعث في آثارهم ، فلما ترجل<sup>(٢)</sup> النهار حتى جىء بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته ، يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء ، ويتولين من الرجال ما يصلحهن له كالطعام والإسقاء ، ويحمسن من يحتاج إلى تحميس ، وجعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة يقال لها ربيعة في مسجده كانت تداوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضيقة من المسلمين . وكذلك كانت أخت ربيعة واسمها كعبة بنت سعيد الأسامية . ومنهن من كن يخطن القرب . فالنساء في حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محمسات داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء في الحرب . فكان بذلك يستفيد من كل قوة في بلده يستعين بها على الظهور على المشركين .

ومن خطبه الإدارية ما ورد في الثقات أنه قعد على بعير له وأخذ إنسان بخطامه أو بزمامه فقال : أى يوم هذا : قال من حضر : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى قال : فأى شهر هذا . قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : أليس بذي الحجة قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال : فأمسكنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى قال : فإن دماءكم وأعراضكم ( وفي رواية وأموالكم ) بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا ليلغ الشاهد الغائب .

( ١ ) اجتروا استوبأوا . ( ٢ ) ترجلت اشمس ارتفعت .

وجه الرسول على بن أبي طالب إلى بعض الوجوه فقال له فيما أوصاه :  
قد بعثتك وأنا بك ضنين ، فابرز للناس وقدم الوضيع على الشريف ،  
والضعيف على القوى ، والنساء قبل الرجال ، ولا تدخلن أحداً يغلبك على.  
أمرك ، وشاور القرآن فإنه إمامك .

هذا جملة ما يقال في تدبير الرسول في الإدارة من بث دعوة ، وجهاد  
عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل.  
البلاء من المهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء المسلمين ، وما كان من توزيعه  
العمل بين عماله ومعاملته لهم وللوفود والنساء ، واتخاذ الجند والمحاربين ،  
واشتداده في الحق ، ولينه إذا دعت الحال إلى اللين ، وإغضائه أحياناً لما يلحق  
به من الأذى ، يرتقب الفرص لمن يكيد للمسلمين .

ومما يصح التمثيل به في باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأصحابه  
مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا بجلبان<sup>(١)</sup> السلاح ، وصالح سهيل بن عمرو  
أخا عامر بن لؤي فدعا على بن أبي طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن  
الرحيم . فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول  
الله : اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه  
محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله  
لم أقاتلك . لكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله : اكتب هذا  
ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحنا على وضع الحرب  
عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على  
أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن  
مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال<sup>(٢)</sup> ،  
وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل

( ١ ) الجلبان أوعية السلاح بما فيها أعمد والسيوف فيه والكنانة والسهام فيها .

( ٢ ) الاسلال الخيانة والأغلال المروقة ، والعيبة في الرجل . وضع سره أي بيننا وبينهم .

في هذا الصالح صدر مغفود على الوفاء بما في الكتاب نقي من الغل والغدر والخداع .

أتى عقد قريش وعهدهم دخل فيه الخ ، فاستاء المسلمون من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من خصمه هذا العنت . ويقول القسطلاني<sup>(١)</sup> : إن الحكمة في موافقة الرسول سهيلاً على أن لا يأتيه منهم رجل إن كان على دين الإسلام إلا رده إلى المشركين ؛ أن فتحت مكة وأسلم أهلها كلهم ، وكانوا قبل الصلح لا يختلط المشركون بالمسلمين ، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي كما هي ، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة . وذهب المسلمون إلى مكة ودخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحوه ، وسمعوا منهم أحوال النبي ومعجزاته الظاهرة ، وعانوا بأنفسهم كثيراً من ذلك ، فالت نفوسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا ، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام ، لما كان يوم الفتح أسلموا كلهم ، لما كان قد تمهد لهم من الميل . وكانت العرب من غير قريش في البرادى ينتظرون بإسلامهم لإسلام قريش ، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب في البرادى .

(١) المواهب الدنية للقسطلاني .

## إدارة الخلفاء الراشدين

### إدارة أبي بكر الصديق :

سار أبو بكر بسيرة الرسول في الإدارة الإسلامية ، واحتفظ بالعمال الذين استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبي أن يعمل لغير رسول الله فاعتزل العمل . ولما وسدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فكث عمر سنة لا يأتيه رجлан ، ولم يخاصم إليه أحد . وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون من الطبيعي أن يعطى الإنسان الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله لا يقارف منكراً ولا يسرف على نفسه ويبعد عن الزور وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجعل رائده الصدق في أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصديق أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي وأهل الفقه ، ودعا رجالاً من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن ابن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى الناس في خلافة أبي بكر ، على أن أبا بكر كان جد عالم بالشريعة وأنخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم ، إلى ما رزق من صدر رجب يطلب من كل صاحب إدارة . واختار من القضاة ما اختاره الولاة غالباً ، وكان ولاة المدينة<sup>(١)</sup> هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبي بكر على بن أبي طالب وزيد بن ثابت . ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان<sup>(٢)</sup> ويكتب له من حضر<sup>(٣)</sup> . ومن عماله عتاب بن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي العاص والمهاجر بن أبي أمية وزيد بن عبيد الله الأنصاري ويعلى بن منبه وأبو موسى

( ١ ) طبقات ابن سعد .

( ٢ ) تاريخ الطبري .

( ٣ ) الكامل لابن الأثير .

الأشعري ومعاذ بن جبل والعلاء بن الحضرمي وجريز بن عبد الله وعبد الله ابن ثور وعياض بن غنم وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد ابن أبي سفيان وخالد بن الوليد .

ما تجاوزت رقعة الملك الإسلامي في أيام أبي بكر أكثر من جزيرة العرب قسمت إلى ولايات أو عمالات ، وهي مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وخولان وزُبَيْد وريمع والجند ونجران وجرش والبحرين أما القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالا من عندهم في الأرض التي يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما إليها ولاية .

ولما ولي أبو بكر قال قد علم قومي أن حرقى لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين في مالهم ، وسياً كل آل أبي بكر من هذا المال ، فجعلوا له ألفين . وفي رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال<sup>(١)</sup> . ثم قال ، زيدوني فإن لى عيالا ، وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه في خلافته ترك سبعة<sup>(٢)</sup> دنانير فاستكثرها أبو بكر ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقررأ للجند<sup>(٣)</sup> . وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم ، وإذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم ، يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه في نصرة الدين . جرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر . وكان لأبي بكر<sup>(٤)</sup> بيت مال بالسُّج من ضواحي المدينة فقيل له ألا تجعل عليه من يحرسه ؟ قالوا فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شيء . ولما قضى نحبه ذهب عمر في نفر من الصحابة لتسلم بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً .

وجرى أبو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكثرهم

( ١ ) تاريخ اليعقوبى . ( ٢ ) طبقات ابن سعد .

( ٣ ) الفخرى لابن المظفر . ( ٤ ) الكامل لابن الأثير .

علما وعملا . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء فقال : انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول الله توفي وهو له وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له في دينه ، ما أغبط أحداً بالإمارة ، وقد خيرته في أمراء الأجناد فاخترتك على غيرك ، اختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقي الناصح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وليك خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واجد عندهم نصيحاً وخيراً ، وإياك واستبداد الرأى عنهم ، أو أن تطوى عنهم بعض الخبر .

وخالد بن سعيد هو الذى نصح لأبي بكر لما وجهه لفتح الشام فقال له : يا أبا بكر إن الله قد أكرمنا وإياك والمسلمين طراً بهذا الدين ، فأحق من أقام السنة وأما البدعة وعدل في السيرة الوالى على الرعية ، كل امرئ من هذا الدين مخوف بالإحسان إلى إخوته ، ومعدلة الوالى أعم نفعاً ؛ فاتق الله يا أبا بكر فيما ولاك الله من أمره ، وارحم الأرملة واليتيم وعن الضعيف والمظاوم . ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه أثر في الحق عندك منه إذا سخطت عليه ، ولا تغضب ما قدرت عليه ، فإن الغضب يجر الجور ولا تحمد وأنت تستطيع ، فإن حمدك على المؤمن يجعله لك عدواً ، فإن اطلع على ذلك منك عاداك ، فإذا عادت الرعية الراعى كان ذلك مما يكون إلى هلاكهم داعياً ، ولن للمحسن واستند على المريب ، ولا تأخذك في الله لومة لائم . فلما خرج من المدينة وأبو بكر يشيعه قال له أبو بكر : قد أنصت لك إذ أوصيتني برشدى وقد وعيت وصيتك ، فأنا موصلك فاسمع وصيتي : إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة في هذا الدين ، وفضيلة عظيمة في الإسلام ، والناس ناظرون إليك ومستعمون منك ، وقد خرجت في هذا الوجه وأنا أرجو أن يكون خروجك بنية صالحة ، فثبت العالم ، وعلم الجاهل ، وعاتب

السفيه المترف ، وانصح لعامة المسلمين ، واخصص الوالى على الجند بنصيحتك ومشورتك بما يحق للمسلمين ، واعمل لله كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى .

دعا أبو بكر عمرو بن العاص وسلم إليه الراية وقال ، قد وليتك هذا الجيش فانصرف إلى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وانجده إذا أرادك ، ولا تقطع أمراً إلا بمشورته ، اتق الله فى شرك وعلايتك ، واستحبه فى خلواتك ، فإنه يراك فى عملك ، وقد رأيت تقدمتى لك على من هم أقدم منك . سابقة وأقدم حرمة ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق ايلياء حتى تنتهى إلى أرض فلسطين ، وإياك أن تكون وانياً عما نذبتك إليه ، وإياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به . واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم ، وإياك وخدائع النفس ، وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك .. وكان مما قاله أبو بكر ليزيد بن أبى سفيان : إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك . فأبو بكر على هذا بدأ بتجربة من توسم فيهم الغناء من القواد ، وهددهم بالعزل إذا لم يحسنوا ، واختط لهم الخطة الواجبة فى مشاورة من معهم وحذرهم الاعتداد بأنفسهم ، فكانوا عند حسن ظنه بهم .

ولم يحدث أبو بكر فى أيامه أحداثاً جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ، ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك ، جهزه بكل حكمة وبذل فى تنظيمه أقصى الجهد ، وجعل فيه قاصاً وجعل أبا سفيان بن حرب قاصاً يسير فى الجماعة ويقول : الله الله عباد الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرتك على عبادك ، يا نصر الله اقترب ، يا نصر الله اقترب ، وقصاص الجند يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية وقصصاً وأحاديث عن الأثم الماضية وأساطير وحكايات .

## إدارة عمر بن الخطاب :

كانت أول خطبة خطبها عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة : أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ له الحق ، ولا أضعف عندي من القوى حتى آخذ الحق منه . وما كان عمر ممن أولع بإلقاء الخطب كثيراً ، على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غزير ، ولا يرتقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة ، وأراد بيان أمر ذهبت فيه نزوات النفوس مذهباً لا يرضاه . وكثيراً ما قال إن هذا الأمر لا يصلح فيه إلا اللين في غير ضعف ، والقوى في غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين الشدة واللين ، وهو إلى هذه ولا سيما على عماله أقرب .

طريقة عمر في الإدارة طريقة أبي بكر وصاحبه من قبل : إطلاق الحرية للعامل في الشئون الموضعية ، وتقيدته في المسائل العامة ، ومراقبته في خلوته وجلوته ، « وكان <sup>(١)</sup> علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد ، وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ، ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده ، فكانت ألفاظ من بالشرق والغرب عنده في كل ممسى ومُصْبِح . وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به » . كان كما قال المغيرة بن شعبة أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يُخدع .

كان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم <sup>(٢)</sup> فيقول إني لم أستعملكم على أمة محمد على أشعارهم <sup>(٣)</sup> ولا على أبشارهم . وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل . لا تجلدوا العرب فتذلوها ، ولا تجمروها <sup>(٤)</sup> فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها ،

(١) التاج المنسوب للجاحظ . (٢) تاريخ الطبري .

(٣) أشعر : جمع شعر ، وأبشار جمع بشرة وهي ظاهر جلد الإنسان .

(٤) لا تؤخرها في دار الحرب .

جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم .  
وكان يقص من عماله . وإذا شكى إليه عامل جمع بينه وبين من شكاه ،  
فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه .

وكان إذا بعث أمراء الجيوش يوصيهم بتقوى الله وأن لا يعتدوا  
ولا يجبنوا عند اللقاء ، ولا يمثلوا عند القدرة ، ولا يسرفوا عند الظهور ،  
ولا يقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وأن يتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وشتت  
الغارات ، وأن لا يغلوا عند الغنائم ، وينزهوا الجهاد عند عرض الدنيا . وكتب  
إلى سعد بن أبي وقاص : أما بعد : فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل  
حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ،  
وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ،  
فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية  
عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عدونا ليس كعددهم ،  
ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية ، كان لهم الفضل علينا في القوة ،  
وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة  
من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في  
سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا حرب  
قوم قد سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط  
الله كفره المجوس ( فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ) . واسألوا الله  
المعونة على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم .  
وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن  
منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم  
سائرون إلى عدوهم مقيم حامى الأنفس والكراع . وأتم بمن معك في كل جمعة  
يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُجمعون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم  
ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من  
تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء

بها كما ابتلوا بالصبر عايتها ، فما صبروا لها فغفوا لهم . ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلاح . وإذا وطئت أذى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه . فإن الكذوب لا ينفعك خبره ، وإن صدق في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر من الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقتلع سرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك . واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر والجلاد ، ولا تخص بها أحداً جهوى ، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايت به أهل خاصتك . ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه ضيعة ونكابة . فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ، ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كمنزيعه بك ، ثم أذك حراسك على عسكريك ، وتحفظ من البيات جهديك . ولا تؤت بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه ، ترهب بذلك عدوك وعدو الله . والله ولي أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم وهو المستعان .

كان عمال عمر عرضة لكشف أحوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا شكى (١) إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، وله عدة طرق في كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيشكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك غليقم ، فما قام إلا رجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط ،

( ١ ) أسد الغابة لابن الأثير .

قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين . إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : كيف (١) . لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارضوه ، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه . فقيل له : أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه فقال ومالي لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ؟

قالوا وكان أبا العيال (٢) يسلم على أبوابهن ويقول : ألكن حاجة وأيتكن . تريد أن تشتري شيئاً فیرسلون معه بحوائجهن ، ومن ليس عندها شيء اشترى لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن في سبيل الله : وأنتن في بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فاقربين من الأبواب حتى أقر ألكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ، ثم يدور عليهن بالقرطاس والدواة يقول : هذه دواة وقرطاس فادين من الأبواب حتى أكتب لكن ، ويمر إلى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن .

وكان إذا استعمل عاملاً أوصاه بتقوى الله وإصلاح الرعية وكتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار ألا يركب برذونا ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول اللهم اشهد . وكتب إلى عماله : أما بعد فإياكم والهدايا فإنها من الرشا . اهتدى إلى عظيم ضرر الهدايا مما بدر من رجل (٣) كان يهدى إليه فخذ جزور فخاصم إليه رجلاً فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلاً ، كما تفصل الرجل من سائر الجزور ، فقضى عليه عمر ، ثم كتب إلى عماله إن الهدايا هي الرشا . وكان

(١) أقاد القاتل بالقتيل قتله به . (٢) سراج الملوك للطوطوشى .

(٣) الإشراف لابن أبي الدنيا .

عمر إذا قدم العمال بأسرهم أن يادخلوا شوارعاً ولا يدخلوا البيوت ولا يخرجوا شيئاً من الأموال . وكان يعس (٢) بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب إلى أبي موسى الأشعري عامله على العراق يأمره بالتقدم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبتكروا (٣) في النعم ، وعهدت إليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمال أن عمر يرغب في الخشونة ، وعرف أنه سيدعوهم إلى طعامه فتجوع له ، واتخذ خفين مطارقين (٤) ولبس جبة صوف ولات عمامته على (٥) رأسه . فدعاهم عمر إلى خبز وأكسار (٦) بغير ، فجعلوا يعاذونه لأنهم حديثو عهد بلين العيش ، وعمر يلحظهم . ولقت عامل البحرين نظر عمر ، وتهافته على تناول الطعام ، فسأله عمر عن عمله ثم عن جعله فأجاب إنه يرزق ألفاً ، فقال له عمر : إنه كثير ما تصنع به ؟ قال : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي ، فما فضل عنهم فعل فقراء المسلمين . فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبى عامل البحرين في عمله ، لأنه رآه مقلاً متقشفاً لا يخشى أن يسرف في المال . وولى عمر رجلاً بلداً فوفد عليه (٧) فجأة مدهتاً حسن الحال في جسمه ، عليه بردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ؟ ثم عزله ودفع إليه غنيمات يربحها ثم دعاه بعد مدة فرآه بالياً أشعث في ثوبين أطلسين (٨) ، وذكر عند عمر بغير حمده إلى عمله وقال : كلوا واشربوا وادمنوا فإنكم تعلمون الذي تهون عنه .

كان إذا قدم وفد على عمر سالم من حالهم وأسعارهم ، وعن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف وهل يعود المريض ، فإن قالوا نعم ، حمد الله تعالى وإن قالوا لا كتب إليه : أقبل . وكان من سنة (٩)

( ١ ) يأخذوا ( ٢ ) يطوف بالليل ،

( ٣ ) تبتكروا تمكثوا .

( ٤ ) نعل مطرقة ومطارقة مخشوشة وعصف النمل أطق عليها مثلاً ومزرها والمخسف .

( ٥ ) لأن مخاضته على رأسه عصبها واهها . ( ٦ ) جمع كهر وهو الفضل عليه لليل لحم .

( ٧ ) الكائنات القنود . ( ٨ ) اللطيف ، يكثر الغطاء الوديع من الحياض والأطلس الثوب

الغليظ : ( ٩ ) تاريخ الطبرستان .

عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية ، وليكون لشكاكم وقت وغاية ينهونها إليه . كتب إلى أبي موسى الأشعري . أما بعد فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة . وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا ، فأثر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفساق واجعلوهم يدا يدا ورجلا رجلا ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثاها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن وإنما حثفها في السمن ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام .

وبلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يسبغ على عياله ، وقد ظهرت شارته ، فنقصه من عطائه الذي كان يجري عليه ، ثم سأل عنه فقيل له قد شحب لونه ، وتغيرت ثيابه ، وساءت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر ! فرد عليه ما كان حبس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبي عبيدة فلم ير إلا لبدًا وصحفة وشنًا<sup>(١)</sup> ، وسأله طعاماً فأخرج له من جونه<sup>(٢)</sup> كسيرات فبكى عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ، وأرسل إليه أربعمئة دينار ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل مثلها إلى معاذ بن جبل فوزعها إلا أشياء قليلة سألته امرأته إياها لحاجتها . فقال عمر لما أخبر بذلك : الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا .

كان معظم عمال عمر على غرار أبي عبيدة ومعاذ من التقشف والتبلى باليسير ، وكان إذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التي لا يرى غيرها ،

(١) اللبد : ما يتلبد من شعر أو صوف . والصحفة : الإثاء . والشن والشنة القرية البالية

(٢) الجونة سلة صغيرة منشأة بالأدم أي الجلد .

لا يتلکأ عن عزلهم . فقد شكوا أهل حمير عاملهم سعيد وسألوه عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله في الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يعجن كل يوم خبزاً ويجلس حتى يحتمر فيخبزه ثم يخرج للناس ، وأنه يجعل الليل كله للعبادة ، وأنه يشتغل مرة في الشهر بغسل ثيابه ، بعث إليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين .

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم ير عمر معه إلا عكازاً وقدحاً فقال له ليس معك إلا ما أرى ، فقال له سعيد : ما أكثر من هذا ؟ عكاز أحمل عليه زادی وقدح آكل فيه . وكان من عماله عمير بن سعد وفيه يقول عمر : وددت لو أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد<sup>(١)</sup> أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذي قال على منبر حمص : « لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيوف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل » . وهذا من أبعد مراعى الإدارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العدل لا يحتاج في سياستهم إلى شيء من الشدة .

كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على حمص أقبل بما جببت من فيء المسلمين . فسأله عمر عما عمله فقال : بعثتني حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولونالك منه شيء لأتيتك به . قال : فما جئتني بشيء . قال : لا . قال جددوا لعمير عهداً فقال عمير ، لا عملت لك ولا لأحد بعدك ، والله ما سلمت بل لم أسلم ، لقد قلت لنصراني أي أخزأك الله . فهذا ما عرضتني له يا عمر ، وإن أشقى أيامي يوم خلقت معك يا عمر . وكان إذا استعمل عاملاً كتب عهده<sup>(٢)</sup> : « وقد بعثت فلاناً وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة بن اليمان على المدائن كتب في عهده أن اسمعوا له وأطيعوا وأعطوه ما سألكم . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما شئت . قال : أسألكم طعاماً آكله

( ١ ) طغفأت ابن سعيد .

( ٢ ) أسد الغابة لابن الأثير .

وعلف حمارى ما دمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب إليه ليقدم عليه . فلما بلغ عمر قدومه كمن له في الطريق ، فلما رآه على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك .

فعمر إذا لم يختار للأعمال إلا أفاضل الرجال ممن كانوا على سمته وزهده . وكان كثيراً ما يستعمل قوماً ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ويقول : أكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور في كثير من الوقائع حتى قال يوماً لأصحابه : أشيروا على ودلوني على رجل أستعمله في أمر قد ذهني فقولوا ما عندكم ، فإني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان فيهم هو أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي فنشير على أمير المؤمنين به ، فأحضره وولاه ، فوفق في عمله ، وقام فيه بما أربى على رجاء عمر وزاد على عمله ، فشكر عمر لمن أشاروا عليه بولاية الربيع .

كتب عمر إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي أن سر إلى عتبة ابن غزوان فقد وليتك عمله ، واعلم أنك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وإني لم أعزله ألا يكون عفيفاً صلباً شديد البأس ، ولكن ظننت أنك أغني عن المسلمين في تلك الناحية فاعرف له حقه . ولما سير عمر عتبة بن غزوان إلى البصرة ليقا تل من بالأبلة من فارس قال له : انطلق أنت ومن معك حتى تأتوا أقصى مملكة العرب وأدنى مملكة العجم ، وأمره أن يشاور عرفة بن هرة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكايدة . وعزل عن بعض ولاية الشام شر حبل بن حسنة واستعمل بدلاً منه معاوية ابن أبي سفيان ، واعتذر على رؤوس الأ شهد أنه لم يعزله عن شيء هجته به ، بل أراد رجلاً أقوى من رجل ، وبعث المخيرة بن شعبة عاملاً على الكوفة لأنه قوى مشدد ، وكان عمر سأل عن الضعيف والقوى فقال : أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له ، وأما القوى المشدد فقوته لك

وللمسلمين وشدادته عليه . وعزل النعمان بن عدى عامله على ميسان لأنه بلغه أنه قال أبياتاً في التشبيب ، تشير إلى أنه يتعاطى الراح ، مع أنه عارف بأن ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر . وعزل زياد بن أبي سنيان فقال زياد : أعن عجز عزلتى يا أمير المؤمنين أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن شاور طلحة الأسدي وعمرو بن معدى كرب في أمر حربك ولا تولها من الأمر شيئاً ، فإن كل صانع هو أعلم بصنعتة . وكتب إلى النعمان<sup>(١)</sup> بن مقرن أن قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدى كرب وطلحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا تولها شيئاً من الأمر . وبعث مع أبي عبيد بن مسعود سليط بن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك ، ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث<sup>(٢)</sup> .

وسأل عمر بن معدى كرب عن خبر سعد بن أبي وقاص نفسه فقال : متواضع في<sup>(٣)</sup> حباه ، عربي في نمرة ، نبطي في جبوته ، أسد في تاموره<sup>(٤)</sup> . يعدل في القضية ويقسم بالسوية ، ويعبد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة . ولما شكوا أهل الكوفة سعدا عزله عمر ولم تأخذه به هوادة ، لأن الغاية لإنفاذ العمل النافع للناس على يد أى كان من عماله ، وألا يفتح للمسلمين باباً للشكوى . وخير ضروب السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر من قول القائلين . وسعد هذا هو الذى كان أجمع الصحابة على توسيد حرب العراق إليه ، فأوصاه عمر بقوله ياسعد بنى وهب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، وليس بين الله

( ١ ) مروح الذهب للمسعودي .

( ٢ ) المكيث : الرزين الذى لا يعجل فى أمه . وحرب زبون : يدمع بعضها بعضاً كثرة .

( ٣ ) الحباه جلسة خاصة بالعرب . ( ٤ ) أراد أنه فى جباية الخراج وعمارة الأرض

كالنبط حذقاً بها ومهارة فيها لأنهم كانوا سكان العراق وأربابها . والأنباط هم سريان كانوا يبنون البطاح بين الدراقين . والتمرة : الحبرة . والتامور : النفس .

وبين أحد نسب إلى طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ،  
الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ،  
فانظر الأمر الذي رأيت النبي منذ بعث إلى أن فارقنا يلزمه فالزمه فإنه الأمر .  
هذه عظتي إليك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين .  
وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق .

كتب عمر إلى سعد حين افتتح العراق : « أما بعد فقد بلغني كتابك .  
تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا جاءك  
كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك إل العسكر من كراع أو مال فاقسمه  
بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ، ليكون  
في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر ، لم يكن لمن بقي بعدهم  
شيء . وقد كنت أمرتك أن تدعو الناس بثلاثة أيام فمن استجاب لك وأسلم  
قبل القتال ، فهو رجل من المسلمين له ما لهم وله سهم في الإسلام . ومن  
استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وما له لأهل  
الإسلام لأنهم قد أحرزوه قبل إسلامه . فهذا أمرى وعهدى إليك .  
ولا عشور على مسلم ولا على صاحب ذمة إذا أدى المسلم زكاة ماله ، وأدى  
صاحب الذمة جزيته التي صالح عليها ، إنما العشور على أهل الحرب إذا  
استأذنوا أن يتجروا في أرضنا فأولئك عليهم العشور » .

كان عمر على شدة فيه مع عماله إذا أحس اعتداء أو شبه اعتداء وقع على  
أحدهم يشتد على المعتدين في تلك الناحية ليبقى للعامل هبة توقره في الصدور ؛  
ومهابة يلجم بها العامة والخاصة . وقع له مرة أن حصب<sup>(١)</sup> أهل العراق إمامهم ،  
وقد كان عوضهم إماماً مكان إمام كان قبله فحصبوه ، فغضب وقال لأهل  
الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ ، ودعا عليهم .  
ذلك لأن شكوى العراقيين عاملهم كانت باطلة ، وهو الذي يتحرى في

(١) حصبة رجة بالخصباء . ويستعمل في كل رمى مطلقاً .

انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم ، بل يجعل بعضهم رقيباً على بعض ، وله عليهم سلطان دونه كل سلطان . شكاة عتبة بن غزوان (١) تسلط سعد ابن أب وقاص عليه فسكت عنه عمر ، فأعاد عتبة ذلك مرراً ، فلما أكثر على عمر قال : وما عليك يا عتبة أن تقر بالأمر لرجل من قريش له صحبة مع رسول الله وشرف . فقال عتبة : أأست من قريش والرسول يقول حليف القوم منهم ، ولي صحبة مع رسول الله قديمة لا تنكر ولا تدفع فقال عمر : لا ينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع إليها أبداً . فأبى عمر إلا أن يرده فردته فمات في الطريق . وهذا من تأثير عمر في عماله ومعاملته لهم بما تريد المصلحة لا بما يريدون . مثال آخر يخالف هذا — والإدارة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان — خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت في شيء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية في القول فقال عبادة : لا أساكنك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة . فقال عمر : ما أقدمك ؟ فأخبره . فقال : أرجع إلى مكانك يفتح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك . وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه . ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة .

كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه من جمهور الناس بشيء في لباسه ومركبه وحركته ، يختلط بالشعب كأنه واحد منهم ، ومع هذا كان الناس يخافونه ، ولو وقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد الناس لحسروا عليه وضعف سلطانه عليهم ، إن كان من أرباب السلطان . ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر في أن يلين لهم فإنه قد أخافهم ، حتى إنه أخاف الأبيكار في خدورهن . فقال عمر : إني لا أجدهم إلا ذلك إنهم لو يعلمون ما لهم عندي لأخذوا ثوبي عن عاتق . وقال عمر قد ألنا وإيل علينا أي ولينا وولى علينا . معناه قد ولينا فعلمنا ما يصلح الوالى ، وولى علينا فعلمنا ما يصلح الرعية .

(١) طبقات ابن سعد .

وما أرانا نبعد عن الصواب إذا حكمنا أن شطراً عظيماً من وقت عمر في ولايته كان يصرفه في سياسة العمال وكشف حالهم وانتقاء أصلحهم وتسليحهم في الإدارة والسياسة والقضاء ، على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به في هذا القرن أعرق الدول الحديثة في المدنية ، وأفضلها بنظمها الإدارية والدستورية . ولعل في الناس من يقول إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر ، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية العمال ، وإدخال الخوف عليهم بالضرب على أيديهم على صورة تحرمهم متع الحياة ، ولا توليهم منه غير الجفاء والخشونة في المعاملة . نعم هكذا كان عمر ، وهكذا وضع أساس الملك الإسلامي ، هو لا يجوز إغناء أفراد بإفقار أمة ، ولا إسعاد فئة بإشقاء مجموع . كان ممن يشترطون رضا العامة بمصلحة الأمراء<sup>(١)</sup> ، فكان الوالي في نظره فرداً من لأفراد ، يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس ، فكان حب المساواة لا يعدله شيء في أخلاقه . إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوى بينهما في الموقف حتى يظهر الحق ، فإن توجه قبل العامل اقتصر منه ، إن كان هناك داع إلى القصاص ، أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله . ومن عادة عمر أن يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم . مر ببناء يبنى<sup>(٢)</sup> بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ، وشاطره ماله وكان يقول : لي على كل خائن أمينان الماء والطين .

ولقد صدر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لأنه فشت له فاشية من ستاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن له حين ولي مصر . فادعى عمرو أن أرض مصر أرض مزدرع ومتجر ، وأنها أثمان خيل تنائج وسهام اجتمعت ، وأنه يصيب فضلاً عما يحتاج إليه لنفقته ، ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر أبا هريرة عامله على البحرين لأنه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عشرون ألفاً .

(١) تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضرى . (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة .

وادعى أن خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وأنه اتجر فقال له عمر : انظر رأس مالك ورزقك فخذ ، واجعل الآخر في بيت المال . يريد أن يحصر العامل وكده في خدمة أهل عمله ، أما الاتجار وتثمين الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ، فإن هؤلاء ما يتبلغون به من رزق . وكان يرى في مصادرة العمال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والإدلال على الرعية . ومن شاطرهم أيضاً النعمان بن عدى عامله على ميسان ، ونافع بن عمرو الخزاعي عامله على مكة ، ويعلى بن منبه عامله على اليمن ، وسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله في الشام وآخذ خالد بن الوليد لأنه أمره أن يحبس المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا السلطان ، فأجاز الأشعث لشعره ، فغضب عمر ، وكان أحد الشعراء كتب إليه يقول :

نبح إذا حجوا ونغزوا إذا غزوا      فأنى لهم وفر ولسنا بذى وفر ؟  
إذا التاجر الهندى جاء بفارة      من المسك راحت في مفارقهم تجرى  
فدونك مال الله حيث وجدته      سيرضون إن شاطرتهم منك بالشر

فشاطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمة لثقتة<sup>(١)</sup> به ولم ينتطح في عمله عنزان . شاطر عمر سعداً وعمرأ وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام استكثر عليهم أن ينعموا ، وإن كان الأول فاتح العراق ، والثاني فاتح مصر ، والثالث فاتح الشام .

وقيل لعمر إن عياض بن غنم ، وهو من كبار الفاتحين ورجال الإدارة في حكومته ، يتوسع كثيراً في إعطاء المال حتى لا يقل في هذا المعنى عن خالد ابن الوليد فقال : إن ذلك من شأن أبي عبيدة ، وعياض من أقرباء أبي عبيدة . وعياض بن غنم هذا جلد صاحب دارا حين فتحت ، فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض ، ثم مكث ليلتي فلتله هشام فاعتذر إليه ، ثم قال

(١) طبقات ابن سعد .

هشام عياض : ألم تسمع رسول الله يقول إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً في الدنيا . فقال عياض قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول : من أراد أن ينصح لذي سلطان عامة فلا يبد له علانية ولكن ليخل به ، فإن قبل منه فذاك ، وإلا كان قد أدى الذي عليه . وإنك ياهشام لأنت الجريء إذ تجترىء على سلطان الله ، فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله .

كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالمال<sup>(١)</sup> بعد حبس ما كان يحتاج إليه ، والمال يجي من أموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، وكان النصراني واليهود أقروا على ما في أيديهم من الأرض يعمرونها ويؤدون خراجها ، ووضع عمر في مصر على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً ، وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطى غسل وقسطى خل ، رزقاً للمسلمين ، تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى عمرو بن العاص المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً . واستبطأ عمر في بعض السنين خراج مصر فكتب إلى عمرو : أما بعد فإنني فكرت في أمرك والذي أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيقة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً نوة في بر وبحر وأنها قد عالجها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عنوهم ركفهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ؛ على غير قحوط ولا جدوب ، إلى آخر ما قال له وهز أعصابه بكلمات قاسية ، فأجابه عمرو : لقد عملت لرسول الله ولن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئاً وقال : فامض في عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب إليه إنى لم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج

(١) خطاط المقرئى .

وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون . فأجابه عمر : إن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين . فكان الرفق خيراً من أن نخرق<sup>(١)</sup> بهم ، فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه .

ومع هذه الهيمنة من عمر على عماله نراه يشهد لعمر بن العاص بحسن السياسة دليلاً على تقديره عامله قدره . وكان من رأى عمرو بن العاص في سياسة مصر أن الذي يصلح هذه البلاد وينميتها ، ويقر قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، ولا يستأدى خراج ثمرتها إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتربتها . وكان عمر يقول إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر في حسن السياسة بين رجال العرب ، دهش قبط مصر بحميل عمله ، فدخل منهم في الإسلام كثير . وأدى به التسامح أن رفع رجل نصراني إليه أن غرفة بن الحارث الكندي من أصحاب الرسول الذين سكنوا مصر ضربه فوق أنفه فقال عمرو للصحابي : إنا قد أعطيناهم العهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابي بما فعل ، فقال غرفة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبي ، وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم ، يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون ، وإن أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم إلا أن يأتونا راضين بأحكامنا فنجكم بينهم ، وإن غيخوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت .

خطب عمر يوماً في الجابية من حوران فما قاله : ألا وإنني ما وجدت صلاح ما ولاني الله إلا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا وإنني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ، ويعطى في حق ، ويمنع من باطل ، وكتب معاوية إلى عمر يصف له سوء حال

( ١ ) خرق بالشئ ككرم إذا جهله ولم يحسن عمله .

الشام فكتب إليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظيرها واتخاذ المواقيد<sup>(١)</sup> لها . وجاء عمر الشام مرات أربعاً يكشف حال عمالها ويعنى بقسمة الأرزاق ، ويسمى الشوائى والصوائف أى غزوات الشتاء والصيف ، وأويسد الفروج والمسالح<sup>(٢)</sup> في كل كورة ، ويستعمل أناساً على السواحل من كل كورة ، أو يقسم المواريث بعد طاعون عمّواس ، وكان هلك فيه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً . وقيل إن عماله استقبلوه مرة بأية قتل وأخذ بالحجارة ورموا بها وقال : ما أسرع ما رجعت عن رأيكم ، إياي تستقبلون في هذا الزى ، وإنما شيعتم منذ سنتين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين ، لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر له معاوية عامله في الشام عن الموكب الثقيل الذي كان له قاتلاً : إنا في بلاد لا تمتنع فيها من جواسيس العدو ، فلا بد لهم مما يرههم من هيئة السلطان فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت . فلم يأمره به ولم ينه عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه فقال : لحسن مضاده وموارده ما جشمناه . وقيل إن معاوية قدم على عمر من الشام<sup>(٣)</sup> وهو أبيض<sup>(٤)</sup> الناس فضرب عمر بيده على عضده ، فألق عن مثل الشراب أو مثل الشراب فقال : هذا والله لتشاغلك بالحمامات ، وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك . وقال عمر : لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً ، فلئن أعلم أن للناس حوائج تقطع غنى ، أما هم فلا يصلون إلى ، وأما عمالهم

( ١ ) المناظير : قباب مبنية على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر يتناربان بعضها من بعض ويقام فيها حراس يوقدون النيران عند ما يرون إقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس المناظير الذين يكونون كذلك وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدينة أو القدر أو المستلحة في زمن قليل . ويقال قلعة المواقيد المناور أيضاً ( التعريف بالتصانيف الشريف ) .

( ٢ ) المستلحة : الثغر والمرقب وجمعة مسالج وهي مواضع الخافة وسميت مستلحة لأن الناس فيها يكرهون قوى سلاح أو لأنهم يسكنون المستلحة وهي كالثغر والمرقب يكون فيه أقوام يترقبون العدو لئلا يطردهم على غرة فإذا رأوه أظلموا أصحابهم ليتأهبوا له ، والفروج الثغور أى موضع الخافة . ( ٣ ) الكامل للبزد : ( ٤ ) يقال أبيض بض شديد البياض أو زقيق البشرة الذي يوقد فيه سئل شيء .

فلا يرفعونها إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعد من بدائع إدارة الحسنة ، وهو أنه ما كانت تفوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة والاعتماد على نفسها . خطب مرة فقال : « أعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز عتبتكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه » يريد أن يعلم الناس ألا يكثرُوا من الرجوع إلى الحاكم للفصل بينهم في خصوماتهم ، ليصرف وقته في التفكير في أمورهم الخطيرة ، وأن يعتمدوا على أنفسهم لا على صاحب الساطان ، وأن يعرفهم حالة الحاضر والبادي منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا يسرفوا لأنهم فقراء : ولطالما قال لقومه : أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ، ولقليل في رفق خير من كثير في عنف . يريد أن يسوق الناس إلى المدنية بتؤدة وتدرج . وكان يقول : من كان له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها ، وإنه يوشك أن يحىء من لا يعطى إلا من أحب . ونظر إلى رجل مظهر للنسك . متماوت فخفته بالدرة وقال له : لا تمت علينا ديننا أماتك الله .

وكان غرام عمر أبداً أن يلحق قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ، ولطالما قال لكتابه وعماله إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد . فإنكم إذا فعلتم ذلك تذاءبت<sup>(١)</sup> عليكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدأون ولا بأيها تأخذون . وقال اتقوا الله في الفلاحين ولا تقتلوهم إلا أن ينصبروا لكم الحرب . ونهى عمر أن تشتري أرض أهل الذمة ورقيقهم وقال : لا تشتروا من عقار أهل الذمة ولا من بلادهم شيئاً . وما كان يرى إبعاد العامة عن المجالس العالية . لئلا تفوتهم الفوائد ، وليتربوا على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم .

(١) تداولت .

ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب التخصص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أى أحصاهم ، ففرض الفروض وأعطى العطايا على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولمن بعدهم إلى الحديبية وبيعة رضوان ، ثم لمن بعدهم ولأهل القادسية واليرموك ، وأعطى نساء النبي وغيرهن ، ورزق الصبيان والأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاة والشعراء . وحلف على أيمن ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد أحق إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

جمع عمر المسلمين لأول عهده وقال : ما يحل للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً : أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لا وكس ولا شطط ، وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف ودابتان إلى جهاده وحوائج وصلاته وحججه وعمرته ، والقسم بالسوية ، وأن يعطى أهل البلاء على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعد ، ويتعاهداهم عند الشدائد والنوازل ، حتى تنكشف ويبداً بأهل النى . وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه فربما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه . وطلب من أحد أصحابه أن يقرضه مالا فقال له : ما يمنعك أن تقرض من بيت المال ، فأجابه أنه إذا مات وهو له مدين ربما غفلوا عن تقاضى ما اقترض ، أما صاحبه فإنه لحرصه على ماله يطالب الورثة بماله فيستوفيه وتبرأ ذمة عمر .

ومما تعلق به همة عمر إحداث أوضاع جديدة اقتضتها حالة التوسع في الفتوح فهو أول من حمل الدرة<sup>(١)</sup> ، وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم ، دونها له عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق بعد حين على جميع سجلات الحكومة وعلى المكان الذي يجلس فيه القائمون على هذه السجلات والأضابير<sup>(٢)</sup> والطوامير . وثبت أنه كان له سجن<sup>(٣)</sup> وأنه سجن الخطيئة على الهجو وسجن ضبيعاً على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات وشبههن ، وضربه مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق . وكتب ألا يجالس أحد فلو كانوا مائة تفرقوا عنه ، حتى كتب إليه عامله أنه حسنت توبته ، فأمره عمر فخلى بينه وبين الناس . وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس في المسجد في غير أوقات الصلاة ، وبني في المسجد رحبة تسمى البطيحا ، وقال من كان يريد أن يلغظ أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان المسجد في أيامه لغير الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون في المسجد لقضاء الخصومات . ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم<sup>(٤)</sup> .

وضع عمر أول ديوان في الإسلام للخراج والأموال بدمشق والبصرة والكوفة على النحو الذي كان عليه قبل . وقيل إن أول ديوان وضع في الإسلام ، هو ديوان الإنشاء ، ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين

( ١ ) الدرة كالمخصرة أو خيزرانة صغيرة يضرب بها .

( ٢ ) الأضابير : الحزمة من الصحف كالإضامة جمعها أضابير . والطوامير والطامور :

المصحفة . ( ٣ ) تاريخ اليعقوبي . ( ٤ ) التراتيب الإدارية لعبد الحى الكتاني .

العراق بالفارسية ، ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين<sup>(١)</sup> . والسبب في تدوين الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بخمسمائة ألف درهم فاستعظمها وجعل عليها حراساً في المسجد ، فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين يكتبون فيها « الأسماء وما لواحد واحد ، وجعل الأرزاق مشاهرة » وجعل عمر تابوتاً أى صندوقاً لجمع صكوكه ومعاهداته . وجند الأجناد أى ألف الفياق ، فصير فلسطين جنداً ، والجزيرة جندا ، والموصل جندا ، وقنسرين<sup>(٢)</sup> جندا ، وأصبح كل جند في الشام والعراق يتألف من مقاتلة المسلمين ، يقبضون أعطياتهم من البلد الذي نزلوه ، فأصبحت الجندية خاصة بنبذة من المسلمين ، ويسير الناس بقضيمهم<sup>(٣)</sup> وقضيمهم إلى الزحف عند الحاجة حتى النساء والأولاد . وما كان الجند يجعلون كلهم في المسالح بل يترك بعضهم في البلاد يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب أنه كان يترك فضل في بيوت الأموال في الولايات يستخدم في طارىء\* إذا طرأ وما كانت الصوائف تحمل كلها إلى الحجاز ، بل يدخر بعضها في بيوت الأموال في الشام والعراق ومصر ، وجزء عظيم من دخل الدولة يصرف في الوجوه التي أشرنا إليها ٥

وعمر هو أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من استقضى القضاة ، وأول من أحدث التاريخ الهجري فأرخ سنة ست عشرة لهجرة رسول الله من مكة إلى المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين . قال اليعقوبي . وأمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم ، وأمره أن يكتب لهم صكاً كاً من قراطيسه ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك<sup>(٤)</sup> . وغير أسماء المسلمين بأسماء الأنبياء<sup>(٥)</sup> . وكان أول من مصر الأمصار ، مصر المصرين البصرة والكوفة ، وكان إذا جاءته الأقضية المعضلة<sup>(٦)</sup> قال لعبد الله

( ١ ) نهاية الأرب للنويري وصح الزعشى للقلقشنای . ( ٢ ) أقضية رسول الله

للقرطبي . ( ٣ ) أى بجمعهم . ( ٤ ) المعارف لابن قتيبة . ( ٥ ) كنت العرب

تنسب إلى قبائلها فلما جاء الإسلام وغلب عليهم سكنى القرى والمدن حدث فيما بينهم الانتساب إلى

الأوطان كما كانت العجم . وأضاع كثير منهم أنسابهم فلم يبق لهم غير الانتساب إلى أوطانهم

« ابن الصلاح » . ( ٦ ) أسد الغابة لابن الأثير .

ابن العباس : إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل فأنت لها ولأمثالها ، ثم أخذ بقوله . وما كان يدعو لذلك أحداً سواه ، وكان في المسائل العامة يسأل الناس في المسجد عن آرائهم ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شوره وهم من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه ، فكانت أعماله ثمرة ناضجة من الآراء الصائبة ، ولذلك ندرت هفواته في الإدارة بالقياس إلى غيره ، لأنه يتروى ويعمل بآراء أهل الرأي . ولما أرسل عبد الله بن مسعود إلى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذي ولاه الإمارة كتب إلى أهل العراق « وقد جعلت على بيت ما لكم عبد الله بن مسعود وآثرتكم به على نفسي » وقد يبعث إلى بعض الأقطار عاملاً على الصلاة والحرب ويسميه أميراً ، وعاملاً<sup>(١)</sup> على القضاء وبيت المال ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل في العراق ، أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كعامل مصر . وتقسم العائلات في الشام يختلف عنه في اليمن ، وعامل البحرين لا يكون كعامل اليمامة . وقد يبعث أناساً لمساحة الأرض ، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لإحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سوادها : أخاف أن تكونا حملتا الأرض ما لا تطيقه ، لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبداً . وقال : اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار ، فإنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويتقسموا فيهم بينهم ، ويرفعوا إلى ما أشكل عليهم من أمورهم .

وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ، ولما استعمل زيد بن ثابت على القضاء فرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حصص عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومداً . وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم

(١) كان المنيرة بن شعبة أول من سلم عليه بالأمرة وكانوا يكتنون أمراءهم فقال : ينبغي أن يكون بين الأمير والرعية فرق ، وأنزم أهل عمله أن يؤمروه ففعلوا واقتدى به سائر المسلمين في أمرائهم « لطائف المعارف للشمس » .

الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشرط الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف . كان أبو بكر يساوي<sup>(١)</sup> بين الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا لله فأجورهم على الله ، وإنما هذا المال عوض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم . وكان عمر يقول لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . ولم يقدر عمر الأرزاق إلا في ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولائه وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه في كل شهر . وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم ، وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجربة ، وإنما فضل عماراً لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأتاه<sup>(٢)</sup> عبد الله بن عمر السعدي فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلي من أعمال المسلمين أعمالاً فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك . فقال : إن لي أفراساً وأعبداً وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإنني كنت أردت الذي أردت ، وكان رسول الله يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه مني . فقال النبي : خذه فتموله وتصديق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إسراف فخذ ، ومالا فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه في الدين ، ويجد في إرسال الفقهاء إلى الأمصار ، يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم . وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ، ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يسمى القارئ من الصحابة غيره قال له : هل لك في الشام فإن المسلمين نزفوا وإن العدو قد ذأروا<sup>(٣)</sup>

( ١ ) سراج الملوك للطرطوشي . ( ٢ ) تيسير الوصول لابن الدبع .

( ٣ ) نزفوا فتوا ودار عليه اجتهاد .

عليهم ، وذلك بعد طاعون عمواس . وكان يقول حين خرج معاذ<sup>(١)</sup> ابن جبل إلى الشام : لقد أخل خروجي بالمدينة وأهلها بالفقه ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يجلسه لحاجة الناس إليه فأبى علي وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجلسه .

وفي كتب عمر إلى قضاته وعماله كأبي موسى الأشعري والقاضي شريح وأبي عبيدة ومعاوية وغيرهم قوانين في الاشتراع والإدارة سنّها للمسلمين لا تزال إلى يوم الناس هذا هي المعول عليها ، ورسالته في القضاء إلى أبي موسى الأشعري جمع فيها «جمل<sup>(٢)</sup> الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد محق عنها معدلاً ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً» ولقد قالوا : إذا<sup>(٣)</sup> اختلف الناس في أمر فانظر كيف قضى عمر ، فإنه لم يكن يقضى في أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور . وكان أبدأ يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيماً من دون استشارتهم ويقول : الرأي الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لا يكاد ينتفض . هذا ولو وضع علم عمر في كفة كما قال ابن مسعود ، ووضع علم أحياء العرب في كفة لرجح بهم علم عمر . وأنشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبي سلمى فلما بلغ قوله :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نِفَار<sup>(٤)</sup> أو جِلاء

جعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول : لا يخرج الحق من إحدى ثلاث ، إما يمين أو محاكمة أو حجة .

وكانت المدينة في أيامه أشبه بمدرسة يتخرج فيها القضاة والعمال والقواد والأمراء فلا يبعث إلى الأمصار إلا من اختبره في الحملة ، وقلما أخطأت فراسته في الناس ، وهو المثل الأمثل في جده . كان كعب بن سوار جالساً عند عمر فجاءته امرأة تشتكي زوجها فقال لكعب ، اقض بينهما ، فلما قضى بما

(١) طبقات ابن سعد . (٢) الكامل للمبرد . (٣) طينات ابن سعد .

(٤) النِفَار تنافر إلى رجل يتبين حجج الخصوم ويحكم بينهم والجِلاء أن ينكشف الأمر وينجل فتعلم حقيقته فيقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين .

عجبه وما لم يخطر له ببال قال لكعب : اذهب قاضياً على البصرة . ساوم عمر بفرس فركبه ليشوره<sup>(١)</sup> فعطب فقال للرجل : خذ فرسك . فقال الرجل : لا . قال : اجعل بيني وبينك حكماً . قال الرجل شريح . فتحاكما إليه فقال شريح : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت ، أو رد كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ، سر إلى الكوفة فبعثه قاضياً عليها . قالوا وإنه لأول يوم عرفه فيه . وبقي شريح قاضياً هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء في أيامه أبو موسى الأشعري وسلمان بن ربيعة الباهلي ، وأبو قرة الكندي ، وأبو الدرداء ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله ابن عباس . ومن عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، وسفيان بن عبد الله الثقفي ، وعبد الله ابن أبي ربيعة . وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقتادة بن النعمان ، وعمر بن وهب بن خلف الحمصي ، وعتبة بن مسعود ، وعدى بن أبي الزغباء الجهمي ، وعويم بن ساعدة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري ، وواقد بن عبد الله التيمي ، ومعاوية ابن أبي سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد في علمه ، متميز بحسن سياسته وإدارته . كتب إلى أبي موسى الأشعري ، إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسمة . يعني أن عمر أوصى بالأعيان ، وإن كان يكره الشفاعة والوساطة . فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها فاتهره عمر وسبه وقال : أتريد أن يظلم الناس ، وهل هو إلا رجل من المسلمين يسعه ما يسعهم<sup>(٢)</sup> ؟

وكان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد : كتب إلى أبي موسى الأشعري « إني قد بعثت إليك مع غاضرة بن سمرة العنبري بصحف فإذا أتاك لكذا وكذا فأعطه مائتي درهم وإن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً واكتب إلى »

( ١ ) من شار الدابة شورا وشوارا راضها وقيل ركبها عند العرض على مشتريها وقيل

اختبرها ينظر ما هندها . ( ٢ ) الأشراف لابن أبي الدنيا .

في أي يوم قدم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجِد والاهتمام والحرص على الأوقات وضبط المواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتي جنيه إذا جد فوصل إلى البلد الذي عين له في الأجل المضروب وإلا فيحرم أجرته . وكتب إلى حذيفة بعد ما ولاه المدائن وكثر المسلمات : أنه بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها . فكتب إليه : لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام ، وما أردت بذلك ؟ فكتب إليه : لا بل حلال ، ولكن في نساء الأعاجم خلافة ، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم . فقال : الآن نطلقها . هذا مع أن عمر كان يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السراري لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم . وكتب إلى أبي موسى الأشعري<sup>(١)</sup> أيضاً : إذا أتاك هذا فاضرب كاتبك سوطاً واعزله عن عمله . وذلك أن كاتب أبي موسى كتب إلى عمر ( من أبو موسى ) وكان عليه أن يقول ( من أبي موسى ) . ودبر عام الرمادة ( ١٧-١٨ ) تدبيراً إدارياً ناجحاً عند ما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى أمين أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه بالميرة فأتته القوافل تحمل طعاماً كثيراً وغيره ، فوسع على الناس ، وكان قطع الطعام عن نفسه وأطعم الجياع ، ولولا تدابيره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم .

ومن جملة تدابيره الإدارية أنه<sup>(٢)</sup> « حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه فبلغه ، فقام فقال : ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جَدْعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سدساً ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا التقصان ، ألا فإن الإسلام قد بَزَلَ<sup>(٣)</sup> ،

( ١ ) فتوح البلدان للبلاذري . ( ٢ ) تدوين الطبري . ( ٣ ) بزل البعير بزولا فطر ذابه أي انشق بدخوله في السنة الثامنة فهو بارل يستوى فيه الذكر والأنثى والجمع بوازل وبزل . والجنوع قبل الثني ، والجمع جذعان وجذاع بالكسر والأنثى جذعة والجمع جذعات وجذاع أيضاً . والثني الذي أتى ثنيته ويكون ذلك في الطلف والحافر في السنة الثالثة وفي الخلف في السنة السادسة والجمع ثنيان وثناء والأنثى ثنية والجمع ثنيات . والرابعي يطلق على الغنم في السنة الرابعة وعلى البقر وذئ الحافر في السنة الخامسة وعلى الخف في السابعة . والسدس والبعير إذا ألقى سنه بعد الرباعية وذلك في الثامنة فهو سدس .

ألا وإن قریشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادہ ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قریش وحجزها أن يتهافتوا فى النار .

هذا مجمل من إدارة عمر ، وقد كان شديداً فى إقامة الحدود يقيمها على أقرب الناس إليه : حد فى الحمر ابنه ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن أحد قبضها استعدادا عليه . قال السائب بن يزيد كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله وإمارة أبى بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرجلنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين ، حتى إذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين . ولما ضعف نصاب الشهادة على المغيرة بالزنا سرى عنه لأنه ما أراد أن يرجم أحداً من الصحابة<sup>(١)</sup> . وأراد أن يحد جبلة بن الأيهم من ملوك غسان لأن رجلاً فزارياً<sup>(٢)</sup> فى الحج وطىء على إزاره فاطمه جبلة فهشم أنفه ، وشكاه الفزارى فأراد عمر جبلة على أن يفتدى نفسه أو يأمر الرجل باطمه ، فقال جبلة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما ، وسوى بين الملك والسوقة فى الحد ، ففر جبلة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس فى القضاء مهما علت منزلتهم . وبلغه عن بعض عماله وهو فى الحرب أنه تعدى حداً من حدود الله فأغضى عنه لتلا يعتصم ببلاد الروم .

وكان يعرف أن الرسول قال : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً ، فسكت عمر عنهم ، وراعى العهود التى أعطاهما الرسول لهم ، ولما كان من جملة شروط نصارى نجران ألا يأكلوا الربا أمر بإجلائهم ، واشترى منهم أرضهم وأوصى بهم أهل الشام والعراق . ولما انطلقت نصارى بنى تغلب هاربين من الجزية أضعفها عليهم<sup>(٣)</sup> وشرط عليهم ألا ينصروا أولادهم ، ولم يسمع لقول أحد بنى تغلب أنهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية ، وقوله له مهديداً : لا تعن عدوك عليك . وكان-

( ١ ) فتوح البلدان للبلاذرى . ( ٢ ) تاريخ أبى الفداء . ( ٣ ) المعارف لابن قتيبة .

يتحاجى استعمال النصارى وعرضوا عليه كتاباً منهم فأبى أن يستعملهم . وكان إذا أراد<sup>(١)</sup> أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليه بالوعدة لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته في شيء ، وربما هضم بعض حقمهم وأعطاه من هو أجدر منهم . قسم<sup>(٢)</sup> عمر مرطاً<sup>(٣)</sup> بين نساء المدينة فبقى فيها مرط جيد فقال له بعض من عنده يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التى عندك<sup>(٤)</sup> فقال : أم سليط أحق به فإنها ممن بايع رسول الله ، وكانت تزفر<sup>(٥)</sup> لنا القرب يوم أحد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم . وردت عليه امرأة فرجع إليها وقال : رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لا يقرب الشعراء ولكنه يجرى عليهم رزقاً يكفيهم . كتب مرة إلى المغيرة بن شعبه أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا في الجاهلية والإسلام<sup>(٦)</sup> فأرسل إلى الأغلب العجلى فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى لبيد ابن ربيعة فقال أنشدنى : فقال إن شئت أنشدتك مما عفى عنه شعر الجاهلية قال : لا . أنشدنى ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة فقال : أبدلنى الله مكان الشعر هذا . قال : فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الإسلام إلا لبيد بن ربيعة فانقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها في عطاء لبيد .

ونهج عمر لمن يخلفه النهج الذى نجب السير عليه في تدبير الملك . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عماله سنة فيما قيل ، وأوصاه<sup>(٧)</sup> بتقوى الله لا شريك له وبالمهاجرين الأولين خيراً ، وأن يعرف لهم سابقتهم ، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فلزمهم

(١) تاريخ الطبرى . (٢) تيسير الوصول لابن الديبع . (٣) المرط كساء من خبز أو صوف يوزن به . (٤) يريد أم كلثوم بنت علي . (٥) تزفر القرب تخطها . (٦) الإشراف لابن أبي الدنيا . (٧) البيان والتبيين للجاحظ .

ردء العدو وحياة النىء ، وأن لا يحمل فيئهم إلا عن فضل منهم ، وأوصاه بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم ، وأوصاه بأهل الذمة خيراً وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم وأن لا يؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد فى أمر الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه فى أحد رافة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لا يبالى على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وأوصاه أن لا يرخص لنفسه ولا لغيره فى ظلم أهل الذمة ، ونشده الله أن يرحم جماعة المسلمين ، ويحلّ كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، ويوقر عالمهم ، وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالنىء فيغضبهم ولا يحرمهم عطايهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجترهم فى البعوث فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا يغاق بابه دونهم فيأكل قويمهم ضعيفهم .

#### إدارة عثمان بن عفان :

حافظ عثمان بن عفان على الأوضاع التى وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل على ملأنا ، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » . وكان أول كتبه إلى عماله : « فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا إن أعذل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذوا ما عليهم ، ثم تنشوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم الذى عليهم » . وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا

الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكذبتم ، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » وكتب في الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم . وكتب إلى الناس في الأمصار : « إن اتسمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإني مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله » . وكان كصاحبيه لا يسكت عن حد من الحدود ولا يتساهل مع من يرتكب المحظورات . ابتاع حمدان بن أبان ، وعلمه الكتاب ، واتخذ كاتباً ، ثم وجد عليه لأنه كان وجهه للمسأة عما رفع على الوليد بن عقبة ، فارتشى منه وكذب ما قيل فيه . فتيقن عثمان صحة ذلك ، فقال : لا تساكني أبداً وخيره بلداً يسكنه غير المدينة .

واعتمد عثمان لأول ولايته في مشورته على من اعتمد عليهم الشيوخ ، من قبل ، وفي الولايات على بعض من كانوا عمالا لعمر ، ثم على أناس من أهله وعشيرته ، ومن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً ، تبع سيرة العمرين في الحكومة<sup>(١)</sup> . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة ، وكثر المال في أيامه فكان لا يتوفر في إنفاقه . قبل إنه باع غنائم إفريقية بخمسمائة ألف دينار وأعطاه مروانا ولم يطالبه بها ، ولم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمره استعمله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : عملت لله وإنما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً يبحث عماله على الجود ، قدم المدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وه أعمال

(١) يقولون العمران لأبي بكر وعمر لأن أهل الجمل نادوا بطل بن أبي طالب : أعطنا سنة العمرين ، وعمر اسم مفرد لا كأبي بكر وإنما طلبوا الخفة « الكامل للمبرد » .

غزوة فقال له عثمان : صل قرابتك وقومك . ففرق في قريش والأنصار شيئاً عظيماً من الأموال والكسوات<sup>(١)</sup> . وأرسل إلى علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جاءته قال : الحمد لله أنا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أترسل إلى علي بثلاثة آلاف درهم ؟ قال : كرهت أن أغرق ولم أدر ما رأيك قال : فأغرق . قال : فبعث إليه بعشرين ألف درهم وما يتبعها . قال : فراح علي إلى المسجد فأنهى إلى حلقة وهم يتذاكرون صلوات ابن عامر ، هذا الحى من قريش . فقال علي : هو سيد فتيان قريش غير مدافع وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته . ومن ذلك أن عامله على الكوفة كتب إليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردف وأعراب لحقت حتى ما ينفر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها ، فكتب إليه عثمان : أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عايه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تناقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعطهم جميعاً قسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل . اهـ .

وكانت<sup>(٣)</sup> مغازي أهل الكوفة في زمنه الرى وأذربيجان ، وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان ، وأربعة بالرى ، وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل ، وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف في كل سنة ، فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة . وضعفت الإدارة في النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته ، ولأنه لا يستطيع من كان في سنه أن ينظر في جميع المسائل ، واشتغل بعض كبار العمال بأطعامهم في الولايات ، وشاغب المحرومون على المنصوبين ، وكثيراً ما كان يصبر على تنفيذ أوامره لا يبالي كثيراً بالشكاوى . لعلمه بأنها صادرة

( ١ ) أسد الغابة لابن الأثير . ( ٢ ) طبقات ابن سعد .

( ٣ ) تاريخ الطبرى .

على الأكثر عن أغراض شخصية ، وما نفع الدين ولا الشدة يوم حمّ القضاء فكان من قتله ما كان .

ومن عمال عثمان عبد الله بن الحضرمي ، والقاسم بن ربيعة ، وعبد الله بن عامر وحبيب بن مسلمة الفهري ، وأبو الأعور الأسلمي ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزني وسماك الأنصاري ، والقعقاع بن عمر ، وجريبر بن عيلان ، والأشعث بن قيس ، وعثية بن النحاس ، ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأقرع ، وعقبة بن عامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والغالب عليه مروان بن الحكم ، وكان عثمان ست سنين في ولايته وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب ، وكان عمر رجلاً<sup>(١)</sup> شديداً قد ضيق على قريش أنفاسها ، لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً ، إعظماً له وإجلالاً ، وتأسياً به واقتداءً ، فلما وليهم عثمان وليهم رجل لين . ثم أنكر الناس عليه أشياء أشرا وبطرا . قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

### إدارة علي بن أبي طالب :

أما طريقة علي بن أبي طالب فكانت أيضاً في الإدارة طريقة من سبقوه إلى الإمامة : يولي العامل ويطلق يده على الحمله ويكشف حاله ، ويدعو عماله إلى التبليغ بميسور العيش والرفق بالرعية ، ويضع لهم المنهاج الذي يسرون عليه . أوصى أحد عماله بأهل عمله فقال : إذا قدمت عليهم فلا تبغين لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في طالب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشتر النخعي : وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في إصلاحه

( ١ ) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً . . . وإنما يوثق خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

ومما جاء في هذا الكتاب : ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولم محابة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة . فإنهم أكثر أخلاقاً ، وأصح أعراضاً ، وأقل في المطامع لإشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك ، أو ثلموا أمانتك ، ثم تنقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوداً لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه . . . وجاء في هذا الكتاب أيضاً : ثم إن للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تتطعن لأحد من حاشيتك وحامتك<sup>(١)</sup> قطيعة ، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم .

ومن وصية لعلى بن أبى طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهى أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا ترو عن مسلماً ، ولا تتجاذن عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق

( ١ ) الحامة بتشديد الميم الخاصة .

الله في ماله . فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخلط أبايتهم . ثم امض إليهم بالسكينة والوقار ، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخرج (١) بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته ، لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى ولىه ؟ فإن قال قائل : لا . فلا تراجع ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه ، أو توعده ، أو تعسفه أو ترهقه . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تنزعنها ، ولا تسوأن صاحبها فيها ، واصدع المال صديقين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، ثم اصدع الباقي صديقين ثم خيره فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله ، فاقبض حق الله منه ، فإن استتالك فأقله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذى صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله ، ولا تأخذن عوداً (٢) ولا هزيمة ولا مكسورة ولا مهلوسة (٣) ولا ذات عوار ، ولا تأمن عليها إلا من تثق بدينه ، رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم . ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً ، غير معنف ولا مجحف ولا مغلب ولا متعب (٤) . ثم احذر إلينا ما اجتمع عندك فصيره حيث أمر الله ، فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه أن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها ، ولا بمصر (٥) لبها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوباً ، ولا يعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، ولا يرفه على اللاغب ، وليستأن بالنقب والظالع (٦) ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق . وليروحها فى الساعات ، وليلمهلها عند

(١) لا تنقص . (٢) العود الممن من الإبل . (٣) المهلوسة المريضة قد هلسها المرض وأفنى لحمها . والعوار العيب . (٤) المعنف ذو العنف بالضم وهو ضد الرفق . والمجحف الذى يسوق المال سوقاً عنيفاً فيجحف به أى يهلكه ، والمغلب المتعب واللغوب الإعياء . (٥) المصر : حلب ما فى الضرع بهيمة . (٦) الظالع الذى ظلع أى نغز فى مشيه . والنقب ذو النقب وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه .

الزطاف<sup>(١)</sup> والأعشاب ، حتى تأتينا بإذن الله بدنا منقيات<sup>(٢)</sup> غير متعبات ولا مجهودات ، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فإن ذلك أعظم لأجرِك وأقرب لرشدك إن شاء الله .

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة المخالفين والموافقين إذا جعله كل عامل دستوره في عمله قال : أما بعد فإن دهاقين<sup>(٣)</sup> أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فأم أرحم أهلاً لأن يُدَنِّبُوا لشركهم ، ولأن يقتصوا ويحفظوا لعدهم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة ، وداول لهم بين القسوة والرفقة ، وامزج لهم بين التقرير والإدناء ، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : أما بعد فإن رسولي أخبرني بعجب ، زعم أنك قلت له فيما بينك وبينه أن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك كثيراً من الخراج وقلت له : لا تعلم بذلك أمير المؤمنين . يا زياد وأقسم بالله إنك لكاذب ، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفرة ؛ ثقیل الظهر ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتماً . وكتب إلى كعب بن مالك : أما بعد فاستخاف على عملك ، وأخرج في طائفة من أصحابك ، حتى تمر بأرض آورة السواد فتسأل عن عمالي ، وتنظر في سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب .

قال اليعقوبي<sup>(٤)</sup> : إن علياً حكم بأحكام عجيبة حتى إنه حرق قوماً ودخن على آخرين ، وقطع بعض أصابع اليد في السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجددهما على فسق ، وكان يقول : استتروا ببيوتكم والتوبة وراءكم ، من أبدى صفحته للحق هلك ، إن الله أدب هذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الإمام هوادة .

وكان علي<sup>(٥)</sup> يقسم الأ في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً . ودخل

(١) الزطاف جمع نطفة وهي الماء الصافي القليل . (٢) البدن بالتحديد الممان واحداه بادن ومنقيات ذرات نق وهو المنخ في العظم والشحم في العين من اللين وأنقت الإبل وغيرها ممئت وصار فيها نق وناقة منقية وهذه الناقة لا تنق . (٣) أرباب الأملاك من العجم . (٤) تاريخ اليعقوبي . (٥) تاريخ أبي الفداء .

عمره إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : يا صفراء اصفرى ، ويا بيضاء ابيضى وغرّى غرّى ، لا حاجة لي فيك . وقال أيها الناس أعينوا على أنفسكم فإن السبعة ، أو قال التسعة ، يكونون في القرية فيحيونها بإذن الله عز وجل ، ولولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمت هذا السواد بينكم . وانتهى إليه أن أحد عماله يفرق ويهب الأموال وكان عليها ، ولأمره أن يقسم فيء المسلمين في قومه ومن اعتراه من السائلة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما يقسم الجوز ، فأجابه عامله إنه منذ ولي العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولا درهما ولا غيرهما ، وأن العزل أهون عليه من هذه التهمة . وقال علي : لئن بقيت لنصارى بنى تغلب لأقتلن المقاتلة ولأسبين الذرية ، فإني كتبت الكتاب بينهم وبين رسول الله على أن لا ينصروا أولادهم . ورأى علي داراً للقاضي شريح عمرها فقومت عليه بثمانين ديناراً . فوعظه وبكته . ضمنا ، مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم ، وكان يقبل الهدية ويكافئ بمثلها .

ومن مجموع هذه الفقرات من كتب علي بن أبي طالب عرفنا منزعه في تدبير الملك ، وشدته على من من يطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة ، وكان هدية هدى أصحابه الثلاثة من قبل وما خالف على عمر ولا غير شيئاً مما صنع وقال : إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئاً صنعه<sup>(١)</sup> عمر ولكن التوفيق أخطأه ، فاستغرقت أيامه في الفتن ، أكثر من التنظيم والإدارة ، وفقد الاستقرار في البلاد للنزاع الذي قام بينه وبين خصومه . قال الجاحظ : لا يعلم رجل في الأرض متى ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام ، ومتى ذكر الفقه في الدين ، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي تتناصر الناس عليها ، كان مذكوراً في هذه الحلال كلها إلا على .

ومن عماله عبد الله بن عباس وكان واليه على البصرة وإليه الصدقات والجند والمعاون وقسّم بن العباس وعبيد الله بن عباس وأبو الأسود الدؤلي وسهل بن حنيف وغيرهم

(١) الحراج ليحيى بن آدم

## إدارة الأمويين

الإدارة على عهد معاوية بن أبي سفيان :

ما عرفت للحسن بن علي طريقة في الإدارة لأنه لم يطل أمره غير بضعة أشهر وذلك في العراق والحجاز ، أما سائر الأقطار فكانت في يد معاوية ولكن عبدة الله بن عباس من أعظم أنصار علي كتب إلى الحسن أن يولي أهل البيوتات والشرف يستصلح بهم عشائرهم حتى تكون الجماعة ، فإن بعض ما يكره الناس — ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تدعو إلى ظهور العدل وعز الدين — خير من كثير مما يجنون إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور ووهن الدين .

وتولى الأمر معاوية ، وساعده على حسن إدارة الملك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت منذ كان كاتب وحي رسول الله يشهد روعة الرسالة ، فتثقف على أتم ما يكون من الكمال ، ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الغناء فولى الشام عشرين سنة تدرس<sup>(١)</sup> خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فأدهش من تولى أمرهم بحلمه ، وعلمه ، وثاقب رأيه ، وفرط دهائه ، وكان أبوه من قبل يعالج شؤون الناس ويتألفهم ويعرف ما يصلحهم ، وعنه أخذ معاوية شيئاً في هذا المعنى ، والناشئ في مثل هذه الأعمال يتحنك في الإدارة ، ويكون إماماً في صناعته .

حافظ معاوية على أصول الرسول والراشدين في الإدارة ، وما حاد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعا إليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى بحوجة الحضارة ، وعرف فوائد الشورى فما كان يصدر في المهمات إلا عن مشورة ، يرى من الطبيعي أن يأخذ بآراء أشراف

(١) تدرس وامتدس بالشيء : احتك به وتدرس بالنائب والمصومات : مارسها .

القوم ، وينزل على حكم<sup>(١)</sup> وفود البلاد ؛ وله ولآل بيته مجالس يعقدونها في المسجد الجامع ، تدور بحوثها على سياسة البلاد وحكمها في الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والولايات والشيوخ .

كان معاوية يفض مشاكلة بالحسنى ، يلين للناس ويشفع المجاملة بالإحسان يوليه كل نائب<sup>(٢)</sup> نابه في قومه ، سيد مسود في أهله ، ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة وإخراجها عن بيته بعد أن آلت إليه ، وما كان مع من يظلم رعاياه إلا شديداً ، ويستميل القلوب بالعطاء والإقناع أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالتي هي أحسن ، وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب المثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجح في الناس وسائله اللينة ، يعمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة ، وهو القائل « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » ، وقيل وكيف ذاك ؟ قال : « كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خاوها مددتها » وقال : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . ومن المستحيل كم<sup>(٣)</sup> الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس غاية لا تدرك . فما دام الأمر يفض بالكلام ، ولا يقوم رجل جد يقلقل أمر الجماعة ، فالعالم أحرار في أقوالهم ، ومتى لجأوا إلى القوة وتطاولوا إلى الفتنة انكفأ عليهم بقوته ، وهمته منذ تولى الحكم مصروفة إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس ثوما يختارون من الآراء والمذاهب ، وهو يستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، ولا يأتمن في إدارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من آل بيته ، فإذا اتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا أو يحب فلاناً من خصومه ، أو يغلظ في بيان رأى يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبير أمر عنده .

( ١ ) خطط الشام للمؤلف .

( ٢ ) النائب : سيد القوم ، والنابه : الفطن ذو النباهة .

( ٣ ) كم البعير : شدة بالكلام والكأمة ما يكمر به فم الحيوان لثلا يعطس أو يأكل .

فالسياسة هي كل ما حصر فيه معاوية وكده ومن أجل توطيد دعائها لجأ إلى طرق في الدعوة مؤثرة ، فجعل القصاص أو الوعاظ في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من أعدائها ، وذلك لما رأى علياً<sup>(١)</sup> عند منصرفه من صفين قنت في الصلاة ودعا على من خالفه . فوقع في نفس معاوية أن يعامل علياً بالمثل ، وأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعو له ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله في عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة . وظل قصاص العامة يجتمع إليهم النفر من الناس ، يعظونهم ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرقق قلوبهم ، وكان القصاص إذا سلم الإمام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحمده ومجده وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، وعلى أهل حربه وعلى الكفار كافة . ومن القصاص من كانوا يرفعون أيديهم في قصصهم كما كان سُلَيْم بن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص .

ويقول من أمعنوا في درس تاريخ معاوية إن دعوى سنة لعن علي<sup>(٢)</sup> ، عتبي كل خطبة<sup>(٣)</sup> ، لم يقم عليها دليل ثابت يركن إليه ، وما من أثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم ، وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة . وجلب لعن الأمويين علياً من<sup>(٤)</sup> البغضاء المستترة أكثر مما نالهم من الفائدة

( ١ ) : نعمة والولاية للكندي .

( ٢ ) : كان اللعن منذ القرن الأول من أيسر ما يقابل به خصم خصمه وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً وانطواء ذلك البساط بما عليه جملة ، لم تشتت صدور شيعة على من النيل من الراشدين والأمويين والعباسيين حتى كان لعنهم يعد من أصول المذهب ، وصار بعضهم ينعنون الشيخين بصنمى قریش ويقذفون بابنتيهما الطاهرتين . وأصبح اللعن سنة من سنن العباسيين ، يلعنون كل من حارب سلطانهم ، وقد عزم المعتضد على سب معاوية على المنابر فحذره وزيره من اضطراب العامة وأمر المعتضد يلعن ابن طولون على المنابر لما استأثر بولاية مصر والشام فلعن ببغداد وسائر العراق ، ولعن ابن طولون المعتضد على المنابر في جميع أعماله بمصر ، وعهد إلى هذا اللعن السياسي بعض خلفاء بني العباس . أما الإسلام فلم يجوز اللعن إلا على الكفار لا على التميمين . وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في لعن الظالمين والمنافقين لكباراً لفعلتهم في خراب العمران ، وما يشاهد في بعض الكتب من لعن بعض أهل القبلة وغيرهم فإنما هو من زيادات النسخ على ما حقق ذلك العارفون من العلماء .

( ٣ ) : الكامل المبرد . ( ٤ ) : معجمة الإسلام : مادة أمية .

الحقيقية ، كما أخطأ معاوية بإطلاق يد زياد في سياسة القمع في العراق على صورة هائلة تخالف ما كانت عليه سياسة معاوية من اللين ، وكان عليه أن يطبق بنفسه هذه السياسة مباشرة . وانتشر لعن الطالبيين للأمويين ولعن الأمويين للطلبيين في كل مكان ، وقد لعن الأمويون علياً على منابرهم نحو ألف شهر ، ولم تبطل هذه البدعة السيئة إلا في عهد عمر بن عبد العزيز ، استعاض عنها بآية : « ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا » إلى آخر الآية الشريفة وقيل بل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » . وقيل بل جعلهما جميعاً ، وكان العلويون يقتنون عقب الصلوات يلعنون بنى أمية يشفون بذلك نفوسهم الثائرة ، من أجل دماء مطلولة وطوائف<sup>(١)</sup> طويلة ، وملك مستأثر به .

واقتنى معاوية فعل عمر بن الخطاب في العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره ، وكذا كان زياد بن أبيه وعبد الملك والحجاج . قال الجاحظ : ثم لم يكن من هؤلاء أحد في مثل هذه السياسة حتى ملك المنصور . ونقل عن زياد أن رجلاً كلمه في حاجة وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال : أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال له : أتتعرف إلى وأنا أعرف منك بنفسك ، والله إنى لأعرفك ، وأعرف أباك وأملك وأعرف جدك وجدتك ، وأعرف هذا البرد الذى عليك وهو لفلان وقد أعارك إياه ، فبهت الرجل وأرعد<sup>(٢)</sup> حتى كاد يغشى عليه .

قلنا إن معاوية كان يتخير عماله من كفاة أهل بيته أو من غيرهم من رجال دولته وأنصار دعوته . وقد انتهى إلى علمه أن ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم عامله على الكوفة قد أساء السيرة في إمارته فعزله وأقصاه عن الحكم . وقيل إن سبب عزله أن عبد الله بن همام السلولى قال شعراً وكتبه في رقاع ألقتها في المسجد الجامع وهى :

ألا أبلغ معاوية بن صخر      فقد خرب السواد فلا سوادا

( ١ ) طل دمه هدره . والطوائف جمع طائفة وهى العداوة والثرة .

( ٢ ) أرعد : أخلته الرعدة (بفتح الراء أو كسرهما) وهى الاضطراب يكون من الفزع وغيره .

أرى العمال أقساء علينا      بعاجل نفعهم ظلموا العبادا  
 فهل لك أن تدارك ما لدينا      وتدفع عن رعينك الفسادا  
 وتعزل تابعاً أبداً هواه      يخرب من بلادته البلادا  
 إذا ما قلت أقصر عن هواه      تمادى في ضلالته وزادا

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بني حرب ولاء الطائفة ، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاء مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة . فكان إذا ولى الطائفة رجلاً قيل هو في أبي جاد : فإذا ولاء مكة قيل هو في القرآن ، فإذا ولاء المدينة قيل هو قد حلق<sup>(١)</sup> . وأوصى أحد أقاربه ممن استعمله فقال : لا تبعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء ، تخف عليك المؤنة وعلينا منك ، وافتح بابك للناس . وقال لآخر : إذا أعطيت عهداً فف به ، ولا تخرجن منك أمراً حتى تبرمه ، فإذا خرج فلا يردن عليك ، ولا تطمعن أحداً في غير حقه ، ولا تؤيسن أحداً من حق له . قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شيء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وإرضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولايتهم ، ليعتقدوا أنهم لا يكذبون وأنهم إذا قالوا فعلوا .

ومن يمن الدولة الأموية أن كانت لا تستعمل من العمال إلا من ثبتت كفايته ونجدته في تأييد سلطانها ، يمحضونها النصيح ولا يغفلون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم ، واتخاذ الطرق المفضية إلى ما فيه ، راحتهم وهناؤهم ، وإذا تبرم أهل قطر بتدابير من وليهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر يستعيض عنه أكفاً منه ، أو من كان على شاكلته أو ألين منه عريكة ، يريد عاملاً حقيقياً للعمل ، لا عاملاً لعامل يرزقه ، يتطلب عاملاً إذا عرضت له المعضلات أن يفتق له وجه الحيلة ما يتوجه له فيه وجه .

(١) تاريخ الطبري .

أوعز زياد إلى والي خراسان أن يصطفى معاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة عملاً بكتاب ورد عليه من الخليفة . فكتب والي خراسان إلى زياد : بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين ، وإنني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقا<sup>(١)</sup> على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام . وقسم الفىء بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة من أمر يححف بأرباب الاستحقاق في العطاء من الجند والعمال ، ذلك لأنه رأى في ولايته ما لم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد . وكتب معاوية إلى عامله على مصر أن زد على كل رجل من القبط قيراطاً ، فكتب إليه كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزد عليهم . وهذا مما يشعر بما كان للعامل الأمين في عهد معاوية من الحرية فيما يرتثيه لإصلاح عمله . والإدارة في قطر قد لا تصلح لقطر آخر . والحاضر يرى ما لا يراه الغائب .

قال زياد ما غلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة ، طلبت رجلاً فلبجاً إليه وتحرم<sup>(٢)</sup> به فكتبت إليه . إن هذا لفساد لعملى إذا طلبت رجلاً لبجاً إليك وتحرم بك . فكتب إليه معاوية : إنه لا ينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرفقة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا . وقديماً قالوا ، الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمر بن العاص للبدية ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة . وقال بعضهم : دهاة العرب وذوو الرأي والمكيدة ، معاوية وعمر بن المغيرة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل بن ورقاء . وأربعة ممن ذكر دبروا ملك بنى أمية ، والآخرون كانوا من جماعة على .

( ١ ) الرتق : ضد التثني والصدع وفي النزيل كانتا رتقا ففتقناهما أى مصمتين منصمتين لا فرجة بينهما .

( ٢ ) يقال : تحرمت بطعامك ومجولك ، أى حرم عليك منى بسببهما ما كان لك أخذه ، من تحرم فلان بفلان إذا عاشره وماله وتأكدت الحرمة بينهما .

علمنا أن معاوية ما كان يستخدم الحسام، إذا أجزأه<sup>(١)</sup> الكلام، رى أهل مصر بعمر بن العاص لأنهم اشتركوا في مقتل عثمان، ولما هلك ولى مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان<sup>(٢)</sup>. وكان والى عمر على الطائف وصدقاتها وهو من بلغاء الخطباء، قيل لم يكن في بني أمية أخطب منه. فاشتد على أهل مصر وطأمن من جماعهم، وأدخل الرهبة على قلوبهم. ومن جملة ما خطبهم، وفيه نموذج من خطته وخطة أخيه، قوله: يا أهل مصر خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه، وذم الباطل وأتم تأتونه، كالخمار يحمل أسفارا أثقله حملها، ولم ينفعه علمها، وإني والله لا أداوى أدواءكم بالسيف، ولا أباع السيف، ما كفاني السوط، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرة، ولا أبطئ عن الأولى، إن لم تصلحوا عن الأخرى، ناجز<sup>(٣)</sup> بناجز، ومن حذر كن بشراً، فدعوا قال ويقول، من قبل أن يقال فعل ويفعل، فإن هذا اليوم الذي ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب. وخطب الناس بمصر عن مَوْجِدَةٍ<sup>(٤)</sup> فقال: يا حاملي الأم أنف<sup>(٥)</sup> ركبت بين أعين، إني إنما قلت<sup>(٦)</sup> أظفاري عنكم ليلين مسى لكم، وسألتكم صلاحكم إذا كان فسادكم باقياً عليكم، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان، والتقص للسلف، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم، وإلا فإن السيف من ورائكم، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة، إذا جدتم بالمعصية، ولا أوئسكم من مراجعة الحسنى، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى.

واستخلف عتبة هذا عاملاً له على أهل مصر، وكانت له شدة، فامتنع عليه بعض أهلها، فكتب إلى عتبة، فقدمها فدخل المسجد ورقى المنبر وقال: يا أهل مصر قد كنتم تعلدون ببعض المنع منكم، ابعض الجور عليكم، وقد

(١) أجزأ عني: أغنى (٢) أسد الذابة لابن الأثير. (٣) الناجز والنجيز: الحاضر. (٤) الموجدة الغصب. (٥) الأنف: جمع أنف، يجمع على أناف وأنوف. (٦) قلم الظفر: قطع ما كان منه شيئاً بعد شيء.

وليكم من إن قال فعل فإن أيتيم درأكم<sup>(١)</sup> بيده ، فإن أيتيم درأكم بسيفه ، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول : إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . فناداه المصريون من جانب المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » .

وكلما لمح عتبة شرارة الفتنة خطب القوم بما يطفئها من معين بلاغته ، احتبست كتب معاوية حتى أرجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته . فصعد عتبة المنبر والكتاب بيده وقال : يا أهل مصر ، قد طالت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح وظلمات<sup>(٢)</sup> السيوف حتى صرنا شجى<sup>(٣)</sup> في لهواتكم<sup>(٤)</sup> ما تسبغنا حلوقكم ، وأقذاء<sup>(٥)</sup> في أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، فحين اشتدت عرا الحق عليكم عقدا ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا ، أرجفتم بالخليفة ، وأردتم توهين السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقدم عهدكم به حديث . فارجحوا أنفسكم إذا خسرت دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر نكلكم إل الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وإن أسررتهم . شرأ فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين . هـ .

وخطب عتبة في الموسم في سنة إحدى وأربعين ، وعهد الناس حديث بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : « أيها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا ، ورب متمن حتفه في أمنيته ، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم » وقد عرفنا بهذه النمودجات من الخطب السياسية كيف أخذ بنو أمية

(١) درأه : دفعه شديداً . (٢) الظبة : حد السيف والسنان ونحوهما والجمع ظبات وظبى . (٣) اللهة اللحم المشرقة على الحلق في أقصى سقف الفم وجمها لهوات ولهيات ولهى . والشجى : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه . (٤) القذى : ما يقع في العين وفي الشراب من تبنة وغيرها .

يصفون البلاد من كدر الفتنة . وبعتبة وأمثاله أدخلوا الناس في الطاعة ، وكانوا ركبوا رؤوسهم<sup>(١)</sup> في الغوائل وأوغلوا ، وبعته وبأمثاله من العمال الذين كانوا يعملون للنجاة بعقولهم وقلوبهم ، دفعوا الناس إلى الانقطاع إلى أعمالهم ، واضطروهم إلى أن يتركوا الخوض في سياسة الملك إلى من يحسن القيام عليها .

ومن نظر في سيرة أولئك العمال يأخذه العجب من عفتهم عن الأموال ، وتبلغهم بالقليل ، وإنفاقهم بلا حساب ، لتأليف الشارد واستمالة الخصم المعاهد . ولى عمرو بن العاص الذى ولى مصر مرتين ، وجعلها له معاوية في المرة الثانية طعمة بعد الإنفاق على مرافقها ، فلم تعد عليه هذه الطعمة بثروة تذكر . وما اشتد عمرو على أهل مصر اشتداد عتبه ، لأن هذا كان في سن الكهولة وعمرو في سن الشيخوخة . والشيخوخة في الإدارة أقرب إلى الحنكة<sup>(٢)</sup> والروية من الشباب على الأغلب . أما سائر عمال الدولة فكانوا بحسب الحال : على طريقة عتبه الناطقة أو على طريقة عمرو الصامتة .

رمى معاوية العراق بزياد بن أبي سفيان فخطب أهلها قائلاً : حرام على الطعام والشراب حتى أسيوها بالأرض هدماً وإحراقاً ؛ إياى ودلج<sup>(٣)</sup> الليل . فأنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وإياى ودعوى الجاهلية ، فأنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً ، وأحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً أغرقته ، ومن أحرق قوماً أحرقته ؛ ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكمنوا أيديكم وألسنتكم أكف عنكم ، وقد كانت بينى وبين أقوام أشياء قد جعلتها دبّر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان محسناً فليزدد ، ومن كان مسيئاً فلينزح . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً ، حتى ييذى لى

(١) ركب رأسه : مضى على وجهه بغير روية . (٢) حنك وأحنك وتحنك الدهر الرجل : جملته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيمياً والحنكة الاسم من حنكة الدهر . (٣) الدالج : سير الليل كله أو في آخره .

صفحته<sup>(١)</sup> ، فإذا فعل ذلك لم أنظره ، فأعينوا على أنفسكم وأتفوا<sup>(٢)</sup> أمركم » ومعنى هذا أن زياداً أعلن في العراق الإدارة العرفية العسكرية ، وصرح بأنه يتناسى ما سبق للقوم من الخطيئات للدولة ، لنفسه ، إذا أحسنوا السيرة ، وأنه ينوى افتتاح عهد جديد يغاث فيه الناس ويستريح السلطان .

ومع هذه الشدة البادية في كلام<sup>(٣)</sup> زياد كان يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني إلا الرحلة<sup>(٤)</sup> فيقولون : أجل فيحملهم ويقول : أغشوني الآن واسمروا عندي . يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفي ، والبعد جفاء ، والعامل مضطر إلى أن يعلم البواطن والظواهر ، ولا ميدان لالتقاط الفوائد إلا في المجالس الخاصة . قال عمر بن عبد العزيز : « قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق وترك أهل الشام في مشامهم وجبي العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف » .

كان زياد إذا ولى رجلاً قال له : خذ عهدك وسر إلى عملك . واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنتك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك : إذا وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بقوتك لضعفك ، وسلمتك من موتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأحسننا على خيانتك أدبك فأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غرمك وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا في عملك ، ورفعنا لك ذكرك ، وأكثرنا مالك ، وأوطأنا<sup>(٥)</sup> عقبك . هذا مثال من أعمال عمال معاوية وما يريدون أن يكون عليه من يتصرفون للسلطان ليستقيم أمر لبلاد .

( ١ ) صفحة الرجل : عرض صدره والصنحة الورقة والمنقب ومن المجاز أبدى له صفحته كاشفه . ( ٢ ) أتف واستأنف الشيء : أخذ فيه وابتدأه . ( ٣ ) الكامل للمبرد . ( ٤ ) الرحلة المشى . ( ٥ ) يقال فلان موطأ العقب : أى كثير الاتباع .

وكان زياد يقول : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم الشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمته له منه . قال زياد لحاجبه : كيف تأذن للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الأنساب ثم على الآداب ، قال فمن تؤخر ؟ قال : من لا يعبأ الله بهم . قال : ومن هم ؟ قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف ، وكسوة الصيف في الشتاء . وقال لحاجبه : وليلتك حجابتي وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله في الصلاح والفلاح لا توقفه عني ، ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه فسر ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد . قال العتبي : كان في مجلس زياد مكتوب : « الشدة في غير عزم ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازي ، بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته ، الأعطيات في أيامها ، لا احتجاج من طارق ولا صاحب ثغر » . وكان زياد يؤثر الأعمال على الأقوال لعلمه بأنها تنادي على نفسها . فقد بنى بالبصرة أحياء ودوراً ومساجد وحفر أنهاراً وترعاً وكل ما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره<sup>(١)</sup> .

ولم يزل زياد بالمدارة من يوم كان أميراً على فارس ، وهي تضرم ناراً<sup>(٢)</sup> حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب . وكان أهل فارس يقولون ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة والعلم بما يأتي . ولما قدم فارس بعث إلى رؤسائها فوعده من نصره ومناه ، وخوف قوما وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً ، وفعل ذلك بكرمان ، هذا مع أن جماعة مقاتلة البصرة كانوا أيام زياد ثمانين ألفاً ،

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه . (٢) تاريخ الطبري .

وعياهم مائة ألف وعشرين ألف عيل ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفاً وعياهم ثمانين ألفاً ، وكان له في البصرة ديوان اسمه ديوان جند العرب .

وقدم زياد العراق وهي جمة تشتعل<sup>(١)</sup> فسل أحقادهم ، وداوى أدواءهم ، وابنه عبد الله تولى العراق بعده ، وهو أول من عرف العرفاء ، ودعا الفقراء ، ونكب<sup>(٢)</sup> المناكب وحصل الدواوين ، ومشى بين يديه بالعمد ووضع الكراسي ، وعمل المقصورة ولبس الزيادي ، وررع الأرباع بالكوفة ، وخمس الأخماس بالبصرة ، وأعطى في يوم واحد للمقاتلة والذرية من أهل البصرة والكوفة . وضبط زياد وابنه عبد الله العراق بأهل العراق . هكذا كانت أعمال العمال تسير على أجمل مثال .

كتب معاوية إلى سُلَيْم بن عتر قاضى مصر يأمره بالنظر في الجراح والحكم فيها ، وكان الرجل إذا أصيب فجرح بذلك الجرح فقضته على عاقلة<sup>(٣)</sup> الجراح ، ويرفعها إلى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتضى من أعطيات عشيرة الجراح ما وجب للمجروح وينجم<sup>(٤)</sup> ذلك في ثلاث سنين . والقاضى سليم هذا أول من سجل في مصر سجلاً بقضائه ، وذلك أنه اختصم إليه في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ثم سجله . وكان من سياسة معاوية أن يحمى عماله الصادقين ، وما كان يقيد من عماله ويدي<sup>(٥)</sup> من بيت المال .

ابتكر معاوية في الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها ، منها أنه أول من<sup>(٦)</sup> وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التى يصلى فيها

(١) العتد الفريد لابن عبد ربه . (٢) نكب على قومه ينكب نكابة ونكوبا إذا كان منكباً لهم يعتمدون عليه ، والمنكب عريف القوم أو عونهم . (٣) العاقلة : العصابة الأقارب من قبل الأب أى بنو العم الأدفون الذين يعطون دية قبل الخطأ . (٤) نجم المال جملة نجوماً والنجم الوقت المضروب ، ونجمت المال - وزعته كأنك فرضته أن تدفعه عند طلوع كل نجم ثم أطلق النجم على وقته ثم على ما يقع فيه . (٥) أفاد القاتل بالقتيل : قتله به يقيده إقادة . واتدى فلان انداء : أخذ الدية ولم يشار بقتيله وأصله أوتدى . (٦) خطط الشام للمؤلف .

الخليفة منفرداً عن الناس . وهو أول مسلم غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعه صور وطرابلس ، وغزا الروم ، ولما فتح قبرص ورودس كان معه ١٧٠٠ سفينة ، وأهم ما قام به تنظيم الجيش فضائف عطاءه ، ووقته أوقاتاً لتناول أرزاق الجند ، ووفق إلى استخدام أكبر رجال الإدارة وأعظمهم : زياد ثم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والضحاك بن قيس وأبو الأعور السلمي ومسلم بن عقبة وبشر بن أبي أرطاة وحبيب بن سلمة . وكان إذا لأمه أهله على كثرة بذله المال للعلويين والهاشميين أجابهم أن الحرب تستلزم نفقات أكثر من هذا العطاء . وهو أول من وضع البريد ، أحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد ، واتخذوا له بغالا بأكف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم . واستكتب عبد الله بن أوس الغساني سيد أهل الشام وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس ، فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ، فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم . ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وبياله ، فإذا فرغ من القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك ، وعلى هذا كانت الدولة تحصى السكان ، ولا يفوتها خبر من يتنقل في أرجاء البلدان .

واستخدم معاوية النصارى في مصالح الدولة ، وكان عمره يمتنع من استخدامهم إلا إذا أساموا ، فعهد إلى سرجون بن منصور ، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام ، بإدارة أمواله . وكان منصور والد سرجون على المال في الشام من عهد هرقل قبل الفتح ، ساعد المسلمين على قتال الروم بأن أبي أن يمسك الرجال بالمال<sup>(١)</sup> قائلا : إن الملك أى هرقل غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم ، لأنه يحتاج إلى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم ،

قالوا إنه أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم ، فيتفرق الجند ويسلم المدينة إلى العرب ، أحب معاوية الانتفاع من كل قوة تستخدم في قيام الدولة ، وتعين على انتظام الجماعة . ولما رحل جبلة بن الأيهم<sup>(١)</sup> إلى الروم . وارتد عن إسلامه ، دعاه معاوية بن أبي سفيان إلى الرجوع إلى الإسلام ، ووعدته إقطاع الغوطة بأسره ، يريد بذلك تلافى خطأ عمر بن الخطاب يوم أتى إلا إقامة الحد على جبلة فكان من ذلك فراره إلى الروم . و«كان آل جفنة . عمال القياصرة على عرب الشام ، كما كان آل نصر عمال الأكاسرة على عرب العراق » .

وباتخاذ دمشق دار الخلافة بعد أن كانت دار إمارة الشام ، انتقلت سياسة الملك من المدينة فكثير سكان الفيحاء من العرب ، يقصدها طلاب العمل وغيرهم من الأقطار ، ويختص الخليفة أهل الشام بعنايته ، ويستعمل الصالحين من أهل الذمة في أعماله الإدارية . ورأى النصارى أكثرية في الشام وأنهم كثيراً ما تطاؤا إلى الروم ودلوهم على عورات البلاد ، فنقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة ، وأنزل بعضهم أنطاكية ، وأصل الزط من السند يغلب السواد على سمكتهم ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور ، ونقل من أساورة<sup>(٢)</sup> البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية جماعة ، وأسكن حصن سفيان الذي بناه على أميال من طرابلس جماعة كثيرة من اليهود ، وجعل قنشرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً ، وبني حصوناً في الساحل . وأسكن الشام جمهرة من القبائل العربية فزجهم بأهلها الأصليين . حتى يكون آمناً في دار ملكه . وبعمله هذا أصبح الساحل الشامى غاصباً بالعجم والعرب ، وذلك تفادياً من أن يستأثر النصارى وحدهم بفتح البلاد من البحر ، وفي مزج العرب والفرس بسكان البلاد الأصليين يصبح كل عنصر رقيقاً على العنصر الآخر ومنافساً له . ولما صالح صاحب قبرص خير أهلها بن أن . يسكنوا الشام أو يرتحلوا إلى بلاد الروم .

(١) الأغاني للأصفهاني . (٢) الأساورة : قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً كالأحامرة بالكوفة قيل أصل الأساورة أساوير والتاء عوض عن الياء كالزناديق والزنادقة .

ولئن غدت دمشق قبله الإسلام ودار الملك ، فقد ظلت المدينة عاصمة الفقه والدين مدة خلافته وخلافته من خلفوه ، وما جعل مقره في الشام إلا لأن أهلها أحبه لما بلوه ، وكفى بعهد إمارته عليهم أن يعرفهم ويعرفوه ، ويطبع طباعهم بطابع الطاعة والتزام جانب الجماعة . وخصلة أخرى أيضاً ، وهي أن دمشق متوسطة في البلاد الإسلامية أكثر من الحجاز ، وفي الشام من الخيرات الطبيعية والأعمال الصناعية ما يمتار منه الجيش ويرتفق ، وما يترفه به العلية من رجال الدولة ويقوون ، ونحن على صواب إذا قلنا إن دمشق أصبحت في عهد معاوية ثم في عهد الخلفاء بعده مدرسة يتخرج فيها القواد والأشياء والجنود .

ومن أهم ما قام به معاوية للتأثير في الرأي العام حسن معرفته باستخدام الشعراء<sup>(١)</sup> وكان الشعراء كأرباب الصحافة في هذا العصر ، فانتفع بهم لمصلحة الدولة ، وتكوين الوطنية العربية ، فأبعد الشعر عن الهجو المألوف بين القبائل وجعله أداة عمل صالحة . ولم يغفل معاوية في وقت من الأوقات عن تعهد الزراعة وعنى بها في الحجاز عناية خاصة ، فأحيا موات الأرضين ، واحفر الآبار للسقيا ، وأقام أسدأداً للانتفاع بالمياه ، وسرت أسرته ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرناً من الارتقاء لم تره من بعد . هذا مع أن طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة ، ولكن الخليفة العاقل ما أحب لأهل الحجاز أن يعيشوا من العطايا والصدقات وموسم الحج ، لأنها موارد غير طبيعية في المعاش ، ومذاهب في الاتكال لا يؤمن مع زوالها عيش ونعمة . وصالحت الروم معاوية على أن يؤدي إليهم مالا ، وارتهن معاوية منهم رهناً فوضعهم ببيعليك ، ثم إن الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا وفاء بغدر خير من غدر بغدر . كان معاوية في الإبداع بتأسيس دولة الأمويين كعمر بن الخطاب في إبداعه بإنشاء دولة الراشدين ، ومع هذا فقد قيل إن أحد الصلحاء سئل أيام

(١) معلمة الإسلام ؛ مادة معاوية

معاوية كيف تركت الناس قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى ، كأنه يريد أن تكون إدارة الملك على عهد ابن أبى سفيان ، كما كانت على عهد عمر بن الخطاب ، وفاته أن لكل عصر طريقته ورجاله . والغالب أن البعيد لا يقاسر الأمور بقدرها كالقريب ، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل المطلق يستفيض فى الناس بأمر من الخليفة أو بعناية عماله وحدهم ، وأن كل خير لا يأتى إلا من السلطان . أما المحكومون فليس لهم كبير أثر فى إفاضة العدل فى العالم ولا تلحق بهم تبعة ، والنقد سهل والصعوبة فى الإبداع :

قال المسعودى : — وهو مشهور بتشده فى تشيعه — وأخبار معاوية وسياساته وما أوسع الناس من أخلاقه ، وما أفاض عليهم من بره وعطائه ، وشملهم من إحسانه مما اجتذب به القلوب ، واسترعى به النفوس ، حتى آثروه على الأهل والقرايات ، وقد كان ائتم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك ابن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ، ولا إتقانه للسياسة ، ولا الثانى للأمور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم ، ورفع لهم على طبقاتهم . وقال الطبرى : لما حضر معاوية أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال ، كأنه أراد أن يطيب له الباقي لأن عمر قاسم عماله .

### إدارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك :

عنى معاوية فى آخر أمره بتخريج يزيد ابنه وولى عهده ، يستشيره فى المسائل الطارئة ، ويأخذ برأيه أحياناً ، ويبعث همته على العمل ، ليتولى الأمر عن كفاية ، ومشى يزيد فى إدارته على أثر أبيه ، فكان لا يضمن بالمال مهما عظم فى سبيل الخلافة . وقد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : كم كان عطاؤك فقال له ألف ألف . قال قد أضعفتها لك . قال : فذاك أبى وأمى ، وما قلتها لأحد قبلك قال : أضعفتها لك ثانية — فقيل ليزيد : أتعطى رجلاً واحداً

أربعة آلاف ألف. فقال : ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده إلا عارية ، وما زال يزيد يزيد في إعطائه لمنزلته ، ولأنه يريد أن يتألف بواسطته أهل المدينة ، ويرفع يد ابن الزبير عنها وعن دعوى الخلافة : وما أثر عن يزيد أنه غير شيئاً من أصول إدارة أبيه لاستغراق حرب الحسين ابن علي في العراق وعبد الله بن الزبير في الحجاز معظم أوقاته . أما ابنه وخليفته معاوية الصغير أو الثاني فكانت خلافته أياماً وما أراد أن يدخل في شيء من مهامها .

كان مروان كعاقبة آية في عقله وسياسته وتدبيره ، درس الإدارة زمناً طويلاً في الحجاز ، وعرف ما يفسد الناس ويصلحهم ، ولكن أمره لم يطل كثيراً ، وتستبين محاسنه في تدبيره الملك مما وقع لابنه عبد العزيز معه ؛ فإن مروان لما ولي الخلافة جاء إلى مصر فأقام بها شهرين ثم جعل ولايتها إلى ابنه عبد العزيز ؛ جعل إليه صلاتها ، وخراجها فقال عبد العزيز<sup>(١)</sup> : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي ؟ فقال مروان : يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره<sup>(٢)</sup> وينقد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخولك في بيتك ؟

هكذا دبر مروان ابنه ليخرجه في الإدارة ويعلمه حكم الناس ، جعل له موسى بن نصير وزيراً ، وهو ما هو بعلمه وعقله وحسن سياسته ؛ وفارق موسى أميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً إلى أفريقيا والمغرب ، ف قضى على البربر والرومان ، ثم فتح الأندلس . أما بشر بن مروان مؤنس أخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة ، فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولابن عبدل في بشر بن مروان :

( ١ ) تاريخ الولاة والقضاة للكندي . ( ٢ ) الدين : الجاسوس .

ولم يشاء بشر كان من دون بابه طماطم سود أو صقالبية حمراء  
ولكن بشراً أسهل الباب التي يكون لبشر عندها الحمد والأجر  
بعيد مراد العين ما ردت طرفه حذار الغواشي باب دار ولاستر  
استعمل عبد الملك بشراً وأمره بالشدة والغلظة على أهل المعصية (١) ،  
وباللين على أهل الطاعة ، وخلف معه أربعة آلاف من أهل الشام منهم رَوْح  
ابن زنباع وزجاء بن حَيَّوة الكندي ، وهما من أمثل رجال بني أمية وأعلمهم  
وأوسهم . وكان من سياسة بشر أو من سياسة دولته عامة ، أنه إذا ضرب  
البعث (٢) على أحد من جنده ثم وجده قد أدخل بمركزه أقامه على كرسي ،  
ثم سمر يديه في الحائط ، ثم انتزع الكرسي من تحت رجله ، فلا يزال يتخبط  
حتى يموت . وبهذه الشدة على المجندين ما كانت تحدث أحداً نفسه بالهزيمة  
من الخدمة ، وكان جيش بني أمية أطوع جيش عربي . ولا يستغرب أحد  
هذه الشدة فجاء الفار من الجندية في يومنا هذا القتل .

رأينا عبد العزيز بن مروان أمير مصر وما كان من نصيحة أبيه له في  
سياسة الرؤساء ، ليسلس له قياد المروسين ، وكيف لقنه أبوه أقرب الطرق  
إلى استماله القلوب وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز نابغة في إدارته ،  
عمرت مصر في أيامه عمراً ليس مثله ، ومما بنى في حلوان الدور والمساجد  
وغيرها أحسن (٣) عمارة وأحكمها ، وغرس نخلها وكرمها ، وكان له ألف  
جفنة (٤) كل يوم تنصب حول داره ، ومائة جفنة يطاف بها على القبائل  
تحمّل على العجل إلى قبائل مصر .

ولى عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها إليه ، فلم يوجد له مال  
ناض (٥) يوم موته إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين  
سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبد الله بن عبد الملك

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر . (٢) البعث : الجيش أو كل قوم يعثوا والجمع  
بعث بفسدين وبعوث . (٣) الولاية والقضاء للكندي . (٤) الجفنة : القصعة  
الكبر . (٥) الناض : الدرهم والدينار .

ابن مروان وكان عاملاً على مصر ترك ثمانين مدا من الذهب . وتقدم إليه أبوه أن يعنى آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد ، فاستبدل بالعمل عمالاً وبالأصحاب أصحاباً ، ذلك لأن عبد العزيز لم يرض أن ينزل عن ولاية العهد لابن أخيه في حياته ، وعبد العزيز هو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل .

وجرى عبد الملك بن مروان في إدارة الملك على طريقة والده وطريقة معاوية في تخريج آله وعماله في سياسة البلاد ؛ فزادت الأمور استقراراً ، والأعمال تسلسلاً ، والعمل رغبة ورهبة ، والرعايا أمناء ودعة . ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال : « وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته إلا باللين ، فإن عثمان لأن لم حتى ركب ، ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا » . وقال : « إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ، إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك أى باللين أغير على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالى أن يسير في كل زمان بما يصلحه » . وهذا هو السر العظيم في نجاح الممالك في كل عصر وأمة . وقال عبد الملك يوماً : أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ، ولا تسرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبى بكر وعمر ، نسأل الله أن يعين كلا على كل . وسأله ابنه الوليد يا أبت ما السياسة ؟ قال هيبة الخاصة مع صدق مودتها : واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع<sup>(١)</sup> :

ولى عبد الملك العراقي الحجاج بن يوسف الثقفي فقال : دلونى على رجل أوله ، فقيل له أى الرجال تريد ؟ قال : أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الحيانة ، لا يحق في الحق على مرة ، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة . فقيل عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي فأرسل إليه فاستعمله فقال له : لست أقبلها إلا أن تكفينى عمالك وولدك وحاشيتك . فقال الحجاج : يا غلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت

(١) الصنائع : جمع صنعة أى الإحسان والصنائع المصطنعون .

الذمة منه . قال الشعبي : فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان لا يحبس إلا في دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم ، وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً ، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة وأظهر سلاحاً قطع يده ، فربما أقام أربعين يوماً لا يوثق إليه بأحد ، فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .

خطب الحجاج أهل العراق : « إني رأيت آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذن الولي بالمولي ، والمقيم بالطاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم » . ولما اتصل بعبد الملك إسراف الحجاج في القتل<sup>(١)</sup> وأنه أعطى أصحابه الأموال كتب إليه : أما بعد فقد بلغني سرفك في الدماء وتبذيرك الأموال ، وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس ، وقد حكمت عليك في القتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية ، وأن ترد الأموال إلى أصحابها ، فإنما المال مال الله ونحن خزانة ، وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا . كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبقى لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً » .

وكان الحجاج يأخذ بأيدي العلماء ممن لا يتدخلون في سياسته ، ولا يشاركونه في سلطانه ، ويضع في كل يوم<sup>(٢)</sup> ألف خوان في رمضان وفي سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر ، وكان يحمل في محفة ويدار به على موائده ويتفقدوها ، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر ، وسعى الحجاز ليجيء بسكرها فأبطأ ، حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر بضربه مائتي سوط ، فكانوا بعد

(١) الإشراف لابن أبي الدنيا . (٢) العقد الفريد لابن عبد ربه .

ذلك لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر . وكان يوسف بن عمر والى العراق في أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ؛ فكان عند الناس أحمد . واشتهر عهد الحجاج<sup>(١)</sup> بإصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة بإصلاحاته ، ولم يكن مصلحاً فحسب بل كان مصلحاً وموجداً ، ومن إيجاده وضع الحركات والإعجام في المصاحف ، لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن . واتخذ<sup>(٢)</sup> الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين . فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصناع والطباعين ، وختم أيدي الطباعين .

حرض عبد الملك ابنه على المشاورة في قضاء الأمور لما أسند إليه إمارة مصر قائلاً له : « أنظر أي بني إلى أهل عملك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطيهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيك فلا تؤاخذ به عند سورة<sup>(٣)</sup> الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون ، وأنت ساكن الغضب مطلقاً بالحرمة ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فيكونون أصحابك وجلساءك ، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك » . وهذا من أجمل أساليب الإدارة وسياسة الناس ؛ لا تأخير في

(١) معلمة الإسلام - مادة الحجاج . (٢) فتوح البلدان للبلاذري .

(٣) سورة الغضب : شدته .

القصل بينهم ، ولا كذب في الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والعالمين ، وجعلهم وحدهم بطانة وسماراً وجلساء ، ولا إسراع في إنزال العقوبات حتى يذهب الغضب .

وبلغ عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له : والله إن كنت قبلت هدية لا تنوى مكافأة المهدي لها إنك لثيم دنيء ، وإن كنت قبلتها تستكني زجلاً لم تكن تستكفيه لولاها إنك خائن . وإن كنت نويت تعويض المهدي عن هديته وأن لا تخون له أمانة ولا تثلم له ديناً ، فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هبة سلطانك . ثم صرفه عن عمله . ذلك لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول نقية من الشوائب ، والرشوة من طريق الهدايا تذهب بها حقوق أحد المتنازعين أو حقوقهما معاً . وكان عبد الملك بن رفاعة أمير مصر (٩٦) يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق .

وأدخل عبد الملك أموراً جديدة في الإدارة ، وهو أول من أفرد للظلمات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر ، وكان إذا قعد للقضاء أقيم على رأسه بالسيوف وينشد قول سعيد بن عريض ابن عاديا من يهود الحجاز :

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت الساكت للقائل

واضطرع الناس بألبابهم نقضى بحكم عادل فاضل

لا نجعل الباطل حقاً ولا نلظ<sup>(١)</sup> دون الحق بالباطل

نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

وزاد عبد الملك الجزية ، وأقل الجزية ديناراً وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد ،

استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة - وكانت ديناراً على كل جمجمة ومدين قمحاً ،

وقسطين زيتاً وقسطين خلا ، وضعها عليهم عياض بن غنم في الفتح - فأحصى

عبد الملك الجاهج وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل

(١) لظ بالأمر : لزمه ولظ عليه الخبر : ستره : وفي رواية نلفظ دون الحق بالباطل

بدل نلظ .

سنه كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدّمه<sup>(١)</sup> وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم طبقة واحدة ، ثم جمل الأموال على قدر قربها وبعدها<sup>(٢)</sup> ، وهذا خلا نوائب الرعية ، وهو ما يضربه عليهم الإمام من الخوائج كإصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

وفي أيام عبد الملك نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية ، فكان ذلك من أهم الأسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في الممالك الإسلامية كافة ، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم ، فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخشني من أهل الأردن أول مسلم ولى الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والكوفة<sup>(٣)</sup> ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب العربية وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصري ، قدمه لذلك الحجاج فكان كتاب العراقيين كلهم غلماناً وتلاميذه<sup>(٤)</sup> . ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله ابن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزاري من أهل حمص . وتأخرت بعض البلاد في هذا التغيير من رسم الإدارة ، فإن أول من كتب بالعربية في ديوان أصبهان سعد بن إياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبي مسلم صاحب الدعوة ، وهو أول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل أصبهان ، يقال إنه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلاً لم يكن فيهم من يحفظ القرآن إلا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

( ١ ) الأدم ما يؤتدم به وانتدم أكل الخبز مع الإدام وإدام الطعام هو ما يحمل مع الخبز قيطيه

( ٢ ) الخراج لأبي يوسف . ( ٣ ) أدب الكتاب للصولي . ( ٤ ) بخط المقرئ .

وعبد الملك أول من كتب على الدينار ( قل هو الله أحد ) وذكر النبي في الطوامير ، وكانت الدينانير رومية تدخل من بلاد الروم ، والدراهم كسروية وحميرية<sup>(١)</sup> قليلة ، فهو أول من ضرب الدراهم المنقوشة ، وكان على خاتمه قبيصة بن ذؤيب والبريد إليه ، يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها<sup>(٢)</sup> . ومن أهم أعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة ، ومن أعماله أن يحجب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الأمويون لا يأذن خلفائهم بالدخول عليهم إلا بالترتيب الذي عينوه . والولاة ينزلون في المعسكر تحيط بهم الجند لتسهيل المحافظة عليهم فلا يغتالهم مغتال ، وقد يتنقلون في عمالاتهم ، فزياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وفي البصرة مثلها<sup>(٣)</sup> ، وهو أول من سير بين يديه بالحراب والعمد واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه .

وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثاً في المسجد الجامع أولاً ، ثم يقصدون دار الأمير فيقرأ أمامه عهد القاضي . والقضاة يقضون في الجوامع . وكان الجامع في الإسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان . ويدبر الولاة ولاياتهم في المعسكرات ، والمعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة . وليس<sup>(٤)</sup> من مدينة عظيمة إلا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة . وإذا رحل الجيش واضطر إلى النزول في القرى لشدة البرد في الشتاء يؤويه أهلها ثلاثة أيام ويطعمونه مما يطعمون . ويقول البلاذري إن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساء وحمل ناس ممن معه نساءهم . وكانت بنو أمية تفعل ذلك لإرادة الجند في القتال للغيرة على الحرم . وكانت أمور الخرب بيد الولاة في الولايات تقوم<sup>(٥)</sup> بها القبائل المهاجرة إليها ، أما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن أجناد الشام فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية ،

( ١ ) الأحكام سلطانية لماوردى . ( ٢ ) طبقات ابن سعد . ( ٣ ) تاريخ أبي الفداء .

( ٤ ) المسالك والممالك لابن حوقل . ( ٥ ) معلمة الإسلام - مادة أنية .

ويفضل هذه القوى المخلصة للأمويين ظفروا في الحرب الأهلية سنة ٦٤ وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج في أخذ نفسه بالتطلع إلى استعلام بواطن أمور الرعايا ، وكذلك كان في التطلع إلى أخبار الروم وغيرهم ممن كانوا يودون أبداً أن يكيدوا للمسلمين .

أوصى أميراً سيره إلى أرض الروم فقال : أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تجر ولا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك . وأوصى أولاده أن يعطف الكبير منهم على الصغير ، وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحذرهم البغي والتحاسد ؛ وأوصاهم بأخيهام مسلمة وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا الحجاج فإنه هو الذي وطأ لهم هذا الأمر .

#### إدارة الوليد وسليمان :

تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه ، وراعى إخوته ، وحث أولاده على اصطناع المعروف ، وكان غرامه بعمران البلاد وإقامة المصانع والجوامع واعتقاد<sup>(١)</sup> الضياع ، فقلده رعاياه في ذلك ، فكان الناس في أيامه يخوضون في وصف الأبنية ، ويحرصون على التشييد والتأسيس ، ويولعون بالضياع والعمارات<sup>(٢)</sup> لوفرة الثروة في أيدي الناس . وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس ، فكتب إليهم أن يبنوا المساجد . وأجرى الوليد الأرزاق على القراء وقوام المساجد وعلى العميان ، وأصحاب العاهات والمجذمين ، وأخدم كل واحد منهم نخادماً ، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق في الصالحين ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة ، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة وذلك للشاميين خاصة ، وزاد أهل بيته في جوائزهم الضعف . وفي مئات

( ١ ) اعتقد الضياع : افنتها واعتقد مالا جمه .

( ٢ ) لطائف المعارف للثعالبي .

الألوف من الدنانير التي أنفقتها على إقامة الجوامع والمصانع ، وما كان في خزائنه من الأموال التي تكفي الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التي احتجتها هو ومن قبله من الخلفاء استعداداً للطوارئ .

ودخلت الدولة في حالة استقرار ونظام وانتهى (١) تعريب الملك والإدارة ، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ، ونحى آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال ، وبلغت الفتوحات أقصى حدودها . وظهرت أهمية الملك والسلطان ، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر ، تخليداً للذكر وإشادة بالفخر ، والوليد هو الذي جود القراطيس ، وجلل (٢) الخطوط وفخم المكاتبات ، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد ابن الوليد ، فإنهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف . ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطتاب وكان الوليد موفقاً في فتوحه في الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم أقدارهم ، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر في عمران البلاد . ومن خلق الوليد أنه كان سمحاً يسره أن يرى لعماله شيئاً من الرفاهية . كتب إليه الحجاج إنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار ، فإن يكن أصابها من حلها فرحمه الله ، وإن تكن من خيانة فلا رحمه الله . فكتب إليه الوليد إن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له ، وأمره أن يترحم عليه .

وتوسع الأمويون في هذه الحقبة في إفاضة الأموال على عمالهم ، وكان القاضي بمصر مثلاً يرزق ألف دينار في السنة . كان ابن حجيرة الأكبر في مصر (٦٩ — ٨٣) على القضاء والقصص (٣) وبيت المال ، فكان رزقه من القضاء مائتي دينار ، وفي القصص مائتي دينار ، ورزقه في بيت المال مائتا دينار ، وعطاؤه مائتا دينار وجائزته مائتا دينار . والعادة الجارية عندهم أن

(١) معلة الإسلام : الوليد . (٢) جلل عظم . (٣) صبح الأعشى للقلقشندي .

لا يعطى العامل سوى رزق واجد . ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو ، فمنهم من يغزو ، ومنهم من يخرج بدلا . وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان في بعض ما يجوز لهم المقام به ، ويوضع به الغزو عنهم . أما الحجاج فكان يشتد في تجنيد الناس لأنه يقظ حذر دائماً ، فكان لا يدع قرشياً ولا رجلاً من بيوتات العرب إلا أخرجه « وضرب<sup>(١)</sup> البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجبىء إلى ابنها وقد جرد فتضمه إليها وتقول له : « بأبى ، جزعاً عليه ، فسمى ذلك الجيش جيش بأبى » . وكان تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم ، فينبذ السقيم ، ويجند السليم .

خطب الحجاج لما جاء والياً على العراق ، وقد بعث بشر بن مروان المهلب إلى الحرورية ومما قال : وإياى وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيهم أنتم ، والله لتستقيمى على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل شغلا في جسده ، ومن وجدته بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وانتهت ماله وهدمت منزله . فشمروا الناس بالخروج إلى المهلب ، ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود جيوش عند الخليفة وعماله في الأقطار ؛ تشبه الجيش الدائم تحت السلاح ، يتيسر شدة عند الحاجة بقليل من العناية . وكان سياسة الدولة في هذا العهد كانت صورة من سياسة الحجاج فقد كتب إليه الوليد يأمره أن يكتب إليه بسيرته فكتب إليه : إني أيقظت رأيي وأمنت هواي ، وأدريت السيد المطاع في قومه ، ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسم أعطيته حظاً من لطيف عنايتي ونظري ، وصرفت السيف إلى النطف<sup>(٢)</sup> المسىء ، والثواب إلى المحسن البريء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب . ا هـ .

ولما أفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك أقر عمال من كانوا قبله على أعمالهم ، وجلس في صحن المسجد وقد بسطت لديه البسط والتمارق عليها<sup>(٣)</sup> ،

(١) الأغاني للأصفهاني . (٢) النطف المريب . (٣) الخمر والتمارق الوسادة .

الجمع تمارق .

وضفت الكراسى ، وأذن للناس بالجلوس ، وإلى جانبه الأموال والكساوى وآنية الذهب والفضة ، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعن قدموا من عنده ، فيأمر سليمان بما يصلحهم ويرضيهم ، فما يطلب أحد شيئاً إلا نوله مرامه ، ورد المظالم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان في سجنه في العراق وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم .

### إدارة عمر بن عبد العزيز :

عمل الخلفاء السبعة الأولون من الأمويين في إدارة الملك الإسلامى بما أوحاه إليه عقلهم وعلمهم ، فكان الصحابة منهم والتابعون على مثال خالفوا فيه مرغمين بعض طريقة الراشدين ، لأن علمهم بالناس زاد بما فتح الله عليهم من البلاد ، ولأنه نشأت أحداث جديدة ، ودخلت في الإسلام عناصر أخرى . وكان عهد الأمويين صورة من دولة عادلة تتساهل في الأخذ بما لا يضر من الأوضاع ، وتقتبس ما تضطرها إليه طبيعة البلاد المفتوحة . وأكثر ما اهتموا له توفير الجباية مع النظر إلى عمران البلاد والدفاع عن الحوزة والحساب للمستقبل بادخار فضل الأموال ، والظهور بمظهر دنيوى لا يعيث بأصل من أصول الدين .

كان أكثر خلفاء الأمويين يقللون العامل إذا حدث في جهته خرق لا يستطيع رتقه ، أو فتنة تهرق فيها الدماء ، وتكلف الدولة مالا ، وجعلوا همهم في مقاتلة الخوارج والشيعة في الداخل ، وغزو الروم والتوسع في الفتح من المشرق والغرب في الخارج ، وكثيراً ما كانت بعض الأنحاء تثور على الدولة ، إما لسبب تفاحش الخراج ، أو لأسباب أخرى كما كان من قبط مصر ، فخرجوا غير مرة على الأمويين وعلى من خلفوهم ، وربما كان من بعض عمالهم من اشتط في تقاضى الخراج والجزية والصدقات ، والظلم ما خلا عصر منه ، وخصوصاً في دولة ليست مشاكلكها متشاكلة ، ولا أجيال الناس في أصقاعها متوحدة متماثلة ، وغاية ما يقال في الإدارة المتبعة أبداً توسيع سلطة

العامل ، حتى يسرع في فض مصالح الناس ، ذلك لأن العرب ألفوا التقاضي على عجل ، وما عرفوا التطويل في الخصومات والمراجعات ، وهذا ما كان ظاهراً كل الظهور في عهد الخوالف من بني أمية ، ولا سيما في خلافة عمر ابن عبد العزيز واسطة عقد الأمويين ، والمثل الأعلى للعدل الإسلامى .

كان الوليد بن عبد الملك عهد لعمر بإمارة الحجاز « مكة والمدينة والطائف » قبل أن يتقلد الخلافة فأبطأ عن الخروج ، فقال الوليد لحاجبه : ما بال عمر لا يخرج إلى عمله . قال : زعم أن له إليك ثلاث حوائج . قال : فجعله على ، فجاء به الوليد . فقال عمر : إنك استعملت من كان قبلى ، فأنا أحب أن لا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا درهما واحداً<sup>(١)</sup> . فلعمر إذاً طريقته في الإدارة اشترط قبل أن يتولى الإمارة أن تترك له حرية العمل . وكان يشعر قبل الخلافة بأن في إدارة الدولة شيئاً من الظلم . قال يوماً لأسامة بن زيد - وقد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحثه على توفير الخراج - : ويحك يا أسامة إنك تأتى قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل ، فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم :

ولما بويع عمر شرع لأول أمره بصرف عمال من كان قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته<sup>(٢)</sup> ، وأخذ يرد المظالم مظلمة مظلمة ، لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته إلا رده . وكتب إلى جميع عماله أن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنن سيئة سنتها عليهم علماء السوء ، قلما قصدوا الحق والرفق والإحسان . وكان أول خطبة خطبها : « أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير جهده ، ويدلنا على الخير على ما نهتدى إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترضن فيما لا يعنيه » .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز . (٢) المحاسن والمساوى للبيهقي .

وبدأ بنفسه فنزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعى ، ورد على رجل قدم عليه من حلوان إقطاعاً ادعى أن والده عبد العزيز لما كان والياً على مصر أقطعه عبد الملك بن مروان أرض حلوان فورثها عمر وإخوته فقال عمر : إن لي فيها شركاء إخوة وأخوات ، لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض . وقام معه الى القاضى فعقد بين يديه ، فتكلم عمر بحجته وتكلم المدعى فقضى له القاضى ، فقال عمر : إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم . قال القاضى : قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك . فثلجت نفس عمر بحكم القاضى وقال : وهل القضاء إلا هذا ، تالله لو قضيت لى ما وليت لى عملاً ، وخرج إلى الرجل من (١) حقه . وأراد أهله أن يتخلوا عن أملاكهم فقطع بالمقراض كتب الإقطاعات بالضيايع والنواحي . قالوا ولما أقبل عمر رد المظالم وقطع عن بنى أمية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد ضيايعهم إلى الخراج وأبطل قطائعهم ، ضجوا من ذلك على رؤوس الملأ في المسجد . وكانت انتهت إليهم هذه الإقطاعات من الخلفاء السالفين . ذكروا أنه كانت غلة عمر لما بويج بالخلافة بين أربعين وخمسين ألفه دينار ، وما زال يردها حتى كانت يوم وفاته مائتي دينار ، ولو بقي لردها كلها فأفقر نفسه حتى يقوى على بعض آله ، فيسترد منهم ما أخذوه من عقار ومزارع . وخلف من الناض بضعة دنائير ولم يرتزق من بيت مال المسلمين شيئاً ولم يرزأه (٢) حتى مات . وأداه اجتهاده إلى أن فى صيغة امتلاك آل بيته الضيايع والرباع نظراً ، وأن ما ورثه وورثوه بالطرق المشروعة يقضى العدل المطلق برده على من أخذ منه . واعتقاد الضيايع واستثمار الأموال من شأن الرعايا لا الرعاة ، فكان نظره أعلى ، وطريقته أمثل وأعدل .

كان الرسول أقطع بلال بن الحرث المزنى أرضاً فيها جبل ومعدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها فظهر فيها معدن أو قال معدنان فقالوا : إنما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن ، وجاءوا بكتاب النبى لهم فى جريدة

(١) مروج الذهب للمسعودى . (٢) رزأه ماله : كجعله وعلمه يرزؤه رزأه أصاب

فيه شيئاً كارتزأه .

فقبلها عمر ومسح بها عينه وقال لقيمه : أنظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة ورد عليهم الفضل .

وأبطل عمر بن عبد العزيز هدايا النيروز والمهرجان<sup>(١)</sup> . وكانت تحمل إلى معاوية ومن بعده وقدرها عشرة آلاف ألف ، وهى من العادات الفارسية ، أقرها معاوية وأنكرها على . وقضى عمر بأن يكتفى بالخراج « وزن سبعة » ليس لها آيين<sup>(٢)</sup> ولا أجور الضرابين ولا هدية النيروز

( ١ ) النيروز أو النوروز : اسم أول يوم من السنة عند الفرس عند نزول الشمس أول الحمل ، معرب نوروز أى اليوم الجديد . والمهرجان : أول نزول الشمس فى برج الميزان . ( ٢ ) الآيين : العادة والقانون ، وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة . ويقول البيرونى فى الآثار الباقية : كان من آيين الأكاسرة أن يبدأ الملك يوم النيروز فيعلم الناس بالحلوس لهم والإحسان إليهم ، وفى اليوم الثانى يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفى اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماؤه ، وفى اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته ، وفى اليوم الخامس لولده وضئائه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام ، ويستوفى ما استوجبه من المبرة والانعام ، فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فنوروز لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل انسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين ، فيتأملها ويدق منها ما يشاء ويودع الخزائن ما شاء .

وفى كتاب أخلاق الملوك للجاحظ . إن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعادة فى ذلك أنها فصل السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إيدان بدخول فصل الحر ، إلا أن فى النيروز أحوالا ليست فى المهرجان ، فنها استقبال السنة وافتتاح الخراج ، وتولية العمال والاستبدال ، وضرب الدراهم والدنانير ، وتذكية بيوت النيران وصب الماء ، وتقريب اقربان وإشادة البغيان وما أشبه ذلك ، فهذه فضيلة النيروز على المهرجان ، ومن حق الملك أن يهدى إليه الخاصة والعامة « العامة والخاصة من الأهل » ، والسنة فى ذلك عندهم أن يهدى الرجل ما يحب من ملكه إذا كان فى الطبقة العالية ، فإن كان يحب المسك أهدى مسكاً لا غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة ولبسه أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدى قرساً أو رمحاً أو سيفاً ، وإن كان رامياً فالسنة أن يهدى نشاباً ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك وكانت عليه موانيد ( متأخرات أو بقايا ) للسنة الماضية ، جمعها وجعلها فى بدر حرير صينى وشريجات فضة وخيوط لإبريسم وخواتيم عنبر ثم وجهها . وكذلك إنما كان يفعل من العمال من أراد أن يتزين بفضل نفقاته أو بفضل عمالاته أو أداء أمانته . وكان يهدى الشاعر الشعر والخطيب الخطبة والتديم التحفة والطرفة والباكورة من الحضرات . وعلى خاصة نساء الملك وجوارية أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه ويفضله ، ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها أن تهديها إليه بأكل حالاتها وأفضل زينتها وأحسن =

والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج<sup>(١)</sup> ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح ، ورفع الخراج عن أسلم من أهل الأرض » وأبطل جوائز الرسل وأجور الجهابذة وهم القساطرة وأرزاق العمال وإنزالهم ، وأبطل السخرة والعطاء ، وورث العيالات على ما جرت به السنة ، وأقر القطاعات التي أقطعها<sup>(٢)</sup> أهل بيته ، ولم ينقص العطاء في الشرف ولم يزد فيه ، وزاد أهل الشام في أعطيتهم عشرة دنانير ثم رأى الرجوع عنها . وورد كتابه على عامله في مصر بالزيادة في أعطيات الناس عامة ، وكسرت دنان الخمر وعطلت حاناتها ، وقسم للفلاحين بخمسة وعشرين ألف دينار ، ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها .

ووضع المكس<sup>(٣)</sup> عن كل أرض واكتفى بالعشر ، والعشر ما يجب في الزروع التي سقيت بماء السماء وما يؤخذ من أموال أهل الحرب إلى بلد الإسلام المتناخم لهم ، وإذا استقر الصلح معهم على أخذ العشر أو الخمس أو أكثر منه أو أقل منه أثبت ذلك الشرط في الديوان . ووضع الجزية عن كل

= هيأتها ، فإذا فعلت ذلك فن حتمها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة . ومن حق البطانة والخاصة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوم بقيمة عدل . وكان من تقدمت له هدية في النيروز والمهرجان صغرت أم كبرت كثرت أم قلت ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نأية تنويه أو حتى يلزمه ، فعليه أن يأخذ ديوان الملك ويذكر بنفسه الخ . والغالب أن هدايا النيروز والمهرجان كانت عادة تحمل إلى الخلفاء ، ولا سيما في عهد بني العباس . وقد ذكر صاحب نشوار المحاضرة أنه حملت الهدايا إلى المتوكل في مثل هذه المواسم من كل شيء عظيم ظريف مليح .

( ١ ) الفيوج جمع فيج وهو الساعي أي رسول السلطان الذي يسمى بين يديه .

( ٢ ) أقطعه قطعة من الأرض والقطائع : طائفة من أرض الخراج . ( ٣ ) المكس :

انظام وهو ما يأخذه العشار وهو مكاس وماكس . والأحباء : جمع حمى وهو موضع فيه كلاً يحصى من الناس أن ترعى . قال الشافعي في تفسير الحديث لا حمى إلا لله ولرسوله : إن الشريف من العرب في الجاهلية كان إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلها فحمى لخاصته مدى عواء الكلاب . لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المواقع حوله ، فحمى الرسول أن يحصى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون ، إلا ما يحصى لحيل المسلمين . وركابهم إلى ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله وإبل الزكاة كما حمى عمر النفع لنهم الصدقة والحيل المعدة في سبيل الله - نقله في التاج . والجزيرة : هي الأرض التي لا يعلوها السيل وتحقق فيها وفي الأصل كل أرض ينجزر عنها المد .

مسلم ، وأباح الجزائر والأحساء كلها إلا النقيع<sup>(١)</sup> ، وقال في الجزائر هو شئ - أنبته الله فليس أحد أحق به من أحد ، وفرض للناس إلا للتاجر ، لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين ، وسوّى بين الناس في طعام الجار ، وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب ونصف أرادب لكل إنسان . وكتب إلى أحد عماله أن يستبرئ الدواوين<sup>(٢)</sup> وينظر إلى كل جور جاره من قبله من حق مسلم أو معاهد فيرده عليه ، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا يدفعه إلى ورثتهم . وقضى على عماله بإبطال المائدة والنوبة<sup>(٣)</sup> ، ومن أدى زكاة ماله قبل منه ، ومن لم يؤد فآله حسيبه . ورد الخمس على أهله وعلى أهل الحاجة ، وقضى أن لا يؤخذ من المعادن الخمس بل تؤخذ الصدقة ، وضرب أحدهم سبعين سوطاً لأنه سخر دواب النبط .

وجرت عادة الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الأمصار أن يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه ، أى فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . وقضى عمر على عماله أن ينظروا الأرض ولا يحملوا خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وإن أطاق الخراب شيئاً يؤخذ منه ما أطاق ويصاح لي عمر ، ولا يؤخذ من عامر لا يعمل شيئاً ، وما أجذب من العامر يؤخذ خراجها في رفق . وكانوا بفارس يخرصون الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يبتاعون به فيأخذونه ورفقاً على قيمهم التى قوموا بها ، فرد عمر إلى من شكوا الثمن الذى أخذ منهم وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض غلتهم .

( ١ ) النقيع : البئر الكثيرة الماء والجمع أنقعة . والنقيع : موضع على مقربة من المدينة .  
 جاء عمر لنعم الفقى وخيل المجاهدين لا يرعاه غيرها والأرجح أنه المقصود هنا .  
 ( ٢ ) استبرأ طلب الإبراء من الدين والذنب واستبرأ الشئ طالب آخره ليقطع الشبهة عنه .  
 ( ٣ ) النوبة النازلة : جمع نوب ونوائب الرعية ما يتحتم عليهم من إصلاح القناطر والطرق وسد البشوق ، وعلى المائدة ما كان يألفه العمال من إطعام الناس على مواعيدهم ، وهذا مال كثير يمكن اقتصاده حتى لا يسرف في بيت المال .

كتب إلى عامله على البصرة : أما بعد فإني كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها ، ومن سقط إليها من أهل البادية ، ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل ، فكتب إليّ أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحل إليك ثمنه ، فاردد إلى عمرو ما كان حل إليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرته بها ويصرفه فيها إن شاء الله والسلام .

وأمر عماله بالرفق بأهل الذمة ، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة ، فإن كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن بد من الإنفاق عليه حتى يموت أو يعتق . وكتب إلى عامله على الكوفة أن قو أهل الذمة ، فإننا لا نريد لهم لسنة ولا سنتين . وأعطى بطريقاً<sup>(١)</sup> ألف دينار يستألفه على الإسلام<sup>(٢)</sup> .

خاصم حسان بن مالك<sup>(٣)</sup> عجم أهل دمشق إلى عمر في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه إياها ، فقال عمر : إن كانت من الخمس العشرة الكنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها . وخاصم عجم أهل دمشق إلى عمر في كنيسة كان فلان أقطعها لبني نصر بدمشق فأخرجها عن المسلمين وردها إلى النصارى وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد فهم أن يعيدها إليهم ، لولا أن المسلمين أقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ، وبمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم فكتب به إلى عمر فسرّه وأمضاه .

(١) إن البطريق غير البطريك فالأول لقب ذي منصب سياسي والآخر لقب ذي منصب ديني . والأول Patrique و Patrice بالفرنسية والثاني Patriarche وقد غرّبه العرب أيضاً بقولهم بطريرج وفي بعض الأحيان يختصرونه ويقولون بطرك - قاله أحمد زكي .  
(٢) استألف طلب إلغا صديقا مؤانسا . (٣) فتوح البلدان للبلاذري

وعمر أول من ندب نفسه للنظر في المظالم في الدولة الأموية فردها ، وذلك لانتشار الأمر حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب ، فاحتاجوا في ردع المتغلبين ، وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذي تبرز به قوة السلطة بنصفه القضاء . وما شرهت قط نفس عمر إلى أخذ أموال الناس ، بل ما كان يجب أن يأخذ منهم أكثر من الفضل ، ويسامح بكثير من هذا الفضل . كتب إليه عامله على العراق أن أناساً قبله قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيماً ليس يقدر على استخراجهم من أيديهم إلا أن أن يمسه بشيء من العذاب . فكتب إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذائك إياي في عذاب البشر ، كأني لك جنة (١) من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر فيما قامت عليه البيعة فخذ بما قامت عليه ، ومن أقر لك بشيء فخذ بما أقر به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخل سييله ، فوالله لأن يلقوا بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم » .

وكتب إليه عامله على مصر إن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية ، حتى استلقت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار لأتم بها عطاء أهل الديوان . وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الإسلام . فأجابه عمر : قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسول يضر بك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً » . وكتب إليه عامله على العراق عدى بن أرطاة : إن الناس قد كثروا في الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب إليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا » . وقال في إحدى خطبه : وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم ، ثم قال مالي وللدنيا أم مالي ولها ! ولم يشهد مثل تحرر عمر في اختيار العمال وتعليمهم إحسان العمل ، وكان

يرى كل مظلمة تقع في أقصى البلاد إذ لم يردّها ويكشف ظلامتها صاحبها ، كأنه هو فاعلها أو على الأقل المستول عنها . وإذا شكى إليه عامل وتحقق ظلمه جاء به مقيداً ولا يخليه من ضرب يوجعه به . وكان لا يفتأ يبحث عن سيرة عماله ورضا الناس عنهم ، وإذا عزلم لا يستعين بهم بعدها أبداً . كتب إلى أحد عماله : « أما بعد فإذا دعيتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ؛ فاذكر قدرة الله عليك ، وفناء ما توّقى إليهم وبقاء ما يأتون إليك » . وكتب إلى عامله على العراق : « إن العرفاء من عشائريهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند ، فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فأثبتته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه ، وأبلغ في الأمانة والورع » . وما كان يضمن على عماله بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له : ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتي دينار في الشهر وأكثر من ذلك قال : أراه لم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ، وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بمعايشهم . وقال : ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً .

وأخذ عمر نفسه بالسير في إصلاحه بالتدريج ، ناظراً قبل كل اعتبار إلى الدين لا يجيد عن صراطه قيد أنملة ، ولو كان في ذلك بعض الضرر على بيت المال ، أو إدخال بعض الوهن على ما اصطالحوا عليه من قبله ، لإرادة اللقاء الهيبة في النفوس . قال لابنه : ما مما أنا فيه أمر هو أهمُّ إلى من أهل بيتك ، هم أهل العدة والعدد وقبيلهم ما قبلهم ، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره على ، ولكني أنصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له ، فإن يرد الله إتمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الأخرى فحسب عبد الله أن يعلم الله أنه يجب أن ينصف جميع رعيته . وكتب إلى عامله على خراج خراسان : « إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها ، فالو إلى ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا ، وليس من ثغور المسلمين ثغراً هم إلى ولا أعظم عندي من ثغر خراسان ، فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم ، فإن بك كفافاً لأعطياتهم فسييل ذلك ، وإلا

فاكتب إلى حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم . ولما وجد خراج تلك البلاد يفضل عن أعطيات جندها وأهلها قسم عمر الفضل في أهل الحاجة . وكتب إلى أمصار الشام<sup>(١)</sup> أن يرفعوا إليه كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج ، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة ، فأمر لكل أعمى بقائد ، ولكلى اثنين من الرّمنى بخادم . وأمر أن يرفعوا إليه كل بقيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية ، وفرض للعوانس الفقيرات ، وكان لا يفرض للمولود حتى يفطم ، فنادى مناديه لا تعجلوا أولادكم عن الفطام ، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام .

واتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل ، وأوصى أن لا يصيب أحد من هذه الدار شيئاً من طعامها لأنه خاص بمن طبخ لهم . وقسم في ولد على بن أبي طالب عشرة آلاف دينار ، وكان الناس في عهده يعرضون على ديوانهم لتناول عطايتهم ، فمن كان غائباً قريب الغيبة يعطى أهل ديوانه ، ومن كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه إلى أن يقدم ، أو يأتي نعيه أو يوكل عنه الوالى بوكالة بينة على حياته ليدفعه إلى وكيله . ونظر في السجون وأمر أن يستوثق من أهل الدعارات<sup>(٢)</sup> ويكتب لهم برزق الصيف والشتاء ويعاهد مريضهم ممن لا أهل له ولا مال ، ولا يجمع في السجون بين قوم حبسوا في دين وبين أهل الدعارات في بيت واحد ، ولا حبس واحد ، وجعل للنساء حبساً على حدة ، وعهد بالحبوس إلى من يوقن بأمانتهم ومن لا يرتشى « فإن من ارتشى صنع ما أمر به » وأنشأ الخانات في بلاده يقرى من مربها من المسلمين يوماً وليلة ويتعهد دوابهم ، ويقرون من كانت به علة يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به يقوى مما يصل به إلى بلاده . وأمر أن لا يخرج من لأحد من العمال رزق في العامة والخاصة ، فإنه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين في

( ١ ) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى .

( ٢ ) استوثقت ظنه : أخذت في أمره بالوثيقة ، وأدل الدعارة : أهل الفساد والشر .

. الخاصة والعامة . وأطلق الجسور والمعابر للسابلة يسرون عليها بدون جُل ،  
لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به . وجعل لكل مدينة رجلاً يأخذ  
الزكاة .

ولى عاملاً له على الموصل فلما قدمها وجدها من أكثر البلاد سرقاً<sup>(١)</sup>  
ونقباً . فكتب إلى عمر يعلمه حال البلد ويسأله أخذ الناس بالظنة ، وضربهم  
على التهمة ، أو يأخذهم بالبيئة . فكتب أن خذ الناس بالبيئة وما جرت عليه  
السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . وكتب إليه أحد عماله يذكر  
شدة الحكم والحباية ، فأجابه أنه لم يكلفه ما يعتته ، وأن يجي الطيب من  
الحق ، فإذا التبس عليه أمر يرفعه إليه قائلاً : فلو أن الناس إذا ثقل عليهم  
أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا . وكتب إلى أحد عماله : إن العمل والعلم  
قريبان فكن عالماً بالله عاملاً له ، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا فكان عملهم  
عليهم وبالاً . وكتب أيضاً أما بعد فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل  
المفسدين . وكتب إلى عامل : أن دع لأهل الخراج من أهل الفترات  
ما يتختمون<sup>(٢)</sup> به الذهب والفضة ، ويلبسون الطيالة ويركبون البراذين ،  
وخذ الفضل . وكتب إلى عامله : أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل  
أهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون . وكتب  
إلى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً فإنه لا يحل  
لهم لقوله تعالى : (سواء العاكف فيه والباد) . والبادى : من يخرج من  
الحجاج والمعتمرين سواء في المنازل ينزلون حيث شاءوا ، ولا يخرج أحد  
من بيته . وكتب إلى عامله على مكة والطائف ، إن في الخلايا صدقة فتخذوها  
منها ، والخلايا الكوائر كوائر النحل . وكتب إلى عامله على اليمن يأمره بإلغاء  
الوظيفة والاقتصار على العشر ، وقال والله لأن لا تأتيني من اليمن حفنة كتم  
أحب إلى من إقرار هذه الوظيفة . وكان ضربها محمد بن يوسف على أهل  
اليمن ، وهى الخراج جعله وظيفة .

(١) يقال المروة والمرق والسرقي .

(٢) تختم بالعقيق : لبسه وبالذهب والفضة أيضاً .

وما كان عمر مذ كان والياً على المدينة يقطع أمراً بدون استشارة ، وكان دعا إليه عدة من الفقهاء ، وحرصهم على أن يبينوا له زلاته إذا رأوا منه ذلك وسمعوا ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة في عهد خلافته أمر فأتى لرجلين منهما وسادة قبالته ، فقال لهما إنه مجلس شرّة وفتنة ، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلىّ ، فإذا رأيتماني شيئاً لا يوافق الحق فخوفاني وذكرائي بالله عز وجل . وكان يقول ، بعد أن ولي الخلافة ، لأن يكون لي مجلس من عبيد الله - أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ومؤدبه لما كان صغيراً - أحب إلى من الدنيا وما فيها . وقال : وإني والله لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال . فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك . فقال أين يُذهب بكم والله إني لأعود برأيه . وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف . وكان يحب السمر مع أهل الفضل فقليل له في ذلك فقال : لقاء الرجال تلقيح الألباب . وقال : إن في المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب . وما زال يرد المظالم ويحيي السنن ويطفيء البدع ويقسم الأموال والأعطيات بين الناس . وردّ فذك إلى ما كانت عليه أي إلى آل الرسول .

أبعد عمر بن عبد العزيز الشعراء والخطباء عن حماه ، وما كان يحب المديح والهجاء ، وهو يعرف استرسال الشعراء في الجون والهزل<sup>(١)</sup> ، وأنهم يمدحون من يعطيهم ويهجون من يضمن عليهم ، وإذا كان رجل جده وتقوى حجهم فأنقشعوا<sup>(٢)</sup> عنه كلهم ، وثبت الفقهاء والزهاد فكان يعطيهم عطاء كثيراً . أما الشعراء فاكتفوا بالقليل الذي كان يعطيهم من ماله الخاص ، وأعطى قوماً في حمص نصبوا أنفسهم للفقّه ، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا ، مائة دينار لكل رجل منهم ، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين . وبحسن سياسته سكنت الخوارج في أيامه فلم يثوروا لأنه ناقشهم فأفحمهم ، وأقسبوا أن لا يشغبوا ما دام خليفة . وما حدثته نفسه قط بإهراق.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٢) تفرقوا .

دماء من خالفوه في مذهبه . وقد كتب إلى عامله على الكوفة أن يستتيب القدرة مما دخلوا فيه ، فإن تابوا يخل سبيلهم وإلا ينفهم من ديار المسلمين : أراد بذلك حقن دمائهم ، وكان غيره من الخلفاء يبادر إلى قتلهم :

وطريقة عمر في إدارة ولايته طريقة أسلافه في إطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة إلا في أهم المهمات مما يشكل عليه أمره . كتب إلى عامله على اليمن : أما بعد فإني أكتب إليك أمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم ، فراجعني ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك ، ولا تعرف أحداث الموت ، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة ، لكتبت أردّها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني . وأمل على كاتبه يوماً كتاباً إلى عامله على الكوفة قال فيه : « إنه يخیل إلى أني لو كتبت إليك أن تعطى رجلاً شاة لكتبت إلى أضأن أم ماعز ، فإن كتبت بأحدهما كتبت إلى أصغير أم كبير ، فإن كتبت إليك ، كتبت إلى أذكر أم أنثى ؛ فإذا أتاك كتابي هذا في مظلمة فاعمل به ولا تراجعني » . وكتب إلى آخر : « إنك تردد إلى الكتب . فنفذ ما أكتب به إليك من الحق ، فإنه ليس للموت ميقات نعرفه » .

كان ينهى عماله عن المثلة في العقوبة أي جز الرأس واللحية ، وينهاهم عن الإسراف حتى في القراطيس التي يكتبونها فيها . فقد قيل له ما بال هذه الطوامير التي تكتب بالقلم الجليل وتمد فيها وعى من بيت مال المسلمين ، فكتب إلى العمال أن لا يكتبن في طومار ولا يمدن فيه . قالوا وكانت الطوامير شبراً ونحو ذلك . ومما كتب إلى أحد عماله : أدق قلمك ، وقارب بين سطورك واجمع بين حوائجك ، فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به . وكان عمر من كبار الكتاب والخطباء ، وكان إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي : ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة ، فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأونجزه .

ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . قالوا وجعل يكتب بيده إلى العمال في الأمصار (١) .

كان عمر يحسن ظنه بعماله ولا يتخلى عن كشف أحوالهم ، فقد وفد عليه بلال بن أبي بردة بخصاصة فقال عمر للعلاء (٢) بن المغيرة بن البندار ، وقد رأى بلالاً يديم الصلاة : إن يكن سر هذا كعلانيته ، فهو رجل أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : أنا آتيك بخبره ، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فإن لي حاجة إليك ، ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفت حالى من أمير المؤمنين فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال : لك عمالتي (٣) سنة ، وكان مبلغها عشرين ألف درهم ، قال : فاكتب لي بذلك . قال : فأرقد (٤) بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك ، فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فلما رآه كتب إلى والى الكوفة : « أما بعد فإن بلالاً غرنا بالله ، فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله والسلام » وبلال هذا كان فيما يقال أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم ، وكان أمير البصرة وقاضياً . وكان عمر يقول . لا ينبغي للرجل أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يستعمل ، مستشيراً لأهل العلم ، ملقياً للرفع (٥) ، منصفاً للخصم ، مقتدياً بالأئمة .

سخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه : إن من حفظ أنعم الله رعاية ذوى الأسنان ، ومن إظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنوب ، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع . وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة سخطك وما أنصفته ، غصبتة على أن وليته ثم عزلته

( ١ ) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى . ( ٢ ) الكامل للمبرد .

( ٣ ) العمالة : الأجرة .

( ٤ ) أرقد : أسرع .

( ٥ ) الرفع : الطمع .

وخليته ، وأنا شفيعه ، فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتتوى<sup>(١)</sup> ما أفدته . فعفا عنه ورده إلى عمله .

خطب يوماً فقال : أيها الناس ، لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإني لست بقاض ، ولكني مقتد ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وقال من خطبة : وما منكم من أحد تبلغنا حاجته يتسع له ما عندنا إلا حرصنا أن نسد حاجته ما استطعنا ، وما منكم من أحد تبلغنا حاجته لا يتسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بي وبخاصتي ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . ومن غريب أمره في إطلاق حرية القول أن يخطب الناس عبد الله بن الأهم ، ويذكر ما آل إليه أمر الأمة على عهد صاحب الشريعة والخليفين من بعده ثم يقول : إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع<sup>(٢)</sup> أعوج . يقول . هذا في عهد عمر بن عبد العزيز ، وعمر يسكت عنه ، ولطالما أسمع به بعض الناقمين على أهل بيته ما يغضب له الحليم ، فما كان يقابلهم بغير الإغضاء ، يفهمهم من طرف خفي أنه لا يليق بالرجل أن ينال من آله .

وكان عمر يجلس إلى قاص العامة ويرفع يديه إذا رفع ، وقاصه محمد بن قيس . وعلم أن أناساً من القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم ، يلتمسون الدنيا بعمل الآخرة ، فأمرهم بالدعاء للمؤمنين عامة وأن يلغوا ما سوى ذلك . وأدرك أن البادية يتحفزون إلى أن يرجعوا سيرتهم في الجاهلية ، فبعث إليهم برجلين من أرباب الفقه يفقهان الناس في البدو وأجرى عليهما رزقاً . وكأنه قطع عهداً على نفسه إذا ولي أمر المسلمين «أن لا يضع لبنة على لبنة ولا آجرة على آجرة» لئلا يقع في ذلك حيف على الرعية ، وهم يتولون من ذلك ما يصلحهم من

(١) توى : كرضى هلك وأتواه الله فهو تو أذهب فهو ذاهب والتوى الهلاك .

(٢) الضلع : الميل .

لإقامة القصور والبيوت . أما هو فيعمل لإغنائهم وحملهم على الجادة ، حتى لم يبق فقير في أيامه في أكثر الأمصار ، لكثرة ما وزع على الفقراء من أموال الصدقات : يقبض عماله الصدقة ثم يقسمونها في المحاويج حتى لا يصيب الرجل الفريضتان أو الثلاث فما يفارقون الحى وفيهم معوز ، ولا ينصرفون إلى الخليفة<sup>(١)</sup> بدرهم . بعث عاملاً على صدقات إفريقية<sup>(٢)</sup> فأراد أن يعطى منها الفقراء فالتسهم في كل مكان فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ صدقة بيت المال ، فاشترى بهار قاباً وأعتقها وجعل ولاءهم للمسلمين ، وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما برح حتى يرجع بماله ، لا يجد من يضعه فيهم ، لكثرة ما أغنى الناس عمره .

ومن أهم ما عمله عمر في حسن الإدارة والسياسة أنه لم يشأ — لما أسندت إليه الخلافة — أن يبدأ بعمل قبل أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وقال : لرجل من المسلمين أحب إلى من الروم وما حوت . وفي سنة ١٠٠ أمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى مكطبية ثم يشتري ملطية من الروم بمائة ألف أسير ، فجعل لدولته سداً منيعاً ، وأنقذ المسلمين من ذل الأسر . وأراد هدم المصيصة ونقل أهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفي بعد ذلك . ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريره وبكى ، وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب ، كان ذهب للفداء بين المسلمين والروم ، ما أبكى المقل ، ومما قال : لقد بلغني من بره وفضله وصدفته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى ، لظننت أنه يحيى الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً ، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خاواته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكنني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب<sup>(٣)</sup> .

( ١ ) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى . ( ٢ ) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم . ( ٣ ) مروج الذهب للمسعودى .

وأحب عمر أن يجلي المسلمين من الأندلس لأنه كان يعتقد أن مقامهم فيها غير طبيعي ، لأنهم محاطون بالأعداء بعيدون عن مقر الخلافة . فأمر أحد عماله أن يرسم له مصوّر الأندلس ليرى في إجلاء المسلمين رأيه . وكتب إلى عامله عبد الرحمن بن نعيم يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذاربهم فأبوا . وكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه : « اللهم إني قد قضيت الذي على فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم » كل أولئك يدل على أن عمر ما كان يريد التوسع في الفتوح ، ويحاول أن يقتصر على البلاد التي دخلت في المملكة الإسلامية حتى لا تهرق الدماء على غير طائل ، ويعمر الناس البلاد ، ويصلح أهلها ضالاحاً دائماً على أن يكونوا بين أخروي يرجو ثواب الله ، ودنياوى يستجمع صفات الشرف في نفسه .

وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم<sup>(١)</sup> إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . ولما ولي إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم بلاد المغرب سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام . وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الإسلام فقرأه إسماعيل في النواحي فغلب الإسلام على المغرب . وكتب في اللواتيات : إن من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليرددها إلى أهلها . ولواتة قبيلة من البربر كان لهم عهد : ولما استخلف كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم ، وابتنى خانات ، ثم بلغ عمر عن عامله عصبية . وكتب إليه أنه لا يصلح أهل خراسان إلا السيف فأنكر ذلك وعزله ، وكان عليه دين فقضاه . ووفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب إلى عامله أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين

( ١ ) فتوح البلدان للبلاذري .

أخرجوا ، فحكم القاضي بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء (١) ، فكره أهل سمرقند الحرب وأقروه فأقاموا بين أظهرهم . قال عمر لمزاحم مولاه إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها أو فعلا لا تحبه ، فعظني عنده وانتهى عنه . وكان عنده رجلا فجعلا يلحنان فقال الحاحب : قوما قد آذيتا أمير المؤمنين ، فقال عمر : أنت آذى لي منهما .

هذا مجمل ما تم في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من الإصلاح فأعاد إلى الخلافة جماله وجلالها ، على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر ابن الخطاب ولكن عمر بن عبد العزيز عمل في غير زمان عمر بن الخطاب وعمل بغير رجاله . وكان دأب عمر بن عبد العزيز أن يذكر الناس بالآخرة ويخوفهم العذاب ، ودأب ابن الخطاب أن يذكرهم العمل للدنيا مع شدة التمسك بحقوق الأخرى ، فكانت إدارة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه وسيرة حفيده . كذلك . لأن الناس فسدوا في أواخر القرن الأول أو بدأوا بالفساد ، فكان هجبراه أن يذكرهم بالمعاد ويطهر أخلاقهم . عمق عمر كل هذا في سنتين وخمسة أشهر وهذا من أعجب ما يدون في تاريخ عظماء الأرض .

لما مرض مرضته التي مات فيها دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال : ألا توصي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : فبم أوصي ، فوالله إن لي من مال فقال : هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت . فقال أو تقبل ؟ . قال : نعم . قال : ترد علي من أخذت منه ظلماً . فبكى مسلمة ثم قال : يرحمك الله لقد ألفت منا قلوباً قاسية ، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً .

إدارة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد : ولم يكد عمر بن عبد العزيز يلحق بمولاه حتى عادت الدولة إلى سابق عهدها إلا قليلاً . وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً ،

( ١ ) قوله تعالى : فأنذر إليهم على سواء منناه إذا هادنت قوما فعلت منهم النقص للمهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقص حتى تعلمهم أنك نقصت المهد فتكونوا في علم النقص مستوين ثم أرقم بهم ( المصباح ) .

وأعاد سب على المنابر . وكتب إلى عمال عمر : « أما بعد ، فإن عمر كان مغروراً غرتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الحراج والضريبة ، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجذبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا والسلام » :

وجاء دور هشام في الخلافة وناهيك به من « رجل محشوعقلا » وفيه من الحلم والأناة والعفة ما ظهرت آثاره في إدارة الملك ، وعد أحد السواس الثلاثة من بني أمية وهم معاوية وعبد الملك وهشام ؛ وبه ختمت أبواب السياسة وحسن السيرة ، وكان يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة البرك والقنى في طريق مكة وغير ذلك ، ويسير بموكب كسائر الخلفاء من أهل بيته ، ولم يكن مثل ذلك لغير أخيه مسلمة ابن عبد الملك . وافتتح عهده بعزل عمر بن هبيرة عن العراق وتولية خالد بن عبد الله القسري ، فأدار هذه الولاية<sup>(١)</sup> العظيمة نحو خمس عشرة سنة بإقامة العدل وإفاضة السلام والعمل الصالح . وكان هشام على غاية الإخلاص متقللاً متقشفاً في ذاته ، يقوم بواجب الخلافة حق القيام ، ومن أكبر همه إصلاح أموال الدولة ، وغلب عليه الاقتصاد حتى كاد ينقلب إلى شح . بينما هو يوصي عقل بن شعبة<sup>(٢)</sup> لما وجهه إلى خراسان نظر هذا إلى قباء الخليفة فقال : مالك ؟ قال : رأيت عليك قبل أن تلي الخلافة قباء فنك<sup>(٣)</sup> أخضر فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك أم غيره . فقال : هو والله الذي لا إله إلا هو ذاك ، مالى قباء غيره ، وأما ما ترون من جمعى هذا المال وصونه فإنه لكم .

وكانت دواوينه مثال التنسيق والعناية في معاملة الرعية ومحاسبة العمال الذين يتصرفون له يتخيرهم من الأمناء البعيدين « من الفساد ومن الرشا ومن الحكم بالهوى » ويعتمد في إسناد عظام الأعمال على أناس من أهل بيته . قال .

(١) معلمة الإسلام . مادة هشام . (٢) تاريخ الطبرى .

(٣) الفلك (حركة) : جلد يلبس ، فروته أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها . صالح لجميع الأمزجة المعتدلة .

عبد الرحمن بن علي : جمعت دواوين بني مروان فلم أر ديواناً أصبح للعامّة وللسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بني مروان أشد حصرأ في أمر الصحابة ودواوينه ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام :

كتب هشام إلى والي العراق لما أخذ ابن حسان النبطي فضره بالسياط ، وكان أوغر صدر هشام عليه من إفراط الدالة واحتجان الأموال وكفر ما أسداه إليه من توليته إياه العراق : « إن هشاماً أثرك بولاية العراق ، بلا بيت برقيع ولا شرف قديم ، وهذه البيوتات تعلوك وتغمرك وتسكتك وتتقدمك في المحافل والجماع عند بداءة الأمور وأبواب الخلفاء » . ومما قال له إنه استعان بالحجوس والنصارى وولاهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وسلطهم عليهم . وقال له : والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أمير المؤمنين ما أفسدت من مال الله ، وضيعت من أمور المسلمين ، وسلطت من ولاية السوء على جميع أهل كور عملك تجمع إليك الدهاقين<sup>(٢)</sup> هدايا النيروز والمهرجان ، حابساً لأكثره ، رافعاً لأقله ، مع مخايب مساويك<sup>(١)</sup> .

وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة ، وكان الأسطول يشترك مع الجيش البري من اليايسة ، وذلك بقيادة ابنه معاوية وسليمان ، وتقدمت جيوشه في الشرق فغزا الترك . وأخذ دعاة بني العباس وثوار الخوارج في أيامه يعملون سراً ، وجهراً إذا أمكنتهم الحال . وما كان بما عرف فيه من العقل يريد إثارة الخواطر فيما لا يعود على السلطان بفائدة ، فقد لقيه في الحج سنة ١٠٦ سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان وقال له : يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ، ولم يزلوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب ( علي بن أبي طالب ) فأمر المؤمنين ينبغي له أن يلعنه في هذه المواطن الصالحة : فشق ذلك على هشام

(١) الدهقان : جمعه دهاقنة ، التاجر وزعيم فلاحى المعجم ورئيس الإقليم أو مقدم القرية أو صاحبها بن عثمان والعراق . (٢) يقال : هو خبيث مخبث وفيه مخايب جمة .

ونقل عليه كلامه ثم قال : ما قدمنا لشم أحد ولا لعنه ، قدمنا حجاجاً ، ثم قطع كلامه (١) .

وذكروا أن هشاماً كان ينزل الرصافة من أرض قنسرين وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء كانوا ينتبدون (٢) ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس ، فلما أراد هشام أن ينزل الرصافة قيل له : لا تخرج فإن الخلفاء لا يطعنون ولم ير خليفة طعن . فقال : أتريدون أن تجربوا بي . فنزل الرصافة وهي برية وابتنى بها قصرين . وكان (٣) لا يدخل بيت ما له مال حتى يشهد أربعون قسامة (٤) أنه أخذ من حقه ، وأعطى لكل ذى حق حقه . وهو من أحزم بنى أمية ومن أعقلهم يفضل على العلماء والفقهاء كثيراً . وتولى يزيد بن الوليد الخلافة فنقص الناس من عطائهم ، وكان أشد ضنانه بالمال من هشام ، فسمى يزيد الناقص ، فاضطربت عليه البلدان ، وكان الخليفة من بنى أمية إذا مات وقام آخر زاد في أرزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون : ( غير بعير (٥) وزيادة عشرة ) أى رجل برجل وزيادة عشرة . فسار هذا القول مسير الأمثال عند أهل الشام . وكان يزيد يهتم باللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، وأفسد على نفسه بنى عمه ولد هشام وولد الوليد ابني عبد الملك بن مروان . وأفسد على نفسه اليمانية وهم أعظم جند الشام ؛ ولعل هذه الغلطات الإدارية جسمت ما اتهم به ، فكانت حجة للخوارج عند العوام حتى أوردوه موارد الهلكة . وقال خالد ابن يزيد : يا أمير المؤمنين قتلت ابن عمك لإقامة كتاب الله تعالى وعمالك يغشمون ويظلمون . قال : لا أجد أعواناً غيرهم وإنى لأبغضهم . قال : يا أمير المؤمنين ول أهل البيوتات ، وضم إلى كل عامل رجلاً من أهل الخير والعفة ، يأخذونهم بما في عهدك . قال : افعل .

(١) تاريخ الطبرى . (٢) انتبذ الرجل : اعتزل ناحية .

(٣) تاريخ الطبرى . (٤) القسامة : الذين يقسمون على دعوائهم .

(٥) البير : السيد والملك .

وأمر الوليد بن يزيد بعض رجاله بتعذيب بعض العمال لأنه كان رفع إليه أنهم أخذوا مالا كثيراً<sup>(١)</sup>. ولما قتل الوليد (١٢٦) كان في بيت المال سبعة وسبعون ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها ، وتعهد الناس أن لا يضع حجراً فوق حجر ، ولا لبننة على لبننة ، ولا يكرى نهراً ولا يكنز مالا ، ولا ينقل مالا من بلد إلى بلد ، حتى يسد ثغرة وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقله إلى البلد الآخر الذي يليه ، ولا يغلق بابه دونهم ، ولهم أعطياتهم في كل سنة وأرزاقهم كل شهر ، حتى يكون أقصاهم كأدناهم . أما مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فقد كان شيخ بني أمية وكبيرهم<sup>(٢)</sup> « ذا أدب كامل ورأى فاضل » وهو أحزم بني مروان وأنجدهم<sup>(٣)</sup> وأبلغهم ، ولكنه ولي الخلافة والأمر مدير عنهم .

هذا ما كان من إدارة دولة امتد حكمها مسافة<sup>(٤)</sup> مائتي يوم من المشرق إلى المغرب تقرأ آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة ، ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج وكلاهما يدين لبني أمية . وفي أيامهم ظهرت على الممالك قدرة وغنى . وكانت كلمة الدولة نافذة في ثلاثة أقسام من الأرض آسيا وإفريقية وأوربا . ملكوا من برارى جبل الطور إلى ققارما وراء النهر ، ومن وادى كشمير إلى منحدر جبل طوروس على البحر المتوسط وأطراف الأناضول ، وسائر مملكة الأكاسرة وما عجز عنه الأكاسرة ، وأخذت الجزية التي قررها عمر بن الخطاب من النوبة كما أخذت من الهند والصين على ما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلي . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق . حتى صارت دمشق في نظر المسلمين كأنما هي رومية في نظر النصارى ، وانتشرت حضارة الإسلام<sup>(٥)</sup> في نصف قرن تقريباً من سواحل البحر الأطلنطي إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت في حوزة الإسلام أعم كثيرة من السلالة السامية « العرب

(١) تاريخ الطبري . (٢) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٤) حاة الإسلام لمصطفى نجيب .

(٥) الحضارة الإسلامية لأحمد زكي .

والسريان والكلدان » ومن السلالة الحامية « المصريون والنوبيون والبربر  
والسودان » ومن السلالة الآرية « الفرس واليونان والأسبان والأهاند أوى  
الهنود » ومن السلالة المسماة بالتورانية « الترك والتتار » .

كل هذا وما كان جميع الناس راضين عن إدارة الأمويين ولا سيما  
خصوصهم السياسيون . ومتى كان الخصم ينصف خصمه ؟ وإليكم مثالا من  
ذلك صدر عن أحد نساك الأباضية وخطبائهم وهو أبو حمزة يحيى بن مختار  
الخارجى ، خطب في مكة ووصف سيرة الخلفاء الراشدين ثم قال في بنى  
أمية : وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون  
بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ويحكمون بالشفاعة ،  
ويأخذون بالفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين  
الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف فقال : ( إنما الصدقات للفقراء والمساكين  
والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن  
السبيل ) فأقبل صنف تاسع منها فأخذها كلها ، تلكم الفرقة الحاكمة بغير  
ما أنزل الله اه . والله أعلم بمقدار ما في هذا الخطاب — على جلالة قدر  
صاحبه — من الخطأ والخلل . ولكن غضب العربى في رأسه فإذا غضب  
لم يهدأ حتى يخرج به بلسانه أو يده كما قالوا .

لا جرم أن إدارة الأمويين لم تكن في كل أيام خلفائهم بريئة من  
العيوب ، ولم تضعف في الحقيقة إلا في أيام يزيد بن الوليد ، وكان على  
غير طريقة أسلافه في أعماله ، وكان آخرهم مروان بن محمد ، على عظم  
همته وشدة بأسه مشغولا بالدفع عن الخلافة وكثرت الفتوق فضعفت إدارة  
المملكة . كانت حكومتهم عربية صرفة يتولاها أهل البيوتات والأشراف  
على الأكثر :

## إدارة العباسيين

### تدابير السفاح والمنصور :

دأب أبو العباس السفاح بين الكوفة والأنبار والحيرة والهاشمية من المدن ، فكان يتنقل فيها ، ولم يجعل له عاصمة مستقرة . واتخذ له وزيراً أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان وسلمه الدواوين ، وكان يسمى وزير آل محمد . وأصبحت الوزارة في الدولة العباسية مقررة القواعد والقوانين ، وما كانت تُعهد في الدولة الأموية . كان من يستشيرهم الأمويون يسمون كتاباً ومشيرين على الأغلب ، ويسمى وزيراً من باب التجوز لا على مثال بني العباس . استوزر السفاح خالد بن برمك بعد أن قتل أبا سلمة الخلال . فجعل خالد له دفاتر في الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج . وكانت كتابة الدواوين في صدر الإسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفاً مدرجة . دام ذلك مدة بني أمية . ولما تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك في الأمور أيام الرشيد اتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعد<sup>(١)</sup> .

لم يتفرغ السفاح لوضع أساس ثابت للإدارة لانصرافه جملة واحدة إلى توطيد دعائم الفتح وفتح الخوارج عليه ، وسار في الحملة على نظام الأمويين وكان أخوه أبو جعفر يتولى لأخيه كل أمر عظيم ، وكانت العراق على حظ وافر من ترتيب دواوينها وانتظام شئون إدارتها على العهد الأموي ، بفضل من وليها من أكبر رجال الإدارة والسياسة من بني أمية . وكذلك الحال في معظم الأقطار ، تبدلت دولة بدولة وخليفة بخليفة ، ونسج الآخر على منوال الأول اضطراراً واختياراً ، وقل أن خالفه في ترتيبه ونظمه . خطب السفاح قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً ، فضج الناس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عم رسول الله .

(١) مروج الذهب للمسعودي .

كان السفاح جميل العشرة جواداً بالمال يحب مسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل إلى امرأة وجارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويرى نقصاً . فقال له الهذلي : لذلك فضلكم الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين .

ومن أئمن ما وصل إلى أبي العباس من ميراث بني أمية برودة الرسول وقضيبه . وكان مروان<sup>(١)</sup> بن محمد حين أحيط به في مصر دفعهما إلى خادم له وأمره أن يدفعهما في بعض تلك الرمال . فلما أخذ الخادم في الأسرى قال : إن قتلتموني ضاع ميراث النبي ، فأمنوه على أن يسلم لهم ذلك . وكان للبردة والقضيب شأن وأى شأن عند جميع الخلفاء من بعده .

ولى المنصور الخلافة وكان أسن من أخيه أبي العباس السفاح ، ودبر المملكة في أيامه تدبيراً حسناً . أفضى إليه الملك وهو حنيك<sup>(٢)</sup> كما قال عن نفسه ، قد حلب هذا الدهر أشطره<sup>(٣)</sup> ، وزاحم المشاة في الأسواق ، وشاهدتهم في المواسم ، وغازاهم في المغازي قال : فوالله ما أحب أن أزداد بهم خيراً ، على أني أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدى ، مذ تواريت عنهم بهذا الجدارات ، وتشاغلت عنهم بأمورهم ، مع أني والله ما لمت نفسي أن أكون قد أذكيت عليهم العيون حتى أتتني أخبارهم وهم في منازلهم . وأبو جعفر المنصور في تأسيسه دولة بني العباس كعماوية في تأسيس دولة بني أمية ، مع اعتبار الفرق بين عصريهما ، والسر الأعظم في نجاحهما أنهما مرنا على الإدارة قبل أن تسند الخلافة إليهما .

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) الحنيك والحنيك والحنيك والحنيك : هو المحرب البصير بالأمور .

(٣) يقال للرجل المحرب الأمور فلان قد حلب الدهر أشطره أى قد قاسى الشدائد والرخاء وتصرف في الفقر والغنى ، وأشطره خلوفه أو أخلاف من أخلاف الناقة . وحلب فلان الدهر أشطره أى مر به خير وشره .

ولى المنصور أهله البلدان ، وفرق العائلات بين قواد من العرب وقواد من مواليه . فكان ينقل قواد العرب فى أعماله لثقتهم بهم واعتماده عليهم ، ثم استعمل مواليه وغلماؤه فى أعماله ، وصرفهم فى مهماته ، وقدمهم على العرب فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها وذهبت مراتبها . فهو الذى « أصل (١) الدولة ، وضبط المملكة ، ورتب القواعد ، وأقام الناموس ، واخترع أشياء ، ولم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفايته ، على أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيئته تصغر لها هيبة الوزراء » .

اجتمع للمنصور كثير من الخليل لم يعرف مثله فى جاهلية ولا إسلام واستجاد الكساء والفرش وعدد الحرب ومؤونها ، واصطنع الرجال وقوى الثغور . ولقب بأبى الدوانيق لتشدده فى محاسبة العمال والكتاب . وجماع سياسته المالية أن يدخر المال قائلا : « من قل ماله قل رجاله ومن قل رجاله قوى عليه عدوه ، ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ، ومن اتضع ملكه استبيح حماه » وذكر أنه أخذ أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلا (٢) وكان يعطى الجزيل والخطير (٣) إذا رأى فى العطاء فائدة ، ويمنع اليسير والخطير إذا كان عطاؤه تضييعاً ، فكان كما قال زياد لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمته عليه قيام من لا يملك غيره . ومن أجل هذا كان يثمر ماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والآكارع والجلود وعليه الخطب والتوابل .

وعد محمد بن عبد الله لما خرج عليه إذا رجع إلى طاعته من قبل أن يقدر عليه أن يعطيه ألف ألف درهم ، ويؤمنه على نفسه وولده وإخوته ، ومن بايعه وتابعه وشايعه ، ويطلق من فى سجنه من أهل بيته وأنصاره ، آثر أن يحقن الدماء ويعطى هذا العطاء على أن يبعث البعوث وينفق الأموال . وأنفق

(١) الفخرى لابن الطقطقى . (٢) تاريخ اليعقوبى .

(٣) مروج الذهب للمسعودى .

ثلاثة وستين ألف درهم على جيش واحد كان مؤلفاً من خمسين ألفاً وجهه إلى إفريقية لقتال الخوارج ، بمعنى أن أبا جعفر كان الحزم كله في تدبير ملكه ، والحزم كله في جمع المال للشدائد ، والإنفاق منه عند الحاجة لقيام الدولة ، ويذكرون له في باب الإمساك أخباراً كثيرة .

يقول المسعودي إن المنصور<sup>(١)</sup> كان في الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وهو أول من رتب المراتب من الخلفاء<sup>(٢)</sup> وكان لبني أمية بيوت بلا منعة ولا إذن ، وإنما كان الناس يقفون على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو يصرفوا . فلما ولي بنو العباس ، وبني المنصور بيته اتخذ في قصره بيوتاً للإذن ، فجرى الأمر على ذلك . وكانت أرزاق الكتاب في أيامه ثلثمائة ثلثمائة ، وكذلك كانت في أيام بني أمية . وكان المنصور متقللاً متقشفاً لا يحب البذخ والرفاهية بعد كل ما يأكل ويلبس نعمة عظمى بالقياس إلى حاله قبل الخلافة . فهو شديد في قتال أعدائه ، شديد في نظامه وترتيبه ، يعرف قيمة الوقت فلا يصرفه إلا فيما ينفع الدولة ويعمل في خدمتها ليله ونهاره ، وكان شغله<sup>(٣)</sup> في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره . وهو على انتباه لكل دقيق وجليل . وكان يقول ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم ، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم : أما أحدهم فقاوض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، ثم عرض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه . قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصبحة .

(١) مروج الذهب للمسعودي . (٢) لطائف المعارف للثعالبي .

(٣) تاريخ ابن الأثير .

استعمل المنصور في ولاياته وأعماله قليلاً من عمال الدولة البائدة ، وكثيراً من أهل بيته ورجالات العرب وبعض الفرس ، استوزر ابن عطية الباهلي وهو من صميم العرب كما وزر له أبو أيوب المورياني الخوزي وهو فارسي ، وما كان يترك الوزير يعمل برأيه فقط ، بل ينهى إليه كل ما يعرض له من أمور الدولة قبل البت فيها . وطريقته في حكم الأمصار طريقة «اللامركزية» أي طريقة الأمويين والراشدين من قبل . دعاه إلى اتخاذها تباعداً ما بين أجزاء المملكة ، وبعد الشقة في نقل الأخبار ، على ما كان في عهده من انتظام البريد وخمام الزاجل يطير في المهمات السريعة . كتب المنصور إلى مسلم بن قتيبة يأمره بهدم دور من خرج مع أحد الخوارج وعقر نخلهم . فكتب إليه : بأى ذلك نبدأ أبالنخل أم بالدور ؟ فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد فيأني لو أمرتك بإفساد ثمرهم لكتبت إلى تستأذن في أيه نبدأ أبا لبرني أم بالشهريز<sup>(١)</sup> » وعزله لم يفتق على المنصور في ملكه الواسع خرق لإلسده ، لأن جيشه كثير ، وآلته تامة ، وقواده يعرفون منه أن من سياسته أن يقتل على التهمة ، فهم يصدعون بأمره كله ، ولا يخرمون منه مادة واحدة . احتل الروم طرابلس الشام وظهر في الشام رجل من أهل المنيطرة<sup>(٢)</sup> (١٤٢ - ١٤٣) سمى نفسه ملكاً ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع أنباط أهل جبل لبنان وغيرهم ثم استفحل أمرهم فظهر عليهم الجيش العباسي ، فأمر أمير دمشق بإخراج من بقى في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام وكورها ، فكان هذا التدبير الإداري مما انتقده الإمام الأوزاعي بشدة ، لأنه إن كان من نصارى لبنان المعتدى على حقوق السلطان ، فإن منهم البريء وليس من الجائر<sup>(٣)</sup> أن يجلى عن أرضه ويعامل الطائع كالعاصي .

كان المنصور في أكثر أموره وسياسته وتديبره متبعاً في أفعاله هشام ابن عبد الملك لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسيرته ، وكان يقول إنه أى هشاماً

(١) البرقي : تمر أصغر مدور وهو أجود التمر واحدته بونية . والشهريز : ضرب من التمر في نواحي البصرة .

(٢) تاريخ ابن عساكر . (٣) فتوح البلدان للبلاذري .

فتى القوم أى رجل بنى أمية . وقال : الملوكة ثلاثة معاوية وكفاه حجاجه ، وعبد الملك وكفاه رياده ، وأنا ولا كافى لى . وكان يقول لأهل بيته : لى لأجهل موضعى حتى أحذر منكم لأنه ما فيكم إلا عم وأخ وابن عم وابن أخ ، فأنا أراعيكم ببصرى وأهتم بكم بنفسى ، فالله الله ۚ أنفسكم فصونوا ، وفى أموالكم فاحتفظوا بها ، وإياكم والإسراف فيوشك أن تصيروا من ولد ولدى لى من لا يعرف الرجل حتى يقول له من أنت .

كان المنصور آية فى الإشراف على عماله وإرادتهم على العدل ، يهددهم بالعقوبات إذا ولاهم ، وأكثرهم يصححون ويناصحون ويختار أهل البلاء منهم . ولقد وفد عليه قاضى إفريقية ، وكان رفيقه فى طلب العلم ، فسأله كيف رأيت سلطان من سلطان بنى أمية ، وكيف ما مررت به من أعمالنا حتى وصلت إلينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيت أعمالا سيئة وظلماً فاشياً ، والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فى سلطانهم شيئاً من الجور والظلم إلا رأيت فى سلطانك ، وكنت ظننته لبعده البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت كان الأمر أعظم . فنكس الخليفة رأسه طويلاً ثم رفعه وقال ، كيف لى بالرجال : فقال القاضى : أليس عمر ابن عبد العزيز كان يقول إن الوالى بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فإن كان براً أتوه ببرهم ، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم . ووعظ الأوزاعى المنصور فقال له : إن السلطان أربعة : أمير يظلف<sup>(١)</sup> نفسه وعماله ، فذلك أجر المجاهد فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ؛ ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذلك الذى باع آخرته بدنياه غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذلك شر الأكياس .

كان المنصور يقول لابنه : يا أبا عبد الله ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكنه الذى يحتال للأمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه .

(١) يكف نفسه .

وكتب إليه عامله على إرمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال فوق في كتابه : « اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينهبوا » . ولقد حدث أن المنصور ولى المدينة رياح بن عثمان فخطب أهلها يهددهم ويقول « أنا الأفعى بن الأفعى ، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقعا لا ينبج فيها كلب . فوثب عليه قوم منهم وكلموه وقالوا : والله يا ابن الجلود حدين لتكفن أو لنكفنك عن أنفسنا . فكتب الوالى إلى المنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة ، فأرسل المنصور إلى رياح رسولا ، وكتب معه كتاباً يقول فيه : وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ليبدلنكم بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام . فلما قرئ عليهم نادوه من كل جانب كذبت يا ابن الجلود حدين ، ورموه بالحصى وبادر المقصورة فأغلقها ، فدخل عليه أيوب ابن سلمة المخزومي فقال : أصلح الله الأمير إنما تصنع هذا رعاك الناس . وقال بعض من حضر من وجوه بني هاشم : لا نرى هذا ؛ ولكن أرسل إلى وجوه الناس وغيرهم من أهل المدينة فاقرأ عليهم كتاب المنصور ، فجمعهم وقرأ عليهم فقالوا : ما أمرتنا فعصيناك ولا دعوتنا فخالفتك . وانفض الأمر بسلام .

وعنى المنصور بالعارة في ملكه يعمر الجسور والقنى والآبار ، ففشت في أيامه أعمال العمران ، وحمل المهندسين من الآفاق إلى العراق خصوصا لبناء مدينة بغداد ، واختار المنصور موقعها بنفسه لاحاطتها بدجلة والفرات بحيث يصعب على أكثر الجيوش تخطيها ، ولأن مواد الشام والجزيرة تأتيها بالفرات ، ومواد الموصل وما وراءها تحمل إليها في دجلة . وبني الرصافة لابنه المهدي ليصير ابنه في مدينة ، وعسكر بالجانب الشرقى ، وبصير المنصور في مدينة ، وعسكر بالجانب الغربى ، فلا يشغب الجند .

وحج المنصور آخر حجة وكان موقناً أنه لا يرجع من حجه ، زاعماً أنه عرف ذلك من المنجمين ، فقال لابنه وأشار إلى سمنط له فيه دفاتر وعليه قفل

لا يفتحه غيره : أنظر إلى هذا السنط فاحتفظ به ؛ فإن فيه علم آرائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة . فإن حزنك أمر فانظر في الدفتر الكبير ، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث ، حتى تبلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة أي بغداد ، وإياك أن تستبدل بها غيرها ؛ وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها ، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً . وأوصى ابنه بأهل بيته وأن يحسن إليهم ويقدمهم ، ويوطئ الناس أعقابهم ، ويوليهم المنابر . وأوصاه بأهل خراسان خيراً لأنهم أنصاره وشيعته الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولته ، وأوصاه أن لا يدخل النساء في أمره ، وأن يعد الكراع والرجال والجند ما استطاع ، وأن يعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وأن يباشر الأمور بنفسه ، وأن يستعمل حسن الظن ، وينسى الظن بعماله وكتابه ، وأن لا يبرم أمراً حتى يفكر فيه ، فإن فكر العاقل مرآة تراه حسنه وسيئه . وقال له : لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمّر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أفدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره . وقال له أيضاً : إني تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لا يرجو إلا غناك ، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك ، ومسجوناً لا يرى الفرج إلا منك ، فإذا وليت فأذهبهم طعم الرفاهية ولا تمدد لهم كل المد .

هذا لإجمال ما عمله أبو جعفر المنصور ، وما أوصى به ابنه لإتمام ما بدأ به من الترتيب . وقد ألفت الأيام كتاباً لابن المقفع في الصحابة<sup>(١)</sup> أي أصحاب الخليفة ، كتبه إل أبي جعفر أورد فيه ما يحتاج إليه الملك من الإصلاح ليسير على قواعد مطردة سليمة من الشوائب ، وأدركنا منه بعض المسائل الإدارية

التي كانت تشغل الأذهان في ذلك الزمان . بدأه بتذكير الخليفة بجند خراسان فقال : إنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام ، وفيهم منعة وهم أهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة ، فرأى أن يكتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء بالغاً في الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤسائهم ، حتى يقودوا به دهماءهم ، وارتأى أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وأن منهم من المجهولين من هو أفضل من قادتهم ، فلو التمسوا وصنعوا<sup>(١)</sup> كانوا عدة وقوة ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ، ومن دونهم من العامة ، وأن يتعهد أديهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى . وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع وأجتناب زى المترفين وشكلهم مثل الذى يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه . قال : ولا يزال يطلع من أمر أمير المؤمنين ويخرج منه القول ، ما يعرف مقتته للاثراف<sup>(٢)</sup> والإسراف وأهلها ، ومحبه القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عن يكنزه ، بخلا أن ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالة بالنساء والمراتب .

وأشار أن يوقت الخليفة للجند وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له ، أنهم يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، هذا مع كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذى يخرج لهم ، وأن الجند يحتاجون إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر . والرأى أن يجعل بعض أرزاقهم طعاماً وبعضه علفاً يعطونه بأعيانه . ورأى أن لا يخفى عن أمير المؤمنين شيئاً من أخبار هذا الجند وحالاتهم<sup>(٣)</sup> وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف ، وأن يحتقر في ذلك النفقة ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح « فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فيصير جنة للجهالة والكذب »

(١) أحسن إليهم . (٢) أترف الرجل : أعطاه شهوته .

(٣) المهالة : كسحابة الندية والغرامة التي يحملها قوم من قوم .

ووصى بأهل المصرين الكوفة والبصرة قائلاً إنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة الخليفة ومعينيه وأن في أهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه . وأراد على أن يكتفى بهم ، وأنه لا أزرى بأهل العراق إلا أن من ولوا بلادهم كانوا أشرار الولاة ، وأعوانهم من أهل أمصارهم كذلك . « فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول (١) ، وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم ، ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ، ممن دنا منهم أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيناً وقعوا من صحابة خليفة ، أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يُقصّدوا حتى يلتبسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا أو ينتفع بهم » « فنزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن ما يقدرّون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشدّ تصنعاً ، وأحلى ألسنة ، وأرقق تلعطفاً للوزراء أو تمحلاً لأن يثنى عليهم من وراء وراء » . ثم ذكره بإصلاح القضاء وما يصدر عن القضاة من الأحكام المتناقضة ، ورجا أن يوحد القضاء ويوضع للقضاة كتاب يرجعون إليه .

وتعرض لأهل الشام وذكره أنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة ، فن رأى أن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والحوى ، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم ، ولا يعاملوا أهل الشام كما عاملوا أهل العراق من جعل فيهم إلى غيرهم ، وتنحيهم عن المناابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ، ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي

(١) الفسل : من الرجال الرذل الذي لا مروءة له ج الفسل فسول

يصنعه أمراؤهم للعامة . ورجاه أن يأخذ منهم أهل القوة والغناء وخفة المؤونة والعفة في الطاعة ، ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معاومة . وقال بهذا المعنى في إقامة العذر لأهل الشام على نزواتهم ، وأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدوينهم .

وذكره بأصحابه « الذين هم بهاء فئائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، والأعوان على رأيه ؛ ومواضع كرامته ، والخاصة من عامته » . وأبان أنها مراتب طمع فيها الأوغاد « ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره ، قد غير عامة دهره صانعاً يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعيف مما يجرى على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الوضع رعاية رحم ، ولا فقه في دين ، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، ولا عدة يستعد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء » . ثم ذكره بأمر فتيان أهل بيته وبني أبيه وبني علي وبني العباس ووصفهم بأن فيهم رجالاً لومستعوا بحسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى .

ومن أهم ما ذكره به أمر الأرضين والحراج . قال : فليس للعمال أمر تنتهون إليه ولا يحاسبون عليه ، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأنقون لها في العماره ، ويرجون لها الفضل ما تعمل أيديهم ، فسيرة العمال فيهم لإحدى ثنتين : إما رجل أخذ بالحرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد . وإما رجل صاحب مساحة يستخرج

من زرع ويترك من لم يزرع ، فيعمر من يعمر ويسلم من أخرب . ورجاه على أن يعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة . وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمناها ، ولا يجتهد في عمارة إلا من كان له فضلها ونفعها ليكون في ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال . قال : « وهذا رأى مؤنثه شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ، وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ، ولم نره من أحد قبله ، من تخير العمال وتفقدهم » .

ثم ذكره بجزيرة العرب وأن يختار لولايتها الخیار من أهل بيته وغيرهم ، لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأى الذى هو بإذن الله حى ونظام لهذه الأمور كلها فى الأمصار والأجناد والثغور والكور : وبما قاله فى خاتمة كتابه : « إن بالناس من الاستخراج<sup>(١)</sup> والفساد ما قد علم أمير المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم إلى أقواتهم التى يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والنصيحة مؤدبون مقومون ، يذكرون ويبصرون بالخطأ ، ويعظون عن الجهل ، ويمنعون عن البدع ، ويحذرون الفتن ، ويتفقدون أمور عامة من هم بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ، ثم يستصلحون ذلك ويعالجون ما استنكروا منه بالرأى والرفق والنصح ، ويرفعون ما أعياهم إلى ما يرجون قوته عليه ، مأمونين على سير ذلك وتحصينه ، بصراء بالرأى حين يبدو ، أطباء باستنصاله قبل أن يتمكن ، وفى كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك وتلطف لهم ، وأعينوا على رأيهم ، وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويبسطه لهم . وخطر هذا جسم فى أمرين : أحدهما برجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهل الفرقة إلى الألفة . والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك

(١) الاستخراج والاختراج : الاستنباط .

فى أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا يهمس هامس إلا وإذن شفيقة تصيخ نحوه » قال : « وقد علمنا علماً لا يخالطه الشك أن العامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها ، وأن الخاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها . »

« فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون إليهم ويسمعون منهم ، اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليه بجِد ونصح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لإصلاح الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم الله به عليهم ، وبلاغاً إلى الخير كله . وحاجة الخواص إلى الإمام الذى يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك » .

هذه زبدة تقرير ابن المقفع للمنصور وفيه صورة جميلة مما تحتاجه إدارة البلاد من الإصلاح ، وما يجب القيام به لاستصلاح الجند والرفق بأهل الكوفة والبصرة ، والعناية بأهل العراق والعطف على الحجاز واليمن واليمامة واختيار العمال الكفاة والرجوع إلى أهل الرأى ، واصطناع أرباب العقل من أهل الشام وإشارة إلى أن بغضهم بنى العباس من الأمور الطبيعية لأن الملك كان فيهم فانتقل إلى غيرهم ، وعرفه الطرق إلى استصلاح العامة واختيار الخاصة من الأصحاب والموالين إلى غير ذلك من الأمور التى يمكن تطبيقها لعمران البلاد ، ورفع الحيف عن الخلق والانتفاع بالقوى المفيدة للرعية وأرضهم . ومن أهم ما وقفنا عليه هذا التقرير أن الأمة لم تعد فى إبان مجدها رجالاً يدلونها على مواطن الضعف من سلطانها ، ومعالجة الإصلاح بالعقل حتى يبلغ كماله ، والأنخذ فى كل أمر من أمور الدولة بالحزم النافع والمصلحة الشاملة .

## إدارة المهدي والهادي والرشيد:

سار المهدي بالخلافة على الخطة التي اختطها له أبوه . ينظر في الدقائق من الأمور ، ويظهر أبهة الوزارة ، لكفاية وزيره أبي عبيد الله بن معاوية بن يسار ، فإنه جمع له حاصل المملكة ورتب له الديوان<sup>(١)</sup> وقرر القوعد « وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة » اخترع أموراً منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة . وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقررّاً ولا يقاسم ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وضبطت الأمور في أيامه ضبطاً محكماً . وكان من جملة حظ المهدي أن يكون له وزراء من هذا الطراز العالي ، وهو يعتمد عليهم ويضع ثقته في رجال دولته ، واستوزر أيضاً يعقوب بن داود فخرج كتاب المهدي إلى الديوان أن أمير المؤمنين أخى يعقوب بن داود ، فلم يكن ينفذ شيء من كتب المهدي حتى يرد كتاب الوزير يعقوب معه إلى أمينه بإنفاذه . أى أن الخليفة ووزيره كانا يراقب أحدهما عمل صاحبه لتقرير ما تلزم به المصلحة قبل إمضائه .

وضع المهدي ديوان الأزمّة ولم يكن لبنى أمية ذلك . ومعنى ديوان الأزمّة أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه . وقد كانت الدواوين قبل ذلك مختلطة<sup>(٢)</sup> . والسبب في وضع ديوان الأزمّة أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمّة ، وولى كل ديوان رجلاً . وأنشأوا ديواناً سموه ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات تسهيلاً على أرباب المصالح . والديوان يتقسم أربعة أقسام<sup>(٣)</sup> : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال ينظر في الدخل والخرج .

كان المهدي أول من جلس للمظالم من بنى العباس ، يقيم العدل بين المتظالمين ، ومشى على إثره الهادي والرشيد والمأمون . وكان المهدي

(١) الفخرى لابن الطائف . (٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي .

آخر من جلس للنظر فيها . وبسط المهدي يده في العطاء فأذهب جميع ما خلفه . المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار . وأجرى المهدي على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق ، وأمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد ببغال وإبل . ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ولا في قطر من الأقطار . وكان وزيره « يرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة من أمر الثغور والولايات ، وبناء الحصون وتقوية الغزاة ، وتزويج العزاب وفكك الأسرى والمحبيين ، والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعفين » واشتد المهدي على الزنادقة فقتل في جملة من قتل ابن وزيره أبي عبد الله بن معاوية فاستوحش كل منهما من صاحبه فاعتزل الوزير الخدمة .

قال رجل للمهدي عندي نصيحة يا أمير المؤمنين فقال : لمن نصيحتك هذه ؟ لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك ؟ قال : لك يا أمير المؤمنين . قال : ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعائته ، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا نشفي غيظك ، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك . ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رضا الله وللمسلمين صلاح ، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ، ومن استتر عنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فإنني أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع العاجلة ، والقلوب لا تبقى لو ال لا ينعطف إذا استعطف ، ولا يغفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم ، وهذا أرقى الأدب في استمالة القلوب وحسن سياسة الناس ، ومن وفق إلى تطبيق هذه القواعد على أمته لم يحتاج إلى سلاح يخيفهم ولا إلى جند يضبطهم .

وأفضت الخلافة إلى الهادي ، والدواوين مدونة مرتبة ، فن ديوان الخراج إلى ديوان الضياع ، إلى ديوان الزمام ، إلى ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، إلى ديوان النظر أي المكاتبات والمراجعات ، إلى ديوان الرسائل ، إلى ديوان البريد والخرائط ، إلى غير ذلك من الدواوين . وجعل الهادي أمور الدولة تسير في قواعدها المرعية على ما تقتضي به أحكام الشرع والعقل ، ويراه الوزراء والأمراء والقضاة . وكان جباراً عظيماً وهو أول من مشت

الرجال بين يديه بالسيوف المرفقة ، والأعمدة المشهورة ، والقسيّ المتوترة ، فسلكت عماله طريقته ، وبعثوا منهجه ، وكثر السلاح في عصره .

سار الرشيد في إدارته على نهج قويم ، وأعاد إلى الخلافة رونقها الذي كان لها على عهد جده المنصور ، وما كان بالمسرف ولا بالمبخل ؛ وسمى الناس أيامه « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . وكانت دولته (١) « من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة : جبي الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر » وقلد وزارته يحيى بن خالد وقال له : « قد قلدتك أمر الدولة وأخرجته من عنق إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » ودفع إليه خاتم الخلافة . أما الولايات فقد فوضها إلى أمراء جعل لهم الولاية على جميع أهلها ينظرون (٢) في تدبير الجيوش والأحكام ويقلدون القضاة والحكام ، ويجبون الخراج ويقبضون الصدقات ويقلدون العمال فيها ، ويحمون حدوده ، ويؤمنون في الجمع والجماعات أو يستخلفون عليها ، ويسIRON الحج من أعمالهم ، فإن كانت أقاليمهم ثغراً متاخماً للعدو تولوا جهاده .

وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقلها إلى بني العباس تقسيمها في زمن الرشيد ، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج ووقت ليغزو ، ووقت ليصطاف ويرتبع في الرقة ، ويترك قصر الخلد في بغداد ، وما اشتعلت فتنة في أرجاء مملكته إلا أطفأها ، ومنها فتنة النزارية واليمانية في الشام أي قيس ويمن ، عادوا إلى ما كانوا عليه فقتل منهم بشر كثير ، فأرسل عليهم إبراهيم بن محمد المهدي والياً . ففكر أن يعمد إلى طرق إدارية لقطع شأفة هذه الغائلة ، فرأى أن يلهمهم بقشور ، ويتقرب من قلوبهم بما يستميلها ، فسار في استقبالهم على قانون من « التشريفات » أو « البروتوكول » أرضاهم به وما تكلف شيئاً ، فقد أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين ، وأمره بتسمية أشرفهم ، وأن يقدم من

( ١ ) الفخرى لابن المقفّاق . ( ٢ ) الأحكام السلطانية للماوردي .

كل حي الأفضل فالأفضل منهم ، فأمر بتصيير أعلام الناس من الجانب الأيمن مضرباً وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليماني مضربى ومن دون المضربى يمانى ، حتى لا ياتصق مضربى بمضربى ولا يمانى بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئاً : « إن الله عز وجل جعل قرشاً موازين بين العرب ، فجعل مضرب عمرتها ، وجعل يمن خوئلتها ، وافترض عليها حب العمومة والخوئولة ، فليس يتعصب قرشى إلا للجهل بالمفترض عليه » ثم قال : « يا معشر مضرب كأني بكم وقد قاتم إذا خرجتم لإخوانكم من يمن قد قدّم أميرنا مضرب على يمن ، وكأني بكم يا من قد قاتم وكيف قدمكم علينا ، وقد جعل بجانب اليماني مضرباً وبجانب المضربى يمانياً ، فقلتم يا معشر مضرب إن الجانب الأيمن أعلام من الجانب الأيسر ، وقد جعلت الأيمن للمضرب والأيسر ليمن ، وهذا دليل على تقدمته إيانا عليكم ، ألا أن مجلسك يا رئيس المضربية فى غد من الجانب الأيسر ، ومجلسك يا رئيس اليمانية فى غد من الجانب الأيمن . وهذان الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان فى جهة متحولاً عنها فى غده إلى الجانب الآخر ، فانصرف القوم كلهم حامداً .

وبمثل هذه القوانين الإدارية رجع السلام إلى الشام ست سنين ، واستراحت من العصبية الجاهلية وبأو<sup>(١)</sup> القبلية . قال الجاحظ<sup>(٢)</sup> : حدثني إبراهيم ابن السندى قال لما كان أبى بالشام والياً أحب أن يسوى القحطاني والعدناني وقال : لسنا نقدمكم إلا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وكلكم أخوة ، وليس للنزاري شىء ليس لليمانى مثله قال : وكان يتغدى مع جيلة من جيلة الفريقين ، ويسوى بينهم فى الإذن والمجلس .

ومن عمال الرشيد من أبدع طرقاً جديدة فى الإدارة ، ولى عمر بن مهران مصر فقال هذا لغلّامه : لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل فى الجراب ، لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً . فجعل الناس يبعثون بهداياهم فجعل يرد ما كان من الألفاف<sup>(٣)</sup> ويقبل المال والثياب ، ويوقع عليها أسماء من بعث

(١) البأو : الكثير . (٢) الحيوان للجاحظ .

(٣) الألفاف : الهدايا واحداً لطف وألفافه بكذا ألحفه وبره وتكون فى الغالب من المأكول والمشروب والمشموم .

بها. ثم وضع الجباية . وكان بمصر قوم قد اعتادوا المظل وكسر الخراج . فاستأدى من الخراج النجم الأول والنجم الثاني ، فلما كان في النجم الثالث وقعت المطالبة والمظل فأحضر أهل الخراج والتجار ، فطالبهم فدافعوه وشكوا الضيقة ، فأمر بإحضار تلك الهدايا التي بعث بها إليه ، ونظر في الأكياس وأحضر الجهبند<sup>(١)</sup> فوزن ما فيها وأجزى أثمانها عن أهلها ثم قال : يا قوم حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم إليها ، فأدوا إلينا مالنا . فأدوا إليه حتى أغلق مال مصر ، فانصرف ولا يعلم أنه أغلق مال مصر غيره<sup>(٢)</sup> .

ولقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل ما دق وجل من شئون الملك ، « ومن أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً » يصطنع الرجال ويحلم عن مساوئ تغتفر من رجاله ، ويسعى في عمران البلاد ويكف الأذى عن الرعية ، ويأخذ بأيدي العلماء والباحثين ويجمع إليهم ويأنس بهم ، ولما رأى أن ملكه في خطر محقق من نفوذ آل برمك وزرائه وخاصته ، لانصراف الوجوه إليهم لكثرة ما أحسنوا إلى الناس ، ولإجماع القاصي والداني على حبهم ، حتى ساموا الخليفة أو أربوا عليه في المكانة ، أمر بالقبض عليهم ومصادرتهم وقتلهم ، وما أراد أن يروح بسر ما أتاه ، فرجم القوم الظنون به ، وذلك لأنه خافهم على ملكه ، وهم فرس لهم قديم يمتون إليه من الإمارة ، والفرس يحاولون منذ القرن الأول أن يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صبغته العربية . ونشأت من قتلهم قصة طويلة سداها ولحمتها المبالغة ، بل الاختلاق ، شغل الرشيد بها الناس عن نفسه وعن سياسة بلاده .

ووضع الرشيد على أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وترك بعض أهل الضياع في فلسطين أرضهم فوجه إليهم أحد كبار قواده فدعا قوماً من أكرتها ومزارعيها إلى الرجوع إليها ، على أن يخفف

(١) المصارف أو قابض المال . (٢) تاريخ الطبري .

عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم ، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف .  
وجاء قوم منهم بعدئذ فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه وهم  
أصحاب الردود . والرشيد يسد كل خلل في مملكته ، ويهتم كل الاهتمام أن  
ينحرف عن الفلاحين . وكان رجاله لا يألونه نصحاً لأنه يهتم لكل ما ينفع .  
وفي الرسالة التي كتبها له قاضيه أبو يوسف في الخراج نموذج من هذه العناية .  
ومما قال فيها : وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات  
فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ، وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل  
العفاف والصلاح ، فإذا وليتها رجالاً ، ووجد من قبله من يوثق بدينه  
وأمانته ، أجريت عليهم من الرزق بقدر ما تجرى ، ولا تجرى عليهم  
ما يستغرق أكثر الصدقة . . . ويكون من يولى فقياً عالماً مشاوراً لأهل  
الرأى موثماً على الأموال ، إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ،  
إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ،  
ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناصية ولا بعفاف ، ولا باستقامة طريقة  
ولا بغير ذلك . . . وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ،  
ولا محتقراً لهم ، ولا مستخفاً بهم ، ولكن يلبس لهم جلباباً من اللين ،  
يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب  
عليهم ، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر . والعدل على أهل الذمة وإنصاف  
المظلوم ، والشدة على الظالم ، والعفو عن الناس . . فإن كل ما عمل به وإلى  
الخراج من الظلم والعسف فإنه يحمل على أنه قد أمر به وقد أمر بغيره ، وإن  
أحلت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل  
هذا بهم تعدوا على أهل الخراج ، واجترأوا على ظلمهم وعسفهم وأخذهم  
بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم أو عسف  
وخيانة لك في رعيتك ، واحتجان شيء من النوى ، أو خبث طعمته ، أو سوء  
سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمر  
رعيتك أو تشركه في شيء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تروغ غيره  
فلا يتعرض لمثل ما تعرض له .

وقال : « بلغني عن ولاتك على البريد والأخبار في النواحي تخليط كثير ، ومحابة فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاية والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية ، وسترُوا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتبوا في الولاية والعمال بما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم ، وهذا ، مما ينبغي أن تتفكره ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار » . « وينبغي أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجرى لهم من الرزق من بيت المال وليدرّ عليهم وتقدم إليهم في أن لا يسترُوا عنك خبراً عن رعيّتك ولا عن ولاتك ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليه خبراً ، فمن لم يفعل منهم ينكل به ، ومتى لم يكن أصحاب البريد والأخبار في النواحي ثقات عدولا فلا ينبغي أن يقبل لهم خبر في قاض ولا وال . إنما يحتاط بصاحب البريد على القاضي والوالى وغيرهما فإذا لم يكن عدلا فلا يحل ولا يسع باستعمال خبره ولا قبوله (١) » .

بمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح لخليفته في اختيار عمال الخراج والأمناء على الأخبار لمراقبة العمال والولاية والقضاة ، على أن الرشيد أخذ العمال (٢) والثناء والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبّلين (٣) وكان عليهم أموال مجتمعة فطولبوا بصنوف من العذاب . وهذا مادعا بعض الناس في الدولة العباسية إلى أن يقولوا إن بنى أمية (٤) كانت مصائبهم في أديانهم ، وأن جبايتهم وأموالهم سليمة لم يظلموا في العشر والخراج ، أما بنو العباس ففج سلامة أديانهم كانت أموالهم فاسدة وجباياتهم بالظلم والغش . وأوضاع كل أمة تثقل وتخف في الميزان بحسب عناء القائمين على تطبيقها ، يزنون بالقسطاس المستقيم ، أو يُخسّرون إذا كالوا أو وزنوا .

ولى الرشيد أحدهم بعض أعمال الخراج . فدخل على الرشيد يودعه ، وعنده يحيى وجعفر بن يحيى ، فقال الرشيد ليحيى : أوصياه ، فقال له

(١) الخراج لأبي يوسف . (٢) تاريخ اليعقوبي .

(٣) المتبلون ملتزمو الجباية من الولاية والدهاقين التجار أو رؤساء الأقاليم ، والثناء

السكان جمع تائي . (٤) نشوار المحاضرة للتونسي .

يحيى : وفّر وعمر . وقال له جعفر : أنصف وانتصف . فقال له الرشيد :  
إعدل وأحسن . وانتهى إلى علم الرشيد أن عامل الأهواز قد اقتطع مالا  
كثيراً من مال البلد ، ولما سأله الرشيد أجاب : وحلفت بأيمان البيعة أني  
قد نصحت وشكرت الصنيعة ، ووفرت وما أسرفت ولا خنت ، والله  
لأصدقنك عن أهرى : عمرت البلاد واستقصيت حقوقك من غير ظلم ،  
ووفرت أموالك وفعلت ما يفعله الناصح لسيدته ، وكنت إذا كان وقت بيع  
الغلات جمعت التجار ، فإذا تقرر العطايا أنفذت البيع وجعلت لي مع  
التجار فيه حصّة ، فربما ربحت وربما وُضعت . إلى أن اجتمع لي من ذلك  
ومن غيره في عدة سنين عشرة آلاف ألف درهم فاتخذت أزجاً<sup>(١)</sup> كبيراً  
عقد بالحصص والآجر كأنه مجلس ؛ وجعلت بين يديه موضعاً أقعد فيه وعبئت  
البدر شيئاً بعد شيء في الأزج ثم سدّدته ، وهو بحاله ما أشك أن العنكبوت  
قد نسجت على ما فيه ، فخذها وحول وجهك إلى عبدك فقال الرشيد :  
بارك الله لك في مالك ، فارجع إلى عملك ودارِ رعيّتك .

ولما دخل عليه عامله بدمشق يرسف في قيده قال له الرشيد : وليتك  
دمشق وهي جنة بها غُدر تتكفأ أمواجه على رياض كالزرايى واردة منها  
كفايات المؤمن إلى بيوت أموالى . فما برح بك التعدى لأرفاقهم فيما أمرتك ،  
حتى جعلتها أجرد من الصخر ، وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير  
المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهة ، ولكن وليت أقواماً ثقل على  
أعناقهم الحق فتفرقوا إلى ميدان التعدى ، ورأوا المرائمة بترك العمارة أوقع  
بأضرار الملك وأنوه بالشذعة على الولاة ، فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ  
لهم بالخط الأوفر من مساءتى .

وكان الرشيد إذا أحس من عامل له خيانة دبر له من صائب رأيه ولطف  
حيلته ما يدل على بعد نظره وحسن إدارته ، وجميل تدبّره ، وشدة غيخته على  
مصلحة ملكه ، فيمسك أقصر الطرق إلى القضاء على الفتن المملوطة والغوائل

(١) بيت يبنى طويلاً .

المستجبة ، فيضرب على المسمي بسيفه وسنانه ، كما يغمر المحسن بإنعامه وإحسانه . أراد مرة أن يعزل علي بن عيسى عن خراسان - وخراسان كثيراً ما كانت تشغل بال الرشيد كما شغلت بال أسلافه - فدعا هرثمة بن أعين مستخياً به فقال : إني لم أشاور فيك أحداً ، ولم أطلع على سرى فيك . وقد اضطربت عليّ ثغور المشرق . وأنكر أهل خراسان أمر علي بن عيسى إذ خالف عهدي ونبذه وراء ظهره . وقد كتب يستمد ويستجيش ، وأنا كاتب إليه أخبره أني أمدته بك ، وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلع إليه نفسه . وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضّه ولا تطلعن فيه ، حتى تصل إلى مدينة نيسابور ، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامثله ولا تجاوزه إن شاء الله . وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى علي بن عيسى ليعرف ما يكون منك ومنه ، وهون عليه أمر علي فلا تظهرنه عليه ، ولا تعلمنه ما عزمت عليه ، وتأهب للمسير وأظهر الخاصتك وعامتك أني أوجهك مدداً لعلي بن عيسى وعوناً له .

ثم كتب إلى علي بن عيسى كتاباً بخطه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونهوت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائي أن خالفت عهدي ، ونبذت وراء ظهرك أمري ، حتى عشت في الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك . وقد وليت هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان وأمرته أن يشدد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهما ولا حقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فإن أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغير ، وبذل وخالف ، وظلم وتعدي وغشم ، انتقاماً لله عز وجل بادئاً ، وخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للتي لا سوى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً . »

وكتب عهد هرثمة بخطه ونصه « هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه ، أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله . فيحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه في دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله ، أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ، وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشد عليهم وطأته ، ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج المؤمنين وفيه المسلمين ، فإذا استنظف ما عندهم وقبيلهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يردوه إليهم ، فإن ثبت قبلهم حقوق لأمر المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها ، أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته ، حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب ، تلفت أنفسهم وبطلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق فأشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء ، وجشوبة المطعم والمشرّب وغلظ الملابس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله . فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك ، فإني آثرت الله ودينه على هواي وإرادتي ، فكذلك فليكن عمالك وعليه فليكن أمرك . ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحش معه إلى أمر يربهم وظن يربهم ، وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره إن شاء الله . هذا عهدي وكتابي بخطي أشهد الله وملائكته وحمله عرشه وسكان سماواته وكفى بالله شهيدا . وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته » .

أمثلة تكشف بها حقيقة إدارة الرشيد وبعد غوره في تراثيه . ولقد رفع إليه أن رجلا بدمشق من بقايا بني أمية عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والأموال مطاعاً في البلد له جماعة وأولاد وممالك وموال ، يركبون الخيل ،

ويحملون السلاح ، ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة وأنه لا يؤمن منه ، فعظم ذلك عليه ، فاستدعى منارة صاحب الخلفاء وأمره بالخروج إلى دمشق ، وضم إليه مائة غلام وأجله لذهابه ستة وإيابه ستة ويوماً لعوده ، وأمره أن يتفقد دار الرجل وجميع ما فيها ووالده وأهله وحاشيته وغلمانه ، وما يقولون وقدر النعمة والحال والمحل . فجاءه به في الميعاد المضروب وقص عليه ما سمعه ورآه . فعرف الرشيد أن الرجل محسود على النعمة مكذوب عليه ، فأذناه واعتذر عن استدعائه ، وقال له : سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهلك ومعاشك . فقال : عمال أمير المؤمنين منصنون وقد استغنيت بعدله عن مسألته من ماله ، وأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة ، وكذلك أمور أهل البلد بالعدل الشامل في ظل دولة أمير المؤمنين . فأعادته إلى بلده على خير حال ، ولم يترك للوشاة سيلاً إليه .

ولقد توسع الرشيد في توسعة سلطة عماله ، شخص الفضل بن يحيى إلى خراسان والياً عليها فبنى فيها المساجد والرباطات ، واتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل ولاءهم لهم ، وذكروا أن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل ولأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقي بخراسان على أسمائهم ودفنهم . وكتب إلى إرمينية للرشيد إلى وزيره أن قوماً صاروا إلى سبيل النصيح ، فذكروا ضياعاً إرمينية قد عنت ودرست يرجع منها إلى السلطان مال عظيم ، وأنى وقفت عن المطالبة حتى أعرف رأيك فكتب إليه : « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله في أيامنا كاسدة ، وألسنة السعاة في أيامنا كليلية خاسنة ، فإذا قرأت كتابي هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما في ديوانك ، فإننا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعلام الدائرة ، وجنبنى وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكننت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا  
وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدة تنتهى ، وأيام تنقضى ، فلما ذكر جميل ، ولما خزي طويل . »

ومما يعد في توسيع السلطة أن قاضي الرشيد أبا يوسف كان أول من دعى في الإسلام قاضي القضاة ولم يقع<sup>(١)</sup> هذا الاسم على غيره كما وقع له فيه ، فإنه كان قاضي المشرق والمغرب ، فهو قاضي القضاة على التحقيق ، والقضاة يعينون باقتراحه ، وكان القاضي في العواصم لا يتناول أقل من ألف دينار في السنة ، وأجرى على قاضي مصر<sup>(٢)</sup> مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر وهو أول قاض أجرى عليه هذا ، وأجروا بعد ذلك على القاضي سبعة دنائير كل يوم . ثم صار أبو الجيش يجري على قاضيه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكانوا يجررون على القضاة والعمال الأرزاق من بيت المال من جباية الأرض أو من خراجها والجزية .

والرشيد لا يضمن بالمال في سبيل الدولة ، والمال وحده لا يكفي الخليفة أمر الفتوق التي تحدث إن لم يكن لها من يوثق بأمانته في تلافى شرها ، والرشيد على كثرة بذله المأثور خلف من المال ، « ما لم يخلف أحد مثله منذ كانت الدنيا » وذلك أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الضياع والعقار ما قيمته مائة ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف دينار » قال ابن الأثير كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا في بذل المال . فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان . محسن ولا يُوخر ذلك .

### إدارة الأمن والمأمون :

لم يعرف التاريخ شيئاً من التدبير الذي جرى عليه الأمين بعد الرشيد ، لأنه كان يعبث وقلما يجد ، وفرق ما في خزائن الدولة من الأموال والأعلاق . والذخائر ، حتى دالت الخلافة وضاعت بعد الرشيد ، ولم يرزق الأمين وزراء كوزراء أخيه ، طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين والحسن بن سهل . والفضل بن سهل ثم أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وأضرابهم ، بل .

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي .

(٢) أخبار الولاة والقضاة للكندي .

اصطناع من نبذهم أبوه الرشيد ، وكان أقصاهم لسوء سيرتهم ، فربح المأمون برجاله وعقله ، وخسر الأمين برجاله وضعف تدبيره .

وبينما كان المأمون في مرو ينظر في أمور الدولة كان الأمين يوجه « إلى جميع البلدان في طلب الملهمين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأراق ونافس في ابتياع فُرّه الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بخضرتة من الجوهر في خصميانه وجلسائه ومحدثيه ... وأمر ببناء مجالس لمنزلهاته ومواضع خلوته ولطوه ... وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خالقة الأسد والنيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيما » .

ولما حصر الأمين وضعف خطه<sup>(١)</sup> الأمر قال : ويحكم أما أحد يستراح إليه ؟ فأتوه برجل من العرب فلما صار إليه قال له : أشر علينا في أمرنا . قال له : يا أمير المؤمنين قد بطل الرأي اليوم وذهب ، ولكن استعمل الأراجيف فإنها من آلة الحرب . فكان يضع له الأخبار فإذا مشى الناس تبينوا بطلانها . فالأمين كان يسف إلى ذلك ، وأخبره المأمون يعمد إلى القواد والعظماء والعلماء الأعلام يستشيرهم ويأتمنهم .

وغافل المأمون لأول أمره ثلاث خلاطات إدارية : منها أنه لم يأت إلى عاصمة ملكه عتقبة مقتل أخيه ففضى في الطريق من مرو إلى بغداد سنتين بعد أن أقام بمرو تسع سنين ، وكان عليه أن يبادر لجمع القلوب وكسر شوكة المتلاعبين من القواد . وبايع المأمون بولاية عهده إلى علي بن موسى الرضا وهو في خراسان فأخرج الخلافة من آل العباس ، حتى أجمعوا على خلافه وبايعوا بالخلافة لإبراهيم بن المهدي في بغداد وخلعوا طاعته . ومنها أنه سمع لوشاية وزيره الفضل بن سهل في هرثمة بن أعين الذي كان بحسن تدبيره العامل الأول في القضاء على جيوش أخيه الأمين وإيصال الخلافة للمأمون .

وكانت أتت هرثمة كتب المأمون أن يلي الشام والحجاز فأبى وقصد إلى المأمون في خراسان<sup>(١)</sup> «إدلالاً منه عليه لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتُم عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يرده إلى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ، ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه ، فعلم الفضل ما يريد فقال للمأمون : إن هرثمة قد أنغل عليك البلاد والعباد وظاهر عليك عدوك » . ولما أدخل هرثمة على المأمون وقد أشرب قلبه ما أشرب من ناحيته ، ذكر له ما بلغه عنه مما افتراه الفضل ، وذهب هرثمة يتكلم ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قُرِف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر به فوجئ على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ثم قتل .

وكاد المأمون يغلط غلطة رابعة بتخليه عن طاهر بن الحسين : «الذي أبلى<sup>(٢)</sup> في طاعته ما أبلى وافتتح ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزومة ، حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله ، وصير في زاوية من الأرض بالركة ، قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده » وتنوَسى حتى لا يستعان به في شيء في الحروب ، واستعين بمن هو دونه أضعافاً . لكن عقل المأمون تدارك هذه الغلطات ، وما أن جاء بغداد حتى قبض على قياد الملك قبضة الرجل الحازم ، وظهرت مواهبه ونبوغه في السياسة والإدارة ، في زمن غلبت الفتنة على قلوب الناس فاستعذبوها ، ولا مال له يرضيهم به . وقال يتخوف هائجاً يهيج ويوت المال فارغة : إن الناس في هذه المدينة على طيِّمات ثلاث : ظالم ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإحساننا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلا بنا ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً ، فبيته يسعه .

وقيل إن المأمون بكى لما رأى طاهر بن الحسين . فلما سئل عن سبب بكائه قال إنى ذكرت محمداً أنحى «الأمين» وما ناله من الذلة فخفتنى العبرة ، فاسترحت إلى الإفاضة ، ولن يفوت طاهراً منى ما يكره ، فبلغ ذلك طاهراً

(١) تاريخ الطبرى . (٢) تاريخ الطبرى .

فركب إلى أحمد بن أبي خالد فقال له : إن الشناء مني ليس برخيص ، وإن المعروف عندي ليس بضائع ، فغيبني عن عينه . فسعى له بتولية خراسان ، وكان قبل ولايته ندبه الحسن بن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شبيب فقال : حاربت خليفة ، وسقت الخلافة إلى خليفة ، وأؤمر بمثل هذا ، وإنما يجب أن توجه لهذا قائداً من قوادى . ثم وسد المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو ابن طاهر بن الحسين الرقة وحرب نصر بن شبيب وولاه البلاد التي في طريقه ليكون حكمه نافذاً مهيباً ، مهياً له أسباب الظفر من كل وجه . وذلك لثلاث تتعارض السلطات ، ويجمع القائد في العادة بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية . وهذا من دقيق سياسة العباسيين . ولما أسندت إلى عبد الله بن طاهر قيادة الجيش لقتال الخارجى ابن شبيب كتب إليه أبوه طاهر بن الحسين كتاباً تنازعه<sup>(١)</sup> الناس وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه فقال : ما أبى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا ، والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة ، إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

ومما ورد في هذا الكتاب في الإدارة : ولا تتهم أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبذاء والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يعنك<sup>(٢)</sup> ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرافة برعيتك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، ولتكن المباشرة لأمر الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصالحها ، والنظر في حوائجهم وحمل مؤوناتهم آثر عندك مما سوى ذلك ، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عايك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة .

( ١ ) تاريخ الخلفاء . ( ٢ ) رواية ابن الأثير يعنك ذلك عن اصطناعهم .

وجانب البدع والشبهات ، يسلم لك دينك ، وتستقم لك مروءتك . وإذا عاهدت عهداً فف به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها . وأنمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله ، وأقص أهل النيمة ، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها<sup>(١)</sup> تقريب الكذوب ، والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنيمة خاتمها ، لأن النيمة لا يسلم صاحبها وقائلها ، ولا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوفاء والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله ، ولتكن ذنائبك وكنوزك التي تذخر وتكز ، البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم والتفقد لأموالهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة للمهوفينهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وزخرت في الخزائن لا تثمر ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت بها العامة ، وتزينت بها الولاة ، وطاب بها الزمان ، واعتقد فيها العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم ؛ وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك ، واستوجبك المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب نفساً لكل ما أردت .

وعاد فوضع له قواعد في حكمة الأخلاق لا تصلح بغيرها الولاية فقال :  
« ولا تحقرن ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ،

(١) رواية ابن الأثير : فساد أمورك في عاجلها وآجلها .

ولا تدهنن عدوا ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأتمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تبتغين عادياً ، ولا تحمدن مرأياً ، ولا تحتقرن إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تجبين باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفن وعداً ، ولا ترهقن هُجْراً ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تأتين بذخاً ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولا تفرطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عتاباً ، ولا تغمض عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا .

قال : وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن في مشورتك أهل الذمة والنحل ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح : واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم . . . وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبتهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ، يذهب الله بذلك فاقتهم ، فيقوى بك أمرهم ، وتزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانسراحاً . ثم ذكر له القضاء وإقامة العدل فيه « لتصلح الرعية ، وتأمين السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة » . إلى أن قال — بعد أن عرفه ما يفعل لحقن الدماء وإعطاء الحقوق — « وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديتهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واجمل الناس كلهم على مرّ

الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً . وإنما سمي أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيتهم وقيمتهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاتهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى أثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوث في عملك ، وأحرزت به المحبة من رعيتك ، وأعنت على الصلاح قدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الحصب في كورك فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جنلك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة ، فنافس في هذا المقام ولا تقدم عليه شيئاً تحمد مغبة أمرك إن شاء الله .

واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معاين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع ، فأمضه وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته . . . « وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فيشغلك ذلك حين تعرض له ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك ، وبذلك

أحكمت أمور سلطانك . وانظر أحرار الناس وذوى الشرف<sup>(١)</sup> منهم ممن تستيقن صفاء طويتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤزنتهم ، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسا ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أخنى مسألة ، ووكّل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال .

« وأجر للأضرء<sup>(٢)</sup> من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم ، والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقواماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال . واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم ، لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم ، طمعاً في نيل الزيادة ، وفضل الرفق بهم ، وربما تبرم المتصفح لأموال الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه ، ما يناله به مؤونة ومشقة .

« وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز للناس وجهك ، وسكن لهم حواسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم في المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس ، واتمس الصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة ... » « واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ،

( ١ ) هذه رواية الطبري وفي رواية ابن الساعي ذوى السن .

( ٢ ) رواية ابن الساعي « الاضراب » بدل الاضرء .

وليكن هواءك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها . وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك ؛

« - وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك بكتبه ومؤامراته ، وما عنده من حوائج عمالك وأمرور كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبر له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ، ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف توثيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك .. » .

أرأيتم هذا الكلام الآخذ بجماع الفوائد الذي كتب به طاهر بن الحسين إلى ابنه قبل خمسين ومائة وألف سنة في هذا الموضوع الجليل الذي فيه قوام الممالك والشعوب ؟ أتظنون أن هذه الأفكار يصدر اليوم أحسن منها عن أكبر عالم إداري عارف بطبائع الناس وما يصلحهم ، والممالك وما ينبغي لها ، وعرفنا من هذا الكتاب مكانة طاهر بن الحسين من قيام الدولة والدفاع عن حوزة الخلافة ، وأن المأمون الذي يكون من جملة قواده ورجال دولته هذا العظيم لا بد أن يكون في عمله جده عظيم .

تقدم معنا أن عبد الله بن طاهر ندب لحرب نصر بن شبث ، فلما استأمن هذا وصفت البلاد ، جاء الشام فعمل أحسن الأعمال لراحة أهلها واستقرارها ببلد بلاء ، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواquil (١) وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحر وضمنهم جميعاً ، ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ، ثم قصد

(١) الزواquil : اللصوص .

إلى مصر فضرب على أيدي الخوارج فيها ، وربطها بالخلافة ربطاً محكمًا .  
 وكان نحو (١) الخمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة جلوا من الأندلس بعد وقعة  
 الربض في سنة ٢٠٢ فانتهاوا إلا الإسكندرية فلكوها مديدة ، فلما ورد  
 عبد الله بن طاهر على مصر صالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم ،  
 وخيرهم في النزول حيث شاءوا من جزائر البحر فاختاروا جزيرة إقريطش  
 من البحر الرومي .

وكان من تربية طاهر بن الحسين أن جاء ابنه كما قال له أحمد بن يوسف  
 الكاتب موفقاً في الشدة واللين في مواضعهما ، ولا يعلم سائس جند ورعية  
 عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأضغنه عفوه . قال :  
 ولقل ما رأينا ابن شرف لم يُلَقَّ بيده متكلاً على ما قدمت له أبوته . قال  
 يونس بن عبد الأعلى : أقبل إلينا ( في مصر ) فتي حدث من المشرق ،  
 يعنى ابن طاهر ، والدنيا عندنا مفتونة ، قد غلب على كل ناحية من بلادنا  
 غالب ، والناس في بلاء ، فأصلح الدنيا وأمن البريء وأخاف السقيم  
 واستوثقت له الرعية بالطاعة ولقد قال المأمون لبعض جلسائه : من أنبل  
 ما تعلمون نبلاً وأعفهم عفة ؟ فجالوا بما فتح الله عليهم ، وبعضهم مدحه  
 وقرظة . قال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر دخل مصر وهي  
 كالعروس الكاملة ، فيها خراجها وبها أموالها جمة . ثم خرج عنها فلو شاء  
 الله أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لى عليه  
 عين ترعاه ، فكتب إلى أنه عرضت عليه أموال لو عرضت على أو بعضها  
 لشهرت إليها نفسى ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التي  
 قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس . فن رأى أو سمع بمثل  
 هذا الفتى في الإسلام . فالحمد لله الذى جعله غرس يدي وخريج نعمتى .

هكذا كان عدل العمال وشرف أنفسهم ، وهكذا كان علمهم وبعد نظرهم  
 في عصر المأمون ، فلا يستغرب بعد ذلك ما ذكر من قصة (٢) تلك المرأة

( ١ ) الحلة الشيراء لابن الأبار . ( ٢ ) خطط المقرئى .

القبطية التي نادى المأمون لما مر بقريتها طاء النمل<sup>(١)</sup> من أرض مصر وسألته أن يقبل قراها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الأعداء ، وبكت بكاء كثيراً ، فنزل عليها بجيشه ورجاله وكانت ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه ، وفي الصباح بعثت إلى المأمون بعشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، في كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب ، وربما عجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا ، وأشارت إلى الذهب — من هذا — وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض — ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعفاها من بعض خراج أرضها .

وفي الحق إنه لم يعرف كعصر المأمون وعصر أبيه وأخيه الأمين في استفاضة الأموال في كل طبقة من طبقات الأمة . فقد أنفق الحسن بن سهل على عرس ابنته بوران على المأمون أربعة آلاف ألف دينار ، ومات الخيزران أم الهادي والرشد ( ١٧٣ ) وكانت غلتها ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، ومات محمد بن سليمان وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة ألف درهم . وأنفق جعفر بن يحيى على داره التي ابتناها في دار السلام نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وغنى إبراهيم بن المهدي محمداً الأمين صوتاً فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم . فقال إبراهيم : يا سيدي قد أمرت لي إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم فقال : وهل هي إلا خراج بعض الكور !

( ١ ) طاء النمل : يقال لها طنامل ( بضم الطاء وتشديد النون ) وهي مركز أجا من الدقهلية .

ووقع للمأمون غير مرة أنه كان يخف إلى الأقطار التي تنشب فيها فتنة جديدة لا يعتمد على رجاله ، على كثرة الصالحين منهم للعمل . ولما انتفضت أسفل الأرض كلها بمصر عربها وقبطها ، وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة ، وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم ، هبط المأمون مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، وسخط على عامله عيسى بن منصور ، وأمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن نعلك وفعل عمالك . حلتهم الناس ما لا يطيقون وكتمتهموني الخبر ، حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد . وقال : ما فتق على قط فتق في مملكتي إلا وجدت سببه جور العمال . وقال لمن رفع إليه خبراً في عامل : إني امرؤ أداري عمالي مداراة الخائف ، وبالله ما أجد إلى أن أحملهم على المحبة البيضاء سبيلاً ، فاعمل على حسب ذلك ولين لهم تسلم منهم .

وخص المأمون بالإغضاء عن المساوي ، والتغابي عن التافهات ، وحمل الناس على مجمل الخير ، وجهد أن يسوق إليهم كل خير ، وهذا مع كثرة عنايته بالأخذ بأخبار عماله ورعيته . قيل إنه كان للمأمون ألف عبوز وسبعائة يتفقد بها أحوال الناس ومن يحبه ويغضه ومن يفسد حرم المسلمين ، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتبه كلها ، وكان يدور ليلاً ونهاراً مستتراً ، ومع كل هذا كان المأمون أبداً إلى جانب المسامحة والعفو ، وتتجافى نفسه العظيمة عن كل ما تشتم منه رائحة الطمع والإسفاف إلى أموال العمال ، وكادت المصادرات والنكبات تبطل في أيامه ، ولا يتكبد إلا من حاول نقص بنيان الدولة : ولقد رفع إليه أن عمرو بن مسعدة أحد وزراء دولته خلف ثمانين ألف ألف درهم ، أو نحو ثمانية ملايين دينار ، فوقع على الرقعة : « هذا قليل لمن اتصل بنا وطات خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » .

وكأنه استغفح القتل الذي يصيب كل عدو للدولة فبسط جناح الرحمة ، وقلل من إهلاك النفوس ما أمكن ، وأقام نفسه مقام رجل يعرف الطباع

البشرية ، وينصف خصومه وأعداءه ويحسن إليهم ولا يسيء ، كتب صاحب بريد همدان<sup>(١)</sup> إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما ، فوقع المأمون : إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية ، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازته ، فانف الساعي عنك ، فلتن كان في سعائته صادقاً لقد كان في صدقه لثماً ، إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه .

وقال المأمون لولده في معنى الوشاة : « يا بني نزهوا أقداركم وطهروا أحسابكم من دنس الوشاة وتمويه سعائتهم ، فكل جان يده في فيه ، وليس يشئ إليكم إلا أحد الرجلين : ثقة وظنين . أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يسيئ بالوشاية قدره ، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه ، ويكذب ظنه ، ويرد باطله ، وما سعى رجل برجل إلى قط إلا انحط<sup>(٢)</sup> من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً ، فلا تعطوا الوشاة أمانهم فيمن يشون بهم » . ولئن لم يترك المأمون مجالا للوشاة يخربون بيوت الناس ، ويزيلون نعمتهم ، أو يوردونهم موارد الهلكة ، فما كان يخفى عليه خبر من الأخبار الخاصة والعامة في القاضية والدانية ، حتى إنه لما ضاق صدره من تشدد بعض العلماء في حوار خلق القرآن ، كتب إلى عامله بمعايهم رجلاً رجلاً ، وقال إنه أعلم بما في منازلهم منهم ، وخبرني هذه الرسالة عن عيب واحد واحد من الفقهاء وأصحاب الحديث وعن حالتهم وأمورهم التي خفيت أو أكثرها عن القريب والبعيد .

ولقد كان من أهم قوانين إدارة المأمون التوسعة على عماله حتى لا يسرقوا الرعية والسلطان ويضيعوا حقوقهم ؛ رفع منزلة الفضل بن سهل وعقد له على الشرق طولا وعرضاً وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم . وما كان المأمون بالخليفة الذي يتخلى عن خاصة عماله لأدنى سبب ، بل بغض الطرف عن مساويهم . ويتركهم في برزخ بين الرغبة والرغبة ، ولذلك استراح

(١) المحاسن والمساوي للبيهقي .

(٢) أخلاق الملوك للجاحظ .

واستراح الناس معه ، وعلى قدر ما كان يراعى الخاصة يراعى العامة ، فقد قال في وصيته للخليفة بعده : ولا تغفل أمر الرعية والعوام فإن الملك بهم وبتعهدك لهم . الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهين إليكم أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا فادمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأن بهم .

وكان المأمون يحرص كل الحرص على الانتفاع برجاله ، ويطلق لهم حريتهم في العمل ، ومن كان يستمع لمشورتهم أحمد بن أبي داود ، وهذا كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه . ولما أسند<sup>(١)</sup> المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم قال فيها : وأبو عبد الله أحمد بن أبي داود لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمر فإنه موضع ذلك ، ولا تتخذن من بعدى وزيراً . ومن جملة ما أوصى به المأمون أخاه المعتصم في مرضه : خذ بسيرة أخيك في القرآن والإسلام ، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المرید لله ، الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلته ، وكأن قد نزل بك الموت . ومن ذلك عرفنا أن سياسة المأمون ملكه كانت علماً وعملاً ، وهكذا يريد أن يكون عماله . وعظه رجل فأصغى إليه منصتاً فلما فرغ قال : قد سمعت موظلتك فاسأل الله أن ينفعنا بها وربما عملنا ، غير أنا أحوج إلى المعاونة بالفعال منا إلى المعاونة بالمقال ، فقد كثر القائلون وقل الفاعلون .

كان في المأمون شيء من الجاذبية النظرية يستميل بها القلوب ويجدها على حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمزجة أمته فيشغلها في المفيد ، ولا اغو ولا لحو في حياته ، فكان بإدارته مثال الجلد في الخوالب من بني العباس ، يفكر في أمر رعيته أكثر من تفكيره في أمور نفسه . كتب إلى عامله على دمشق في التقدم إلى عماله في حسن السيرة وتخفيف المرونة وكف الأذى عن أهل ماله ،

( ١ ) ربيات الأعيان لابن خلكان .

وأن يتقدم إلى عماله في ذلك أشد التقدم ، وأن يكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك ، وكتب بهذا إلى جميع عماله في أجناد الشام ، واستجلب المأمون لمساحة أرض الشام مساح العراق والأهواز والرى . وكان يعدل الخراج إذا شكاه منه أهله . كان العلاء بن أيوب لما ولى فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه من يحضره من أهل ذلك العمل ويقول أنتم عيوني عليه فاستوفوه منه ، ومن تظلم إلىّ منه فعلىّ انصافه ونفقته جائياً وراجعاً . ويأمر العمال أن يقرعوا عهده على أهل عمله في كل جمعة ويقول لهم : هل استوفيتهم ؟

أصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب والى الحرمين إلى المأمون يذكر له الحال ، فوجه إليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب إلى والى : « أما بعد ، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فبكاهم بقلب رحمته ، وأنجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف إليهم ، بما يخلفه عليهم ، عاجلاً وآجلاً ، إن أذن الله في تثبيت عزمه على صحة نيته » . قالوا فصار كتابه هذا آنس لأهل مكة من الأموال التي أنفذها . وكان له في كل بلد حوادث من الإحسان قلما يتسامى إليها أحد من الخلفاء . ذكر المؤرخون أن المأمون لما كان في دمشق أضاق إضاعة شديدة ، ثم وافاه المال ثلاثون ألف ألف درهم . فقال ليحيى بن أكرم : اخرج بنا لننظر إلى هذا المال فخرج وخرج الناس ، وكان قد زين الحمل وزخرف ، فنظر المأمون منه إلى شيء حسن كثير ، فاستعظم الناس ذلك واستبشروا به . فقال المأمون : إن انصرفنا إلى منازلنا بهذا المال وانصرف الناس خائبين لوّم . فأمر كتابه أن يوقع لهذا بألف ألف ولذلك بمثلها ولآخر بأكثر منها حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب ، ثم حول الباقي على عرض الجيش برسم مصالح الجند .

عقد المأمون لأخيه أبي إسحاق على ثغر المغرب ، ولابنه العباس على الشام والحزيرة ، ولعبد الله بن طاهر على الجند ومحاربة بابل . وفرق فيهم

ما لم يفرق مثله أحد مذ كانت الدنيا : أمر لكل واحد منهم بخمسمائة ألف دينار ، وما كان المأمون يضمن بمال إذا كان فيه صلاح الدولة والرعية . وخمسمائة ألف دينار يأخذها العامل ينفقها في أتباعه ورجاله ومروءته . وكانت نفقة المأمون كل يوم ستة آلاف دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها إلا جزء طفيف . كتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند ونصه : « كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة الجند تأخرت أرزاقهم ، واختلت أحوالهم » . فقال المأمون والله لأقضين حق هذا الكلام ، وأمر بإعطائهم ثمانية أشهر . وكتب بعض ولاة الأجناد إلى المأمون : إن الجند شغبوا ونهبوا . فكتب إليه : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا . وعزله عنهم ، وأدر عليهم أرزاقهم .

روى الجاحظ قال حدثنا أحمد بن أبي دواد قال : قال لي المأمون لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم ، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين ملوكهم وحجاتهم وكفاتهم وبين صنائعهم وبيطانتهم ، وذلك أنهم يرون ظاهر حرمهم وخدمهم واجتهادهم ونصحهم ، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهراً حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة في ماله أو رغبة في بعض ما لا تجود النفس به ، ولعل الحسد والملااة وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك ، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك ، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك المريب ، ولا يستطيع ترك عقابه لما في ذلك من الفساد على عمله بأن عذره غير مبسوط للعامة ولا معروف عند أكثر الخاصة .

ويتعذر تعداد أفضال المأمون على الأفراد ، وحرصه على اختيار رجاله وعنايته بأرائهم وتجاربيهم ، وغرامه بالعرف والإحسان . قال أحمد بن أبي خالد وزير المأمون ثمانية بن أشرس : كل واحد في هذه الدار ، أي في دار الخليفة ، له معنى غيرك ، فإنه لا معنى لك في دار أمير المؤمنين . فقال له المأمون :

إن له معنى في الدار ، والحاجة إليه بيّنة . قال : وما الذي يصلح له ؟ قال : أشاوره في مثلك هل تصلح لمن معك أو لا تصلح ؟ وثمامة هو من الجماعة الذين كانوا يغشون دار الخلافة<sup>(١)</sup> وهي دار العامة ، ومنهم محمد بن الجهم والقاسم بن سيار ، وكان هؤلاء الرجال أشبه بالمستشارين بل أشبه بدعاة الدولة ، وعنوان الخلافة . هذا إلى ما هناك من شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء يحتلفون في الأحايين إلى الخليفة فيشاركونهم في حديثهم ، وينافسونهم في صناعتهم ، ويفضل عليهم من هباته ، فيخرجون وألسنتهم تنطق بحمده ، وتدعو بدوام ملكه ، ويذكرون للعامة والخاصة ما هو عليه من بعد النظر في سياسة الملك . قال الجاحظ : كان إبراهيم بن السندی مولى أمير المؤمنين عالماً بالدولة شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم المعاني فخم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طير لكان ذلك قولاً ومذهباً .

أرانا قد خرجنا من وصف إدارة المأمون إلى وصف سيرته . ونحن إلى ذلك مسوقون على الرغم منا ، وأنى لنا أن نصدر حكماً صحيحاً على حكومة مطلقة قبل أن نتعرف أخلاق رأسها خليفة كان أو ملكاً أو أميراً . والرأس هو الكل في مثل هذه الدول ، إذا صلح صلح الجسد كله .

### الإدارة على عهد المعتصم وأخلافه :

إذا ذكر المعتصم فأول ما يتبادر إلى ذهن قارئ التاريخ الإسلامي أنه الخليفة الذي أشرك الترك في الخلافة العباسية وأبعد العرب عنها . اجتمع له من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية ، وأبانهم بالزى على سائر جنده ، واصطنع قوماً من اليمن وقيس ومضر وسماهم المغاربة ، وأعد رجال خراسان من الفراغنة والأشروسنية وغيرهم من الترك ، فكانت جيوش المعتصم كثيرة مستعدة للقتال عند أقل إشارة ، وكان السعد حليفه .

( ١ ) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ .

غزواته للروم . قيل إنه لما فتح<sup>(١)</sup> عمورية كانت عدة عساكره خمسمائة ألف فارس ، وعلى مقدمته خمسمائة من الخيول الباق ، وكانت الحاميات في الثغور أبدأ على أتم نظام ، وارتفاع الثغور الشامية<sup>(٢)</sup> نحو المائة ألف دينار<sup>(٣)</sup> تنفق في مصالحها من المراقب والحرس والفرائير والركاضة<sup>(٤)</sup> والموكلين بالدروب والمخاوض والحصون وغير ذلك من الأمور والأحوال ، وما يحتاج إلى شجنتها من الجنود والصعاليك<sup>(٥)</sup> . وتنفق الدولة على مغازى الصوائف والشوائى في البر والبحر في السنة على التقريب مائتي ألف دينار ، وعلى المبالغة ثلاثمائة ألف دينار . بيد أن المعتصم لم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة على الحرب . وربما كان للمعتصم بعض العذر في ثقته بالأتراك في جيشه وهم من القديم عرفوا بالحرب واشتهروا بالطاعة لقوادهم ؛ ولكن هذه الغلطة الإدارية كان وبأها بعد على الدولة لأن الأتراك تسللوا إلى الوزارات والقيادات واستأثروا بالولايات والعمالات ، فأصبح لهم بعد السلطان الحقيقي على البلاد ، وللعقلاء صيغة غير عملية من الحكم .

أراد المعتصم أن يتشبه بأخيه المأمون فسار على أحكامه ونظامه ، ومن أين له أن يشبه بعلمه وحلمه . فقد ذكر واصفوه أنه كان قليل البضاعة من الأدب ، وإذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل . وقالوا إنه كان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة من عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش . ولطالما قال لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه . وأعطى أهل الشاش ألفي ألف درهم لكبرى نهر لهم اندفن في صدر الإسلام .

( ١ ) التيسير والاعتبار الأسدي ( مخطوط ) .

( ٢ ) الثغور الشامية هي : طرسوس وأذنه والمصيصة والإسكندرونة وأرلاص وعين زربة والكنيسة السوداء والهارونية وبياس . ومن ثغور الجزيرة مرعش وأنطاكية وبغراس .

( ٣ ) الخراج لقدهام . ( ٤ ) الفرائير : الكشافة . الركاضة : البريديون .

( ٥ ) الصعاليك : الجنود غير المنظم .

لم يبتدع المعتصم ولا ابنه الواثق شيئاً جديداً في الإدارة لم يعرفه المأمون والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذى وضعه المنصور للدولة . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث تلك الروعة التى كانت لها في عهد الخلفاء الأول : وقل بعد المأمون الخلفاء النادرون بذكائهم وتجاربهم فأصبحت الخلافة بعد عظمائها بفتور ، وأعمالهم بقلة الرواء والاتساق . ومن أهم الدوعى إلى هذا الانحطاط فساد الإدارة واختلال أحوال القضاء ، وقد نشأ ذلك من شراهة نفوس العمال والوزراء وإضاعة الحقوق . ومن يصادر أو يموت عن عشرات أو مئات الألوف من الدنانير من هذه الطبقة كيف يصح لك أن تحكم عليه بالبراءة من مال السحت والرشا والسرقات : مساوئ ما فشئت في أمة إلا ضاع حق سلطانها وحق رعيته :

كانت أهم عقوبة تقع على الظالم من العمال مصادرة الخليفة أو وزيره أو عامله الأكبر ، وأصبح العمال في الدولة العباسية صورة عجيبة من استنزاف الأموال ، وهم موقنون بأن مصيرهم بما جمعه إلى المصادرة والقتل . وقل فيهم من كان يكتفى بما قرره له الخليفة أو العامل الأعظم من الجرايات والمشاهرات ، وقد تكون على حد الكفاية وأكثر من الكفاية بالنسبة لتلك العصر ، وما حدث فيها من وفرة الثروة وعوائد الترف والسرف . وللوزراء ومن يلونهم طرق إبليسية في السلب . والأرجح أن أهم موارد الوزراء والولاة كان من نهب جباية الدولة أو بيت مالها ، ومن الهدايا التى يضطرون صغار عمالهم إلى تقديمها في كل فرصة ، ومن رشا يتناولونها من يحاولون أن يستخدموا في أعمال الدولة ، إلى غير ذلك من وجوه انتهاب الأموال وإعنات الناس . وكانت هذه الطبقة من الوزراء والكبراء تصوم وتصلى وتتعب وتصدق وتغار على الإسلام والدولة ، ثم تجوز الاحتيال لأخذ الأموال لأن الأبهة تقتضى التوسع في الانفاق !

قال عامل لأحد من زاره من وزراء العباسيين في القسطنطينية فرأى جسراً يحتسب العمال عنه على السلطان ستين ألف دينار في كل سنة ، وهو لا يكلف

عشرة دنانير : إن جاريه ثلاثة آلاف في الشهر ولا يمكنه وهو عامل مصر أن يكون بغير كتاب ولا عمل ولا كراع ولا جمال ولا إعطاء ولا إفضال ؛ وله حرم وأولاد وأقارب وأهل يحتاج لهم إلى مؤونة ، ولا يخاف أن يرد عليه زوار بكتب من الرؤساء فتقضى المروعة أن يبرهم ويصلهم ، إلى غير ذلك مما يصانع به ، ومنها هدايا سنوية إلى الخليفة وأنجاله والسيدة والقهرمانة وكتابهم وأسبابهم ؛ وبهذا رأينا أن العامل كان مضطرا بحسب مصطلح ذلك الزمان إلى أن يسد العجز في موازنته الخاصة من طرق غير مشروعة ، وقل العف الجيد الطعمة . وكلما تقدم الزمن وزادت الخلافة العباسية عتقا بليت الأخلاق في الناس وتبعها تقلقل الإدارة ، لفسولة رأى القائمين بالدولة وتشعب أغراضهم .

ولقد كان الخلفاء على الأكثر يتخيرون للولايات والوزارات أكتب الناس وأعلمهم وللقضاء أقضاهم وأفتاهم . وحظوة الرجل عند قومه قد تكون من بواعث إسناد كبار الأعمال إليه خصوصاً الوزارات والولايات والقيادات . وأتى زمن المعتصم والوزير أعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم ، وأصبح أنصار الدولة والغير عليها يتأفون ممن لا يحسنون العربية ، وإن كان منطويا على صفات أخرى صالحة في تدبير الملك ؛ وذلك لكثرة من دخل في الأعمال من غير العرب . وكان معظم العمال يحاولون أن يجروا الرعية على المعاملات القديمة ، ويحملوهم على الرسوم السليمة . ولكن تطالب أنفس الولاة والعمال إلى العبث بحقوق الناس ، ليجنوا من ذلك ما تتلمظ له شفاههم من المغانم ، كان الباعث على استئراء الفساد في معظم طبقات المجتمع .

ثم أصبح بعض العظماء<sup>(١)</sup> ينفرون من الوزارة لأن خاتمة حياتهم التقتيل ، ولأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان في الغالب إلى المصادرة والاغتصاب ، ولقد عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت بتوالى الأيام ، المصدر الرئيسي لتحصيل المال ؛ فالعامل يصادر الرعية ، والوزير

(١) مصر المأمون لأحمد فريد رفاعى .

يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ، ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . حتى أنشأوا للمصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة ؛ فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالتجارة .

غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ثم نفاه . ثروة ضخمة لو فكر الفضل أن يخلع طاعة الخليفة وينشئ بها ملكاً له لما أعجزه ذلك . وغضب الواثق على كتاب الدواوين وسجنهم وأخذ منهم ألفي ألف دينار ، وفيهم بعض الوزراء ومن كانوا في منزلتهم : وقل أن كان الوزير ينجو من نكبة إذا طالت أيامه ، وأيقن الخليفة أنه اغتنى وعبث بأموال الدولة ، أو حنزت الحاجة أحد الخلفاء إلى المال فتفقده في خزائنه فلم يجده ، ولم يعهد لوزير أن وزر وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متسقين إلا محمد بن عبد الملك الزيات ، وانتهى أمره بحرقه في التنور ومصادرة أمواله . وكان من العلم والأدب في الذروة العليا . وكان سلفه في وزارة المعتصم أحمد بن عامر الذي وصفه ووصف نفسه بقوله : « خليفة أمي ووزير عامي » (١) .

قال الوزير ابن الفرات : تأملت ما صار إلى السلطان من مالى فوجدته عشرة آلاف ألف دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري فكان مثل ذلك . فكأنه لم يخسر شيئاً لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة ، وإذا صودر أحدهم على مال لم يكن في وسعه أدائه كله معجلاً أجلوه بالباقي وساعدوه على تحصيله وجمعه ، وتعددت أسباب المصادرة وجهاتها حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها . وكانت وزارة ابن الفرات ثلاث سنين وثمانية أشهر واثنى عشر يوماً (٢) - وولى الوزارة ثلاث مرات - وطولب بأمواله وذخائره فاجتمع منها مع ودائع كانت له سبعة آلاف ألف دينار ، فيما حكى عن الصولى ، وكان مشاهدًا ومشرفاً

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) دول الإسلام للذهبي .

على أنخبارهم . قال : وما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضيايع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات ؛ كان الواثق في حلمه وحسن خلقه يشبه عمه المأمون ؛ يحب العدل ويعطف على أهل بيته ويتفقد رعيته . حشم<sup>(١)</sup> الأمراء عن الظلم ، وكان يجلس لحساب الدواوين بنفسه ، وترك جباية أعشار سفن البحر ، وكان مالا عظيما . وقيل إنه سد باب اللهو والغناء أما هو فكان يسمع المغنيات ولا يتبذل ولا يسرف . واشتد على الناس كأبيه وعمه في مسألة خلق القرآن حتى قيل إنه أمر في سنة ٢٣١ هـ سنة الفداء بين المسلمين والروم أن يمتحن<sup>(٢)</sup> أسارى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة فودى به وأعطى ديناراً ، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم .

كان لولى العهد في الممالك الثلاث التي قسمها الواثق بين أولاده ، أو المملكة العباسية بأجمعها ، الصلاة والمعاون ، أى الشحنة والشرطة ، والقضاء والمظالم والخراج والضيايع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من حقوق أعمالها ، وما في عمل كل واحد منها من البريد والطراز وخزن بيوت الأموال ودور الضرب ، يستخلفون على القطر الكبير حرباً وخراجاً ، ويفوضون الأمور كلها للعامل يأذن إليه في الحل والعقد بغير استثمار ويخلعون عليه سواداً . أى أن القطر الواحد بل المصر الواحد يحكم برأى عامله وجماعة ممن يختارهم لمشورته ومعاونته فينظر في الأمور بحسب فهمه وما يوحيه إليه المحيط والعادة والعرف ، ويطبق الأحكام الشرعية على الكبير والصغير والملى والذمى ، وينصب العامل الأكبر في الولاية العمال من ذوى الرأى والتدبير والخبرة والعلم بالسياسة ، ويشاور الفقهاء وأرباب التجارب ، وينفق من المال ما تصلح به الولاية ، وما يوسع به على القراء والفقراء وذوى الحاجات ، وما تقتضيه من عطاء الجند وتقوية

(١) تاريخ الطبرى .

(٢) صلة تاريخ الطبرى لعريب .

الثغور وشحن المصالح ثم يبعث بالباقي من الأموال إلى الخليفة . وللخليفة الخطبة والسكة ، فإذا كان العامل يحسن عمله ، ويعرف مدى التبعة الملقاة عليه ، يستسيغ الخراج إن كان ذا قوة ، أو آنس من جانب الحضرة ضعفاً . ولا يرجع في العادة إلى استشارة العاصمة إلا في عويص المسائل التي يمكن تأجيلها ، وتكون من حقوق الخليفة داخلية في أمهات المسائل الكبرى في الدولة . وقد يجتهد ويرتكب غلطاً لفتصرفه العاصمة إن أحسسته أو توجهه في العقوبة ، كما فعل المنصور لما بلغه ضرب عامله على المدينة عاملها مالك بن أنس فشق ذلك على الخليفة وأهان عامله وصرفه . ولكن كانت كتف مالك قد زالت عن مكانها بالضرب المبرح . فالعامل في الحقيقة هو الملك الفعلي ، ولا يسع العاصمة إلا أن تقره على ما يقرر ويدبر في أكثر الحالات . وقد ظهرت مضار هذه الطريقة عندما كانت العاصمة تعجز عن ضبط كل شيء من أمور الولايات لضعف الخلافة ووناء القائم على سدتها . وإذا كان هناك قضاة وولاة وناظرون ومفتشون وكتاب وحساب فإن التنفيذ يختلف قوة وضعفاً بحسب كفاية العامل وسلطان الخليفة والوزير .

نخلع المتوكل على عبيد الله بن يحيى وأمر أن لا يعرض أحد من أصحاب الدواوين على الخليفة شيئاً ، وأن يدفعوا أعمالهم إلى وزيره ليعرضها ، وأجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم ، لما كان في نفسه من الأثرak واستبدادهم بالأمر . فكان عهده عهد جذب ودفع بين أصحاب الخلافة ومن رفعهم المعتصم على رقاب الناس من الترك ، وعلق المتوكل يداوى الأمراض البادية في جسم الدولة بإنفاق المال الذي جمعه المأمون والمعتصم والوائق على نحو ما فعل الأمين ؛ وهذا فرق ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والرشد من الأموال . فقال الناس إن أيام المتوكل كانت في حسناتها ونضارتها ورفاهية العيش فيها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء . نعم كان هذا الخليفة منفاقاً لا يحسن تدبير خرجته ، وله مع هذا عناية خاصة بديوان زمام النفقات . أنفق ما أنفق مما أدخره أجداده في بيوت

أمواله ، فكان هذا منه تدبيراً مؤقتاً غير ناجح ، وما استطاع أن يداوى ما تجلى من تسلط الأتراك على الدولة فى عامة أقطارها وأعمالها .

شدد على أهل الذمة لما أيقن أنهم كانوا يتطلعون إلى دولة الروم ويعملون ما يخالف مصلحة الدولة . وأمر بإجلاء النصارى عن حصص لأنهم كانوا يعينون الثوار من اليمانيين ، والثورة لا تكاد تنطفئ كل حين من حصص حتى سميت الكوفة الضغرى ؛ لكثرة قيام أهلها على العمال ، كما خصت تونس بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاة .

وجاء المنتصر يقاوم العلويين كأبيه المتوكل ويكتب إلى عامل مصر (٢٤٧) أن لا يقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من القسطنطين إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين العلوى وبين أحد خصومه قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة . ذلك لأن العلويين ما ناموا ساعة عن المطالبة بالملك ، فثقل هذا الأمر يضيق عليهم دائرة حركتهم ، وإن كان فى بعض ما يرمى إليه غير عادل .

### إدارة المعتز والمهتدى والمعتمد :

تولى المعتز الخلافة فأمر بإحضار جماعة ممن صفت أذهانهم ، وورف طباعهم ، ولطف ظنهم ، وصحت نجاحهم ، وجادت غرائزهم ، وكملت عقولهم بالمشورة ، وحاول أن يتخلص من الأتراك وكانوا تأصلوا فى جسم الدولة وروحها ، وكانوا كثروا وأى كثرة فى العاصمة والولايات ، وتمازرت أرزاقهم وأرزاق المغاربة والشاكرية فى سنة ٢٥٢ فكان مبلغ ما يحتاجون إليه فى السنة مائتى ألف ألف دينار ، وذلك خراج المملكة لسنتين ، فإذا تأخر عطاؤهم فهناك المؤامرات والمشائبات وخوف البدوات والزيارات والوثوب بالدولة .

وأُسندت إمارة مصر لأحمد بن طولون ( ٢٥٤ ) من الأتراك ، واستبد بجميع أعمال مصر لما وسد إليه أمر الأموال . وكان الأمير فى مصر من قبل

ليس له إلا الجند والشرطة وللعامل النظر في الأموال ، وكلاهما يراقب صاحبه ، وهما متساويان في المكانة وربما تقدم العامل على الأمير . والأقباط مذ كان الإسلام يتولون النظر في الأموال ؛ فتتظر إليهم الأمة نظرها إلى الصل والشعبان ، ويبراهم صاحب الأمر مختلسين . وكانت جمهرة جيش ابن طواون من الماليك والديالة يشتريهم كما يشتري الرقيق . وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وأربعين ألفاً من العبيد الزنج ومن العرب وغيرهم . أما ابنه خمارويه فقيل إن عدة جيشه بلغت أربعمائة ألف فارس . وحسنت حال مصر على عهد ابن طولون ودر خراجها واستفاض عمرانها على كثرة ماسفك من الدماء . ولما انقرض الطولونيون خلفتهم الدولة الإخشيدية<sup>(١)</sup> فسارت على خطتها في إدارة مصر ولكن ليس المقلد كالمقلد .

تولى المهتدي « والدنيا كلها مفتونة » فحاول ، لإعادة الخلافة إلى رونقها ، وأمر بإخراج الفتيان والمغنين والمغنيات من سامراً ونفاهم إلى بغداد ، وأمر بقتل السباع وطرد الكلاب وإبطال الملاهي ورد المظالم ، وجلس ليرفعها فرفعت إليه قصص ، في الكسور ، فسأل عنها فقال وزيره سليمان بن وهب شيئاً في تاريخ الخراج منذ عهد عمر إلى عهد المنصور فأجاب المهتدي : معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً تقدم العمل به ولو تأخر ، أسقطوه عن الناس . فقال أحدهم إن اسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أموال السلطان في السنة اثنا عشر

(١) كان يطلق هذا الإسم « الإخشيد » على ملوك فرغانة وهو لفظ فارسي معناه ملك الملوك كما يطلق على ملوك الفرس الساسانية لقب شاهنشاه « ملك الملوك » وكسرى ، وعلى ملك الروم باسيل وهو قيصر ، وعلى ملوك الاسكندرية بطليموس . واليمن تبع ، والترك الخزر والقرغز خاقان ، والترك الغزية حنوتة ، والصين بغبور ، والهند بلهرا ، وقنوج راني ، والحبيشة النجاشي ، والنوبة كابيل ، وجزائر البحر الشرق مهراج ، وجبال طبرستان اصفهيد ، ودقباوند مصمنان ، وغرجستان شار ، وسرخس زاذوية ، ونساو أبيورد بهمنة ، وكش نيدون ، وأشروسنة أفشين ، والشاش تدن ، ومرو ماهويه ، ونيسابور كنبار ، وسمرقند طرخون ، والمريز الحجاج ، ودهستان صول وجرجان أناهية ، والصقالبة قبار ، وملوك السريانيون نمرود ، والقبط فرعون ، وباميان شيرباميان ، ومصر العزيز ، وكابل كابل شاه ، والترمد ترمذ شاه ، وخوارزم شاه ، وشروان شروان شاه ، وبخارا بخارا خداه ، وكوزكان كوزكانان خداه — ذكر ذلك البيروني في الآثار الباقية .

ألف ألف درهم . فقال المهتدي على أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً وأن أجحف بيت المال .

وكان المهتدي آخر الخلفاء الذين كانوا يتولون بأنفسهم القضاء والمظالم ، وربما كانوا يجعلون القضاء والمظالم لقضياتهم كما فعل عمر مع قاضيه أبي إدريس الخولاني وكما فعل المأمون مع يحيى بن أكثم والمعتصم مع أحمد بن أبي داود ، وربما كانت تجعل قيادة الجيوش للقضاة ، وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم . وكان تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو ساطعان متغلب .

ولما هم الجند بقتل المهتدي خطبهم فقال : أما دين؟ أما حياء؟ كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء ، والأقدام والجرأة على الله ، سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ، ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بارطال الشراب فشربها سروراً بمكروهمكم ، وحباً بيواركم . ثم ذكر لهم أنه لم يصل إليه من دنياهم شيء وأنه ليس في منازل اخوته وولده فرش أو وصائف أو خدم أو جوار ولا لهم ضياع ولا غلات . وكان حقيقة مقلا من اللباس والفرش والمطعم ، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنائير ودراهم ، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيته (١) .

وجيء بالمعتمد فقسم المملكة بين ابنه وأخيه الموفق ، فغلب أخوه عليه وشغل هو بلداته ، وكثر دخول الزعانف في القبض على الأعمال والفتن منتشرة ، ومن أهمها فتنة صاحب الزنج ، والموفق يقود العساكر ، ويرابط ويرتب الوزراء والأمراء . وقيل أن المعتمد احتاج إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه  
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه

(١) مروج الذهب للمسعودي .

وطالت أيام المعتمد ولم يؤثر عنها ابداع جديد فى الإدارة والسياسة . وكان ديوان الموفق مائة ألف مرتزق . وكان المعتضد حسن الإدارة عمرت<sup>(١)</sup> مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور ، كان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد ، وكان ولى والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً فسكنت الفتن ، وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهدأ الهيج ، وسالمة كل مخالف ، ودانت له الأمور ، وانفتح له الشرق والغرب ، وأدبل له من أكثر المخالفين . وكان سريع<sup>(٢)</sup> النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور يتفرد بالأمور ، ويمضى تدبيره بغير توقف ، ولى الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكف من كان يتوثب ويتشغب من الموالى .

وأمر المعتضد بافتتاح الخراج فى النيروز المعتضدى وهو فى حزيران من شهور الروم ، وذلك للرفق بالناس ، وكتب إلى الأقطار برد الفاضل من سهام الموارث على ذوى الأرحام ، وإبطال ديوان الموارث ، وكان من قبل يلحق كثيراً من الناس إعانات فى موارثهم ، ويتناول على سبيل الظلم من أموالهم ، ويتقلد جبايتها أناس يجرون مجرى عمال الخراج ، شئ لم يكن فى خلافة من الجلائف إلى أن مضى صدر من خلافة المعتمد ، فجرى العمل بذلك على سبيل تأول ، فأزال المعتضد ذلك وأمر أن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله ورسوله وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته ، وأن يصرف جميع عمال الموارث فى النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد النظر فى أعمال الموارث إلى الحكام ، وكانوا يرتادون القضاة من أهل البلاد نفسها .

وللمعتضد مذهب جميل فى سياسة عماله ؛ بلغه أن عامله على فارس أظهر أبهة فى ولايته ، وأنفق ما وقعت له به هبة فى نفوس الرعية ، فسأل عن

( ١ ) تاريخ ابن الطقطقى .

( ٢ ) التنبية والإسراف للمسعودى .

رزقه فقيل له ألفان وخمسمائة دينار في الشهر ، فقال اجعلوها ثلاثة آلاف ليستعين بها على مروءته<sup>(١)</sup> . وكتب إليه في عامل عجز في ضمانة وهو مسجون بأنه كان في أيام ولايته يفرق عشرين كراحنطة في كل شهر على حاشيته والفقراء والمساكين من أهل معرفته ، وأنه فرق ذلك في هذا الشهر على عادته . فقال : سرتي قيامه بمروءته ومعروفه . وأعفاه من أداء مبلغ كان يطالب به ، وردّه إلى عمله وأحمد ما كان منه .

سارت الخلافة في طريق سوى على عهد المعتضد لسطوته ومهابته وعفته وإمساكه ، فكان مع حرصه على إبقاء سلطانه بخافه عماله ويكفون عن المظالم ، واستعمل بعضهم الشدة في حفظ الأمن . بلغ عامله بدمشق<sup>(٢)</sup> أن رجلا أعرابيا في أذرعات نتف خصلتين من شعر أحد فرسان الدولة ، فطلب الوالي معلما يعلم الصبيان وقال له : تخرج إلى اليرموك وأعطيك طيورا تكون معك فإذا دخلت القرية فقل لهم : إني معلم جئت أطلب المعاش وأعلم صبيانكم ، فإذا تمكنت من القرية فارصد لي الأعرابي الذي نتف سبال الفارس وخذ خبره واسمه ، فإذا رأيته قد وافى أرسل الطيور بخبره . ثم قبض على الإعرابي وقطع رأسه وصلبه وضرب الجندی مائة عصا وأسقط اسمه من الديوان ، لأنه استخذى للأعرابي حتى فعل بسبالة ما فعل .

كان من جميل سيرة المعتضد مع عماله وخوفه البطش بهم إذا جنوا ما يعاقبون عليه ، أنه إذا نكب رجلا من جلة العمال وروئسائهم وكل به من يحفظه من قبله وشدد الوصية في صيانتهم ، ويظهر أن هذا التوكيل للمطالبة وزيادتها والتشدد فيها لا ليحفظ نفسه ، لئلا يطمع العامل . وكان يقول : هؤلاء أكابر من العمال الذين قامت هيبتهم في نفوس الرعية وعرفوا أقطار البلاد ، وهم أركان الدولة وأعضاء الوزارة والمرشحون لها ، فإن لم تحفظ نفوسهم فسد الأمر . وهذه هي الغاية في الوقوف على نفسية العمال وحفظهم في أنفسهم . ومع هذه المسامحة واللين لم يرتفع السواد سواد العراق لأحد بعد عمر بن الخطاب بمثل ما ارتفع له أيام المعتضد<sup>(٣)</sup> . وجمع تسعة آلاف ألف دينار فاضلة عن

(١) نشوار المحاضرة للتوحي . (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٣) تاريخ الوزراء للصابي .

جميع النفقات وأراد أن يسبكها نقرة واحدة إذا أتمها عشرة آلاف ألف ويطرحها على باب العامة ليلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار وهو مستغن عنها » بعد النفقات الراتبية والحادثة ، وإطلاق الجارى للأولياء فى سائر النواحي وجميع المرتزقة بها وبالحضرة .

### الإدارة على عهد المكتفى والمقتدر وكلام فى الوزراء :

اكتفى المكتفى بنهج منهج والده المعتضد فى الإدارة ، وكان وزيره العباس بن الحسن يقول لنوابه بالأعمال : أنا أوقع لكم وأنتم افعلوا ما فيه المصلحة . وقد كان يأخذ الوزير سبعة آلاف دينار فى الشهر راتباً ، ومن الكبراء من فادوا بخمسة آلاف دينار ليصلوا إلى الوزارة . ومنهم من أعطوا المنجمين مائة ألف دينار ليحتالوا على الخليفة ويغيروا خاطره على أحد وزرائه ثم يتوصلون إلى منصب الوزارة . دليل ناصع أن الخلفاء انحطوا والوزراء كذلك .

بيد أن قواعد الدولة لم تتزلزل دفعة واحدة لأن المعتضد ثبت قواعدها ، ومن يجيء بعده مهما ارتكب من الأغلاط لا يقضى على عامة التراتيب الموضوعية للخلافة منذ سنين . وقد خلف المكتفى فى بيوت الأموال من العين ثمانية آلاف ألف دينار ، ومن الورق خمسة وعشرين ألف ألف دينار . وفى رواية أنه خلف مائة ألف ألف دينار عيناً وعقاراً وأوانى بمثلها .

واستخلف المقتدر طفلاً ، ووالدته وخالته وأم ولد المعتضد تدير الملك ، حتى أن هذه السيدة جلست بالرصافة للمظالم تنظر فى الكتب يوماً فى كل جمعة ، فأنكر الناس ذلك واستبشعوه وكثر عيهم عليه والطعن فيه . ولم يكن فى جلوسها أول يوم طائل . وفى اليوم الثانى أحضرت القاضى فحسن أمرها وخرجت التوقيعات عن سداد ، فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس إلى ما كانوا نافرين من قعودها ونظرها ، فالقندر فى سنيه الأولى خصوصاً كان يتدبر بآراء النساء والحاشية ، والسيدة وقهرماناتها ومن يجرى مجراهن من

نساء القصر ، يتحكمن في كل أمر ويتدخلن في العزل والنصب ، وأمروا صاحب الشرطة ببغداد أن يجلس في كل ربع من الأرباع فقيها يسمع من الناس ظلاماتهم ، ويعتنى بمسائلهم حتى لا يجرى على أحد ظلم . وأمروه ألا يكلف الناس ثمن الكاغد الذي تكتب فيه القصص وأن يقوم به ، وألا يأخذ الذين يشخصون مع الناس أكثر من دانقين في أجعالمهم .

ورد المقتدر رسوم الخلافة<sup>(١)</sup> إلى ما كانت عليه من التوسع في الطعام والشراب وإجراء الوظائف . وكان في داره أحد عشر ألف خادم مخصص من الروم والسودان . وزاد في أرزاق بني هاشم وأعاد الرسوم في تفريق الأضاحي على الفقراء والعمال وأصحاب الدواوين والقضاة والجلساء ، وأسرف في الأموال فحق من الذهب ثمانين ألف ألف دينار<sup>(٢)</sup> وفرق في خمس وعشرين سنة ما جمعه المنتصر والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكفي .

قليل إنه كان بين ابن زبر القاضي وبين علي بن عيسى الوزير عداوة وعجز ابن زبر عن رضاه فألقى رقعة في ورق المظالم ، وفيها أن رجلاً من خراسان رأى في ثلاث ليال متوالية العباس بن عبد المطلب في وسط دار السلام بيني داراً ، فكلمها فرغ من موضع تقدم رجل لهدمه . فقال له : يا عم رسول الله من هذا الذي بليت به ؟ فقال هذا علي بن عيسى كلما بنيت لولدي بناء هدمه . فقرئت الرقعة على المقتدر فقال : إن هذه الرويا صحيحة يصرف علي بن عيسى ويقبض عليه . فما جاء آخر النهار حتى وافى ابن زبر ومعه عهده بقضاء مصر ودمشق . فلإن صحت هذه القصة كان تصديق المقتدر حيلة القاضي من أغرب ما أثر من ضعف العقول .

وعلى بن عيسى هذا أكبر وزراء ذلك العهد ومن الأسر العريقة في خدمة الدولة منذ أيام المعتضد<sup>(٣)</sup> كان من الثقة والصيانة والصناعة على جانب ،

( ١ ) صلة تاريخ الطبري لعريب .

( ٢ ) لطائف المعارف للثعالبي .

( ٣ ) تجارب الأمم لابن مسكويه .

عامل المصادر من الوزراء والعمال بالرفق ، وكتب إلى كل واحد من العمال بما جرت العادة به من تشريف أمير المؤمنين إياه بالخلع ، ورد أمر الدواوين والمملكة إليه ، وأقرهم على مواضعهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد في العماره ، وكتب إليهم بإنصاف الرعية والعدل عليها ، ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها ، كما كان يطالب بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها . ونظر إلى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية وإقامة مروءات نفسه فيها ، وقصر في العماره واعتمد غيره . وعمر الثغور والبيمارستانات وأدر الأرزاق لمن ينظر فيها ، وأزاح علل المرضى والقوام ، وعمر المساجد الجامعة وكتب إلى جميع البلدان بذلك ، ووقع إلى العمال وكتب إليهم في أمر المظالم وأمر بأن يستوفي الخراج بغير محاباة للأقوياء ، ولا حيف على الضعفاء ، وساس الناس أحسن سياسة ، ورسم للعموم الرسوم الجميلة ، وأنصف الرعية وأزال السنن البخائرة ، ودبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصون حتى أسقط الزيادات في اقطاعات الجند والعمال وغيرهم ، لما رأى نفقات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تحوج إلى هدم بيوت الأموال وصرفها في نفقات يستغنى عنها .

وكان يجرى على خمسة وأربعين ألف انسان جرايات تكفيهم ، وخدم السلطان سبعين سنة لم يزل فيها نعمة عن أحد . قال الصولي : ولا أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبهه في زهده وعفته ؛ بلغه أن أسارى المسلمين في الروم ساء حالهم وأن الروم يحاولون تنصيرهم فغمه ذلك . ولما كان يعرف أن الخليفة لا يريد قتال الروم عمد إلى طرق سلمية فزاد بطريق أنطاكية وجاثليق القدس أن يكتب إلى الروم كتاباً يقبحان هذه المعاملة ويتوعدان ، فاضطرت دولة الروم أن تحسن معاملة المسلمين . وما عابوا على بن عيسى الوزير إلا أنه كان ينظر كثيراً في جزئيات الأمور فربما شغلته عن (١) الكايات .

(١) النخري لابن الطلق .

منع على ابن عيسى من إكراه التناء والمزارعين «على»<sup>(١)</sup> تضمين غلات ييادرهم بالخزر والتقدير ، وإلزامهم حق الأعشار في ضياعهم على الترييع ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبء ، قبل إدراك غلاتهم وثمارهم ، وإكراه وجوهمهم على ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرعة «مخففة» ولما غلب السجزية على فارس بجلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة فنفذ خراجهم على البقين وكل بذلك قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكملة تستوفى على زيادة تارة ونقصان ، وجاءه قوم من أجلاء فارس وقالوا نمنع غلاتنا وتعتاق في الكناديج<sup>(٢)</sup> حتى تهلك وتصير هكنا «وطرحوا من أكمامهم حنطة محرقة» ونطالب بتكملة ما وجب علينا فتدعوننا الضرورة إلى بيع نفوسنا وشعور نساتنا وأدائها حتى تطلق الغلة وهي على هذه الصورة «ثم رموا من أكمامهم تيناً يابساً وخوخاً مقنوداً ولوزاً وفستقاً وبندقاً وغبيراء وعناباً» وقالوا وهذا كله خراج لقوم آخرين والبلد فتح عنوة ، فلما تساوينا في العدل أو الجور . فأنهى على بن عيسى ذلك إلى المقتدر بالله ، وجمع القضاة والفقهاء ، ومشايخ الكتاب والعمال وجلة القواد في دار الوزارة وقد جعلها ديواناً ، وتناظر الفريقان من أرباب الشجر وأرباب التكملة فقال أرباب الشجر : هذه أملاك قد أنفقنا عليها أموالنا حتى أنبتت الغروس فيها ، وحصل لنا بعض الاستغلال منها ، ومتى ألزمت الخراج بطلت قيمتها . وقد كان المهدي أزال المطالبة ورسم الخراج عنها . وقال المطالبون بالتكملة ما شكوا به حالهم واستمرار الظلم عليهم بها . ورجع إلى الفقهاء في ذلك فأفتوا بوجوب الخراج وبطلان التكملة .

هذا تمثيل للإدارة على ذاك العهد وصورة من أعمال الوزراء . وبأمثال على بن عيسى وابن الفرات كانت القوة تدخل على ملك بني العباس إذا عراه الضعف ويجبرون نقص الخلفاء . ويمثل الوزير الخاقاني والوزير

(١) تاريخ الوزراء للصافي .

(٢) صلة تاريخ الطبري لعريب .

الخصيبي ترجع القهقري . فإن كان علي بن عيسى بعيد النظر في أمور الدولة جد عارف بما يصلحها ، عفأً عن أموال الرعية ، ساهراً على مصلحتهم الحقيقية ، فإن ابن الفرات كان نافذاً في عمل الخراج وتدبير البلاد وجباية المال وافتتاح الأطراف . وكلاهما من بلغاء الكتاب ومن العارفين بأدب الملك .

وكان للدولة رسوم في تخريج رجال الإدارة ومما ذكره أن بادوريا كان يتقلدها جلة العمال . قال ابن الفرات : سمعت أبا العباس أخى يقول من استقل ببادوريا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة . وذلك لأن معاملتها مختلفة وقصبتها الحضرة . والمعاملة فيها مع الوزراء والأمراء والقواد والكتاب والاشراف ووجوه الناس . فإذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه صحح للأمور الكبار .

شكى إلى ابن الفرات عامل قطر بل وإغفاله عمل البنذات<sup>(١)</sup> فوقع إليه : ينبغي أن تراعى العمل قبل الوقت للوقت وفي الوقت للوقت . وكان يقول : العامل في أول سنة أعمى ، وفي الثانية أعور ، وفي الثالثة بصير . وقال لمن سألته تضمينه الصدقات بفارس : « إنما يرغب في عقد الضمان على تاجر ملى ، أو عامل وفي ، أو تان غنى<sup>(٢)</sup> ، فأما أصحاب الحروب فعقد الضمان عليهم ، ومطالبتهم بالخروج من أموالها ، تستدعى منهم العصيان ونخلع طاعة السلطان » .

وقرأ كتاباً ورد من صاحب البريد بالموصل أن أبا أحمد الحسن قد قسط في الأعمال ، ومد يده إلى المال ، وزاد في إظهار المروءة ، وركب باللبود الطاهرية ، وبين يديه عدة حجاب وخلفه جماعة غلمان ، حتى إنه يسير بينهم في موكب ، وأنه وصل معه من البغال والجمال والزواريق التي تحمل أثقاله شيء كثير ، وهذا إنفاق وتوسع لا يقتضيه الرزق وإنما هو من الأصول . فرمى ابن الفرات بالكتاب وقال لكتابه : وقع عليه يجاب بأنه نفع الرجل

(١) الجسور . (٢) الملى الغنى وتان قاطن .

من حيث أراد الإضرار به ، لأنه إذا كان في مثل هذا الصقع عامل ذو وجهة وتجميل ومروءة ، صالح أن يتقلد للسلطان مصر وأجناد الشام متى أنكر من عملها حالا .

وكان ابن الفرات يكره السعيات ويقطع الطريق على من يتجرون بالوشايات ويتقربون بها إلى صاحب السلطان . فمن ذلك أنه كان إذا أتاه إنسان بشيء من هذا أهانه . وقد ينادى الآذن علناً إذا أراد الاستئذان على الوزير : أين فلان الذى قدم كذا فى السعاية . ولما جرت فتنة ابن المعتز واستظهر المقتدر<sup>(١)</sup> واستوز ابن الفرات أحضرت إليه رقاع جماعة أرباب الدولة ، تنطق بميلهم إلى ابن المعتز وانحرافهم عن المقتدر ، أشار عليه بعض الحاضرين بأن يفتحها ويطلعها فيعرف بها الصدوق الصديق . فهاذا كان من ابن الفرات ؟ والوزراء فى الغالب يتطلعون إلى عيوب الناس ويتخذون من مثل هذه الوثائق شكائهم لبعض من يريدون استتباعهم أو وسائل للنجاة ممن يخالفونهم . كان منه أن أمر بإحضار الكانون وفيه نار فلما أحضر جعل تلك الرقاع بمحضر من الناس ولم يقف على شيء منها . وقال للحاضرين : هذه رقاع أرباب الدولة فلو وقفنا عليها تغيرت نياتنا لهم ونياتهم لنا ، فإن عاقبناهم أهلكتنا رجال الدولة ، وكان فى ذلك أتم الوهن على المملكة ، وإن تركنا كنا قد تركناهم ونياتهم متغيرة وكذلك نياتنا فما ننتفع بهم . وهذا من حكمة الإدارة فى سياسة الممالك والإحاطة التامة بمعرفة الطبائع البشرية .

ولما تقلد الوزارة فى أول أمره أجرى كلا من حجابيه وكتابه وأصحابه على رسمهم ، وأقرهم على ما كانوا يتولونه من أمره لم يستبدل بهم ولا استزاد فيهم ، لا كتفائه بمن كان معه من غيرهم ، وكانت أخلاقه وهو وزير ، مثله وهو صاحب ديوان . وفى وزارته الثالثة صرف أصحاب الدواوين والعمال والمتنفعين وأصحاب البرد والخرايط وأكثر القضاة وبعض أصحاب معاون ، وقلد هذه الأعمال صحابه وذوى عناياته فصار الأول أعداء له وسعاة عليه .

( ١ ) الفخرى لابن الطغرى .

وقال الناس إنه قلد للعناية لا للكفاية ، حتى قال الخليفة أما كان في هؤلاء المتصرفين من يصلح للأقرار<sup>(١)</sup> على عمله . وهذه الطريقة مألوقة في الإدارات المستبدة يأتي الوزير فيقاد أصحابه وحملة عرشه الولايات والأعمال ، حتى إذا نكب ينكبون بنكبته ، فهم يتصرفون بتصرفه ويتعطاون بعطلته :

عزم ابن الفرات يوماً على الصبح وكان يوم الأحد ومن رسمه أن يجلس للمظالم فيه ، ثم انتبه أنه لا يجوز أن يتشاغل بالسرور ، ويصرف عن بابه قوماً كثيرين قد قصدوه من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مستصرخين متظلمين ، فهذا من أمير ، وهذا من عامل ، وهذا من قاض ، ويمضون مغمومين داعين عليه . فأجلس صاحب ديوان المظالم وشخصاً آخر من خاصته يستدعيان القصص ويوقعان منها ما يجوز توقيعهما فيه ، ويفردان ما لا بد من وقوفه عليه ويحضرانه ليوقع عليه ، وينصرف أرباب الظلامات مسرورين .

وعرض عليه في وزارته الثالثة وقد جلس للمظالم رجل عُمري رقعة تتضمن شكوى حاله ورقتها ، وان عليه ديناً قد ضاق ذرعه به ، وعلى ظهرها توقيع أحد الوزراء بأن يقضى دينه من مال الصدقات فقال : يا هذا إن مال الصدقات لأقوام بأعيانهم لا يتجاوزهم ، ولقد رأيت المهتدي بالله رحمة الله عليه وقد جلس للمظالم وأمر في مال الصدقات بما جرى هذا المجرى فقال له أهلها : ليس لك يا أمير المؤمنين ذلك ، فإن حملتنا على أمرك وإلا حاكمناك إلى قضاتك وفقهائك . فحاكمهم فخاصموه وإن شئت أنت حاكمتك . فقال له العمري : لا حاجة بي إلى المحاصمة قال : الآن نعم أواسيك وأقضى دينك وفعل ، وكان مبلغه خمسمائة دينار .

وكان من رسمه أن يغدو إليه الكتاب فيوافقهم على الأعمال ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته فيه ثم يروحون إليه بما

(١) تاريخ الوزراء الصابي .

يعلمونه من أعمالهم فيوافقهم عليها وعلى ما أخرجوه من الخروج وأمضوه من الأمور ، و يقيمون إلى بعض الليل . وإذا خف العمل وقد عرضت عليه في أثنائه الكتب بالنفقات والتسييبات والاطلاقات والسبانات ، نهض من مجلسه وانصرفت الجماعة بعد قيامه . وكان يقول : أصل العماره وزيادة الارتفاع حفظ البذور ولن يتم ذلك إلا بالعدل . ويقول : الضمان يذهب بالارتفاع كما يذهب الساكن بالعقار . ويقول أيضاً : سبيل العامل أن يؤدب على الزيادة في المساحة كما يؤدب على الاقتطاع منها . ووقع إلى بعض العمال وقد رفع إليه صاحب الخبر أنه صفيح واحد من التناء لتقاعده عن أداء الخراج « في الحبس للتناء مأدبة ، فلا تعامل بعدها أحداً بهذه المعاملة ، فأمكنه من الاقتصاص منك » وكان يستظهر في نفقات المصالح ويستكثر من إعداد الآلات على الأماكن التي تخاف الحوادث منها (١) .

الآن وقد رسمنا صورة وزيرين عبقرين بإدارتهما وسياستهما أصبح من الواجب أن نمر مرأ بسيرة وزيرين آخرين كانا بلاء على الدولة بجهلهما وقلة عنايتهم ، عنيتاً بهما الخاقاني والخصبي . فقد كان الخاقاني مدة وزارته متشغلاً بخدمة السلطان ومراعاة أعدائه ، لا يقرأ الكتب الواردة عليه ولا النافذة ، واعتمد على ابنه فقلده خلافته على الأعمال والتنفيذ للأمور ، فتشغل بالشراب وما كانت الكتب تقرأ إلا بعد فوات الأمر الذي وردت فيه ، وربما وردت الرسائل بالحمول ، وكتب فيها سفاتج بمال ، فتبقى أياماً في خزانة الأب وابنه لا تفض ولا يعرف حال ما فيها . « وبسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والاطلاقات والإقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق وإسقاط الرسوم فسخرت الوزارة ، واخلقت الهيبة ، وزادت الحال في اختلال الأعمال ووقوف الأموال ، وقصور المواد ، وتضاعف الاستحقاقات ، واشتداد المطالبات ، وشغب الجند شغباً بعد شغب ، وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب » . وكان هذا الوزير يقلد

(١) تاريخ الوزراء للصاحب . (٢) السبق مكيال أو شبه غريبة معلومة .

في أسبوع واحد الكورة الواحدة عدة من العمال ، وذلك لارتفاع أولاده وكتابه من العمال الذين يولونهم . ويتقرب مع هذه الأعمال الجائزة إلى قلوب الخاصة والعامة بأن يمنع خدم السلطان ووجوه القواد أن يترجموا رقاعهم بالتعبد ويتقرب إلى العامة بأن يصلى معهم في المساجد التي على الطرق ، فاتضعت الوزارة بأفعاله وذلّت .

ومثله كان الوزير الحصبى ، يواصل شرب النبيذ بالليل ، والنوم في النهار ، وإذا انتبه يكون مخموراً لا فضل فيه للعمل فيردّ إلى غيره فض الكتب الواردة من عمال الخراج والمعاون على قراءتها والتوقيع عليها وإخراجها إلى الدواوين ، وقراءة الكتب النافذة والإعلام عليها ، وكانت تعمل له جوامع خاصة مختصرة للمهم مما يرد وينفذ فيعرض عليه إذا انتبه ، فربما قرأه وربما لم يقرأه . وإذا كثرت الرسائل تقرأ عليه ، وإلى أن ينفذ الجواب تتمرد البثوق وتتسع الفتوق ، وتحتل الغلات الأعراب ، وتحدث الحوادث المفسدة لمعنى ذلك الكتاب . وكان أكثر هؤلاء الوزراء يضيعون الأموال ويخربون الملك ، ويولون بالعناية ، ويصانعون على الولايات بالرشوة . تولى المقتدر الخلافة نحو خمس وعشرين سنة فكان الوزراء يديرون الملك فإن كانوا من عيار على بن عيسى وابن الفرات جرت الأمور على سداد ، وإن كانوا من عيار الحصبى والحقانى كان البلاء ظلمات فوق ظلمات .

### الإدارة على عهد القاهرة والراضى ومن بعدهما :

أفضت الخلافة إلى القاهرة فأظهر في أول أمره من الجود والتشف والتصون وبعد الهمة والاقتصاد والقناعة ما هابه به الناس . أراد قطع ثوب يلبسه فحمل إليه من داره فقيل له لو أخذ لك ثوب من خزائن الكسوة فقال : لا تمسوا لهم شيئاً ، وعرضت عليه صنوف الألوان والحلواء والفواكه التي كانت توضع بين أيدي الخلفاء في كل يوم فاستكثرها وقال في الفاكهة بكم تبتاع هذه كل يوم فقيل له بثلاثين ديناراً فقال : تقتصر من ذلك على

دينار واحد ، ومن الطعام على اثني عشر لوناً ، وكان يصلح لغيره كل يوم ثلاثون لوناً من حلواء فاقنصر على الكافي له .

ونادى القاهر في بغداد بإبطال المغنيات والخمر والمخانيث وكسر آلات الطرب ، على أنه لم يكن يصبر على الشراب وسماع القينات ، وقضى على أن تباع المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم وضع من يشتري منهن كل حاذقة في صنعتها فاشترى منهن من أراد بأرخص الأثمان . قال ابن الأثير : « وكان القاهر مستهتراً بالغناء والسماع جعل ذلك طريقاً إلى تحصيل غرضه رخيصاً ، نعوذ بالله من هذه الأخلاق التي لا يرضاها عامة الناس » ، وقيل إن السبب في غضبه على إسحاق بن اسمعيل أنه كان أراد اشتراء جارية قبل الخلافة وكانت موصوفة بالجمال والغناء ، فزايدة إسحاق فيها واشتراها ، وأن نصر بن حمدان كان أراد شراء جارية أخرى قبل الخلافة فاشتراها نصر وما زال به بعد الخلافة حتى قتله . وبضروب من مثل هذه السخافة لا تدار خلافة .

كان القاهر يحب جمع المال وهو أهوج طائش لا يعرف كيف يسير ويقدم على سفك الدماء فيهاب رهبة منه لا رغبة فيه . أما خلفه الراضي فأحيا رميم الخلافة وختم الخلفاء في أمور عدة ؛ منها أنه آخر خليفة له شعر ؛ وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال ، وآخر خليفة خطب على منبر في يوم جمعة ، وآخر خليفة جالس المجلس والجلساء ووصل إليه الندماء ، وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه ومطابخه وشرابه ومجالسه وخدمه وحجابه وأموره جارية على ترتيب الخلافة الأولى ، وآخر خليفة سافر بزي الخلفاء القدماء ، وله فضائل كثيرة .

وفي أيام الراضي بطلت الوزارة من بغداد ، وبقي ابن رائق الناظر في الأمور جميعها وتقلب عمال الأطراف عليها ، ولم يبق للراضي غير بغداد وليس له فيها حكم وفي أيام المتقي عزت الوزارة وصغرت لضعف الدولة وصغر دائرة الخلافة . وكان الخليفة هو الذي يولى أرباب الوظائف من القضاء

وغيرهم وتكتب عنه العهود والتقايد لا يشاركه في ذلك سلطان . وكان قاضى القضاة ببغداد منذ عهد الرشيد يستخلف على قضاء الأمصار وهؤلاء يستخلفون نواباً عنهم في أقطارهم ، ثم صار القضاء يقلده صاحب المال والجاه منذ القرن الثالث فما بعده ، وربما توسط أهل البلد فكتبوا محضراً بطلب فلان وإسقاط فلان ، ويكون العامة مع واحد والخاصة مع آخر . والعامة إذا دخلوا في مسائل أعلى من عقولهم كان الفساد في الأعمال .

وكان من القضاة من يجمع الألوف وعشرات الألوف من الدنانير مدة قضائه وهذا إذا كان قاضى القضاة ، والقضاة يولون صغار القضاة في الأقاليم . وهناك ترى النفوس تشره إلى المال لا يردّها عن إتيان ذلك خوف الديان ولا خوف السلطان . أفسد الوزير ابن الفرات القضاة وفرق من جهة ثانية على طلاب الأدب ومن يكتب الحديث وعلى الشعراء مالا ، ولم يفعل ذلك غير مسلمة بن عبد الملك في دولة بنى أمية ، فقد قيل إنه أوصى بالثلث من ثلثه لطلاب الأدب ، وقال لإنهم محفوقون أو أهل صناعة محفوة . استتر ابن الفرات في دار أبي الأخوص البصرى فخرج فولى الوزارة فكافأه على جميله بأن قلده القضاء وكان ابن الأخوص بزازاً : واختفى الوزير عبد الله بن وهب ( ٣٨٨ ) عند ابن أبي العون التاجر وأراد أن يغنيه فأحضر التجار وسعر مائة ألف كر<sup>(١)</sup> من غلات السلطان بالسواد عليهم ، فأباحها ابن أبي عون بنقصان دينار مما قرر به السعر على التجار ، وباعه عليهم بسعر قرره معهم وأخرهم بالثمن إلى أن يتسلموا الغلال ، وكتب إلى النواحي بتقيضهم ذلك فحصل لابن أبي عون مائة ألف دينار . وجعله الوزير واسطة لقضاء مصالح الناس بالجمالة العالية حتى أثرى لإثراء عظيماً من مال السلطان ومال رعيته . أعمال جائرة على الراعى ومن يرعاهم يقوم بها مهرة « بتحلب<sup>(٢)</sup> النىء وقتل النفوس وإخراّب البلاد » .

ولقد كان الخليفة إذا مالت نفسه عن الوزير ، أو أريد أن يغضب عليه بإيعاز أحد النافذين في دولته من كبار قواد مملكته ، يسلمه إلى يد من يخافه

(١) نشوار الحضارة للتونجى . (٢) أدب الكتائب لابن قتيبة .

من الوزراء فيهلكه بالضرب والإهانة ، وربما يقتله ويقتل بعض خاصته ، أو يقر بما احتجن من أموال الدولة وأموال الناس . ويقبض على أسبابه وعلى عماله ، وينالهم بسبب من ولاهم كل ضيم في أنفسهم ، وإذا انفصلوا من الخدمة كانت قيمتهم قيمة اللصوص . ولما كانت الوزارة تنتقل بين أيدي بضعة أشخاص على الأغلب في كل دور ، كان كل معزول يؤمل الرجوع إلى دست الوزارة ، فإذا عاد فهناك الانتقام من كل إهانة وقعت عليه من الوزراء والعمال .

وما حدث شغب في الجيش فأدى إلى قتل عامل أو وزير أو خليفة إلا كان السبب فيه على الأغلب تأخر أرزاق الجند أشهراً ، ذلك لأن كل من كانت إليه الجباية يفكر في مصلحته قبل كل مصلحة على الأكثر ، وقلما يتعادل دخل الدولة مع خرجها ، والإسراف شامل قصر الخليفة فما دونه . لا تعد الدولة المال إلى حين الحاجة المبرمة على ما كان المنصور والرشيد . فقد كان الجند إذا شكوا التريث في تقاضى رواتبه يعطى أشهراً بل سنة مقدماً فتضمحل كل ثورة ، وينطفيء لهيب الفتنة . « كان الخلفاء المتقدمون يجمعون الأموال ليقمعوا بها أعداء الدين والخوارج وليحفظوا بها الإسلام والمسلمين » .

يعيد الخلفاء إلى الخدمة من الوزراء ، من كانوا غضبوا عليهم وسلبوهم ، وذلك في الأزمات التي لا يستطيعون حلها ، كما فعل مع علي بن عيسى ، وأبي الحسن ابن الفرات . ومن كتاب عن المقتدر في شأن ابن الفرات « ولما لم يجد أمير المؤمنين غنى عنه ، ولا للملك بدا منه ، وكان كتاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم ، مقرين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحابين إليه إذا اختلفوا ، واقفين عند غايته إذا استبقوا مدعين بأنه الحول القلب ، الخنك الحبيب ، العالم بدرة المال كيف تحلب ، ووجوهه كيف تطلب ، انتضاه من غمده ، فعاد ما عرف من حده ، فنفذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودبر الأمور كأن لم يخل بها » .

وهم الخلفاء في هذه الحقبة إذا كانوا على انتباه ، وبمنجاة من شهواتهم وشرابهم ، أن يخبزوا الأموال ويصادروا من طالت أيديهم إليها من عملهم ، يستأثرون بما جمعوا لأنفسهم ، أو لبيت مال الخاصة . حكى ابن مسكويه في معنى تبذير المقتدر للأموال ، والتنفير من هذه الطريقة نصيحة ساقها للملوك ومدبري أمر المملكة ، لئلا يغتروا بكثرة الأموال فيتركوا تسميرها ، ويعدلوا عن التعب به إلى الراحة اليسيرة ، لأن من كان هذا حاله يبتدر حينئذ ولا يلحق ، ويكون مثله مثل البثق الذي ينفجر بمقدار سعة الدرهم ثم يتسع فلا يضبط . وقد ذكر أن المقتدر أتلّف نيفاً وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في موضعه وأخرجه في وجوهه ، وهذا أكثر مما جمعه الرشيد وخلفه . ولم يكن في ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد فإنه خلف ثمانية وأربعين ألف ألف دينار . ولما تقلد المقتدر الخلافة كان في بيت مال الخاصة أربعة عشر ألف ألف دينار ، وأخذ من أموال ابن الفرات في مصادرتة ومصادرات كتابه وأسبابه أربعة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار ، ومن ابن الحصان الجوهري ألفي ألف دينار ، ومن العباس بن الحسن ألفي ألف وثمانمائة ألف ألف دينار ، ومن أموال حامد بن العباس ألفي ألف ومائتي ألف دينار ، ومن الحسين ومحمد المادرائين ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار ، ومن علي بن عيسى وابن الحواري وسائر الكتاب ووجوه العمال المصادرين ألفي ألف دينار ، ومن تركة الراسبي خمسمائة ألف دينار ، ومن تركة المسعى ثلاثمائة ألف دينار ، وما حصل من أموال أم موسى وأخيها وأختها وأسبابها ألفي ألف دينار . هذا عدا خراج الأقطار وغيره من الموارد الكثيرة . ولقد شغبوا على المقتدر وطلب الجند الزيادة وشتموه ونهبوا القصر الملقب بالثريا وصاحوا : أبطلت حجنا وأخذت أموالنا وجرأت العدو وتنام نوم الجارية ! فبذل لهم المال فسكنوا .

وفي ذلك الدور كان في بغداد أنواع من الدواوين منها ديوان المشرق وديوان المغرب ، وديوان الضياع الخاصة والمستحدثة ، وديوان الضياع

الفرائثية ، وديوان زمام الخراج والضبايع العامة ، ودان زمام النفقات والحزائن ، وديوان الدار وديوان البر - وهو أشبه بديوان الاحباس - وديوان الصدقات وديوان زمام الجيش وديوان الحرم وديوان الفص والحاتم وديوان الجهبذ وديوان زمام القواد . وديوان الخاصة وديوان الدار الأصغر تنشأ منه الكتب بالزيادات والنقل .

وأخذت الألقاب تكثر في الرسائل من كل صنف ، ووضع الوزير ابن الفرات الألقاب في مخاطبة الملوك والأمراء والوزراء والعمال في مكاتبتهم<sup>(١)</sup> وأنف الملوك ومن بعدهم من الوزراء من ذكرهم بسيدنا ، واستقلوا خطابهم بمولانا ، فعدل الناس بأولئك إلى الحضرة الشريفة والحضرة العالية والحضرة السامية ، وبالوزراء إلى مثل ذلك ثم كنوا عن الخلفاء بالموقف الأشرف المقدس وذكروه بالمقام الأطهر النبوي ، ونقلوا الملك إلى الأشرف والأعظم ، وقالوا في الدعاء : نوره الله ونصره الله إلى ما بعد ذلك من المغالاة والمبالغة . وانتهت هذه الحال إلى أن شاركهم فيها الأكابر من أصحاب الأظراف ووقفوا بالوزارة على الحضرة السامية ، ثم ألحقوا بها المظفرة والمنصورة مع النسبة إلى الألقاب كالوزيرية والعميدية والكمالية وما جرى هذا المجرى . ودخلهم في ذلك من يتلوهم من خلفائهم وأصحاب الجيوش وأمراء العرب والأكراد<sup>(٢)</sup>

( ١ ) تاريخ الوزراء للصابي .

( ٢ ) قال البيروني : وبنو العباس لما لقبوا بأعوانهم بالألقاب الكاذبة وسووا فيها بين الموالى والمعادى ، ونسبوا إلى الدولة بأسرهم ، ضاعت دولتهم ، فإنهم أفرطوا في ذلك حتى أصبح القائم يحضرتهم لا فرق بينه وبين غيرهم فشنوا له التلقيب ، ورغب في مثل ذلك غيرهم ، وكان الراغب ينتج حاجته بالبذل ، وتنزاع علية بالإدلاء ، فاحتجج ثانياً إلى الفرق بين هؤلاء وبين المختص بحضرتهم ، فطلبوا له التلقيب وألحقوا به الشاهان شاهية ، وبلغ الأمر غايته من التكليف والتثقيب ، حتى إن الذاكر لم يعمل ذكرهم قبل أن يبتدئ به ، والكاتب يفتي زماناً وأسطراً ، والمخاطب لم على خطر من فوت وقت الصلاة ، ثم ذكر أسماء الملقبين بالألقاب الصادرة عن حضرة الخلافة بين ولي الدولة وعميدها وناصرها وسعدها وسيفها وعمادها ومزها وركنها وعزها ومهدتها وسندها وظهيرها ومؤيدها وأعزازها وشمس المعالي وولي الدولة وعصيدها وتاج الملة ونذر الدولة وفلك الأمة ومصمصام الدولة وشمس الملة وشرف الدولة وركن الأمة ومجد الملة وكهف الأمة ويمين الدولة وأمين الملة وبهاء الدولة وضياء الملة وغياث الأمة وناصر الدولة وحسابها ومعينها وسنانها ونصيرها . قال وكذلك وزراء الخلافة لقد لقبوا بالأدواء كذبي إيميني -

كتب الإخشيد إلى عبده كافور الخادم في مصر : ومما يجب أن تقف عليه أطال الله بقاءك أني لقيت أمير المؤمنين بشاطئ الفرات فأكرمني وكناني

= وذى الرئاسين وذى الكفايتين وذى السيقين وذى الفلمين وأمثال ذلك . وتشبه بهم آل بويه لما كانت الدولة منتقلة إليهم ، وبالفوا فيه واستغرقهم الكذب ، فسموا وزراءهم بكافى الكفاة والكافى الأوحى وأوحى الكفاة . ولم ترغب السامانية ولادة خراسان في هذه الألقاب بل اكتفوا بالكنية . وكانوا يذكرون في حياتهم بالملك المؤيد الموفق والمنصور والمعظم والمنصور وبعد وفاتهم بالحميد والشهيد والسعيد والسديد والرضى وأمثال ذلك ، ولكنهم لقبوا قواد جيوشهم بناصر الدولة وعمادها وحسامها وعميدها وسيفها وسنانها ومعينها ونصيرها اقتداءً بأفعال الخلفاء وكذلك فعل بفراخان لما خرج في سنة اثنين وثمانين وثلثمائة من تلقب نفسه بشهاب الدولة ، وجاوز نفر منهم هذا الحد فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم . ٥١ .

وأول من لقب بالدين في الإسلام بهاء الدولة بن بويه ركن الدين وذلك في القرن الرابع وسرت هذه الألقاب إلى العامة والخاصة ولم تخل منها إلا الأندلس لأن دولهم بقيت على عربيتها وبقى الأمر كما قال القلقشندي على التلقب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر فافتتح التلقب بالإضافة إلى الدين ، وكان أول من لقب بالإضافة إليه أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه فصار لقبه بهاء الدولة وقظام الدين . ودرج على هذه الألقاب الترك كما يقول ابن الحاج في المدخل فإنهم لما تغلبوا على الخلافة سمو هذا شمس الدولة وهذا ناصر الدولة وهذا نجم الدولة إلى غير ذلك ، فتشوقت نفوس بعض العوام من ليس له علم بتلك الأسماء لما فيها من التعظيم والفخر ، فلم يجدوا سبيلا إليها لعدم دخولهم في الدولة ، فرجعوا إلى أمر الدين فكانوا أول ما حدثت عندهم هذه الأسماء إذا ولد لأحدهم مولود لا يقدر أن يكن به بفلان الدين إلا بأمر يخرج من السلطنة ، فكانوا يعظمون على ذلك الأموال حتى يسمى ولد أحدهم بفلان الدين ، فلما أن طال المدى وصار الأمر إلى الترك لم يبق لهم بالتسمية بالدولة معنى إذ أنها قد حصلت لهم فانتقلوا إلى الدين ثم فشا الأمر وزاد حتى رجعوا يسمون أولادهم بغير ما يعطونه على ذلك ، ثم انتقل إليه بعض من لا علم عنده ، ثم صار الأمر متعارفاً متعاضداً حتى أنس به العلماء فتواطأوا عليه انتهى .

وجاء في رسالة معرفة الحل والكنى والأسماء والألقاب : اعلم أن الكنى المشروعة في الإسلام أن يكنى الرجل بولده أو ولد غيره وكذلك المرأة تكنى بولدها أو ولد غيرها . والكنية ما فيها لفظ أب كإبي زيد أو أم كأم كلثوم . والأدب أن لا يكنى نفسه في كتاب أو غيره إلا إن كانت أشهر من الإسم أو لا يعرف إلا بها . وقال الزنجشیری لم تكن الكنى لشيء من الأمم إلا للعرب خاصة وهى من مفاخرها والكنية إعظام وما كان يؤهل لها إلا ذو شرف من قومه والذى دعاهم إلى التكنية الاجلال عن التصريح بالاسم بالكنية عنه ، ثم ترقوا عن الكنى إلى الألقاب . وأما اللقب فهو غير خاص بالعرب ، واللقب ما أشعر بمدح أو ذم والعمدة فيه الاستعمال ، ثم إن كان اللقب يتأذى به صاحبه كالأعرج والأعمش ونحو ذلك حرم النداء به للايذاء وإن كان لا يعرف إلا به جاز ولا بأس باللقب الحسن إلا ما توسع فيه الناس حتى سموا السفلة بفلان الدين وقد وضعوا لمن اسمه محمد جميع الألقاب فإن كان من المتعمدين لقب بشمس =

وقال : كيف أنت يا أبا بكر أعزك الله ؟ فرح بأن كناه والخليفة لا يكنى أحدا . وكان المعتضد، يكنى في الخلوات طبيبه وفي المأوى يسميه . وهكذا أصبح الكبير يدهن للصغير والصغير يتقرب من قلب الكبير بالألقاب (١) ، وصار الصغير يكتب في الكتب عبد فلان وخادمه وصارت عادة تكتب بها إلى جميع الوزراء ولقبوا عمالهم أو المتغلبين على بعض أصقاعهم بملك الملوك وذلك بفتوى من العلماء ، وأجازها بعضهم وأنكرها آخرون ، ولقبوا أحد وزرائهم بسيد الوزراء وصدر الشرق والغرب ، وأمر المستكن أن تضرب ألقاب بني بويه على الدراهم والدنانير .

### الإدارة في العهد العباسي الأخير :

بعد أن آضت الخلافة إلى ما آضت إليه من الضعف ، وصار الخليفة تابعا للملك أو المتغلب ، لم يبق شيء يقال له إدارة لأن الخليفة لا يحكم حتى على بيته ، بل أصبحت الإدارة إدارة ملوك الأطراف والشأن في السلطان شأنهم ، لا تكاد تسمع للخلفاء أسماء . ذكروا أنه لما ولي المستضيء شملت رحمته من كان في السجن حتى لم يبق فيه أحد إلا أفرج عنه ، ومن وجد

= الدين ويدر الدين ونور الدين وشرف الدين ونحو ذلك وإن كان من الجند فهناك الدين وما أشبه ذلك فقد يقع في الجند من يلقب بشمس الدين ونحوه لكن ما ذكر هو الألقاب ووضعوا لمن اسمه أحد من المتعممين شهاب الدين وسمى الدين وشارك في ذلك الجند أيضا ووضعوا لمن اسمه أبو بكر من المتعممين عز الدين وهو أحسن ما يلقب به وشاع فيه سراج الدين ويلقب بفتح الدين ونحوه ومن الجند زين الدين وعز الدين ووضعوا لمن اسمه هيثم من المتعممين فخر الدين ونور الدين وهو أحسن ما لقب به ومن الجند فخر الدين أيضا ووضعوا لمن اسمه علي من المتعممين علاء الدين وعلاء الدين ومن الجند سيف الدين وهو أحسن ما لقب به وشاع فيه نور الدين علي ووضعوا لمن اسمه عبد الله شمس الدين وعفيف الدين وشارك الجند في ذلك أيضا ووضعوا لمن اسمه يوسف أمين الدين وصالح الدين وأحسن ما يكنى به أبو الحسن وشاع فيه جمال الدين ووضعوا لمن اسمه إبراهيم برهان الدين ووضعوا لداود علم الدين وموفق الدين وسليمان علم الدين وموسى وهيسى شرف الدين وحسن بدر الدين وحسام الدين وحسين وجعلهم كريم الدين وإسماعيل عماد الدين وغيليل فرس الدين وحزة عز الدين وزكريا محيى الدين ونبيه الدين وإسحاق محمد الدين ويعقوب تاج الدين وقاسم شرف الدين .

( ١ ) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

له بجزائته شيئاً عليه اسمه أعاده إليه ، وكل من كان في ولاية أعاده إليها ، ومن وجد من ملكه شيئاً تحت الاعتراض أفرج عنه وأعاده إليه<sup>(١)</sup> .

وجاء الناصر فلأ القلوب هيبة وفتح البلاد البعيدة وكان ردىء السيرة في الرعية مائلاً إلى الظلم والعسف ، ففارق أهل البلاد بلادهم وأخذ أموالهم ، وكان يفعل أفعالا متضادة وكان يتشيع ويميل إلى مذهب الإمامية بخلاف آبائه وطالت خلافته (٤٧) سنة وكان منصرف الهمة إلى رمى البندق والطيور المناسيب ولبس سراويلات الفتوة ، والفتوة أشبه بجمعية فوضوية ، فكان الفتيان يغتالون كل من يخالفهم حتى أفتى الفقهاء بعد ذلك العصر بتحريم الفتوة ، وأنكروا نسبتها إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب . ومن قواعد الفتوة أنه متى قتل الفتى فتى من حزبه سقطت فتوته وعوقب ، وإن قتل غير فتى عوناً من الأعوان أو متعلقاً بديوان في بلد الناصر سقطت فتوته بهذا السبب أيضاً . وكتب الناصر منشوراً وسلمه إلى كل واحد من رؤوس الأحزاب وألزم الناس لإجراء الأمر على ما تضمنه .

ولم يكن<sup>(٢)</sup> للناصر وزير وإنما له خديم يعرف بنائب الوزراء ، ويحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور ، وله قيم على جميع الديار العباسية ، وأمين على الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه ، وعلى جميع من تضمنه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار ، هذا لقبه ويدعى له لإثر الدعاء للخليفة ، قال ابن جبير : ورونق هذا الملك إنما هو على الفتيان والأحايش المجاييب منهم فتى اسمه خالص وهو قائد العسكرية كلها ، أبصرناه خارجاً أحد الأيام وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد من الأتراك والديلم وسواهم وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة في أيدي رجال

(١) معجم الأدباء لياقوت .

(٢) رحلة ابن جبير .

قد احتفظوا به ، وشاهدنا من أمره عجباً في الدهر . قال : إن جميع العباسيين معتقلون اعتقالاتاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم .

وجاء الظاهر بعد أبيه الناصر يحسن إلى الرعية كل الإحسان ويحيي سنة العمرين ويبطل عادة مظالم وبسطة المكوس والضرائب ، ومن ذلك أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي يتعامل بها الناس ، وكانت زيادة الصنجة في كل دينار حبة فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » : وعمل صنجة الخزن قبل صنجة المسلمين وكانت العادة في زمن أبيه أن يكتب الحراس بأخبار الناس فلما أتمته مطالعتهم قال : أى غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقليل له أن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال : نحن ندعو الله أن يصلحهم . ولما توفى وجد في بيت داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقليل له ليفتحها فقال : لا حاجة لنا بها فإن فيها كان كلها سعايات . وجاء بعد الظاهر ولده الأكبر المستنصر صاحب المدرسة المستنصرية والآثار الجلية في العمران وقالوا : إن أيامه كانت طيبة والدنيا في زمانه ساكنة والخيرات في داره والأعمال عامرة . ثم خلفه المستعصم وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم وهو الذي قتله التتر فانقرضت به الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦

### إدارة دول الشرق والغرب

لما وافى عبد الرحمن الداخل الأندلس ألفاها « ثغرا قاصيا غفلا من خلية الملك<sup>(١)</sup> » فأرهم أهلها « بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية » : بدأ فدون الدواوين وفرض الأعطيات ، وجند الأجناد ، وعقد الألوية ،

( ١ ) نفح الطيب للمعري .

وأصل أوضاع الدولة ، وأقام للملك آله ، على النحو الذى رآه فى دار آبائه فى الشام ، « وأخذ يقعد للعامة ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة » . وعظمت دولة الأندلس فكبرت الهمم ، ورتبت الأحوال والقواعد ، وظهرت الهيبة ، وكان من شأن الأمويين مراعاة الشرع فى كل الأمور ، وتعظيم العلماء والعمل بأقوالهم ، واحضارهم فى مجالسهم .

كانت الوزارة بالأندلس مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المسمى بالوزير فيسميه الحاجب . وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالماتوارة فى البيوت المعلومة بذلك ، ثم صار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الازارتين أى وزارة السيف والقلم وأكثر ما يكون فاضلاً فى علم الأدب ، . ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة .

ويقولون ابن خلدون : إن دولة بنى أمية بالأندلس نفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، ولترسل وزيراً ، ولتنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً ، ولتنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً ، وأفردوا للتردد بينهم وبين الخليفة واحداً منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ، فارتفع مجلسه من مجلسهم ، وخصوه باسم الحاجب ، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها ، ثم كان من دولة الموحدين اتباع دولة الأمويين فقلدوها فى مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان فى مجلسه . وأرجعوا الدواوين عندهم إلى صنفين من الكتاب : كاتب الرسائل وكاتب الزمام ، أى كاتب الجبهة أو كاتب الأشغال الخراجية ، وتراقب السلطة العليا ما يصدر من أعمالهم .

ونفيدنا تصفح تراجم رجال الأندلس ، وتاريخ الرجال تاريخ السياسة ، أن القائمين بالحكم من الوزراء والقواد والعطاء والعمال في هذه الديار كانوا أقرب إلى التعفف عن أموال الناس من رجال العباسيين وكثير من الدول التي قامت في المشرق . وكانت دولة الأندلس إذا تأثلت حال الكاتب فيها نكب وصور ، لأن هذه الزيادة التي حصلت له « إما أن يكون قد أخذها بحق أو ظلم » ، فإن كان أخذها بحق كان متبرعاً بها لا يستحق لها زيادة على المسمى في جاريه ، وإن كان ظلماً وجب ردها على من ظلم بها ، وكان عدواناً من العامل يؤخذ بجريته » .

سار الأمويون في بدء أمرهم في الأندلس بسيرة بعض خلفائهم ، وقضوا أن لا يكون كاتب الزمام في مملكتهم نصرانياً ولا يهودياً . ثم دخل النصارى بعد حين في أعمال الدولة يتولون حتى العظام منها ، وبنو أمية في إدارتهم بعيدون عن الحمود ، يسرون بما يستلزمه الزمان والمكان ، وتهمهم المصالح والمنافع ولا يتحرجون من الأخذ بجديد ، لما خصوا به من عمائق الفطن ، وقرائح العقول ، وجملة الأمر أن الأمويين ما كانوا بالمبخلين ولا بالمسرفين ، ولا بالضعاف الضعيف الذي تضيع معه الحقوق وتفسد الأمور ، ولا بالأشداء الشدة المفرطة التي تبغضهم إلى من يعملون معهم من الناس من وزراء وأصحاب ولايات .

جعلوا القضاء في الأندلس أعظم الخطط المتعلقة بأمر الدين ، ويكون القاضي في المدينة الحليفة ، ومسدد الخاصة في المدن الصغيرة ، ويقال لقاضي القضاة قاضي الجماعة ، وعمال الإدارة غير القضاة . ويتحتم أن يكونوا كلهم عارفين بالشرع ، وأصول الحكومة وتراثيها . وكانت خطة الاحتساب أو الحسبة أشبه بخطة القضاء ، وهي تتناول أمور المدن والبياعات والعمائر وكل ما يضر لإهماله بالمجتمع ، وما ينفع أتباعه فيه . والحسبة أشبه بأعمال المجالس البلدية والشرطة والصحة بمصطلح هذه الأيام . وكان لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تدارس أحكام الفقه : وخطة

القضاء وسيطة بين خطة القضاء<sup>(١)</sup> والمظالم ، تجمع بين نظر شرعى وزجر سلطانى ، وكان خلفاء الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم مصلحتها ، ويتولى النظر فى الحسبة فقيه فى الدين ، قائم مع الحق ، نزيه النفس ، على الهمة ، معلوم العدالة ، ذو أناة وحلم ، وتيقظ وفهم ، عارف بجزئيات الأمور ، وسياسات الجمهور ، لا يستفزه طمع ، ولا تلحقه هودة ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، مع مهابة تمنع من الإدلال عليه ، وترهب الجانى لديه .

وقد يكون لخطة صاحب الشرطة النظر فى الجرائم وإقامة الحدود . وإذا كان صاحبها عظيم القدر عند السلطان يكون له القتل لمن وجب عليه ، دون استئذان السلطان ، ولكنه يحذر على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه . ويعرف صاحب الشرطة عندهم بصاحب المدينة أو صاحب الليل . وهناك خطة أخرى أشبه بخطة الشرطة وهى الطواف بالليل . ويقال لأربابها أصحاب أرباع فى المشرق ، ويعرفون فى الأندلس بالدرابين .

هذا إجمال أوضاع الأندلس ومصطلحها ، والأيدى التى كانت تديرها وتنفذها صالحة فى الحملة ، لصالح ملوكهم ومعرفتهم الواسعة بمن يصلح لكل عمل . فقد كان هشام بن عبد الرحمن متحرراً للعدل يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق بالصدقات الكثيرة . « ويبعث بقوم من ثقاته إلى الكور يسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه ، وأنصف منه ولم يستعمله بعد » . ورأينا الاعتداءات والمصادرات تقل فى الأندلس مدة ملك بنى أمية فيها ، لأن التضامن كان على أتمه بين الملك وحاجبه أى وزيره ، يختاره من أشرف الطبقات العربية ، وهذا يختار العمال الصالحين والكتاب والحاسبين . وللقضاة لإجلال دونه كل إجلال ، وقل أن جاء من أصحاب القضاء الساقط فى مروءته ، الجائر فى أحكامه ، المصانع على قضائه . وكان من ملوكهم كالحكم من

( ١ ) آداب الحسبة للسقطى الماتق .

يباشر الأمور بنفسه أو يسترشد بآراء الفقهاء والعلماء كمن سلف من أجداده . وله عيون يطالعونه بأحوال الناس وقد شبهوه بالمنصور العباسي . والحكم أول من جند الأجناد ، واتخذ العدة والسلاح . واستكثر من الممالك فصار له منهم خمسة آلاف . وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة ألسنتهم ، وقد جعلوا أفواجاً على باب قصره وجعلهم في المرتزة واستكثر من الخشم والحواشي وارتبط الخيول على بابيه .

والحكم هو الذي ضرب سكان الرض رض قرطبة لما تأمروا عليه ضربة قاضية ، وأجلى منهم ستين ألفاً هاموا على وجوههم في شمال إفريقية ومصر ثم في جزيرة إقريطش<sup>(١)</sup> . وعبد الرحمن الثالث هو الذي أصبحت الأندلس في أيامه أكثر بلاد العالم تمديناً<sup>(٢)</sup> وضع على الأسبان جالبة<sup>(٣)</sup> يؤدونها وكان فيما شرط<sup>(٤)</sup> عليهم اثني عشر ألف صانع يصنعون له في مدينة الزهراء وكان له اثنا عشر ألف من الخدم بمناطق الذهب والسيوف المحلاة يركبون لركوبه وينزلون لنزوله . وكان يقسم الجباية أثلاثاً . ثلث للجند وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وقيل إنه خاف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ( ثلاث مرات متكررة<sup>(٥)</sup> ) وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى ترى على ستة آلاف ألف أما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان .

( ١ ) تم فتح جزيرة إقريطش « كريت » على أيدي العرب في القرن الثاني وكانوا بدأوا بفتحها على عهد معاوية بن أبي سفيان وآخر من قوطا من جلوا من الأندلس على عهد الحكم ابن هشام الأموي عقب وقعة الرض ( ١٩٨ هـ ) وكانوا نزلوا الإسكندرية فأجلاهم منها عبد الله ابن طاهر العباسي على مال أداه إليهم ، ونقلهم إلى جزيرة إقريطش فعذبوها وملكوا عليها رجلاً منهم ، وغزوا ما حوطا من جزائر القسطنطينية وما زال صاحب الروم يمكر بهم حتى كانت سنة خمسين وثلثمائة فملكها من المسلمين ثم حمل بعضهم إلى القسطنطينية وأدخلهم في النصرانية بالقوة ، ولما عادوا إلى الجزيرة منعوا من الدخول إلى بيوتهم ، قيل أنتم نصارى وهؤلاء مسلمون فإن دخلوا في دين الملك اجتمعتم وإن أبوا ملكناهم ، فنصر الباقون في يوم واحد ثم مات الآباء وبقي الأولاد على أشد ما يكون في دين النصرانية والبنفس في المسلمين . في نهاية الأمر قاله النويري .

( ٢ ) معلمة الإسلام . عبد الرحمن الثالث .

( ٣ ) الجالعة الجوالى ما يؤخذ من أهل اللفة من الجزية المقررة على رعايهم كل سنة .

( ٤ ) أخبار ملوك الأندلس للنويري .

( ٥ ) مقدمة ابن خلدون .

وتعددت الدواوين في الأندلس منذ أواسط عهد الأمويين فيها ومن حملتها ديوان الشعراء لكثرة غرامهم بالأدب والشعر واستحسانهم له . ولما ضعف الوازع السياسى فى الأمويين ضعفت إدارتهم بضعف القائمين بها وظل لتراثيهم شىء من النظام اقتدى به واتخذة إماماً كل من دولة المرابطين ثم الموحسدين ثم دولة بنى نصر من بنى الأحمر وكذلك ملوك الطوائف الذين تقاسموا تلك الدولة فى أدوارها . واستقل كل متغلب أو أمير أو قاض بولاية أو ولايتين بسط عليهما سلطانه :

يقول ابن خلدون : إن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب والأندلس لم يرفى بلد من بلاده على طول أيامه رسم مكس ولا خراج ، لا فى حاضرة ولا فى بادية إلا ما أمر الله به وأوجه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم . وقد جى فى ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبه أحد قبله : وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون الأحكام الشرعية . وذكر المؤرخون أنه طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعونة بشىء من المال على ما هو فى صدره من الجهاد فامتنعوا ، وأباحها له بعض الفقهاء والقضاة ، وأفتوه أن عمر بن الخطاب كان أضاق بفرض مالا فى زمانه وأجابه أهل الرأى إن عمر ما اقتضاها حتى دخل مسجد الرسول وحضر من كان معه الصحابة ، وحلف أنه ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم ، فإذا فعل ابن تاشفين وحلف أنه ليس فى بيت مال المسلمين درهم وجبت معونته .

ووقف على بن يوسف بن تاشفين أيضاً مع الشريعة ، وآثر أهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمراً ، ولا يبت فى حكومته فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فعظم

أمر الفقهاء في الأندلس ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم<sup>(١)</sup> . ومنذ عهد الأمويين في القرن الثالث كان في الأندلس مجلس شورى الفقهاء يعرضون عليه ما حزبهم من الأمور الشرعية وأشكل عليهم من الأحكام ، فينظر فيها نظراً بليغاً . وهذا المجلس لم يعهد له نظير في دولة بني العباس ولا في غيرها .

ولما استولى جمهور بن محمد على الدولة العامية جعل<sup>(٢)</sup> ما يرفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم يأخذون ربيحها خاصة ، ورؤوس الأموال باقية ، يأخذون ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها ، وفرق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه في الدكاكين والبيوت حتى إذا دهم أمر ليلاً أو نهاراً ، كان سلاح كل واحد معه ، وكانت أيامه في قرطبة على أحسن نظام وأكمل اتساق . وطريقة ابن جمهور هذه من الإبداع في الإسراع بتعبئة الجيش ، هي أيضاً من إبداع الأندلس وما تفردت به من الأوضاع .

واختلفت طرق الاتفاق على الجند في الأندلس فجرت أولاً « على إقطاع »<sup>(٣)</sup> الأرض للأجناد فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين فعمرت البلاد وتوفرت الأموال وتوافرت الأجناد والكراع والسلاح « ولما رد ابن عامر عطايا الجند مشاهرة وقدم على الأرض جباة يجبونها أكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم واستضعفهم ، فتهارب الفلاحون وضعفوا عن العارة ، فقلت الجبايات وضعف الأجناد . ولما فتح المثلثون<sup>(٤)</sup> الأندلس ردوا الاقطاعات كما كانت :

( ١ ) المعجب للمراكشي . ( ٢ ) إخبار ملوك الأندلس للنويري .

( ٣ ) سراج الملوك للطرموشي .

( ٤ ) يقال للمرابطين المثلثون قيل لأنهم كانوا يتلثمون على عادة العرب فلما ملكوا ضيقوا لناسهم ليشمروا به وقيل إن قبيلة لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم وألبسوا نساءهم ليس الرجال ولثمواهم ، فقصده بعض أعدائهم بيوتهم فرأوا النساء ملثمت فظنوهن رجالاً فلم يقدرُوا عليهن ، واتفق وصول رجالهم في ذلك التاريخ فأوقعوا بهم فتهربوا بالثام وجعلوه سنة من ذلك التاريخ فقبل لهم المثلثون ( أهر الفداء ) .

واقبست الغرب الأقصى أوضاع حكومتها على الغالب من جارتها الأندلس ، وإذ استولت دولة المغرب في عهد المرابطين وعهد الموحدين على البلاد الأندلسية ، تشابهت الإدارة في المملكتين إلى حد غير قليل . قال ابن خلدون : لما جاءت دولة الموحدين لم تتمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخرا ، فلم يكن عندهم من الرتب إلا رتبة الوزير فكانوا أولا يخلصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره ، وله مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية ، ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين ، وكان أهل المغرب يسمون صاحب ديوان الانشاء صاحب « القلم الأعلى » . وذكر المراكشي<sup>(١)</sup> أن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل متحريراً له ، بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها ، كان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الأول ، فن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس ، وكان يقعد للناس عامة لا يحجبه أحد من صغير أو كبير . يقعد في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا يتفدّها غيره ولما ولي ابن بقي كان فيها اشتراطه عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا . فكان يقعد في موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح ، وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم . وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عنه عمالهم وقضاةهم وولاتهم فإذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن أحد منكم إلا حقاً وربما تلا في بعض المجالس : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

وفي أيامه أمر أن يتميز اليهود في المغرب بلباس يخلصون به دون غيرهم لشكه في إسلامهم ، وكان يقول لو صح عندى إسلامهم لتركتم يخلطون بالمسلمين

(١) المعجب للمراكشي .

في أنكحهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، ولم تنعقد ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ، ولا عمرت في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة ، واليهود يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن . وكان ذلك في الربع الأول من القرن السابع .

كسر<sup>(١)</sup> عبد المؤمن سنة ٥٥٥ بلاد إفريقية والمغرب من برقة من جهة الشرق إلى السوس الأقصى في المغرب بأنواع الفراسخ والأميال طولا وعرضاً ثم أسقط من التكسير الثلث في الجبال والغياض والأنهار والسياب والجزون والطرق : وما بقى قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب . وكان حسابان العطاء والخراج مجموعاً لواحد في دولة بنى مرين وصاحب هذه الرتبة هو الذى يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير ، ونخطه معتبر في صحة الحسابان في الخراج والعطاء .

وكان للأشياخ الكبار من الجند على عهد بنى مرين في مراكش الاقطاعات الجارية عليهم لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب ، يأخذها من قبائل وقرى وضياع وقلاع ، ويحصل له من القمح والشعير والحبوب من تلك البلاد نحو عشرين ألف وسق ولكل واحد من الإقطاع والإحسان في رأس كل سنة حصان بسرجه ولجامه ، وسيف ورمح محليان ، وبقعة قماش وجوخ ، وربما زيد الأكابر على ذلك . وللأشياخ الصغار من الإقطاع والإحسان نصف ما للأشياخ الكبار ، ويكون لكل واحد من المقربين إلى السلطان من أشياخ الجند ستون مثقالاً من الذهب في كل شهر . ومن دون ذلك يكون له في الشهر ثلاثون مثقالاً ، ثم ما دونها إلى أن يتناهى إلى أقل الطبقات وهى ستة مثاقيل في كل شهر ، وليس لأحد منهم بلد

( ١ ) الاستقصا للسلوى .

ولا مزدرع . ولقاضي القضاة كل يوم مثقال من الذهب ، وله أراض يسيرة يزرع بها ما تجيء بمؤونته وعليق دوابه ، ولكاتب السر في كل يوم مثقالان من الذهب ، وله قربتان يحصل له منهما محصول جيد مع رسوم كثيرة له على البلاد منافع وإرفاقات<sup>(١)</sup> . وجرت العادة أن يركب السلطان بعد العصر في عسكره ويخرج إلى مكان فسيح ، فيقف على نشز من الأرض وتطارده الخيل قدامه ، وتتطاعن الفرسان وتتداعى الأقران ، وتمثل الحرب لديه وتقام صنوفها ، على سبيل التمرين ، حتى كأنها يوم حرب حقيقيه . وقيل إن عسكره ١٤٠ ألفاً وقيل ٤٠ ألف فارس غير حفظة المدن والسواحل . ويمكنه إذا استجاش لحرب أن يخرج في جموع كثيرة لا تكاد تنحصر .

وأكثر ما كانت الإدارة منتظمة في إفريقية أى تونس على عهد الأغلبة ثم العبيدين ثم ملوك صنهاجة ثم ملوك الحفصيين . وكان إبراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه واستكثر من طبقاتهم ، واستغنى عن استعمال الرعية في شئ من أموره . وقلد العبيديون في إفريقية والقيروان الدولتين<sup>(٢)</sup> قبلهم في الخطط الوزارية وغيرها . وكانت الرياسة في دولة بني أبي حفص أولاً والتقديم لوزير الرأى والمشورة وكان ينخص باسم شيخ الموحدين ، وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب ، واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط . وكانت دولة الحفصيين<sup>(٣)</sup> على أسلوب العرب ، وعدتهم الرماح والسيوف والنبال ، ولم تكن المكاحل أى المدافع ظهرت في مبتدأ أمرهم وإنما ظهرت في مؤخر أيامهم أيام الفونس الأحول صاحب قشتالة ، وكانت عساكرهم تدعى بالموحدين سباهم بذلك محمد بن تومرت لأنه وضع لهم توحيداً بلسان البربر ، زعم أنه ذو كرامة التوحيد ، وكان لهذه الدولة

(١) صح الأعشى للفلقشندى . (٢) مقدمة ابن خلدون .

(٣) المؤنس لابن أبي دينار .

عز (١) . وسلطان واتساع ملك ، إلا أن الغالب عليها سوء الإدارة لتغلب الفكر البربري على رجالها ، فلم يكن في القائمين بها الاستعداد الكافي للإبداع ، لبعدها عن الصبغة العربية والحضارة الشرقية ، وكان ملوكها يُجِلُّون العلماء ويحافظون على الشرع . وكان بتونس أربعة من القضاة قاضى الجماعة وقاضى الأنكحة وقاضى المعاملات وقاضى الأهلة ، وقاضى الجماعة عبارة عن قاضى القضاة بالمشرق ، وكان بنو أبي حفص يجعلون يوم الخميس لاجتماع القاضى والعلماء فى مجالسهم ، وتنفيذ بين أيديهم الأحكام الشرعية ، وتلقى عليهم المسائل المعضلة ، تتصرف بين يدى السلطان فلا يقع بين يديه من الأحكام إلا ما هو مشهور . وكانت لإدارة إفريقية منذ الفتح بأيدي ولاية ينصبهم الخلفاء والولاة يشرفون على أمهات الدواوين ، وهم ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . ولكل واحد منها فروع يقوم بها كتاب ومحاسبون ، ولما ولي الأغلب بن إبراهيم أحسن إلى الجند وأجرى الأرزاق الواسعة على عماله فقبض أبايدهم عن الناس :

وبينا كان بعض الصنهاجيين يحرصون على تكثير سواد المسلمين أسوة بسائر الدول الإسلامية ، حتى أن الحسن بن على الصنهاجى (٢) لما فتح تونس « عرض الإسلام على من بها من الكفار فن أسلم سلم وإلا قتل » - كان بعض الملتزمين مثل إدريس بن يعقوب أول من أدخل النصراني إلى مراكش واستنصر بهم ، ودخل معهم إثنا عشر ألف نصراني ( ٦٣٠ هـ ) على نحو ما فعل محمد بن سعد المعروف بابن مرذنيش المتغلب على الأندلس قبل نحو قرن بأن جعل جيشه من الإفرنج (٣) اتخذهم أجناداً له وأنصاراً ، وذلك حين أحس اختلاف القواد عليه وتنكر أكثر الرعية له ، فقتل بعض قواده وأقطع الأجناد والقواد الجدد ما كان أولئك القواد يملكونه ، وأخرج كثيراً

(١) تاريخ تونس لعبد الوهاب . (٢) الخلاصة التقيية للباغى .

(٣) المعجب للمراكشى .

من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والإفرنج إن كان أمراء تونس ومراكش يجندون في جيوشهم أبناء الإفرنج ويأذنون لهم بإقامة شعائر دينهم علناً في الثكن التي ينزلونها ، وعقدت معاهدات تضمن للفرنج دماءهم وأموالهم وتبيح لهم أن يتحاكوا عند قناصلهم وأن يقيموا شعائر دينهم جهراً ، وكان ملوك الإسلام هم الذين يعطونهم عرصات الأرض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر ، وهذا كان في القرن الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ( قاله بونيه موري ) . وحدث أن رمضان باي أمير تونس ( ١١٠٨ ) بنى لأمه الإيطالية النصرانية كنيسة في تونس (١) الخضراء لما هلكت فأحدث الأمير المسلم أول معهد ديني نصراني في تلك الديار .

قلنا إن الرياسة في دولة بني أبي حفص كانت أولاً والتقديم لوزير الرأي والمشورة ، وكان يخص باسم شيخ الموحدين ، وقد اختص القلم عندهم أيضاً بمن يجيد الترسل ويؤمن على الأسرار . وللسلطان قهرمان خاص بداره وفي أحوال يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وخص باسم الحاجب . وكان السلطان في إفريقية إذا جلس للمظالم جلس حوله ثلاثة للرأي والمشورة وجلس معهم وزير الجند إن كان كبيراً وإن لم يكن كبيراً وقف بإزاء أولئك الثلاثة جاس دونهم عشرة من أكابر أشياخه . وقد يكون هؤلاء الثلاثة من العشرة المذكورين بعد هؤلاء وهم خمسون نفرأ فإذا أمر السلطان بأمر بلغه وزير الجند لآخر واقف وراءه وبلغه الآخر إلى أن يسمع الأمر السلطاني من خارج الباب بنقل أناس عن أناس وتقف جماعة تسمى بالوقافين بأيديهم السيوف حوله وهم دون الخمسين المذكورين في الرتبة .

هذا ما نقله ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار على عهد دولة الحفصيين وذكر أن الجند هم من الموحدين والأندلسيين ومن قبائل العرب

(١) شهيوات النساء لعبد الوهاب .

وقليل فمن هرب وأقام عندهم من مصر . والفرنجة هم خاصة السلطان يقال لهم العلوج لا يطمئن إلا إليهم . ثم ذكر أرزاقهم وطبقاتهم والإحسانات عليهم والمرتبات والرتب وإحصاء الجيوش ، وكان لهذا السلطان ثلاثة وزراء : وزير الجند وهو بمثابة الحاجب بمصر ، ووزير المال وهو صاحب الأشغال . ووزير الفصل وهو كاتب السر . ومهما تجدّد عند كل واحد منهم أمر يطالبه بالمكاتبه فيما يتعلق بشغله المنوط به ويجاوبهم بما يراه . قال ابن سعيد والذي يتولى إبلاغ قصص الظلامات إلى هذا السلطان يسمى صاحب الرقاعات يأخذ براءات المتظلمين أى قصصهم ويعرضها ويخرج بجوابها .

منذ بدأت الخلافة العباسية بالضعف أصبح التاريخ على الحملة تاريخ ملوك الأطراف أو ملوك الطوائف أو الأمراء الخاضعين أو المشاكسين ، ويستمد كل ملك أو أمير قواعده في إدارة الملك من حاجته ومحيطه وينسج في ظواهرها على ما أخذه عن بغداد ، وقلما يتعدى في الجباية الحد المقرر في الشريعة ولا يختلف الخروج عنها إلا بقدر قوة السلطان وحاجته وطمعه .

كان ديوان الإنشاء بمصر على مثال ديوان الإنشاء في بغداد<sup>(١)</sup> ، أحدثه أحمد بن طولون لما تولى أمر مصر وعظم ملكها . ولم يكن لمصر ديوان إنشاء من قبله فاتخذ المنشئين وتوالت دواوين الإنشاء بذلك وكان ابن طولون يقعد للمظالم كما يقعد الخلفاء ، وفي كتابة وجدت على البردى ظهر أن الطولونيين فتشوا مصر تفتيشاً عاماً من سنة ٢٥٨ إلى سنة ٢٦١ ، وفي عهد الطولونيين عومل النصارى واليهود معاملة حسنة . واستخدم كثير من الموظفين من أبناء مصر ، وبالق بنو طولون في عمارة مصر فاستفادوا مالا ووفروا الرزق للمصريين ، وكانت عدة<sup>(٢)</sup> العساكر المصرية في أيام أحمد بن طولون اثني عشر ألف مملوك وسبعة آلاف حر مرتزق وأربعين ألف أسود . وكانت عادة الديوان بمصر في أيام بنى أمية وبنى العباس أربعين ألف فارس .

(١) معلمة الإسلام . الطولونيون .

(٢) التيسير والاعتبار الأسدي .

كان عمل الطولونيين صالحاً من كل وجه خلافاً لبني بويه بالشرق في القرن التالي مثلاً . فقد خبط معز الدولة بن بويه في المشرق الناس ، واستخرج الأموال من غير وجوهها<sup>(١)</sup> ، فأقطع قواده وخواصه وأتراكه الضياع فصار إليهم أكثر سواد العراق ؛ وزالت أيدي العمال عنه ، وبطلت الدواوين وبطلت أزمته ؛ وجمعت الأعمال كلها في ديوان واحد فنقص الارتفاع وبطلت العمارة ، وسامح الوزراء المقطعين وقبلوا منهم الرشا وأخذوا المصانع في بعض وقبلوا الشفاعات في آخر ؛ فحصلت لهم الإقطاعات بغير متفاوته ؛ وأتت الجوائح على التناء<sup>(٢)</sup> ورقت أحوالهم ؛ فن بن هارب جال ، وبين صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ، فبطلت العمارات ، وأغلقت الدواوين ، وامسح أثر الكتابة والعمالة ، ومات من كان يحسنها ؛ ونشأ قوم لا يعرفونها ، ثم تضاعفت النفقات فزادت على الدخل .

وما خلا مع هذا عصر من علماء ينكرون على الملوك ظلمهم الرعية ، والظالم لا يردّه على الأكثر وعظ واعظ ولا نصيح ناصح ، وقلما يلين إلا إذا ألائته قوة كأن يخشى ثورة تنشب ، أو عدواً من بلاده يقرب . لما خرج الظاهر بيبرس البندقداري رأس دولة المماليك إلى قتال التتر بالشام ، أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ؛ فكتب له فقهاء الشام بذلك ، فقال : هل بقي أحد . فقيل نعم الشيخ محيي الدين النووي ، فطلبه فحضر ، فقال : أكتب خطك مع الفقهاء فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك ؛ فقال : أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ؛ ثم من الله عليك وجعلك ملكاً ، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية

(١) تجارب الأمم لمسكويه .

(٢) التناء : جمع تأنى وهو القاطن والساكن من تأنى بالبلد تنوؤاً إذا قطنه .

لكل تجارية حُق من الحلى : فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت الممالك بالبندود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بشياهن دون الحلى ، أفتيك بأخذ المال من الرعية ، فغضب الظاهر من كلامه وقال : أخرج من بلدى ، يعنى دمشق . وأنكر فخر الدين بن عساكر على الملك المعظم تضمين المكوس والحمور فعاقبه بأن انتزع منه المدرسة التقوية والصلاحية بدمشق ، وأنكر العلماء على العزيز ابن صلاح الدين إعادة المكوس التى كان أبطلها أبوه وزيادته فى شناعتها ، ومجاهرته بالمعاصى والمنكرات وإباحة أرباب الأمر والنهى الخمر والحشيش وإقامة الضرائب عليها حتى اضطربت الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق ، والعزيز هذا منع فى دمشق استخدام أهل الذمة فى شىء من الخدم السلطانية ، وألزموا لبس الغيار<sup>(١)</sup> : وأين إدارة العزيز من إدارة صلاح الدين بتسامحها ومتانتها فقد ذكر المؤرخون أنه لما عقد الصلح بين الإفرنج والمسلمين دخل خلق عظيم من الإفرنج إلى القدس للزيارة فأكرمهم السلطان وقدم لهم الأطعمة وباسطهم .

وبعد فلم يكن يحول بين الملوك وما يشتهون من الاسترسال فى طلب المال من الناس إلا خشية فتاوى أمثال النووى وابن عساكر ممن يعتقد الشعب صدقهم وصحة يقينهم ويسير إذا دعاه الداعى على رغائبهم . وإذا كان الممتنع عن مماشة السلطان أو الملك يقصد بما يقول الآخرة أو وجه الله تقف موعظته عند حد الوعظ لا تتعدى الأقوال ، وإذا كان ممن يهتم بالأمر السياسية ويعرف كيف يصيب الغرض ويبلغ الخبز يثير على السلطان وأصحاب السلطان غارة شعواء ، ربما كان فيها زوال أمره وجرأة خصومه عليه ، ولا يخلو من من حزب مخالف يرى فى السياسة المتبعة بعض الخيف أو الخروج عن مقاصد الشرع ؛ وزعماء هؤلاء المخالفين إما أن يقاوموا السلطان ويجاهروه بالعداء وينقدوه لاتأخذهم رهبة ولا رغبة ، وإما أن يثيروا من يهوى هواهم يحملونهم

(١) الغيار كالزناز هو لبس الذميين فى الأتروك الوسطى .

على النقد أو الطعن في سياسة الملك ، ومنهم من يستعمل الشعراء في الدعوة إلى ما يتطاولون إليه من تنبيه الأفكار ، يضعون أبياتاً أو أغاني يتناشدها الناس والنساء والأولاد ، وفيها صراحة أو شبه صراحة بما يجري في البلاد من الظلم ، ومنهم من يكتب إلى السلطان رقاعاً يبسطون له فيها سوء الحال ويحذرونه قبح المآل عليه وعلى دولته . والسلطان أو الأمير يقابل هذه القوة بمثلها فيستكثر من رجال الدين يتخذهم بوق دعاية له ، ويحتال بكل حيلة لتحقيق الآمال واستتباع الرجال ، فإما أن يغدق المال على من يحاذر مخالفتهم فيعمى أبصارهم وبضائهم ، أو أن يطمعهم في منصب ما كانوا يحلمون بتوليته يشتري به سكوتهم ، أو أن يصانعهم على ما يوافق هواهم فيكون متديناً مع المتدينين ، حرّاً مع الأحرار يبسم لهذا ويحترم هذا ويرفع مقامه فيشايعه ويرتضيه ، ويحمل من وراءه من قومه على مشايعته بدون أعمال فكر ولا نظر ، ومن الملوك من كانوا يعمدون في الوصول إلى مآربهم إلى الطرق المشروعة ولا يطلبون من أمتهم غير المطالب المعقولة التي يقرها جمهور العقلاء .

لما ضاق المسلمون بوطأة الصليبيين عليهم في دمياط كتب الملك المعظم إلى سبط ابن الجوزي الواعظ المشهور : أريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما يجري على إخوانهم أهل دمياط ، ولإني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفى قرية منها ألف وستائة أملاك لأهلها وأربعائة سلطانية ، وأريد أن تخرج الدماشقة ليدبوا عن أملاكهم ، الأصاغر منهم والأكابر ، فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تخلفوا فأخذ الثمن والخمس من أموالهم لتقاعسهم ، فما اعترض معترض ولا نقد ناقد عاقل ، لأن مطاب السلطان كان ظاهر الفائدة ، خالياً من الشوائب ، يقصد من حمل الناس على الحرب غيرته على البلاد وأهلها ، ويعرف قومه أنه بعيد عن الإسراف في أموال الرعية لا يجبي مالا وفي قصره ألوف وألوف من الجواهر والحلى والذهب على نحو ما فعل الظاهر بيبرس وشق عليه مجاهرة النووى له بالحق . على أن عمل الظاهر

في أخذ فتاوى العلماء دليل على أنه لا يخرج عن الشرع ويحاول تطبيق أعماله عليه . لايسير سير المستبدين ولو بمراعاة الظواهر قال ابن إياس إن الظاهر كان سخياً على الرعية باسط اليد . يفرق الغنائم التي تحصل من فتوحاته على الرعية حتى يرغبهم في القتال وقت الحرب ، وكان محباً لآل كثير المصادرات للرعية لأجل الغزوات والتجارية . وينفق ذلك على العسكر . ولما وردت الأخبار في سنة سبعمائة بعودة التتر إلى الشام . صدر أمر سلطان مصر من المماليك باستخراج ثلث أموال غالب الأغنياء بمصر والشام لاستخدام المقاتلة وبرز إلى محاربتهم بنفسه فكان في ذلك النصر . ودفع عادية الأعداء عن البلاد .

كان الإخشيد أول من عمل الرواتب في مصر وعمل له تقدير يحز فيه المرتب عن الارتفاع ، فأريد على أن يحيط من الجرايات والأرزاق ، فرأى أصحاب الرواتب الضعفاء وفيهم المستورون وأبناء النعم فأخذ هذا العجز من كتابه . أما الخلفاء فاقتنعوا في عصور الضعف أن تضخن الولايات من ديوانهم بمال يحمل إليهم وكانوا يضيقون فتنفجر الثورات وأكثر ما يثور الجند لانقطاع أرزاقهم ورواتبهم ، وكان الدافع إلى كثير من الثورات الأهلية ظلم العمال وجوع النساء والأطفال ، والناس في مثل هذه الأحوال يلبون دعوة من يتقدم أمامهم ليتبعوه ، والوزراء والكبراء ينهبون الرعايا من جهة ويطعمونهم من جهة أخرى .

كان الوزير ابن الفرات من أكبر رجال السياسة والإدارة في العباسيين يسلب ما يسلب بطرق له يعرفها ، ومنها أخذ مئآت الألوف من الدنانير من ديوان الخاصة أي أموال الخليفة يدبر لاقتنائها طريفاً ملتوية ، ومع هذا يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم ، وبنى داره بثلاثمائة وخمسين ألف دينار ، وكان المحسن ابنه وخليفته على عماله وهو على ديوان المصادرات ، من الجور والعيث ، ما جمع به في آخر وزارة أبيه الثالثة بضعة ملايين دينار ، وكان راتب الوزير في هذا العهد خمسة آلاف دينار في الشهر .

ولولا الأقاليم وأمرائها وملوكها طريقة في أخذ الأموال فيها غرائب فإن سيف الدولة بن حمدان صاحب الموصل وميافارقين وحلب أراد أن يستصفي غوطة دمشق لنفسه ، وكانت لألوف من الناس ، فخاف أهل دمشق على غوطتهم وكتبوا إلى كافور الإخشيدي صاحب مصر فجاء واستولى على دمشق وأعمالها . وكان سيف الدولة هذا يجوز أخذ ما في أيدي الناس ويجوز ولا يبالى . وأفحش قاضيه أبو الحصين<sup>(١)</sup> في الظلم ، فكان إذا مات إنسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال : « كل من هلك فللسيف الدولة ما ترك » وصادر له تجاراً في بالس (مسكنة) على ألف ألف دينار ، وأشد ظلم سيف الدولة وظلم آل بيته على بنى حبيب وهم بنو عم بنى حمدان ، وكانت منازلهم في نصيبين تضمن منذ أول الإسلام بمائة ألف دينار حتى اضطروا أن يهاجروا إلى الروم وكانوا اثني<sup>(٢)</sup> عشر ألف فارس فتنصروا بأجمعهم وعادوا إلى بلاد الإسلام ، بعد أن قويت نفوسهم بملك الروم يغزون ويفسدون .

كان سيف الدولة يأتي هذا الظلم ويفضل من جهة على الشعراء فضلاً قلما يسمع بمثله . وقد ضرب دناتير للصلاة في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه صورته ورسمه . وأعطى أبا فراس الحمداني لما ارتجل له أبياتاً ضيعة بمنجى تغل ألف دينار . ووصل المتنبي<sup>(٣)</sup> بخمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنين ، وكان سيف الدولة لا يملك نفسه ، كان يأتيه علوى من بعض جبال خراسان كل سنة فيعطيه رسماً له جارياً على التأييد ، فأتاه وهو في بعض الثغور فقال للخازن : أطلق له ما في الخزانة فبلغ أربعين ألف دينار ، فشاطره الخازن وقبض عشرين ألف دينار ، لإشفاقاً من خلل يقع في عسكره وهو في الحرب .

وكانت حضرة سيف الدولة في مملكته الصغيرة أعظم من حضرة بنى العباس . يتبارى الشعراء في مدحه وهو لا يستحي أن ينكب قرية أو قرى

(١) القديم والحديث للمؤلف .

(٢) المسالك والممالك لابن حوقل .

(٣) خزنة الأدب للبغدادى .

ليجيز شاعراً ، ويخرب إقليماً أو يبطل تجارة جسيمة ليعمر قصرًا وتم له رفاهيته وبذخه . وقد خرب الرقة والرافقة من ديار مضر بما حملهما من الكلف والنائب ، وبمصادرة أهلها<sup>(١)</sup> مرة بعد أخرى . وكان إذا أكل الطعام يحضر على مائدته أربعة وعشرين طبيباً ، وينشئ من النصور ما يعجز عنه الخوالم من بني العباس . قال الأزدي<sup>(٢)</sup> : إن سيف الدولة كان معجباً برأيه ، محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بآرائه ، سعيداً مظفراً بحروبه ، جائراً على رعيته أشد بكاء الناس عليه ومنه . بكوا عليه لدفاعه عن أرض الإسلام وتولية غزو الروم ، وبكوا منه لظلمه وسوء إدارته .

وبينما كان سيف الدولة يعمل هذا لاستدراار الأموال والإفضال على من يجب ، كان كافور صاحب مصر وهو خصي أسود يضمن بالدائق إلا على مصالح الدولة ، ويضمن على الشاعر المتنبي نفسه فلا يقلده ولاية من ولاياته ويقول إن من ادعى النبوة مع محمد ألا يدعى الملك مع كافور ؟ وكان رسمه أن يستقبل العيد بيوم « تعدّ فيه الخلع والحملانات وأنواع المبار لرابطة جنده وراتبة جيشه » وقد تقدم إلى سائر دواوينه أن لا يعطى دينار ولا درهم إلا بتوقيع يعقوب بن كلس فوق في كل شيء ، ويعقوب هذا منظم المالية في الدولتين الكافورية والفاطمية ، وقامت الدولة الفاطمية في إفريقية ومصر لأول أمرها على إدارة وترتيب . ووضع المعز والعزير من الفاطميين نظاماً دقيقاً في المالية والإدارة<sup>(٣)</sup> وكان لهما من ابن كلس وزير على ضعفه يفيد الدولة بنصائح الثمينة . عهد المعز إلى يعقوب بن كلس ، وكان يهودياً فأسلم ، وإلى عسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم فوضع قانوناً لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب ، ومنع الجباة من الاستطالة والظلم فزاد ريع القطر : قلدهما المعز الخراج والحسبة والسواحل والعشور والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين .

(١) المسالك والممالك لابن حوقل .

(٢) أخبار الدول المنقطعة للأزدي ( مخطوط ) .

(٣) معلمة الإسلام .

لما فتح جوهر الصقلي مصر باسم مولاه المعز تعهد لأهلها في الكتاب الذي دفعه إليهم بإسقاط الرسوم الجائرة ، وأن يجريهم في الموارث على كتاب الله وسنة نبيه ، وأن يضع ما كان يؤخذ من تركات موتاهم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها . وقل في الفاطميين العادل العف عن الأموال من الوزراء فقد ولي الوزارة الحسن بن علي اليازدرى بالاكراه ، وكان غنياً ولا يستبد<sup>(١)</sup> برأيه ولا يأنف من مشاورة ثقائه وأصفيائه ، ومع هذا كان نصيبه القتل ( ٤٥٠ ) بوشاية الواشين . ولم<sup>(٢)</sup> يكن بعده من يعادله في كفاءته من الوزراء الفاطميين . فكثرت الدسائس في الجيش والقصر حتى تعاقب على الوزارة أربعون وزيراً في تسع سنوات .

وزاد هذه الحالة سوءاً ذلك النزاع الذي قام بين عناصر الجيش من الأتراك والسودانيين . واستكثر المعز من الجند بمصر فكانوا ما بين كتامة وروم وصقالبة وبربر ومغاربة لا يحصون كثرة حتى قيل لم يسطر الأرض بعد جيوش الإسكندر بن فيلبس الرومي الكبير أكثر من جيوش المعز الفاطمي ، واستكثر<sup>(٣)</sup> العزيز من الممالك الديلمية والمصامدة والأتراك المغول . وعنى الفاطميون بالأسطول وكان له ديوان خاص حافظ عليه صلاح الدين لما أخذ الملك منهم . وكان عمال الدولة الفاطمية وولاتها موسعاً عليهم في الرزق ثم كثر صرف أكثر الوزراء والولاة والقضاة أوائل النصف الثاني من القرن الخامس<sup>(٤)</sup> لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة وتقدم الأرازق ، بحيث كان يصل إليه في كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المراجعات والسعيات فاشتبهت عليه الأمور وتناقضت الأحوال ، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال لقلة ارتفاعها ، وتغلب الرجال على معظمها ، مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وظغيان الأكابر ، وما كان الفاطميون يرون أنجح لاتقاء شر الولاة من المسارعة إلى تبديلهم مخافة أن يشقوا عصا الطاعة ، ومن ارتضوا سيرته

(١) الإشارة إل من نال الوزارة للصيرفي .

(٢) تاريخ العصور الوسطى لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوي .

(٣) تاريخ مصر لابن إياس . (٤) الخطط للمقريزي .

كابن عمار في طرابلس أنشأ له دولة صغيرة ، والغالب أن ما دعاهم لإغراض العين عنه : والتساهل معه في إساغته أموالها ، إرادتهم في أن يجعلوا من بلده مركزاً من الدعوة إلى التشيع في الشام . ومن خلفائهم من كانوا على تدين وتصون ، ومنهم من كانوا مستهترين مشغوفين باللهو كالظاهر (٤٢٧) فتألق الناس في أيامه بمصر ، واتخذوا المغنيات والرقاصات ، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً .

ومع أن من مقتضى مذهب الفاطميين البعد عن أهل الذمة لم يتلکأ بعض خلفائهم من الاعتماد عليهم في إدارة مصر والشام . فقد وسد العزيز الفاطمي الأمر لرجل من الأقباط اسمه نسطورس ، وقلد أموال الشام ليهودي اسمه منشا ، يجمعان الأموال ويوليان أبناء نحلتهما الأعمال ، ويعدلان عن الكتاب والمتصرفين من المسلمين . فغضب الناس في مصر والشام ، وعمد بعضهم في القاهرة إلى مبخرة من حديد ، وألبسها ثياب النساء وزينها بإزار وشعرية ، وجعل في يدها قصة على جريدة وكتب فيها رقعة ليرأها العزيز عند مروره وهي ( بالذی أعز جميع النصارى بنسطورس وأعز جميع اليهود بمنشا وأذل جميع المسلمين بك إلا ما رحمتهم وأزلت عنهم هذه المظالم ) فتوسطت ست الملك ابنة العزيز لنسطورس فعفا عنه ، بعد أن حمل إلى الخزانة ثلثمائة ألف دينار ، وأعادته العزيز إلى ما كان ناظراً فيه ، وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعماله ، وأما منشا فقتل ولم يشفع له أحد .

وكانت جبايات الفاطميين فاحشة والفتن متصلة وعملهم يبالغون في ارتكاب المظالم ، فخربت البلاد وجلا عنها أهلها وتعطلت الزراعة . ومع أن الرواتب والإقطاعات كانت كثيرة بل فاحشة المقدار في الدولة الفاطمية ، كانت الرشوة وضياع الحقوق من الأمور المألوفة . كان راتب الوزير الفاطمي في كل شهر خمسة آلاف دينار<sup>(١)</sup> ومن يليه من ولد أو أخ من ثلثمائة دينار إلى مائتي دينار وربما خمسمائة دينار ثم لحواشييه خمسمائة دينار إلى أربعمائة

(١) مسالك الأبيصار لابن فضل الله العمري .

دينار إلى ثلثائة خارجاً عن الإقطاعات . ولأكبر أرباب الأقاليم في الشهر مائتان وخمسون ديناراً حبشية ، ومن الرواتب والغلة ما إذا بسط وثنى كان نظير ذلك ، ثم دون ذلك ودون دونه ، ولأعيانهم الرواتب الجارية من اللحم والخبز والعليق والشمع والسكر والكسوة ونحو ذلك مما هو جار على العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأرضين المؤبدة وما يجرى مجراها ، يتوارثه الخلف عن السلف ، ولا يوجد بمملكة من الممالك ولا مصر من الأمصار . ويبلغ إقطاع الواحد من أكابر الأمراء مائتي ألف دينار حبشية وربما زاد على ذلك ؛

وإقطاع الأمراء في مصر أفحش مما هو في الشام . وكان رزق أحمد ابن خيران الملقب بولي الدولة صاحب ديوان الإنشاء ثلاثة آلاف دينار في كل سنة ، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعقود وكتب التقليدات رسوم يستوفىها من كل شيء يحسبه . وقد خلف الأفضل وزير المستنصر والمستعلى والامر (١٥٥١) من العين ستمائة ألف ألف دينار ومن الفضة مائتين وخمسين أردباً وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس إلى آخر ما خلف . وخلف جوهر القائد من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ومن اللؤلؤ الكبار والياقوت أربعة صناديق إلى آخر ما خلف . وإذا كان وزير من وزرائهم يجمع هذا القدر العظيم من النعمة فما يكون في أيدي غيره وأيدي خلفائهم ، فقد وقع صلاح الدين لما أخذ مصر منهم على كنوز عظيمة في قصورهم لا يستطيع قلم أن يدونها ، وهذا كله ما جمع من طرق مشروعة ، والفلاح كان في شدة بالطبيعة .

وكثر في آخر أمر الفاطميين « القبض والمصادرات واصطفاء الأموال والنفي » وكانوا إذا صرفوا وزيراً لا يعيدونه إلى العمل ، وكان الوزير ابن البطائحي (١) أول من عمل احصاء سكان البلاد وتدوينها في قوائم خاصة سماها ابن ميسر أوراق « التصقيع » ووضع أوراق السفر للداخل إلى البلاد والخارج منها ، ووضع الجواسيس ومنهن النساء يتسقطن أخبار الناس لما ينفع الدولة .

(١) الإشارة لابن الصيرفي .

وفي أواخر أيامهم كان الوزير يجلس للمظالم بنفسه ومعه قاضي القضاة وصاحب ديوان المال ، وإذا خلت مصر من وزير صاحب سيف يجلس للنظر في المظالم صاحب الباب ، وكان القضاة منذ استولى الفواطم على مصر يقضون بالمذهب الإسماعيلي ، وبطل العمل مدة حكمهم بالمذهب الشافعي وغيره ، أي أن المذهب الإسماعيلي كان مذهب الدولة القائمة . وعنوا عناية خاصة ، بالدعوة إلى مذهبهم ، وكان له دعاة ودعاة دعاة ، ولهم ديوان خاص تنفق عليه الدولة نفقات كبيرة ، كما تغني بديوان الإنشاء واختيار بلغاء الكتاب له ما بين مسلم وذمي (١) .

وكان حملة الأقلام أو كتاب الدواوين يتولون الجباية والنفقات على اختلاف فروعها . وهم عبارة (٢) عن ثمانية عشر صنفاً وهم ناظر ومتولى ديوان ومستوف ومعين وناسخ ومشارف وعامل وكاتب وجهبذ وشاهد ونائب وأمين وماسح ودليل وحائز وخازن وحاشر وضامن . ولكل منهم أمر يتوجه عليه الخطاب فيه ، وتبديل الأسماء بتبديل الدول والمسميات واحدة . وابتليت الدولة الفاطمية بالجلود بالألقاب العجيبة على وزرائها وعمالها ، يسمون أحدهم « الوزير الأجل الأسعد المكين الحفيظ الأمجد الأمين عميد الخلافة جلال الوزراء تاج المملكة وزر الإمامة شرف الملة كفيل الدين » إلخ ويطلقون على آخر « سيد الوزراء ظهير الأمة عماد الخلق فقير الأمة » وعلى آخر « الوزير الأجل الأوحى جلال الإسلام ظهير الإمام قاضي القضاة وداعي الدعاة شرف المجد خليل أمير المؤمنين وخالصته ، ثقة الدولة وسناؤها » إلى غير ذلك من المبالغات الأعجمية التي لا تسمن ولا تغني .

هذه تراتيب الفاطميين ولا يشفع في هذه الإدارة بسطهم الأيدي في إعطاء الألوف للشعراء والنقهاء والدعاة . وكانت حالة الدولتين الصلاحية والنورية على عكس ذلك . كان طغتكين صاحب دمشق ومن عظماء أمراء السلاجقة ( ٥٢٢ ) مثالا من صاحب الإدارة الحسنة أعاد إلى الرعية كثيراً من أملاكهم التي اغتصبها منهم ولالة الجور ، وجرت عاينها أحكام المقاسمة ، وأرجعها إلى خراجها القديم ، وأحيا الأرض المعطلة ، وباع منها ما كان

(١) ابن فضل الله العمري . (٢) قوانين الدواوين لابن عتيق .

شاغراً للناس يعمرونه ، وعمرت البلاد بجميل سياسته وحسن تدبيره ،  
وانبسطت الرعاية في عمارة الأملاك .

وكان نور الدين زنكى كوالده ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، لأن  
الإقطاعات تغنى عنها . قال ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلاطان ظلموا  
الرعية وغصبوهم أملاكهم . وكان إذا<sup>(١)</sup> توفي أحد الأجناد وخلف ولداً أقر  
الإقطاع عليه فإن كان الوالد كبيراً استبد بنفسه وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً  
يثق به فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها  
الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها . قالوا وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب  
الموجبة للصبر في المشاهد والحروب ، وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير  
في ديوانه وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن  
يقتصر على بعض ما هو مقرر عاينه من العدد ويقول نحن كل وقت في النفير  
فإذا لم يكن أجناد الأمراء كافة كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الإسلام .

وكان نظام الملك وزير السلجوقيين أول من فرق الاقطاعات على الجند  
فعمرت البلاد وكثرت الغلات واقتدى به من جاء من بعده من الملوك .  
وكانت عادة الخلفاء<sup>(٢)</sup> من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين من لدن  
عمر بن الخطاب أن تجبي أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الأمراء  
والعمال والأجناد ويقال لذلك في صدر الإسلام العطاء وغير العجم هذه الرسوم .  
وأصبح من الأرض ما يوغره أصحابه أى يدفعون عنه قدرأ من المال مرة واحدة  
فيعنى من الخراج ، أو يلجئونها ، والإلجاء أن يلجأ صاحب الأرض إلى بعض  
الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززا به من عمال الخراج ، حتى لا يجوروا  
عليه فتصبح الضيعة ملكاً لذلك الكبير . وفي دولة السلاجقة كان يسمى  
صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السر الطغراوية . والطغراء هي الطرة  
بالفارسية ، وكذلك الحال في بعض دول الشرق .

(١) كتاب الروضتين لأبي شامة . (٢) الخطط للمقريزى .

استقى نور الدين الفقهاء في أخذ ما يحل له من المال ، فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده إلى غيره ، وأسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات ، وكتب أكثر من منشور بذلك ، وأسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب والمكوس وحرمها على كل متناول ، وأقطع أمراء العرب لثلاث تعرضوا للحاج ، وجدد قنى السبل ووقف الكتب الكثيرة ، وأجرى على العلماء والقراء ، وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . وكان يبعث بما يصل إليه من الهدايا وغيرها إلى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئاً ، ووقف الوقوف الكثيرة بعشرات الألوف من الدنانير على المدارس والخوانسار وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات وإقامة الأبراج والقلاع ومكاتب الأيتام .

هذه زبدة ما قاله ابن الأثير في سيرة نور الدين ومما قال : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا - أى في القرن السادس - فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريماً للعدل والإنصاف منه . وكان نور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق ثم بنى مثلها في مصر ، وجلس فيها الملوك منذ عهد صلاح الدين .

أما صلاح الدين فقد سار بسيرة نور الدين ، سامح بمئات الألوف من الدنانير وأعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، وأجرى كل سنة مبلغاً لا يقل عن مائتي ألف دينار على أرباب العائمين في دولته ، وكان يضمن كل الضنانة برجاله . أسر قاضيه الهكاري فافتداه بمبلغ جسيم ، وكان يصل كاتبه ووزيره ومشاوره القاضي الفاضل بالألوف ، ويضمن على أهله وأولاده . والقاضي الفاضل في الحروب الصليبية يشبه بدهائه وإخلاصه وعلمه أكبر ساسة الغرب في عهد

نهضته الأخيرة . وهو الذى منع صلاح الدين عن الحج لما أراده وقال له :  
إن رفع المظالم من البلاد ، والقعود للإفرنج بالمرصاد ، على حين تقطر  
السيوف دماً ، أفضل من حجك فأطاعه .

كان صلاح الدين يجلس فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره  
الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكين حتى يصل إليه كل أحد  
من كبير أو صغير وعجوز وهرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سقراً  
وحضراً ، على أنه كان فى جميع زمانه قابلاً لما يعرض عليه من القصص  
وفى كل يوم يفتح باب العدل ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما فى الليل  
ولما فى النهار ويوقع على كل قصة ، ولم يرد قاصداً أبداً ، وما استغاث  
إليه أحد إلا وقف وسمع قصته وكشف ظلامته . واقتصر فى جواباته على  
الخراج والعشور على الزراع فما أباحه الشرع ، هكذا فعل فى مصر لما قضى  
على دولة الفاطميين ، وكانت المكوس فيها فاحشة فأسقطها ، وأنوعها كثيرة  
جداً فألغها ، ورجع إلى الزكوات المشروعة والخراج عن الأرض ، وكان  
قبل الفاطميين أيضاً مكوس وضعها أمراء السوء فأبطلت كلها فى الدولة  
الصلابية ، ثم كانت بعض تلك الرسوم والمكوس تعاد إلى سابق حالها ،  
ومنها الشائن كالمكس على المغنيات والفاحشات ، وتصدر بالبواقي مسامح  
أيام العقلاء من الملوك فى الدول المختلفة .

هذه بعض سيرة صلاح الدين فى مصر وفى الشام وكذلك كان أخوه  
أبو بكر بن أيوب سار على طريقته وأبطل كثيراً من المظالم والمكوس ، وطهر  
أبلاده من القواحش والخمور والقمار بيد أنه حدث فى عهد بعض أولاد  
صلاح الدين ما أوجب نقد المؤرخين لهم . قال المقرئى (١) : وفى أيام  
الملك العزيز عذمت فى مصر الأرزاق من جانب الديوان وتعذرت وجوه  
المال حتى عم المرتزة الحرمان ، واستبيح ما كان محظوراً من فتح أبواب  
التأويلات ، وأخذ ما بأيدي الناس بالمصادرات ، وصار الإنفاق فى السماط

(١) السلك للمقرئى .

السلطاني من هذه الوجوه قال : وضمن العنب يعصر الخمور وحمل من ضمانه شيء إلى العزيز فصنع به آلات الشرب ، ووقف الحال فيما ينفق في السلطان ، ونيا يصرف إلى عياله وفيما يقتات به أولاده ، وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق ما لا يوزن له ثمن وما يغصب من أربابه ، وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات ، فإن المتعيشين أرباب الدكاكين يزدون في الأسعار العامة بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان ، فاقتضى ذلك النظر في المكاسب الخبيثة وضمن المزر والخمر باثني عشر ألف دينار ، وفسح في إظهاره وبيعه في القاعات والحوانيت ولم يقدر أحد على إنكار ذلك ، وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق في طعام السلطان وما يحتاج إليه ، وصار مال الثغور والجوالي إلى من لا يبالي من أين أخذ المال .

وما كان مثل هذا الإسفاف يقع في عهد صلاح الدين الذي ملأ بلاده بأعمال الخير في مصر والشام ، وأغدق هباته على الطُّرَّاء والتَّناء<sup>(١)</sup> ، وأدر الأرزاق والمشاغرات على المدوسين والدارسين ، وعلى الفقراء والصالحين وعلى الحجاج والمجاورين ، وما كان يطعم إلا المال الحلال ، ولا يجوز غير ما جوزه الشرع من الأموال . قال السيوطي<sup>(٢)</sup> : فلقد كان إماماً عادلاً وسلطاناً كاملاً ، لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده ، وقال ابن خلكان<sup>(٣)</sup> : « ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل (صلاح الدين) وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة ، فإنه فعل في هذه الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس له فيها شيء منسوب إليه في الظاهر » . قال صلاح الدين لأحد خاصته : وقد استعداه على جمال : ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيها ممثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضى لك أو عليك<sup>(٤)</sup> .

(١) رحلة ابن جبير . (٢) حسن المحاضرة للسيوطي .

(٣) رفيات الأعيان لابن خلكان . (٤) رحلة ابن جبير .

رأى نور الدين وصلاح الدين أن بلادهما كادت تخلو من علماء ممتازين فأخذوا يستدعيان العلماء من البلاد الإسلامية الأخرى ، وكلما سمعا بعالم كبير زينا له نزول بلادهما ، وعمرأ له المدارس ، وحققا له جميع رغائبه ومطالبه . وهما يريان في ذلك منة له عليهما ، ولذلك كثر العلماء والشعراء في عهديهما وكان منهم المجود والفهامة . وكان نور الدين متبحراً في الشرع وألف كتاباً في الجهاد ، وصلاح الدين لكثرة ما غالط العلماء وأخذ عنهم كان في مجالسه وحديثه كأنه من كبار الفقهاء ، يضرب في كل علم من علوم الدين بالسهم الصائب ، وهو متفرد في معرفة وقائع الأمم وسير الليالي .

### - إدارة الممالك

انتظمت دولة الممالك في بعض أدوار العطاء من ملوكها في مصر والشام وكان أكثرهم مع الشرع لا يقطع أمراً بغير رأي الفقهاء ، فالظاهر بيبرس أولهم لم يرض أن يأخذ مالا غير المقرر من بلاده ليحارب التتر إلا لما أخذ خطوط العلماء جميعهم . وأراد أن يقرر القطيعة<sup>(١)</sup> على البساتين بدمشق واحتاط عليها وعلى الأملاك والقرى فتناه القاضي قاتلا هذا ما يحل<sup>(٢)</sup> ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه وقام مغضباً ، ولما جاء السلطان مصر أحضر العلماء وأخرج فتاوى الحنفية باستحقاقها بحكم أن دمشق فتحها عمر بن الخطاب عنوة ، ثم قال من كان معه كتاب عتيق أجرناه عليه وإلا فنحن فتحنا هذه البلاد بسيفنا ، ثم قرر عليهم ما أراد وما سامح به وتوسع الظاهر في كل شيء ، في البناء والتفقة والجيش . قالوا وكانت العساكر في الديار المصرية في أيام غيره عشرة آلاف فارس فضاعفها أربعة أضعاف . وكانت الملوكة قبله مقتصدين في النفقات والعدد وعسكره بالضد من ذلك ، وكانت كلف المطبخ الصالحى النجمى ألف رطل لحم بالمصرى كل يوم فضاعفها عشر مرات .

كان جند<sup>(٣)</sup> الممالك مختلطاً من الأتراك والشركس والروم والأكراد

(١) أقطعه قطيعة أى طائفقة من أرض الخراج . (٢) فوات الوفيات الصلاح الكشى .

(٣) خطط المقرئى .

والتركان وغالبهم من المالك المتاعين ، ولا يقل الفرسان منهم . في مصر وحدها عن خمسين ألفاً ، ولهم الإقطاعات الكثيرة والجرايات الدارة . والجيوش على قسمين منهم من هو بحضرة السلطان ، ومنهم من هو في أقطار المملكة وبلادها وسكان بادية كالعرب والتركمان ، والمالك طبقتان (١) المالك السلطانية ، وهم أعظم الأجناد شأنًا ومنهم يؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة ، وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلة ، والطبقة الثانية أجناد الحلقة ، وهم عدد جم وخلق كثير . وأجناد الحلقة هم القائمون أبدًا بسلاحهم يشبهون الحامية ، ولكاتب الجيش جريدة بأسماء الأجناد واقطاعاتهم وخيولهم ، ولهم نقباء يعرفون أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور .

وفتح أحد ملوكهم باب قبول البدل في الإقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً ، وذلك لأنه كان متطلعاً إلى جمع المال ، والزم ديوان الجيش الفلاحين بالفلاحة في الإقطاعات ، ومن نزع من دون ثلاث سنين يعاد إلى قريته قهراً فخربت البلاد وكثرت المظالم والمغارم . وكان من ملوكهم من يستكثر لضعفه من الأنصار . ويتسلط على عقول السذج من العربان وأرباب الدعارة ، والمالك يتفننون في أخذ أموال الناس وهتك حرمتهم ، وحدث بعد الناصر قلاوون بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال أو مقايضة الإقطاعات بغيرها ، فكثرت الدخيل في الأجناد بذلك ، واشترت السوق والأراذل الإقطاعات حتى صار أكثر أجناد الحلقة أصحاب حرف وصناعات وحربت بهم أرض إقطاعاتهم .

كان الرسم في دولتي المالك أن تقبل الأرض بين يدي الملك ، كأن يحاول الملك الذي كان مملوكاً أن يملك الأحرار ، باذلال الكبير والصغير من رعيته . ويرى الباحث في عهد المالك ألواناً من الأحكام والقانون وعمرانا من جهة ، وخراباً من أخرى ، وقل أن جاء منهم رجل لم يطلق المال لإقامة

(١) صبح الأعشى للقلقشندي .

المصانع والمعاهد في بلاده ، وإذا رأيناهم من جهة يأخذون من الناس أموالا في الشدائد ، فقد رأينا منهم ملوكاً يبطلون كثيراً من المكوس والمظالم ينادون في الجوامع برفعها ، وينقشون المرسوم العالى في رخام أو على سوارى المساجد ، ويلعنون فيها من يعود إلى تجديدها .

ولقد أصبحت أحكام مجالس المظالم في دولتهم أحكاماً سياسية ، أى أنها لا تنقيد بالشرعية فقط . فالأحكام عندهم على قسمين حكم الشرع وحكم السياسة ، وحكم الشرع معلوم ، وحكم السياسة القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال ، ويرى المقرضى أنها قواعد ورثوها عما سنه جنكيز خان ، وكان هذا لا يدين بدين ويحكم العقل في دولته ، ففوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الشرعية ، ورجعوا إلى عادات جنكيز خان والافتداء بقانونه . فنصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عقائدهم ، وجعلوا إليه النظر في قضايا الدواوين السلطانية ، وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط في الأموال وخراج الأرضين ، فشرعوا في الديوان ما صار لهم به سبيل إلى أكل الأموال بغير حقها .

قال « هذا وستر الحياء يومئذ مسدل ، وظل العدل ضاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهيب ، فلا يكاد أحد يزيع عن الحق ، ولا يخرج عن قضية الحياء ، إن لم يكن له وأزع من دين كان له ناه من عقل ، ثم تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور عن أنيابه ، وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والحشمة من الناس ، حتى فعل من شاء ما يشاء ، وتعددت — منذ عهد المخن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة — الحجاب وهتكوا الحرمه ونحكوا بالجور تحكماً خفى فيه نور الهدى وتسلطوا على الناس . . . »

كانت وظيفة الوزارة أجل رتب أرباب الأقلام لأن متوليها تالى السلطان . وقدم المماليك رتبة النيابة على الوزارة . وولى الوزارة أناس من أرباب السيوف وأناس من أرباب الأقلام ، فصار الوزير إذا كان من أرباب الأقلام يطلق عليه اسم صاحب ، ويقال لوزير الدولة ناظر النظار أو ناظر المال ، وتلى

رتبته رتبة الوزارة ، والوزير ينظر في المكوس وبعض الدواوين ومصارف المطبخ السلطاني والسواقي ، وإليه يرجع ناظر الدولة وشام الدواوين وناظر بيت المال وناظر الأهراء ومستوفى الدولة وناظر الجهات . وموضوع شد الدواوين أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير ، متحدثاً في استخلاص الأموال وأهم جميع هذه الوظائف « النيابة » ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية ، وصاحبها يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير ، وسائر النواب لا يعلم الرجل منهم إلا على ما يتعلق بخاصة نيابته . والنائب يستخدم الجند من غير مشاورة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثاني . وهناك وظيفة نائب الغيبة وهو الذي يتولى الأمر إذا غاب السلطان والنائب الكافل . وأحدثوا في عهد محمد بن قلاوون وظيفة ناظر الخصاص ولم تكن تعرف (١) أولاً وهي أشبه بناظر الخاصة يتولى خصوصيات الملك ويدبر أموره . وفي أيام قلاوون أحدثت وظيفة كتابة السر وكانت هذه الوظيفة قديماً في ضمن الوزارة ، والوزير هو المتصرف في الديوان وتحت يده جماعة من الكتاب ، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء وصاحب ديوان الرسائل . وذكر ابن خلدون أن أهل هذه الرتبة العالية أى الوزارة استنكفوا في دولة الترك بمصر عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب وبقي اسم الحاجب على مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية .

والولاية هم أصحاب الشرطة ، وكان والى مصر أو ملكها منذ عهد ابن طولون يجلس للنظر في المظالم ، وإذا ضعفت قوة الدولة يجرى نقل الولاية والنواب في الأقاليم بسرعة حتى قال ابن الوردي منكرها هذه الطريقة في التبديل وناعياً على الدولة أثرها في إضعاف البلاد .

هذه أمور عظام من بعضها القلب ذائب  
ما بال قطر يليه في كل شهرين نائب

(١) فوات الوفيات للكتبي .

كان أرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة والوزارة أمير السلاح والدوادار والحجة وأمير جاندار والاستادار والمهمندار ونقيب جيوش الولاية . وأمير السلاح<sup>(١)</sup> هو المتولى أرباب السلاح وحمل سلاح السلطان في الحجاج العامة ، والدوادار مبلغ الرسائل عن السلطان والقصص المقدمة إليه ، وربما أخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة كما يخرج نائب السلطنة ، ورتبة الحجة قد تكون جليلة في بعض الأدوار ، وكانت تلي رتبة نيابة السلطنة ، ويقال لأكبر الحجة حاجب الحجاب . وموضوع الحجة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وطورا بمشاورة النائب ، وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند ، فإن لم يكن نائب السلطنة فإنه هو المشار إليه في الباب ، والقائم مقام النواب في كثير من الأمور ، ولا يتعدى حكمه النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك . وأمير جاندار يتسلم باب السلطان ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر . والاستادار إليه أمر البيوت السلطانية والمطابخ والشراب خانات والحاشية والغلان . والمهمندار هو الذي يتلقى الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها . يخاطب نقيب الجيوش إذا طلب السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب أميرا أو جندياً فيرسل إليه ، ثم انحطت رتبته فصار محصوراً في ترويع الخلق وأخذ أموالهم ، وأصبح من أدوات الشر في البلاد .

طرات في آخر دولتهم تغيرات على نظام الدولة وأوضاعها ، وأصبحت عدة مباشرة<sup>(٢)</sup> الدولة نيفاً وثلاثمائة مباشر ولها مقدم وتحت يده رسل وأعوان كانت نفقتهم في أيام برقوق خمسين ألف دينار . وكان معلوم الوزير في الشهر مائتين وخمسين دينارا حبشية مع أرزاق من مأكول . وعلوفة تبلغ نظير المعلوم ، ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير وما دون دونه ، وكان معلوم القضاة والعلماء أكثر من خمسين دينارا في كل شهر مضافاً إلى ما بأيديهم

(١) صحاح الأعشى للثعلبي والخطط للمقريزي .

(٢) زبدة كشف الممالك للظاهري .

من المدارس التي يستندون أوقافها . وبرز المرسوم<sup>(١)</sup> العالى فى بعض سنين بأن كل من انقطع عن وظيفته من الفقهاء والمدرسين والمؤذنين وأرباب وظائف الدين ونحز عليه يستأهل مايجرى عليه ، أى أن وظائف الدين كانت فعلية فلما يسوغ أوقافها إلا من يقوم بالفعل بعمله . وأصبحت المدارس والجمامع الموقوف عليها فى أواخر عهدهم متعددة الوجوه وتتألف من ريعها موازنة كبيرة تعتاش بها خلائق ، بل هى قوة من قوى الدولة تستخدمها على الأكثر فيما ينفع الناس ، ويربط بها السلطان أو الأمير العلماء بنفسه حتى لا يشاكوه فيما يراه مصلحة لدولته ، فإذا جسروا على مخالفته عاقبهم بحرمانهم لإداراتها .

وكثرت الدواوين آخر دولة المماليك وكان أهمها ديوان الإنشاء ويقال لناظر الإنشاء كاتم السر ، ومن الدواوين ديوان الجيوش وديوان الخزانة الشريفة وديوان المستأجرات والحمايات وديوان الأحباس ( الأوقاف ) وديوان الأشراف وديوان الذخيرة وديوان المرتجع وديوان الاستيفاء وديوان الزكاة وديوان العمائر ، وله علاقة بالمهندسين وأرباب العمائر ويتكلم صاحبها فى العمائر السلطانية مما يختار السلطان لإحداثه وتجديده من القصور والمنازل والأسوار . ولكل ديوان ناظر ومباشرون .

ويطول المقال إذا أحببنا أن نعرض لتراتب كل قطر من الأقطار الإسلامية على عهد المماليك فقد كان من مصطلح الدولة اليمانية مثلاً أن يكون لها نائب ووزير وحاجب وكاتب ، سر وكاتب جيش وديوان مال ووظائف الشاد والولاية يتشبهون بالديار المصرية فى أكثر أحوالهم<sup>(٢)</sup> . وكتاب الإنشاء لا يجمعهم رئيس يرأسهم يقرأ ما يرد على السلطان ويحاجب عنه ويتلقى المراسم وينفذها ، وإنما السلطان إذا دعت حاجته إلى كتابة كتب بعث إلى كل منهم ما يكتبه فإذا كتب السلطان ما رسم له به بعثه على يد أحد الخصيان فقدمه إليه فيعلم فيه وينفذه . وصاحب اليمن قبل التصدى لإقامة رسوم المواكب والخدمة

(١) تاريخ أبى الفداء . (٢) صبح الأمل للفتشندى .

والاجتماع بولاية الأمور ، ببابه ، فإذا احتاج أحد من أمرائه وجنده إلى مراجعته في أمر كتب إليه قصة يستأمره فيها فيكتب عليها بخطه ما يراه ، وكذلك إذا رفعت إليه قصص المظالم هو الذي يكتب عليها بخطه بما فيه إنصاف المظلوم . وكان شعار سلطان اليمن وردة حمراء في أرض بيضاء أو أبيض فيه وردات حمراء كثيرة .

وصف ابن فضل الله<sup>(١)</sup> إمام الزيدية في اليمن في زمانه فقال : وهذا الإمام وكل ما كان قبله على طريقة ما عداها ، وهي إمارة أعرابية لا كبر في صدورها ولا شمم في عرائنها ، وهم على مسكة من التقوى وترد بشعار الزهد ، يجلس في ندى قومه كواحد منهم ، ويتحدث فيهم ويحكم بينهم سواء عنده المشروف والشريف والقوى والضعيف ، وربما اشترى سلعته بيده ، ومشى بها في أسواق بلده ، لا يغلظ الحجاب ولا يكل الأمور إلى الوزراء والحجاب ، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ولا تكثر غير مشبع ، هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل وفضل كامل ا هـ . وقال أيضاً فيهم : وأئمتهم لا يحبون ولا يحبون ولا يرون التفضيم والتعظيم ، والإمام كواحد من شيعته في مأكله ومشربه وملبسه وقيامه وقعوده وركوبه ونزوله وعامة أموره ، ويجلس ويجالس ، ويعود المرضى ويصلي بالناس وعلى الجناز ويشيخ الموتى ويحضر دفن بعضهم . قالوا وهذا الإمام يعتقد في نفسه ويعتقد أشياءه فيه أنه إمام معصوم مفترض الطاعة .

هذه دولة الزيدية في الجبال أما دولة اليمن في تهامة كالدولة الرسولية مثلاً فقد وصفها القلقشندي فقال إن أوقات ملوكها مقصورة على لذاتهم ، والخلوة مع حظاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين ، فلا يكاد السلطان يرى ولا يسمع أحد من أهل اليمن خبراً على حقيقته ، وأهل خاصته المقربون الحصيان ، وله أرباب وظائف للوقوف على أموره وهو ينحو في أموره منحى صاحب مصر بتسمع أخباره ، ويحاول اقتناء آثاره في أحواله وأوضاع دولته .

(١) الشريف بالمسطلح الشريف لابن فضل الله العمري .

## إدارة الترك للعثمانيين

لما لم يعهد عثمان الأول مؤسس السلطنة العثمانية بولاية العهد لابنه البكر علاء الدين ، وعهد بها إلى ابنه الثاني أو رخان ، تولى الأخ الأكبر أمور الدولة ، وكان أول صدر أعظم فيها ولقب بلقب « باشا » ومن عادة الأتراك أن يطلقوا على بكر الأولاد « أغابك »<sup>(١)</sup> وأطلقوا على علاء الدين « باشا أغا » أى رئيس الأخوة ، وتفرغ<sup>(٢)</sup> هذا الصدر الجديد لوضع أنظمة وقوانين للحكومة ، فكان واضح أساس إدارتها ، فخدم الدولة بأوضاعه خدمة حسنة ، وكان والده<sup>(٣)</sup> كلما استفاضت فتوحاته يقسم البلاد المفتوحة إلى أقضية وألوية ، فيتولى القضاء قاض ويتولى اللواء عامل يدعى أمير اللواء ، ويقسم الأرضين قسمين ، قسماً يجعلها أقطاعاً للجند وقسماً يسميه الخاص ، يستثمره أبناء الملك والوزراء والأمراء والرجال العظام ، وما بقى من الأرض يدعونه الخاص الملكى يدفع ريعه لخزانة الدولة

وقف الأتراك العثمانيون فى حكومتهم مع حدود الشرع الإسلامى ، واتخذوا قضاة يحكمون بين الناس ؛ وأخذوا يعدلون ما وضعوا من قوانين

( ١ ) معنى الأغا بالتركية العظيم أو الأمر أو الرئيس وهو عنوان شرف جعل بأخرة لقباً للرجل الأسمى الذى لا يكتب ولا يقرأ ، وخصوا كلمة « أفندى » وهى رومية الأصل بمن يقرأون ويكتبون ويطلقونها على العلماء وأرباب الأتلام ، ومعنى الأفندى الصاحب والمالك والمولى والسيد والمتعلم . ومعنى « بك » العظيم أو الرئيس أو المقدم ، و« بكلى بك » هو رئيس البكوات وهى رتبة ملكية تكون بين رتبة الوزارة ورتبة أمير الأمراء . وأصل لقب « باشا » « باشا أغا » أى رئيس الرؤساء تطلق على أرباب الأقاليم والسيوف فى مراتب معينة فى القوانين الجنائية والملكىة ولما أصبحت الأمور العسكرية والملكىة والعلمية فى زمن أورخان ومن خلفه من السلاطين أحدثت بعض رتب خاصة بالمناصب لا يتجاوز عددها الأربعة ولا يتجاوز أربابها السبعين أو الثمانين . وكانت رتبة الوزارة توجه إلى الصدر الأعظم وعلى صاحب الخاتم وناظر المالية ، وكان لقب « صاحب السعادة » « سعادتلو » خاصة بالسلطان إلى عهد سليمان القانونى ويخاطب الصدور العظام بـ « رجال الدولة بلقبه » « صاحب المزة » « عزتلو » ولا تمنع الرتب إلا مقابل خدمة . . . وفى سنة ١٢٤٨ هـ . أدخل بعض التغيير فى الرتب والألقاب ثم كثرت الرتب والأوسمة حتى أصبحت أشبه بالهزل على عهد عبد الحميد الثانى وألغى الدستور هذه السمخافات .

( ٢ ) قاموس الأعلام لشمس الدين سالى . ( ٣ ) عثمانى تاريخى . أحمد راسم .

الإدارة بحسب الزمن . ولما كمال السلطان مصدر كل تقنين كسائر الحكومات الإسلامية السالفة ، كان الوزير يعرض رأيه على الملك فلما أن يقبله وإما أن ينفيه .

وكان للسلطان وزير واحد في أول الأمر ، ثم صار للدولة رئيس وزراء ثم وزيران وثلاثة وأربعة وخمسة . والصدر أو رئيس الوزراء هو نائب السلطان ينظر في أمور الدولة ، وهناك طبقات « الأغوات » وهم قواد الجيوش . ومدار الدولة على أقطاب أربعة : الصدر الأعظم وقاضى العسكر « والدفتردار » أى صاحب السجل وهو وزير المال « والنشأجى » أى رئيس الرماة وهو وزير الحرب . ويجتمع وزراء السلطنة في الديوان السلطاني تحت قبة لهم ولذلك دعوا بوزراء القبة . والصدر الأعظم ينظر في المصالح في داره ويطلقون عليه « باب الباشا » أو « باب الوزير » ثم أطلق عليه « الباب العالى » وبعد زمن أخذوا يطلقون اسم « الباب العالى » على مجموعة دواوين الدولة أو الوزارات . وفي عهد الفاتح أنشأوا يطلقون على المتصرف اسم « بك اللواء » وعلى الوالى « بك البكوات » « بكلى بكى » وأصبح أهل الزعامة والمقاطعات تحت إدارة المتصرفين والولاء . وقسم الروم إلى على عهد الفاتح إلى ٣٦ لواء والأناضول مثله<sup>(١)</sup> وكانت واردات الدولة مئة وعشرين مليون دوكا ذهباً . قال ابن بطوطة<sup>(٢)</sup> وقد زار آسيا الصغرى على عهد أورخان . إن هذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلاداً وعسكراً وله من الحصون ما يقارب مئة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياماً لإصلاح شئونه وتفقد حاله ويقال إنه لم يقم شهراً كاملاً ببلد ويقا تل الكفار ويحاصرهم .

( ١ ) الأناضول « محرفة عن أناتولى » وكان الروم يطلقونها على شبه جزيرة « آسيا الصغرى » ومعنى الأناطولى بلسانهم البلاد الشرقية لأن آسيا الصغرى تقع إلى شرق بلادهم . و « روم إيلى » كلمة أطلقها العثمانيون على القسم الذى فتحوه في أوربا من الممالك وكانت حدود الروم إيلى تختلف بتقدم الفتح وتراجعها ، وأغلب الجغرافيين على أن الروم هى ما يعرف اليوم بشبه جزيرة البلقان .

( ٢ ) تحفة النظار لابن بطوطة .

عاشت إمارة بنى عثمان إلى ما بعد أورخان ثانياً ملوكها في حالة أشبه بالبدواة، لا يأوى سادتها إلى غير المضارب والخيام<sup>(١)</sup>، ولما فتح ثالث ملوكهم مدينة أدرنة ونقل إليها عاصمته من بروسا، أى انتقل من آسيا إلى أوروبا ظلت الأخلاق البدوية مستحكمة في أخلاق الأتراك، وتكاد تكون أوضاع حكومتهم على حالة ابتدائية، وكان رابعهم ييلديرم بايزيد يجلس بكرة النهار<sup>(٢)</sup> في براح متسع، ويقف الناس على البعد منه وهو يراهم، فينظر في ظلاماتهم، ويقضى بينهم فيما هم فيه مختلفون في الحال، وما كان يمكن أحداً من التعرض لمال أحد من الرعية حياً ولا ميتاً، وإن مات ولا وارث له يودع ماله عند القاضي، وكل من غزا معه لا يعرض لشيء مما يحصل بيده. وكان الأمن فاشياً في بلاده حتى ليمر الرجل بالحمل مطروحاً بالبضاعة فلا يتعرض له أحد، وينام الناس<sup>(٣)</sup> مفتحة أبوابهم لا يسطو عليهم لص، ولا يريد أحد بأحد سوءاً. قال المقرئى « وكان يشترط على كل من يخدم بايزيد أن لا يكذب ولا يخون، ولكنه يصنع من الشهوات ما أراد، وكان الزنا واللواط وشرب الخمر والحشيش فاشياً في بلادهم يتظاهرون به » وفي أيام بايزيد وضع الخراج على الأرضين والعقارات.

كان جيش السلطان العثماني مؤلفاً من ممالك يشبه جند مصر والشام على عهد دولتى الممالك البرجية والبحرية. فأبدع قره خليل جندارلى<sup>(٤)</sup> وزير السلطان أورخان تاليف جيش الانكشارية وسنت للدولة نظام اللقطاء « دوشرمة » القاضي بأن يؤخذ بعض أولاد النصارى ويعنى بتربيتهم وتهذيبهم تهذيباً إسلامياً، حتى إذا بلغوا سن التجنيد يرسلون إلى الشكنات العسكرية في العاصمة. فكان تأليف هذا الجيش وضعاً حديثاً عظم به سلطان الدولة العثمانية، وبه تهيأت فتوحها. وذلك لأن الجيش الانكشارى كان جيشاً مدرباً تحت الطلب، ليس

(١) صبح الأعشى للقلقشندي . (٢) الخطط للمقرئى .

(٣) قاموس الاعلام لشمس الدين سامى . (٤) خطط الشام للمؤلف م ٤ .

لدولة من الدول جيش مثله . وكان عدده بادئ بدء ستة آلاف وقيل ألف جندي ثم كثر فبلغ مائة ألف وهو يقسم إلى كتائب ، ويدرب أفرادها في الولايات على الكر والفر ، ويعيشون عيش الجند والغزاة ، ويستخدم بعضهم في خدمة الولاة ، أو في مزارع أرباب الاقطاعات ، وفي حوانيت أرباب الصناعات . ويعيش الفرد منهم بمياومات ضئيلة وهي « أقجة<sup>(١)</sup> » واحدة في اليوم ، تزداد لمن ثبتت كفاءته في الحرب ، وتصرف لهم مرة في كل ثلاثة أشهر بأبهة وطنطنة . وتوزع الاقطاعات على المبرزين من ضباطهم وقوادهم يعيشون بها زمن السلم . وإذا أعلنت الحرب يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة : وأغلب الانكشارية في الولايات فرسان وفي العاصمة مشاة . وبلغ هذا الجيش أوج ارتقائه على عهد سليمان القانوني ، وكان من سياسته أن يشغله أبداً بالحرب لتعذر إطلاق رزقه<sup>(٢)</sup> وعطائه أيام السلم باطراد . وما زال جيش الانكشارية نافعا في الفتوح حتى دخل فيه على عهد مراد الثالث الرقاصون والمصارعون . وقيل إنه فسد بدخول المسلمين واليهود والنور ( الغجر ) فأنشأوا يعصون أوامر قوادهم ويعيشون بالنهب والسرقة .

كانت واردات السلطنة تجي من الجزية والخراج والأملاك السلطانية ودخل الجمارك والملاحات وأموال الغنائم ، أو التكاليف الشرعية والتكاليف العرفية وهي كثيرة جداً ، والاتاوات أو خراج المالك نصف المستقلة . ووضع محمد<sup>(٣)</sup> الثاني أساس النظام المالي وتعاوره التنظيم والإصلاح على عهد سليم الأول وسليمان الأول وأحمد الأول ، فكانت حالة المالية حسنة في الحملة وقد وصفها أحد قناصل البندقية في الاستانة سنة ١٥٧٣ م فقال<sup>١</sup> : إن لوزارة المالية نظاماً منظماً في الحسابات ، تضع في آخر كل سنة ميزاناً للنفقات

( ١ ) الأقجة نقد صغير تساوي كل ثلاث قطع منه بارة وكل أربعين بارة قرشاً كان أول من ابتدعه بايزيد الأول ( ٧٩٢ هـ ) . ( ٢ ) معلة الإسلام . مادة سليمان القانوني . ( ٣ ) باكورة تاريخية وفنية في الديون العربية لأديب الروماني .

والارتفاقات ، وبعد قرن من الزمن قال سياسى آخر : إن النظام فى وضع المالية قد حسن وضعه وصنعه فى تركيا ، من حيث سجلاته وانتظامه حتى لتجد فيه كل دولة ما تتعلمه ، وذلك بقطع النظر عن شىء من سوء الاستعمال يتسرب إليه . وكانت سلطة الدفتردار فوق سلطة الوزير الأعظم فقد يرد ما أمر به هذا إن كان أمره غير قانونى . وفى مبتدأ النصف الأول من القرن الثامن عشر بدأ تغير عظيم فى إدارة المالية وذلك بدخول طريقة الإقطاعات فبطلت « المركزية » وقسمت إدارة المال إلى قسمين الأناضول والروم إلى ، وأصبحت كل دائرة تدير شئون إدارتها على ما تريد ، فانقسمت الأغراض وتجزأت السلطة المالية ، وأخذ الانكشارية يدبرون أعظم مناصب المالية ويتولون الولايات ، ويحولون الجزء المهم من أموال الدولة إلى ضامنهم . وكثر العجز فى موازنة الدولة أوائل القرن التاسع عشر . ويروى أن مجلس الوزراء كان مرة منعقداً فى إصلاح المالية فقال الصدر لوزير المالية إن إصلاح مالية الدولة العثمانية لا يتم إلا بإلقاء نفط على وزارتك العالية لتحرق بموظفيها وسجلاتها وبنائاتها ، وبالطبع يكون حضرة وزير المالية خارجها ، ثم نعود فنبداً بوضع جديد فى المالية ، وهذا كان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

قلنا إن التكاليف العرفية كانت كثيرة جداً وقد أتى زمن بلغت فيه سبعا وتسعين ضريبة ورسم ، حتى إن سليم الأول لما فتح الشام وضع مكوساً على الأحكام الشرعية فتعطلت الحدود ، وضرب على المواخير والحانات والموسسات<sup>(١)</sup> رسوماً ينجل<sup>١</sup> من ذكرها . وصادر تجار حلب وسمى ما أخذه منهم مال الأمان . والأنكى أنه ما كان يحمل إلى خزانة الدولة إلا بعض هذه المغارم ، والقسم الآخر يستسيغه انظلمة من العمال . وقد يضيق السلطان فيطالب الرعية بعوارض سنتين أو ثلاث مقدماً . والمصادرات والغرامات والأتاوات على الغرباء وخمس الغنائم هى جماع أموال السلطان . وجاء يوم والسلطان العثمانى أغنى ملك فى عصره ، على ما كان أقوى ملك بجيشه وجنده ، وقدر دخله السنوى

( ١ ) أعيان المئة العاشرة للنجم الفزى ( مخطوط ) .

بائتي عشر مليون دوكا<sup>(١)</sup> ، وكان دخل شارل كان أعظم ملوك الغرب لذلك العهد ستة ملايين دوكا . وبعد المئة العاشرة من الهجرة أصبح من الموارد المهمة للدولة ما يصادر من أموال الوزراء والأمراء وغيرهم .

وقلت الموارد من الغنائم في العصور الأخيرة وكثرت الحروب : ولما نصب ما في خزائن الدولة وجيوب الرعايا حاولت الدولة منذ سنة ١٨٠٨ م أن تقترض مالا من أوروبا ، وفاوضت المالين والسياسيين فلم توفق إلى تحقيق أمنيتها إلا في حرب القرم أي في سنة ١٨٥٤ م ، وقد أدخلت الدولة في عداد الدول الأوروبية ، فأخذت تقترض بالفائدة الفاحشة . ولما أعلنت الدولة إفلاسها بعجزها عن تأدية النجوم المستحقة من رأس المال ورباه ، ترك أرباب الديوان لها خمسة وثمانين مليون ليرة عثمانية : وسرعان ما نسيت الدولة معرة إفلاسها فعادت إلى ما كانت عليه من الإسراف ، وعلى ملوكها تحمل أكبر تبعة ، وكان عبد الحميد الثاني يمزج حاجاته الخاصة باحتياجات المملكة ويبالغ في الإنفاق ؛ إلا أنه يحاول أن لا يستدين من الغرب ما أمكن .

والواقع أن الإسراف بعد محمد الفاتح أصبح محسوساً في جميع الطبقات التركية ، واستلزمت الحياة الحديدية التي دخل الأتراك في طورها إنفاقاً وبذخاً . وكثر التشبه بالكبراء وأرباب النعم والرفاهية . فبدأت الرشوة تفسو حتى أصبحت مما لا يكاد ينكر على من يأخذها في العصور المقبلة ، يُسَفَّ إليها الصدور العظام كما يتناولها أصغر موظف في الدولة . وكثرت المصادرات لأقل سبب ، فأنشأ من يملكون النقدين الذهب والفضة يدفنون في بطون الأرض ومخابي الأبنية ما يخشون عليه المصادرة ويخفون أمره حتى عن عيالهم . ولما كان يظهر أحد بمظهر نعمة وسعة إلا وتختلق الأسباب لمصادرته ، سواء أكان تاجراً أم مزارعاً ، وكان أكثر ما يصاب بالمصادرات الأروام واليهود لا شغلهم بالصرافة والربا ، أما مصادرة الوزراء وغيرهم فكانت العلاج الوحيد لهم ، إن كان ينجع في الفاسد علاج . فقد صودر أحد أغوات البنات

(١) الدوكا : نقد ذهبي أسباني قيمته نحو عشرة إلى اثني عشرة فرنكاً ذهبياً .

« قيزلر أغاسي » في سراي عثمان الثاني على مليونين ونصف مليون ليرة عثمانية وخلف « جنججي خوجه » خمسين مليون قرش ذهباً ، كان جمعها في خمس سنين من الرشاوي والهدايا والانعامات . وأمثال هذين الرجلين عشرات في كل دور من أدوار السلطنة العثمانية « فأشبه الأتراك<sup>(١)</sup> الرومان في الإكثار من المصادرات ، وكان الرومان يقتلون الناس لهذا الغرض وكثر القتل في بعض أدوارهم ففقدت الثروة في رومية ، وكذلك فعل رجل الدولة العثمانية قديماً ، كانوا يهلكون الناس ليصادروهم ، وكان ذلك من الدواعي إلى الاستكثار من الوقوف والأحباس لتخوف الكبراء على ثروتهم . وربما عد ذلك من العوامل في فقر البلاد العثمانية » .

يقول جودت<sup>(٢)</sup> إن أسلاف السلاطين العثمانيين العظام كانوا يخرجون مع عساكرهم زمن الحرب إلى أكثر الغزوات ، فإذا عادوا إلى مقر السلطنة لا يمكنون فيه مدة طويلة ، فينصبون أحد الوزراء قائم مقام على الاستانة ويحيلون وظيفة ضبط البلدة إلى ناظر « الضبطية » وهو أغا الانكشارية الثاني ، ثم ينقلبون مع رجال الدولة والعلماء والوزراء ومستشاري السلطنة وبطانتها إلى أرجاء أمده وينشهر يتجولون فيها ، ويقضون أوقاتهم تارة في الصيد والقنص ، وهما من التمارين الحربية ، ويتوفرون آونة على معاناة الأعمال العسكرية كرمي الأهداف بالرصاص والسهام . فكان أركان السلطنة وسائر أعمالها بمثابة قوة سيارة خفيفة المؤونة في أيام السلم ، يشبهون القبائل الرحالة لا أرب لهم في الرفاهية ودواعيها ، والرفاهية تستدعي النفقات الطائلة ، فلذلك كانت إداراتهم تزيد على نفقاتهم ،

قال : ومما يروى أن أحمد باشا صهر رستم باشا تقلد منصب الوزير الرابع في حرب سكتوار ثم أسندت إليه الصدارة العظمى ، ولما تقلد الوزارة أول مرة لم يكن يملك من البسة الأبهة غير فروتين يتجمل بإحدهما في الديوان ويلبس الثانية في بيته ، مع أنه كان يملك خمسمائة مملوك بالعدة الكاملة . وكان جماع

( ١ ) مقدرات تاريخية لجلال نوري . ( ٢ ) تاريخ جودت .

الوزراء على هذا المنوال ، وفي ضياع كل واحد منهم مائة قطار من البغال ومائة من الخمال ، فإذا سار أحدهم إلى وجه يستغنى عن شراء جمل أو حصان ، وتيسر له أسباب الرحلة في ثلاثة أيام ، ثم انتقلت الدولة من البداوة إلى الحضارة ، وأصبح الملوك يقيمون في دار الخلافة حتى اطمأنوا إلى الراحة ، واقتدى بهم في هذا الشأن رجال الدولة ، فعمروا القصور الشائخة والمباني العظيمة في الآستانة ، وجعلوها بأنواع الزينة والزخارف والأثاث الثمين ، فسرى داء التقليد إلى العامة ، وزادت نفقات أرباب المناصب والعمال زيادة فاحشة عن مشاهرتهم ، فاضطروا إلى تناول الرشوة ، وغدا أرباب الإقطاعات والزعامات يلزمون أرضهم بأجور باهظة ، ويتقاضى الملزمون الفقراء من الناس ما لا طاقة لهم بتحميله من المظالم والمغارم ، ليتأثلوا ما يسد نهمهم وتربح به تجارتهم ، مما أهاب بمعظم الأهليين إلى الهجرة من أوطانهم ، وارتحل الرغايا وأهل الذمة منهم إلى الديار الأجنبية ، ونزل كثير من الناس عاصمة الملك واستوطنوها وتكاثروا فيها حتى غصت بهم وضافت على اتساعها ، وكثر انتشار الحريق ، وفسد الهواء بكثرة الزحام وانتشرت الأمراض والعلال الوافدة ، وعزت المؤن والغلات ، فأكرت الحكومة على ابتياعها واشتط الباعة في أسعارها ، فكان ذلك داعياً إلى خراب البلاد اه :

ومهما قيل في وضع أنظمة الدولة في فجر حياتها فإن قوانينها كانت على حالة ابتدائية ساذجة مستوحاة من حياة أشبه بدوية ساذجة ، وهذه القوانين كثرت بعد ذلك ثم تعقدت بطول الزمن ، وضع محمد الفاتح قانوناً للروم لما قضى على آخر سلاطينهم في القسطنطينية رأوا فيه (١) فرقاً كبيراً بين ما كانوا يعاملون به ، وما أحسن به معاملتهم ، فارتاحوا من مشاكلهم واختلافاتهم القديمة ، وغض أخلافه من السلاطين الطرف عن بطريك الروم ، فكان بما خوله من الحقوق أشبه بحكومة وسط حكومة ، وظل وجماعته ممتعين بخير حال نحو خمسمائة سنة ، وهم مستقلون بالفعل ولا يتقاضاهم

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو .

استقلالهم جنداً<sup>(١)</sup> ولا مالا . كل هذا أصابهم من فضل الفاتح وتسامحه وتسامح أبنائه وأحفاده ، وفي عهده بدأت الجبايات والمكوس والجمارك تعطى بصورة تلزيم مقابل مبلغ معين ، كان الالتزام لسنة واحدة أولاً ثم صار الالتزام مدى الحياة ، يستأجر المسلمون الأرض وغيرها ، والنصارى تحت أيديهم يعملون فيربحون ثمراتها .

لما فتح العثمانيون بلاد العرب وألقوا بمقاليد إدارتها إلى أيدي المتغلبين من أهلها مقابل إتاوة تؤدى كل عام في دار الملك ، تركوا الإدارة في مصر والشام للمماليك أو المتغلبة من أمراء البر ، فنهجوا بها النهج الذى نهجته الدولة قبلهم : تقطع الدولة الأقاليم الواسعة بمال تستوفيه كل سنة من المتغلبين وأرباب العصبيات ، أو تضع الولايات في المزاد فيقلدها من رسا عليهم ضمان الولاية ، وتعهد بمال أكثر من غيره ، واكتفت الدولة بإرسال وال إلى الشام وآخر إلى مصر لمدة سنة على الأكثر ، ولا يتولى ولاية مصر أهم ولايات السلطنة<sup>(٢)</sup> إلا « باشاوات » يؤدون إلى رجال الدولة إتاوة كبيرة من المال تختلف بين أربعائة إلى خمسمائة ألف ريال ، وتتجدد ولايته سنة أخرى بإرسال هدايا إلى العاصمة تربى على مائة ألف ريال مشفوعة بالخراج السنوى وقدره ستمائة ألف ريال ، وهدايا من السكر والبن والأرز والشراب والحلواء والغلال مما لا تقل قيمته عن ستمائة ألف ريال ، وهذا عدا نفقات قافلة الحج المصرى ونفقات الجنود في مصر . وفي مقابل هذه النفقات يتصرف الوالى في الدخل ، ويحصل منه كل سنة بعد وفاء نفقات الجند أكثر من عشرين مليون فرنك ، وإليه تؤول تركات المتوفين بلا عقب ، ويكثر دخله من هذه الناحية إذا وقع وباء في البلاد ، قال مابيه<sup>(٣)</sup> : وقد يبلغ دخل الوالى في يوم واحد من أيام الوباء من مائتى ألف إلى ثلثمائة ألف ريال ، لحلاك من يمتلكون القرى ؛ ذلك لأن قوانين الحكومة تقضى برجوع ملكية المزارع إلى الخليفة بعد وفاة

( ٢ ) تاريخ الحركة القومية الرافضى .

( ١ ) معلة الإسلام . محمد الثانى .

( ٣ ) مالية مصر لعمر طوسون .

أصحابها ، وفي تقرير لأحد قناصل البندقية أن منصب الوالى عند العثمانيين كان يكلف فى الاستانة من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف دوكا ومنصب الدفتر دار يباع من ٤٠ إلى ١٥٠ ألف دوكا ، ومنصب القاضى يساوى أقل من هذه القيمة .

كانت إدارة الحكومة المدنية والمالية فى مصر بيد المالك ، وإليهم توزيع الأعطيات والأرزاق على الجنود ، فأصبح هؤلاء تبعاً لهم بحكم الروابط المدنية ، ثم صار رؤساء « الوجاقات »<sup>(١)</sup> وأغلب ضباطها من المالك فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية فى أيديهم ، واتصل ضباط الوجاقات وأفرادها بالمالك بأواصر المصاهرة ولحمة القربى ، فأصبحوا من حزبهم وأهلهم وعشيرتهم وأتباعهم ، بعد أن كانوا مستعدين لحربهم وإخضاعهم ، فاضمحلت سلطة الولاة العثمانيين ، وعظم نفوذ البكوات المالك واسترجعوا على الزمن سلطة الحكم التى كانت للسلطين البحرية والشرابكة ، والأمة فى ذلك طعمة للملتزمين والغاشمين من الموظفين ، فانصرفت عن الزراعة وتعطلت الأعمال ، وهبطت قيمة الأرض فقلت الجباية ، وخولت طريقة التلزم للملتزمين سلطة على الفلاحين ، يفرضون على أملاكهم ما شاءوا وشاءت أهواؤهم من الضرائب والإتاوات ، والملتزم حر بنقل الفلاح ونزع يده عن الأرض . ونظام الالتزام يشبه نظام الإقطاعات التى رزحت أوربا تحت قروناً ، وكانت أموال الرعايا وأعراضهم وأرواحهم مباحة لصاحب المقاطعة ، وإذا زاد نفوذه ينزع إلى الثروة ، فيبدأ بمنع الخراج عن الدولة وتضطر إلى إرسال حملة عليه ، ويبقى السكان بين نارين ، نار الثائر ونار القائمين بكبح جماحه . وكم من فتنة أوقدها العمال ليشغلوا الناس والدولة ، وتبقى لهم الحكومة يستمتعون بها مديدة .

والتقاعد فى إدارة العثمانيين أن يكذب الوالى على من نصبه على الأكثر ويكذب على من يختفون به ، ويبقى التفرقة بين أرباب النفوذ والمتغلبين ، وبين أبناء العناصر الأديان . وينشئ فى طلب المال لنسديد حسابه مع

( ١ ) تاريخ الحركة القومية لرافعى . ( ٢ ) طبقات المسكر .

الاستانة . ولا يتولى الولاية إلا من تروق الاستانة شروطه من بين من دخل من الطالبين لها في سوق المزايدة ، ويسارع إلى تبديل العمال حتى يتم لرجال العاصمة ما يطعمون فيه من المال ، ومن يوقن أنه مهدد كل حين بالعزل ، وعليه إتاوة يجب عليه دفعها وهدايا ورشاوى لا بد من تقديمها ، لا يتوفر في الغالب على غير نهب الرعية وسرقة أموال الدولة . يقول جودت<sup>(١)</sup> في حوادث سنة ١٢٠٠ هـ « إن وظيفة جاني المال في حلب كانت منذ أربعين سنة مطمح أنظار الموظفين في الدولة ، لأنها تعود عليهم بثروات طائلة ، إذا حملوها إلى الآستانة ينالون بها رتبة الوزارة ورتبة ميرمران . جرى ذلك لأحمد باشا (الجزار) فأخذ العلم والطوخ<sup>(٢)</sup> واشتهر شهرة عظيمة . وما برحت هذه الوظيفة تباع وتشترى بالمزاد . وكثيراً ما كانت الدولة ترسل مفتشين يشاركون في المغنم هؤلاء المرتشين من الجباة<sup>(٣)</sup> » .

وأعظم سبب في شيوع الرشوة أن الموظفين والعمال يعفون على الغالب من العقوبات مهما أجزموا ، لا يعاقبون بأكثر من أن ينقلوا من ولاية إلى أخرى فيمثلون في الثانية ما مثلوه في الأولى ، وما قامت ثورة أهلية في السلطنة إلا كان العمال السبب فيها . ومن تكتب له حظوة عند الناس من العمال لحصافته وشرف نفسه قد يكون من المبعدين ، وتختار الدولة المتوسطين في إدارتهم ومعلوماتهم على الأكثر أو من يتباهون وينافقون ، وتحاذر وزراءها في دار الملك فتقصيهم إلى الولايات عند أقل شبهة ، أو لجرد شهوة السلطان أو لوشاية

(١) تاريخ جودت .

(٢) الطوخ ذنب الحصان يعلق من أسفله في رأس عصا طولها نحو ثلاثة أذرع وشعره مسدول عليها ، تعطى الدولة واليهما ثلاثة أطواح إذا ارتحل ، فيرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم إلى محل نزوله ، ليستعد الناس لاستقباله ، ويهيا له ما يلزمه من المأكل والملف والدواب بلا ثمن ، أما الطوخان الباقيان فيجعلان أمام الوزير في السفر .

(٣) كاتب هذا القول كان من وزراء عبد الحميد الثاني الذين تطوعوا لتنفيذ إرادته بالحق والباطل وهو من أعظم المرتشين المصوص على نحو ما كان عشرات مثله في العصر الحميدي ومنهم من جمع ملايين من الجنيحات العثمانية الذهبية في سنين قليلة .

الواشين وتصادرهم وتعذبهم . ومن يعرفون أن مصيرهم إلى مثل هذه الحال لا يتدمون من شقاء الناس ولا يرحمونهم ، ويتناسون أن الحكم أمانة في عنق صاحب الشرف .

ومن القواعد التي لا تتخلف كثيراً في دار الملك أن كل رجل يتحدث له بعض قوة ، وتنطوى نفسه على شيء من حب المغامرة ، يستجيش له أناسا من الغوغاء ، ويؤلف له حزبا يستغويه بالوعود الخلافة ، فلا يلبث أن يستولى على الأمر ، ويشرد سلفه أو يقتله وبعض كبار حاشيته ؛ تشتد شكيمة القوى مدة فيحكم ويتبسط سلطانه ، حتى يقوم أقوى منه فيسقطه ويتبوأ مكانه ، ويخرب ما عمله سلفه من أعمال ، وينهج غير نهجه في الإدارة ، ولا شأن له غير ابتزاز الأموال وإسكات الناس عن الخوض في أمور الدولة ومن جرؤ على أمر بمعروف ونهى عن منكر يشرد ويضطهد ، ويتم بعضا من ما دارت له في خلد ، وقد تكون دعوته لإزالة شر أو لبث فكرة يكون من أثرها إصلاح سلطانهم ، فيتهمونه بالخنون أو المروق من الدين أو بدعوى النبوة أو الألوهية أو أنه يدعو إلى أن يكون النساء مشتركات بين الناس ، ويحلل ما حرم الله إلى غير ذلك من الأكاذيب ، ليصرفوا أذهان العامة والخاصة عن حقيقته ، حتى لا يأسف الخلق عليه ، ولا ينصروه إن أمكنهم نصره .

قالوا إن سليمان القانوني أصلح إدارة المملكة ووضع قواعد لإدارة الدولة في داخلتها ، وكان (١) أجداده وضعوا أساس هذه الأصول فكلت في عهده ، ووضع قوانين لتنظيم إقطاعات الجند وملكية الأرضين ونظام الشرطة وقانون العقوبات ، وقوانين للانتفاع من العناصر غير المسلمة في الدولة كقانون اللقطاء وبه أصبحت الوظائف السامية في الدولة تسند إلى من دانوا بالإسلام حديثاً . وفي أيامه نبغ محمد الصوقلى وخير الدين بربروس والعالم ابن كمال والمهندس سنان وأن كل واحد منهم عمل في محيطه الخاص ، ولكنهم لم يوحّدوا جهودهم

(١) سلامة الإسلام : مادة سليمان .

وما وجهوها إلى هدف واحد . قالوا هذا وما نخال أنه ظهر أثر محسوس في الولايات العربية بإصلاحه . وكأن من حكموا هذه الأحكام خلدتهم قوانين جميلة سطرت على الورق فقط .

تقدم معنا أن جيش الانكشارية بدأ انحطاطه من عهد مراد الثالث وقد رأيناه في عهده الأخير أعظم عابث في الولايات بحياة الرعية ، يقتل بعضه بعضاً ويقتل مع الطبقات العسكرية التي أنشئت بعد مثل السكبان والقبوقولى والدالاتية . وكم من فتنه حدثت بين هذه الطبقات من الحاميات . وكان معظم ضرره أيام السلم يتناول أبناء الأمة ويسلب قراها ويبتز أموالها ويسطو على النساء والولدان فزاد بجبروته في شقاء البلاد . ويضاف إلى ذلك أن معظم الموظفين والضباط لا يقبضون رواتبهم كل شهر ، وإذا قبضوها لا تقوم بحاجتهم ، فيرجعون أبداً على جيوب ضعاف السكان يسددون منها العجز ، وليس للدولة موازنة ثابتة تعرف بها دخلها من خرجها ، إن جاءتها أموال ومغانم في بعض السنين أسرفت فيها ، فإذا أحست الضائقة تمسك عن دفع مشاهرات عمالها والإنفاق على جندها فينهالون على الخلق ، ويكاد يكون معظم أموال الجباية خاصاً بحاشية السلطان وقصره يحمل منها إلى خزانته ما يحب ويهوى .

شعر كثير من المنورين في دار الملك بسوء حال الدولة ، وأيقنوا أنها إذا لم تصلح إدارتها يتداعى هذا الملك العظيم ، وكان معظم من يهتمون لذلك من طبقات العمال والموظفين وما برحوا يقدرون ويعملون حتى نشرت الدولة في سنة ( ١٢٥٥ هـ ١٨٣٩ م ) خط « كلبخانة » في الإصلاحات . حمل السلطان عليها رجال الدولة وقيل جاءهم الإيعاز بها من بعض الدول الحريصة على بقائها ، وهذا الخط عبارة عن إعلان<sup>(١)</sup> من السلطان يذكر فيه أنه وطد العزم على إنقاذ أغراض سامية رعاياه وأموالهم ، وأن يبطل تلزيم الجباية ، وأن يكون التجنيد في الجيش على طريقة منظمة ، وأن يحاكم المجرمون جهرة في محاكم

(١) معلة الإسلام : مادة تنظيمات .

معينة ، وأن يكون جميع الرعية « أهل الإسلام والملل الأخرى » .  
أحراراً أمام القانون ، من غير استثناء ، وقد ورد في أوله أن سبب نجاح  
الدولة العثمانية في القديم هو رعايتها أحكام القرآن ، وجاء في آخره أنه يراد  
من هذا القانون القضاء على العادات القديمة .

نشأت صعوبات جمة من تطبيق القانون الجديد المنقول عن القوانين  
الفرنسية ، والمقصود منه أولاً إرضاء الدول الأوربية التي اشتد تدخلها في  
خصوصيات السلطنة بحق وبلا حق . ذلك لأن قانون أمة وهوزبدة تاريخها  
ومحيطها وعاداتها ومصطلحاتها ، يصعب تطبيقه على أمة أخرى ليس لها مثل  
نزعاتها ومدنيتها ، ورب قانون لأمة راقية يتعذر إنفاذه في أمة منحطة ويضر  
في كيانه أكثر مما ينفعه ، وخاصة إذا كانت متنوعة الشعوب والمدنيات  
واللغات والأجواء كالعثمانيين . فلقد حاذر غير المسلمين مساواتهم في هذا  
القانون الجديد لئلا يفقدوا جانباً مما كانوا يتمتعون به من الحقوق منذ عهد  
الفتح ، ومنها إعفاؤهم من الخدمة العسكرية ، وإمتاع كنائسهم بحق الاشتراع  
لطوائفهم ، وإطلاق حريتهم في تنظيم شؤونهم المالية ، فكثرت الاعتراضات من  
كل جانب . وكان النصارى بعد عهد الإصلاحات يتمتعون بكل ما فيها من  
مرافق ويبعدون عما فيها من متاعب لأن الدول عاوتهم على مطالبهم وقالت  
للدولة أنت وشأنك مع المسلمين . قال ريشارود : « أما اعتراض المعارضين  
بأن المساواة بين الطوائف غير كاملة ما دام النصارى لم يشتركوا في الجندية  
العثمانية فجوابنا عنه أن الذنب في ذلك على النصارى أنفسهم لا على الباب  
العالي ، إذ النصارى مع حرصهم على نيل كل الحقوق لم يقبلوا أن يدخلوا  
تحت ما يقابلها من الواجبات » .

كان للأجانب من قانون الامتيازات الأجنبية أعظم وسيلة لتدخل وكلاء  
الدول في أمور الدولة بحجة النظر في حقوق رعاياهم ، وقد دعا إلى تمتع الغرباء  
في بلاد السلطنة العثمانية بهذه الامتيازات اعتياد الحكومات<sup>(١)</sup> الإسلامية منذ

( ١ ) نظام القضاء والإدارة لأحمد قسحة .

القديم التساهل مع النصارى في بلادها ، فأجازت لها عدم اتباع الأحكام المرغية ، وتركهم يتقاضون في أحوال مخصوصة بحسب قواعد دينهم والمعمول به من قوانينهم ، فأصبحت هذه العادة قانوناً نافذاً مع الزمن ، وبكثرة الاختلاط وتمكن العلائق أضحى هذا التسامح حقاً لهم لا يحتمل النزاع ، ومن هذه الامتيازات ما بنى على معاهدة كمعاهدة صلاح الدين مع جمهورية ييزا ( ٥٦٩ - ١١٧٢ ) وبها منحت عدة امتيازات خاصة بالتقاضي ، ومعاهدة قايتباي ( ١٤٨٨ م ) مع الفلورنتيين الطليان . وقد جاء فيها أنه إذا حدث خلاف بين الفلورنتية أنفسهم فليس لقضاة المسلمين وحكامهم أن ينظروا في مسائلهم ، والحكم في ذلك لقنصل الفلورنتيين ، يحكم في هذه الحالة بما يناسب القوانين الفلورنتية . وجرى التوسع في العمل بهذه المعاهدات ، حتى عمت جميع رعايا الدول النصرانية ثم أهمل العمل بها مدة . فلما جاءت الدولة العثمانية عقدت معاهدة تجارية بين سليمان الأول وفرنسوا الأول ملك فرنسا في سنة ١٥٣٥ لضمان أرواح الفرنسيين وتجارتهم وكان البنادقة عقدوا مثل هذه المعاهدة فأصبحت لهم امتيازات وحقوق مكتسبة . وعقدت معاهدة بين محمود الأول ولويس الخامس عشر ملك فرنسا في سنة ١٧٤٠ م وبها غدت فرنسا صاحبة الشأن الأول في حماية رعاياها وجميع من يلتجئون إليها من الأجانب . وجرت الدول على سياسة فرنسا في عقد مثل هذه المعاهدات ولا سيما روسيا . وأخذت الامتيازات تزداد شيئاً فشيئاً بمساعي الدول من جهة ، وبإهمال الحكومات الشرقية من جهة أخرى ، وبإقرارها بعض عادات كانت خارجة عن نصوص المعاهدات :

وعلى هذا عاق قانون الامتيازات الأجنبية تطبيق الاصلاحات التي أزمع رجال الدولة القيام بها ، لمكان الغرباء ممتعين بامتيازات دون غيرهم ، ولأن النصارى من أهل البلاد يريدون أن لا يسرى عليهم من أحكام القانون الجديد إلا ما يروقهم ويتفق وراحتهم . وهذا مما يناهى وجهة نظر الاصلاح المطاوب

منه حصر كل سلطة بالدولة<sup>(١)</sup> . ونتجت من قانون « التنظيمات الخيرية » أعظم المشاكل المعقدة ، فأنشأت الدول تتدخل في أمور السلطنة ومن جملتها المقام البابوي في رومية ، يريد إمتناع المدارس الكاثوليكية ورهبانها بامتيازات تحميمهم وتبنيهم لهم أسباب التبشير بدينه .

كان من الإصلاحات التي قام بها الوزير رشيد بعد سنة ١٢٥٥ هـ ، وضع أصول جديدة لإدارة الولايات على قاعدة المركزية . ثم توسعت بعد حين وجرى تعديلها والعمل بها إلى آخر أيام السلطنة . وأنشئت القوانين العدلية ( الحقانية ) ومنها قانون التجارة ، وأسست المحاكم ومنها المحاكم المختلطة ، للاختلال المشهود في المحاكم الأهلية ، ونقل قانون الجزاء إلى التركية ، ووضعت مجلة الأحكام العدلية مأخوذة من كتب المذهب الحنفي مذهب الدولة ، ثم أنشئت وزارة المعارف والجامعة ( ١٨٤٥ ) ثم المدارس المتنوعة المقاصد في دار الملك ، ولم تثمر هذه الإصلاحات إلا في أواخر القرن التاسع عشر وجنى من ثمرتها الأتراك أكثر من العنصر العربي .

وبهذه القوانين والإصلاحات وإن لم تنفذ كلها دخلت السلطنة في عداد الأمم المتمدنة ، وزاد توغل الأجانب في البلاد وإشرافهم على سير الحكومة فيها ، وتيسر لهم نيل امتيازات لشركات من رعاياهم استولت على اقتصاديات البلاد وطرق مواصلاتها . وأنشأوا يبشرون فيها بالنصرانية ويحببون إلى المتعلمين لغاتهم فزاد بذلك التباين بين المسلمين وغيرهم ، وكثر بعض العناصر غير المسلمة للعناصر المسلمة ، وكان من هذا التعليم بلاء على الأرمن خاصة ، وكان الروم والبلغار والصرب والرومان باكروا الاستقلال في ولاياتهم ، وكان تعليم أفراد منهم من العوامل المفيدة في تحقيق أمانهم القومية . ومهما قيل في الداعي لتسليط أصابع الدول الغربية إلى المسائل العثمانية وفي اشتطاطها عليها في الأحايين ، فإنه مما لا جدال فيه أن الإدارة العثمانية كانت في معظم أدوارها مختلة على ما اعترف بذلك علماء الاجتماع والتاريخ والسياسة من التزك أنفسهم ، وظهر في القرن الماضي الفرق بين إدارة بلاد الغرب وإدارة

( ١ ) معلمة الإسلام . تنظيمات .

العثمانيين ، وكانت مساحة بلاد الدولة لا تقل عن نصف أوربا بعد القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتجلى البون الشاسع بين أمة جامدة أو مجموعة شعوب جامدة مشتتة أهواؤهم ، لاوازع يضم شملهم ، وبين أمم متوحدة تتحرك وتتكلم وتعاود نُظُمُها بالحذف والإثبات ، وتسير مع العقل في إقامة بنيان ممالكها .

كان منشأ كل وهن دخل في جسم السلطنة وعبث بكيان سكانها من تبلبل الإدارة في ولاياتها ، وكانت البلاد ولا سيما مصر والشام في عهد المماليك البحرية والبرجية أرقى مما صارت إليه في عهد العثمانيين ، لأن البلاد كانت مجموعة الشمل في الحملة ، وكان التركي يعيش ببقايا مدنيات الدول السالفة فأكل من ثمراتها حتى نفدت ، وهلك لما أتى على الأخضر واليابس ، وما حدثته نفسه أن يحدث غرساً ، ولا أن يطرح زواناً وعوسجاً . والدولة ما فكرت في غير الاحتفاظ بحقوق سيادتها ، وما خطر لها أن تمنح على رعاياها فتعطيم بعض ما تأخذه منهم ، وبدخول الأتراك العثمانيين في بلاد العرب نامت هذه نومة غير هادئة ، واستشرى فيها الفساد وكثرت المغازم ، واشتط سلطان المتغلبين وعبث البادية ، فزادت مساحة القفار من البلاد زيادة فاحشة ، وخلت القرى من سكانها ، وهام مئات الألوف على وجوههم في أقطار الأرض ، يطلبون الرزق ويفرون من الظلم . وكانت الدولة إذا غضبت على أحد أرباب المقاطعات ترسل عليه حملة يكون أول عمل لها في التأديب قطع أشجار المقاطعة وتخريب بيوت سكانها ، فزادت البلاد بهذا التدبير للتدمير خراباً فوق خرابها . فقد كان مثلاً في أعمال حلب ثلاثة آلاف ومائتا قرية تدفع الخراج قبل استيلاء العثمانيين فنزل عددها إلى أربعمئة في عهدهم . وكان في غوطة دمشق (١) أواخر عهد المماليك ثلثمائة وخمسون قرية لا تزال أكثر دمنها ظاهرة وبعض أسمائها متعارفة ، ولما غادر الترك البلاد كان في الغوطة نحو ستين قرية فقط وهكذا يقال في عامة الأقطار .

(١) زبدة كشف الممالك للناصري .

أدرك عظماء السلطنة عاقبة هذه الأمراض على الدولة ، وكانوا يزعمون كلما تذرعوا بالإصلاح أن الصدمات تأتيهم من الداخل والخارج ، والحقيقة أنهم كانوا عاجزين عجزاً مطلقاً ، وكسالى لا يحبون التعب . عرف رجال الدولة في العهد الأخير أمثال رشيد وعالي وفؤاد ومدحت وكامل وسعيد مواطن الداء ولكنهم ما وفقوا قط إلى وصف الدواء الناجع . وكان الوزير رشيد كثيراً ما يردد قوله إن المملكة العثمانية إما أن تصلح نفسها وإما أن تنقرض . وكيف لا نقول بعجزها ، والقضاء كان كالسلع يوضع في السوق ، فمن دفع الثمن الأعلى تولاه ، ولو كان فيه جميع العيوب الشرعية . أسسوا منذ سنة ١٢٧٢ هـ في العاصمة مدرسة للنواب أي القضاة ولكنهم ظلوا إلى آخر أيامهم يوسدون القضاء إلى الأميين والساقطين ، وكيف يقيم العدل بين الناس من دفع ثمن قضائه ، والقضاء إلى عهد قريب كان مرجع كل شيء .

والظاهر أن العقلاء من رجال العثمانيين في كل عصر أمثال جاندارلى وأوره نوس وميخال أوغلى ثم صوقوللى وكوبرلى ونظرائهم حتى الذين أدركناهم من الوزراء ، كان همهم الأعظم موجهاً في الأعم الأغلب إلى سياسة الدولة ودفع صائل الغربى عنها أيام الضعف ، والتوسع في فتح بلاد جديدة أيام القوة ، وقلما كانوا يهتمون بتطهير المملكة من أهل الفساد ، ولا ينفذون من ناموس الإدارة ما يخففون به فقر البلاد وبؤسها ، فتركوا الأهالي يعماون ما شاءوا إذا أدوا ما عليهم لخزانتها . وليس من شك أن مصر والشام وسائر بلاد العرب كانت في الفتح العثماني قد ضعفت تجارتها لاستئثار البرتغاليين بتجارة الهند<sup>(١)</sup> فأصبحت هذه البلاد بمعزل عن حركة الأسواق وقل سكانها ، وكان فتح سليم الأول نافعاً لها كما قالت معامة الإسلام من الوجهتين الدينية والسياسية ، لأنه أنشأ دولة سنية قوية أمام دولة النمرس الشيعية ، فراجع التشيع أمام التسنن ، ونحن نقول إن البلاد شاركت في حفظ مملكة لا تبطل

حروبها وفتنها ، وولاتها لا يعرفون ما يصلحها فتراجعت تراجعها ، وانجلت أوضاعها علاوة على ما كانت مُنيت به من الانحلال .

مثال من عجز الدولة وأن نسبة الإخفاق إلى معاكسات الأجانب غير صحيحة دائماً ، إنها كانت إذا أعلنت حرباً أو أرادت إطفاء فتنة داخلية ، يموت من جندها ورعاياها بالأمراض والإهمال أكثر ممن يموت بالسيف والنار ، وذلك لأنها كانت ترسل ابن البلاد الباردة إلى البلاد الحارة والعكس بالعكس فيهلك الخلائق بالألوف ، يهلكون بقلة التدبير والبصيرة . والمملكة لا طرق لها ، وليس للجند ما كل مغذية كافية ولا ألبسة داخنة ، ولا شيء من أسباب الصحة مما تحفظ به حياة الآدميين . يشاهد ذلك في معظم أدوار السلطنة ، وما استطاع قائد ولا صدر ولا وال أن يدخل الإصلاح المطلوب على هذا الخلل الممكن تلافيه ، وأنت ترى أنه يحتاج إلى عقل يميز ويقدر ، وأيد تحب أن تعمل أكثر من احتياجه إلى المال . وندر جداً من عمال السلطنة من كان ينظر لمصلحتها الحقيقية ، كما عز من لم يكن هدفه من عمله غير جمع المال يعمر به على الأقل قصرآ في أرباض العاصمة ، ويترك لأسرته ثروة .

كان الفلاحون إذا ضاقت بهم الحال في قريتهم ، واشتط عليهم المتغلبون وأرباب المقاطعات ، يهجرونها إلى قرية بعيدة في إقليم آخر ، ففقد الاستقرار ، وقد تتعطل الزراعات سنة وربما سنين ، ولا يداوى أرباب القرى ما ينعون فيه إلا باستعمال السياط وضبط الفرش والماعون ، وأحياناً ضبط النساء والأولاد . وجاء زمان والفلاحون ينزلون برضاهم عن أرضهم إلى الكبراء ، لأنهم لا يستغلون منها ما ينفي بالضرائب الموضوعة عليها . بل أتى دهر وأرباب النفوذ إذا غضبوا على إنسان يأتون بشاهدين يشهدان عليه أنه عبدهم فيسترقونه . وجاء زمن وأعراب البادية يتقاضون حتى من المدن «خوة» أو مالا سنوياً ، ولهم على كل قرية مبالغ أو إتاوة سنوية وإلا رعوا الزروع وقطعوا الأشجار وخرّبوا المساكن وقتلوا الأنفس .

أما ظلم الولاة فهو القاعدة المطردة في الغالب ، ومنهم من كانوا يقتلون المارة يتصيدونهم في الطرق ، كما كان يتصيد الانكشارية الأبرياء من الناس ليجربوا بنادقهم . وقد وقع لوالى حلب أنه كان يغتال كل يوم في الشوارع بضعة رجال من أبناء السبيل ، ولما سئل عن الداعي إلى القتل قال : إنه يجب إلقاء الرهبة في النفوس ، ويريد بعمله أن يجعل للحكومة هيبة ووقاراً . وظلم الملوك قد يصل إلى أبغ من هذا ، فقد قتل السلطان سليم أهل الرملة رملة فلسطين بأجمعهم ، وأصدر ابنه سليمان أمره بقتل أهل حلب عن آخرهم . فحال الصدر الأعظم دون إنفاذ هذه الإرادة الخرقاء ، واكتفوا بقتل من غضب عليهم السلطان : وعجيب مع هذه الإدارة الحمقاء أن يبقى لإنسان في الأرض العثمانية يزرع ويصنع ويتجر .

أما مصر قبل أن يستقل بها محمد علي فكانت حالتها الإدارية مختلة ، ومن أحب أن يتعرف حقيقتها كما هي ، فعنده قدر كاف في تاريخ الجبرتي (٢) يرى فيه صورة بشعة من بلاد هي على الدوام عرضة لفرق الصناجق والأغوات والبلوكات وجميع الوجاقات ، والفتن بين الفقارية والقاسمية يقتل فيها الناس وتحرق دورهم وتصادر أموالهم حتى أصبح دم الإنسان كفاء دم كلب أو هر . وعت « الرشا والتحيل على مصادرة بعض الأغنياء في أموالهم » « حتى صارت سنة مقررة وطريقة مسلوكة ليست منكورة ، وكذلك المصالححة على تركات الأغنياء التي لها وارث » ويقبضون « على كثير من مساتير الناس والتجار والمتسبين » يحبسونهم ويصادرهم ويسلبون ما بأيديهم ، وتتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء ، وانتشار أتباعهم في النواحي لجبي الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع المظالم ويسمونها مال الجهات ودفع المظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم « وطفشوا » من بلادهم فحاولوا الطلب على الملتزمين ، وبعثوا لهم المعينين إلى بيوتهم ، فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك : مع ما هم فيه من

( ١ ) زبدة كشف الممالك للظاهري . ( ٢ ) عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

المصادرات الخارجة عن ذلك، وتتبع من يشم فيه رائحة الغنى، فيؤخذ ويحبس ويكلف أضعاف ما يقدر عليه، وتوالى طلب السلف من تجار البن والبنار مع المكوسات المستقبلية ولما تحقق التجار عدم الرد عوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار، ثم مدوا أيديهم إلى الموارث، فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو لا، وصار بيت المال من جملة المناصب التي يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه كل شهر، ولا يعارض فيما يفعل في الجزئيات، وأما الكليات فيختص بها الأمير، فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء إلا من تداركه الله برحمته واختلس شيئاً من حقه فإن اشتهروا عليه عوقب على استخراجه، وفسدت النيات، وتغيرت القلوب، ونفرت الطباع، وكثر الحسد والحقد في الناس بعضهم لبعض، فيتبع الشخص عورة أخيه، ويدلى بها إلى الظالم، حتى خرب الإقليم، وانقطعت الطرق، وعربدت أولاد الحرام، وفقد الأمن، ومنعت السبل إلا بالخفارة، وركوب الغرر، وجلت الفلاحون من بلادهم من الشر والظلم، وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع، ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الزبال شيئاً يكتسه من ذلك.

قال هذا الخبر في حوادث سنة ثمان وتسعين ومائة وألف وختمه بقوله: « وضاع الناس بين صلاحهم وغبنهم، وخروج طائفة ورجوع الأخرى، ومن خرج إلى جهة قبض أموالها وغلاها، وإذا سئل المستقر في شيء تعلل بما ذكر، ومحصل هذه الأفاعيل بحسب الظن الغالب، إنها حيل على سلب الأموال والبلاد ». وقال في حوادث سنة سبع ومائتين وألف: « استهل المحرم بيوم الخميس والأمر في شدة من الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملأوا الأسواق والأزقة رجالاً ونساء وأطفالاً يبكون ويصيحون ليلاً ونهاراً من الجوع ويموت من الناس في كل يوم جملة كثيرة من الجوع ». وقال في حوادث سنة تسع ومائتين وألف:

لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم واتخذ مراد بك أمير الانكشارية الجيزة سكناً وزاد في عمارته واستولى على غالب بلاد الجيزة ، بعضها بالثمن القليل ، وبعضها غصباً ، وبعضها معاوضة . وقال في حوادث سنة عشر ومائتين وألف : « لم يقع بها شيء من الحوادث التي يعتنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » . وكانت الفتن بين الإنكشارية في الريف والعاصمة متصلة وقد تستولى طائفة على الوجه البحري وأخرى على الوجه القبلي فتتحاربان وينضم الهوارة والعربان إلى أحد الفريقين والناس بينهما في أمر مريب : « من الظلم والفجور والفسق بأهل الريف والعسف بهم وتكليفهم الكلف الشاقة » .

ولإذا شئت الوقوف على حالة القضاء فاقراً الصفحة التالية من تاريخ الجبرتي بالنص الذي كتبه في ماجريات سنة ١٢٣١ هـ . قال : « حصلت جمعية بيت البكري وحضر المشايخ وخلافهم وذلك بأمر باطني من صاحب الدولة (محمد علي) وتذاكروا ما يفعله قاضي العسكر من الجور والطمع في أخذ أموال الناس والمحاصيل ، وذلك أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها في أيام الأمراء المصريين ، فلما استولت هؤلاء الأروام (الترك) على الممالك ، والقاضي منهم ، فحش أمرهم وزاد طمعهم ، وابتدعوا بدعاً وابتكروا حيلاً لسلب أموال الناس والأيتام والأرامل ، وكلما ورد قاض ورأى ما ابتكره الذي كان قبله أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه ، حتى فحش الأمر وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة وكتخدا بك بل الباشا ، رصارت ذريعة وأمرأ محتماً ، لا يحتمشون منه ولا يراعون خليلاً ولا كبيراً ولا جليلاً . وكان المعتاد القديم أنه إذا ورد القاضي في أول السنة التوتية التزم بالقسمة بين المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضي ، وكذلك تقرير الوظائف كانت بالفراغ أو المحلول وله شهريات على باقي المحاكم الخارجية كالأصالحية وباب سعادة والخرق وباب الشعبية وباب زويلة وباب الفتوح وطيلون وقناطر السباع وبلاق ومصر

القديمة ونحو ذلك ، وله عوائد وإطلاقات وغلال من الميرى ، وليس له غير ذلك إلا معلوم الإمضاء ، وهو خمسة أنصاف فضة ، فإذا احتاج الناس في قضاياهم ومواريتهم أحضروا شاهدا من المحكمة القريبة منهم ، فيقضى فيها بما يقضيه ويعطونه أجرته ، وهو يكتب التوثيق أو حجة المبايعات أو التوريث . ويجمع العدة من الأوراق في كل جمعة أو شهر ، ثم يمضيها من القاضي ، ويدفع له معلوم القضاء لا غير ، وأما القضايا لمثل العلماء والأمراء فبالمساحة والإكرام . وكان القضاء يخشون صولة الفقهاء ، وقت كونهم يصدعون بالحق ولا يداهنون فيه ، فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الأتراك وقضايتها ، ابتدعوا بدعاً شتى ، منها إبطال نواب المحاكم ، وإبطال القضاء الثلاثة بخلاف مذهب الحنفى ، وأن تكون جميع الدعاوى بين يديه ويدي نائبه ، وبعد الانفصال يأمرهم بالذهاب إلى كتبخانه لدفع المحصول ، فيطلب منه المقادير الخارجة عن المعقول ، وذلك خلاف الرشوات الخفية ، والمصالحات السرية ، وأصناف التقرير والقسم لنفسه ، ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان في السابق ، وإذا دعى بعض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعات أو تركة فلا يذهب إلا بعد أن يأذن له القاضي ويصحبه « بحوكة دار » لياشر القضية وله نصيب أيضاً . . . وزاد طمع هؤلاء « الجخندارية » حتى لا يرضون بالقليل كما كانوا في أول الأمر ، وتخلف منهم أشخاص بمصر عن مخدومهم ، وصاروا عند المتولى لما انفتح لهم هذا الباب . وإذا ضبط تركة من التمركات وبلغت مقدارا ، أخرجوا للقاضي العشر من ذلك ومعلوم الكاتب والجوחדار والرسول ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديوان ، وما بقى بعد ذلك يقسم بين الورثة ، فيتفق أن الوارث واليتم لا يبقى له شيء ويأخذ من أرباب الديون عشر ديونهم أيضاً ، ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاث ، وقد كان يصلح عليهم بأدنى شيء وإلا إكراماً . وابتدع بعضهم الفحص عن وظائف القباينة والموازن وطلب تقاريرهم القديمة ، ومن أين تلقوها ، وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر ، وفيها من هو باسم النساء ولسن

أهلاً لذلك ، وجمع من هذا النوع مقداراً عظيماً من المال ، ثم محاسبات نظار الأوقاف ، والعزل والتولية فيهم والمصالحات على ذلك ، وقرر على نصارى الأقباط والأروام قدراً عظيماً في كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكنائس ، وما هو زائد الشناعة أيضاً أنه إذا ادعى مبطل على إنسان دعوى لا أصل لها بأن قال ادعى عليه بكذا وكذا من المال وغيره كتب المقيد ذلك القول ، حقاً كان أو باطلاً ، معقولا أو غير معقول ، ثم يظهر بطلان الدعوى أو صحة بعضها ، فيطالب الخصم بمحصول القدر الذي ادعاه المدعى ، أو سطره الكاتب ، يدفعه المدعى عليه للقاضي على دور النصف الواحد ، أو يحبس حتى يوفيه ، وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر . وحصل نظيرها لبعض من هو ملتجئ لكتخدا بك فحبس على المحصول ، فأرسل الكتخدا يترجى في إطلاقه والمصالحة عن بعضه فأبى ، فعند ذلك حلق الكتخدا وأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس . ومن الزيادات في نعمة الطنبور كتابة الاعلام ، وهو أنه إذا حضر عند القاضي دعوى يقاصد من عند الكتخدا أو الباشا يرجع به مع القاصد تقييدا أو إلباتا ، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الإعلام إلا بما عسى لا يرضيه ، إلا أن يسلم من جلده طاقاً أو طاقين ، وقد حكمت عليه الصورة وتابع الباشا أو الكتخدا فلازم له يستعجله ، ويساعده كتخدا القاضي عليه ، ويسليه على ذلك الظفر والضررة على الخصم ، مع أن القوتسيين الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدها الشيخ أحمد العريشى القضاء بين المسلمين بالحكمة خلدوا له حداً في أخذ الماصيل لا يتعداه ، بأن يأخذ على المائة اثنين فقط ، له منها جزء للكاتب جزء . فلما زاد الحال وتعدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكرى ، كتبوا عرض محضر ، ذكروا فيه بعض هذه الأحداث والتسوا من ولى الأمر رفعها ورجعوا من المراجع أن يجرى القاضي ويسلك في الناس طريقاً من إحدى الطرق الثلاث : إما الطريقة التي كان عليها القضاة في زمن الأمراء المصريين ، وإما الطريقة التي كانت في زمن الفرنسيين ، أو الطريقة التي كانت أيام مجيء

الوزير ، وهى الأقرب والأوفى . وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور . وتمموا العرض مختصراً ، وأطلعوا عليه الباشا ، فأرسله إلى القاضى ، فامتثل الأمر ، وسجل بالسجل على مفضض منه ، ولم تسعه المخالفة . اهـ »

ونحن إذا اضطررنا إلى ذكر هذه الحوادث فلنكى ندل بها على تلك الإدارة . ولا نفهم سوء حالتها إلا بما تحيف البلاد من شرور القائمين عليها . وإذا ذكرنا الأشخاص فلنستدل على أعمالهم ، فقد ذكر التاريخ أن الوزير سننا فاتح اليمن وتونس ووالى الشام ومصر وقد تولى الصدارة غير مرة خلف ثروة أقل ما يقال فيها لأنها مجموعة ثروة قسم عظيم من الولايات العربية (١) إذا وجد بعضها فى أحد متاحف الغرب عد غنياً بما فى تركته من غرائب .

( ١ ) ورد فى كتاب ( الباشات والقضاة للمقار ) ما يأتى :

- إن تركة الوزير سنان كان فيها مائة وستون مصحفاً بالدر والجواهر وثلاثون طستاً وإبريقاً من الذهب مرصعة بالدر والياقوت وخمسة صناديق زبرجده عليها خمسة أقال من الذهب مرصعاً بالجواهر وفى داخل كل صندوق منها مائتا مثقال من الإكسير كل مثقال منها على ألف قطار من الحديد يستحيل ذهباً خالصاً وشطرنج بياقة البيض ماس وبياقة السود لعل ومائتا امرأة مرصعة بالدر والياقوت ، ومائتان وثلاثون زوجاً من الركابات ذهباً مرصعة بالدر والياقوت ، وستون « رختاً » من الذهب مرصعة بالجواهر ومثلها سلاسل ذهبية ، وأربعمائة رخت فضة مطلية بالذهب ، ومائة وستون رشة ذهب وأربعمائة رشة فضة ومائة وستون سرجاً مرصعاً بالدر والياقوت ومائة وستون عباءة مكحلة باللؤلؤ الرطب ، ومائة وستون سكيناً ذهباً مرصعات بالدر والياقوت ، وثلثمائة وأربعمىون تاجاً مرصعة بالجواهر ، ومائتان وستون « حايلىا » مرصعة بالدر والجواهر ، ومائة وستون خنجرأ ذهباً مرصعة بالماس ، ومائتان وثلاثون زناراً من الجواهر ، ومائتان وستون « بازوند » مرصعة بالجواهر ، وخمسة وثلاثون صندوق كتب مرصعة بالياقوت والمعدن ، وسفرة صحون وثلاث صوان من ذهب وجميعها مرصعة ، وعشر طاسات بأغلبية وتحتها صوانها ، وعشر مباخر وعشرة قاقم ذهب مرصعة بالدر والجواهر ، وخمسة وستون خاتماً من الماس ، ومائة وأربعة وأربعمىون خاتماً من الياقوت الأحمر ، ومائتا خاتم من لعل ، ومثلها من « ياقوت الأصفر والأزرق والزمرد الخالص » ، وسبعمىون وسادة كل واحدة بمائتى دينار ، ومائتان وستون وسادة مرصعة بالجواهر ، وستون قفلاً ومئتا حاً مرصعات بقطع ماس فى كل قفل منها نحو ألف دينار ، وقبضة ماس مقدار كف الإنسان لا نظير لها ، وأربعة ماسدين من ذهب وتحتها سفرها مرصعة بالجواهر وموها بمائة ألف دينار ، ومائة وخمسون خامة صراصر كل واحدة منها تسارى مائة دينار ، وسبعمىون خلة مرصعة بالجواهر قيمة كل واحدة ألف دينار ، وثلاث صور عجاب قيمتها ثلاثة آلاف دينار ، وثلثمائة فروة سمور قيمة كل واحدة منها خمسمائة دينار ، وأربعمائة فروة وشق قيمة كل واحدة ثلثمئة دينار وأربعمائة -

وهذا الفاتح هو الذى أمر بقتل أمراء اليمن ومشايخها وكانوا جاءوه من بعيد للسلام عليه ، فغرس الأحقاد فى صدور اليمانيين على الترك قروناً . وهكذا يقال فى أحمد الجزار وإلى الشام وعكا فإنه لم يبق على ثروة ولم يعف عن إنسان . ولو شئنا أن نعدد أمثالها لما ضن التاريخ العثماني علينا بمئات سودوا صحيفته . وأكثرهم يقف الوقوف على الجوامع والمدارس فقد قيل إن سنانا قام بأعمال خيرية قُدّر المنفق عليها بمليونى جنيه ذهب بسكة زماننا منها جامع بدمشق ، والجزار عمر جامعاً بديعاً فى عكا .

قال ريشارود<sup>(١)</sup> : كان الولاة لعجزهم وضعف قوتهم يضطرون إلى الاتفاق مع أعيان البلدة على تنفيذ أغراضهم ويشاركونهم فى دسائسهم وجرائمهم وسرقاتهم ، ولم يكن بين موظفى الحكومة أحد يحق له أن يكاتب الحكومة المركزية إلا هؤلاء الولاة ، وبديهي أنهم لا يثبتون الباب العالى بحقيقة الحالة الإدارية ولذلك كانت الحكومة المركزية تجهل أحوال الولايات كل الجهل . وقال إنه سادت المحاكم حالات رديئة مثل استماع شهادة الزور وتناول الرشوة وعمت الفوضى كل مصالح الحكومة حتى صارت واردات الدولة مأكلاً للمختلسين .

== فروة ناقة وغيرها قومت كل واحدة بسبعين ديناراً ، وثمانية أباريق كبيرة من نحاس أصفرى جوف كل إبريق منها مائة ألف دينار ، ستة وسبعون كيساً فى كل كيس ثلاثة آلاف دينار وثلاثة وثلاثون كيساً فى كل كيس منها اثنا عشر ألف دينار وثلاثمائة شامة من العنبر إلى غير ذلك من الأمتعة والعود الخالص المختوم وثمانية آلاف جبل وألف بغل وتسعمائة فرس وحصان لكوبه خاتمة بسرج حرير وما عدا الصينى والنحاس والبندق المجوهر والدروع والقمامات والسناجق المذهبة وعدة « الشكار » مع طاساتها الذهب وأشياء كثيرة لا يمكن حصرها .

وأشال سنان كثير من جمعوا الأموال من دماء الأمة ومنهم الوزير رسم الذى ولى الصدرة خمس عشرة مرة وكان من وزراء سليمان القانونى قال فيه مؤرخو الترك إنه زاد فى أموال الدولة وما قصر أن يفتنى أيضاً فكان يملك ٨١٥ مزرعة و ٤٧٦ طاحوناً و ١٧٠٠ مملوك ، و ٢٩٠٠ حصان و ١١٠٦ جمال ومن الحل والحواهر ما لا يقدر بمال وبفضه بما قدر بأحد عشر مليوناً وربع مليون دوكتاً ذهب ومن النقد مليونى دوكتاً ذهب عدا ما صرفه على الأعمال الخيرية من جوامع ومدارس عمرها فى ذوق وروسجق وحاة .

(١) الإسلام والإصلاح تقرير لريشارود .

وما كانت إدارة بقية بلاد العرب بأحسن مما كانت في الشام ومصر ولا أكثرها من القوانين والتراتيب الإدارية . فالحجاز يحكمه أشراف مكة مع وال للدولة يتقاسمان المغنم فيئن الناس من الظلم ، واليمن تنازعها سلطتان سلطة بني عثمان في تهامة وسلطة أئمة الزيدية في الجبال ، والأتراك أبدأً هناك في حالة حرب واحتلال مؤقت . والدولة تنفى إلى اليمن كما تنفى إلى طرابلس الغرب من تغضب عليهم ، وبالنظر لبعدها ما كان يرضى بالتوظيف فيها إلا من ضاقت سبل الأعمال أمامه . فكان اليمنيون من هاتين الطبقتين في مصيبة والبلاد تحكم بقواعد العشائر وعاداتهم ليس فيها طرق ولا مدارس ولا مصانع كسائر الولايات ، وأخرب البلاد ما يشب فيها من حروب وغوائل دامت إلى أن عقدت الدولة مع إمام الزيدية في سنة ١٣٢٩ هـ . معاهدة اعترفت به وبمذهبه وسلطته اعترافاً رسمياً . وسواحل اليمن كانت أبدأً في فوضى ولم ينتشر الأمن في ربوعها إلا لما ارتبطت بحكومة الهند الانجليزية فأصبح لكل إمارة وناحية إدارة خاصة بها . ونجد لا شأن لقبائلها البدوية إلا أن تتقاتل وكان الأمن مفقوداً فيها كسائر البوادي ، وأقر آل سعود وبعدهم آل الرشيد الأمن في ربوعها لما حكموها . وكان العراق بأيدي الولاة في الظاهر وأيدي متزعمة القبائل في الحقيقة ، حتى أصبح بعد عمرانه القديم بادية إلا قليلاً ، لولا بقع من مجموعات سكان تنزل أرجاء بغداد والبصرة والحلة والموصل وغيرها . وسلطة الدولة لا تكاد تتعدى الحواضر شأنها في كثير من الولايات العربية ، والقاصية بأيدي أرباب الزعامات والاقطاعات . وأخذت بعض الولايات التي تولاهها عظماء من رجال السلطنة في العهد الأخير تؤسس فيها قواعد الإدارة وتكثر فيها مراكز الحكومة من أقضية وألوية فقد أسسوا لواءين في جنوب الشام وشرقها « لواء الكرك » و « لواء دير الزور » فدخل عرب البادية في حياة الزراعة ونخف اعتداؤهم بعضهم على بعض وبطل الغزو أو كاد لاستلاب المواشي . ولما أنشئت السكة الحجازية بين دمشق والمدينة بدأ الأمن يستتب والبادية تحس طعم السكنى وعمرت على بعض جانبي الخط قرى ومزارع .

وفي الحق أن الدولة أنشأت ، بعد تنظيم الولايات ، ترسل ولاية ومتصرفين لا بأس باقتدارهم ، ومنهم من كانوا يحاولون الإصلاح ما أمكنهم ويقرّون العدل بعض الشيء ويؤمنون السبل بالقليل من القوات التي كانت لهم من الجند والدرك والشرطة ، ومنهم من أنشأ مدارس وطرقاً كما فعل الوزير مدحت في العراق والشام . وقد كتب من دمشق في إصلاح الإدارة إلى الآستانة يقول : إن الأوامر التي تصدر من الآستانة إلى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط ، وبذلك بطل العمل بالقانون والأصول المتبعة وفتحت أبواب سوء الاستعمال ، وما عدا بعض رجال من الموظفين أصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون إلى غير مصالحهم فطراً على المعاملات خلل ، وبسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس ، وكثر القتل والنهب والغارة على الأموال والعروض في كل مكان . واختل الأمن كل الاختلال ، قال وإذا ألقينا نظرة على واردات الدولة رأينا الخراج والأموال قد نزل ارتفاعها إلى النصف ونخرّبت مسائل الأعشار البلاد وقل البدل العسكري ( الحزبية ) . كتب هذا قبل نحو ستين سنة والدولة آخذة في تقليد الغربيين في إدارة بلادها .

أما سائر الولايات والألوية المستقلة كبرقة وطرابلس وتونس وما إليها فقد كان سلطان الترك فيها اسماً وكانت تقنع منها بخراج معين ، وتقيم بها حامية ، وتوسد أمهات الوظائف الكبرى إلى الأتراك شأنها في كل ولاية . ومنذ استولت على طرابلس بعد سنة ٩٧٢ هـ وقعت في أيدي جيشها الانكشاري<sup>(١)</sup> فاختل نظامها واستبدوا بالحكم ومدوا أيديهم إلى ما في أيدي الناس وقرضوا على الأهالي ضرائب مما لا قبل لهم به ، وكثر طغيانهم حتى اضطركثير من رؤساء القبائل إلى الثورة عليهم في أزمان متتالية تخلصاً من حكمهم الجائر . وكان القبض إذا مات الميت أرسلوا للوارث وطالبوه بدفع سدس ماله وسموا ذلك «مريضة» . وربما أفحش المقدر للأموال الموروثة فقدرها بأكثر مما تساوى فيخرج بذلك الوارث من إرثه . وقد يمهّل الوالي المعوزين من الفلاحين

(١) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن غلبون .

في أداء ما عليهم من الأتاوات حتى إذا أدوا ما عليهم باعهم من قائد آخر وسلطه عليهم ، ويزيدون في العشور حتى ليجعلون الكيلة توازي ثلاثاً من الكيلات المقررة لقسمة الحبوب ، وهكذا في خرص الزيتون والنخيل ، ومن نقص من شجره شيء ولو النصف لا تسمع شكواه ويلزم بأداء ما كان يدفع على شجره قديماً ، وقد يجعلون خراج الأرض على الجاهل ، ومنذ سقطت تونس ( ٩٣٥ هـ ) في أيدي العثمانيين أخذ العمال يتوارثونها وظلت كأنها مستقلة تنجد الدولة في بعض أيام حروبها العظيمة بشيء من المراكب والجند وفي تواريخ تونس أنه كان من هؤلاء العمال ثم من أمرائها الحاليين من يعنون قليلاً بتحسين الإدارة والجباية ويعمرون ما تشتد الحاجة إليه من المعالم . ونبغ فيها أواخر القرن الماضي الوزير خير الدين فأحيا مصانعها وزارعتها ، ونشر محمد باي الثاني ( ١٢٧٦ هـ ) قانوناً دعاه عهد الأمان<sup>(١)</sup> أطلق عليه حرية الدين للسكان على اختلاف مذاهبهم ، وساوى بينهم في الحقوق العامة ، وكفل للتونسيين حرياتهم وأموالهم وأعراضهم .

وكان الأغا في تونس على عهد الحكم التركي المباشر يجلس في الديوان ويقوم أكبر الشواش<sup>(٢)</sup> بين يديه والترجمان يلزأ الأغا ، فإذا أخذوا مراتبهم قام خطيبهم فدعا للسلطان والعسكر وقرئت الفاتحة ثم يخرج مناديهم عند الباب يقول من له دعوى فليدخل ، فإذا دخل قابله الترجمان وتعرض القضية فإن كانت من الأمور الشرعية ودوها إلى الشرع ، وإن كانت قانونية فعلوا بآرائهم وبما جرت العادة به بينهم ولما ظهرت رتبة المفتي في المائة التاسعة أصبحت أرفع من درجة القاضي ، وإذا أشكل أمر على القاضي بعث إلى المفتي يسأله . والقضاة أتراك يجيئونها من بلاد الترك والغالب عليهم العجمة . فاحتاجوا إلى نائب يكون بين يدي القاضي ، يكون بمثابة قاضي الخصومات ، والقاضي التركي مقام قاضي الجماعة .

بهذا ما نلناه صاحب المؤنس وهذه العجمة الغالبة على قضاة الترك التي

(١) تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب .

(٢) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس .

أشار إليها كانت سبباً عظيماً من أسباب سوء الإدارة وسوء التفاهم بين الحاكم والمحكوم منذ زمن الأطول . وكيف يفهم القاضي أو الوالى أقوال المتقاضين والشاكين إذا كان أعجمياً ، بل كيف يفهم مع عجمته الحكم الشرعى من كتب العرب ، والشرعية عربية . وهل للوالى أو الشاويش أن يؤثر فى نفوس من يتولى أمرهم إذا لم يستطع التفاهم معهم ، بل أن يخطبهم إذا دعت الحال . وأنى لابن العرب أن يفهم كلام التركى فى زمن ضعفت فيه أيضاً ملكته فى لغته ! ولذلك خرجت الدولة العثمانية من بلاد العرب ، ومنها ما حكمته ثلاثة قرون ومنها ما حكمته أربعة ، وهى لا تعرف روح البلاد ولا روح أهلها .

وفى معلمة الإسلام<sup>(١)</sup> أنه كان من فتح الترك شمالى إفريقيا وضع حد لتوسع دول النصرارى فيها وإنقاذ المسلمين فى أرجائها من توسع الإسبان فى استيلائهم على بعض بلدانها (١٦١٥ م) فأسس الترك مملكة تناولت بلاد الغرب الأوسط وتولاها « بكلم بك » من قبل الدولة العثمانية ولم يبق غير مدينة وهران بيد الإسبان ، ولم تتناول سلطة الأتراك الفعلية فى الجزائر غير محيط من الأرض لا تتجاوز مساحته خمسة وسبعين ألف كيلو متر مربع أو سدس بلاد الجزائر ، وظل الباقي فى أيدي أناس من المتغلبة ، ومن القبائل المستقلة ومنها ما يدفع خراجاً للسلطان فلم يبق أمام الترك غير اتباع سياسة « فرق تسد » بين القبائل والمتزعمين والبيوت المتغلبة وكذلك كانت سياستهم مع الخاضعين لسلطانهم مباشرة . دام الحال على ذلك نحو ثلاثة قرون ، والقتل يفشو فى البادية والحاضرة ، على مثال سائر الولايات العثمانية ، ومن الولاة من كانوا يعينون من الآستانة إلى ثلاثين سنة ، تعضد سلطانهم خمسة آلاف جندي انكشارى ثم تغلب بعض أغواتهم على الحكم فلم يبق للوالى المعين من دار السلطنة غير سلطة اسمية وكان عهد الأغوات عهد اضطراب وفتن ويلقى عامة هؤلاء الأغوات حتفهم بأيدي جند الانكشارية ، ولما ضايق الدول البحرية الأوربية الجزائر لحملها على منع قرصان البحر من الاتجار بالرقيق ،

(١) معلمة الإسلام . مادة الجزائر .

وكانت تجارته من أعظم أسباب غنى الجزائريين مدة ثلاثة قرون ، بل من أهم موارد الحكومة في هذه الولاية ، عاد الولاة يظلمون الرعايا في اقتضاء الجباية ، أو يلقون أنفسهم في أحضان اليهود يقترضون منهم الأموال ليصرفوها في إدارة البلاد . وكثيراً ما كانت الفتن تنتشر بين السكان لكثرة المغارم والمظالم ، ومن سنة ١٦٧٢ إلى سنة ١٨٣٠ قتل بيد الجند العثماني من الدايات أو الولاة في الجزائر ثمانية عشر والياً ، وكان الجند هم الذين يختارون الوالي في العهد الأخير ، ويتمتع بسلطة واسعة . ويعينه مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة وزراء يتولون مسائل المال والجندية والبحرية وأملاك الدولة وغير ذلك ، ودام هذا التخطيط حتى جاء الفرنسيين واستولوا على الجزائر في سنة ١٨٣٠ وجعلوها مستعمرة لهم . وهكذا بقي الفرق محسوساً بين الأرياف وقواعد البلاد وبين الأرجاء التي حكمتها الدولة بعض الشيء والأصقاع التي نجت من سيطرة عمالها ، كأن القرى والدساكر من غير هذا العالم ، ومن قرن لا يعد في هذه القرون . —

وبعد ، فهما قبل في فساد الإدارة العثمانية منذ القرن العاشر إلى الثالث عشر من الهجرة فإن فجر القرن الرابع عشر انبلج عن إجماع الحاكم والمحكوم على قبح هذه الإدارة وإرادة الإفاقة من كابوسها صيانة للبلاد . ورأينا الدولة في آخر أيامها ترسل مفتشين لكشف أحوال عمالها في المالية والداخلية والقضاء والحربية وغيرها ، ورأينا منهم طبقة صالحة في الحملة إذا بحثوا سقطوا لا محالة على الخلل المتسرب إلى الأوضاع الحكومية ، وكانوا يضعون التقارير النافعة لما شاهدوا وحققوا ، لكن التنفيذ كان قليلاً ، وندر أن يؤخذ عامل مجرم بما يقرر فيه ، وغاية ما يناله من عقوبة أن ينقل إلى ناحية أخرى أو يترك مدة بلا عمل ويلقى الستار على جنائنه أو جريمته . وكان من الصعب إذا كان للموظف حامٍ يحميه إنزال العقوبة به ولو كان قاتلاً . أما سرقة مال الدولة وتعريق لحم الملة فهذا مما لا يؤيبه له كثيراً . وعلى هذا كان الناس في هذه الإمبراطورية العظمى بين مظلوم وظالم ، ينفذ فيها القانون على فقراء الرعية غالباً ، وقد يستثنى من أحكامه من كان له شافع من ثروة وجاه وقرابة ونسب

قال لاموش : لئن كان في تنظيم الإدارة في المملكة العثمانية عيب فاحش الظهور لهُو في صور التنفيذ لا في الأصول ، ومنشأ النقص هو السلطة المطلقة الذاتية التي يتمتع بها الحكام فمن بعدهم ، وبيع المناصب وجباية الضرائب ، وشيوع الاختلاس في أهوال الدولة ، وفشو الرشوة . وإذا قيست إدارة العثمانيين بإدارة معظم الممالك الأوروبية في ذلك العهد روي في الإدارة العثمانية ترتيب وسلطة ثانية هي أتم مما كان من نوعها ، عند غيرهم ، وبهذه المركزية وبالإدارة المطردة كتب للملكة العثمانية ، على ما كان لها من المشاكل الخارجية ، أن تبلغ درجة عالية من القوة ، وأن تحتفظ بها إلى آخر القرن التاسع عشر ، وما منع الإسلام سلاطين العثمانيين من رعاية النصارى في المملكة ، لما عرف من أن فتحهم الروم إلى وآستانة ثم فتح بلاد البحر قد زاد في عديد رعاياهم من النصارى ، ومنهم العنصر المنتج العامل في الزراعة والتجارة والمال ، ومنهم يجبي قسم عظيم من ارتفاع الدولة . وقال أيضاً من سوء طالع تركيا أن جزءاً عظيماً من القوانين الجديدة ، لما عاقت العوائق عن تطبيقها ، ظلت مكتوبة في الورق ، فليل بعد ذلك إنه كان لتركيا قوانين جيدة ولديها من ضروبها شيء كثير ، ولكن يعوزها التطبيق فقط . وقال جلال نوري (٢) :

إننا لنرى والأسف ملء قلوبنا أن جنسنا التركي ليس على استعداد كبير للإدارة ، فقد وضعت أسس ترتيبات مهمة في عهد أورخان ومراد خدادونداكار فحالت قلة أهليتنا لها دون الاحتفاظ بها ، وكان عجزنا في الإدارة محققاً ، ولنا أن نقول إن المسألة الشرقية بمعناها الحقيقي هي مسألة إدارة ، أو بتعبير أصبح مسألة قلة إدارة ، ولولا فساد الإدارة ما وجدت روسيا ومن هن علاقة بالشرق من الدول سبيلاً إلى الدولة العثمانية ينفذ منه إلى إثارة العناصر المختلفة في السلطنة . وكل ما أصابنا ناشئ من خلل الإدارة ، وباختلال إدارتنا قامت في العهد الأخير بعض العناصر العثمانية فنزعت إلى الاستقلال ، ودفعت إلى تأليف إدارات مستقلة وإنشاء حكومات قامت على السلطان القومي . وما احتفظت أمة قط بوحدةها إلا بحسن إدارتها .

(١) تاريخ تركيا للاموش ( بالفرنسية ) .

(٢) تاريخ تدنيات عثمانية لجلال نوري ( بالتركية ) .

## السياسة في الإسلام

• سياسة الرسول :

كان أول الناس إسلاماً زوج الرسول خديجة بنت خويلد وأبو بكر الصديق وابن عمه علي بن أبي طالب وهو طفل ومولاه زيد بن حارثة . وقضى نحو ثلاث سنين منذ نبوءته وهو يعمل مستخفياً يجتمع إليه أصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة في الإسلام . ودعيت هذه الدار دار الإسلام<sup>(١)</sup> لأن فيها دعا الرسول إلى التوحيد ، ومنها خرج المسلمون لما أسلم عمر بن الخطاب وكبروا وطافوا بالبيت ظاهرين .

وأخذ الرسول ينذر عشيرته الأقربين من بني هاشم وبني المطلب قائلاً : ما أعلم إنساناً في العرب جاءكم بأفضل مما جئتمكم بخير الدنيا والآخرة<sup>(٢)</sup> ، فأبيكم يوازرنى على هذا الأمر ، على أن يكون أخى ووصيتى وخليفتي فيكم ، فأحجم القوم . وقام بالأبطح من ضواحي مكة فقال : إني رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ولا تخلق ولا ترزق ولا تحي ولا تميت ، فاستهزأت به قريش ، وقالوا لأبي طالب إن ابن أخيك قد عاب آلهتنا ، وسفه أحلامنا ، وضلل أسلافنا ، فليمسك عن ذلك ، وليحكم في أموالنا ما يشاء . فقال الرسول : إن الله لم يبعثني لجمع الدنيا والرغبة فيها ، وإنما بعثني لأبلغ عنه وأدل عليه . وقال لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أدع هذا الذي جئت به ما تركته .

وأخذ يوافي الموسم كل عام<sup>(٣)</sup> ويتبع الحجاج في منازلهم في المواسم ، بعكاز ومجنة وذى الحجاز من أسواق مكة وضواحيها ، يدعون إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يhibه . وإنه

(٢) تاريخ أبي الفداء .

(١) طبقات ابن سعد .

(٣) طبقات ابن سعد .

ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم . وقال (١) بعثت إلى الناس كافة ، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب ، فإن لم يستجيبوا لي فإلى قريش ، فإن لم يستجيبوا لي فإلى بني هاشم ، فإن لم يستجيبوا لي فإلى وحدي .

كان أبو طالب عم الرسول يرعاه ويحميه من أذى قريش ، وعمه أبو لهب يضطهده ويؤذيه ويؤلب قريشا عليه . وهلك أبو طالب ثم زوج الرسول خديجة ، فذهب النصير والعشير ، وعظمت عليه المصيبة بموتها ، ووصلت قريش من أذاها إلى ما لم يكونوا يصابون إليه في حياة عمه : يهزأون بدعوته ويكذبونه ، ويضعون الشوك في طريقه ، ويحثون التراب على رأسه ، ومنهم من يطرح عليه أو في برمته (٢) رجم شاة ، فيقف على بابه ثم يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا .

أغرت قريش سفهاءا به ومن قبل النبوة كانت تدعوه الأمين لما رأت من أمانته ومروءته ، وصدق حديثه وحسن جوابه . ولطالما حكمته قبل مبعثه في معضلاتها فحكم بالحق ، وقد شهد حلف الفضول على التآخي بين قريش وعدم التظالم ، واشترك في حرب الفجار ، ورضى العشائر بحكمه يوم اختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود إلى محله في الحرم ، حتى قال قائل ممن حضر من قريش - وقريش كلها حضور - متعجباً من فعلهم وانقيادهم (٣) إلى أصغرهم سنأوا أقلهم مالا ، فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً : أما واللات والعزى ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وحدوداً ، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونباً عظيم .

شق على قريش أن يقوم من بنينا من يزحزحها عن مألوفها من العبادات والعبادات ، لا يخفل بما تواطأت على تعظيمه ، ويأتي على نظامهم الاجتماعي الذي كان لا يفيد إلا الممولين والمالء (٤) ، وكان يقهر الصعاليك والضعفاء .

(١) طبقات ابن سعد . (٢) بضم الياء والتدوير .

(٣) مروج الذهب للمسعودي . (٤) رجل ملء شئ مقتدر .

وكانت مكة في الجاهلية لا تدين<sup>(١)</sup> لملك من الملوك ، ولم يؤد أهلها إتاوة ، ولا ملكهم ملك قط ، تخرج إلى مكة ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحمس من قريش ، ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضاً ، وكان أهلها آمنين يغزون ولا يُغزون ، ويسبون ولا يسبون ، وأهلها حلفاء مثألفون ، ومتمسكون بكثير من شريعة إبراهيم ، وهى توحيد<sup>(٢)</sup> الخالق ، وملة الإسلام . هى ملة إبراهيم نزل القرآن بتوكيدها . وجاء الإسلام لبقى على الشرك ، ويخرج العرب من عبادة اللات والعزى ومناة وغيرها من أصنامهم إلى توحيد الخالق تعالى .

ضاق مكة بمن أجابوا الدعوة من المسلمين ، ومنهم من ليس له عشيرة تحميه ، فأمر الرسول بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها نحو ثمانين رجلاً وثمانى عشرة امرأة سوى الأبناء . وسافر إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة ، فعاد وقومه أشد مما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين<sup>(٣)</sup> ممن آمن به . ورجع أصحابه إلى مكة من الهجرة الأولى فاشتد عليهم قومهم<sup>(٤)</sup> ، وسطت بهم عشائهم . ولقوهم أذى شديداً ، فأذن لهم الرسول في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت خرجتهم الأولى أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، وكبر عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره ، وغضبوا على الرسول وأصحابه ، وأجمعوا على قتله ، وكتبوا كتاباً على بنى هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة ثم حصروا بنى هاشم في شعب أبى طالب وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبى طالب في شعبه مع بنى هاشم ، وخرج أبو طالب إلى قريش فظاهرهم على بنى هاشم وبنى المطلب ، وقطعوا عنهم الميرة والمادة ، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ، حتى بلغهم الجهد ، وسمعت أصوات صبيائهم من وراء الشعب . فن قريش من سره ذلك ، ومنهم من ساءه . ومكث الرسول في الشعب سنتين وقيل أكثر .

(١) معجم البلدان لياقوت ، (٢) تفتيز البيهقوى :

(٣) تاريخ الطبرى : (٤) طبقات ابن سعد :

وكان من ضروب الأذى الذى تلحقه قريش بالمستضعفين من المؤمنين ، أن يلبسوا بعضهم أذراع الحديد ، ثم يصهرونهم فى الشمس ، أو ياصتقون ظهورهم بالرضف<sup>(١)</sup> حتى يذهب لهم متهم ، ويحيعونهم ويعطشونهم حتى ما يقدر أحدهم أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به ، ويقولون له آلات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، حتى اضطر الرسول أن يحث المؤمنين ألا ينزلوا إلا مع المسلمين ، لما كان يلحقهم من أذى المشركين إذا جاؤروهم لأنهم لا عهد لهم .

كل هذا والرسول لا يفتأ يعرض نفسه على القبائل فى مواسم الحج ، ويقف بمنى على منازل القبائل من العرب<sup>(٢)</sup> فيقول : يا بنى فلان إني رسول الله إليكم بأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأوثان ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى ، وما كان يسمع بقدام يقدم من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له أو عرض عليه ما عنده .

واهتدى به فى بعض السنين ستة من الخزرج من أهل مدينة يثرب — وأهلها قبيلتان الأوس والخزرج يجمعهم أب واحد وهم يمانيون — وبين القبيلتين حروب ، وهم حلف قبيلتين من اليهود يقال لهما قريظة والنضير . فذهبوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم . وجاءه من قابل اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب أيضاً ، فأساموا وبايعهم بيعة النساء ، وبيعة النساء ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم . فعادوا إلى المدينة ينشرون الدعوة المحمدية .

وما برح المؤمنون بالرسالة يكثرُونَ سنة فسنة ، حتى رأى الرسول فى السنة الثالثة عشرة من مبعثه أن يهاجر إلى يثرب ليكون والمؤمنين به بئامن من الأذى ، وينتسخ أمامه الخبال لنشر دعوته ، وما أن علمت قريش أنه صار له أنصار وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، وأن أصحابه بمكة لحقوا به ونزلوا

(١) الرصف الحجارة المخمصة . (٢) تاريخ الطبرى .

يثرب وأصابوا بمن آمن منعة ، ورأوا « ظهور الرسول وعلو حقه » حتى اجتمعوا في دار قصي بن كلاب ، وهي دار ندوتهم (١) فأجمعوا رأيهم على أن « يأخذوا من كل قبيلة رجلاً يضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد ليضيق دمه في القبائل » .

وجاء مدينة يثرب فاتحاً بين المهاجرين والأنصار (٢) ، آخى بينهم على الحق والمواثقة يتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام . وكانوا تسعين وقيل مئة ، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، وظلوا على هذه المواثقة حتى نزلت في وقعة بدر آية ، « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » فنسخت هذه الآية ما كان قبلها ، وانقطعت المواثقة في الميراث ، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذو رحمه .

وكتب الرسول كتاباً في يثرب - وكانت أرض يثرب لليهود - بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود ، أقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم ، وعاهدتهم ووادعهم ، واشترط عليهم وشرط لهم . جاء فيه : أن المؤمنين لا يتركون مفراً (٣) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل ، ولا يحالف مؤمن من مؤمن مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيئة ظلم أو إثم أو عدوان

(١) في هذه الدار قصي بن كلاب ، وهي أول دار بثبت بمكة من دور قريش يجتمعون إليها فتنقض فيها الأمور ، ثم كانت تجتمع فيها فتتداول في حروبها وأمورها وتعلقه الألوية وتزوج من أراد التزويج .

(٢) المهاجرون هم أول من عبد الله في الأرض ، غصوا بتصديق الرسول والإيمان به ، والصبر معه على الشدة من قومه ، وإذلالهم وتكذيبهم إياه ، وكل الناس مخالف لهم زار لهم يستوحشوا قلة عددهم وإذراء الناس بهم . والأنصار هم الذين قهرروا الرسول في ساعة العسرة ، وهم الأوس والخزرج قال الأمدى في كتاب الأحكام : اختلفوا في معنى الصحابي فذهب أكثر أصحابنا وأحد بن حنبل إلى أن الصحابي من رأى النبي وإن لم يختص به اختصاص الصحاب والمحبوب ولا روى عنه ولا طالت محبته . وذهب آخرون إلى أن الصحابي إنما يطلق على من رأى النبي واختص به اختصاص الصحاب وطالت مدة محبته وإن لم يرو عنه . وذهب عمر بن الخطاب إلى أن هذا الاسم إنما يسمى به من طالت محبته للنبي وأخذ عنه العلم . ورجع الأمدى إلى الرأي الأول . وسمى المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومسكنهم وخلقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال ، حين هاجروا من مكة إلى المدينة . وذو الهجرتين من الصحابة من هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة . والتابعون وأحداهم تابعي وتابع قيل هو من صحب صحابياً وقيل من لقيه وهو الأظهر .

(٣) المفروح المذلل بالدين .

أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وأن من اتبع المسلمين من يهود ، فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت مع المسلمين يعقب بعضها بعضاً ، وأن المؤمنين يبيي<sup>(١)</sup> بعضهم بعضاً بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأن من اعتبط<sup>(٢)</sup> مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، لا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ<sup>(٣)</sup> إلا نفسه وأهل بيته ، وأن بطانة يهود كأَنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن إلا من ظلم أو آثم .

وبهذا العهد مع أهل يثرب آمن المؤمنين على أنفسهم ، واستعدوا لما يخبئه المستقبل في صدره من الحوادث والكوارث . وكان الرسول في مكة بالأمس داعياً إلى دينه ؛ يتلطف بنشره بين المشركين ، ويتحمل العنت والأذى ، فلما غادر دار أهله وهى دار الشرك إلى بلد بعيد وهى دار النصرة ، قلب لمن

( ١ ) يبيي من البرء أى المساواة .

( ٢ ) اعتبط قتل بلا جناية كانت ولا جريفة قوجب قتله ، فإن القاتل يقاد به ويقتل ، وكل من مات بغير علة فقد اعتبط ، ومات فلان عبطة أى شاباً صحيحاً ، وعبطت الناقة واعتبطتها إذا ذبحتها من غير مرض . ( ٢ ) لا يوتغ : لا يهلك .

طال عداوتهم له ظهر المحن وكان المكيون وهو بين أظهرهم يحاربونه بأقوالهم ، وأفعالهم ، وهو يسألهم لا يريد منهم إلا القول بالتوحيد ونزع أوضاع الشرك . فأصبح بعد الجلاء عنهم إلى دار هجرته ، قويا بنفسه وبمن معه ، وأخذ يحاربهم بأقواله وأفعاله .

\* \* \*

وكثرت هجرة المؤمنين إلى مدينة يثرب ، وقوى المكيون المهاجرون بالأنصار المدنيين وكان : « أول (١) من بعث الله نبيه بالدعوة بعثه بغير قتال ولا جزية فأقام على ذلك عشر سنين بمكة بعد نبوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » . الآية . وأمره بقتال من قاتله والكف عن من لم يقاتله . وقال الله عز وجل : فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » ثم نزلت براءة لثاني سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب ، من قاتله أو كف عنه ، إلا من عاهده ولم ينتقض من عهده شيئا فقال : « فإذا انسلك الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصوهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

« كانت (٢) الكفار بعد الهجرة مع النبي على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاثة قريظة والنضير وبنى قينقاع ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش ، وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب : فمنهم من يحب ظهوره في الباطن كخزاعة ، وبالعكس كبنى بكر ، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً وهم المنافقون » . وهو يودع ويتطلف وسياسة التي علمه إياها ربه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك قاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر » .

(١) أفسية رسول الله للقرطبي .

(٢) الواهب الدنية للقسطنطيني .

وشرع الرسول في غزواته وسراياه ، وأول غزواته غزوة ودّان وهي غزوة الأبواء ، وتواترت غزواته حتى بلغت إلى حين وفاته سبعاً وعشرين غزوة وسراياه وبعوثه ثمانى وثلاثين على أرجح الأقوال ، ومن غزواته أو سراياه ما كان يضرب فيه المكين في تجارتهم بين الحجاز والشام ، يتسقط غير قریش إذا اجتازت بأرض المدينة ، ذاهبة جائية بين دمشق ومكة . وقد وفق في أكثر سراياه وغزواته ، لأنه كان يعمل برأى من نجذتهم الحروب من أصحابه ، وعرفوا بالشجاعة وحسن التدبير ، وقد يعمل بما يذهب إليه أصحابه من رأى سديد ، ولا يتمسك بما يراه إذا ظهر له صواب ما اعترض عليه به ، ويقول « الحرب خدعة » أى أن آخر مكاييد الحرب القتال بالسيف إذ كان بدوؤها خدعة . وقد يحضر بعض الغزوات بنفسه واشترك في بضع منها ووصل العدو إليه مرة وأصابته حجارته حتى وقع وأصيبت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفته ، وانهمزم المسلمون يوم حنين وكانوا أعجبوا بعديدهم فجاء التنزيل : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » . وكان الرسول يفادى بالأسرى ، ويرقق بهم ، وإذا جاءه أهلهم ونساؤهم أو شفّع فيهم أحد أصحابه يخفف عنهم أو يطلق سراحهم ولو كان اتى منهم شراً . وفادى بأسارى بدر على قدر أموالهم ، وكان أهل مكة<sup>(١)</sup> يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم فإذا حذقوا فهو فداؤه .

قال الرسول يوم الحديبية وقد قيل له إن قریشاً قد سمعوا بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل<sup>(٢)</sup> ، قد أبسوا جلود النمر<sup>(٣)</sup> يحلفون بالله لا تدخلها

(١) طاعت ابن سعد .

(٢) يريد بالعوذ المطافيل النساء والصبيان ، بدوهم جمع عائد وهو الذقة ذواتهم وبدن أيام من وضعها يتنوى ولدها ، والمطفل الذقة النرية العهد بالذاج معها فقلها يقال أطفات فهو مطفل ومطاف والمجمع مطاف ومطفل بالإنشاع يريد أنهم جاؤا بأجمعهم كجزءهم وصفادهم ( غريب الحديث لابن الأثير )

(٣) ل. ١٠ جلود النمر كناية عن شدة استعد والغضب تشبيهاً بأخلاق النمر وشره

عليهم أبداً أى مكة : ياويح (١) قريش قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو دخلوا  
بنى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله  
عليهم دخلوا الإسلام واقرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟  
فوالله لا أزال أجاهدكم على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه  
الساقفة (٢) .

وفى هذه الغزوة صدته قريش عن زيارة البيت الحرام فأرسل عثمان  
ابن عفان لمفاوضة قريش فى مكة وبلغه أنه قتل فقال : لا نبرح حتى نناجز  
القوم ، فدعا إلى البيعة بيعة الرضوان فبايعه أصحابه تحت الشجرة ، وهم ألف  
 وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً ، بايعوه على الموت ، وقيل بايعهم على ألا  
يفروا من الزحف ، ولم يتخلف عن بيعته أحد من المسلمين (٣) . وعادت هذه  
البيعة على الإسلام بالنصر المؤزر ، وكتب للمسلمين بعدها كل قوة فى الأرض  
العربية ، وكان الرسول شعر بالضعف قبل حين ، وهم بمصالحة الأحزاب  
على ثلث تمر المدينة .

وما كانت غزوات الرسول وسراياه إلا عن دواع اضطرته إلى حرب  
المشركين . فسبب وقعة الخندق أن قريشاً كانت تبعث إلى اليهود وسائر القبائل  
يحرضونهم على قتال الرسول ، والسبب فى وقعة حنين وتسمى  
غزوة هوازن ما بلغ الرسول بعد أن فتح مكة وأسلم عامة أهلها أن هوازن  
وثقيف جمعت فيها جمعاً كثيراً ، وقصدوا محاربة المسلمين ، فخرج إليهم  
الرسول من مكة فى اثنى عشر ألفاً منهم الثلاثون من أهل مكة وهم الطلقاء  
الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم . والسبب فى غزوة  
غطفان إلى نجد أنه بلغ الرسول أن جمعاً من بنى ثعلبة ومحارب بذي الكنف أمر  
قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطرافه . والداعى إلى سرية أبى سلمة بن  
عبد الأسد إلى قتل ما بلغ النبي من أن طليحة وسلمة ومن أطاعهما يدعونهم

(١) طبقات ابن سعد .

(٢) الساقفة صفحة العنق وهى السالفتان من جانبيه ، وكفى بانفرادهما عن الموت لأنها  
لا تنفرد عما يليها إلا بالموت وقيل أراد حتى يفرق بين رأسى وجسدى .

(٣) سيرة ابن هشام .

إلى حربه . وسرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة كان فيها سبعون وقيل أربعون رجلاً من المسلمين فيهم أشهر القراء والحفاظ أرسلهم مع عامر أبي براء ملاعب الأسنة الكلابي ليدعو أهل نجد إلى الإسلام فخرج عليهم عامر بن الطفيل من بني عامر ورعل وذكوان وعُصَيَّة فقتلوا ولم يجد رسول الله على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة . وسبب سرية مرثد بن أبي مرثد أن رهطاً من عضل والقارة سألوا النبي أن يرسل معهم من يعلمهم شرائع الإسلام فلما كانوا بين عُسْتَفان ومكة غدروا بهم فقتلوه غير اثنين . ودعا إلى غزوة دومة الجندل ما بلغه من أن فيها جمعاً كثيراً يظلمون من مريهم ويريدون أن يدنوا من المدينة . وسبب غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق ما بلغه من أن فيها جمعاً يريد حرب الرسول بقيادة الحارث بن أبي ضرار ، وسبب غزوة الغابة أن جماعة استاقوا غنمه وقتلوا ابن أبي ذر . وسرية على بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك ما بلغه من أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، وسرية عبد الله بن رواحة إلى أسيد بن زارم اليهودي ما بلغه من أن يجمع اليهود لحرب الرسول . والسبب في غزوة تبوك للطلب بدم جعفر ابن أبي طالب ما بلغه من الأنباط<sup>(١)</sup> الذين يقدمون بالنزيت من الشام إلى المدينة أن الروم تجمعت مع هرقل ، وكانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذي خرج يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم . فبعث رجلاً من عظمائهم وجهاز معه أربعين ألفاً . وسرية زيد بن حارثة أن زيدا هذا خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي فلما كان بوادي القرى لقيه أناس من فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم . وسرية بني الرجيع بعث الرسول ستة من أصحابه فغدروا بهم فكان ذلك سبب غزوة بني لحيان . وكثير من غزواته وسراياه كان الداعي إليها أنه دعا قوماً إلى الإسلام فشاكسوه وقاوموه وامتنوا ما دعاهم إليه<sup>(٢)</sup> ،

(١) المواهب الأدبية للإسكندر .

(٢) تلقيح قوم أهل الأثر لابن الجوزي وتاريخ اليعقوبي .

وأخذ أمر المشركين يضعف ويتراجع ، والمسلمون يقوون ويكثرون ، والرسول يطلب من الناس أن يبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً<sup>(١)</sup> ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يقتلوا أولادهم ولا يعصبوه في معروف ، والناس يبايعونه على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، على أن لا ينازعوا الأمر أهله ، وعلى أن يقولوا بالحق أينما كانوا ، لا يخافون في الله لومة لائم ، وإذا بايعه الناس على السمع والطاعة يقول : فيما استطعتم .

وبعد صلح الحديبية جاءه نساء مهاجرات من الكفار ، فورد التنزيل : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن » فكان يأمر بامتحان النساء بالحلف ، وأنهن ما خرجن إلا رغبة في الإسلام<sup>(٢)</sup> لا بغضاً لأزواجهن من الكفار ، ولا عشقاً لرجال من المسلمين . ومعنى لا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ، أى يولد ملقوطة ينسبه إلى الزوج ، فإن الأم إذا وضعت الولد سقط بين يديها ورجليها . ومعنى لا يعصينك في معروف هو ما وافق طاعة الله كترك النياحة وتمزيق الثياب وجز الشعور وشق الجيب وخمش الوجه إلى ما شاكل ذلك من أعمال الجاهلية ، وما جوز الرسول قتل النساء والولدان في الحرب ولا قتل العفاء ولا الوصفاء<sup>(٣)</sup> ، وأغضى عن المنافقين وأجرى عليهم<sup>(٤)</sup> حكم الظاهر حتى قويت بهم الشوكة وكثر العدد ، وأغضى عن القاعدین عن الحرب ، وهو أشد ما يكون حاجة إلى تكثير سواد من يقاتل معه .

وصالحت الرسول قريشاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ثم انتفض هذا الصلح بعد مدة لأن خزاعة كانت في عهد الرسول وكنانة في عهد قريش ، فأعانت قريش كنانة فأرسلوا موالهم فوثبوا على خزاعة فقتلوا

(١) تفسير الجلالين .

(٢) تيسير الوصول لابن الدبيع .

(٣) الأحكام السلطانية للهاردي .

(٤) العفاء المستخدمون والوصفاء والماليك .

فيهم فشكت خزاعة إليه . فصحت نيته عندئذ على فتح مكة متحلاً من المعاهدة التي بينه وبينهم ، وخف يدوخها في عشرة آلاف من المؤمنين ، فيهم الأنصار والمهاجرون وطوائف من العرب ، فسقط<sup>(١)</sup> في أيدي المشركين وخافوا إذا ظهر عليهم أن يفنيهم على بكرة أبيهم ، فآووا منه وهو في موقف الغالب إلا العطف ، وكل ما يجب الإسلام إلى قلوبهم ، وشمل أعظم قريش بإحسانه ، وكف عن الأذى عند ما أعطوا<sup>(٢)</sup> بأيديهم وقال : ألا كل دم ومال ومأثرة في الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهلها ، ألا وإن مكة محرمة بحرمة الله ، لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد من بعدي ، وإنما حلت لي ساعة ثم أغلقت ، فهي محرمة إلى يوم القيامة ، لا يختلئ خلالها ، ولا يُعضد شجرها<sup>(٣)</sup> ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . ومن قتل له قتيل فهو بخير<sup>(٤)</sup> النظرين ، إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتل ، وقال من كان في بيته صنم فليكسره ، ودعا بالنساء فبايعنه وأخذ عليهن العهد الميثاق ، فإذا أقررن بالسنتين قال : بايعتكن ، ولا يمسن أيديهن . فجعل من النساء أدوات صالحة لنشر الإسلام ، وكان بعضهم في الجاهلية يصبغن ثيابهن بدم القتل ويأكلن كبده وقلبه .

قال ابن قيم الجوزية : لما خرج رسول الله من حصر العدو دخل في حصر النصر فعبثت أيدي سراياه بالنصر في الأطراف فطار ذكره في الآفاق . فصار الخلق معه ثلاثة أقسام : مؤمن به ومسلم له وخائف منه . دخل مكة دخولا ما دخله أحد قبله ولا بعده ، حوله المهاجرون والأنصار لا يبين منهم إلا الحدق ، دخل وذقنه تمس قربوس سرجه خضوعاً وذلاً لمن ألبسه ثوب هذا العز الذي رفعت إليه فيه الخليفة رؤوسها ، ومدت إليه الملوك أعناقها ، فدخل مكة

(١) سقط في يده وأسقط وسقط على المبنى للفاعل ندم . وهو مستقوط في يده وساقط في

يده نادم ( أساس البلاغة ) .

(٢) يقال أعطى يده إذا انقاد . (٣) يعضد يقطع والخلا المشب واختلاؤه

قطعه . (٤) يعني القصاص والدية أيهما اختار كان له وكل هذه معان لا صور ( غريب

الحديث لابن الأثير ) .

مالكاً مؤيداً منصوراً وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يجر في الرمضاء على جمر الفتنة فنشربزا طوى على التوم من يوم قوله « أحد أحد » ورفع صوته بالأذان فأجابته القبائل من كل ناحية فأقبلوا يؤمنون الصوت فدخلوا في دين الله أفواجاً وكانوا قبل ذلك يأتون آحاداً . فلما جلس الرسول على منبر العز . وما نزل عنه قط ، مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه ، فمنهم من سلم إليه مفاتيح البلاد ومنهم من سأله المoadعة والصلح ، ومنهم من أقر بالجزية والصغار ، ومنهم من أخذ في الجمع والتأديب للحرب .

بعث الرسول في سنة سبع كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء من العرب والعجم يدعوهم إلى الإسلام ، وذلك لما تمت له الغلبة على قريش ، ولم يبال سلطانهم ، ولا استخذي<sup>(١)</sup> في سبيل دعوته ، وكان كل كتاب أرسله يختلف بالفاظه ومعناه واحد . فمن الملوك من تطف وهاداه ووالاه ، ومنهم من أكبر هذه المرأة منه ككسرى فإنه مزق كتابه وأمر أحد عماله في اليمن أن يأتي الحجاز ويستتيب الرسول أو يبعث إليه برأسه .

وهذا والناس يدخلون في الدين أفواجاً ، والقبائل تنزل على حكم الرسول وأصحابه ، والوفود تفد عليه من أقطار بلاد العرب ، يدخل أهلها في طاعته ، وتتخلى عن الشرك وتدين بالتوحيد ، وتؤدى الصدقات والأموال ، ومنهم من ينضم إلى جيشه ومنهم من يبقى في أرضه ، وأهل الكتاب يؤدون الجزى والعشور ، ويسالمون الرسول لا يرجون غير رضاه . وفي كتبه إلى من رأى دعوتهم إلى دينه من الملوك والأقيال والزعماء مثال من سياسته واستبطانه أحوال كل قطر ومصر ، وهو أبداً في شغل شاغل من تأمير الأمراء ، يوصيهم بتقوى الله<sup>(٢)</sup> وبمن معهم من المسلمين ثم يقول : اغزوا على اسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك

(١) يقال استخذي اه إذا خضع . (٢) صحيح مسلم .

فأقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول عن دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن أبوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والنفي شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فاسألهم الجزية ، فإن أجابوك فأقبل منهم ، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى وقاتلهم . وإذا حصرت أهل حصن فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تفعل ، ولكن اجعل لهم ذمتك فإنكم أن تخفروا ذمتكم ، أهون من أن تخفروا ذمة الله ، وإذا أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل بل على حكمك ، فإنك لا تدري أنصيب فيهم حكم الله أم لا .

ومن سياسة الرسول أن كان القريب والبعيد ، والقوى والضعيف ، في الحق سواء ، ما هاب ملكاً لملكه ، ولا ذا سلطان لسلطانه ، ولا صانع ذا مال لماله ، يؤلف بين قلوب أهل الشرف ، ويؤلف أصحابه ولا ينفركم ، ويكرم كريم قومه ، وهو أحلم الناس ، يحب العفو والستر ويأمر بهما ، يخوض مع أصحابه إذا تحدثوا . فيذكرون الدنيا<sup>(١)</sup> فيذكرها معهم ، ويذكرون الآخرة فيذكرها معهم ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولا ضرب امرأة ولا خادماً قط ، كان يدير ولا ينفرك ، وييسر ولا يعسر ، يعدل في الغضب والرضا ، ويعفو عن ظلمه ، ويصل من قطعه ويأمر أمراءه أي عماله أن يأذنوا للفقير قبل الغنى ، وللوضيع قبل الشريف ، وللأمراة قبل الرجل .

أشعر القلوب معنى المساواة والحرية وإلغاء الطبقات الى كان من نظامها أن يستعبد الشريف المشروف والغالب المغلوب ، استعباداً دونه الرق . سرقت امرأة من بني مخزوم<sup>(٢)</sup> فأهم قريشاً شأنها ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ، فكلمه أسامة فقال : أتشفع في حد من حدود الله تعالى ، ثم قام فاختطب<sup>(٣)</sup> ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

(١) تاريخ أبي الفداء . (٢) تيسير الوصول لابن الديبع .

(٣) بالغ في خطبته أو أظهرها .

ومن خطبه أيام التشريق<sup>(١)</sup> ألا لا تظالموا ثلاثاً ، ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في أيام الجاهلية تحت قدمي هذه ، ألا وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، ألا وإن كل ربا كان في الجاهلية موضوع ، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمي العباس ( وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظالمون ) .

وأوصى الرسول آخر أمره بالأنصار وأهل الذمة وبالنساء وأذن في الناس في السنة التاسعة أنه لا يحج بعد ذاك العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان<sup>(٢)</sup> ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، ولا عهد لمشرك ولا ذمة بعد أربعة أشهر ، ولم تمض سنة حتى دخلت العرب في الإسلام وكانوا أكثر من مئة ألف وتعايروا بالشرك بينهم والمقام عليه<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

صورنا في الصفحة الماضية صورة من دعوة الرسول إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومثلنا ما باغ قومه من إيذائه وإيذاء أصحابه إلى ما لم تكدر نفس بشرية تتحمله ، وها نحن أولاء نرسم صورة أخرى تكذب أيضاً من يقولوا عليه واتهموه بأنه ظلم من قاتلهم ، ولطالما رماه بذلك المتنطعون ليقولوا إن الإسلام ما قام إلا بالسيف . فقد رأينا عطف الرسول على نصارى نجران ،

(١) التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر . (٢) مروج الذهب للمعري .

(٣) يقول درمنفهام في كتابه حياة محمد أن فواتير صحيح بعض ما ورد في روايته المشهورة من الأحكام على محمد ، وأن مونتسكيو بعد ما أبراش ارتكبت خطيئة فطيمة في حكمه على الإسلام ، وكثيراً ما كذب على صواب في حكمه على المسلمين . أما كنوت دي بولفغليو وسكول وباسكال وكوسان دي برفال ، دوزي وسبرنجر وبارتدي ساهييار ودي كاهتري وكارلايل وغيرهم من المؤلفين فلهم في المادة يعفون على الإسلام وعلى رسوله ويمتدحونها في الأحكام وما زال كثير من إلى يوم تحسرت في التشنع عليهما هـ .

لما جاءه وفد منهم فيه عاقبهم وثمانهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم في<sup>(١)</sup> ستين  
راكباً فناقشوه وناقشهم ثم ارتضوا بأداء الجزية فداموا بخير ما حافظوا على  
عهدهم . وكذلك كان حال أهل دومة الجندل<sup>(٢)</sup> وأذرح وهجر والبحرين  
وأيلة من بلاد النصارى فلما كانت من أرض الصلح وأدت إلى الرسول  
الجزية وعاشت مع المسلمين بسلام . ولم يقاتل بنى قيس بن ثعلبة وكانوا  
نصارى وتركهم يلحقون باليمامة حتى أسلم الناس فمنهم من أسلم ومنهم من أقام  
على نصرانيته . وقال الرسول من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته ،  
أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيججه . وقال من قتل قتيلًا من أهل  
الذمة لم يرح رائحة الجنة ، وقال من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه  
الجنة أن يشمها ، وجعل دية المعاهد كدية المسلم ألف<sup>(٣)</sup> دينار .

وعطف المسلمون على الروم لما غلبهم الفرس في أرض الجزيرة حتى  
فرح المشركون وشمتموا بالمسلمين<sup>(٤)</sup> . وقالوا أتمم والنصارى أهل كتاب ،  
ونحن وفارس أميون ، فقد ظهر اخواننا الجوس على إخوانكم فلنظهروا عليكم .  
فزل قوله تعالى : « الم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم  
سيغلبون في بضع سنين » ، ثم ظهرت الروم على فارس ، والتقى الجيشان في السنة  
السابعة من الالتقاء الأول ، وغلب الروم الفرس فسر المسلمون وصدق  
التنزيل<sup>(٥)</sup> .

وفي السنة الأولى من الهجرة كانت وقعة ذى قار بين بكر بن وائل وبين  
الجيش الذى بعثه إليهم الملك خسرو ابرويز ؛ فهزمت العجم ومن كان معها من

(١) المدارس حيث يدرس يوم . و لعمال الغنم انما يزوم بأمر قوم ، ويأخذون صاحب  
رحلهم ، والعاقب الذى يخلف السيد وهو ثمانية في المرتبة ومنه جاء السيد والعاقب .

(٢) معجم ما استعجم للبكري . (٣) الديارات الشيباني .

(٤) تفسير البهاري . (٥) يقول الجاحظ في الرد على النصارى إنما عطف  
قلوب دماء العرب على النصارى الملك الذى كان فيهم والقرابة التى كانت لهم ولم تكن النصرانية  
فاشدة فيهم . مع أنها لم تلصق على ملوك العرب وقتائهم من ثعلبة وعبدان والحارث بن كعب وبنجران  
وقضاة وطى وربيعة وتغلب وعبد القيس واثناء بكر ثم آل ذى الجدين وهم نصارى مغفورون  
مع نبله يسير في انتباهات .

تغلب وطى وضبة وتميم والنمر وبهراء وتنوخ وغيرهم من متنصرة العرب ، ولما أتى بعض بكر بن وائل الموسم وقف عليهم النبي وهو يعرض نفسه على القبائل فوعده إن نصرهم الله على الأعاجم أن يؤمنوا به فدعاهم بالنصر ، ولما حنى وطيس الحرب بينهم وبين جيوش كسرى قالوا عليكم بشعار التهامي فتادوا يا محمد يا محمد فهزموا عدوهم ، فلما بلغه ظهورهم على الأعاجم قال : هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم<sup>(١)</sup> .

هكذا كانت عاطفة الرسول والمسلمين نحو النصارى ، ومثل ذلك كانت عاطفته نحو اليهود<sup>(٢)</sup> ، ولولا ذلك ما عاهدهم ولا هاجر من بلده إلى بلدهم معتصماً بالأوس والخزرج خلفائهم ، وبعد أن عاهدوه وشرطوا عليه واشترط عليهم خانوه وألبوا عليه الأحزاب أى قبائل العرب ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فبنو قريظة نقضوا عهده وأعانوا عليه فى غزوة الخندق ، وهى غزوة الأحزاب ، فحاصروهم حتى نزلوا على حكمه ، فأمر بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستفاءة<sup>(٣)</sup> أموالهم لمظاهرتهم المشركين على المسلمين . وبنو النضير امتنعوا منه بحصونهم فقطع نخلهم وشجرهم وأضرهم النار عليهم فصالحوه على أن يحقن لهم دماءهم ويسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاه على أن لهم ما أقلت الإبل ما عدا الحلقة<sup>(٤)</sup> . ويهود خيبر طاولوه وماكسوه<sup>(٥)</sup> ، ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذوية على أن يخلوا ويخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزة إلا ما كان منها على الأجساد ؛ ثم قالوا له : إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا فأقرهم ، وساقاهم على النصف من ثمارهم . وبنو قينقاع نزلوا

(١) تفسير البيضاوى . (٢) يقول الجاحظ : ليست اليهودية بغالبة على قبيلة

إلا ما كان من ناس وقبذ يسير من جميع إداد وربيعة ، ومعظم اليهودية إنما كانت بيثرب وخيبر وتيماء وادى القرى فى ولد هارون دون العرب . ويقول البلاذرى ، إن يختصر لما هدم بيت المقدس وأجل من أجل وسبى من سبى من بنى إسرائيل لحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادى القرى وتيماء ويثرب .

(٣) استفاء المال : أخذه فيثاً . والنوء . الغنمية . (٤) الحلقة : السلاح .

(٥) ماكسوه : شاكسوه . والمماكسة : المشاحنة وطلب الخط من الثمن .

على حكمه فغنم أموالهم وأخذ الخمس وهو أول خمس خمسة<sup>(١)</sup> وفرق أربعة الأخماس على أصحابه . وبنو المصطلق كان حكمهم حكم غيرهم . وفتح وادى القرى وأخذ المسلمون أرضهم لامتناعهم عن قبول الإسلام وقتلهم له . فما كان الرسول هو الظالم لليهود بل هم الذين ظلموا أنفسهم ومن اليهود من ألقى صخرة على الرسول يريد قتله ومن كان معه من أصحابه . وفي غزوة خيبر أدخلت عليه السم في الطعام زينب بنت الحارث اليهودية . ومنهم من آذاه وأذى المسلمين ككعب بن الأشرف الشاعر اليهودي هجاه وشبب بنساء المسلمين وحرص عليهم وآذاهم فقتله . وعصماء بنت مروان الشاعرة اليهودية كانت تعيب الإسلام وتؤذى النبي وتحرض عليه وتهجوه ، وأبو علفك اليهودي يحرض على المسلمين ويقول الشعر على الرسول . ولم يترك اليهود حيلة لالقاء الشقاق بين المسلمين ، وبين المسلمين والمشركين إلا أتوها ، وغاظهم تألف<sup>(٢)</sup> الأوس والخزرج فذكروهم يوم بعاث ، وكان الظفر فيه للأوس في الجاهلية . فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وتداعوا إلى السلاح ولولا أن وعظهم الرسول وأبان لهم أن ذلك كيد من عدوهم لأفنى بعضهم بعضاً . وفي هذه المؤامرة نزلت آية : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

وبدأ بدومة الجندل فكانت أول غزواته للروم فيها وغزا تبوك ثم أغزى بعض خاصته مائة من أرض الشام ذلك لما بلغه أن الروم تجمع جوعها تريد أن تغزو بلاد العرب بمن عندها من متحصنة العرب وغيرهم . وكان شرحبيل ابن عمرو الغساني من عمال الروم عرض للحارث بن نمير الأسدي رسول الرسول إلى أمير بصرى يحمل كتاباً فقتله ، ولم يقتل للنبي رسول غيره فوجد عليه وجداً كثيراً .

فلم يعمد الرسول إلى السيف إلا لما رأى الخطر يتحيفه من كل وجه ، وما قاله بالقوة إلا لما استنفذ عامة طرق الدعاية إلى دينه . وما غزا غزوة إلا عن سبب قوى دعاه إليها . ومن المتعذر أن يحمى حمى الدين بغير حماية .

(١) التنبيه والإشراف لمسعودي . (٢) تفسير البيضاوي .

القائمين به ، ولا يأمن المضعوف شر القوى إلا إذا قوى مثله ، ولن تكون الحجاز بأمن من جيوش الروم وفارس ، إذا لم تكن العرب ذات سطوة يخشى بأسها ، ولا يكون محمد والمؤمنون به بمنجاة من مجاورتهم إذا لم يكونوا أبداً على استعداد لمقابلتهم بمثل سلاحهم .

قويت كلمة الإسلام وزاد كلب أعدائه فأمر الرسول بقتال المشركين والكفار والمنافقين<sup>(١)</sup> وجاءت عدة آيات في قتالهم منها : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير . وقاتلوا المشركين كافة واعلموا أن الله مع المتقين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديهم ويخزهم وينصركم ويشف صدور قوم مؤمنين ، فقاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . وقاتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله . يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كمنوا بأنهم قوم لا يفقهون . قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » .

وكان من حرب الرسول للعرب فوائده أخرى . منها الضرب على أيدي من استزفوا ثروة الجزيرة ، توزع أموالهم على العاملين من الناس ويعوض من مال من قاوموا الإسلام على المهاجرين الذين فقدوا بهجرتهم ما كانوا يملكونه في مكة من عروض التجارة والعقار والأرض ، ويعتاض الأنصار

(١) في شرح المناهضة للسعد المتفازي أن الكافر اسم لمن لا إيمان له ، فإن أظهر الإيمان خص باسم المنافق ، وإن طرأ كفر بعد إسلام خص باسم المرتد ، لرجوعه عن الإسلام ، فإن قال باليمين أو أكثر خص باسم مشرك لإثباته اشركة في الألوهية ، وإن كان متديناً ببعض الأديان والكتب المنسوخة خص باسم الكتاني كاليهودي والنصراني ، وإن كان يقول بقدوم الدهر وإسناد الحوادث إليه خص باسم الدهري ، وإن كان لا يثبت الباري سبحانه خص باسم المعطل ، وإن كان مع اعترافه بنبوة النبي وإظهار عقائده الإسلام يبطن عقائده هي كفر بالاتفاق خص باسم الزنديق .

عما أنفقوه في إكرام إخوانهم المهاجرين إلى المدينة فأعانت الحروب الأولى أدل الإسلام على المضي في دعوتهم ليتفرغوا بما تصل إليه أيديهم من المغاني والصدقات ، فيقروا على حرب من أفسدوا كيان الجزيرة بما استحلوا من ظلم أهلها . ومنهم من كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ويضربون عليهم الضرائب فنزل قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أراد تحصنن لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

ثم إن العرب ذلوا زمنًا طويلًا لفارس والروم ، وأن لهم بعد أن اعتزوا بالإسلام أن خرجوا من صحاريهم داعين لما تلقوه من آداب الدين ، آخذين بحظ من الدنيا ، ومن قبل كانت تجارتهم مسارقة ومغامرة ، تشتد حاجتهم إلى جيرانهم ، وهؤلاء قلما يحتاجون إليهم ، ويتطلبون رضا من ينزلون عليهم ، وهؤلاء لا يعبأون بهم كثيرًا ، وكيف السبيل إلى الاستمتاع بالكرامة والأمانة إذا فقدت القوة المادية ، وكيف تؤمن الطرق إلى انتشار الدين إن لم تكن وراءها قوة تحميها ، وعلم يرفرف على دعائها .

ولأحد شوقي مخاطبًا الرسول في جهاده :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاعوا أسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذى حسب	تكفل السيف بالجهال والعمم <sup>(١)</sup>
والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء كم شربت	بالصواب من شهوات الظالم الغلم <sup>(٢)</sup>
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها	في كل حين قتالا ساطع الحدم <sup>(٣)</sup>
لولا حماة لها هبوا لنصرتها	بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم <sup>(٤)</sup>

(١) العم اسم جامع للعامة .

(٢) الغلم الهائج النائم .

(٣) الحدم شدة احتراق النار .

(٤) الرحم الرقة والمغفرة والتعطف .

## سياسة الخلفاء الراشدين

### سياسة أبي بكر الصديق .

لحق الرسول بربه بعد أن دعا إليه ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنين في المدينة ، فمرت الصحابة دهشة عظيمة لوفاته ، حتى أن عمر نفسه قال يوم ارتحال النبي ، ما مات محمد رسول الله وليبعثه الله تعالى فقال أبو بكر : ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وتلا قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون . وما محمد إلا رسول . قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » . فنفع الصديق في قلوب أصحابه روح الصبر ، وأنقذهم بما ذكرهم به من الجزع ، وأرشدهم إلى ما كانوا غفلوا عنه ، من أن دعوتهم إلى الله وشرعه وتوحيده ، وأن صاحب هذا الشرع كان بشيراً ونذيراً وبشراً رسولاً ، إذا قضى فإن شرعه لن يموت ، وأن الواجب أن يعملوا كلهم جميعاً لإتمام مقصده الأعلى .

وكان لزماً بعد وفاة الشارع أن يباعد لأعظم رجل من أصحابه ، يتولى من أمر الأمة ما تولاه رسولها منه ، لتظل الدعوة مستحكمة ، والألفة بين المؤمنين شائعة ، ويكمل هذا الصرح الديني الذي أنسه صاحبه العظيم لسلامة الخلق ، وليس أفضل من أبي بكر لإتمام هذا الغرض ، وهو شيخ قریش . بسنه وفضله وحسن بلائه ، وهو أعرف الصحابة بمقاصد صاحب الرسالة . لأن الرسول لما مرض مرضته التي توفي بها قال لمن حضر غير مرة : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، وإن تفضيله له على غيره . دليل ثبته به .

اجتمع الناس غداة ارتحال الرسول في سقيفة بني ساعدة برئاسة سيد الخزرج سعد بن عباد فأذعنت الأنصار لبيعته ، وقال المهاجرون (١) الأئمة من قريش ، وطال الحوار فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . وقال المهاجرون نحن الأمراء وأنتم الوزراء . وكان شاهد هذه المفاوضة أبو بكر وعمر ، وكان عمر هياً كلاماً يريد أن يقوله فانقطع ، وتقدم أبو بكر فخطب وقال : « نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً والناس لنا تبع ، ونحن عشيرة رسول الله ، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً ، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ، وأنتم والله الذين آووا ونصروا ، وأنتم وزراؤنا في الدين ووزراء رسول الله ، وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى . وشركاؤنا في دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء ، والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه » . ودعاهم إلى مبايعة أبي عبيدة بن الجراح أو عمر بن الخطاب . فقال عمر وأبو عبيدة ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر ، أنت صاحب الغار ثاني اثنين ، وأمرك رسول الله بالصلاة ، فأنت أحق بهذا الأمر . وطالت مرادات المؤتمرين من زعماء الأنصار والمهاجرين ، ثم قال أبو بكر يدعوهم إلى الجماعة وينهاهم عن الفرقة ، وقال إنني ناصح لكم في أحد هذين الرجلين أبي عبيدة وعمر ، فبايعوا من شئتم منهما . فقال عمر : معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا ، أنت أقدمنا صحبة لرسول الله ، وأنت أفضل المهاجرين وثاني اثنين ، وخليفته على الصلاة ، والصلاة أفضل دين الإسلام ، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ، ويتولى الأمر عليك ، أبسط يدك أبايعك فبايعوه ، ومن الغد بويع مبايعة عامة في المسجد ، ولم يتخلف عن بيعته سوى علي ابن أبي طالب . والعباس بن عبد المطلب ، وسعد بن عباد . وقعد علي والعباس والزبير في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيتها وقال له : إن أبوا فقاتلهم فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم

(١) (١) الفرق بين الفرق للبندادي والإمامة والسياسة المنسوب لابن تينية والعمدة الزبير لابن

عبد ربه والليل والليل لابن حزم .

النار ، فلقيته فاطمة فقالت : يا ابن الخطاب جئت لتحرق دارنا قال : نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة . وحرص عمر كل الحرص على أخذ البيعة من على لأبي بكر لأن علياً أحد العشرة المبشرة . وما عبأ كثيراً بتخلف سعد عن البيعة . وبأيع بنو هاشم بأجمعهم .

وأقام أبو بكر بعد البيعة ثلاثة أيام يقبل الناس ويستقبلهم ويقول : قد أفلتكم في بيعتي هذه ، هل من كاره ، هل من مبغض ؟ . وخطب القوم ومما قال : وأيم الله ما حرصت عليها - أي الخلافة - ليلاً ولا نهاراً ، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية ، ولقد قلدت أمراً عظيماً مالى به طاقة ولا يد ، وودت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكافئ فأطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم .

وأنكرت فاطمة ابنة الرسول وزوج علي بن أبي طالب حرمان زوجها الخلافة ، ومنزلتها ومنزلة زوجها منزلتهما ، فاستأذن أبو بكر وعمر عليهما فلم تأذن<sup>(١)</sup> ، فأدخلهما علياً عليها فقالت : تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم ، لم تستأمروا ولم تردوا لنا حقاً . فحاوراها فما زادت إلا غضباً وقالت : لئن لقيت النبي لأشكونكما إليه . وقالت لأبي بكر : لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها . فخرج أبو بكر باكياً فاجتمع إليه الناس فقال لهم : يبئ كل رجل منكم معانقاً حليلته مسروراً بأهله ، وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم ، أقبلوني بيعتي . قالوا : يا خليفة رسول الله ، إن هذا الأمر لا يستقيم ، وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين . فقال : والله لولا ذلك ، وما أخافه من رخاوة هذه العروة ، ما بت ليلة ولى في عتق مسلم بيعة بعد ما سمعت<sup>(٢)</sup> ورأيت من فاطمة .

(١) الملل والنحل لابن حزم .

(٢) يقول ابن تيمية من المعلوم المواتر عند الخاصة والإمامة التي لم يختلف فيه أهل العلم بالمشيولات والسير أن أبا بكر لم يطلب الخلافة لا برغبة ولا برهبة ولا بذلك فيما ما يرغب الناس به ولا شهر عليهم شيئاً يرهبهم به ، ولا كانت له قبيلة ولا أموال تنصره وتقويه في ذلك كما جرى من عدة الملوك أن أفرارهم ومواليهم يعاونونهم ولا طلبها أيضاً بلسانه ، ولا قال بايعوني بل أمر بمبيعة عمر أو أبي عبيدة ومن تخاف عن بيعته كسعد بن عباد لم يؤذ ، ولا أكرهه = (٢٣ - ٢٤)

وقال أبو بكر لعلي<sup>(١)</sup> : « والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لي : يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش<sup>(٢)</sup> عليه ، ولأن يتضاعف عنه لا لمن يشمخ إليه ، وهو لمن يقال له هو لك ، لا لمن يقول هو لي ، والله لقد شاورني رسول الله في الصهر ، فذكر فتياناً من قریش فقلت له : أين أنت من علي فقال : إني لأكره لفاطمة مينة<sup>(٣)</sup> شبابه وحدثاته سنه ، فقلت له : متى كنفته يدك ، ورعته عينك ، بهما البركة ، وسبغت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خاطبته رغبة فيك ، وما كنت عرفت منك حوجاء ولا لوجاء<sup>(٤)</sup> . فقلت ما قلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنت لك إذ ذاك خير منك الآن لي ، ولئن عرض بك رسول الله في هذا هذا الأمر ، فلم يكن معرضاً عن غيرك ، وإن قال فيك فما سكنت عن سواك » . وسواء أصححت هذه الرواية أم لم تصح ، وليس ثمة ما يمنع من صحتها ، لأن معناها تدل عليه الظواهر والوقائع ، فقد ثبت أن علياً كان له وجه عند

على المباينة ولا منعه حقاً له ولا حرك عليه ساكتاً ، وهذه غاية في عدم إكراه الناس على المباينة . ثم إن المسلمين بايعوه ودخلوا في طاعته والذين بايعوه هم الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وهم أهل الإيمان والهجرة والجهاد ولم يتخلف عن بيعته إلا سعد بن عبادة وأما على وسائر بني هاشم فلا خلاف بين الناس أنهم بايعوه لكن تخلفه لأنه كان يريد الأمر لنفسه رضي الله عنهم أجمعين ثم إنه في مدة ولايته قاتل بهم المرتدين والمشركين ولم يقاتل المسلمين بل أعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل الردة ، وأخذ يزيد الإسلام فتوحاً ، وشرع في قتال فارس والروم ومات المسلمون محاصرون دمشق وخرج منها أزهد ما دخل فيها لم يسأثر دونهم بشيء ولا أمر له قرابة ، ثم ولي عليهم عمر بن الخطاب ففتح الأمصار وقهر الكفار وأعز أهل الإيمان وأذل أهل النفاق والعدوان ونشر الدين وبسط العدل في العالمين ووضع ديوان الخراج والمعطاء لأهل الدين ومصر الأمصار للمسلمين وخرج منها أزهد ما دخل فيها لم يتأثر لهم به شيء ولا ولي أحداً من أنصاره ولاية .

( ١ ) رسالة أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب في شرح نهج البلاغة ونهاية الأرب للنويزي .

( ٢ ) جاحش حامى ودافع ، يقال « جاحش عن حيط رقبتة » أي نفسه وهو مثل .

( ٣ ) مينة الشباب أوله .

( ٤ ) اللوجاء الحاجة ومنه وما كان في نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجا ولا لويجا .

أي حاجة .

الناس حياة فاطمة<sup>(١)</sup> ، فلما ماتت لخمسة وسبعين ليلة من وفاة أبيها ، انصرفت وجوه الناس عنه ، فعندها ضرع زوجها إلى مصالحة أبي بكر ، وقال له : ما نفسنا عليك ما ساقه الله إليك من فضل وخير ، ولكننا نرى أن لنا في هذا الأمر شيئاً ، فاستبددت به دوننا وما ننكر فضلك ، وقالوا إن مما قاله أبو عبيدة لعلى : يا بن عم<sup>(٢)</sup> إنك حدث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، وليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالاً واضطلاعاً فسلم لأبي بكر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء ، فأنت بهذا الأمر خليك وحقيق ، في فضلك ودينك وعلمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

وبدئهم أن الصحابة بأسرهم كانوا يحرصون على الجماعة كما كانوا كلمة واحدة في نصره الدين ، ومثل على بعقله وعلمه وتقواه لاتحدته نفسه أن يسير على غير الجادة ، بعد أن شاهد الإجماع على مبايعة أبي بكر ، فراعى الأمر الواقع ، ورأى الخير فيما تم ، والسياسة مصلحة ، وأكفأ الصحابة لها أبو بكر . وبهذا الإجماع من أهل الحل والعقد وعلمية الصحابة ، ممن مات رسول الله وهو عنهم راض ، وكانوا السابقين الأولين إلى هدايته ، ثبت أن الرسول لم يوص لأحد بعده ، وليس في القرآن إشارة إلى استحقاق الخلافة بالإرث ، بل ولا للخلافة بالمعنى الذي عرفه الناس بعد ، ولو كان هناك شيء لما وسع الصحابة ، على منزلة الصديق منهم ، أن يبائعوه ، ويغفلوا عن على ، ويتركوا وصية الرسول جانباً ، وهناك أمور أدركها الصحابة بالبداية ، منها تقديم أبي بكر للصلاة ، لأنه حبيب الرسول وصاحبه الأكبر ، وعطفه عليه ظاهر ، وثقته به لا تدفع ، وأدركوا أن الخلافة لعامة قريش<sup>(٣)</sup> ، وأن الرسول لم يخص بها أهل بيته ولا بني هاشم ، حتى لا يتخيل الناس أنه ملك متوارث . « وإذا كان<sup>(٤)</sup> جعفر أفضل بني هاشم بعد على في حياته ، ثم مع هذا أمّر النبي زيد بن حارثة وهو من بني كلب عليه ، علم أن التقدم

(١) تيسر الوصول لابن أبي عمير . (٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

(٣) النزاع وانتخابهم للمقرئ . (٤) منهاج السنة لابن تيمية .

بفضيلة الإيمان والتقوى ، وبحسب أمور أخرى ، وبحسب المصلحة لا النسب ، ولهذا قدم النبي أبا بكر وعمر على أقاربه لأنه رسول الله ، يأمر بأمر الله ، وليس من الملوك الذين يقدمون بأهوائهم لأقاربهم ومواليهم وأصدقائهم ، وكذلك كان أبو بكر وعمر ، حتى قال عمر : من أمر رجلاً لقرابة أو صداقة بينهما وهو يجد في المسلمين خيراً منه ، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين ۝

قال زيد بن علي : إن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة وأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين نائرة الفتنة ، وتطينب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين عليه السلام من دماء المشركين من قرينش لم يحف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طاب النار كما هي ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا الرقاب تنقاد له كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله . وقال أبو بكر للعباس : إن الرسول خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم متفقين لا مختلفين ، فاختروني عليهم والياً ، ولأموهم راعياً . وخرج أبو بكر إلى المسجد فأقبل على الناس فقام على فعظم حق أبي بكر وذكر فضيلته وسابقته ثم مضى فبايعه فأقبل الناس على علي فقالوا : أصبت يا أبا الحسن وأحسن . يقول المسعودي<sup>(١)</sup> إنه تنوزع في بيعة علي ابن أبي طالب أبا بكر فمنهم من قال بعد موت فاطمة بعشرة أيام وذلك بعد وفاة رسول الله بنيف وسبعين يوماً ، وقيل بثلاثة أشهر وقيل ستة وقيل غير ذلك .

أما سعد بن عباد الذي بايعه قومه أو كادوا بالخلافة في سقيفة بني ساعدة قبل أن يشهدا أبو بكر وعمر وأبو حميدة ، فقد بطلت بيعته بإجماع الناس على

(١) مروج الذهب للمسعودي .

أبي بكر ، وقال : لا أباع حتى أرايكم بما في كنانتي <sup>(١)</sup> ، وأقاتلكم بمن تبعني من قومي وعشيرتي ، فترك وشأنه لم يعرض له أحد بسوء . وكان سعد يدعو « اللهم هب لي حمداً ، وهب لي مجداً » وكان من أجواد الناس وأصحاب الجاه للعريض والوفر المأثور . سمع عمر بعضهم يقول إن بيعة أبي بكر فلتة فتمت فغضب عمر وخطب فيما جرى يوم السقيفة فقال : خشيناً <sup>(٢)</sup> إن فارقتا القوم ولم تكن بيعة ، أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا ، فإما يبايعناهم على ما لانرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فساد ، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي يبايعه تغرة أن يقتلا <sup>(٣)</sup> .

والحق أن الخير كل الخير كان في الإسراع ببيعة أبي بكر ، وفي حرص أبي بكر وعمر على أن تكون بيعة عامة لا يفلت منها من كان له مكانة في الصحابة ، وذلك لأن عقلاء القوم كانوا يتخوفون العرب ، والحزيرة لم تصف كلها بالإسلام صفاء يركن إليه ، وارتد أكثر العرب عقب وفاة الرسول <sup>(٤)</sup> إلا أهل المدينة ومكة والطائف ، وحاول بعض أهل مكة أن يرتدوا ، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بقريش وغيرهم فاجتمعوا إليه فقال : يا أهل مكة كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد ، والله ليضمن هذا الأمر كما قال رسول الله ، فامتنع أهل مكة من الردة . وسهيل بن عمرو هذا هو أخو عامر بن لوئى الذى تولى عقد الصلح عن قريش عشر سنين ، وأبى على الرسول أن يكتب في العهد « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، اكتب اسمك واسم أبيك . فقبل الرسول هذا التحكم على مضض من كان شاهد ذلك من الصحابة .

بعد استخلاف أبي بكر بعشرة <sup>(٥)</sup> أيام ، امتنعت بعض قبائل العرب من أداء الزكاة فنعت شاتها وبعيرها وارتضوا بالصلاة ، ولما كانت الزكاة من دعائم

(١) طبقات ابن سعد . (٢) تيسير الوصول لابن الديع .

(٣) أى خوف تغرة أن يقتلا أى خوف إيقاعها في القتل . والتغرة مصدر أغررته إذا ألقيته في الغرر وهى من التغرير .

(٤) تاريخ أبي الفداء . (٥) مروج الذهب للمسعودى .

الإسلام ، رأى أبو بكر أن الممتنع عن أدائها مرتد ، ومن أنكر بعضاً قد يبلغ به الحال أن ينكر أكثر من ذلك . واستشار أبو بكر الصحابة فأجمع رأيهم<sup>(١)</sup> كلهم أن يلزم أبو بكر بيته ومسجده ، إذ لا طاقة له بقتال العرب فقال أبو بكر : ألن أكثر أعدائكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ، ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصديق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق<sup>(٢)</sup> . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . والله أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده ، حتى أبلى بنفسى عنراً أو أقتل قتلاً ، والله أيها الناس لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه ، واستعنت الله وهو خير معين ، وعلى هذا جاهد حتى أذعنت العرب بالحق .

استبد الصديق برأيه في دفع هذه الغائلة ، وأبى لإقتال المرتدين والمتنبئين فكان رأيه مسدداً دون سائر إخوانه ، وأثبت للملأ أنه خير من يجمع كلمة المسلمين ، بما أوتي من نفس قوية وصبر ، وعلم محكم بأفضل التجارب ، فلم يترك بشدته على أهل الردة ، والكذبة من متنبئة العرب ، مجالا لتسرب الضعف إلى نفوس المسلمين ، وذهب ، وهو رجل الحرب والسلم ، بهذه المفخرة من قتال النازين على الدولة الفتية والدين الحديد ، فعد رجل البأس والدهاء السياسى ، كما هو رجل الرحمة واللين ، لم يترك عن مباغته المرتدين ومناجزتهم قبل أن يأخذوا عدتهم ، وينشروا بين الناس دعوتهم ، فكان عمله كله الحكمة وبها قام الإسلام .

كتب أبو بكر لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردة ما نسخته : هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله لفلان ، بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، عهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره ،

( ١ ) الكاس للمبرد .

( ٢ ) الزاهق والهالك والزهوق ذهاب الروح ، ونقذف نغلب « بتشديد اللام » فيدمغه فيمحقه ، والبع كسر الدماغ بحيث يشق منه المؤدى إلى زهوق الروح .

وأمره بالحد في أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الإسلام . إلى أماني الشيطان ، بعد أن يعذر<sup>(١)</sup> إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرروا لهم ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، ولا ينظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له ، قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر ، بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسربه ، ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل ، حيث كان وحيث بلغ مراغمه<sup>(٢)</sup> ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فن أجابه وأقر به قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل فيه كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله إلا الخمس فإنه مبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ، ويرفق بهم في السير والمنزل ، وبتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اهـ .

ومن وصايا الصديق ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة فإنني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن في العرب غرة<sup>(٣)</sup> ، وأقل الكلام فإن لك ما وعى عنك ، وإذا أتاك كتابي فأنفذه فإنما أعمل على حسب إنفاذه ، وإذا قدمت عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرك واسخ عثم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين . ولا تلحن في عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن

(١) أعذر : قدم إليه عذراً . (٢) المراغم : المنصب ، المهرب والمضطرب .

(٣) بيت الندى : أوقع بهم ليلاً من دون أن يعلموا . والغرة : الغفلة .

إليها وأنت تكتفى بغيرها ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تجسس عسكريك فتفضحه ، ولا تهمله فتفسده . وفي رواية أنه قال ذلك لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة .

مثال من منهاج الصديق في محاربة الناشزين على دينه ، وهو لم يخرج في مدته القصيرة التي ولى فيها الخلافة عن الخطة التي رسمها الرسول . قضى على المرتدين والمنتبئين ، وما سها عن التوسع في الفتوح ، وبسط سلطان الإسلام . وكانت حروب الردة من أول ما علم العرب أن الانشقاق الداخلي مما يقوض دعائم الممالك ، ويفصم عرا الوحدة في الأمم ، وقُدِّر أن كانت هذه الغزوات بمثابة تمرين لرجال الإسلام على الحروب الكبرى ، وفيها ظهرت لهم كفاءات غربية ساعدتهم على الفتوح بعد حين ، فدكوا عروش أمم تسلسل فيها الملك قروناً ، وعرفوا كيف يأخذون بمخنق الشعوب والقبائل .

أخذت العرب بعد ذلك تضيف إلى ما تعلمته من صاحب النبوة ، ماهدتها إليه فطرتها السليمة ، ولقنها إياه المحيط والبيئة ، وأى سياسة أحكم مما قاله أبو بكر وهو يشيع يزيد بن أبي سفيان لفتح الشام يوصيه بما يجب عمله : وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مشاؤونهم ، فإنه أول خيرك إليهم وأقل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت الذي تلى كلامهم ، وإذا بلغتك عن عدوك عورة فاكتمها حتى توافيها ، واستر في عسكريك الأخبار وأذك الحراس . وقال : إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له يعني الرهبان . ثم قال : إني موصيك بعشر : لا تغدر ولا تمثل ، ولا تقتل هرمًا ولا امرأة ولا وليداً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلاً ولا تحرقن عامراً ، ولا تغل ولا تجبن .

ومن خطب أبي بكر « إنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة ، وسترون بعدى مُلْكاً<sup>(١)</sup> عضوضاً ، وأمة شعاعاً ، ودماً مفاحاً ، فإن كانت

(١) ملك عضوض ، فيه استبداد وعنف ، وأمة شعاع متفرقة ، ودم مفاح مسفوح .

للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يغفوا لها الأثر وتموت السنن ، فالزموا المساجد ، واستشعروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر . كأن أبا بكر كان يستشعر ببصيرته على نحو ما يكشفه السياسي المحنك ، حجب الغيب أو يكاد ، أن الخلافة تنقلب إلى ملك عضوض لما يرى مما يجري في الخفاء ، ولما يبين بعضهم من نيات تُراد الدنيا في تحقيقها أكثر من الأخرى .

وخطب يوماً أهل المدينة في يوم جمعة ، وكان يبلغه عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب الرسول ، ويوافقهم آخرون على ذلك ، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس أن يقربوا من المنبر فلما فرغ من خطبة الجمعة كان مما قال : « ويحكم أنى لست أتاوياً<sup>(١)</sup> أعلم ، ولا بدوياً أفهم ، قد حلبتكم أشطراً وقلبتكم أبطناً وأظهراً ، فعرفت أنحاءكم وأهواءكم ، وعلمت أن قوماً أظهروا الإسلام بألسنتهم ، وأسروا الكفر في قلوبهم ، فضربوا بعض أصحاب رسول الله ببعض ، وولدوا الروايات فيهم ، وضربوا الأمثال ، ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعواناً يأذنون لهم ويصغون إليهم » .

ضبط أبو بكر الأمور بيد من حديد ، ولم يترك في خلافته سبيلاً إلى الشهوات وخصوصاً ما أدى منها إلى الفرقة ، وكان لا ينعم بشيء من مناعم الملك ، بل هو في الزهد والتواضع والنسك على مثال صاحبه . روى<sup>(٢)</sup> يوماً في سوق من أسواق المدينة على كتفه جلد شاة ، ففرغت عشيرته لذلك ، وقالوا قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار والعرب قال : « أفأردتمني أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام ، لا والله لا تكون طاعة العرب إلا بالتواضع لله ، والزهد في هذه الدنيا » . وتواضعت المملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر ، وقدم إليه زعماء العرب وأشرافها ومملوك اليمن ، وعليهم الحلل والحبيّر والبرد والوشى المثقل بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ما هو فيه من اللباس والزهد ، وما هو عليه من الوقار والهيبة : ذهبوا

( ١ ) الأتاوى الغريب عن القوم .

( ٢ ) مروج الذهب للمسعود .

مذهبه ونزعوا ما كان عليهم ، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذوالكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد ، دون من كان من عشيرته ، وعليه التاج والبرود المغشاة بالذهب ، فلما شاهد أبا بكر ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه .

كان الصديق موضع إجلال ، بكل ما في الإجلال من المعاني ، ما خرج إنسان عن رضاه ، وما جسر أحد أن يجهر بذات نفسه ، وأى عاقل يجرؤ على الخلاف لمن كان جمهور المسلمين يعجبون بسيرته . وكان كل هذا من العوامل الفعالة في تطبيق مفصل سياسته ، وسر تغلبها أنه لم يكن له مأرب في شيء من أمر الدنيا ، ولا أحب جلب النفع إلى ولده وأهله ومواليه وعشيرته دون سائر الناس . وعرفت منزلة الصديق من نفوس قومه يوم قبض ، فارتجفت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي ، وجاء على باكياً مسترجعاً وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر مسجى فقال : يرحمك (١) الله أبا بكر ، كنت إلف رسول الله وأنيسه ، ومستراحه وثقته ، وموضع سره ومشاورته ، كنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأحدهم على الإسلام ، وآمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسوله هدياً وسمتاً ، ورحمة وفضلاً ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر (٢) ، وصدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك الله في تنزيله صديقاً ، والذي جاء بالصدق - محمد - وصدق به - أبو بكر - وآسيته حين تخلوا عنه ، وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي .

( ١ ) الموافقة بين أهل البيت والصحابة لابن زنجوية باختصار الزنجشري ( مخطوط ) وإعجاز القرآن للباقلاني .

( ٢ ) في الصحاح أن الرسول قال : لقد هممت أن أبعث رجلاً يدعونيهم إلى الإسلام ، ويرغونيهم في الدين فأبعث أبا بن كعب وسالم مول أبي حذيفة ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى ابن مريم فقالوا يا رسول الله : أفلا تبعث أبا بكر وعمر فقال : لا بد لي منهما ، هما من بمنزلة السمع والبصر .

نهضت حين وهن أصحابه ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ،  
لزمت منهاج رسول الله وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت إذ تمتعوا ،  
مضيت بنور إذ وقفوا ، كنت والله للدين يعسوباً (١) : أولا حين نفر عنه  
الناس ، وآخرأ حين أقبلوا ، فكنت للمؤمنين أباً رحماً حين صاروا عليك  
عيالاً ، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أمهلوا ، وحفظت ما أضاعوا  
وكنت كما قال رسول الله آمن عليه في صحبتك ، وذات يدك ، وكنت كما قال  
ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر دينك ، متواضعاً في نفسك . عظيماً عند الله ،  
جليلاً في أعين المؤمنين ، كبيراً في أنفسهم ، لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لقاتل  
فيك ملمز ، ولا لأحد فيك مطمع ، ولا لمخلوق عندك هواه ، الضعيف الدليل  
عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل  
حتى تأخذ منه الحق ، الغريب والبعيد عندك في ذلك سواء ... فوالله لن يصاب  
المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبداً ، فألحقك الله بنبيه ولا حرماً أجرك ،  
ولا أضلنا بعدك : وسكت الناس حتى انقضى كلامه ثم بكوا حتى علت  
أصواتهم وقالوا : صدقت يا ختن رسول الله :

---

(١) اليمسوب : أمير النحل وذكرها الرئيس الكبير والسيد المقدم .

## سياسة عمر بن الخطاب :

عقد أبو بكر عقد الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ، وقد شاور فيه أصحابه من كبار رجال السياسة ، ومن شاورهم عبد الرحمن بن عوف فقال له : هو والله أفضل من رأيك فيه<sup>(١)</sup> ، ولكن فيه غاظة ، فقال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، ويا أبا محمد قد رمقته<sup>(٢)</sup> فرأيتنى إذا غضبت على الرجل فى الشيء أراى الرضا عنه ، وإذا لنت له أراى الصدة عليه . واشتد المرض بالصديق فأشرف على الناس وهو يقول : أترضون بمن استخلف عليكم ، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا : سمعنا وأطعنا . وكتب إليه كتاباً هذا نصه : « هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، وفى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر ، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل ، فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن جار وبدل ، فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب : » وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ودعا أبو بكر عمر<sup>(٣)</sup> فأوصاه بما أوصاه به ، ثم خرج فرفع أبو بكر يديه ثم قال : اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضرنى من أمرك ما حضرنى فاخلفنى فيهم فهم عبادك ، ونواحيهم فى يدك ، وأصلح لهم وإليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، يتبع هدى نبي الرحمة ، وأصلح له رعيته .

ولم يحل استخلاف الصديق عمر من حديث بين من كانت أنفسهم تحذوهم بالخلافة بعده ، قال أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف : « إنى<sup>(٤)</sup> وليت أمركم

( ١ ) تاريخ الطبرى . ( ٢ ) رمقته أطلقت النظر إليه .

( ٣ ) تهذيب الأسماء النبوى . ( ٤ ) الكامل للمبرد .

خيركم في نفسي ، فكلكم ورم<sup>(١)</sup> أنفه من ذلك ، يريد أن يكون الأمر له دونه ، ورأيتم الدنيا أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة ، حتى اتخذوا ستور الحرير ونضائد<sup>(٢)</sup> الديباج ، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذري<sup>(٣)</sup> ، كما لم يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان<sup>(٤)</sup> . » بيد أن ما ظهر من غناء أ. ب. بكر وحسن بلائه ، ألجم الألسن فما استطاعت أن تلغظ ؛ وكبح من جماح النفوس ، فما استرسلت في تطلب ما تطلأل إليه . وكأن بني هاشم يئسوا من أن يستخلف سيدهم ، بعد الذي كان من أبي بكر وعهده لابن الخطاب ، وهم يعرفون منزلة الثاني من نفوس من تجردوا عن الغايات ، ولا مصلحة لهم غير قيام أمر المسلمين ، والسير في الطريق التي اختطها صاحب هذا الشرع ، ورأى الصديق أن عمر أقوى عليها ، ولو كانت — كما قال علي بن أبي طالب — محاباة لآثر بها ولده ، واستشار المسلمين في عمر ، فمنهم من رضى ومنهم من كره ، ومن كره أولا رضى آخرأ .

كان أول منطق نطق به ابن الخطاب حين استخلف : « إنما العرب مثل جمل أنيف اتباع قائده ، فلينظر قائده حيث يقود ، وأما أنا فو رب الكعبة لأحملنهم على الطريق » . ولما فرغ عمر من دفن أبي بكر نفص يده عن تراب قبره ثم قام خطيباً مكانه فقال : إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحبي ، فوالله لا يخضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني ، ولا يتغيب عني فألو فيه عن الجزاء والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم ، قالوا فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا . وقال : اللهم إني شديد فليتي ، وإني ضعيف فقوني ، وإني بخيل فسخني . فتح عمر « الفتوح العظام في كل بلد » ومن فتوحه مصر والشام والعراق

( ١ ) ورم أنفه : امتلاً غضباً . ( ٢ ) النضائد : الثوبان واحدتها نضيد .

( ٣ ) الأذري نسبة إلى أذربيجان ويتألف أيضاً الأذري ( ٤ ) السعدن : بوزن مرجان

ذهب وهو من أصل مرعى الإبل وفي مثل مرعى ولا كاسم .

والجزيرة وإرمينية وفارس وخوزستان وأذربيجان والجهال وطرابلس مما لم يفتح مثله على أحد قبله ولا بعده ، وما طاش له سهم ، ولا التوى له علم ، يحرص على حياة المسلمين ويولى جيوشه رجالاً من أهل الفقه والعلم ، كتب إلى النعمان بن مقرن في نهاوند : « أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله ، وبمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتتفرهم ، ولا تدخلهم غيضة ، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار » وكان إذا أتاه نعي أحد قواده وأصحابه بكى ، ولو كان جاءت الأخبار مع قتلهم بفتح بلاد عظيمة .

وهدى عمر هدى صاحبيه ، ولبسانه لسانهما ، قال لسلمة الأشجعي لما أرسله إلى الأكراد : « سر<sup>(١)</sup> باسم الله ، قاتل في سبيل الله ، من كفر بالله ، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين ، فادعوهم إلى ثلاث خصال : ادعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعلهم في أموالهم الزكاة ، وليس لهم فيء المسلمين نصيب ، وإن اختاروا أن يكونوا معكم ، فلهم مثل الذي لكم ، وعليهم مثل الذي عليكم ، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج ، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم ، فإن أبوا فقاتلوهم ، فإن الله ناصركم عليهم ، فإن تحصنوا منكم في حصن ، فسألوكم أن تنزلوا على حكم الله وحكم رسوله ، فلا تنزلوهم على حكم الله ، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم ، وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله ، واعطوهم ذمة أنفسكم ، فإن قاتلوكم فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثاوا ولا تقتلوا وليداً » .  
ارضى بعمر أهل الحل والعقد من الصحابة ومنهم على ، لما كان من أعماله التي ابتهجت بها النفوس ، وهو القائل ما أبالي إذا ما اختصم إلى رجلان لأيهما كان الحق . وهو القائل مضى لي صاحبان ، عملاً وعملاً وسلكاً طريقاً ، وإنى إن عملت بغير عملهما ، سلك بي طريق غير طريقتهما . وهو الذي قال

فيه الرسول : او كان بعدى نبي لكان عمر . وقال : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقابه . وقال أشد أمتي في أمر الله عمر . وقال فيه بعض واصفيه : إنه كان جواداً بالحق بخيلاً بالباطل .

كانت كلمة عمر عالية في سياسته الخارجية والداخلية ، رُق في شبل المملكتين المجاورتين لبلاده ، وعقدت في ظبات<sup>(١)</sup> سيوفه آيات النصر المبين ، وسر هذا التوفيق العظيم ، بُعد نظره وقوة نفسه ، والأخذ بمشورة أهل الرأي ، وحسن اختياره العمال والرجال ، والعمل بكل نافع ، والانتفاع من كل قوة . وما طمعت نفسه في شيء من حطام الدنيا فكان كصاحبيه يؤثر الخشونة<sup>(٢)</sup> ويتبعد عن كل ترف ، ويريد عماله أن يتبعوه في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه . يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القرية على كتفه ، مع هبة رزقها ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليه من البلاد وأوسعهم من الأموال ، كان عمر يلتفت في كسائه<sup>(٣)</sup> وينام في ناحية المسجد فلما وُرد بالهرمزان صاحب تستر جعلوا يسألون عنه فيقال مر ههنا آنفاً ، فيصغر في قلب الهرمزان إذ رآه كبعض السوق حتى انتهى إليه وهو نائم في ناحية المسجد ، فقال الهرمزان : هذا والله الملك الهنيء يقول لا يحتاج إلى حراس وعدد ، فلما جلس عمر امتلأ قلب العليج<sup>(٤)</sup> منه هبة ، لما رأى عنده من الجِد والاجتهاد وألبس من هبة التقوى .

ولقد كان علي بن أبي طالب من جملة مجلس شورى عمر ، شاوره مرة في غزو الروم بنفسه فقال له : إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتكذب لا تكن للمسلمين كائفة<sup>(٥)</sup> دون أقصى بلادهم ، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث رجلاً محرباً<sup>(٦)</sup> ، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة ، فإن أظهره

( ١ ) الظب بالتحذيف حد السيف واجمع ظبات . ( ٢ ) مروج الذهب : مسمودي .

( ٣ ) الكامل للمبرد . ( ٤ ) العاج : الرجل من كمار والمعجم والتقوى والضخم

منهم علوج وأعلاج . ( ٥ ) كنفه حاطه وصانه وبابه فصر وكائفة واقية .

( ٦ ) المحرب صاحب الحروب .

الله فذاك ما تحب ، وإن كانت الأخرى كنت ردعاً للناس ومثابة للمسلمين<sup>(١)</sup>. واستشار علياً أيضاً في الشخص لقتال الفرس بنفسه<sup>(٢)</sup> فقال له : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلته بكثرة ولا بقلة ، ومكان القيم بالأمر بمكان النظام من الحرز يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تفرق الحرز وذهب ، ثم لم يجمع بجذافيره أبداً ، والعرب وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام ، غريزون بالاجتماع ، فكن قطبا واستدر الرحنى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض ، انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلهم عليك وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين ، فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر علي تغيير ما يكره . اه . وهكذا كان عمر لم يحارب بنفسه في حروب الفتح وهو خليفة ؛ وقل أن اشترك في الغزوات في زمن الرسول .

سمع عمر مرة شيئاً في بيعة الصديق وهو في مكة ، وأراد أن يخطب الناس ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن الموسم يجمع رعايا الناس وغوغاءهم ، وإنهم هم الذين يغلبون على قربك حتى تقوم في الناس ، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها أولئك عنك كل مطير<sup>(٣)</sup> ، وأن لا يعوها ، وأن لا يضعوها على مواضعها ، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة ، فتخلص<sup>(٤)</sup> بأهل الفقه وأشراف الناس ، فتقول ما قلت متمكناً ، فيعجب أهل العلم مقاتلتك ، ويضعونها على مواضعها . وكذلك فعل وعمل بنصيحة قارون هذه الأمة عبد الرحمن بن عوف كما عمل بنصيحة علي بن أبي طالب .

( ١ ) نهج البلاغة للرضي .

( ٢ ) يقول البلاذري في فتوح البلدان إن الذي أشار على عمر بن الخطاب بالمدول عن الفرس بنفسه هو العباس بن عبد المطلب وجماعة من أصحاب رسول الله وأشار عليه علي ابن أبي طالب بالسير وعرض عمر على علي الشخص لقتال الفرس فأنباه .

( ٣ ) أي ينقلونها عنك إلى كل أحد من غير أن يعرفوا معناها .

( ٤ ) تتصل .

كان عمر لا يأخذه هوى في اختيار الأصلاح لخدمة الدولة ، وهو جد عارف بما في نفوس الناس ، يضع الأشياء مواضعها ويقدرها بقدرها ، قام بقى المسجد ذات يوم يدعو الناس إلى الجهاد ويحضهم عليه وقال : لأنكم قد أصبحتم في غير دار مقام بالحجاز ، وقد فتح الله عليكم بلاد كسرى وقبصر ، فسيروا إلى أرض فارس . فقام أبو عبيد بن مسعود فقال يا أمير المؤمنين أنا أول من انتدب من الناس ، فلما انتدب أبو عبيد انتدب الناس ، وقيل لعمر : أمّر على الناس رجلا من المهاجرين والأنصار . فقال لا أمّر عليهم إلا أول من انتدب . وكان عمر أبداً على يقين من الخنى والجلى مما يدور في القاصية والدانية ، ملء القلب وملء السمع ، وما شئت من دهاء واستماتة في إحكام عرا المسلمين . أطلق عليه لقب أمير المؤمنين وكان أول من لقب به ، وكان يقال لأبي بكر « خليفة رسول الله » فلما ولي عمر أصبح من المتعذر أن يقال يا خليفة خليفة رسول الله ، فاكتفى بلفظ الخليفة أو أمير المؤمنين .

لما طعن عمر بيد أبي لؤلؤة وكان قتله نتيجة مؤامرة<sup>(١)</sup> دبرها له الهرمزان لما كان يكتنه من الحقد على العرب بعد أن ثلوا عرش فارس — كانت الخلافة أول ما فكر فيه عمر ، ودمه يسيل ، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف<sup>(٢)</sup> فقال له : إني أريد أن أعهد إليك فقال : يا أمير المؤمنين ، نعم إن أشرت على قبلت منك . قال : وما تريد . قال : أنشدك الله أنشير على بذلك . قال : اللهم لا ، قال : والله لا أدخل فيه أبداً . قال : فهب لي صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض . أدع لي علياً وعثمان والزبير وسعداً . قال : وانتظروا أحاكم طلحة ثلاثاً — وكان متغيباً عن المدينة — فإن جاء وإلا فاقضوا بأمركم بينكم . وقال لعلي : أنشدك الله يا علي إن وليت من أمور الناس شيئاً

(١) السياسة العربية لفنان فلوتن تعريب حسن إبراهيم ومحمد زكي إبراهيم .

(٢) تاريخ الطبري .

أن ته ل بني هاشم على رقاب الناس ، أنشدك الله يا عثمان إن وارت من .  
 أمور الناس شيئاً أن تحصل بني أبي معيط على رقاب الناس ، أنشدك الله يا سعد .  
 إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس ، قوموا  
 فتشاوروا ثم اقضوا أمركم . وليصل بالناس صهيب . ثم دعا أبا طلحة الأنصاري .  
 قبل أن يفارق الحياة بساعة فقال : قم على بابهم في خمسين رجلاً من الأنصار  
 فلا تدع أحداً يدخل إليهم حتى يختاروا رجلاً منهم . وقال أوصي الخليفة  
 من بعدى بالعرب فإنها مادة الإسلام . أن يؤخذ من صدقاتها حقها فتوضع  
 في فقرائهم ، وأوصي الخليفة من بعدى بذمة رسول الله أن يوفى لهم بعهدهم ،  
 اللهم هل بلغت ، تركت الخليفة من بعدى على أتقى من الراحة .

وقيل لعمر لما طعن يا أمير المؤمنين لو استخلفت ، قال : من استخلف .  
 لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته ، فإن سألتني ربي قلت : سمعت  
 نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ، لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته ،  
 فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن سالماً شديداً الحب لله . فقال له  
 رجل : أدلك على عبد الله بن عمر . فقال : قاتلك الله ، والله ما أردت بهذا  
 خيراً ، ويحك كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا  
 في أموركم ، وما حملتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيراً فقد  
 أصبنا منه ، وإن كان شراً فقد صرف عنا ، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم  
 رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ،  
 وأن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد . أنظر فإن استخلفت فقد استخلف  
 من هو خير مني ، وإن اترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه ،

ترك عمر الأمر شورى بين سنة من كبار الصحابة ، مات الرسول وهو  
 عنهم راض ، وسمى على بن أبي طالب وعثمان بن عفان ابني عبد مناف ،  
 والزبير بن العوام حواري رسول الله وابن عمته ، وسعد بن أبي وقاص  
 وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله ، اختاروا منهم رجلاً ، فقال

لهم إذا ولوا واليا أن يحسنوا مؤازرته ويعينوه إن ائتمن أحداً منهم يؤدي إليه أمانته . وبدأت الشورى ثلاثة أيام وأراد أهلها أن لا يأتين اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم . وقال عمر للمقداد بن الأسود ، قم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه ، أو اضرب رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما ، فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم ، فتحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكفونا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقيين أن يرغبوا عما اجتمع عليه الناس .

صورة غريبة من انتخاب الخليفة وضعها عمر على غير مثال ، مثل كثير من أعماله في السياسة وفيها ابداع وعبقريّة ، أوسحتها إليه معرفته بمرامى كل واحد من هؤلاء العظماء ، وهو يتخوف انحلال أمر الأمة إذا دب دبيب الحسد إلى الصدور ، وتحركت الضغائن والسخائم<sup>(١)</sup> ، وهو القائل : إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التي لا جبرية فيها ، واللين الذي لا وهن فيه . ويعرف أن غير الشدة لا تنفيذ في هذه المواقف الخطيرة ، قدموا للبيعة<sup>(٢)</sup> أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً فسارع الناس إلى طاعته ، وأمنت غوائل الفتنة ، على نحو ما كان سارع عمر إلى مبايعة أبي بكر يوم السقيفة ، وأكره من تجافوا عن بيعته من الصحابة على البيعة باللين أولاً والشدة آخراً ، وكان عمل عمر هذا من أحكم ما عمل ، لم يلق الحبل على الغارب ، واجتهد في خير الأمة حياً ، وما أراد أن يدعها فوضى بعد مماته .

وعرفنا بما تم من استخلاف أبي بكر ثم عمر ثم عثمان أن الخلافة عن الرسول ليست من معالم<sup>(٣)</sup> الدين ولا هي جارية مجرى العبادات الشرعية كالصلاة والصوم ، بل أجروها مجرى الأمور الدنيوية مثل تأمير الأمراء وتدبير الحرب وسياسة الرعية وأن الخلافة عن الرسول قد وسدت إلى واحد بعهد أو شبه

(١) الأحقاد واحدها سخيمة . (٢) تاريخ الطبري .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

عهد ، ووسدت إلى آخر بعهد صريح وإلى آخر بالشورى بين أهل الحل والعقد . فجمع الإسلام النظام الجمهورى المقيد ، والنظام الملكى المقيد ، على ما تقتضى به حالة الزمن ومصلحة الأمة ؛ وكان فى هذه السلطة الروحية الزمنية معاً لأول الأمر شىء من الاستبداد المعقول الذى ينظم أمر الجماعة ، ويحمل الناس على الطاعة ، وهى الطاعة لأولى الأمر ، أى الأئمة المتأمرين على الناس ، المقصود بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »

عن ابن عباس قال : وضع عمر بن الخطاب على سريه فتكنفه<sup>(١)</sup> الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا ورجل قد أخذ بمنكبى من ورائى ، فالتفت فإذا هو على بن أبى طالب فترحم على عمر وقال : ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلك الله معهما أى صاحبيك ، ذلك أنى كنت كثيراً أسمع من رسول الله يقول : فذهبت أنا وأبو بكر<sup>(٢)</sup> وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فإن كنت لأظن أن يجعلك الله معهما ، وقال على<sup>(٣)</sup> : « ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم خيرها بعد أبى بكر عمر ثم يجعل الله الخير حيث أحب » .

(١) تكنفوه واكتنفوه وكنفوه تكنيفاً أحاطوا به (٢) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى . (٣) مسنده أحمد .

## سياسة عثمان بن عفان .

انتخب مجلس شورى الخلافة عثمان بن عفان خليفة في مسجد الرسول وعلى منبره ، على الطريقة التي رسم عمر واستأمر بعض أهل الشورى أرباب الرأي من الرؤساء سرا فأشاروا بعثمان إلا قليلا ، وجعل الناس يبايعون الخليفة الجديد بعد أن بايع كبار الصحابة . وتلكأ على عن البيعة فقال عبد الرحمن بن عوف : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » . فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : « خدعة وأيما خدعة » . وسار الخليفة الثالث بسيرة أبي بكر وعمر ست سنين ، كان الناس خلالها راضين عنه ، والفتوح كما كانت على عهد عمر متصلة ، والأموال على المدينة دارة . ويده بالعطاء مبسطة ، يولى الولايات من يراهم أصلح الناس للعمل ، ولما توسع بتوسيد العمالات إلى أهله من بني أمية ، انطلقت الألسن فيه ، وتحقق خوف عمر لما نصح له ولعل أن لا يحملأ أقاربهما<sup>(١)</sup> على رقاب الناس ، إذا كان لهما من الأمر شيء ، فوقع كلاهما في هذا الحرج فثارت النفوس ، ووجد الطاعنون من عملهما بابا يلجونه إلى اللغظ

( ١ ) يقول ابن تيمية في المنهاج أن عثمان ولأقاربه من بني أمية ، وعلياً ولأقاربه من قبل أبيه وأمه ، كعبد الله وعبيد الله ابني العباس ، فولى عبد الله بن العباس لى البصرة وعبد الله ابن العباس على اليمن ، وولى على مكة والطائف قثم بن العباس ، وقيل أنه ولى على المدينة تمامة ابن العباس وعلى مصر ربيعة محمد بن أبي بكر المدني رباء في حجره ، وعلى خراسان جعدة ابن هيرة وعواين أخته أم هانئ بنت أبي طالب وقال إن نواب عثمان كانوا أطوع من نواب علي وأبد عن الشر ، وأن بني أمية كان رسول الله يستعملهم في حياته ، وأما ملهم بعده من لا يتهم بشراية فيهم أبو بكر الصديق وعمر ، ولا زهرف قبيلة من قبائل قريش بها عمال رسول الله أكثر من من بني عبد شمس ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرف وسؤدد ، فاستعمل النبي في عزة الإسلام على أفضل الارض مكة عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ، واستعمل أيضاً على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية ، واستعمل أيضاً خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بني ملج وعلى صنعاء اليمن ، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على السرايا ثم استعمله على البحرين ، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي ميط ، فاستعمل عثمان من استعملهم النبي ومن جنسهم ومن قبيلتهم اه . ومعلوم إن أبا بكر وعمر لم يجهدا لأحد من أقاربهما بالولاية حتى أن عبد الرحمن ابن أبي بكر وعبد الله بن عمر وهما بالفضل والصحبة لم ير الخليفتان الأولان أن يعهد إليهما بشيء من أمر الأمة .

والشغب ، وعثمان بنى<sup>(١)</sup> على أمر قد استقر قبله بسكينة وحلم وهدى ورحمة وكرم ، ولم يكن فيه قوة عمر ولا سياسته ، ولا فيه كمال عدله وزهده ، فطمع فيه بعض الطمع ، ودخل بسبب أقاربه في الولايات والأموال أمور أنكرت عليه فتولد من رغبة الناس في الدنيا ، وضعف خوفهم من الله ، ومنه ومن ضعفه هو ، وما حصل من أقاربه في الولاية والمال ما أوجب الفتنة .

بدأت الفتنة من مصر بانتزاع محمد بن أبي حذيفة ابن خال معاوية بن أبي سفيان على عثمان ، وكان عثمان كفله لما مات أبو حذيفة ، وسار إلى مصر فصار من أشد الناس تأليباً على عثمان . والسبب في ذلك على ما يظهر أن عبد الله ابن أبي سرح أخا عثمان من الرضاة ، كان أمير مصر ولاية عثمان كلها وكان محموداً في ولايته<sup>(٢)</sup> ، موفقاً في غزواته ، فتح إفريقية فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الرجل ألف دينار ، فإذا كان نصيب الأمير من هذا المال ؟ لا جرم أنه شق الأمر على محمد بن أبي حذيفة وجماعة آخرين أن لم يكن لهم سهم كبير من هذه المغنم . وأنشأ ابن حذيفة هنا يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبي ويقرؤها في المسجد ، ويقوم القارىء بالكتاب فيقول : إنا لنشكو إلى الله وإليك ما عمل في الإسلام ، وما صنع في الإسلام ، فيحرك ساكن النفوس بهذا ، حتى أرسل المصريون بضع مئات من الجند إلى المدينة يشتركون في إحراج عثمان ، وكذلك فعل أهل الكوفة والبصرة .

وقيل إن بعض الصحابة<sup>(٣)</sup> كتب بعضهم إلى بعض أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد ، وكثر الناس على الخليفة ، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد « وأصحاب رسول الله يرون ويسمعون ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب » ما خلا نفرأ قليلاً . وكان عبد الله بن سبأ من اليهود أسلم زمن عثمان وأخذ يتنقل في بلدان المسلمين الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ثم مصر ، وهو يقول بالرجعة ويزعم أن محمداً يعود كعيسى إلى الأرض ، وقال إن علياً هو وصي محمد ، وقال من أظلم ممن لم ينجز وصية رسول الله ، ووثب على وصي

(١) منهاج السنة لابن تيمية . (٢) الولاية والقضاء للكندي .

(٣) تاريخ الطبري .

ورسول الله وتناول أمر الأمة ، وادعى أن عثمان أخذها بغير حق ؛ وأراد الناس على النهوض في هذا الأمر ، وقال ابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعواهم إلى هذا الأمر ، فبث دعواته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، فانتقم هذا اليهودي لقومه عما أصابهم في الحجاز في بدء الدعوة الإسلامية

لما اشتدت الحال بعثمان ، وأخذت الجموع تسير إلى المدينة كتب إلى الأمصار « رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يُشتَمون وآخرين يضربون ، فيامن ضرب سراً وشتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ، فلنأخذ بحقه حيث كان ، مني أو من عمالي ، أو تصدقوا أن الله يجزي المتصدقين » وتآمر عثمان وبعض الصحابة على ما كان من الناقمين ، فناقشوه وناقشهم . ومما قال له عمرو بن العاص ، إنك لنت لهم وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ، إن الشدة لا تنبغي لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح . ولما عاتبوه على بسط المال لآل بيته قال : إن صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ، ومن كانا منهما بسبيل احتساباً ؛ وأن رسول الله كان يعطى قرابته ، وأنا في رهط أهل عيلة<sup>(١)</sup> وقلة معاش ، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال ، لمكان ما أقوم به فيه ، ورأيت أن ذلك لي ، فإن رأيتم ذلك خطأ فروده ، فأمرى لأمركم تبع » وقال في مجلس آخر : « إني أحب أهل بيتي وأعطيهم ، فأما حبي فإني لم أمل معهم على جوربل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإني ما أعطيهم من مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغبية<sup>(٢)</sup> من صلب مالي ، أزمان رسول الله وأبي بكر وعمر ، وأنا

(١) العيلة : بالكسر الفقر . (٢) الرغبة : العطاء الكثير والجمع الرغائب .

يومئذ شحيح حريص ، أفحين أنيت على أسنان أهل بيتي ، وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا ، وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً ، فيجوز ذلك لمن قاله .

ورد عليهم في كونه حمي حمى المدينة فقال : والله ما حميت إلا حمي قبلي على عهد عمر لإبل الصدقة ، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمي ، ومالي من بعير غير راحلتين ومالي ثاغية ولا راغية<sup>(١)</sup> ، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاءاً . ورد على من قال إنه رد الحكم وهو طريد رسول الله فقال : « إن رسول الله سير الحكم وهو مكى من مكة إلى الطائف ثم رده ، فرسول الله سيره ورسول الله رده » . ورد على من قال إنه استعمل الأحداث في الولايات ، فقال : إنه لم يستعمل إلا محتملاً مرضياً ، وعليهم أن يسألوا أهل عملهم عنهم ، ولقد ولي من قبله أحدث منهم ، وقيل في ذلك لرسول الله أشد مما قيل له في استعماله أسامة .

ثم استمد عثمان أهل الأمصار وكتب إليهم يقول : وأدخلت في الشورى على ملائمتهم ومن الناس ، على غير طلب مني ومحبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع ، متعباً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف ، فلما انتهت الأمور وانتكث<sup>(٢)</sup> الشر بأهله ، بدت ضغائن وأهواء على غير إجماع ولا تيرة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب ، فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره ، بغير حجة ولا عذر فعابوا على أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء عن ملائمتهم أهل المدينة لا يصلح غيرها اهـ

ثم خطب وتاب مما فعل على المنبر ، فحصبوه فأغشى عليه وحمل إلى داره لا يعي وتقاذفته العوامل ، فروان بن الحكم المتسلط عليه يؤنب الناس ويشدد عليهم ويقول لحيوش الأمصار : « جئتم تربدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اخرجوا عنا ، أما والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب<sup>(٣)</sup> رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في

(١) الثاغية : الشاة والراغية البعير . (٢) نكث وانتكث : انتفض .

(٣) غب ومغبة : عاقبة .

أيدينا » . ونائلة امرأة عثمان تتدخل في الأمر ، وعلى ينصح لعثمان فلا يسمع له حتى نفرض يده منه .

والواقع أن بسط عثمان الأموال لذوى قريبه أمر إرجاعه الحكيم طريد الرسول ، أو تعديده حتى المدينة ، أو استعماله الأحداث ، من آله ، كل هذا لا يتألف منه جرم ، يستوجب هذا التأليب عليه ، أو يبرر إطالة الأيدي . بأذاه ، ولكن الكتاب الذي وجده محمد بن أبي بكر في رحل عبد من عبيد عثمان على مقربة من المدينة وفيه خاتم عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح وال مصر ، هو الذي كان العامل الأكبر والحجة القاطعة في الانحراف عنه . وفي هذا الكتاب « إذا جاءك محمد بن أبي بكر ومن معه بأنك معزول فلا تقبل واحتل له بقتلهم ، وأبطل كتابهم وقر في عملك » فرجع محمد بن أبي بكر وأصحابه وجمعوا الصحابة ووقفوهم على الكتاب ، وسألوا عثمان عن ذلك فاعترف بالختم وخط كاتبه ، وحلف بالله أنه لم يأمر بذلك ، فطلبوا منه مروان ليسلمه إليهم فامتنع ، فازداد حنق الناس ، حتى قتل شهيداً مظلوماً ، وفتق بمقتله على المسلمين « فتق لا يرتقه جبل » ودافع عنه على ابن أبي طالب وأقام ابنه الحسن لذلك حتى خرج هذا مصبغاً بالدم ، وأقام الزبير ابنه عبد الله ، وطلحة ابنه محمداً يذبان عنه ، فلم يغنوا عنه شيئاً مع الألوف الهائلة التي جاءت من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة وانضموا إلى الثائرين من أهلها و« كانوا<sup>(١)</sup> يداً واحدة في الشر ، وكان حثالة من الناس قد ضووا إليهم ، وقد مرجت عهودهم وأماناتهم وكان أصحاب النبي الذين خذلوه كرهو الفتنة ، وظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله ، فندموا على ما صنعوا في أمره ، ولعمري لو قاموا أو قام بعضهم فحثا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين » .

كانت هذه الفاجعة مبعث كل فتنة في الأمة ، أدى إليها حب الولايات والشغف بالأموال التي كثرت في أيام عثمان ، فكان يفيض منها على من أ.

(١) طبقات ابن سعد .

يستحتمها ، وقد لاموه على استعمال ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان ، وأخذوه على استعمال أخيه من الرضاع عبد الله بن أبي سرح فاتح طراباس وإفريقية الذى قضى على جيش الروم وقتل الملك جرجير . وفى أيام عثمان فتحت أذربيجان وأرجان واصلطخر وأصبهان وطبرستان وخراسان والجوزجان ونيسابور وطوس وسرخس ومرو وهراة وفرياب وبلخ وخوارزم والجبالي ، وقتل بخراسان يزدجرد آخر ملوك الأكاسرة . وفى أيامه فتحت جزيرة قبرص وغيرها من جزر البحر الرومى واستصفيت بعض الحبشة إلى غير ذلك من فتوحاته التى استعمل فيها رجالا عظاما وضع ثقته بهم . وكانوا عند حسن ظنه بما أبلوه من خدمة الإسلام والمسلمين .

ومن أهم المسائل التى صرفت الوجوه عنه وألبت المغيظين المحققين عليه ، أمره بضرب عمار بن ياسر ، أحد كبار الصحابة لما جاءه يحمل إليه كتاباً من بعض أصحاب النبي (١) . ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة الرسول من تطاوله فى البنين ، وإفشائه العمل والولايات فى أهله وبني عمه من بنى أمية ، وما كان من الوليد بن عقبة أمير الكوفة الذى صلى بالمسلمين وهو سكران (جلده ثمانين على شرب الخمر) ، وما كان من تركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ؛ وما كان من إداره القطائع والأرزاق والأعطيات على قوم بالمدينة ، ليست لهم صحبة من النبي ثم لا يغزون ولا يذبحون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما كان ضرب الخليفين قبله بالدرة والخيزران . وعمار لا يضرب حتى لا يفتق بطنه ويغشى عليه ويطرخ على باب الدار ، فيغضب لما حل به بنو المغيرة وكان حليفهم ، بل يغضب السواد الأعظم من الصحابة لما حل به ، وكان من النقباء فى مجلس الرسول ومناقبه كثيرة فى الإسلام ، فكان بما جرى عليه من أعظم من ألب على عثمان ، وخدم عليا ضروب الخدم ، حتى قتل فى صفين .

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

## سياسة علي بن أبي طالب :

ببيع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان ، قيل جاءه طلحة والزبير وسألاه البيعة له فقال : لا حاجة لي في أمركم ، من اخترتم رضيت به ، فقالوا : ما نختار غيرك وترددوا إليه مراراً وقالوا : إنا لا نعلم أحداً أحق بالأمر منك ، ولا أقدم منك سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ، فقال<sup>(١)</sup> : دعوني واتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد غامت<sup>(٢)</sup> ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً . وبعد هذا التمتع قصده في المسجد فبايعوه وبايعته الأنصار ، إلا حسان<sup>(٣)</sup> بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبا سعيد الخدري والنعمان بن بشير ومحمد بن مسلمة وفضالة بن عبيد وزيد ابن ثابت . قيل إن عثمان كان ولاهم على الصدقات وغيرها . وكذلك لم يبايع علياً سعيد بن زيد وعبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد . وقدامة بن مطعون والمغيرة بن شعبة . وسمى هؤلاء المعتزلة لاعتزالهم بيعة علي ، وسار النعمان بن بشير إلى الشام بقميص عثمان الملطخ بالدم فأخذ معاوية ابن أبي سفيان أمير الشام يعلقه على المنبر ، يحرض أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ، ثم علي فقال علي لأنه لم يقتل قتلة عثمان .

وطالب علي من معاوية البيعة له فأبى إلا أن يسلم إليه قتلة عثمان أولاً ، وكتب إلى علي يقول : « لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رحمة الله عليهم ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل

(١) نهج البلاغة للرضي .

(٢) غامت السماء وأغامت وتغيبت كله بمعنى أي تلبدت بالنيم أي السحاب .

(٣) تاريخ أبي الفداء وتاريخ الطبري .

الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . فأجابه على : « لعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى » . على أن معاوية ما كان بالذي<sup>(١)</sup> ينكر فضل على واستحقاقه الخلافة ، لكن اجتهداه أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القمود من قتلة عثمان على البيعة أولاً ، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان ، والكلام فيه عن ولد عثمان دون الحكم بن أبي العاص لسنه وقوته على الطلب بذلك ، ولما كان قرابته من عثمان ، فهو المطالب ضمناً بالأخذ بثأره .

بعث معاوية بكتاب مع أبي مسلم الخولاني<sup>(٢)</sup> إلى على بن أبي طالب جاء فيه : وأخرى أنت بها ظنين إيواؤك قتلته - قتلة عثمان - فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك « فلما وقع الكتاب إليه أراده على أن يجيئه من الغد ، فدخل عليه أبو مسلم وهو في المسجد ، فإذا بزهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح ، وهم ينادون كلنا قتلة عثمان ، فقال أبو مسلم لعلى إني لأرى قوماً مالك معهم أمر ، وأحسب أنه بلغهم الذي قدمت له ففعلوا ذلك خوفاً من أن تدفعهم إلى .

والواقع أن قتلة عثمان كانوا من أكثر القبائل ، اختلطوا بعشائهم وعشائرهم أكثر أتباع على ، وما خالف على<sup>(٣)</sup> في البراءة من قتلة عثمان ، ولكنهم كانوا عدداً ضخماً لا طاقة له عليهم ، ومن المتعذر عاينه أن يسلمهم أو بعضهم وهم عضده ولو كان يعرفهم بأعيانهم ، ومسألة وقعت على غير رضاه ، ليس من مصلحته أيضاً أن يستهدف لغضب عشائر كثيرة تقوم بنصرته اليوم . أما هو فكما روى عنه أنه قال : والله<sup>(٤)</sup> لو شاءت بنو أمية لأتيتهم بخمسين غلاماً من بني هاشم يحلفون بالله ما قتل عثمان ولا مآلات عليه .

(١) الملل والنحل لابن حزم . (٢) الأخبار الطوال للدينوري .

(٣) الملل والنحل لابن حزم . (٤) الموافقة بين الصحابة وآل البيت

كان في نفس عائشة أم المؤمنين شيء من عليّ لما جرى حديث رميها بالإفك في حياة الرسول ، وبرأها القرآن مما قذفت به في عدة آيات ، ولما كان ما كان من مقتل عثمان كانت في مقدمة من حنق لمقتله ، وقامت لسد الفتق الحادث في الإسلام تطالب بدم الشهيد العظيم ، وهي تعرف منزلته من الرسول ، وبلاءه في خدمة الأمة ، وتعرف المتآمرين على قتله ، ومن غصوا الطرف عنهم طوعاً أو كرها ، ورأت ومن معها من الصحابة ومنهم طلحة والزبير ورهط من بنى أمية أهل عصبية عثمان ، أن يقصدوا إلى البصرة في الجموع العظيمة التي تبعتهم يطالبون بدم عثمان ، وقالوا معاوية بالشام يكفيننا أمرها ، وجمع عليّ أربعة آلاف مقاتل ، فيهم جلة من الصحابة ، ومنهم أربعائة ممن بايع تحت الشجرة وثمانمائة من الأنصار . فالتقى الجيشان وعائشة في هودج على جمل ، فتمت الهزيمة على أصحاب الجمل ، وقتل طلحة والزبير ، فكانت عدة القتلى من الفريقين نحو عشرة آلاف . وهذه أول مرة التقي فيها المسلم بالمسلم بالسلاح : مقدمة مشثومة استفتحت بها خلافة عليّ .

فرغ عليّ من حرب الجمل ، فانتظم له أمر العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس والجبل وخراسان والحرمين ، ولكن معاوية في الشام والجزيرة وثغورهما لم يبايع ولم يشايع ، بل يطالب بدم عثمان بكل ماله من حيلة ، وأهل الشام بايعوه على المطالبة بذلك ، يقاتلون معه حيث أراد من أراد . واتفق معاوية مع عمرو بن العاص على أن يسيرا يداً واحدة في المطالبة بدم عثمان وكتباً بينهما كتابا ببيت المقدس على التناصر والتخلص والتناصح في أمر الله والإسلام ، لا يخذل أحدهما صاحبه بشيء ولا يتخذ من دونه وليجة<sup>(١)</sup> . ولا يحول بينهما ولد ولا والد أبداً ما حييا ، فإذا فتحت مصر فإن عمرواً على أرضها ، ومعاوية أمير على عمرو في الناس وفي عامة الأمر ، حتى يجمع الله الأمة ، فإذا اجتمعت فإنهما يدخلان في أحسن أمرها ، على أحسن الذي بينهما في أمر الله .

(١) وليجة الرجل خاصته وبطائه .

سار على من العراق بجيشه يريد الشام لقتال معاوية ، وسار معاوية من الشام للقاء جيش على في العراق ، والتقى الجيشان بصفين على الفرات ، وامتتلوا قتالا شديداً لم يقتل المسلمون مثله ، وخاض على المعارك بنفسه . فقتل سبعون ألفاً من الفريقين على أصح الروايات ، منهم مئات من الصحابة ، وفيهم القراء والعلماء ، فكانت مصيبة الإسلام بهم عظيمة ، « وما كف القتال أيام صنفين إلا لما أمر معاوية جماعته<sup>(١)</sup> أن ينادوا في سمرات الليل نداء معه صراخ واستغاثة ، يقولون : يا أبا الحسن من لذرارينا من الروم إن قتلنا ، الله الله في البقية الباقية ، كتاب الله بيننا وبينكم » . وغدا جماعة معاوية وقد رنعوا المصاحف على الرماح ، وقلدوها أعناق الخيل ، والناس على راياتهم قد أصبحوا للقتال .

وجرت المهادنة بين الجيشين على أن يكون لعل العراق ولعواوية الشام ، لا يدنل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو ، على أن يحكم الفريقان بينهما حكمين ، حكماً من جهة على وحكماً من جهة معاوية ، فحكّم على أبا موسى الأشعري ، وحكّم معاوية عمرو بن العاص ، ويكون الخليفة من يتفق الحكمان على توليته ، « وكتبوا بينهم كتاباً<sup>(٢)</sup> أن يوافقوا رأس الحول بأذرع<sup>(٣)</sup> » ، فينظروا في أمر هذه الأمة ، فافترق الناس فرجع معاوية بالألفة من أهل الشام ، وانصرف على إلى الكوفة بالاختلاف والدغل ، فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه ، وقالوا « لا حكم إلا الله » وعسكروا بحروراء<sup>(٤)</sup> فبذلك سموا الحرورية ... وساروا إلى النهروان فعرضوا للسبل وقتلوا عبد الرحمن بن خبيب بن الأثر ، فسار إليهم على فقتلهم وقتل منهم ذا اليد<sup>(٥)</sup> ، وذلك في سنة ثمان وثلاثين ، ثم انصرف على إلى الكوفة ، فلم ينزل بها يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قتل رحمه الله ، واجتمع الناس بأذرع في شعبان سنة ثمان وثلاثين ، وحضر سعد بن أبي وقاص وابن

( ١ ) الإمامة والياسة المنسوب لابن قتيبة . ( ٢ ) طيات ابن سينا .

( ٣ ) أذرع : بلدة في أطراف الشام من أعمال الشراة بجواردة امان وهي اليوم شراب .

( ٤ ) حروراء قرية بظاهر الكوفة وقيل موضع على مياين منها ( ياقوت ) .

( ٥ ) ذو اليد لقب عمرو بن ود اعمامى ، كان فارس قريش يوم الخندق ، رتل وهو

ابن مائة وأربعين سنة ( التاج للزبيدي ) .

عمر وغيرهما من أصحاب رسول الله فقتلهم عمرو أباً موسى فتكلم فخلع علياً وتكلم عمرو فأقر معاوية وبايع له فتمرق الناس على هذا .  
وأخذ على العراق يقنت في الصلاة ويدعو على معاوية وعلى عمرو بن العاص .  
وعلى الضحاك وعلى الوليد بن عقبة وعلى الأعور الساسي ، ومعاوية يقنت في الصلاة ويدعو على علي وعلى الحسن وعلى الحسين وعلى عبد الله بن جعفر .  
وكان سعد بن أبي وقاص من الصحابة الذين اعتزلوا الاشتراك بصفيين ، وقال إذا كان غزو الكفار قاتلنا ، فأما قتال الفتنة والبيغى ، فلا نقاتل أهل القبلة (١) .  
أما عبد الله بن عمر فكان يقول لا أقاتل في الفتنة وأصلى وراء من غلب (٢) .  
وقال : إنما كان مثلنا في هذه الفتنة كمثل قوم كانوا يسرون على جادة يعرفونها فبينما هم كذلك إذ غشيتهم سحابة وظلمة ، فأخذ بعضهم يميناً وبعضنا شمالاً ، فأخطأنا الطريق ، وأقمنا حيث أدركنا حتى تجلى عنا ذلك ، فأبصرنا الطريق .  
الأول فعرفناه فأخذنا فيه ، إنما هؤلاء فتيان قریش يتقاتلون على هذا السلطان ، وعلى هذه الدنيا ، والله ما أبالي ألا يكون لي ما يقتل فيه بعضهم بعضاً بنعلى .

ومن مكملات هذه الفتنة ، فتنة الخلافة بين علي ومعاوية ، قيام الخوارج على علي ، وكانوا من أصحابه وأنصاره يوم الجمل وصفين ، وهم يزيدون على اثني عشر ألفاً ، ساءهم رضا علي بالتحكيم ، وقالوا لا حكم إلا لله ، فإن الله يقول : إن الحكم إلا لله (٣) . وكفروا علياً بفعله واعتزلوه ، فعاتبهم على فلم ينفذ فيهم ، ثم قاتلهم وظهر عليهم ، وقتل منهم نحو أربعة آلاف ، ولم تطفأ نائرتهم ، وظلت سيوف غلولهم مصلبة قروناً بعده ، ونشأ من ذلك مذهب جديد قام على التشيع على علي . كما نشأ مذهب الشيعة الذي قام على التشيع له . والأصل في هذه المذاهب والمتاعب مقتل عثمان وتعذر قصاص قاتليه على علي ، وحرص هذا على الخلافة .

(١) تاريخ الإسلام للذهبي .

(٢) أخبار الخوارج منفصلة في الكمال السمر . وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

\* \* \*

كان المأمول بعد أن اهتدى العرب بالرسول ، أن يحكموا إلى كتابه في كل ما شجر بينهم ، لا أن يجعلوا فصل الخطاب للسيف في دق أمورهم وجلها ، على ما كانوا في الجاهلية . وأن تعادل طبيعة العرب المأخوذة بحب الحرب والتناغي بالسيادة ، لا ترى تحقيقها إلا من طريق العصبية القبلية ، ولا تنام عن الثأر تطلب به ، وعادت نغمة العصبية التي جاء الإسلام بمحوها تتغلب على نفوسهم مع ما غلب على أمزجة سوادهم الأعظم من المزاجين العصبي والصفراوي ، وكان الخطب بالعصبية عند العرب كالخطب بالأحزاب عند الأمم الحديثة أو أدهى وأمر .

نعم ما ارتاحت العرب زمناً طويلاً في الإسلام من أحداث وفتن يتقاتلون فيها ، فيفنى بعضهم بعضاً ، على نحو ما كان أجدادهم ، كأن الدين لم يصقل من نفوسهم إلا ظواهرها ، على حين دل ما بدا منهم من نصرة الشارع الأعظم ثم من نصرة صاحبه من بعده ، على أن الإسلام هذب كثيراً من حواشيمهم ، ثم بدأ هذا التهذيب يضعف بجرأة العامة على الخاصة ، وأى جرأة أعظم من قتل أمير المؤمنين عثمان ، وقديماً كان قتل الملوك من أشأم ما يحدث في الأمم وقلماً أتى بخير ، فكيف بمقتل هذا العظيم .

كان للعرب في الجاهلية بعض العذر في شن غاراتهم ، وأرضهم مجدية ، وعيشهم ضنك ، وأمرهم شتات ، وأى معذرة لهم في الإسلام ، وقد أذكى الدين عقولهم ، ولقنهم الرحمة ، ودمث من أخلاقهم ، وقضى أو كاد على العادات الضارة فيهم ، وفتح عليهم أبواب النعمة في الأقطار التي دخلوها فاتحين ، ووضعوا أساس الملك العتيد ، فدرت لهم أخلاف البركات ، في كل بلد نزلوه واستثمروه .

دل اقتتال المسلمين يوم الجمل وصفين والنهروان ، واغتيال الثالث والرابع من الخلفاء بأيدي جماعة من المسلمين ، على استسهال العرب سفك

الدماء ، وأنهم أبوا إلا أن يتحاكموا إلى السيف ، ويعمدوا إلى القتال ، وأن القوانين مهما سميت لا تغير كثيراً من روح من يأخذون أنفسهم بها ، وقد يخالفونها عند أقل بادرة . ولكم أضاع العرب من قوتهم ، ولما يمض جيل واحد على تكونهم . وإذا عرفنا أن المسلمين كانوا على ما روى الشافعي (١) ستين ألفاً لما قبض الرسول : ثلاثون ألفاً بالمدينة وثلاثون ألفاً في قبائل العرب وغير ذلك ، وأنه هلك منهم ألوف في حرب الردة وحروب الشام والجزيرة وإرمينية وإفريقية والعراق وفارس على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، أدركنا عظم هذه النازلة بهذا القدر من الرجال الذين قتلوا في حروب على :

كانت وقعة صفين المشئومة مما عاق الإسلام عن الانتشار ، ووقف بالفتوح العربية عند حد كاد يطمع الأمم المجاورة برده على أعقابه إلى أقصى الأرض العربية ، ولولاها لكتب معاوية أن يفتح القسطنطينية ، وكان أعد لذلك في أرض الشام وبحره القوتين البرية والبحرية . فلما ظهرت مسألة على اضطر معاوية أن يصانع الروم لشغله بعل (٢) ، وأن يرجع عن عزمه ، أو يؤخر إنفاذه إلى أجل غير معلوم . ولو فتحت القسطنطينية لسرى الإسلام إلى الغرب على أيسر حالة . وكان في الإمكان توفي هذه الحرب الحاصدة ، لو لحق المتخاصمان لأول الأمر إلى التحكيم ، ولو قدر كل واحد منهما حالة الأمة وما يترتب لها أعداؤها ، ما امتشق أحدهما حساماً في سبيل غرضه مهما كان شريفاً ، لأن هناك ما هو أشرف منه ، وهو بث الدعوة وحماية البيضة . ولو سمع على نصيح بعض عقلاء الصحابة ما تسرع في عزل عمال عثمان وفي مقدمتهم معاوية ، لما أهرقت هذه الدماء المحرمة ، ولكن علياً أصيب بكرامته ولما أتى معاوية مبايعته ، أو يسلم إليه القتلة في جيشه ، ومن أخلاق على أن لا يسكت ساعة عمن يكون غير راض عنهم ويعد مصانعتهم خروجاً على قواعد الصديق والإخلاص .

(١) قواعد الحديث لابن الصلاح . (٢) مروج الذهب للمسعودي .

أشار المغيرة بن شعبه<sup>(١)</sup> ، وهو المعروف بدهائه وبعد نظره ، على عليّ أن يقر معاوية على الشام تسمح له طاعته . قال : فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه وولاهم عشرين سنة ، لم يعتبروا عليه ولم يعتبروه<sup>(٢)</sup> في عرض ولا مال . فقال عليّ : « والله لو سألتني قرية ما وليته إياها » . قال المغيرة : « أراه سيلي أرضين وقرىات » وكان الأمر كما تنبأ المغيرة ، وما قدر عليّ ، على ثقب ذهنه وكثرة علمه ، أن يقدر قوة خصمه فاحتقره ، ورأى أن دينه يمنعه من أن يقره . وهو يعتقد في إقراره الضر له وللجماعة .

أدرك علي بعد الدخول في العمل ، أن جنده مشتت الأهواء تغلب عليه الفوضى ، على ما عرف من بعض شيعته من الاستماتة في سبيل دعوته ؛ ولطالما تمنى لو يقايض عشرة من جنده بواحد من جند معاوية<sup>(٣)</sup> . ومن خطبه لما بلغه مقتل محمد بن أبي بكر أمير مصر وتملك عمرو بن العاص لها باسم معاوية : « أوليس عجيباً أن معاوية يدعو الحفاة الطغام فيتبعونه بغير عطاء ، ويجبيونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولوالنهي وبقية الناس على معاوية ، وطائفة منكم على العطاء ، فتفرقون عني وتعصوني وتختلفون عليّ » .

وريت زناد معاوية بأهل الشام ، لأنه طالما أحسن إليهم ، فكان في أطوع جند ، وجنده يعتقد أن صاحبه على الحق . وروى عنه أنه قال<sup>(٤)</sup> : أعنت عليّ بن أبي طالب بأربع خصال : فقد كان ظُهُرة عُلَّته لا يكتم سرّاً ، وكنت كتوماً لسرى ، وكان لا يسعى حتى يفاجئه الأمر ، وكنت أبادر إلى ذلك ، وكان في أخبث جند وأشدّهم خلافاً ، وكنت في أطوع جند وأقلهم خلافاً ، وكنت أحب إلى قریش منه ، فنلت ما شئت . فله من جامع إلى ومفرق عنه .

قال عليّ بعد وقعة صفين ، وقد آلمه ما أهرق من دماء المسلمين ، وما جرت

( ١ ) روضة العقلاء لابن حبان البستي . ( ٢ ) أعتبه : سره بعد ما ساءه .

( ٣ ) نهج البلاغة للرضي . ( ٤ ) المحاسن والأضداد للجاحظ .

عليه الخلافة من المتاعب ، رحم الله عمى العباس كأنما كان يطلع على الغيب من وراء ستر رقيق ، وصدق الله ما نلت من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شر لا خير معه . وكان العباس أشار عليه لما اشتد مرض رسول الله أن يسأله إن كان الأمر في بني هاشم يعطوه ، وإن كان في غيرهم يوصى بهم : فقال عليّ : إن مُنعناه لم يعطناه أحد .

فلما قبض الرسول دعى عليّ للبيعة فقال : في جهاز رسول الله شغل ، وإن يفوت الأمر . فبويع في السقيفة لغيره . ولما طعن عمر أشار عليه العباس أن لا يدخل في الشورى ، لأنه إذا اعتزلهم قدّموه ، وإن ساواهم لم يقدّموه . ولما أخذ عثمان في الأمور قال له العباس ، وقد وقع في نفسه أن عثمان سيقتل : والله لئن كان ذلك وأنت حاضر بالمدينة ليرمينك الناس بدمه ، وإن فعلوا لا تنال من هذا الأمر شيئاً إلا شراً لا خير معه .

يقول ابن حزم<sup>(١)</sup> في معرض الكلام على أن علياً كان أسوس الصحابة . بعد أن ذكر ما قام به أبو بكر من حروب الردة حتى ثبت الإسلام ، وما قام به عمر وعثمان من حروب انتهت بظهور الدين في الأقطار : « ثم قد رأى الناس خلاف ذلك كله ، وافتراق كلمة المؤمنين ، وضرب المسلمين بعضهم وجوه بعض بالسيوف وشك بعضهم قلوب بعض بالرماح ، وقتل بعضهم من بعض عشرات الألوف ، وشغلهم بذلك عن أن يفتح من بلاد الكفر قرية ، أو يذعر لهم سرب<sup>(٢)</sup> ، أو يجاهد منهم أحد ، حتى ارتجع أهل الكفر كثيراً مما صار بأيدي المسلمين من بلادهم ، فلم يجتمع المسلمون إلى يوم القيامة ، فأين سياسة من سياسة » .

ويقول ابن تيمية<sup>(٣)</sup> : « تولى على والفتنة قائمة ، وهو عند كثير منهم ملطخ بدم عثمان ، والله يعلم براعته مما نسبته إليه الغالون فيه ،

( ١ ) الملل والنحل لابن حزم .

( ٢ ) السرب بكسر السين : النفس والسرب : الجماعة من النساء والبقر والشاء والقطا والوحش .

( ٣ ) منهاج السنة لابن تيمية .

والمبغضون لغيره من الصحابة ، فإن علياً لم يعن على قتل عثمان ولا رضى به ، كما ثبت عنه وهو الصادق أنه قال ذلك ، فلم تصف له قلوب كثير منهم ، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه ، ولا اقتضى رأيه أن يكف عن القتال ، وظن أن به تحصل الطاعة والجماعة ، فآزاد الأمر لإشدة ، وجانبه إلا ضعفاً وجانب من حاربه إلا قوة ، والأمة إلا افتراقاً ، حتى كان في آخر أمره يطلب هو أن يكف عنه من قتاله ، كما كان في الأول يُطلب منه الكف ، وضعفت الخلافة ضعفاً أوجبت أن تصير ملكاً ، فأقامها معاوية ملكاً برحمة وجلم ، ولم يتول أحد من الملوك خيراً من معاوية ، فهو خير ملوك الأسلام ، وسيرته خير من سيرة الملوك بعده .

وقال أيضاً : « إن معاوية بقي في الشام عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له ، وهو من أعظم الناس إحساناً إليهم وتأليفاً لقلوبهم ، حتى قاتلوا على بن أبي طالب ، وصابروا عسكره إلى أن قاوموهم وغلبوهم ، قاتلوا مع معاوية لظنهم أن عسكر على فيهم ظلمة معتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان ، وأنهم يقاتلونهم دفعاً لصيالحهم ، وقاتل الصائل جائز ، ولهذا لم يبدأوهم بقتال حتى بدأهم أولئك . ولهذا قال الأشتر النخعي إنهم ينصرون علينا لأننا نحن بدأناهم بالقتال . وعلى كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكرية ، ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به ، وأعوان معاوية يوافقونه » اهـ .

لا جرم أن علياً اضطرت له الحال إلى الوقوع فيما وقع فيه من قتال المسلمين ، وعمل ما عمل وهو كاره ، ولم يواته الحظ في خلافته ، وكاد أن لا يفكر في غير رد المطالبين بدم عثمان ، والناشزين على خلافته من الخوارج وأهل الشام وغيرهم ، ورأى انفراج قلوب الأمة بمقتل عثمان ، وأحس أكثر من غيره بما وقع من تهشت في الأهواء ، وتأصل في الأحقاد التي انتقلت من الأجداد إلى الأحفاد ، وما كان له مفرز غير السيف ، والسيف لا تؤمن غائلته على

الغالب والمغلوب ، وهو شر لا بد منه . ولقد قالوا « إن في القرآن أربعة (١) سيوف ، سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا ( فإما منّا بعد وإما فداء ) . وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهل البغى وهو المذكور في سورة الحجرات . ولم يسلم الرسول هذا السيف في حياته ، وإنما سلمه عليّ في خلافته وكان يقول : أنا الذي علمت الناس قتال أهل القبلة . وله صلى الله عليه وسلم سيوف آخر منها سيفه على أهل الردّة ، وهو الذي قال فيه من بدّل دينه فاقتلوه ، وقد سلمه أبو بكر من بعده في خلافته . علي من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيف على المارقين ، وهم أهل البدع كالخوارج . وروى عن عليّ أن النبي أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين . وقد حرق عليّ طائفة من الزنادقة فصبوب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار ، فقال عليّ : ويح ابن عباس لبسحتات عن الهنات .

وبعد فإن الخلفاء الراشدين قاموا بخلافة النبوة على أكمل وجه أمكن ، وإذا لاحظنا اليوم أنه وقع من بعضهم شيء فهو منهم محض اجتهاد ، والاجتهاد يصيب ويخطئ ، والسياسة صعبة المراس على كل الناس ، وما كان للبشر أن تجي أعمالهم تامة من كل وجه ، ومن المؤلم أن يستل هذه الحوادث المرمضة في سبيل الخلافة أناس عز عليهم أن يقوض العرب بالإسلام عرش ملوكهم وهم الفرس ، فيندسون في الغمار ويتخذون من آل البيت تكأة ، ويزعمون لعلّ أنه بغى عليه منذ أول يوم ، ويدعون له العصمة على نحو ما كان أجدادهم يدعونها للملوكهم من الجوس ، وأن يكون من عبد الله بن سبأ وأمثاله ممن تظاهروا بالإسلام وهو لم يمس شغاف قلوبهم ، ما كان من الدعاية لتأليب الناس على عثمان ، وكان من أثر دعايتهم تمزيق الأمة طرائق وحزائق .

( ١ ) الحكم الجديدة بالإذاعة لابن رجب .

هذا وعلى حرق من غلوا فيه وأنكر ابنه محمد بن الحنفية على شيعته دعواهم فيه أنه يعلم المغيبات وأن علمه لدنيء ، ومن بعده زاد الغلو فسكت آل البيت عما ينسبه أنصارهم إليهم ووضعوه في غير مواضعهم<sup>(١)</sup> « لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم علم ما هو كائن » .

عن سويد بن غفلة<sup>(٢)</sup> ، وكان من كبار التابعين صحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ، واختص بعلي وقاتل معه ، قال : مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر ويتنقصونهما ، فأتيت علياً فذكرت ذلك له ، فقلت : إني مررت بقوم من الشيعة يذكرون أبا بكر وعمر ويتنقصونهما ، ولولا أنهم يعلمون أنك تضر ما هما عليه لم يجسروا على ذلك ، قال : أعوذ بالله أن أضمر لهما إلا الحسن الحميل ، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الحميل : أخوا رسول الله ووزيرا ، ثم نهض دافع العين يبكي قابضاً على لحيته ينظر فيها وهي بيضاء ، وقد اجتمع الناس ، فقام فخطب خطبة موجزة بليغة ومما قال : ما بال أقوام يذكرون سيدى قريش وأبوى المسلمين بما أنا عنه متنزه ، ومما يقولون برىء ، وعلى ما يقولون معاقب ؛ فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، لا يحبهما إلا مؤمن تقى ، ولا يبغضهما إلا فاجر ردىء : صحبا رسول الله بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ، ويعاقبان فما يجاوزان فيما يقضيان . وبعد أن امتدح أبا بكر وعمله في أهل الردة قال إنه سار بسيرة رسول الله حتى قبض ثم ولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب ، واستأمر في ذلك الناس ، فمنهم من رضى ومنهم من كره ، وكنت ممن رضى ، فوالله ما فارق عمر الدنيا حتى رضى من كان له كارهاً ، فأقام الأمر على منهاج النبى وصاحبه يتبع آثارهما ، كما يتبع الفصيل أثر أمه . إلى أن قال : فن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني وأنا منه برىء ، ولو كنت تقدمت في أمرهما لعاقبت أشد العقوبة ، فن أتيت به بعد مقامى هذا فعليه ما على المفتري

( ١ ) تاريخ الطبرى .

( ٢ ) الموائقة بين الصحابة وأهل البيت لابن زنجويه وتليس إبليس لابن الجوزى

وجيء على برجل وهو بالكوفة يتنقص أبا بكر وعمر فقال : يا قنبر اضرب عنقه . قال : يا أمير المؤمنين علام تضرب عنقي وإنما غضبت لك . قال : وما ذاك ويا لك . قال : إني رجل غريب ما صحبت رسول الله ، ولا علمت مكان هذين الرجلين منه ولا منك ، وإنما سمعت من بعض من يغشاك يفضلك عليهما ، ويدكر أنهما ظالماك حقاً ، وتقدماك في أمرك . قال علي : أو تعرف القوم . قال : لا إلا بأعيانهم عند نظري إليهم . قال : أما والله ما تقدماني إلا بأمر الله وبأمر رسوله . وما ظلماني ما بين ذرة (١) ، ولولا أنك أقررت بغربتك ، وقلة معرفتك بشيخي المسلمين ، لضربت عنقك . ثم قال يا قنبر ناد في الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس لهظهراً فصلى بهم ثم صعد المنبر فقال : يا أيها الناس إن الله بعث محمداً وقد اخلوق الإسلام ، وذهب صفاء

( ١ ) هذا الكلام ، رواية معتزلى يرى الكذب كبيرة بل من أعظم الكبائر التي تكاد تخرج من الدين ، لا ينطبق على ما نسبته الرضى إلى علي في نهج البلاغة وسماء الخطبة الشقشقية وفيها زعم أن علياً قال : والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه يعلم أن محلي منها محل القطب من الرضى ، فصبرت وفي العين قذى ، وفي الخلق شجاً ، أرى ترائي فيها ، حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده . فيا عجباً بينما هو يستقبلها في حياته ، إذ عتجا لآخر بعد وفاته . إلى أن قال : حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم ، فيالله وبالشورى ، متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر ! وأغرب من هذا أن يأتي الرضى في هذه الخطبة بكلام في الخليفة الثالث نعوذ أمير المؤمنين عليه السلام أن يقوله أو ما يشبهه . ومعنى هذا الكلام أن هم عثمان كان الأكل والرجيع الخ . ومن حاول أن يخدم الخليفة الرابع بأمثال هذه الخطب ، فينحله ما لم يقله ، يسى إليه أكثر من خرجوا عليه في سلطانه . وبعد هذا ألا تسقط دعوى من يعزون كل ما في نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب ، وإن قال ابن أبي الحديد شارح النهج ، في معرض الدفاع عن هذا الكتاب ليرد قول من قال إنه كلام يحدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة : « إنك إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كلاماً واحداً وفساً واحداً ، وأسلوباً واحداً ، وإن المحدثين كلهم أو جلهم المؤرخين نقلوا كثيراً منه وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك » . وقوله إن نهج البلاغة نسق واحد ، كلام لا يوافق عليه العارفون بأساليب البلاغة لأن فيه ألفاظاً لم تعرفها العرب إلا بعد القرن الثاني للهجرة . أما احتجاجة بأن بعض المحدثين أو جلهم أو بعض المؤرخين نقلوا هذا الكلام فلا يقوم حجة يعتد بها على صحته . فكل من نقل حرر وصحح السند ، ولا كل من اقتبس كلاماً اعتقد صحته ، وإن من وضعوا على الرسول أحاديث ملفقة يستحلون أن ينحلوا غيره كلاماً لم ينكلم به لتأييد دعوتهم وسياساتهم . يقول ابن الجوزي في تلبيس إبليس إن من غلوا في حب علي وضعوا أحاديث في فضائله أكثرها تشينه وتؤذيه .

الدين وظهر الظلام بالكفر ، والناس في عَمِيَّة جاهلية جهلاء ، يعبدون الأصنام ، ويعظمون الأوثان ، ويكفرون بالرحمن فقال : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله ، فقالوا بأجمعهم : كذبت ( أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ) فقال أبو بكر : صدقت ، وأنا إذ ذاك طفل صغير لا أغنى عن نفسى شيئاً في حجر رسول الله وفي بيته ، فلم يزل أبو بكر الصديق معه على تلك الحال ، يضرب الناس ويضربونه ، ويغلبهم ويغلبونه ، ويقاتلهم ويقاتلونه ، ويخافهم ولا يخافونه ، يظهر دينه ولا يكتُم إيمانه ، حتى قالت قريش إن ابن أبي قحافة مجنون ، فلم يكن أحد أولى بالإسلام منه ، ولا أكرم على الله في هذه الأمة بعد نبيها منه ، ولا خيراً منه ، ولا أفضل في الدنيا والآخرة ، وإن أقواماً يفضلونني عليهما في قلوبهم بقية النفاق ، يريدون فرقة أهل الإسلام واختلاف الأمة . . . وفي هذا مقنع لمن « جودوا الجنون في الغلو » .

## سياسة الأمويين :

ببيع بالخلافة للحسن بن علي بعد مقتل أبيه ، فحاول أن يحارب معاوية . وهو أيضاً خليفة مبايع ، ورأى من تخلف القوم عن نصرته أنهم لا يتوقفون عن خذلانه عند الحاجة ، كما خذلوا أباه من قبل . واستنصر الأحنف بن قيس من جماعة أبيه فقال : قد بلونا الحسن وآل الحسن ، فلم تكن عندهم إيالة الملك ، ولا صيانة المال ، ولا مكيدة الحرب . واتفق أن أحد شيعته طعنه ذات يوم في جنبه فصرعه عن فرسه ، فكان ذلك أحد أسباب مصالحة معاوية . فنزل عن الخلافة بعد أن خطب له بها نحو ستة أشهر في العراقين العربي والعجمي وخراسان وجزيرة العرب ، مشروطاً أن يكون ولي عهد معاوية من بعده<sup>(١)</sup> ، وأن لا يأخذ معاوية أحداً من آل الحسن بإحنة<sup>(٢)</sup> ، وأن يؤمن الأسود والأحمر ، ويجعل له خراج الأهواز مسلماً في كل عام ، ويحمل إلى أخيه الحسين بن علي كل سنة ألفي ألف درهم ، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلوات على بني عبد شمس ، فبذل معاوية له العهود المؤكدة على ذلك ، وأعطاه كل ما طلب ، إلا ما كان من لعن أبيه على المنابر . ودخل الحسن في طاعته ، فحقن بذلك الدماء ، وحمد فعلته العقلاء ، وأكبرت شيعة الحسن أمر هذا الصلح ، ولم يسعها إلا أن تحمله على محمل الخبر ، لاعتقادهم بعصمة آل البيت في كل ما يصدر من أقوالهم وأفعالهم ، لا يسألون عما يبدر منهم .

وكان أهل الشام بايعوا<sup>(٣)</sup> معاوية بالخلافة في سنة ٣٧ حين تفرق الحكمان ، كما بايعوه على الطلب بدم عثمان ، فلما تنازل الحسن عن الخلافة بيع له بإيلياء سنة ٤٠ مبايعة عامة أخرى ، وسمى هذا العام عام الجماعة لاجتماع الأمة على إمام واحد . وكان معاوية يدعى بالشام الأمير فلما قتل على دعي أمير المؤمنين<sup>(٤)</sup> ، وغدا يسوس بلاد الإسلام كلها بسلطانه مباشرة ،

(١) دول الإسلام للذهبي .

(٢) الأخبار الطوال للدينوري .

(٣ ، ٤) تاريخ الطبري .

وكان بالأمس يسوس بعضها تحت سلطان أعظم من سلطانه .  
 أحسن معاوية تأليف القلوب ، واستخدم العصبية لما فيه مصلحة الدولة ،  
 وكان كلما زاد قوة انقطعت آمال الطامعين في الخلافة ، المشاغبين على السلطان ،  
 فاستخدم الشعراء في تأييد دعوته كما يستخدم رجال السياسة اليوم أرباب  
 الصحف والإذاعات لمثل هذا الغرض ، ويرسل الوعاظ إلى الآفاق ليحولوا  
 القلوب عن عليّ ، عدا ما كان يخطب به وعماله في عليّ على المنابر ينفر  
 القلوب منه ، وكانت العراق أضعف جزء في ملك معاوية فرمى أهلها بأخيه  
 زياد ، وكان هذا من عمال على فانضم بعد موته لأخيه ، فجاء زياد والعراق  
 تغلى مراجله بالفتن ، يوقد نارها أرباب الشغب ، فسل الأحقاد وداوى  
 الأدواء ، وتولى العراق بعد زياد ابنه عبيد الله فاشتد على الخوارج فقتل منهم  
 صبراً جماعة كثيرة ، وحاربهم حتى كاد يفنيهم . وكانوا قاموا لأول خلافة  
 معاوية فعفا عن بعضهم ، ثم ثار آخرون فقتلهم . وسكنت تأمة الشيعة  
 وأصبحت دعوتهم سرية .

وأهم ما عاناه معاوية من مسائله الخارجية غزو الروم ، وكان اعتاد غزوهم  
 منذ كان أميراً ، ووصلت جيوشه إلى القسطنطينية وإلى بحر هيبجاي (إيجيه)  
 وإلى سواحل بحر الروم ومنها جزيرة صقلية ، وكان ألح على عمر في خلافته  
 بغزو البحر ، فجا جاء دور عثمان حتى كان للشام أسطول عظيم ، فصير عثمان  
 إلى معاوية غزو الروم ، على أن يوجه من رأى على الصائفة<sup>(١)</sup> . وفتح قبرص  
 ورودرس وأرواد وغيرها من الجزر . وفتح السودان وصالح الروم في سنة ٤١  
 على مائة ألف دينار وكانوا جمعوا جموعاً كثيرة فخاف أن يشغلوه عن تدبير  
 بلاده وإحكام أمره ، وهو أول من صالح الروم ، فلما استقام له الأمر أغزى  
 أمراء الشام على الصوائف ، فسبوا في بلاد الروم سنة بعد سنة ، حتى طلب صاحب  
 الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه ، واستولى الروم على جبل لبنان

---

(١) تاريخ الطبرى .

في السنة السابعة عشرة من خلافته بمعاونة الجراجمة<sup>(١)</sup> فاضطر لعقد معاهدة مع الروم (سنة ٥٧) صعبة الشروط عليه وذلك ليدفع غائلة أسطولهم عن بلاده .

رأى معاوية في سنة ٥٦ أن يجعل ولاية العهد لابنه يزيد من بعده ، فكان هذا الوضع الجديد في أساس الملك مما استنمطه بعضهم ، لأنه كان في الصحابة أفراد يلقون للخلافة أكثر من يزيد . وغير معاوية خصومه أنه جعل الخلافة كسروية وقيصيرية أي جعلها وراثية وما كانت بها ، أو كما قال مروان بن الحكم : جئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم . بيد أن معاوية كان يرى هذا التدبير على ما فيه من غمط حقوق الكفاة للخلافة ، أضمن لسلامة الدولة وتبقى به شرور قد تستطير بين الناس كلما مات لهم خليفة ، أو قوى أعداؤه فأرادوا استلاب الخلافة منه ، ويخشى إذا ظل المسلمون على تناحرهم ، أن يجمع أعداؤهم شملهم ، ويعيدوا الكرة عليهم في صميم جزيرة العرب ، والله أعلم ما تكون النتيجة على الإسلام والمسلمين .

بوضع قانون ولاية العهد في الإسلام بعض الحيلة التي تنجى من انقسام الكلمة ، وقد يخطئ رأس الملة في توليته من يريد ، وربما قل في رجال

( ١ ) الجرجمة أهل مدينة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي قرب أنطاكية يقال لها الجرجومة (بضم الجيمين) صولحوا أول الفتح على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالخ في جبال اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينقلوا أسلاب من يقتلونه من أعداء المسلمين ، إذا حضروا معهم حرباً . فكانوا يستغيثون للولاة مرة أخرى ويعوجون أخرى ، فيكاتبون الروم ويمالئونهم على المسلمين . ولما شغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير خرج قوم منهم إلى الشام مع ملك الروم فتنفروا في نواحي الشام ، وقد استعان المسلمون بالجرجمة في مواطن كثيرة أيام بني أمية وبني العباس ، وأجروا عليهم الجزايات وعرفوا منهم المناسحة . هذه خلاصة ما قاله ياقوت في معجم البلدان أخذاً من البلاذري . ويقول ابن عساكر في تاريخ دمشق أن طاغية الروم لمساراً ما صنع الله للمسلمين من منعة مدائن الساحل ، كاتب أباط (الأنباط هم السريانيون) جبل لبنان واللكام فخرج الجراجمة وعسكروا بالجبل . فغلبت الجراجمة على جبال الشام كلها من لبنان وسنير وجبل الناج (حرمون) وجبال الجولان . وسمى الجراجمة بالمردة أي العصاة لعصيانهم أمر ملك الروم في عدم التعرض للعرب .

الخلافة أو من اصطنعهم لخدمته من يسعهم الإنكار عليه ، أو إرجاعه إلى الصواب إن أخطأ . والعهد للأبناء أو الإخوة أو أبناء العم على شرط الكفاية في الحملة ، أقرب إلى سلامة الدولة من فتنة تنشب بين الأحزاب أو أصحاب العصبية ، وكل حزب يرشح خليفته بالحق والباطل ، حتى لا يكاد يجد الصالح من المستخلفين ، أدنى مما يجد الطالح من المعونة والمظاهرة ، ولو كان مرجع هذه الولاية أرباب الرأي في الأمة فقط ، أى أهل الحل والعقد كما اشترط في توسيد الخلافة لكان في ذلك الخير كله .

ثم إن حصر السلطات الدينية والمدنية في يد الخليفة أو الملك يخرج الأمر مهما تلون اسمه بالأسماء المختلفة عن أحكام الشورى ويعيده استبداداً ، والشورى ، حياة الممالك والشعوب ، ومن النادر ظهور رجل سلمت نفسه من العيوب واستجمع شروط الخلافة ، فما توخى غير مصلحة الناس والدولة كأبي بكر وعمر ، وفي الحكومة الملكية عيوب ، وفي الحكومة المقيدة عيوب وفي الحكم « الأتوقراطي » الديني عيوب ، وفي الحكم « الديموقراطي » الشعبي أو الجمهوري عيوب ، ولقد كثرت أخطاء الجمهوريات في آئنة ورومية في العهد القديم ، وفي جمهوريات الدول الحديثة المقيدة بالأنظمة الدستورية ، فنسب الخير والشر إلى من تضامنوا من أهل شوراها على القيام بأمر الأمة ، أى أنه يخطئ في الحكم الجمهوري أو النيابي مجموع مختار في الحملة من أبناء البلاد ، ولا يكون الخطأ خطأ فرد بمحض إرادته كما هو الشأن في الحكومات المطلقة الاستبدادية .

قلنا إن خصوم معاوية نالوا منه بعهد لابنه يزيد ، وفي الأمة بتايا رجال من الصحابة أعظم مكانة وسابقة منه ، وكان من المتعذر توسيد الخلافة إليهم لأنهم ضعاف في عصبيتهم ، بالقياس إلى أرباب العصبية الكبرى كعصبية الأمويين في ذلك العهد . ويخشى إذا استخلفوا أن يشغلوا بالدفع عن أنفسهم فتضيع المصلحة العامة ، كما جرى في عهد الخليفة الرابع . ولما تم الأمر ليزيد أخذ بعض الطامعين في الخلافة وأتباعهم ، وقد رأوا حرص معاوية على حمل

بعض الصحابة والتابعين على مبايعة ابنه بعده يتقولون على يزيد ويرمونه بالكبائر ، ويسقطون منزلته ويصغرون شأنه ، وما كان يزيد كما قال ابن تيمية «مظهراً للفواحش كما يحكى خصومه ، ولا كان من الصحابة ، ولا من المشهورين بالدين والصلاح ؛ وكان من شبان المسلمين ، ولا كان كافراً ولا زنديقاً ، وتولى بعد أبيه العهد على كراهية من بعض المسلمين ، ورضا من بعضهم ، وكان فيه شجاعة وكرم» وكان أبوه يشركه في مشورته ، يأخذ برأيه أحياناً في تدبير الملك وسياسته ، وقد أغزاه الروم فبلغ أسوار القسطنطينية ، وكثيراً ما بعث همته على العمل وعلمه وثقفه ، وغاية ما ثبت عنه أنه كان به رسالة يحب الراحة ويدرب كلاباً للصيد .

كان يرجى بعد استقرار الخلافة أن يطوى حديثها ، خصوصاً وقد رضى السبطان بحظهما من الدنيا ، ولكن أهل الكوفة بعد أن خذلوا علياً وابنه الحسن ، عادوا يزينون للحسين بن علي الرحيل إليهم ليعاونوه على إخراج الأمر من يزيد فاغتر بهم ، فلما بلغ كربلاء غدروا به ، وصاروا مع عبيد الله بن زياد عامل يزيد ، حتى قتل الحسين وأكثر آله بكرباء ، فأكبرت الأمة هذه المصيبة وراحت شيعته وقد خذلته في حياته ، تستغل مقتله بعد ممانته ، وعظم حظ يزيد من اللعن والطعن مع أنه لم يأمر بقتل الحسين<sup>(١)</sup> ، ولا أظهر الفرح بهلاكه ، ولكن أمر بدفعه عن الأمر ولو بقتاله . ولما سمع يزيد ما تم على الحسين دمعت عينه<sup>(٢)</sup> وقال : ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه . وكان بلغ معاوية في حياته أن الحسين في آخر أيامه كان يتهياً لشق عصا الطاعة فكتب إليه : « أما بعد فقد انتهت إلى أمور عنك لست بها حرياً ، لأن من أعطى صفة يمينه جدير بالوفاء ، فاعلم رحمك الله أنى متى أنكرك تستنكرنى ومتى تكلمنى أكذك ، فلا يستفزك السفهاء الذين يحبون الفتنة » والحسين ما تحلل في الحقيقة من مبايعة معاوية إلا بموته حتى إذا خلفه ابنه خالفت عليه .

( ١ ) الوصية الكبرى لابن تيمية . ( ٢ ) الأخبار الطوال للدينورى .

وصبح ما تنبأ به معاوية فيما قاله لابنه يزيد قبيل موته ، قال : إني لست أخاف عليك إلا أربعة رجال الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير . فأما الحسين بن علي فأحسب أن أهل العراق غير تاركيه حتى يخرجوه ، فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه . وأما عبد الله بن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة ، وليس بطالب للخلافة ، إلا أن تأتيه عفواً . وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه ليس في نفسه من النباهة والذكر عند الناس ما يمكنه من طلبها ، ومحاولة التماسها ، إلا أن تأتيه عفواً . وأما الذي يحتم لك جثوم الأسد ويرأوئك روغان الثعلب ، فإن مكنته فرصة وثب ، فذلك عبد الله بن الزبير ، فإن فعل وظفرت به فقطعه إرباً لإرباً ، إلا أن يلتبس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل منه ، واحقن دماء قومك بجهدك ، وكف عاديته بنوالك ، وتغمدهم بحلمك .

وكان أن امتنع عبد الله بن الزبير في الحجاز من بيعة يزيد بن معاوية ، ووافقه كثير من أهل المدينة ، وفيهم بعض المهاجرين والأنصار ، على خلع طاعة يزيد ، وأخرجوا نوابه وأهله من المدينة ، فأرسل يزيد عليهم جيشاً ، وأمر قائده إن لم يطيعوه بعد ثلاث ، أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثاً . ووقعت الحرب وأبيحت المدينة في هذه الواقعة التي سميت بوقعة الحرة نسبة لحرة المدينة ، وقتل من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس ألف وسبعمائة ، ومن سائر الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ، وكان معاوية أوصى ابنه يزيد عند موته بقوله : أنظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده ، وانظر أهل العراق فإن سألك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم ، ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فإن ابك من عدو ريب فارمهم به ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، لا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير آدابهم .

واعتصم عبد الله بن الزبير بمكة ، ومات على الأثر يزيد ، فاستخلف ابنه معاوية فلبث شهرين لا يخرج للناس ، ثم خطبهم فقال : إني نظرت فيما صار إلى من أمركم ، وقلدته من ولايتكم ، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي أن أتقدم على قوم وفيهم من هو خير مني وأحقهم بذلك ، وأقوى على ما قلدته ، فاختارا مني إحدى خصمتين ، إما أن أخرج منها واستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعاً ، ولكم الله على لا آلوكم نصحاً في الدين والدنيا ، أو أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها . وقال : قد ضعفت عن أمركم ولم أجِد لكم مثل عمر بن الخطاب لاستخلفه ولا مثل أهل الشورى ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتهم . وطعن معاوية الصغير بعد أيام ، فخاف بنو أمية أن يخرج الأمر عنهم ، وأبعد الله بن الزبير يقوى سلطانه في الحجاز وتنشر دعوته في الشام سراً ، فدخلوا عليه فقالوا له استخلف على الناس من تراه لهم منا فقال لهم : عند الموت تريدون ذلك ، لا والله لا أترودها ، ما سعدت بجلاوتها ، فكيف أشقى بمرارتها ، ثم جاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية فتوزع أن يستخلف على صغر سنه .

وكان الناس لما مات يزيد بايعوا بمكة ابن الزبير بالخلافة وبايع له أهل العراق والحجاز واليمن ومصر ، وبايع<sup>(١)</sup> له سراً بالشام الضحاك بن قيس ، وبايع له بجمص النعمان بن بشير ، وبايع له بقنسرين زفر بن الحارث الكلابي . وكان مروان بن الحكم بعد رحيله من الحجاز أيام ابن الزبير أقام بالشام واجتمعت إليه بنو أمية ، وصار الناس بالشام فرقتين اليمانية مع مروان ، والقيسية مع الضحاك بن قيس ، وهم مع ابن الزبير ، فاجتمع بنو أمية على عقد الأمر لمروان ، وهو « شيخ يجرب بقية بني أمية في وقته » . فضرب مروان القيسية بمن كان مع الأمويين من اليمانية بمرج راهط من أرض دمشق فغلبهم ، ودخل الفيحاء فقعده مقعد الخلافة . قال المسعودي وكانت وقعة مرج راهط سبب ملك بني أمية ، وقد كان زال عنهم إلى بني أسد بن عبد العزى

ولذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف . وعُزِي إلى عبد الملك بن مروان قوله :

إني أرى فتنة تغلي مراجلها والمملك بعد أبي ليلى لمن غلبا  
وأبو ليلى هو معاوية بن يزيد بن معاوية . وجعل الأمر بعد مروان لخالد بن يزيد بن معاوية ولعمرو بن سعيد الأشدق ، وبذلك انتقلت الخلافة إلى بني مروان ، وخرجت عن آل أبي سفيان . وكلهم أمويون ، وكلهم بنو عبد شمس ، تولاهم من تأهل لها من هذا البيت . وظل عبد الله بن الزبير خليفة يخطب له في الحجاز واليمن والعراق ومصر وفارس . وأول ما اتجهت له همة مروان الاستيلاء على مصر من ابن الزبير . وامتدت حدود البلاد الإسلامية في أيام مروان إلى نهر كور أكبر أنهار القوقاز ودخلت بعد حين بلاد الكرج وطاغستان وشركستان في حظيرة الملك الأموي . ولما هلك مروان اجتمع الناس على ابنه عبد الملك فقال لهم : إني أخاف أن يكون في أنفسكم مني شيء فقام جماعة من شيعة مروان فقالوا : والله لنقومن إلى المنبر أو لنضربن عنقك . فصعد المنبر فبايعوه ، ولم يختلف عليه أحد من قريش لما عرفوا من صدقه وعلمه . ولما وصل عبد الملك إلى العراق لإرجاعها إلى الأمويين وثب بدمشق عمرو بن سعيد الأشدق ، وكان من أحب الناس إلى أهل الشام يسمعون له ويطيعون ، فدعا إلى نفسه بالخلافة واستولى على دمشق ، فرجع إليه عبد الملك ولاطفه وراسله ، وحلف له أن يكون الخليفة من بعده وأن لا يقطع شيئاً دونه ولا ينفذ أمراً إلا بمحضره ثم قتله . وكان مصعب بن الزبير الذي قاتل الجيوش الأموية في العراق فقتله عبد الملك ، من أحب الناس إلى عبد الملك وأشدهم له إلفاً ومودة ، وقال في الاعتذار عن قتله « ولكن الملك عقيم<sup>(١)</sup> » وقام المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعى الطلب بئثار الحسين فقتل عبد الله بن زياد وتمزق أكثر جند الشام وكانوا أربعين ألفاً ،

(١) الملك عقيم : أي لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل في طلبه الأب والولد والأخ والعلم ، سعى به لقطع صلة الرحم بالتزاحم عليه .

فغلب المختار على الكوفة وأباد قتلة الحسين ، وبعد حين قتل مصعب بن الزبير المختار وجميع رجاله وكانوا سبعة آلاف . وقضى الحجاج في ولايته العراق على ابن الأشعث وكان ادعى الخلافة ، وذلك بالقرب من دير الجماجم في ثمانين وقعة تواقعها ، وابن الأشعث في جيش أعظم من جيش الحجاج ، ولكن ليس له عقل الحجاج ولا حزمه ، وانهمز ابن الأشعث وأنصاره من أهل العراق . ولم يكن (١) بعد وقائع صفين أعظم من هذه الحروب .

لما أمن الخليفة جانب العراق وبايعه أهلها بالخلافة ، رمى الحجاز بالحجاج ليقضى على ابن الزبير وخلافته . فكان ذلك بعد حروب أهرقت فيها الدماء ، وبمقتل ابن الزبير صفت الحجاز واليمن وفارس للخليفة الأموي فصفت بها بلاد الإسلام ، وقضى عبد الملك على الأزارقة من الخوارج في فارس ، وعلى الروم والبربر في إفريقية وعاهد الروم ثم نقضوا عهده (٢) ، وظلوا على عدائهم طول أيامه ، وعلى كثرة ما قتل من المسلمين في غزوات الروم في أرجاء إرمينية وآسيا الصغرى كان الروم يخافون المسلمين لتهديدهم بلأدهم ، والمسلمون يخافون الروم لأنهم كانوا حتى في حال الضعف لا تؤمن غوائلهم على بلاد المسلمين ، وظلت هذه الحروب محتدمة إلى أيام ابنه الوليد وردد أقصى الغرب النصراني صداها . يقول سترستن إن غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق وقسوته عايه ، يلتقى شيئاً على شخصية عبد الملك ، والظاهر أن عمله كان شاذاً وأن هناك أسباباً قاهرة حملته في مثل هذا الموقف على ما أتاه ، ليقضى على الفتوق التي كانت ظاهرة في كل مكان . قال ومن الثابت أنه ليس في خلفاء بني أمية من يدانيه في الاضطلاع بأساليب الحكم . وكان يحرص (٣) على أن يكون ولاته ممن ينفذون أمره ، ولا يفكرون إلا في إرضاء الخليفة والفناء فيه ، على طريقة الحجاج والمهلب في سياسة الدولة لا ينظرون إلا إلى مصالحة.

(١) انتباه والإشراف للممدودي . (٢) معلة الإسلام . عبد الملك .

(٣) معلة الإسلام . الأمويون .

الملك . والمهلب بانضمامه إلى عبد الملك بعد أن كان مع ابن الزبير كزياد بانضمامه إلى معاوية بعد أن كان مع علي . وما كان عبد الملك يطلق الحرية لغير أخيه عبد العزيز وإلى مصر وكانت له طعمة . ومصر كانت تتمتع منذ عهد عمرو بن العاص بشيء من الاستقلال ، ويرعاها الأمويون رعاية خاصة ، لأنها طريقهم إلى شمال إفريقيا وإلى ما وراءها ، ولكونها برأسها مملكة عظيمة غنية .

غزا عبد الملك الروم مراراً برأً وبحراً ، وصالحهم مرة لاضطراب البلدان عليه ، وحمل إليهم أموالاً كثيرة حتى انصرفوا عن المصيصة على أن تكون الهدنة عشر سنين ، ويخرج الروم الذين كانوا في جبل لبنان من آخر أيام معاوية فيؤدى عبد الملك إليهم في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً على أن يكون خراج قبرص وإرمينية مشتركاً بين الروم والعرب . ثم أخذ ملك الروم اثني عشر ألف مقاتل من المردة أو الجراجمة في جبال الشام لإرضاء لعبد الملك . وكان صالح الروم ( ٧٠ هـ ) لأول خلافته على أن يؤدى إليهم في كل جمعة ألف دينار ، وكانوا طمعوا في الشام ، وهو موزع الفكر بمسائل عمر بن سعيد ومصعب بن الزبير وعبد الله بن الزبير ، وليس من الحزم أن يحارب حربين داخلية وخارجية في وقت واحد ، وفي أيامه وصل من الروم موريق وموريقان ( ٧٥ هـ ) وحملتا بجيشهما على دير القديس مارون في جهات حماة من الديار الشامية ، وقتلا خمسمائة راهب ثم تحولتا إلى قنسرين والعواصم فقتلا الأهالي ونهبوا وخربا المساكن ، ولم يعفيا عن أحد من الموارد ، وخضعت لهم بلاد الكورة في لبنان ، ثم قوى الجبلون على عساكر الروم وقتلوا أكثرهم وانهزم الباقون .

وصف الجاحظ عبد الملك فقال فيه « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخاف ورعاً وزهداً » ويعد في العلماء العاملين كما هو من أكبر الساسة . ويشبه عبد الملك معاوية بحزمه وسياسته ، وما كان يدهش لما يحل به من المفطعات<sup>(٤)</sup> . وكان من جملة وصيته لأولاده أن

(١) الأمير الشاذلي الثانية .

يعطف الكبير منهم على الصغير وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحذرهم البغى والتحاسد وأوصاهم بأخيتهم مسلمة ، وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا المحتاج فإنه هو الذى وطأ لهم هذا الأمر . وعمل زياد بن أبى سفيان وخالد القسرى وقتيبة بن مسلم وأمثالهم من رجال بنى أمية ، لا يقل عن أعمال الحجاج فى سياسة الدولة وكانوا كلهم « قطب »<sup>(١)</sup> الملك الذى عليه مدار السياسة ومعادن التدبير ، وينابيع البلاغة ، وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها ، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوا مغالقتها ، حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان .

وأريد عبد الملك على أن يعهد لابنيه الوليد وسليمان فأبى لأن البيعة كانت لأخيه عبد العزيز ، وكان عبد الملك لا يفضل عبد العزيز فى شيء إلا باسم الخلافة ، وهو نظير عبد الملك فى الحزم والعقل . ومات عبد العزيز فعهد عبد الملك إلى ولديه الوليد ثم سليمان بالخلافة ، وكانت أيام الوليد خالية من المشاغل الداخلية فى الحملة والعمران يعظم ، والفتوح سائرة على ساق وقدم ، فتح بلاداً فى أرض الترك والروم والهند وأعظم ما فتح الأندلس ، وجاء فاتحها موسى بن نصير إلى دمشق فى طائفة من أبناء ملوك البربر والجزائر والروم والأسبان والإفرنج يلبسون تيجانهم وهم فى حالة الأسر . وسئل فاتح الأندلس فى حضرة الخليفة سامان عن حال تلك الأمم التى افتتح بلادها فقال : إن الروم أسود<sup>(٢)</sup> فى حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء فى مواكبهم ، إن رأوا فرصة افترضوها ، وإن خافوا غلبة فأوعال ترقل<sup>(٣)</sup> فى أجبال ، لا يرون عاراً فى هزيمة تكون لهم منجاة . وقال عن البربر : إنهم أشبه العجم

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

(٣) أرقلت الناقة إرقالا أسرعت فى سيرها . والوعل بكسر العين الأروى وجمعه وعول وأوعال والأروية بالضم والكسر الأنثى من الوعول وثلاث أروى على أفاعيل فإذا كثرت فمضى الأروى . اقل بغير قياس .

بالعرب لقاء ونجدة وصبراً ، وفروسية وسماحة وبادية غير أنهم غُدُر . وقال عن الأسبان ، إنهم ملوك مترفون ، وفرسان لا يجنبون . ووصف الإفرنج : بأن هناك العدد والعدة ، والجلد والشدة ، وبين ذلك أم كثيرة ومنهم العزيز ومنهم الدليل ، وكل قد لقيت بشكله فمنهم المصالح ومنهم المحارب . وما عامل الخليفة سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير ولا قتيبة بن مسلم بما يستحقان لما قدما من خدمة الدولة ، فقد قتل قتيبة بن مسلم فاتح خوارزم وسمرقند وبخارى وضارب الجزية على ملك الصين لأنه أظهر الخلاف وأثار الجيش على الخليفة فيما قيل ، وقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير توها منه أنه يستقل بالأندلس . وبعث سليمان إلى الروم بأخيه مسلمة بن عبد الملك وعمر بن هبيرة فلقيا جهداً وفتحوا بعض مدن الروم ، وكان أول من ضرب بسيفه باب القسطنطينية وأذن في بلاد الروم أحد بني عامر بن صعصعة وكان مع مسامة فأراد قيصر قتله فقال : والله لن قتلتنى لا تبقى بيعة في بلاد الإسلام إلا هدمت (١)

ومن أهم ما عمله سليمان عهده لابن عمه عمر بن عبد العزيز بالخلافة ومن بعده لأخيه يزيد ، ولذلك بشارة وزيره رجاء بن حيوة ، فدل على بعد نظر وخب الخير للأمة ، فدعى مفتاح الخير . ولم يكد عمر بن عبد العزيز يقبض على زمام الخلافة حتى استدعى من الروم جيش المسلمين لما لقوا من الجهد . وطلب إلى عامله على الأندلس أن يرسم له مصورها لأن المسلمين هناك محاطون بالأعداء ، بعيدون عن مقر الخلافة ، وكان من رأيه أن يجلبهم عن أرضها . وكتب إلى عامله في بلاد ما وراء النهر باقفال المسلمين بذراريهم إلى البلاد التي أظلمها سلطان العرب منذ سنين ، قائلاً : حسب المسلمين الذي فتح الله عليهم . ذلك لأن عمر بن عبد العزيز كان يضمن بدماء قومه ولا يحب التوسع في الفتوح ويحرص على إصلاح البلاد وأهلها . وفي أيامه سكنت الخوارج فلم يثوروا وكان ناقشهم وأفحمهم . وعطف على الطالبين ووسع عليهم ، فكانوا عنه

(١) المعارف لابن قتيبة .

راضين . وأبطل لعن أبي تراب على بن أبي طالب من منابر الإسلام . وكان بنو أمية يسبون علياً من سنة إحدى وأربعين وهى السنة التى خلع فيها الحسن نفسه من الخلافة .

وكانت علاقة عمر مع الروم سلمية . ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريرته وبكى وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب - كان ذهب للفداء بين العرب والروم - ما أبكى المقل ومما قال : لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحى الموتى لظننت أنه يحى الموتى ولقد كانت تأتبنى أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعة ، ولكنى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها ، حتى صار مثل الراهب (١) .

أعاد عمر للخلافة جمالها وجلالها ، على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر ابن الخطاب ، ولكن ابن عبد العزيز عمل فى زمان غير زمان ابن الخطاب ، وبرجال غير رجاله . وكان دأبه أن يذكر الناس بالآخرة ، ويخوفهم من العذاب ، ودأب جنده ، أن يذكرهم العمل للدنيا ، مع شدة التمسك بحقوق الأخرى . فسياسة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه ، وسيرة سبطه كذلك . هذا والناس فى آخر القرن الأول قد فسدوا أو بدأوا بالفساد . عمل عمر أعمالاً عظيمة فى خلافته القصيرة وهى سنتان وخمسة أشهر ، وهذا من أعجب ما يدون فى تاريخ عظماء الأرض . ولولم يتقيد بعهد سلفه سليمان بن عبد الملك ليزيد بن عبد الملك ، لعهد إلى القاسم بن محمد بن أبى بكر أو إلى اسماعيل ابن عمرو بن سعيد الأشدق ، لما كان يعرف من غنائهما ، ولكن حاذر إن أقدم على ذلك أن يغضب بنى أمية . وكان بعضهم يبطن له الكراهة ، وإذا حول الأمر عن المروانيين تقع التفرقة لا محالة .

(١) مروج الذهب للمسعودى .

وكان عمر بن عبد العزيز يشعر أن يزيد بن عبد الملك لا يسير بعده بسيرته ، بل يسير بسيرة أخيه على طريقة الملكية المطلقة ، يجمع الأموال ويبنددها ، ويقتل ولو على الشبهة لما يعتقد أن فيه سلامة الدولة ، فلما بويج ليزيد أعاد سب على المناير ، وأرجع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل سلفه ، وكتب إلى مصر بمنع الزيادة التي كان عمر بن عبد العزيز أمر لأهل الديوان بها ففنعوها<sup>(١)</sup> . وأتاه<sup>(٢)</sup> قوم من قریش وخيار بنى أمية ، وكانت قلوبهم قد سكنت إلى هدى عمر واطمأنت إلى عدله ، فاتهم منهم نفرا بالخلاج والخروج فأسكنهم السجن عشرين شهراً ، ثم دس لهم السم فقاتوا جميعاً ، وأقصى من سائر قریش ثلاثين رجلاً ، بعد أن صادرهم وعذبهم ، وصاب من الناس جملة ممن ألف هؤلاء القوم واتهم بمصانعتهم ومصاحبتهم . وقيل إن يزيد بن عبد الملك<sup>(٣)</sup> لما ولي الخلافة قال : « سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز فأتوه بأربعين شيخاً فشهدوا عنده أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب ، وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون هذا » .

كان يزيد بن عبد الملك على غير طريقة إخوته ، قرَّب القيسيين وأقصى اليمانيين ، خلافاً لما جرى عليه أخوه سليمان ، وبذلك استهدف لغضب اليمانيين ، وهم الكثرة الغامرة في جيوش الشام ، وفي أيامه وثب بالبصرة. يزيد بن المهلب وتسمى بالقحطاني ونصب رايات سوداء وقال أدعوا إلى سيرة عمر بن عبد العزيز فقتله أمير العراقيين مسلمة بن عبد الملك . وكانت أيضاً ملحمة كبرى عند باب<sup>(٤)</sup> الأبواب التي الجراح الحكمى هو والترك فانكسروا بعد قتال عظيم . وكان<sup>(٥)</sup> يزيد جعل ولاية العهد من بعده لحشام ، ثم بدا له أن يبايع بولاية العهد لابنه الوليد ؛ فأقنعه خالد بن عبد الله القسرى

(١) الولاة والقضاة للكندي . (٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .  
(٣) دول الإسلام للذهبي . (٤) باب الأبواب على بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر أحد الثغور الجليلة العظيمة لأنها كثيرة الأعداء الذين حفروا بها من أم شق وألسنة مختلفة وعد كثير .

(٥) تاريخ اليعقوبي .

بالعبدول عن ذلك لثلا تقع العداوة والشر بينهم ، ويجد الناس السبيل إلى الطعن فيهم والاختلاق عليهم ، وصير الوليد ولي العهد بعد أخيه هشام .

وجاء هشام بن عبد الملك يتولى الخلافة ، وهو آخر من تولاها من ولد عبد الملك ، تولاها هو ويزيد وسليمان والوليد فلقب هؤلاء الإخوة الأربعة بالأكباش الأربعة ، ولقب والدهم عبد الملك بأبي الأملاك لتولى الخلافة أربعة من أولاده . . تولى هشام فلم يخرج<sup>(١)</sup> عليه خارج ولم يقيم عليه قائم ، اللهم إلا زيد بن علي في بعض نواحي الكوفة فقتله ابن هبيرة فعظم قتله على هشام ، وأقصى ابن هبيرة وصادره ، وقال الخليفة إن ابن هبيرة لم يزل مبغضاً لأهل البيت من آل هاشم وآل عبد المطلب وإني ما زلت محباً لهم حتى أموت » كانت سياسته رشيدة وكتب له التوفيق في فتوحه . وسارت طريقة الجباية سيراً أحسن من سيرها في أيامه وكان النظام في الأخذ والعطاء على أمته . وزعم مؤرخو النصاري<sup>(٢)</sup> أن هشاماً أتى على ثروة الذميين والمسلمين ، فثارت ثورات من تطبيقي قوانين الجباية عليهم ، وعم البلاد الشقاء والفاقة ، وفي أيامه دخل الخوارج إلى الشام وأعقب ذلك خلل في الجيش . وحاول فان فلوتن<sup>(٣)</sup> أن يثبت أن الجباية كانت فاحشة في عهد الأمويين وأن من الثورات ما نشب بتأثير تلك المظالم والضرائب ، لكن لم يأت ببراہين مقنعة بل استنتج استنتاجاً ضعيفاً واستقرى استقراء ناقصاً . ويقول الطبري إنه كان لا يدخل بيت مال هشام مال حتى يشهد أربعون قسامة أنه أخذ من حقه وأعطى لكل ذي حق حقه . ومن كان هذا شأنه في أخذ ما حل له كيف يستحل أخذ أموال الذميين والمليين بالباطل ، ولكن من الرعية من لا يرضيهم شيء حتى ولو أعفوا من كل ضريبة . قال أرباب السير من العرب إن السواس ثلاثة في بني أمية ، وهم معاوية وعبد الملك وهشام ، وبه ختمت السياسة وحسن السيرة ، وأجمعوا على أنه لم يكن في بني أمية ملك أعظم من هشام : أخذ الجزية

(١) الإمامة والسياسة المندوب لابن قتيبة . (٢) معلمة الإسلام . هشام .

(٣) السيادة العربية لفان فلوتن تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم .

من الروم والفرس والترك والفرنجة والزنج والسند والهند ، ولم يجترئ أحد معه على ظلامة . وهو « رجل محشوعقلا » وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة وكان الأسطول يشترك مع الجيش البري من الياسة ، وذلك بقيادة ابنه معاوية وسليمان وأسر قسطنطين ملك الروم<sup>(١)</sup> وتقدمت جيوشه في الشرق فغزا الترك وفتح الفتوح العظام .

وأنت نوبة الوليد بن يزيد لتولى الخلافة ، فعقد لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده ، وأساء السيرة وانتجى على أهله وجماعة من قريش . وأخذت الأحداث العظيمة وسفك الدماء ، وقتل خالد القسري فأغضب اليمانية ، واشتد على بني هشام وأضر بهم وضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان ، وحبس يزيد بن هشام ، فرماه بنو هشام وبني الوليد . وكان أشدهم قولا فيه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك . وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر التنسك<sup>(٢)</sup> فألحت عليه القدرية ، وكان قدريا يرى رأى غيلان ، وقاوا له لا يحل لك إهمال أمر الأمة ، وأجابته اليمن بأسرها ، وقاتل الوليد بمن كان معه من المضرية ، وأثخن اليمانية القتل في مضر ، إلى أن أحاطوا بالوليد بحصن البخراء من أرض تدمر ، وذبحوه وحملوا رأسه على رمح فطيف به في دمشق . وباع المضريون ليزيد بن الوليد طوعاً أو كرهاً ، فاضطربت عليه البلدان ، وسمى الناقص لأنه نقص من عطاء الناس ، ومما خطب به القوم يستميلهم « فإن وفيت لكم بما قلت ، فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن لم أف فلکم أن تخلعوني إلا أن أتوب . وإن كنتم تعلمون أن أحداً من يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما قد بذلت لكم ، وأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه معكم » وفي أيامه خرج يحيى ابن زيد من آل البيت بأرض الجوزجان فوجه نصر بن سيار صاحب خراسان أحد رجاله فقتل زيد في المعركة ، ولما قتل الوليد خرج أهل حمص وأغلقوا .

(١) تاريخ محبوب بن قسطنطين المنجي . (٢) العقد الفريد لابن عبد ربه .

أبواب المدينة ، وأقاموا النوائح والبواكى عليه ، وطلبوا بدمه ، قالوا<sup>(١)</sup> : « إن المضربة تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها ، وقتلهم الخليفة ابن يزيد ، فدب بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا من أقطار الأرض ، وساروا حتى مدينة حمص ، وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكان يومئذ شيخ بنى أمية وكبيرهم ، وكان ذا أدب كامل ورأى فاضل ، فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا له : أنت شيخ قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد ، فاستعد مروان بجنوده في تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق فاقتتل جيشه مع جيش يزيد بن الوليد في ثنية العقاب وانهمز الحمصيون ، واستولى يزيد على حمص ، ووثب أهل فلسطين وأحضروا يزيد بن سليمان بن عبد الملك فجعلوه عليهم ، فدعا الناس إلى قتال يزيد الناقص فأجابوه إلى ذلك ؛ وبلغ يزيد ذلك فأرسل إليهم جيشاً مع سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ووعد كبراء فلسطين ومناهم ، فتخاذلوا عن صاحبهم وأخذ سليمان البيعة من أهل طبرية والرملة ليزيد بن الوليد .

ومات يزيد بن الوليد بعد ستة أشهر من خلافته ، فخلفه أخوه وولى عهده إبراهيم بن الوليد ، وقيل إن أخاه لم يعهد إليه ولكنه استولى بغير عهد وقيل لم يتم له الأمر ، فكان قوم يسلمون عليه بالخلافة ، وقوم يسلمون عليه بالإمرة ، وأبى قوم أن يبايعوا له ، وأقبل مروان بن محمد من إرمينية داعياً إلى نفسه في جيش من أهل الجزيرة . وكان القوم يبايعوا لإبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك من بعده ، ودخل مروان دمشق فخلع إبراهيم نفسه وهرب وتوارى حتى أمته مروان ودخل في طاعته ، وكان أهل حمص لم يبايعوا إبراهيم ، وكان مروان أخاه لأمه . ثم قتل مروان بعد أخذ البيعة له إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج ، ونبش عسكره . قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية بدمشق . وسمى مروان بالجعدى .

(١) الأخبار الطوال للدينوري

نسبة للجعد بن درهم الذي لقنه مذهبه في القدر والقول بخلق<sup>(١)</sup> القرآن . وأخذ مروان بحزمه يقضى على النازين على الخلافة كتنصاته على فتنة ثابت ابن نعيم الجذامي لما خرج عليه ببلاد طبرية والأردن . ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة يدعون لعبد الله بن يحيى الكندي الأباضي فجهز مروان جيشاً وقاتل هؤلاء الخوارج في الحجاز ثم في اليمن وقتل في ذلك خلق كثير . ودخل داعية عبد الله بن يحيى طالب الحق إلى مصر فبايع له ناس من تميم وغيرهم فاستخرجهم عامل مروان فقتلهم . وقاتل مروان الضحاك بن قيس الشيباني الحروري وكان قوى أمره في أرجاء الكوفة حتى بلغ جيشه فيما قيل مائة وعشرين ألفاً . فأرسل إليه ابنه عبد الله وما زال يحاربه حتى قتله ثم قتل من خالفوه من الحرورية . وكان ممن لحق بالضحاك بن قيس هذا سليمان ابن هشام بن عبد الملك وبايعه بعد أن اختلفت به الأحوال منذ خرج من سجن الوليد في عمان وثار فأخذ ما كان بها من الأموال ، وأتى دمشق فلحق أولاً بيزيد بن الوليد فولاه بعض حروبه<sup>(٢)</sup> إلى أن كسره مروان بن محمد بعين الجحر . فهرب ثم استأمن إلى مروان وبايعه ثم خلعه ، واجتمع عليه نحو سبعين ألفاً وطمع في الخلافة ، فبعث إليه مروان عسكر افندم سليمان على ما كان منه ومضى إلى حمص فتحصن بها ، ثم التحق بالضحاك ثم بقحطبة<sup>(٣)</sup> ابن شبيب أحد قواد العباسيين الذي تولى حرب ابن عمه مروان بن محمد فأحسن البلاء . فحسن موقع سليمان من أبي العباس السفاح العباسي ، ثم شعر سليمان أن السفاح يريد قتله فخرج ولحق بالجزيرة . وكتب إلى مواليه وصنائه فاجتمع إليه منهم خلق كثير . فبعث إليه أبو العباس بعثاً ليقاتله فانهزم ثم بعث إليه بعثاً آخر فهزمه أيضاً ، ثم بعث إليه بعثاً آخر فأسره وصلب على دار الإمارة بالكوفة .

رأينا كيف تلونت أحوال السياسة في عهدها الأخير ، وكانت في الأيام

( ١ ) تاريخ أبي الفداء . ( ٢ ) تاريخ دمشق لابن عساكر .

( ٣ ) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

الحالية متسقة مطردة ، وبهذا التناحر بين أبناء العم على الخلافة ، دب الفشل في جيش الأمويين ، وقلت هيبتهم في النفوس بهذا الانشقاق البادى بينهم ، وكيف يستقيم لهم الأمر كما كان في زمن هشام مثلاً ، وفي سنين قليلة خرج على الخليفة الوقت من أهله بشر بن الوليد بقنسرين وعمر بن الوليد بالأردن ويزيد بن سليمان بفلسطين وسليمان بن هشام بحمص وقنسرين ، وبايعه أهل حمص بالخلافة ، وخلعوا مروان بن محمد بعد أن قتل من عسكر سليمان ابن هشام ثلاثون ألفاً وكان في سبعين ألفاً .

ولما انهزم مروان بن محمد الجعدى في الزاب الصغير قرب الموصل أمام جيش بنى العباس لم ينفعه تعصبه<sup>(١)</sup> مع النزارية شيئاً بل غدروا به وخذلوه ، ولما اجتاز ببلاد قنسرين وخنصرة أوقعت تنوخ بساقته وجاز حمص فناوشه أهلها القتال ، وكان قاتلهم غير مرة وقتل من رجالهم ومثل بهم . ووثب به في دمشق الحارث بن عبد الرحمن الحرشى ، فما آوته دمشق عاصمة آبائه ، ورحل بجيشه إلى الأردن فوثب بها هاشم بن عمر العنسى والمذحجيون أى اليمانيون جميعاً ، ثم مر بفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان لما رأوا من إدارب الأمر عنه .

وكان مروان لما وسدت إليه الخلافة ودخل دمشق ترك لأهل كل جند من أجناد الشام أن يختاروا عمالهم ، فوقع اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعد على مروان ، وخذلوه أى خذلان . وجعل مروان يستقرى<sup>(٢)</sup> مدن الشام فيستنهض أهلها فيروغون عنه ويهابون الحرب فلم يسر معه منهم إلا قليل . بل لقد انقلب عليه من كان موالياً لدولته ، وقتل أهل مصر واليهم ، وقتل أهل حمص واليهم ، واكتفى أهل المدينة بإخراج عاملهم ، وخرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة فانهزم ومضى إلى فارس فغلب عليها وعلى أصبهان . والفتنة انتشرت في أنحاء البلاد كلها حتى انهزم مروان وهبط مصر فلحق به الجيش العباسى فقتل في بيعة في بوسير من أرض الصعيد وبه انحل ملك الأمويين في الشرق .

(١) مروج الذهب للمسعودى . (٢) الأخبار الطوال للدينورى .

\* \* \*

أهم الأسباب التي عجالت القضاء على ملك بني أمية تحكّم أهواء المتأخرين من الخلفاء في قوادهم العظام ، فابتعد العارفون الصادقون عن الخدمة ، ودخل الأنعام الأغرار ، أبعدوا أولياءهم ، كما قال أبو مسلم الخرساني ، ثقة بهم ، وأدنوا أعداءهم تألفاً لهم ، فلم يصبر العدو بالدنو صديقاً ، وصار الصديق بالبعد عدواً ، ومنها القاء بذور الخلاف بين الزارية والمضرية ، وقيس ويمن ، واعتصام خليفة بهذا ، وآخر بذلك ، فروان بن محمد اصطنى قيس عيلان وانحرف عن اليمن ، وبأدائها بالعداوة فصارت (١) عليه إلباً ، وله حرباً ، وما عطف بنو أمية على العراق وخراسان العطف المطلوب فظاهروا غيرهم ، وكان تنازع رؤساء العرب في خراسان على الولاية ، وانقسم الجيش إلى مضري ويماني من العوامل أيضاً في ظهور أعداء الأمويين عليهم . ثم إن الأمويين توسعوا في الفتح ، حتى اتسعت دائرة ملكهم إلى ما لم تبلغه دولة الرومان ، فقد استطاعوا أن يقضوا على الطالبيين الذين نازعوا سلطانهم في الأقطار القريبة من دار ملكهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على رجل من الخوارج الصفرية اسمه ميسرة لما قدمه البربر في شمالي إفريقيا سنة ١٢٢ وبإيعونه بالخلافة وخطوب في طنجة وما إليها بأمر المؤمنين . هذا والأمويون كانوا في أوج سلطانهم .

كانت الدولة الأموية عربية صرفة برجالها وبكثير من أوضاعها ، لم يتول القيادات والنيابات فيها إلا جماعة من أبنائهم ، ومن أهل البيوتات العربية المعتمد عليها عندهم ، وجيوشهم كلها من أصول عربية لم يمازجها غير قليل من البربر في شمال إفريقيا والأندلس « وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصية بني عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ، ولم يرد أمره ثم اضمحلت

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي .

عصبية بنى أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا<sup>(١)</sup> . وكان الأمويون على الأكثر أصحاب ثقافة عربية راقية فيهم المرونة السياسية والإدارية ، تمرنوا على قيادة الجيوش وحكم الناس منذ عهد الرسول ، وكان أكثر عماله منهم<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن في عماله ولا في عمال أبي بكر وعمر أحد من بنى هاشم . وأثبت الأمويون كفاءتهم الحربية والسياسية منذ قاتلوا الروم يوم اليرموك في الشام . فكان نساؤهم وبناتهم يقاتلن مع الرجال . وما فتحت<sup>(٣)</sup> من كور الشام مدينة إلا وجد عندها رجل منهم ميتاً . فكان من الطبيعي أن يحبهم الشاميون ويستमितوا في نصرتهم لأول أمرهم . ومن الطبيعي أن تكون الشام لهم ولأعقابهم دار ملك ، ومبعث عزة وسلطان ، ومن الطبيعي أن يمتد ظلهم هذا الامتداد العظيم في المشرق والمغرب .

امتد ملكهم من سواحل الأطلنطى إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها<sup>(٤)</sup> إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت في الإسلام في عهدهم أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والأسبان والأهاند) ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) . وأمست تتلى آى القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة<sup>(٥)</sup> ، ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج ، وكلاهما يدين لبنى أمية ، وأخذت الجزية من النوبة كما قررها عمر بن الخطاب ومن الهند والصين على ما قدرها قتيبة ، وأصبحت دمشق في نظر المسلمين كرومية في نظر أهل النصرانية .

وصدع في عهد خلفائهم قيام دولة شيعية ، على أن الشيعة كانت تعمل منذ طمعت نفس آل أبي طالب في الخلافة ، محتجين بأن الرسول أوصى

(١) مقدمة ابن خلدون .

(٢) النزاع والتخاصم للمقرئى .

(٣) حماة الإسلام لمصطفى نجيب .

(٤) النزاع والتخاصم للمقرئى .

(٥) الحضارة الإسلامية لأحمد زكى .

بالخلافة لعل يوم الغدير بالنص ، وأنه وآله معصومون ، وأنه مصيب في كل أحواله ، وأنه ضل كل من لم يبايعه من الصحابة ، ولم تجد هذه الدعوى أنصاراً كثيراً لها من المسلمين وكانت الغلبة للجماعة ، والأمم تحكم في كل عصر بسوادها الأعظم ، وبصفات خاصة في الفاتحين والمتغلبين . وهذه الصفات كانت متوفرة فيمن تولوا بعد الراشدين . وأسما الشيعية في تحقيق أمنيته في الخلافة ، فزق بهذا السبب شمل العرب والإسلام أو كاد . وجرت حروب أبيحت بسببها الأموال والدماء ، وتشعبت منها آراء ومذاهب ، وسرى الاعتقاد بالمهدي المنتظر عند الشيعة إلى أهل السنة ، وباسمه قامت أو حاولت أن تقوم دول في المغرب في القرون اللاحقة (١) .

وما فتئ الفريقان المتخاصمان يلبسان خلافتهم على الخلافة ثوباً دينياً ، وما وجد الفريق المقهور حرجاً في الاختلاق على خصمه وتجسيم غلطاته ، وكان هذا يتطلب رضاه بكل حيلة ، ويعرف له مكانته وقرابته حتى اضطروا الأمويون بعد حين أن يعاملوا خصومهم بالشدّة ، والخصمان في نظر التاريخ من البشر يعشقان الدنيا ويقانلان عليها المنافس ، ولا ينظر في التنظير بين الفريقين ، إلا إلى الأثر الذي أثره كل منهما في كيان الأمة . وخرج أعداء الأمويين في التشنيع على أعدائهم ، عن حد الاعتدال ، فراحوا يخرجونهم عن

#### ( ١ ) مقدمة ابن خلدون

( ٢ ) عالج ابن خلدون في فصل ضاف عقده في مقدمته حل مسألة المهدي وقال فيه بعد إيراد أقوال المحدثين : فهذه جملة الأحاديث التي أخرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كما رأيت لم يخلص منها من العقد إلا القليل أو الأقل منه قل إن الإمامية من الشيعة جاءوا يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع من التناسخ ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بهوته منهم ، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستبدلين بأحاديث المهدي . وأن هذه المعتقدات انبثقت من قول الإمامية والافضة من الشيعة في تفضيل علي والقول بإمامته وإدعاء الوصية له بذلك من النبي والتبرؤ من الشيعيين ، ثم أقول بالإمام المعصوم . قال : وحمل بعض المتصوفة حديث « لا مهدي إلا عيسى » أن لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم التنسخ ، إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان ، بأدلة وأهية ، وتحكمات مختلفة ، فينقض الزمان ولا أثر لشيء من ذلك ، فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل ، كما قرأه من مفهومات لغوية ، وأشياء تخيلية ، وأحكام نجومية ، في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآثر .

الملة وهم مساهموهم في خدمة الدين ، بل لقد بذوهم في نشره ، وبسط سلطان أهله على العالمين ، وما أورثت هذه الخصومات الدنيوية غير تأريث الأحتماد وفصم عرا الوحدة ، والسير في طريق ردب<sup>(٥)</sup> ، ما انتهت بغير الإحن والحن ، على طول الزمن ، سالت الدماء كالأنهار ، وقتل ولاية الأمر في الدولة جماعة الشيعة والخوارج بدون توقف . والأمويون كغيرهم من أرباب الدول ، لا يرون سلامتهم إلا في قتل من يناصبهم العدا ، ولا يتهاملون في القضاء على من يخرج على خلفائهم .

وعجيب في مثل هذه الدولة وبتيانها قائم على العدل واللين ممزوجاً بشدة ، وقد توفرت لها عامة أسباب البقاء وعملت للأمة أعمالاً لم توفق إليها دولة إسلامية بعدها ، أن لا يطول عمرها كثيراً ، وقضى عليها على أيسر سبب ، وهى في معظم قوتها ، وقد علل أسباب انقراضها باحثان في تاريخها ربما كانا على صواب فيما ارتأياه قال<sup>(٢)</sup> : إن وفاة هشام زعزعت أركان الدولة الأموية ، فثارت ثورات أوقد نارها تحريض الشيع المخالفة ودعاتهم ، وكان من مظالم الولاة وتنازع الأمويين بينهم ما عجل سقوطهم . ومن أسباب الضعف أن يتعاقب على الخلافة في سنة واحدة ثلاثة خلفاء ، الوليد الثانى ويزيد الثالث وإبراهيم ، وكان حظ محمد والخلفاء الأول كمحظ مملكة الكارولنجيين ، توسعت إتروحها في العالم القديم ، وانتهت بأن تزرعه بالأنقاض المنتشرة منه ، والعوامل في انحلالها كالعوامل في تلك المملكة : فتن داخلية من أجل الملك ميل الرؤساء إلى خلع ربة الطاعة ، نقمة العناصر والجنسيات ودعاة القوميات .

وقال لينى ديلافيدا : لا يكفى فساد الوليد الثانى اسقوط الدولة الأموية بيد أن الوليد هياً انحلال الدولة بعهدده إلى ولديه ، وما استطاع الوليد ولا يزيد.

( ١ ) الردب الطريق الذى لا ينفذ . ( ٢ ) التاريخ العام للافيس ورامبو .

( ٣ ) معلمة الإسلام . الأمويون .

الثالث ولا أخوه إبراهيم وضع حـد للفوضى ، وضعف الإشراف على القاصية واستولى الخارجى الضحاك بن قيس الشيبانى على الكوفة ، وقام مروان بن محمد القيام المحمود فى السنين الثلاث الأولى ، بجيش دربه أيام ولايته إرمينية وظهر به على الروم ، فذكر بعمله أعمال جده وسميه ، وأعمال عبد الملك بعده ببلائه الحسن فى توحيد المملكة إلا أن حاله لم تكن تشبه حالهما ، وكان عمله شاقاً ، ذلك لأن البيت الأموى كان قد دخله الوهن ، وجفت فيه مادة النشاط أو كادت . وأيقن أعداؤه بنجاح الدعوة الجديدة ، وما كان مروان أمام جيوش مرتجلة ، كما كان الشأن فى جند ابن الزبير ، والعصابات المستبسة من العلويين ، بل كان أمام جيش منظم اعتاد حرب الترك . كان أمام جيش فارسى دربه أبو مسلم الخراسانى . هذا وما استطاع الأمويون أن يجعلوا المملكة جسماً واحداً متماثلاً ، وكذلك قصر باع العباسيين بعدهم فى هذه السبيل ، وكانت مسألة استخلاف الخلفاء فى العهدين الأموى والعباسى من المشاكل الصعبة الحل ، تتجدد غوائلها كلما مات خليفة .

## سياسة العباسيين :

لما سلم الحسن بن علي الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ، قامت الشيعة من أهل المدينة<sup>(١)</sup> وأهل مكة والكوفة والبصرة واليمن وخراسان ، فاجتمعوا إلى محمد بن الحنفية فبايعوه على طلب الخلافة ، وعرضوا عليه قبض زكاتهم ، فولى على شيعة كل بلد رجلاً منهم ، وأمره باستدعاء قبيلته في ستر ، على أن لا ييؤحوا بمكنونهم إلا لمن يوثق به حتى يرى للقيام موضعاً ، فقام ابن الحنفية لإمام الشيعة حتى مات ، وولّى عبد الله ابنه من بعده ، وأمره بطلب الخلافة ، إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، وعلم به الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ولما اجتمع إليه أنكر ما عزي إليه من المبايعه له بالخلافة ، إذ كان<sup>(٢)</sup> من الجائز للإمام في حال التقية<sup>(٣)</sup> أن يقول إنه ليس بإمام « فقل إن سليمان بن عبد الملك دس على عبد الله من سمه في الطريق ، وقيل إنه مرض فأتى الحميّة من أرض الشام ، وبها جماعة آل العباس ، فعهد قبل موته إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أن يطالب بالخلافة بعده ، وولاه واشهد له من الشيعة رجالاً ، فأقام محمد بن علي هذا إماماً ، ودعوة الشيعة له حتى مات . فلما حضرته الوفاة ولى الأمر إبراهيم بن محمد المدعو بالإمام ، فانتبه مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين لما كان منه فقتله ، وقيل إن إبراهيم بن محمد عهد بالخلافة بعده إلى أخيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس عم الرسول .

( ١ ) الإمامة والسياسة المنسوب لابن تقيية . ( ٢ ) مقالات الإسلاميين للأشعري .

( ٣ ) التقية مشتقة من اتقاء أى خافه وهى ضد العلانية جائزة باتفاق العلماء إذا خشى

المرء على نفسه التلف : وكانت شائعة في جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين ؛ ولذلك أجمع رأى الصحابة على عهد عمر بن الخطاب لما أرادوا التاريخ أن يبدأوا من سنة الهجرة لأنه الوقت الذى حكم فيه الرسول على غير تقية . وعمد إلى التقية كثير من فرق الخوارج والشيعة فخرجوا من أيدي أعدائهم ، واتقوا كثير من آل البيت فتابعوا من لم يشاؤهم على آرائهم . ومن الخوارج كالصنورية والزيادية من يقولون إن التقية جائزة في الثول والعمل . والردى عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكنمه « مبحث في التقية للؤلّف مجلة المقتبس م ٢ » .

اختار محمد بن علي يوم قام يحاول انتزاع الملك من الأمويين بلاد خراسان ميداناً لإظهار دعوته ، لأن أهل الشام والحزيرة والحجاز لم يكن هواهم مع آل العباس ، وهم يعلنون ولاءهم للأمويين سرّاً وجهراً ، ولأن في أهل خراسان العدد الكثير<sup>(١)</sup> والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تنوزعها النحل ، وليس فيهم التحزب للقبيلة والعصبة للعشيرة<sup>(٢)</sup> ، وهم المظلومين يؤملون الدول ، ولم يكونوا على العهد الأموي محل الرعاية ، بل أقصوهم عن الحكومة ، وجلبوا إليهم العمال من الأحزاب العربية ، وكان أهل خراسان في أكثر ملك العجم لقاحاً ، لا يؤدون إلى أحد إناوة ولا خراجاً ، فلما جاء الإسلام صالحوا على بلادهم ، فلم تسفك بينهم الدماء وخف خراجهم . ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بني العباس (١٢٧ هـ) وصُيغ أول سواد لبسته المسودة . وقلما سمع أهل بلد يجيش خراسان إلا سودوا قبل أن يوافيهم ، أي لبسوا السواد شعار بني العباس ونزعوا شعار المبيضين أي الأمويين .

قالوا لما جاء الوقت الذي أعد<sup>(٣)</sup> فيه أبو مسلم مستجيبه خرجوا جميعاً في يوم واحد من كور خراسان ، وانجفل الناس من هراة وبوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والضغانين والطخارستان وختلان وكش ونسف فتوافوا جميعاً مسودى الثياب ، وقد سودوا أيضاً أنصاف الخشب التي كانت معهم ، وسموها « كافر كوبات » وأقبلوا فرساناً وحماراً ورجالة يسوقون خميرهم ويزجرونها « هرّ مروان » يسمونها مروان تر غيا مروان بن محمد وكانوا زهاء مائة ألف رجل .

لما وجد إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراساني إلى دعائه بخراسان أعطاه لواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب ، فعقدتهما على رحمين ، ومعنى

(١) معهم البلدان لياقوت .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة .

(٣) الأخبار الطوال للديوري .

الظل والسحاب أن السحاب يطبق على الأرض فلا تخلو من الظل ، كما لا تخلو الأرض من خليفة عباسي آخر الدهر ، وجعلت الراية سوداء حزناً على شهدائهم من بني هاشم ، ونعيا على بني أمية في قتلهم<sup>(١)</sup> . وكان الحارث ابن سريج لما ثار على بني أمية (سنة ١١٦ هـ) وكذلك بهلول الخارجي (سنة ١١٩ هـ) وأبو حمزة الخارجي (سنة ١٢٨ هـ) اتخذوا اللواء الأسود شعاراً ، وما كان أحد منهم في حداد على أحد من آل البيت<sup>(٢)</sup> .

وكان إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم باليمانيين وأن يقتل من يشك فيه من مضر ، وإن استطاع ألا يدع بخراسان من يتكلم بالعربية فليفعل ، وأى غلام بلغ خمسة أشبار يتهمة فليقتله ، فأنفذ أبو مسلم ما أمر به ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار في خراسان ، واستثمر<sup>(٣)</sup> ما كان من الشتان بين الزارية واليمانية ، وتحزب الناس بالمثالب وثار بينهم في البدو والحضر ، فغلب على خراسان ، بضعف الأمويين آخر أيامهم عن إنجاد واليهم عليها ، وتخطت عسكره إلى العراق ، وما وضع مقاليد الخلافة في أيدي بني العباس بالكوفة حتى كان قتل فيما قبل ستمائة ألف إنسان .

كان آل العباس وآل أبي طالب<sup>(٤)</sup> شرعا في المطالبة بالخلافة ، ولذلك سموا شيعة آل محمد ، ولم يكن إذ ذاك بين بني علي وبني العباس افتراق في رأى ولا مذهب ، فلما ملك بنو العباس نفر عنهم فرقة من الشيعة مالت إلى بني علي ، واعتقدت أنهم أحق بالأمر ، فصار الملتشيع هو الذي يعتقد إمامة أئمة الإمامية من بني علي لا الموالى لبني علي والعباس كما كان من قبل ، وكان المنصور أول<sup>(٥)</sup> ملك أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد علي بن أبي طالب ، وإذا قدر أن يستأثر بالملك آل العباس دون الطالبيين ، أصبح هؤلاء بحكم الطبيعة من المخالفين ، ونقم الطالبيون على العباسيين وخرجوا عليهم في كل عصر .

(١) مقدمة ابن خلدون . (٢) السيادة العربية لفان فلوتن تعريب حسني إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم . (٣) خطط الشام للؤلف . (٤) أخبار البيوتات العلوية لابن زهرة . (٥) السلوك للمقرئزي .

أيقن إبراهيم الإمام بأنه مقتول لا محالة بأيدي الأمويين فنعى نفسه إلى أهل بيته ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه عبد الله ، وأوصى إليه بالخلافة ، فسار بأهل بيته وفيهم أخوه أبو جعفر ، فأقام بالكوفة شهراً وهو مستخف ، ثم ظهر وسلموا عليه بالخلافة . وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي ، ولقب بالسفاح لأنه سفح دماء بني أمية ، وقال في أول خطبة خطبها « أنا السفاح المبيح والثائر المتيح » . وفي هذه الخطبة يقول رداً على الشامية أي بني أمية في قولهم إنهم أحق بالرياسة والسياسة والخلافة من غيرهم : إن الله لما قبض الرسول إليه قام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم « وحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماساً منها ، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان ، فانتبذوها وتداولوها ، فجاروا فيها واسأثروا ... وقام عمه داود بن علي فقال : أيها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لتكثر بلحينا ولا عقيانا ، ولا نحفر نهراً ولا نبني قصراً ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرهنا من أموركم .

وفرق السفاح الولايات على رجال من آل بيته ، وعهد إليهم أن يستأصلوا الأمويين وكل من يمت إليهم بسبب ، ولم تأخذ العباسيين رافة بأطفال الأمويين ونسائهم وشيوخهم ، قتلوا حتى من استأمن منهم ، وبخثوا عنهم في كل صوب وحذب ، واجتثوا أصولهم وفروعهم ، وأخذوا ثاراتهم من أحيائهم بالقتل ومن أمواتهم بنش قبورهم ، وصلب أشلائهم وإحراق عظامهم ، وتذريتها في الريح ، أو بصب اللعنات عليهم ، وتسويد صحائفهم ، ثم كتب السفاح كتاباً عاماً إلى البلاد يعطى فيه الأمان للأمويين ، وما كان أمانة إلا مدرجة لظهورهم ، حتى إذا برزوا للناس قتلوا كل قتلة بلا حكم ولا مسوغ .

وأهم ما وقع بموت السفاح قيام عبد الله بن علي عم السفاح يدعو بالشام والجزيرة إلى نفسه ، زاعماً أن السفاح جعله ولي عهده من بعده ، فجهاز المنصور

لحربه أبا مسلم الخراساني فاشتد القتال بينهما في نصيبين ، ثم انهزم عبد الله والتحق بأخيه في البصرة ، واستولى أبو مسلم على جميع ما كان أخذه عبد الله من نعمة بني أمية في الشام .

ولقد كان المنصور كالسفاح ممن لا تأخذهم هودة في سبيل الملك ، وربما كان في شدته على العلويين ، أكثر من شدته على الأمويين ، فقد كان في العلويين بقية من قوة يخشى شرها ، أما رجال بني أمية فقد قتلوا ولم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية الذي أفلت من مجازر العباسيين ، وذهب إلى الأندلس وأقام فيها ملكاً ، جمع حوله فيه كل شريد وطريد من آلِه وأنصارهم ، فأرسل المنصور عليه جيشاً بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي ، فنزل باجة داعياً إلى المنصور واجتمع إليه خلق فسار إليه عبد الرحمن ولقيه بنجاحي إشبيلية ، فقتل القائد العباسي وجيشه كله ، وكان سبعة آلاف ، وقع هذا بعد سنة ١٣٩ هـ فقال المنصور في عبد الرحمن الداخل : ما هذا إلا شيطان فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاماً هذا معناه ، ولقبه بصقر قریش .

ولما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني خرج<sup>(١)</sup> رجل اسمه سنباذ بخراسان يطلب بثأره ، ولما التقى هو وعسكر المنصور ، كان سنباذ قد أخذ معه عدة من النساء المسلمات اللواتي قد سباهن ، وهن على جمال ، فأمر سنباذ بإخراج النساء المسييات قدام عسكره ، فخرج النساء حواسر على الجمال ، وصحن صيحة واحدة : واحمداه . ففرت الجمال ، وكرت راجعة على عسكر سنباذ ففرقتهم ، فتبعها عسكر المنصور ودخلوا خلف الجمال ، فوضعو فيهم السيوف وأبادوهم قتلاً ، وكان عدد القتلى ستين ألفاً .

وظهر محمد بن عبد الله العلوي ( ١٤٥ هـ ) في المدينة ودعا إلى نفسه فبايعه أهلها بالخلافة وقال إنه خرج<sup>(٢)</sup> غضباً لله ، واستولى على مكة واليمن فندب

( ١ ) الفخرى لابن الطقطقى . ( ٢ ) دول الإسلام للذهبي .

المنصور لقتاله وليّ العهد عيسى بن موسى وقال : لا أبالي أيهما قتل الآخر ،  
يعنى إن قتل هذا الخارج فيها ونعمت ، وإن قتل عيسى استراح منه ليولى  
مكانه ابنه المهديّ ، فحارب محمد حتى قتل . ثم خرج أخوه إبراهيم بن  
عبد الله بالبصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد ،  
وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية ، فبعث إليه أبو جعفر  
عيسى بن موسى فحارب إبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه (١) ،  
ويقول أرباب التواريخ إن المنصور لما بلغه خروج إبراهيم بن عبد الله خاف  
واشتد قلقه ، وتحول فنزل بالكوفة ليأمن غائلة الشيعة ، وألزم الناس حينئذ  
لبس السواد حتى العوام ، وجعل يقتل كل من يتهمة أو يسجنه ، والشيعة  
يغلون ويتبايعون سرّاً لإبراهيم حتى اتسع الخرق ، وبقي المنصور لا يقر  
ولا ينام وحرار في نفسه ، وحوله بالكوفة مائة ألف سيف كامنة مضمرة للشرّ  
قال الذهبي لولا السعادة لزال ملكه بدون ذلك . وقيل إن عسكر إبراهيم  
ابن عبد الله بلغوا مائة ألف ، فلو هجم على الكوفة لاستولى على الأمر وظفر  
بالمصور . وخشى إن هجمها أن يستباح الصغار والكبار ، وكان جنده يختلفون  
عليه وكل واحد يشير برأى ، إلى أن كانت الواقعة بباخرا على يمين من  
الكوفة ، وقتل إبراهيم وأفلت ابن أخيه إدريس بن عبد الله فأتى مصر وحمله  
صاحب البريد إلى المغرب ، فانتهى إلى أرض طنجة ونودي به إماماً سنة  
١٧٢ ، ثم خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن  
أبي طالب بفخ على سته أميال من مكة . فخرج إليه عيسى بن موسى فقتل  
الحسين وأكثر من معه .

وخرجت الجيوش الحراسانية عن الطاعة ( ١٥٠ هـ ) فاشتد الأمر على  
المنصور ، وجهاز جيشاً عظيماً ، وكذلك كان من الأمير الذي عصا عليه فجرت  
بين الفريقين وقعة يقال إنه قتل فيها سبعون ألفاً ، وضرب الجيش العباسي  
أعناق الأسرى ، وكانوا أربعة عشر ألفاً . وغلب الخوارج الأباضية على

إفريقية ( سنة ١٥٣ هـ ) وبايعوا أباقرة أحد رؤسائهم بالخلافة . وجهاز المنصور خمسين ألف فارس وأنفق عليهم ثلاثة وستين ألف ألف درهم ، وكانت إحدى شيع الخوارج النكرية هي التي قامت بهذه الثورات على الخلافة ، ثم استعاد المنصور إفريقية من الخوارج وقتل عامله كبارهم .

وغزا الروم في أيام المنصور ملطية وقاليقلا وهدموا سور ملطية ، وعفوا عن المقاتلة والنزيرة ، فأرسل المنصور ( سنة ١٤٠ هـ ) فعمرها في ستة شهور ثم سار ملك الروم إليها في سبعين ألفاً ، فلما بلغه كثرة المسلمين رجع عنهم ، وفي أيام المنصور أيضاً احتل الروم طرابلس الشام . وظهر في لبنان رجل من أهل المنيطرة<sup>(١)</sup> ( سنة ١٤٢ - ١٤٣ هـ ) وسمى نفسه ملكاً ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم ، واستفحل أمرهم فظهر الجيش العباسي عليهم . وكانت علائق المنصور مع ملك فرنسا ( بين القصور ) حسنة ؛ أسرع<sup>(٢)</sup> هذا إلى عقد صلوات مع خليفة بغداد ، وأرسل في سنة ٧٦٥ م رسالته ثلاث سنين حتى رجعوا إلى فرنسا ، ومعهم رسل الخليفة ثم عادوا إلى بغداد ومعهم الهدايا إلى الخليفة ، ويقال إن المنصور<sup>(٣)</sup> حرض بين علي قتال عبد الرحمن الأموي في الأندلس . وكان خلفاء الشرق يحاسنون ملوك الفرنسيين ويتبادلون وإياهم الهدايا والألطاف ، وبين هذا لا يزال يغرى بعضهم بالإيقاع ببعض ، وملوك قرطبة يرسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر . وظهر المنصور على من بيضوا في الشام ، أي لبسوا شعار الأمويين ، وكان عرب الشام<sup>(٤)</sup> ندموا على ما أتوا من خذلان بني أمية ، حتى تسلط العجم من أبناء خراسان عليهم ، فهاجت لذلك واضطربت ، وامتنعوا من البيعة لبني العباس ، وقاوموهم بجموعهم ، وحاربوهم بمن بقي من أحباب الأمويين ، ومنهم من ادعى الخلافة ، ومنهم من ادعى أنه السفياقي نسبة لأحد أبناء أبي سفياك

( ١ ) تاريخ دمشق لابن عساكر . ( ٢ ) تاريخ غزوات العرب في فرنسا . وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط لشكيب أرسلان .

( ٣ ) تاريخ المنصور الوسطى في المشرق والغرب لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوي . ( ٤ ) خطط الشام للمؤلف .

المبشرين بإعادة ملك بني أمية ، فالتف الناس حولهم . وكان المقصود من دعوى السفيناني تقوية الآمال برجوع دولة بني أمية . ومسألة السفيناني عند الأمويين كدعوى المهدي عند العاويين ، اختلقوا لها أحاديث وجلبت ويلات على الضعفاء ، وقتل المشايخ لها تقتيلا بأيدي الأقوياء . عن مسامة بن عبد العزيز قال سمعت العزري يقول سمعت محمد بن علي يقول : النبي ما زال منا والمهدي من بني عبد شمس ، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز . وكان الناس يرون موسى بن طلحة بن عبيد الله في زمانه هو المهدي .

كان اليمانيون يذهبون إلى أنه سيظهر فيهم القحطاني المنتظر ، والمضربون يعتقدون بالتميمي حتى أن عبد الرحمن بن الأشعث ادعى أنه القحطاني<sup>(١)</sup> . وكان الحارث بن سريج الذي قام على الأمويين يدعى أنه المهدي وأن الله أرسله لأنفاذ الأمة من الظلم وإقامة حكومة يرضى عنها السواد الأعظم ؛ وبالطبع تكون من آل البيت .

والمنصور<sup>(٢)</sup> أول خليفة استعمل مواليه وغلماؤه في أعماله ، وقدمهم على العرب ، فاقتدى به من بعده من الخلفاء ، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها ، واستعمل كثيرين من أهل بيته في القيادات الكبرى واختار من استخلصه من غيرهم للأعمال الصغيرة ، واستوزر أبا أيوب المورياني الخوزي وهو فارسي ، كما استعمل ابن عطية الباهلي وهو من صميم العرب . فهو الخليفة الذي بدأ بخلط العناصر الإسلامية ، وما تشدد في أصول من يستعملهم في شئون الدولة .

ونخلع المنصور من ولاية عهده عيسى بن موسى ( سنة ١٤٧ هـ ) وعهد لابنه المهدي ؛ وجعل لعيسى بن موسى ولاية العهد بعد المهدي . ووجه المهدي في خلافته رسالا إلى ملوك الشرق يدعوهم إلى الطاعة فدخل أكثرهم في طاعته ، فكان منهم ملوك كابل وطبرستان والسغد وطخارستان وباميان وفرغانة وأشروسنة والخرنحية وسجستان والترك والتبت والسند والصين والهند والتغرز . وغزت جيوشه الروم والهند ، وخرج عليه في خراسان يوسف ابن ابراهيم فقضى عليه .

( ١ ) التنبيه والإشراف للمسمودي . ( ٢ ) السلوك للمبشر يزي .

وجعل المهدي عيسى بن موسى على خلع نفسه من ولاية العهد ، وباع لابن المهدي موسى بن محمد الذي لقب بالهادي . وكان المهدي في آخر أيامه يود لو تنحى ابنه الهادي من ولاية العهد ، ويقدم عليه ابنه الآخر هرون ، لما رأى من كفاءة هذا . وفي أيام المهدي خرج نائبه دحية بن مصعب بن الإصيص بن عبد العزيز بن مروان بصعيد مصر ، ومنع الأموال ودعا إلى نفسه بالخلافة ، وملك عامة الصعيد ، وقاتل العباسيين مدة فأعجزهم .

كانت الخيزران أم الهادي تتدخل في أمور السلطان لقضاء حوائج الناس فمنعها ابنها من ذلك وكانت تفتات عليه في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله ، في الاستبداد بالأمر والنهي فأرسل إليها ، ألا تخرج من خضر الكفاية إلى بذاة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك ، وعليها بصالتها وتسبيحها وقبلتها ، ولها بعد هذا طاعة مثلها فيما يجب لها . وحرصها ألا تفتح فاهها في حاجةٍ للملئ ولا ذمى ، وحلف أن يضرب عنق كل من يقف على بابها من قواده وخاصته وخدمه .

\* \* \*

بويع للرشيد عند موت أخيه الهادي وكان أبوهما عقد لهما بولاية العهد معاً . وكانت حدثت الهادي (١) نفسه بخلع الرشيد وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده فأجابوه ، وأحضر هرثمة بن أعين فقالوا له : تباع يا هرثمة فقال : يا أمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك ، ويساري مشغولة ببيعة أخيك ، فبأى يد أباع ، والله يا أمير المؤمنين ما أكديت في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك في بيعته ، ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى ، ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة ، وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت ، لأمسكت عن هذا . فقال الجماعة من حضر : شأهت وجوهكم والله لقد صدقني مولاي وكذبتموني ، ونصحتني فغششتموني ، وسلم إلى الرشيد ما قدره الهادي فيه .

(١) المكافاة لأحمد بن يوسف الكاتب .

ومن الغريب أن سلّمَ على الرشيد بالخلافة ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، كل من عمه سليمان بن المنصور ، وعم أبيه المهدي وهو العباس ابن محمد ، وعم جدّه المنصور وهو عبد الصمد بن علي ، وبويح له بإجماع الأمة ما عدا جزيرة الأندلس<sup>(١)</sup> . وكانت سياسة الرشيد رشيدة في شؤونه الداخلية والخارجية ، غزا الروم حتى وصل إلى اسكندار من ضواحي القسطنطينية أيام ولايته العهد ، وتغلغل مرة ثانية في بلادهم وغزاهم في خلافته بضع غزوات وأخذ منهم هرقلية ، وبعث ملكهم إليه بالجزية عن رعيته وعن رأسه ورأس ولده وبطارقته ، واشترط عليه الرشيد أن لا يعمر هرقلية ، وأن يكون الحمل في السنة ثلاث مائة ألف دينار . وكان نقفور صاحب الروم نقض العهد الذي كان قد أعطاه ، قال معاوية بن عمرو<sup>(٢)</sup> : وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هرون في الغزو ، ونفاذ بصيرته في الجهاد ، أمراً عظيماً ، وأقام من الصناعة ( الأسطول ) ما لم يتم قبله ، وقسم الأموال في الثغور والسواحل ؛ وأشجى الروم وقمعهم . وسمى الرشيد جبار<sup>(٣)</sup> بنى العباس لأنه أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفاً ، وأخذ خمسة آلاف دابة بسروج الفضة ولحمها ، وأغزى علي بن عيسى بن ماهان بلاد الترك فقتل منهم أربعين ألفاً وسبى عشرة آلاف وأسر ملكين منهم ، ثم غزا الرشيد نفسه الروم وافتتح هرقلية وأخذ الجزية من ملك الروم .

يقول أرباب التواريخ<sup>(٤)</sup> من الإفرنج إن الرشيد كان بينه وبين شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليا في عصره صلات سياسية ، وأنهما تبادلا السفراء ، وأن الرشيد أرسل هدايا إلى شارلمان ، وبعث إليه بمفاتيح القبر المقدس ، وأن نصارى الشام تُفَسّ من خناقهم عقبي هذه العلائق بين ملكي الإسلام والنصرانية . ولا أثر لهذه الرواية في تواريخ العرب . ويقول<sup>(٥)</sup> رينو

( ١ ) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دینار . ( ٢ ) فتوح البلدان للبلاذري

( ٣ ) المضاف والمنسوب للثعالبي . ( ٤ ) معجم لاروس الجديد . ومعلقة الإسلام .

مادة هارون الرشيد . ( ٥ ) تاريخ غزوات العرب لشكيب أرسلان .

إن هرون الرشيد بعث وفداً إلى شارلمان ، وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولاً يهودياً اسمه إسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيين للسلام على الخليفة . فعاد الوفد من الشرق إلى الغرب يحمل إلى شارلمان هذا شيئاً من المنسوجات وفيلا وطيوباً وبعطرات ، ومن جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار ، وأبلغ الوفد شارلمان ما قاله له الرشيد من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك .

وفي أيام الرشيد خرج الوليد بن طريف الحروري من رؤوس الخوارج ( سنة ١٧٩ هـ ) فقتل بعد أن استفحل شأنه . وخرج في الديلم يحيى ابن عبد الله العاوي وبايعه الشيعة وكثرت جموعه ، فبعث إليه الرشيد جيشاً فقتله وأنصاره . وخرج بتاهرت السفلى محمد بن جعفر فغلب عليها وصارت في أيدي مناصريه وخرج الخزر ( سنة ١٨٣ هـ ) من باب الأبواب فقتلوا وسبوا . قيل إنهم سبوا مائة ألف ، فطردتهم عساكر الخليفة ، ثم سدوا الباب الذي خرجوا منه . وأمر الرشيد بإخراج الطالبين من دار السلام إلى المدينة .

ومن رأى سترستين<sup>(١)</sup> أن انحطاط دولة بني العباس بدأ بالرشيد ، ونحن نرى أن عهد الرشيد وابنه المأمون أرقى عصور بني العباس قوة وعظمة وثقافة ، وهو العصر الذهبي ، بما لا يقبل الجدل ، ودور الانحطاط إنما بدأ بعد عصر المعتصم باستيلاء الأعاجم على مقاليد الدولة ، فخرجت عن عظمتها ، وعلق الضعف يدب فيها ، والفساد يعبث بكيانها . ولعل سترستين يعد من انحطاط هذه الدولة أن يسهده الرشيد لابن الأغلب عامله على إفريقية ( تونس ) بأن يؤدى عنها كل سنة أربعين ألف دينار وينزل عن المعونة التي كان سلفه يأخذها من مال مصر . . وقدرها مائة ألف دينار ، وجعل الإمارة لعقبه من بني الأغلب يتوارثونها . والواقع أنه قلما عهد من الخلفاء توسيد العمال للبين بعد الآباء . وإن إفريقية بهذا الصنيع أصبحت مستقلة في داخليتها ، مرتبطة

( ١ ) معلة الإسلام . هرون الرشيد .

بالخلافة العباسية في أمورها المهمة فقط . فصغرت رقعة الدولة العباسية بالإمارة الأغلبية في إفريقية ، ومن ورائها الدولة الرستمية في تاهرت ، ودولة إدريس في طنجة ، ودولة بني أمية في الأندلس : فانسحبت ممالك من جسم دولة بني العباس في الظاهر ، واكتفوا بتوسعهم في أملاكهم في الشرق ، وحصروا وكدهم في البلاد الباقية ، وفيها ما يستغرق جميع قوى الدولة .

وربما كان مما دعا الرشيد إلى إعطاء هذا الاستقلال كون جمهرة جيوش العباسيين من خراسان وما وراء النهر وغيرها من أرض الترك ، والأعاجم كغيرهم تهوى أفتدتهم أبدا إلى بلادهم ، وهم أعرف بمدخل بلادهم ومخارجها ، وطباعهم أقرب إلى التلاؤم مع هواء المشرق . ولئن كانت جيوش الرشيد مستعدة على الدوام للوثبة على الأعداء ، لكن أى الحملات يضمن لها النجاح كل حين ، إذا قضى عليها أن تسير عند الاقتضاء من ضفاف الفرات ودجلة إلى المغرب الأقصى ، أو من مصر إلى الغرب الأقصى ، مع هذه المساوف الطويلة في البر ، وهى لا تقل عن بضعة أشهر بسير الجيش .

إذا نظرنا إلى توسيد إمارة إفريقية إلى ابن الأغلب من وجهها الحسن ، نقول إن الرشيد أراد أن يجعل من إفريقية سداً بينه وبين أعدائه من الأمويين ، ويترك لبني الأغلب أن يعالجوا شؤون الغرب الأقصى والأدنى ، وما يقوم فيه النزاع إلى الثورة والخارجون على السلطان ، ليتفرغ لشؤون مملكته التى أربت بسعتها على مملكة الرومان في أوج عظمتها . أما إذا نظرنا إلى ما جرى من وجهه القبيح ، فنقول إن العباسيين بدأوا على عهد الرشيد ينزلون عن أجزاء مهمة من ممالكهم ، لعجزهم عن سياستها وإملاء إرادتهم عليها ، والانتفاع بها من كل ناحية . بيد أن الرشيد لم يعهد لابن الأغلب بولاية إفريقية إلا لما استشار أوليائه<sup>(١)</sup> . وفي مقدمتهم أعظم قواده هرثمة بن أعين ، وكان ولي إفريقية وخبر أحوالها . وتولى الأغلبة قتال الأباضية وبني إدريس بن عبد الله الفناهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، وفتحوا صقلية ومالطة وجزائر البحر ، ووسعوا

(١) الخلاصة النقية في أمراء إفريقية للباي .

بما فتحوها ملك الإسلام تحت علم الخلافة العباسية ، وعمرت لإفريقية وغيرها من الأقطار والجزائر التي فتحوها عمراناً لا نظير له من كل وجه .

وعهد الرشيد في سنة ١٧٥ هـ إلى ولده محمد الأمين ، ومحمد ابن خمس سنين ، قال اليعقوبي أخرجه إلى القواد فوقف على وسادة ، فحمد الله وصلى على نبيه . فقام عبد الصمد بن علي فقال : أيها الناس لا يغرنكم صغر السن ، فإنها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء . ولقد اضطر الرشيد إلى هذه البيعة لتطاول أعتاق كثير من بني العباس للخلافة ولكن ما عذى من الكلام إلى عبد الصمد بن علي فيه نظر لأنه أشبه بالهزل (١) منه بالجد ، على أن الرشيد أخذ البيعة للمأمون بعد الأمين في سنة ١٨٣ ، وأودع العهد الذي كتبه بينهما في الكعبة ، وقال فيه إن الغادر منهما خارج عن الأمر ، أيهما غدر يصاحبه فاختلاف للمغذور (٢) به . وكان الأمين البادئ بهذا الغدر بنزعه ولاية العهد من أخيه المأمون وتفويضها إلى ابنه الطفل . وكان الرشيد جعل للمأمون خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان والرى وما إليها خمس سنين على أن يكون له جميع ما في جيشه وفي البلاد من العتاد والعدّة ، فكانت هذه المهمات من العوامل النافعة في تغلبه على أخيه ، ولم تصف له الخلافة حتى أهرقت دماء كثيرة ، ولما جرى بين الأمين والمأمون ما جرى ، وقتل الأمين ، وأعطى أهل خراسان الطاعة للمأمون ، وبايعوه بالخلافة خطبهم فقال : أيها الناس ؛ إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفلك دماً عمداً لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثاً

(١) كان اليعقوب والمسمودي وابن عسقلان وحمة الأصفهاني ، على مكانتهم في العلم ، من المؤرخين الذين تجل فيما دونوا مبلغ هواهم مع الظالمين ، فهم مشحرون عن بنية أمية وبني العباس يسجلون لهم الميوب والهنات التي تسقطهم في أبطار أرباب المدارك ، خلافاً للطبري والدينوري وابن قتيبة وابن الأثير وابن عساكر وابن كثير والذهبي وابن خلدون وابن الخطيب والمتريزي وأضرأهم بمن دونوا الوقائع على علاقتها وغلبت عليهم الأمانة والصدق ، إذ لم تكن لهم دعوة خاصة يدعون إليها ، فوجب من أجل هذا أن نأخذ روايات مؤرخي الشيعة باحتياط تام .

(٢) مروج الذهب للمعدي .

ولا نحلة تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضى ، جعلت ذلك كله لله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مشدداً ، فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلاً ، وللتكالم متعرضاً . وكان منه أن وفى بشروطه .

وحاول المأمون أن يريخ الأمة من متاعب الخلافة ، بعد أن رأى عبث أخيه الأمين وعبث المهدي والهادي ، فارتأى أن يوسد ولاية العهد لأحد أبناء على . فرأى وهو فى خراسان قبل أن يعود إلى دار ملكه ، أن يعهد إلى على ابن موسى الرضا ، رجل زمانه من آل البيت علماً وصلاً ، وزوجه ابنته أم حبيب ، وزوج محمد بن على بن موسى ابنته أم الفضل<sup>(١)</sup> ، وضرب اسم ولى عهده على الدينار والدرهم ، وأزال السواد شعار بنى العباس من اللباس والأعلام ، فأكبر آل العباس هذا ، ورأوا فيه مسا بمقوق بيتهم ، وكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ، فبايعوا بالخلافة فى بغداد لعلم المأمون إبراهيم ابن المهدي ، ولما رأى هذا قوة ابن أخيه اختفى مدة ، فعفا المأمون عنه ، وكان المأمون شاور فيه أصحابه فكل أشار بقتله فقال لهم : « إن قتله كنت متبعاً للملوك قبل فيما فعلته بمن ناوأها ونازعها ، وإن عفوت كنت أمة وحدى » كذلك كان أمة وحده . قالوا : وكان المأمون يقصد من جعل حصاة للعلويين فى الخلافة ، والاستعاضة عن سواد بنى العباس بخضرة آل على ، أن يحمل هؤلاء على الظهور لأن القوم كادوا يعدونهم من غير الطينة البشرية . وارتأى أنهم متى ظهوروا من استنارهم للناس رأوهم مثل غيرهم ، وفيهم الفاجر والطاهر فتنتهى المطالبة أو تخف وتحقن الدماء . وأخرى أن المأمون كان يرى فى الخلافة رأى المعتزلة ، وهو أن توسد إلى الأصلح لها فى المسلمين ولو كان من غير قریش ، وبذلك ترجع الأمة مجموعة الشمل ، لا فرقة فى صفوفها ، ولا خلل فى بنيانها ، وتكون الخلافة للأصلح لها ، يعيدها سيرتها الأولى على عهد أبى بكر وعمر ، بعهد من الخليفة للأصلح ، أو شورى يختاره لها جماعة من الأخيار<sup>(٢)</sup> .

(١) تاريخ الطبرى .

وأما قول من قال إن المأمون عهد لعلي بن موسى الرضا لأنه كان يتشيع ، فإن تشيع المأمون هذا كان مقبولا معتدلا ، وهو أقرب إلى الاعتزال ، والمأمون يريد أن ينصب خليفة للمسلمين كافة ، لا للسنة ولا للشيعة ولا للمعتزلة ولا للخوارج .

كانت الخلافة أوائل العهد الأموي قد انقلبت ملكاً عضوضاً ، يقوم على الغلب والعصبية ، ويورث ويتنازل عنه ، فإن جاء في الخلفاء من انطوى على حزم وكياسة ، استقرت أمور الدولة ، وسارت شؤونها على الصراط السوي ، وإلا أصبحت في بحر مائج من الفضائح والفظائع ، ونذر في البيوت تسلسل الفضائل والذكاء في بطون كثيرة مدداً متطاولة ، مهما غنى الأسلاف بتأديب الأخلاق لا بد من حدوث عوارض كالمرض أو الشيخوخة ، تطرأ على البيوت كما تطرأ على الأوطان والإنسان . وهذا في الحملة ما دعا إلى تقلقل الدول الإسلامية بتقلقل القائمين بالأمر فيها ، لأن الأيدي التي تعاورتها كانت تتفاوت قوة وضعفاً .

أراد المأمون أن يغير نهج العباسيين في الخلافة ، وقد رأى آله أخذوا بنظرية الحق الإلهي<sup>(١)</sup> الحكم وصبغوها بصبغة إسلامية . فجعلوا الخلافة ميراثاً عن النبي يتوارثونها ، وساروا على قواعد الفرس في نظام البلاط ، وفي هذا النظام من فتح المجال للدسائس ما فيه ، فقد ذهب المهدي والهادي ضحية مكاييد دبرت لهما في البلاط ، وما أغنى عنهما الاستبداد ، وكان من يحكم في ظل هذا النظام ، إذا كان قوياً يستبد ويظغي ، وإن كان ضعيفاً فهناك الفتن والاضطرابات والدسائس . فقد كان المنصور والمهدي والرشيد والمتوكل جبابرة مستبدين في أحكامهم ، لأنهم على قوة في ذاتهم . أما الضعاف من خلفائهم فكانوا ألعيب في أيدي أهل البلاط ونساء القصر . يصرفونهم على الهوى ، ويرأمون للمذلة ، فيكون اسم الخلافة لهم ، والفعل للنافذين من أهل سلطانهم . ا هـ .

( ١ ) هرون الرشيد لعبد الحميد العبادي ( ملحق جريدة السياسة ) .

وآية كل ذلك أن الخليفة إذا استجمع ما تقتضيه الخلافة من علم وعدل وكفاية ، أراح الأمة والدولة في حياته وبعد مماته ، وإذا كان على عكس ذلك ، ومثله من كثر ظهورهم في القرن الثالث من الخلفاء ، فهناك البلاء والشقاء . وفي أيام المأمون خرج في مكة محمد بن جعفر الصادق وكان يلقب بديباجة لحسن وجهه ، وببيع له بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، فأرسل المأمون إليه جيشاً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه ثم أخرجه معه من بغداد فمات بمرجان ، وفي سنة مائتين ظهر في اليمن إبراهيم بن موسى الكاظم ولم يتم أمره وكان يعرف بالجزار لسفكه<sup>(١)</sup> الدم . وكان داعية لمحمد ابن اسماعيل صاحب أبي السرايا فوجه إليه المأمون جيشاً فهزمه وصار إلى العراق فأمنه المأمون . وخرج بالكوفة في أيام المأمون محمد بن إبراهيم من آل البيت ودعا إليه أبو السرايا ، والمأمون بخراسان ، وأنفذ زيد بن موسى داعية له ثم مات بعد أربعة أشهر من خروجه ، فخرج بعده مع أبي السرايا محمد بن محمد بن زيد العلوي فأخذ بطريق خراسان فقتله أبو السرايا ، وأظهر بعد ذلك موت محمد . ويقال إنه حمل إلى المأمون وهو بمرافات هناك<sup>(٢)</sup> . وفي أيامه خرج زيد بن موسى بالبصرة على المأمون وقتك بأهل البصرة فأرسل إليه المأمون أخاه علي بن موسى الرضا فجاءه وقال له : ويلك يا زيد : فعلت بالمسلمين بالبصرة ما فعلت ، وتزعم أنك ابن فاطمة بنت رسول الله ، والله لأشد الناس عليك رسول الله ، يا زيد ينبغي لمن أخذ برسول الله أن يعطى به . فبلغ كلامه المأمون فبكى وقال : هكذا ينبغي أن يكون أهل بيت رسول الله . وفي سنة سبع ومائتين خرج عبد الله<sup>(٣)</sup> بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك من اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ، فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله في عسكر

( ١ ) اليمن وسكانها الدوائف ( مجلة المقتبس م ٧ ) .

( ٢ ) رأينا اختلافاً في اسم هذا العلوي فثم من يقول إن أبو جعفر إبراهيم بن موسى والطبري يقول عبد الرحمن بن أحمد الخ . ( ٣ ) مقالات الإسلاميين للأشعري .

كثيف وكتب معه بأمانة فقبل ذلك ووضع يده في يد دينار فخرج به إلى المأمون ، فنع المأمون عند ذلك الطالبين من الدخول عليه ، وأمر بأخذهم بلبس السواد . وعلى ما رأى المأمون من تهجم الطالبين على خلافته أوصى أخاه المعتصم أن يحسن صحبة بنى عمه من ولد أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، ويتجاوز عن مسيئتهم ويقبل من محسنهم ، وأن لا يغفل صلاتهم في كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى (١) .

وكان المأمون يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر ، ويوجه رسله فيفرضون لمن يرغب في الديوان وأراد الفريضة لأهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ، ويستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم ، ثم استخلف المعتصم فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من أهل ما وراء النهر ، من السغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الإسلام على من هناك ، وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك . والترك (٢) أجناس مختلفة ولكل جنس مملكة منفردة يحارب بعضهم بعضاً .

ولم يغفل المأمون عن قتال الروم ، غزاهم غير مرة وفتح مدناً من بلادهم ، وفي أيام أبيه جرى الفداء بين الروم والمسلمين حتى لم يبق في أرض الروم من أهل الإسلام أحد . وكأن الروم كانوا عارفين بأن مملكتهم لا تنجو من أيدي المسلمين إلا إذا غزوهم ، كلما استطاعوا إلى غزوهم سبيلاً ، وكذلك المسلمون كانوا موقنين بأن غزو الروم فريضة عليهم ، وإلا جاء الروم ، إذا آنسوا ضعفاً ، يستولون على ما قدروا عليه من البلاد ، فتعادل بهذا التوازن بين الأمتين ، ورجحت كفة المسلمين ، ولا سيما في عهد الرشيد والمأمون والمعتصم (٣) .

(١) تاريخ الطبر . (٢) فتح البلدان للبلاذري .

(٣) كتاب البلدان لليقطين .

وأرسل المأمون وفداً من قبله إلى ملك فرنسا مؤلفاً من رجلين مسلمين وآخر نصراني ، حملوا إلى إمبراطورها من قبل الخليفة العباسي فيها منسوجات فاخرة ، وأفاديه عطرة ، وكانت العلاقات بين العباسيين وملك فرنسا حسنة .

\* \* \*

دب الضعف في الخلافة العباسية بعد المعتصم بفتحه للأتراك باب السيطرة على الأمة ، واعتماده عليهم في تدبير ملكه وإدارة ولاياته ، فكان ناقض الحجر الأول من أساس دولته (١) ، ولم يتجل الانحلال في أيامه كثيراً ، وبعد زمنه أخذ الأتراك يسيطرون على الخلفاء بل يقتلونهم ويسلمون عيونهم ، ويستبدلون بهم غيرهم ، ويعدون عن الخلافة من يصلح لها . فقد بدأوا بقتل المتوكل بن المعتصم ، وأنشأوا يقتلون من شاءوا ويقتلون على من شاءوا . استضعفوا الخلفاء فكان الخليفة (٢) في أيديهم كالأسير . وفي أيام المعتصم خرج محمد بن القاسم من ولد الحسين بن علي بالطالقان من بلاد خراسان

(١) قال إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، دعاني المعتصم يوماً فدخلت عليه فقال : أحبيت أن أضرب ملك بالصوالمية ، فلعبنا بها ساعة ، ثم قزل وأخذ بيدي نمشي ، إلى أن صار إلى حجرة الحمام فقال : خذ ثيابي فأغسلها ، ثم أمرني بنزع ثيابي ففعلت ، ودخلت وليس معي غلام ، فقممت إليه فخدمته ، ودلكته ، ثم يقول المعتصم متى مثل ذلك فاستميت به ، فأق على ثم خرجت غلاماً ومشي وأنا معه حتى صار إلى حمامه فنام ، وأمرني فتمت حذاءه بعد الامتناع . ثم قال لي : إن في قلبي أمراً أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة ، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأنشيت إليك . فقلت : يا أبا عبد المؤمنين فاني عبدك وإبراهيم عبدك . قال : نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة فأنحوا ، واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم . قلت : ومن الذين اصطنعهم المأمون . قال : طاهر بن الحسين : فقد رأيت ونجحت ، وابنه عبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وأنت ما أنت والله الرجل الميت . المصعبى السلطان عنك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأبن مثل محمد ، وأنا اصطنعت « إني قد رأيت ما صار لأبيه أمره ، و « ابنه » قد شل و « إيتاخ » فلا شيء و « وصيف » فلا معنى شيء . فقلت : أجيئ على أمان من غضبك . قال : نعم . قالت ، يا أمير المؤمنين نظار أخوك إلى الإصطعاع فاستعملها فلنجحت ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب ، إذ لا أصول لها . فقال لي إسحاق : إقاساة ما مر بي طول هذه المدة أيسر على من هذا الجواب . اهـ .

وحوى هذا الجواب معاني كثيرة وأهمها أن الخليفة لم يضطع العرب بل اضطنع العجم . فقد كان طاهر بن الحسين وابنه من غزاة وكلاء للمصعبى وآخره كلنا من أصول عربية .

(٢) الفخرى لابن الطلق .

فحاربه عبيد الله بن طاهر وهو على خراسان فانهزم محمد ، ثم قدر عليه . فحمل إلى المعتصم فحبسه معه في قصره ، فاختلف الناس في أمره فمن قائل يقول هرب ، ومن قائل يقول مات ، ومن الزيدية من يزعم أنه حي وأنه<sup>(١)</sup> سيخرج . وفي أيامه خرج محمد من آل البيت فقتله بنو مرة بن عامر ، وظهر بابك الخرمي الجوسي سنة إحدى ومائتين وتبعه خلق كثير واستفحل أمرهم فاستولوا على جبال طبرستان ، ومكث بابك عشرين سنة فقتل في حروبه عشرات الألوف من الخلائق ، وانهزم أمامه الجيش العباسي ، حتى بعث المعتصم أفشيناً فحاربه (٢٢٣ هـ) . وسمى أصحاب بابك الحمرة لأنهم صبغوا ثيابهم بالحمرة في أيامه<sup>(٢)</sup> . وكان العراك شديداً في أيام المتوكل بينه وبين القواد الأتراك ، حتى عزم أن ينقل عاصمة الخلافة إلى دمشق ، ونقل إليها الدواوين بالفعل ، وجاءها بنفسه ثم عدل عن رأيه . وكان شديداً على العلويين : عني قبر الحسين بن علي . وبقدر ما كان من شدة المتوكل في هذا المعنى ، كان الواثق يكرم العلويين ويحبس إليهم ، « وما أحسن أحد إلى آل أبي طالب من خلفاء بني العباس ما أحسن إليهم الواثق ، ما مات وفيهم فقير » ورد أيضاً على بعض بني أمية أموالهم . وكان القادر أيضاً باراً بالطالبيين وبأهله . وفي أيام المتوكل غزا الروم دمياط وقتلوا وسبوا من المسلمين والأقباط فأمر المتوكل بهدم جميع البيع المحدث في الإسلام<sup>(٣)</sup> في مملكته ، وأن لا يستعان بأحد من أهل الذمة في شيء من عمل السلطان ، ومنع<sup>(٤)</sup> النصاري من العمار ، وأفردهم بلباس خاص ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

عقد الواثق لبنيه الثلاثة وقسم الدنيا بينهم وكتب بذلك كتاباً على نحو ما أجرى جده الرشيد مع أولاده ، فأعطى ابنه الأكبر المنتصر من عريش مصر إلى أفريقية المغرب كله حيث بلغ سلطانه ، وأضاف إليه جند قنسرين

( ١ ) مقالات الإسلاميين للأشعري . ( ٢ ) تلبيس إبليس لابن الجوزي .

( ٣ ) تاريخ بغداد لابن الخطيب . ( ٤ ) مروج الذهب للمسعودي .

والعواصم والشعور الشامية والجزرية وديار بكر وربيعة والموصل والفرات وهيت وعانة والخابور ودجلة والحرمين واليمن واليمامة وحضرموت والبحرين والسند وكرمان وكور الأهواز وماسبذان ومهرجان وشهرزور وقم وقاشان وقزوين والجبال ، وأعطى ابنه المعتز خراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله وأعطى ابنه المؤيد إرمينية وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين وهذا التقسيم في المملكة لم يقع لأحد ، ولم يخرج الملك مع هذا عن القواعد التي وضعها القدامى من الخلفاء .

· وخلع المعتز والمؤيد أنفسهما ، وأظهر المنتصر خلعهما ( ٢٤٨ هـ ) وفي أيام المستعين خرج بطبرستان الحسن بن زيد من آل علي بن أبي طالب فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة ، ثم خلف من بعده محمد بن زيد أخوه ، ثم قتل بعد حرب كانت بينه وبين محمد بن هرون ، وخرج بقزوين الكوكبي ، وهو من ولد الأرقط واسمه الحسن بن أحمد من ولد الحسين بن علي فغلب عليها ، ثم هزمه بعض الأتراك . وخرج بالكوفة أيام المستعين يحيى بن عمر فقتل . وخرج في أيامه أيضاً الحسين بن محمد من ولد الحسين ابن علي فظفر به وأخذ وحبس إلى أن أطلقه المعتمد . وخرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين بن الأفطس وكان داعية لمحمد بن إبراهيم بالمدينة فلما مات هذا دعا إلى نفسه . وفي سنة خمسين ومائتين خرج بسواد المدينة إسماعيل ابن يوسف من ولد الحسين بن علي فغلب عليها وتوفي بعد سنتين وخلفه أخوه بعده محمد بن يوسف ، وما زال علي أمره إلى أن خرج أبو الساج إلى مكة والمدينة فقتل خلعاً كثيراً من أصحابه وهرب محمد فمات في هربه (١) وخلع المستعين ( ٢٥١ هـ ) نفسه وبايع للمعتز .

وخاف الوزيران الحسن (٢) بن القرات والعباس بن الحسن أن يتولى الخلافة عبد الله بن المعتز وهو أكفأ الرجال لمنصبه وبايعا لصبي ، فأدخل

( ١ ) مقالات الإسلاميين للأشعري .

( ٢ ) لما سأل العباس بن الحسن من وزراء العباسيين الوزير الحسن بن القرات فيمن يصلح للخلافة ، وقد مات المكتفي بالله والناس يميلون إلى بيعة عبد الله بن المعتز قال له : وأي شيء فعمل برجل فاضل ، متأدب ، قد تحنك وتدريب ، وعرف الأعمال ومعادلات السواد ، ومواقع =

سوس الفساد في الدولة . بايعا للمقتدر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ولم يل أمر الأمة صبي قبله ، وضعف دست الخلافة في أيامه ، وأصبحت والددة المقتدر تأمر وتنهى ، وترسل قهرماناتها تنظر في القصص والمظالم بحضرة القضاة ، ورزق المقتدر ولداً صغيراً فولاه على إمرة الديار المصرية وله أربع سنين ، فأصبحت الخلافة خلافة نسوان وصبيان ، كل هذا بفعل وزيرين خافا زوال نعمتهما ، إذا جاء الكفو إلى الخلافة يتولاها ، فقضيا على نعمة الأمة بتولية الأطفال خلافة المسلمين وإمرة بلادهم ، كان ابن الفرات يريد الخليفة ممن لا يعرف أسعار الخبز واللحم حتى يأمن الوزراء على نفوسهم ، وما جمعه من أموال الناس والدولة . يريد خليفة يقضى أوقاته في شهواته وصيوده ونزهاته

== الرعية في الأموال ، وخبر المكاييل والأوزان وأسعار المأكولات والمستعمرات ، ومجارى الأمور والمتصرفات ، وحاسب وكلاءه على ما تولوه ، وضايقهم وناقشهم وعرف من خياناتهم وإفطاعاتهم أسباب الخيانة والاقتطاع التي يدخل فيها غيرهم ، فكيف يتم لنا معه أمر ، إن حل كبيراً على صغير ، وقاس جليلاً على دقيق ، هذا لو كان ما بيننا وبينه عامراً ، وكان صدره علينا من النية خالياً ، فكيف وأنت تعرف رأيه . قال العباس : وأى شيء في نفسه علينا . قال : أدسيت أنه منذ ثلاثين سنة يكتاتيك في حوائجه فلا تقضيها ، ويسألك في معاملاته فلا تمضيها وعمالك يصفعون وكلامه فلا تنكر ، ويتوسل إلى الوصول إليك ليلا فلا تأذن ، وكم رقعة جاءتك بنظم ونثر فلم تعبأ بها ، ولا أجبتك إلى مراده فيها ، وكم جاءني منه ما هذه سبيله ، فلم أزع فيه وصولاً إلى ما يريد إيصاله إلى . وهل كان له شغل مدة مقامه في منزله وخلوته بنفسه ، إلا معرفة أحوالنا ، والمسألة عن ضياعنا وارتفاعنا ، وحسدنا على نعمتنا ، هذا وهو يعتقد أن الأمر كان له ولأبيه وجده ، وأذه مظلوم مهضوم مضبوط منه قتل أبوه ، فكيف يجوز أن نسلم إليه نفوسنا فنحترس فضلاً عن أموالنا . فقال العباس : صدقت والله يا أبا الحسن ، فن يقلد وليس ههنا أحد . قال : ثقلد جمع من المعتصم ، فإنه صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن ينصرف من المكتب ، فكيف أن يجعل خليفة ، ويملك الأعمال والأموال ، وتدير النواحي والرجال ، ويكون خليفة بالاسم وأنت هو على الحقيقة ، وإلى أن يكبر تكون قد انغرست محبتك في صدره ، وحصلت محصل المعتصم في نفسه . قال : فكيف يجوز أن يبايع الناس صديقاً أو يقيموه إماماً . فقال له : أما الجواز فتى اعتقدت أنت أو نحن إمامة البالغين من هؤلاء القوم (يعنى بؤ العباس) ، وأما إجابة الناس فتى فعل السلطان شيئاً فعورض فيه ، أو أراد أمراً فوقف . وأكثر من ترى من صنائع المعتصم ، وإذا أظهرت أنك اعتمدت في ذلك مراعاة حقه ، وإقرار الأمر في ولده ، وفرقت المال وأطلقت البيعة ، وقع الرضا وسقط الخلاف وطريق ما تريده أن توافق بعض أكابر القواد وعقلاء الخدم على المضي إلى دار ابن طاهر وخله إلى دار الخلافة . وأن تستر الأمر إلى أن يتم التدبير ، وإن اعتاص معتاص مذ بالمطاء والإحسان . فقال العباس : هذا هو الرأي (تاريخ الوزراء للصابي) .

مسجوناً في السجن المزوق وهو قصر الخلافة ، والوزير يملئ إرادته على نحو ما قال الشاعر في أحد هؤلاء الخلفاء :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا  
يقول ما قالاً له كما تقول البيغا

حاولوا إبعاد مثل ابن المعتز عن الخلافة ، لأنه لا يطلق أيدي الأتجار الاغرار في مطالبهم الناس ، ويعرف الدقيق والخليل من أحوالهم . ولا عجب بعد هذا أن تكثر الفتوق في الدولة ، ويقتل مثل صاحب الزنج الذي استولى على قسم من العراق خمس عشرة سنة ، ألف ألف وخمسمائة ألف رجل ، وقيل إنه قتل في يوم واحد بالبصرة ثلثمائة ألف ، وكان له منبر يسب عليه عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة ، وهذا رأى الخوارج الأزارقة . ويروى الطبري أن صاحب الزنج كان علوياً واسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم . سمي بصاحب الزنج لأنه جمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ بالبصرة سنة سبع وخمسين وقتل سنة سبعين ومائتين قتله أبو أحمد الموفق بالله بن المتوكل على الله . وعلى ذلك تكون دعوى أنه من الخوارج فيها نظر . وخرج بأرض الشام من آل البيت المقتول على الدكة ، فظفر به المكتفى بعد حروب ووقائع كانت . وفي رواية أن الذي ظهر في أعمال دمشق سنة ثلثمائة هو ابن الرضى محسن بن جعفر بن محمد علي بن موسى بن جعفر بن محمد فكانت له مع أحمد بن كيلغ عامل الشام وقعة قتل فيها صبراً . وقام القرامطة فاستولوا أيضاً على أقسام من العراق والشام والحجاز وعلى البحرين وهجر وأواخر المئة الثالثة . استولوا عليها وقتلوا عشرات الألوف من الناس وكان لصاحبهم اتصال بالفاطمي صاحب مصر وكان صاحبهم يكتب إلى عماله : « من عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بدين الله الحاكم بحكم الله ، الذاب عن حرم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين وإمام المسلمين » ودعوته من الدعوات الباطنية المستترة بالانتساب إلى آل البيت

تالعلوى . وقالوا إن القرامطة من الرافضة يزعمون أن النبي نصّ على عليّ بن أبي طالب وأن علياً نصّ على إمامة ابنه الحسن وأن هذا نصّ على إمامة أخيه الحسين وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض . وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به .

وأصبحت الخلافة في هذا الدور ولا شأن فيها لأذكىاء الوزراء في الدولة إلا أن يجمعوا الأموال ، وأمست الدولة دولة الأتراك والديالة والخصيان والنسوان ، وما كان للخليفة إلا إرضاء الأمراء وأرباب الصولة . روى صاحب تاريخ بغداد<sup>(١)</sup> أن جماعة (٥٢٩٦ هـ) من الكتاب والقوادسعى بعضهم إلى بعض عازمين على خلع المقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز فناظروه في ذلك فأجابهم على أن لا يسفك دم ولا تكون حرب فأخبروه أن الأمر لا يسلم عفواً ، وأن جميع من وراءهم قد رضوا به فبايعوه بالخلافة . وكان أحد رجال الدولة ممن يختلف إلى دار أبي جعفر الطبري المؤرخ ، دخل عليه فسأله ما الخبر وكيف تركت الناس ، أو نحو هذا من القول فقال له : قد بويع عبد الله ابن المعتز . قال : فمن رشح للوزارة . قال : محمد بن داود بن الجراح . قال فمن ذكر للقضاء . فقال : الحسن بن المشي . قال فأطرق الطبري ، قليلاً ثم قال : هذا الأمر لا يتم ولا ينتظم . قال : فقلت له وكيف . فقال : كل واحد من هؤلاء الذين سميت متقدم في معناه ، عالي الرتبة في أبناء جنسه ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال وانتقاص ، ولا يكون لمدته طول . فكان الأمر كما قال : ولم يل ابن المعتز الخلافة إلا يوماً ، وقتل من الغد بقوة أشياع الخليفة قبله .

واستولى بنو بويه على بغداد ، وروى<sup>(٢)</sup> أن الوزير ابن مقلة قال : إنني أزلت دولة بني العباس وأسلمتها إلى الديلم لأنني كاتبت الديلم وقت إنفاذي

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب ، (٢) السلوك للمعريزي .

إلى أصبهان ، وأطمعتهم في سرير الملك ببغداد ، فإن اجتنبت ثمرة ذلك في حياتي ، وإلا فبهى تجتنى بعد موتى . فكان كما قال .

وأمر الطائع ( ٣٦٩ هـ ) خلفاءه على الصلاة في جوامع مدينة دار السلام ، بأن يقيموا لعضد الدولة بن بويه الدعوة تالية لإقامتها له على منابرهما ، ونفذت به الكتب إليهم ، ورسم أن يضرب على بابيه بالدبادب في أوقات الصلوات ، قال ابن مسكويه<sup>(١)</sup> وهذان الأمران من الأمور التي بلغها عضد الدولة ، واختص بها دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها . والخلفاء في هذا الدور يلقون إلى المتغلبين عليهم بمقاليد السلطة إلا ما لا بال له<sup>(٢)</sup> ، ويخضع الخليفة على الملك الخلع السبع والعمامة السوداء ويسود بطوق . وكان أبدأً يخطب للملك أو الأمير المتغلب مقروناً إلى اسم الخليفة .

\* \* \*

والحاصل أن الخلافة انتقلت منذ أواخر القرن الثالث من دور الحكم ، إلى طور أصبحت فيه محكومة ، كانت لها القوة ، فأصبحت لا حول لها ولا قوة ، وكثر في هذا القرن خروج الروم إلى بلاد الإسلام ، فغدوا يبلغون آمد ونصيبين وأنطاكية وحلب ، وكان العباسيون ، في القرن الذي قبله يفتشون من بلادهم أنقرة وغمورية وهرقلية . وكان بعض خلفائهم شعروا في هذه الحقبة بأن الخلافة مهددة بالزوال إذا لم يتولها الأطايب من أبناء هذا البيت ، فخلع المعتمد ابنه جعفر المفوض من ولاية العهد وجعل المعتضد ابن أخيه ولي العهد من بعده ، وهذا عمل مجيد يغبط عليه فاعله مهما كانت الدواعي إليه ، فالمعتضد ثبت قواعد الخلافة العباسية بعقله وكفايته ، وكان « المعتمد مستضعفاً »<sup>(٣)</sup> . وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره ، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع كان هو وأخوه الموفق كالشركتين

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه .

(٢) تاريخ ابن الأثير .

في الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأنه كلمة الأمر والنهي وقود العساكر ، ومحاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء . وفي أيام المعتمد قطع ابن طولون المتولى على مصر خطبة الموفق ، وأسقط اسمه من الطراز ؛ فأمر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر . وقيل إن ابن طولون ادعى الخلافة لنفسه بمصر وبايعته الجند والموالى وسائر الناس ، على أن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه ، ويحاربوا من حاربه من الناس جميعاً ، وقيل إنه أمر بكتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد فقط .

قلنا إن المعتضد ثبت أركان الخلافة ، وكانت تريد أن تنفض جملة . وهو الذى رد مصر إلى حظيرة الخلافة بعد أن كاد يذهب بها أحمد بن طولون وأولاده ، وكتب إلى ابنه خمارويه بولايته عليها هو وولده ثلاثين سنة ، وذلك من الفرات إلى برقة ، وجعل إليه الصلاة والحراج والقضاء وجميع الأعمال ، على أن يحمل فى كل عام من المال (١) مائتى ألف دينار مما مضى ، وثلثمائة ألف عن كل عام للمستقبل . ولعل ما ساقه أيضاً إلى هذا التسامح بقطعة عظيمة من الملك العباسى ، ما تناصرت الأخبار عليه من أن الدولة العبيدية الفاطمية ظهرت أعلامها فى المغرب ؛ فأحب أن يضع الطولونيين بينه وبينها . وطلب المعتضد إلى ابن طولون أن يزوجه ابنة ابنه خمارويه وقال : ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار ابن طولون لأنه يضطر أن يجهزها بجهز لم تجهز به عروس من قبل ، وجرى الأمر كما قال ، فلما جهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام . وكثر هذا الضرب من الزواج السياسى فى القرنين الثالين بين أمراء المسلمين وبما أتاها المعتضد من الأعمال لحفظ كيان الدولة صح ما قيل (٢) بعض الصحة من أن بنى العباس قوم منصورون ، تعتل دولتهم مرة وتصح مراراً ، لأن أصلها ثابت وبنائها راسخ .

وانحل (٣) فى الربع الأول من القرن الخامس أمر الخلافة والسلطنة فى

( ١ ) الولاة والقضاة للكندى . ( ٢ ) تجارب الأمم لابن مسكويه .

( ٣ ) تاريخ ابن الأثير .

بغداد ، حتى خرج بعض الجند ونهب شيئاً من ثمرة (١) قراح الخليفة القائم بأمر الله فعظم عليه ؛ واشتد أذى العيارين ، واختل الأمن في كل جهة ، فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه ، وإلى الشهود بترك الشهادة ، وإلى الفقهاء بترك الفتوى. وفي أيام القائم انتهى البساسيري للناثر إلى المستنصر الفاطمي صاحب مصر ، فأمدّه بالأموال حتى أخذ بغداد ، وقطع منها دعوة بني العباس وخطب للمستنصر بها نحو سنة والقائم محبوس ، ثم قدم طغرلبيك السلجوقي وأعاد القائم إلى الخلافة وقتل البساسيري.

وفي أيام الرازي زادت وطأة الأتراك على الخلافة وقال الخليفة يوماً : وكأني بالناس يقولون كيف رضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي (بجكم) حتى يتحكم في المال وينفرد بالتدبير ، ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد مثلي ، وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي ، فسلمت إلى ساجية وحجرية ينسحبون علي ويجلسون في اليوم مرات ، ويقصدونني ليلاً ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ؛ وأن يكون له بيت مال . وكنت أتوقى الدماء في ترك الحبل عليهم إلى أن كفاني الله أمرهم ؛ ثم دبر الأمر ابن رائق فدبره أشد تسجّباً في باب المال منهم ، وانفرد بشربه وهواه . قال ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية بل على أسباني ، وأمر فيه بأمر فلا يمثّل ولا ينفذ ولا يستعمل . إلى أن قال : فرضيت ضرورة به ، وكان أوفق لي وأحب إلي من قبله . وكان الأجود أن يكون الأمر كله لي ، كما كان لمن مضى قبلي ؛ ولكن لم يجر القضاء بهذا لي . اهـ . وهذا كلام الرجل الضعيف النفس والعزيمة والسياسة . وفي أيامه ( ٣٢٦ هـ ) جاء كتاب الروم من رومانس وقسطنطين من عطاء ملوك الروم يطلبون الصلح قالوا فيه . لما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء حمدنا الله ، ثم طلبوا الهدنة والفداء (٣)

(١) القراح بالفتح ؛ المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر والجمع أفرحة .

(٢) تجارب الامم لابن مسكويه .

وفي سنة ٣٣٢ هـ خرج عسكر الروس إلى أذربيجان وقصدوا بردعة وملكوها ، وفي أيام الرازي وثب في كل قطر من الأقطار قائم أو أمير تغلب على إقليمه ، وانطلق في أحكامه يفعل ما يشاء ، كأنه المالك الحقيقي للقطر أو الأقطار التي أصبح له السلطان الأعظم عليها ، والخطبة لبني العباس ما عدا الغرب وإفريقية والأندلس ، وفارس في يد علي بن بويه ، والري وأصفهان في يد أخيه الحسن بن بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة في أيدي بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طنج ثم في أيدي الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية في يد بني سامان .

وكان من العادة في أيام تراجع الخلافة واستيلاء المتغلبين على بعض أقطارها أن يكتفى بعض الخلفاء بلعن من خالف عليهم ، يأمرؤن بلعنه على المنابر حتى يكل اللاعنون ويملؤا ، والخارج يقوى ويستعلى ، وربما قابلهم هو بالمثل ، فيكون اللعن شفاء لصدر المقهور ، وتقاصر (٢) اسم الخلافة في هذه الأزمان ، وقنع الخلفاء من خلافتهم بالدعاء على المنابر ، وضرب اسمهم على الدنانير والدرهم ، فكان المتق والمستكني والمطيع (٣) كالمولي عليهم لا أمر ينفذ لهم . أما ما نأى عنهم من البلدان فتغاب على أكثرها المتغلبون واستظهروا بكثرة الرجال والأموال ، واقتصروا على مكائبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم . وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين ، قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة ، وازداد في أيام المطيع أمر الخلافة إداراً ، حتى لم يبق له من الأمر شيء قل أو جل ، ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه إياه معز الدولة بن بويه مما يقوم ببعض حاجته .

بعث بختيار (٣٦١ هـ) على مطالبة المطيع بما يوهمه (٥) أنه يحتاج إلى إخراجه في طريق الغزو فأجابه المطيع : إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي ،

(١) صح الأعشى للقنقشندي .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودي .

(٣) تجارب الأمم لابن مسكويه .

والى تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لى منها إلا القوات القاصر  
عن كفايتى ، وهى فى أيديكم وأيذى أصحاب الأطراف فما يلزمنى غزو  
ولا حج ، ولا شىء مما تنظر الأئمة فيه ، وإنما لكم منى هذا الاسم الذى  
يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتهم أن أعزّل اعتزلت  
من هذا المقدار أيضاً ، وتركتكم والأمر كله .

وكانت هذه الطبقة من الخلفاء منحطة لا تصلح للخلافة ولا لشىء .  
غيرها من مهام الملك . قال ابن البهلول : كنا إذا كلمنا المستكنى وجدنا  
كلامه كلام العيازين . وكان الغالب على دولته امرأة يقال لها علم الشيرازية ،  
وكانت قهرمانة داره ، وهى التى سعت فى خلافته عند « توزون » حتى  
تمت . فعوتب على إطلاق يدها وتحكمها فى الدولة فقال : خفضوا عليكم ،  
فإنما وجدتها فى الشدة ووجدتكم فى الرخاء ، وهذه الدنيا التى بيدي هى  
التي سعت لى فيها حتى حصلت ، أفأجل عليها بيعضها ؟

ولم يغن<sup>(١)</sup> عن المقتدر ما بذل من المال للجند لما شغبوا حتى ضربوه  
بالسيف ، وذلك بسبب جرأة الأعداء وطمعهم فيما لم تكن أنفسهم تحدّثهم به  
من الغلبة على الحضرة ، وانخرقت الهيبة ، وضعف أمر الخلافة وتفاقم .

( ١ ) يقول الشمرانى إن الأمين بن الرشيد قتل صبراً وقطعوا رأسه ، ومات المتوكل  
مقتولاً ، وقتلوا المستعين بالله وقطعوا رأسه بعد أن خلعوه وحبسوه ، وقتلوا المعتز بالله فى  
الحمام غطسوه فى الماء الحميم حتى مات بعد أن ضربوه على رأسه ووجهه بالدبابيس وأوقفوه فى  
الشمس أياماً وقتلوا المهتدى لأنه منع حاشيته من المظالم ، وقتلوا ابن المعتز بعد أن حبسوه أياماً  
وخنقوه وقاسى من الأهوال ما لا يعبر عنه . وقتلوا المقتدر بالله بمواطأة وزيره فضرّبوه على  
رأسه بسيف وشالوا رأسه على رمح وسلّبو ما عليه من الثياب . وقتلوا القادر بالله فكحوا عينيه  
بمرود من نار . فلم يزل كذلك إلى أن مات ، وسملوا عيني المتق بالله وأحلوه الحبس فلم يزل  
كذلك إلى أن مات فى الحبس بعد أربع وعشرين سنة . ودمجوا على الخليفة المستكنى بالله وهو  
على سرير فجروه على الأرض برجله ثم سملوا عينيه حتى مات ، فعل ذلك به الدليم . وقتلوا  
الخليفة المسترشد بالله دخل عليه سبعة عشر رجلاً من الباطنية فضرّبوه بالسكاكين حتى مزقوا جسده  
وقطعوا أنفه وأذنيه ثم أحرقوه . وقتلوا الراشد بالله بعد أن عاقبوه فى الحبس إلى أن مات وولده  
وقتلوا المستنصر بالله آخر خلفاء بغداد بموالة وزيره ووضعه وولده فى تليس وصاروا  
يرفسونهما إلى أن ماتا . اهـ .

قال الطبرى<sup>(١)</sup> : و حار الناس في أمر دولة المقتدر وطول أيامها على يوهى أصلها وضعف ابتنائها ، ولم ير الناس ولم يسمعوا بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته ، وكان جيد العقل صحيح الرأي ، ولكنه كان مؤثراً للشهوات : قال التنوخى<sup>(٢)</sup> : « ولقد سمعت أبا الحسن على بن عيسى الوزير يقول ، وقد جرى ذكر المقتدر بحضرته في خلوة : ما هو إلا أن يترك هذا الرجل النبيذ خمسة أيام متتابعة حتى يصبح ذهنه ، فأخاطب منه رجلاً ما خاطبت أفضل منه ، ولا أبصر بالرأى ، وأعرف بالأمور ، وأسد في التدبير ، ولو قلت إنه إذا ترك النبيذ هذه المدة يكون في أصالة الرأي ، وصحة العقل ، كالمعتضد والمأمون ، ومن أشبههما من الخلفاء ، ما حسبت أن أقع بعيداً ، وما يفسده غير متابعة الشرب ولا يخبئه سواها » .

وفي أيام القادر<sup>(٣)</sup> عاد إلى الدولة العباسية وقارها ونما رونقها وأخذت أمورها في القوة وكان من أفضل خلفائهم . قال ابن الأثير : إن خلافته إحدى وأربعون سنة وقد جدد ناموس الخلافة ومن قبل كان طمع فيها الديلم والترك ، وأطاعه الناس أحسن إطاعة ، لأنه كان على صفات حسنة من الخير ، وراح المقتدى وجاء المستظهر ثم المسترشد وهو المتمم للثلاثين من خلفاء بني العباس . والمسترشد والراشد أخوان ، كما كان السفاح والمنصور أخوين ، والهادي والرشيد أخوين ، والواثق والمتوكل أخوين . أما الثلاثة الأخوة الأمين والمأمون والمعتصم إخوة أولاد الرشيد ، والمكتفي والمقتدى والقاهر إخوة أولاد المعتضد ، والراضى والمتقى والمطيع إخوة أولاد المقتدر . ويقول أرباب السير إن المكتفي ( ٥٥٠ هـ ) كان حسن السيرة وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه وأن حرمة كانت وافرة ، بخلاف الخلفاء قبله<sup>(٤)</sup> وأظهر الظاهر ( ٦٢٣ هـ ) من العدل والإحسان ما أحياه سنة العمرين<sup>(٥)</sup> . ومع هؤلاء الباقين من الخلفاء أصبحت الخلافة العباسية أوائل القرن السابع شعباً

( ١ ) تاريخ الطبرى .

( ٢ ) نضوان المحاضرة للتنوخى .

( ٣ ) الفخرى لابن الطقطقى .

( ٤ ) دول الإسلام للدهبى .

( ٥ ) تاريخ ابن الأثير .

من الأشباح ، وكان الضعف سرى إليها منذ انتقل الملك والدولة في آخر<sup>(١)</sup> أيام المتقي وأول أيام المستكنى إلى بنى بويه الديلم . ولما عزل المستكنى وبويع للمطيع ودخل معز الدولة إلى بغداد خلقت ديباجة الخلافة وكادوا يبايعون العلويين . قال المقرئى فلم يبق في يد بنى العباس من الخلافة إلا اسمها فقط . من غير تصرف في ملك ، بحيث صار الخليفة منهم في مدة الدولة البويهية ثم في الدولة السلجوقية إنما هو كأنه رئيس الإسلام ، لا أنه ملك ولا حاكم ، تحكم فيه الديلم ثم السلجوقية كتحكم المالك في مملوكه . وما زالوا تحت الحكم منذ سنة ٣٣٤ هـ إلى أن قتلوا عن آخرهم ، وسبى حريمهم ، وهدمت قصورهم ، وهلكت رعاياهم على يد هولاء ، وكانوا هم السبب في ذلك . قال والعوامل في انقضاء الدولة العباسية التي دامت نيافاً على خمسمائة وعشرين سنة أنها صارت إليهم بعد ما ضعف أمر الدين وتخلخلت أركانه ، وتداول الناس أمر الأمة بالغلبة ، فأخذ حينئذ بنو العباس بأيدي العجم أهل خراسان ، ونالوها بالقوة ، ومناهضة الدول ، ومساورة الملوك ، حتى أزالوا بعجم خراسان دولة بنى أمية . وتناولوا العز كيف كان ، فها وصل أمر الأمة إلى أهل العدالة والطهارة ، ولا وليهم ذوو الزهادة والعبادة ، ولا ساسهم أهل الورع والأمانة ، بل استحالت الخلافة كسروية وقيصرية . ١ هـ . وقال أيضاً في دولة<sup>(٢)</sup> بنى العباس إن فيها افتقرت كلمة الإسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأدخل الأتراك فيه ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، وصارت لهم دول عظيمة جداً ، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام ، وصار بكل قطر قائم ، يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر .

ولقد تجلى التفريط والإفراط في العهد العباسي الأخير والأوسط ، وما كانت تأثيرات النكبات ظاهرة كل الظهور ، لمكان القوة في جسم الأمة ، وكان كلما ضعف سلطان الخلافة ضعفت الأمة على نسبتها . وربما كان من

(١) التنازع والتخاصم للمقرئى . (٢) السلوك للمقرئى .

العوامل في ضعف سلطان العباسيين اتساع رقعة مملكتهم وتراعى أطرافها ، فصعب معه القضاء على دعوة كل من ينزع في القاصية إلى الاستقلال بجيشهم . من الخراسانيين ثم من غيرهم من العناصر غير العربية ، ولأن من الخلفاء من ربما أعطوا الألو ف لمن يجب ولمن لا يجب وضمنوا بالمئات على الجنود والقواد ، ومنهم من شغل بشهواته ورفاهيته ، وبلغ في ذلك مبلغاً عظيماً ، وخرجوا جملة عن هوى الراشدين وخالفوا سيرة أعظم الأمويين والعباسيين ، وراحوا يتمتعون بالفتوح التي تمت لبني أمية في الخافقين ، ووضع هؤلاء أساسها فما بنى أخلافهم كما بنوا ، ولا احتفظوا بهذا التراث العظيم الاحتفاظ الواجب . ولئن نقموا من الأمويين تغاليهم في رد الطالبين وآل العباس عن الأمر ، فما كان العباسيون أرفق بالطالبين والأمويين والحوارج وكل من نازعهم السلطة يوم كان الأمر أمرهم .

ولما كثر الأعاجم في دولتهم ، وهجم عليهم الروح الفارسي من كل جانب أضعفوا بأيديهم عصبيتهم العربية ، وجعلوا من الفرس والترك عصبية محدثة لهم ، صار اسم العرب في أكثر أيام هذه الدولة كأنه تاريخ أمة بائدة ، يقرأ للتسلية والاطلاع ، لا للقدوة والاتباع ، ولو لم تكن العربية لسان الدولة لما قال القائل في وصف الدولة العباسية ، إلا أنها دولة الفرس دخلها تعديل بالإسلام . على أن الدولة يتعذر عليها أن تسير على غير هذه الطريقة ما دام الجيش وهو أول عامل في قيام الدولة من الأعاجم ، وما دام سلطان الدولة يمتد على مملكة تسعة أعشارها من غير العرب .

ولولا أن نبغ في صدر هذه الدولة بضعة خلفاء عظماء ، كالمصور والرشيد والمأمون من بين سبعة وثلاثين خليفة ، لصح أن يقال إن الدولة العباسية الفارسية كانت دون الدولة الأموية العربية بمراحل ، وأي ضعف أعظم من أن يقتل الخليفة بأيدي المتغلبين ، أو يبقى آلة في أيديهم وهو ساكت لا يتحرك ، راض بما قسم له من حظ ، خصوصاً لما انتقل الملك إلى آل بويه<sup>(١)</sup> . وأصبح

ما كان بقي في أيدي العباسيين أمراً دينياً اعتقادياً لا ملكاً دنيائياً ، فكان القائم بالدولة منذ فجر القرن الرابع إنما هو رئيس الإسلام لا ملك يستجمع صفات الملك والخلافة . وإذا دون المؤرخون شيئاً من أخبار القوة فهو صادر عن ملوك الطوائف الذين اتخذوا شعار العباسيين اسماً وعملوا تحته كالبويعيين والسلجوقيين والسامانيين والغزنويين والطورلانيين والإخشيديين والحمدانيين والأغالبة . وهذا مما لم يعهد مثله في دولة بنى أمية في دمشق وقرطبة ، هؤلاء كان فيهم شمم العرب وعز الملك والسلطان ، والتشبع بروح الدين ، وكان لخلفائهم صبغة خاصة يهتمون بملكهم قبل كل شيء .

أفسد العباسيون دمهم العربي بما أدخلوه عليه من الدم الغريب ، وأفسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم ، والاستئانة إلى غيره لقيام دولتهم ، فغدا الدخيل بعد حين أصلاً ، وسقطت الأصول وقامت بدلها الفروع ، وآص المصطنع سيداً مسوداً ، ورجع العظيم يتعث في أذيال الذل . أصبح العباسيون إلا قليلاً خلاسين وهجاء لا بالعرب ولا بالعجم ، وتركهم الشعوب للتبرك بهم لشرفهم . ولا تزيد مكانتهم عن بلاط السلاطين الذين انتزعوا أقطاراً من الأرض العباسية وحكموها بالجزرية حكماً دينياً ومدنياً . ومن أهم العوامل في ضعف بنى العباس عدم العناية بتربية أولياء العهد تربية حرة عملية ، وكان من عادة أكثر الخلفاء أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم ، وبذلك جرت سنتهم إلى آخر أيام المستنصر . فلما ولى المستعصم آخر خلفائهم ببغداد أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم ، وبجس أولاد الخلفاء ضعفت ملكاتهم وربما انصرف أكثرهم في دور احتباسهم إلى اللهو والشهوات ، فإذا جاءوا يتربعون في دست الخلافة عاجزون عن سياستها ، لأنهم عاجزون عن سياسة أنفسهم . ولقد كان الرسم في عهد الخلفاء الأول من آل العباس أن يراقب الوالد ابنه والإبن أباه والأخ أخاه على طريقة مكتومة عن الأنظار ، وتوسد إلى أبناء الخلفاء وإخوتهم قيادة الجيوش وإدارة الولايات يشتركون في السلطان وتؤخذ آراؤهم في النوازل ، ويدخلون في مجالس المشورة ، فيكون لهم بذلك

شئ من الوقوف يدركون به أنهم شركاء في الملك ، وعليهم أن يستعدوا لتولى زمامه . وبحجب أبناء الخلفاء في عصر الانحطاط أمسى بعضهم كالمغفلين لعدم اختلاطهم بأحد ، يدرسون سياسة الملك في الكتب ، وربما لا يرخص لهم أن ينظروا في كل الكتب ، ويهيئهم المؤدبون تهيئة نظرية ، ولا يعلمون شيئاً كثيراً يصح أن يكون مادة لحياتهم وحياة الخلافة ، إذ أتت نوبتهم لتولى هذا المنصب الجليل .

ثم قد يترفع الخليفة عن المجتمع حتى يجهل حقيقة أحوال الناس ، وما يدور في بلاده من المسائل المهمة ، اللهم إلا ما يكتب به إليه أصحاب الأخبار ، وعد من مزايا الظاهر ( ٦٢٢ هـ ) ، ولم يل الخلافة العباسية أتق منه بعد عمر ابن عبدالعزيز الأموي ، أنه ظهر للناس وكان الخلفاء قبله لا يظهرون إلا نادراً (١) ولم ينظر في الرقاع التي تكتب إلى الخليفة في العادة في موضوع أخبار الناس ، إلا أن أيامه لم تطل ، ولم يدم الملك العباسي بعده كثيراً .

وأهم مسألة في انهيار بنيان الدولة هذا الجيش الغريب . فقد كان الجيش لأول أمره من أبناء خراسان ، واشترى المنصور المالك واستخدمهم وتابعه من خلفوه ، وما جاء المعتصم حتى وضع من العرب (٢) وأخرجهم من الديوان ، وأسقط أسماءهم ، ومنعهم العطاء من العاصمة والولايات ، وأصبح جند (٣) الخلافة على عهده خمسة أقسام الخراساني والتركي والمولى والعربي والبنوي (٤) . وهذه الجيوش التي سلبت قرار الحضرة أي العاصمة ، كانت تثور في أيام العظماء من ملوكهم وتتطلب عطاء السنة والسنتين ، ولها هيجة كلما راح خليفة وجاء خليفة ، إذا لم يكن المال مهيباً لإرضائهم ولوا وجوههم عنه ، ويا ويل من يولى الجيش عنه وجهه .

( ١ ) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعي . ( ٢ ) خطط المقرئ .

( ٣ ) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للباحظ .

( ٤ ) الأبناء قوم من المعجم سكنوا اليمن والنسبة إليهم أبناوى وبنوى .

ولقد أنكر الجند<sup>(١)</sup> والقواد على المقتدر استيلاء النساء والخدم على الأمور وكثرة ما أخذوا من الأموال والضياع ، فقتلوه فأنخرقت الهيبة ، وضعف أمر الخلافة منذ ذلك العهد ، وطمع أصحاب الأطراف والنواب وخرجوا عن الطاعة : يقول حمزة الأصفهاني<sup>(٢)</sup> : إن الملك تنقل من بني العباس في ثمانية عشر نفراً ، والمقتدر ثامن عشرهم وكان في مدة مائة وسبع وسبعين سنة على جملة من الاستقامة ، إذ كانت العوارض التي تعرض في سلطانهم قصيرة المدة سريعة الزوال ، فانساق ملكهم على هذا المنهاج إلى أن مضى من ملك المقتدر ثلاث عشرة سنة إلا أياماً ، ذلك في آخر سنة ثمان وثلاثمائة ، فعندها بدأت الأحداث والفتن في دار ملكهم ، فأزالت عن الجند والرعية هيبتهم ، وأخلت من الأموال خزائهم .

وإذا استثنينا عهد المعتضد لم نشاهد بعد المأمون من كان ذا عبقرية في إدارة الملك . وقد لا ينتظم الأمر حتى بوجود الوزراء المحنكين لأن للرئيس تأثيره ما دام مرجع الأعمال إلى الخليفة ، فإن كان هذا على اتزان تخفى العيوب في الحملة ، في هذه السلطنة الاستبدادية الطويلة العريضة ، وإلا فالملك في تزلزل . وهناك خليفة يدبره أخوه ، وآخر تدبره أمه وقهرماناتها وقهرماناته وغيره يدبره وزيره ، وفي كثير منهم كانت ساطعة النساء بادية في الخلافة ، وقل خليفة كالمأمون والمعتضد من يصدر عن رأى نصيب ، ويعنى بملكه كما يعنى بنفسه .

يقول صاحب النشوار<sup>(٣)</sup> : « كان أول ما انحل من نظام سياسة الملك أيام بني العباس القضاء ، فإن ابن الفرات وضع منه وأدخل فيه قوماً بالزمانات<sup>(٤)</sup> لا علم لهم ولا أبوة ، فما مضت إلا سنوات حتى ابتدأت الوزارة تتضع ، ويتقلدها كل من ليس لها بأهل ، حتى بلغت في سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة إلى أن تقلد وزارة المتقى ابن العباس الأصفهاني الكاتب ، وكان غاية في سقوط

( ١ ) صلة تاديع الطبرى لمريب .

( ٢ ) تاديع سنى ملوك الأرض والأقبياء لحمزة الأصفهاني .

( ٣ ) نشوار الحضرة للنرش . ( ٤ ) الضمانات .

المروعة والرقاعة ، وتلا سقوط الوزارة انقضاء الخلافة وبلغ صيورها إلى ما نشاهد ، فأنحلت دولة بني العباس بانحلال القضاء . ٥١ » .

ولما ولي معز الدولة بن بويه القاضي عبد الله بن أبي الشوارب ( سنة ٣٥٠هـ ) قضاء القضاء ، شرط على نفسه أن يحمل في السنة إلى خزائنه ابن بويه مائتي ألف دينار ، فتألم المطيع لله وامتنع من تقليده . وبلغ من سقوط منصب الوزارة أن بعضهم كان يستعمل ضروب الرشى ويرتكب كل صغار ليصل إليها . ومنهم من أنفق في هذه السبيل ضروب الرشى ويرتكب كل صغار ليصل إليها ، ومنهم من أنفق في هذه السبيل فقط خمسمائة ألف دينار ، ومنهم من رشا المنجمين حتى يشيعوا أخباراً يجعلها سلماً إلى أغراضه .

ما انقضت الدولة العباسية<sup>(١)</sup> حتى كانت مصر والشام في أيدي المماليك ، واليمن بأيدي الزيدية والدولة الرسولية ، والحجاز لبني حسن ، ومراكش لبني مرين ، وإفريقية للحفصيين ، والأندلس لبني الأحمر وملكهم غريباً من جزائر بني مزغنان ( الجزائر اليوم ) إلى عقبة برقة ، والتكرور لرجل ينتسب إلى عمر بن الخطائب ، وصاحب البرنو وصاحب الكانم من بيت قديم في الإسلام ، وماردين لبني أرتق ، وحصن كيفا بيد رجل من بقايا الأيوبيين وصاحب أرزن من ملوك آل سلجوق ، وصاحب بدليس شرف الدين : وهراة غياث الدين ، والأكراد يتأمر عليهم صاحب جولرك وصاحب عقرشوش ، وأمراء الترك في بلاد الروم أو بلاد الدروب ، أي البلاد المنحصرة بين بحرى القرم والخليج القسطنطيني ، ومملكة إيران بأيدي بيت هولاكو ويدخل فيها الهياطلة وهي بلاد مازندران وما يليها إلى آخر كيلان ، وتوران مملكة الخاقانية بيد افراسياب ملك الترك ، وبقية ديار بكر بيد إبراهيم شاه ، ومملكة أذربيجان بيد سليمان شاه من أولاد جوبان ، وخراسان بيد الخاقان طغتمر ، ومملكة توران منقسمة ثلاثة أقسام منها سلطانان مسلمان وأكبر الثلاثة القان الكبير هو صاحب الصين والخطأ ، وقد دان دين الإسلام ،

( ١ ) مختصر تاريخ الخلفاء لابن السامى . ( ٢ ) التاريخ العام للأنيس ورامبو -

والملكان الآخران صاحب السراى وخوارزم والقرم ودست القبيجاق ،  
والثانى صاحب غزنة وبخارى وسمرقند وعامة ما وراء النهر ، وهناك أمراء  
البادية من العرب وهم بديار مصر وبرقة واليمن والحجاز والشام والعراق  
والبحرين ٥

\* \* \*

علل بعض مؤرخى الإفرنج لسقوط المملكة العباسية بأن الثورة التى  
عجلت بسقوط الأمويين وأدالت منهم للعباسية ، كانت عمل حزب دينى  
ثار علنا ودعا سرّاً مدة قرن كامل ، وكانت أيضاً حركة قومية ومقاومة  
من الشرق وأثراً من آثار نقمة الفرس على الفتح العربى ، وأن بعد عظماء  
ملوكهم كالسفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون والمعتمد أسرع الانحطاط  
إلى العباسيين ، وتقسم البلاد ملوك وأمراء ، وتعاقبت عليها دول حربية  
أوطنية استأثروا بجزء من المملكة وراحوا بها يؤسسون ملكاً وقيمون  
حكومات ، وأن الوحدة السياسية فقدت فى المملكة العربية عقب انحلال دولة  
بنى أمية فى دمشق . قال وبينما كان يظهر فى الفاطميين والأمويين فى الأندلس  
زعماء وفتحون ، لم يكن يظهر فى العباسيين الكسالى غير أناس أمسوا ألعبوبة  
فى أيدي مستخدميهم من الجنود ورجال البلاط . ومع ذلك عاشت دولتهم  
بعد تينك الدولتين . قال إن العصر الذهبى لخلافة بغداد كان فى أواخر القرن  
الثامن ومبدئ القرن التاسع ، ثبتت قواعد تلك المملكة فى الشرق ، وقمعت  
الثورات التى قام بها أبناء على ، وسكنت نغمة الخزر فى تخوم إرمينية والروم  
فى آسيا الصغرى ، ومنهم من كبح جماحه ومنهم من رد على أعقابيه ، وعقد  
العباسيون مع الإمبراطورة إيرين ثم مع خليفتها نففور الأول معاهدات حملت  
فى مطاويها ذلاً للإمبراطورية . وكانت بلاد الخلافة عبارة عن ثمانى وعشرين  
ولاية تمتد من نهر الأندوس إلى الأطلنطى ، ومن جبال القوقاز إلى الصحراء .  
أما أقصى حدود المملكة من الغرب أى إسبانيا والمغرب ، فقد نزع طاعة  
الخلافة العباسية عنها ، وظلت سائر البلاد مجموعة الشمل متماسكة الأجزاء .

وكانت عوامل الاضمحلال واحدة في الخلافات الثلاث ( العباسية والفاطمية والأموية والأندلسية ) ذلك لأن السلطات كلها كانت مجموعة في أيدي الخليفة ، ولكي يقوم بعمله يجب أن يكون عظيماً في ذاته ، أو يحسن اختيار وزراء عارفين يحسنون خدمته ولا يتسلطون عليه . وقد أثبت الخلفاء الأولون من العباسيين ، ومؤسسو الدولة الفاطمية ، وكثير من الأمويين في الأندلس ، ومنهم عبد الرحمن الثالث أنهم من الطراز الأول من الرجال . بيد أن عيش القصور والحرم ، على ما كان عليه في قرطبة والقاهرة وبغداد ، لا ينشأ منه غير فساد الذرية مهما كان من قوتها ، ولذلك لم تلبث هذه الممالك أن تولاهما أمراء جهلاء ليسوا على شيء من النبوغ ولا الأخلاق . وعلى قدر الملك يكون قدر الحكومة ، والاستقرار يكون عادة في الممالك المطلقة ، ولئن أصبحت الوراثة في تولى الملك عادة متبعة ، فما عين القانون لانتقال الملك بالإرث خطة مقرر ، وحاول بعض أرباب المدارك من رجال الأمر أن يصلحوا هذا الخلل فما وفقوا .

كان العباسيون ينصبون ولي العهد مقدماً ، وهو يقسم الإيمان كما يقسم الملك المتولى ، وفي الأندلس عمد الحكم الثاني إلى عظماء المملكة ودعاهم إلى التوقيع على ما يشبه البراءة لتقليد ابنه الخلافة وأرسلت نسخة منها إلى الولايات ، وكان الأعيان وأرباب الطبقات الدنيا يوقعون عليها ، ولم تنجح كلتا الطريقتين . وفي بغداد لم يهدأ بال المنصور إلا بخلع ابن عمه عيسى من ولاية العهد لينصب ابنه مكانه . وفي قرطبة لم يكد الحكم الثاني يلقي حنقه حتى دبرت في القصر مكيدة ، جعل بها بدل هشام أموى آخر اسمه المغيرة . إلا أن الوزير المصحفي وابن أبي عامر تقدما بقتل هذا الدعى . ومن حظ هشام أن أطماع هذين الرجلين وقفت عند سجد إعادة الحق إلى صاحبه . وعلى هذا رأينا نظام ولاية العهد عرضة للأخطار ؛ وكانت شهوة كل من كانوا على صلة بالعرش ، أن يتولوا الأمر إذا كانوا من الأمراء ؛ وأن ينصبوا الملك الذي يختارونه ، إذا كانوا من الوزراء أو من رجال الدولة وقواد الجيش . وهناك الدسائس

والأحزاب والمنافسات والفتن . والسلطة العليا تضعف إذا كانت مختلفة  
باضطرابات دائمة ، والدولة أبداً قلقة بأطماع الوزراء ، ومكايد الموالي  
والعبيد ونفوذ الأمراء .

إن سادة العرب بفتحهم الشرق والغرب ، لم يتخلوا عن طبيعتهم الجاحشة  
التي تقضى على النظام ، وكان من غرائزهم المتأصلة في جوانحهم ألا ترضى  
بإقامة حكومة منظمة ، وكان من القوة للخلفاء أن يختاروا عمالهم وجندهم من  
فريق آخر ، يوثرون الاعتصام بالعرب أو الركون إلى غيرهم ، أى من  
العناصر الوطنية من فرس وبربر وقبط وإسبان . وما نخلت هذه السياسة من  
أخطار ، وما عرف مدى ضرر هذه الرعاية للغريب . ذلك لأنها كانت  
مدعاة لتيقظ الفكرة الوطنية في البلاد المغلوبة على أمرها ، ومن شأن القوميين  
أن يعادوا وحدة المملكة ، بل هم لا يرون قيامها بحال .

يدين العباسيون في الشرق بخلافاتهم للنقمة الفارسية ؛ وهم أنفسهم أذنى  
إلى أن يكونوا فرساً منهم إلى أن يكونوا عرباً ، وهى ضعفت الخلافة وثار  
الأمماد في أصقاع الولايات ، وجعل رؤساء العصابات ملوكاً ، يقوم هؤلاء  
الغاصبون ويهيجون النعرة القومية ، ويوهمون الناس أنهم على حق بما يمتنون  
إليه من أصولهم القديمة ، وبحرصهم على إعادة ذكرى ما كان لهم من ذلك  
قبل الإسلام . فقد ادعى السامانيون ، وهم من عنصر تترى ، أنهم من نسل  
الملك بهرام بن جوبين الفارسى ، وزعم البويهيون من الديلم أنهم من نسل  
الساسانيين ملوك فارس . وهكذا الحال في إفريقية وفيها أنشأ الفاطميون  
مملكتهم بأيدي البربر ، كما أنشئت خلافة بغداد بأيدي الفرس .

كان الأمويون في الأندلس عرضة للانحلال منذ القرن العاشر لأنهم  
كانوا على خطر من الممالك النصرانية من الشمال ، وانتقاض رعاياهم من  
الأسبان المهتدين أو النصارى ، لولا أن حال دون ذلك نبوغ عبد الرحمن الثالث

ولما لم يستطع الخلفاء أن يعتمدوا على مواطنهم من العرب ، أو على رعاياهم من أهل البلاد ، حاولوا أن يقيموا سلطانهم بعناصر أخرى ، فأنشأوا لهم جنداً مهما يتفانى في خدمتهم ، فوقع اعتمادهم على جند غريب وسلموا حمايتهم للعبيد وللمماليك ، فكان للعباسيين حامية تركية ، وللفاطميين حامية من البربر والزنوج والأتراك ، واتخذ الأمويون في الأندلس الصقلية والبربر والقشتاليين ، فغلط الخلفاء في تقديرهم هذا ، لأن أدوات الحكم خرجت عنهم أو انقلبت عليهم ، وعملت المكاييد في هؤلاء الصعاليك ، وتقرب منهم أرباب الأحزاب ، وعصفت فيهم الأطماع ، وعبث بهم الأهواء ، فما لبثوا أن دخلوا في العراق ينصبون الخلفاء ويخفضونهم ، ويعسفونهم ويذلونهم ، ويوقعون بهم ويقتلونهم . إن مصير خلافة الأمويين في قرطبة مصيرها في العباسيين والفاطميين : انحلت بالفوضى العسكرية . ١٥ .

وقال ليون : إن أول ما نشأ من فساد الأسلوب السياسي عند العرب تمزيق مملكتهم . فقد كان الخلفاء ينيبون عنهم نواباً في الولايات يجمعون مثلهم بين السلطة الحربية والدينية والمدنية ، فلا يعتمدون أن يحاولوا حكم البلد لحسابهم الخاص . ولما كان من المتعذر كبح جماحهم ، أصبح من الميسور عليهم أن يملكوا البلاد وكان من نجاح بعض الحكام في التغلب على الولاية التي انتدبوا لإدارتها ، داع إلى حمل غيرهم على احتذاء مثله . وبلغت الحال أن أصبحت الولايات القاصية في المملكة ممالك مستقلة . ونتجت من هذا التمزيق نتائج مضرّة ونافعة ، والضرر في كون التقسيم يضعف السلطة العسكرية في العرب ، والنفع في كون هذه التجزئة تسهل ارتقاء المدنية ، وما كان لمصر ولا لإسبانيا أن تبلغا هذه الدرجة من النجاح الذي كتب لهما لو لم تنفصلا عن الحضرة . ١٥ :

وفي الحق أن الأندلس ومصر ما كان يتم فيهما ما تم من الحضارة لو ظلتا مقطورتين مع الدولة العباسية إلى آخر أيامها . وكيف تبقيان لها والعباسيون بعد القرن الثالث عجزوا عن إدارة العراق دع القاصية ، وقد كانت الأندلس

حتى في العهد الأموي الأول ميداناً للفوضى لبعدها عن مقر الخلافة . وكانت مصر في هذا المعنى أحسن حالاً لقربها من دار الملك في الحملة . فمن سعادة الأندلس أن عاد أبناء الأمويين فحكموها ، ومن سعادة مصر أن تولاهما ابن طولون عن العباسيين فاستقل بها ، ومن سعادة تونس أن تولاهما الأغالية زمناً . وكان هذا البعد الباعد بين الممالك الثلاث وبين دار الخلافة العباسية من العوامل الكبيرة في استقلالها .

ويرى لبون أيضاً أن من جملة العوامل في انحطاط دولة العرب اختلاف العناصر الخاضعة لهم ، وقد ظهر تأثير هذا العامل الأخير من طريقتين مختلفتين كلاهما ضار ، ونشأ من اختلاط عناصر مختلفة تمازج ثم تنافس بين شعوب متباينة كل التباين . وكان من جهة أخرى اختلاط كثير في الدم لم يلبث أنه كان منه تغير دم الفاتحين . ولطالما كان هذا التمازج بين شعوب مختلفة في مملكة واحدة من عوامل الانحلال الفعالة . ويعلمنا التاريخ أن من المتعذر استبقاء عناصر مختلفة في يد واحدة إلا إذا روعى في ذلك شرطان أساسيان : أحدهما أن تكون سلطة الفاتح قوية إلى الغاية بحيث يوقن كل إنسان أن كل مقاومة باطلة ، والثاني أن لا يختلط الغالب بالمغلوب ولا يفنى فيه . وهذا الشرط الثاني لم يحققه العرب بتاتاً وكذلك شأن الرومان . . . ومن المتعذر حياة شعوب متنوعة الأصول بقانون واحد ، إذا تباينوا في المصالح والأجناس ، وقد لا يتأتى إسلاس قيادهم إلا بضغط شديد . وما قامت العرب بمثل هذا الضغط مع شتى العناصر التي خضعت لهم ، لأن الشعوب المغلوبة قبلت الدين والأوضاع التي حملها العرب على غاية من السهولة وهكذا كان قانون القرآن ، وما أراد الفاتحون أن يناقضوه . فألف الغالبون والمغلوبون لأول الأمر شعباً واحداً ، كانت معتقداته وعواطفه ومصالحه مشتركة ، وما دام سلطان العرب من القوة بحيث يحترم في كل مكان ، كان الاتفاق تاماً في جميع أجزاء الدولة ولئن سكنت المنافسات بين هذه الشعوب المختلفة فما خدمت كل الخمود

وبدت تظهر عادات الاختلاف المتأصلة في العرب ، وعادة فكرة الأحزاب في جميع البلاد الإسلامية فأخذت تتناحر وتتقاتل .

وقال أيضاً : قد ينبعث النجاح من الأخلاق والذكاء في زمن ، ويكونان أداة للإخفاق في زمن آخر . عرفنا كيف كان ميل العرب للحرب والشقاق بادئ بدء ، وكيف كان هذا الخلق من دواعي ارتقائهم في عصر فتوحهم ، وقد أصبح مضراً لهم لما تم الفتح ، ولم يبق أمامهم عدو يكتسحونه . وعاد فتجلى طول اعتيادهم الانقسام ، وكان منه تمزيق ملكهم وانتهى بسقوطه . أضاعوا باختلافاتهم الداخلية إسبانيا وصقلية ، وكان من تنافسهم الدائم أن قوى النصارى على طردهم ، وقد يكون من أوضاعهم السياسية الاجتماعية عوامل في نجاحهم السريع ، ودوافع إلى انحطاطهم المريع ، وما استطاع العرب أن يفتحوا العالم إلا يوم خضعوا لقانون مقرر ثقفه من الدين الحديد الذي جاءهم به محمد . قال : وعرف المسلمون في عصور الخلفاء الزاهرة في بغداد وقرطبة أن يوفقوا بين الشريعة وحاجة الشعوب التي دانت بها . وصعب إدخال تعديل في الأوضاع السياسية في الإسلام . ومن أحكامه أن يكون على رأس المملكة ملك يجمع في يديه جميع السلطات العسكرية والدينية والمدنية . وبهذا فقط تيسر قيام دولة عظمى . وربما كان من هذه الأوضاع عامل من عوامل خراب المملكة . فقد تكون الدول الملكية الكبرى التي تجمع عامة السلطات في يد واحدة من التماسك بحيث لا تقاوم في فتوحها ، وقل أن يكتب لها النجاح إلا إذا كان على رأسها أبدأ رجال ممتازون ، فإذا خلت البلاد منهم يتداعى كل شيء فيها . ا هـ .

## السياسة في الشرق والغرب

### دول الشرق :

ما نزع نازع أيام الأمويين إلى دعوى الخلافة أو الملك إلا ضرب ضربة قاسية رده أدراجة ، فكانت رقعة ممالكهم مصونة وتزيد اتساعاً على الزمن . وقلما قام قائم على العباسيين إلا وتم له ما أراد من اقتطاع جانب من الملك . وكانت دولة العباسيين أبداً سائرة إلا الاضمحلال منذ القرن الثالث .

وقد يحتال النازع إلى اقتطاع جزء من الملك العباسي ، لأخذ تولية من الخليفة بالبلاد التي طمع فيها ، وربما كتب له الخليفة من تلقاء نفسه عهداً يربطه به ربطاً صورياً ، قانعاً منه بهدية سنوية أو بأتاوة يجبي الخارج من كورة صغيرة من الكور التي استصفها أكثر منها . وعلى هذا كان العباسيون أبا مضعفهم يرضون من المتغلب بالمحافظة على الظواهر ، ويعدون لها طاعة لمن يث لهم هدية ويخطب باسمهم ويجبي الخراج لنفسه . وكان الاعتقاد السائد يومئذ أن الخراج على الخلافة إذا لم يبايعه الخليفة لا يجوز أن يطلق عليه لفظ سلطان « وقد<sup>(٥)</sup> أفتى بعض الأئمة أن من أقام نفسه سلطاناً قهراً بالسيف ن غير مبايعة من الخليفة يكون خارجياً ، ولا يجوز توليته النواب والقضاة ، إن فعل شيئاً من ذلك كان جميع حكمه باطلاً ، وعقد الأنكحة باطلاً » . وكان العباسيون يحرصون بالطبع على هذه القاعدة لأن بها بقاء القليل من سلطانهم .

تعد حكومة عمان من أول الحكومات التي حاولت الانسلاخ عن العباسيين ، وكان أهلها من الخوارج في القرن الثاني ولإمامهم<sup>(٢)</sup> وزراء ورأبأب دولة ولهم

( ١ ) زبدة كشف الممالك للطاهر . ( ٢ ) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالمى .

خليفة ، ثم دعوا أمراءهم بالملوك . ويقول البلاذري<sup>(١)</sup> : إنه كان للخوارج سلطان في عمان منذ عهد الرشيد ، وأن عامله عيسى بن جعفر حارب الشراة<sup>(٢)</sup> فقتلوه ، لما خرج إليها بأهل البصرة ، وجعلوا يفجرون بالنساء ويظهرون المعازف ويسلبون الناس ، فامتنع الخوارج على الخليفة فلم يعطوه طاعة دولتهم ، وولوا أمرهم رجلاً منهم . وكانوا يسمون سلطان العباسيين الجور . وظلت عمان مستقلة بأهلها حتى فتحها المعتضد العباسي ، وأقام بها الخطبة له ، وانحاز الشراة إلى ناحية لهم تعرف بنزوة وكان فيها إمامهم وبقية ملهم وجماعتهم<sup>(٣)</sup> من ذاك العهد .

روى المقدسي<sup>(٤)</sup> أن ولايات بلاد العرب كانت في القرن الرابع متقطعة . أما الحجاز فهو أبداً لصاحب مصر لأجل الميرة . واليمن لآل زياد ، ولابن طرف عثر ؛ وعلى صنعاء أمير ، غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالاً ليخطب له ، وربما أخرجت عدن من أيديهم ، وآل قحطان في الجبال ، وهم أقدم ملوك اليمن ، والعلوية على صعدة يخطبون لآل زياد وهم أعدل الناس ، وعمان للدليم ، وهجر للقرامطة ، وعلى الأحقاف أمير منهم .

أول من استقل بملك مصر أحمد بن طولون وأولاده ، ساعده على استقلاله جيش كان جنده بأمر الخليفة لقتال أحد الخوارج بالشام ، فلما استوصلت الفتنة وأمنت الغائلة ، لم يسرح الجيش ، فكان به استيلاؤه على مصر والشام وما وراءهما . وأطاع الناس ابن طولون لأنه كان أعدل من كثير من الخلفاء في عهده ، يعمر بلاده ويتفقد رعاياه « وكان<sup>(٥)</sup> مع ذلك طائش السيف .

(١) فتوح البلدان للبلاذري .

(٢) الشراة لقب من ألقاب الخوارج ويقال لهم الحورية والحكمة . قال الأشعري : والسبب الذي سبوا له الخوارج خروجهم على علي بن أبي طالب ، والذي سبوا له الحكمة إنكارهم الحكيم وقولهم « لا حكم إلا الله » والذي سموا له حورية نزولهم بحرواء في أول أمرهم ، والذي سموا له شراة قولهم شربنا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة .

(٣) مسالك الممالك للإصطخري والمسالك والممالك لابن حوقل .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسي . (٥) الدول المنقطعة للأزدى (مخطوط) .

قال القضاعى : يقال إنه أحصى من قتله ابن طولون صبراً أو مات فى حبسه ، فكان عددهم ثمانية عشر ألفاً وخلف عشرة آلاف ألف دينار » ، وعاد استيلاء ابن طولون على الأمر فى مصر خروجا على الخلافة العباسية ، وإن كان يخطب لها بادئ بدء ، ويبعث إليها ما تيسر من الخراج . ولم يتأت الخلاص من دولته إلا لما قوى العباسيون سنة ٢٩٢ هـ فقتلوا جميع آل طولون ، وخلفتهم الدولة الإخشيدية ، وهى كالدولة الطولونية ، دولة أعجمية ، ولم يطل أمرها كثيراً حتى حكم مصر عبد زنجى اسمه كافور ، إلى أن سقطت فى أيدي الفاطميين ، وكثرت الدول فى المشرق ، وكلها خرجت عن طاعة الدولة العباسية بالفعل ، كدولة الحسين بن زيد العلوى بطبرستان ( ٢٤٠ هـ ) . ومن الدول ما أبقى للعباسيين السكة والخطبة والطاعة الظاهرة كدولة بنى زياد فى اليمن ، وكان مؤسسها محمد بن زياد عاملا من عمال المأمون أرسله للقضاء على الأعراب فأطفأ نائرتهم ، واستقرت قدمه وقدم أعقابه فى ذاك القطر إلى سنة ٤٠٧ هـ فالزباديون استولوا على اليمن أجمع ، ودخلت فى طاعتهم حضرموت والشجر وديار كندة ، وصار ابن زياد فى مرتبة التبابعة . وكان فى صنعاء بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة مستبدين بها ، مقيمين بالدعوة العباسية ، ولما بلغ عاملها أبا الجيش إسحاق بن إبراهيم قتل المتوكل وخلع المستعين ، واستبداد الموالى على الخلفاء ، ركب بالمظلة شأن سلاطين العرب المستبدين ، وفى أيامه خرج فى اليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى إبراهيم بن طباطبا ، بدعوة الزيدية وقد جاء بها من السند ، وكان جده القاسم قد فر إليها بعد خروج أخيه محمد مع أبى السرايا فلحق القاسم بالسند وأعقب بها الحسين ، ثم ابنه يحيى باليمن سنة ٢٨٨ هـ ، ونزل صعدة ، وكان شيعته يسمونه بالإمام . ولقب يحيى هذا بالهادى إلى الحق . والزيدية ما زالوا إلى اليوم أصحاب اليمن على كثرة ما تعاورها من الدول ، وكانوا إذا قوى أعداؤهم عليهم اعتصموا فى

معاقلهم وجبالهم ، فإذا نفس خناقهم امتد سلطانهم إلى السهول والساحل ، ويلقب سلطانهم بأمير المؤمنين وبالإمام .

ومن غريب ما وقع في هذا القطر أن ملوك زبيد كانوا يخطبون للعباسيين والصليحيين يخطبون للعبيدين إلى أواخر المائة الخامسة ، وبقي أمر اليمن في تقلقل : الجبال لرجل والسهول لآخر ، وعدن لغيرهما ، حتى جاء عبد النبي ابن مهدي الخارجي من زبيد واستولى على اليمن ، وبها يومئذ خمس وعشرون دولة ، اكتسحها كلها . وأظهر الصليحيون الدعوة العبيدية أو الفاطمية وملكوا اليمن كله ، ونزل الصليحي مؤسس دولتهم صنعاء وأسكن عنده ملوك اليمن الذين غلب عليهم ، وهزم بني مطرف ملوك عثر وتهامة ، ثم استولى بنو أبي البركات على بني المظفر . ودخل شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ . واستولى على الدولة التي كانت باليمن ونزل زبيد واتخذها كرسياً لمملكته ثم انتقل إلى تعز . وكانت عاصمة الصليحي حصن ذي جبلة منذ سنة ٤٥٨ هـ . ونزلها وبقيت كرسياً للملكه وبنيه ومواليهم بنو رسول . وكان السبب في فتح صلاح الدين اليمن أنه كان<sup>(١)</sup> « أهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر ، بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه فإن هزمهم التجئوا إلى تلك المملكة » .

والدولة الرسولية هي دولة عمر بن علي بن رسول وكان والده علي بن رسول استأدار الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل ، استقر أولاً نائباً لبني أيوب فما إن هلك حتى استولى ابنه عمر على ما كان عليه أبوه ، ولقب بالملك المنصور ، ودام الملك في بنيه مدة طويلة ، على اختلاف كان بين أهل هذا البيت على الملك . واليمن بطبيعة أرضها مستعدة لقيام الدول وإذا قامت فيها يدوم أمرها . فقد سميت للخلافة نفس أحمد بن الزبير الغساني — المعروف بالرشيد<sup>(٢)</sup> الأسواني من أهل صعيد مصر ، وكان قاضي أيمن للفاطميين ويعد من كبار العلماء — فأجابه قوم إليها ونقشت له السكة (٥٦٣ هـ) ،

(١) تاريخ أبي الفداء . (٢) طبقات النحويين للسيوطي .

وأعظم من هذا أن معز الدين بن سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن (٥٩٤هـ) ادعى الألوهية نصف نهار ، ثم رجع عن ذلك وادعى الخلافة ودعا لنفسه وقطع الدعاء من الخطبة لبني العباس ، وأكره من كان في مملكته من أهل الذمة على الإسلام .

وكانت الحجاز تتقلب في أيدي بيوت يدعون الشرف ويدينون بالطاعة لصاحب القوة من العباسيين أو الفاطميين . ومنهم بنو<sup>(١)</sup> الحسن ومنهم محمد ابن سليمان خلع طاعة العباسيين وخطب لنفسه بالإمامة في سنة إحدى وثلاثمائة ، ثم اعترضه القرامطة فخطبوا لعبيد الله المهدي صاحب إفريقية وقلعوا الحجر الأسود وباب الكعبة وحملوها إلى الأحساء ، ثم صولحوا وأعيدت خطبة العباسيين ، ثم خطب لبني بويه مع الخليفة العباسي ثم أعيدت الخطبة للفاطميين متقطعة . فكان الأمراء إذا قطعوا خطبتهم قطعوا عن الحرمين الميرة فيعودون إلى الخطبة باسمهم ، ثم خطب للسلجوقيين وتولى الإمارة الحجازية بنو قتادة وغيرهم ، والحالة لا تسر صديقاً في أكثر الأدوار .

وقامت الدولة السامانية في بخارى وما إليها من سنة ٢٦١هـ إلى سنة ٣٨٩هـ ، واشتهرت في معظم أدوارها بالعدل وحسن السياسة ، ثم خلفتها دولة محمود بن سبكتكين في خراسان وخوارزم من سنة ٣٦٦هـ ؛ إلى أن انقرضت سنة ٥٧٨هـ . واتخذت غزنة عاصمتها . وكانت من الدول التي لا بأس بسياستها تتصل مع العباسيين بالسكة والخطبة ، ويعترف خليفة بني العباس بسلطانها . وكان في المنصورة من بلاد السند في القرن الرابع سلطان من قريش يخطب للعباسي ، والمثلتان قرب غزنة يخطبون للفاطمي . ولا يحلون ولا يعقدون إلا بأمره ، وأبدا رسلهم وهداياهم كانت تذهب إلى مصر . وكان الخليفة من الخوارج يسكن بناحية وردان مما يلي سجستان ومكران ، وهي<sup>(٢)</sup> بلدهم ودارهم في القرن الرابع . ومع أن أهلها من المنحرفين عن علي بن أبي طالب « ويظهرون

(١) صحيح الأعشى للقلقشندي . (٢) معجم البلدان لياقوت .

مذهبهم ولا يتحاشون منه ويفتخرون به عند المعاملة ، وليس في الدنيا سوقه أصبح منهم معاملة ولا أقل منهم مخاتلة » ومع أن علياً لعن على منابر الشرق والغرب لم يلعن على منبرها إلا مرة واحدة ، ومن الغريب أنهم امتنعوا على بنى أمية حتى زادوا في عهدهم وألا يلعن على منبرهم أحد .

ومن أهم الدول التي استولت على القسم المهم من بلاد الخلافة العباسية دولة بنى بويه من الديلم ، وكانوا شيعة أراد مؤسس دولتهم أن يتبسط في نشر التشيع في بغداد والولايات فخوفوه العاقبة فأحجم ، وقد امتد حكم البويهيين من بلاد فارس إلى العراق من سنة ٣٢١ إلى ٤٤٨ هـ . وكان فيهم رجال من أجل الملوك علما وسياسة . وجاء بعدهم السلجوقيون الأتراك وهم من أهل السنة ، فاستولوا بعد بنى بويه على خراسان وامتد حكمهم إلى العراق والشام من سنة ٤٣١ هـ ، وخطب لملكهم العظيم ملكشاه (٤٨٥ هـ) من حدود الصين إلى آخر الشام . ومن أقاصى بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن هـ وخطب لسنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بالعراقيين وأذربيجان وأران وإرمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة والحرمين . ومؤسس هذه الدولة ألب أرسلان أسر أرمانبوس طاغية الروم (٤٦٣ هـ) وكان في مائتي ألف من الروم والفرنجة والعرب المنتصرة والروس والكرج في أرجاء خلاط بأرمينية ففدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار وأن يطلق كل أسير في مملكته ، وهادنه ألب أرسلان خمسين سنة . وكان ملكشاه يأخذ إتاوة من ملك الروم في القسطنطينية ، وامتد حكم بيته إلى أرض الروم أي آسيا الصغرى ، وكانت دولتهم عادلة تنفذ شرع الإسلام .

والسلجوقيون هم الذين تلقوا بصدورهم الصدمة الأولى للحروب الصليبية ، وكانت الشام والجزيرة وآسيا الصغرى موزعة بين أمراء منهم ، فأخذوا يطاولون الأعداء ويصاوانهم ، حتى فتح الأتابك زنكى بعض بلاد الشام . وكان من سياسته أن « يرسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم أنه

إن ملك بالشام حصناً واحداً ، أخذ البلاد التي بأيديهم منهم ، وكان يرسل ملك الروم ويتهدده ويوهمه أن الفرنج معه ، قاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه .

وجاء ابنه محمود بن زنكى فجمع شمل البلاد الشامية والجزرية ثم ضم إليها مصر ، وكان الملوك<sup>(١)</sup> قبله جاهلية حتى جاءت دولته فوقف عند أوامر الشرع ونواهيه . وكانت سيرته أشرف سيرة ، وسياسته أنجع سياسة . ثم قامت دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب تتولى من دفع عادية الصليبيين ما تولته الدولة النورية ودولة الترك السلاجوقيين من قبل ، ثم دولة الترك المماليك من بعد . وقد بنت الدولة الصلاحية على أساس الدولة النورية وعملت برجالها .

كان من المعقول أن تعاون بلاد المسلمين كلها من أقصى آسيا إلى أقصى إفريقيا لدفع صائل الصليبيين عن بلاد المسلمين ، لكن الأمراء والملوك لم يكونوا يهتمون بغير شهواتهم وراحتهم في ملكهم . فقدر لهذه الدول الصغيرة برقعة ممالكها ، الكبيرة بعقول القائمين بسياستها ، أن تتولى سياسة الإسلام الخارجية ، وتقضى على خطط واسعة وضعها البابا في رومية ، وقد جند جيوشاً جرارة من كل شعوب أوروبا<sup>(٢)</sup> ، ما خلا الأسبانيين والبرتغاليين لشغلهم بحرب المسلمين في الأندلس ، وما خلا الروس لأنهم ليسوا على مذهب البابا فلا سلطان له عليهم .

ولعل ملوك الإسلام لم يكونوا يومئذ يقدرون مدى مضار الحروب الصليبية على الإسلام إذا ظفر المهاجمون من الغربيين . ولقد كتب التبريز في السياسة

(١) كتاب الـ وضتين لأبي شامة .

(٢) من كتاب للقاضي الفاضل عن لسان صلاح الدين إلى ديوان الخليفة ببغداد وصف أجناس الصليبيين جاء فيه : « واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والأندلسية الأعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يتصور في الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول أبي الطيب :  
تجمع فيه كل لسن وأمة  
فما يفهم الحداث إلا التراجم  
حتى إذا أسر الأسير ، واستأمن المستأمن ، احتج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد من آخر ، ويقول ثان ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثان » .

والحرب للدولة السلجوقية ، وفي مقدمتها دولة نور الدين ، ثم دولة بنى أيوب : صلاح الدين والعادل والكامل والظاهر والأشرف وأمثالهم . فقامت كل واحدة خير قيام بواجب دولة كبيرة على قلة النصير وضعف المادة . وبطلت مدة قرنين كاملين غزوات المسلمين على الروم وبالعكس ، وانحصرت جهود مصر والشام والجزيرة وإرمينية وآسيا الصغرى في معالجة مشكلة دولية كانت أعظم المشاكل الخارجية التي أصيب بها الإسلام ، منذ انبثت من جزيرة العرب . وكان ملوك الصليبيين يرهبون ملوك المسلمين ، ويدهشون لأعمالهم في السلم والحرب . ذلك لأن الملوك القائمين برد العدو في تلك الأمصار كان رأيهم في الملك يخالف رأى الملوك الآخرين ممن لا شأن لهم إلا أن يقبعوا في أرضهم فقط .

هذه جملة حال الممالك التي نبعت من أرض المملكة العباسية ، وبذلك تضاعفت خلافتهم في القاصية والدانية ، فلم يبق أمام خلفائها إلا خلع الخلع على الملوك المحدثين ، واختراع الألقاب لهم يلقبونها بها . لقبوا محمود بن سبكتكين الغزنوى بيمين الدولة وأمين الملة<sup>(١)</sup> ، ولقب المقتدى ملك المرابطين في الغرب الأقصى بأمر المسلمين ، وأخذ نور الدين عمر مؤسس الدولة الرسولية في اليمن لقب سلطان ، ومثله كان ملوك من دهملي ، وكانوا ينتشون على الدنانير أسماء العباسيين وظلوا ينقشونها بعد ثلاثين سنة من ملك المستعصم آخر خلفاء بنى العباس في بغداد<sup>(٢)</sup> .

كان عمل هذه الدول داخلياً محلياً ، وقل أن كانت تتصل بدول غير دول الإسلام ، اللهم إلا إذا استثنينا الدولة الحمدانية في الشام والجزيرة ، وكانت تحتك بالروم على الدوام ، والدولتين النورية والصلاحية ومن بعدها وقبلها من الدولة التي خفقت لها علم على أرجاء البلاد المتاخمة كالسلجوقيين ، فإن علاقات هذه الدول بالإفرنج كانت وافرة ، وكل دولة تقف موقف الحائف المترقب من جارتها

(١) تاريخ العتبي .

(٢) معلة الإسلام : الملائكة .

كانت علائق الدول الإسلامية بالدول النصرانية موقفة إذا كان القائم بالأمر رجلاً في الحملة ، يعمل للملكة لا لشيء آخر من ضروب هواه . فقد رأينا نور الدين وصلاح الدين ومن جاء بعدهما يأسرون ملوكاً وأمراء من الصليبيين ويفتدوهم بأموال عظيمة يستعينون بها على الجهاد أو على أمر شريف آخر من أنواع القربات . أسر الملك الأوحى ( ٦٠٧ هـ ) ابن أخى صلاح الدين ملك الكرج فقضى نفسه بمائة ألف دينار واشترط عليه أن يطلق أسرى المسلمين ، وأن يلزم الصلح ثلاثين سنة ، وأن يزوجه ابنته بشرط أن لا تفارق دينها .

قلنا إن الدولة الحمدانية كانت من جملة الدول التي تم لها احتكاك شديد بالروم — وكانت هذه الدول على صغرها بحيث لم تكن تملك غير القسم الشمالى من بلاد الشام والثغور الشامية والجزيرة وديار بكر وديار مصر — من الدول التي يتسبب الغريب حسابها ويدين رأسها سيف الدولة الشيعى ( ٣٥٦ هـ ) بالطاعة للعباسيين ، غزا الروم أربعين غزوة له وعليه ، وجاء الروم في أيامه ففتحوا بلاداً من بلاده وخربوا عامرها ، وكان أخلافه أضعف منه نفساً فهادنوا الروم ، وأدوا إليهم الجزية مدة ، ومنهم من استنجد بهم وذل أمامهم ذلاً ليس بعده ذل . ودام هذا التخبط حتى بيض السلجوقيون وجه الإسلام بأعمالهم الحربية ، وقد دامت دولة سيف الدولة أو الدولة الحمدانية سبعين سنة .

على هذا المنهج كانت تسير الدولة العباسية ، وهكذا حال الدول التي اقتطعت من الجسم العباسى ، والعباسيون راضون بهذا الذل ، حتى جاء هولاكو التترى واستولى على بغداد وقتل الخليفة ، فانقرضت الخلافة العباسية ، وأقامت الدنيا ثلاث سنين ونصف سنة بلا خليفة (١) . وفى سنة ٦٥٩ هـ حضر إلى مصر أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بالله العباسى وهو عم الخليفة وأخو المستنصر ، وكان معتقلاً ثم أطلق ، فخرج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

( ١ ) حسن المحاضرة للسيوطى وتاريخ مصر لابن إياس .

للقائه ، وخرج الوزراء والعلماء ، واليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ، وأريد العباسي على إثبات نسبه فأثبتته ، وبأبائه الظاهر بيبرس وخطب له على المنابر ، وضرب اسمه على السكة ، وكتبت بيعته إلى الآفاق ، وبعد أيام ركب الخليفة والسلطان والقاضي والوزير والأمراء إلى خيمة عظيمة ، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء ، وجعل له في عنقه طوق من ذهب ، وقيد من ذهب في رجله ، وفوض الأمور إليه « في البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفر والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية والبنية والقراتية وما يشجده من الفتوحات » فأحيا بيبرس الخلافة العباسية بعد موتها . على أن لا يكون للخليفة عمل غير المراسم ، لا ينصب ولا يعزل ، ولا يعقد الصلح ولا يعلن الحرب ، ولا يجي مالا ، ولا يصرفه في وجوهه ، ولا يعمل شيئاً يدل على سلطانه .

وكان الظاهر بيبرس يارجاعه الخلافة العباسية حاول أن يصلح ما ارتكبه من القضاء على آخر فرد من أبناء صلاح الدين ، وظلت الشام ومصر والحرمان بعد هذا العهد في أيدي المماليك يتعاورون الحكم عليها ، زهاء قرنين ونصف قرن . وفي أيام محمد بن قلاوون امتد حكم المماليك من مصر والشام إلى إفريقيا وخطب لهم في تونس وطرابلس وبرقة ودام حكمهم حتى جاءت الدولة العثمانية فاستولت على الشام ومصر وبلاد العرب ( ٩٢٢ - ٩٢٣ هـ ) .

ودولة المماليك البرجية والبحرية ، كالدولة الفاطمية قبلها ، كان في ملوكها الصالح والطالح ، وربما كان الصالح فيها أكثر من أمثالهم في دولة العبيدين الفاطمية . وقد عمرت البلاد في أيامهم عمراناً يستغرب تحقيق مثله على خلل بين يطرأ عليها في الفترات ، بتبدل الولاة ونشوب الفتن الأهلية من أجل الملك ، لكن نوابغ من ملوكهم كانوا يتولون الأمر أحياناً فيسدون كل خلل ، ويأخذون بأيدي أهل البلاد إلى الترقى ، ويلتقون الهيبة في صدور المجاورين من الشرقيين والغربيين من الإفرنج .

### ذول الغرب :

من أعظم ما فت في عضد الخلافة العباسية قيام دولة الأمويين في الأندلس ثم إعلانهم الخلافة . وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي لما انتهى به المطاف إلى شمالى إفريقيا ، وأعانه اليمانيون ففتح الأندلس وأنشأ بعد ذهاب ملك آباءه في الشرق ( ١٣٩ هـ ) مملكة ضخمًا جعل قرطبة عاصمته ، أقام دون السنة بعد فتح قرطبة (١) يدعو لأبي جعفر المنصور إلى أن أفرد نفسه بالدعاء ، ولم يتعد التلقب بالأمير . وكذلك سلك الأمراء من ولده سنته في ذلك . وتسمى عبد الرحمن بن محمد الناصر بالخلافة بعد سبع وعشرين سنة من سلطانه بالخليفة ، ودعى بأمير المؤمنين ، وذلك لما استفحل أمره ، واستبان له ضعف ولد العباس ، وانتشار سلطانه بالمشرق وكتب إلى العمال كتاباً جاء فيه : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحق ، وعلمنا أن التمادى في ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه » وعبد الرحمن الثالث هذا هو الذى لم يتردد لسلامة ملكه في قتل ابنه عبد الله لاتهامه بمؤامرة على الملك .

ومما مكن لعبد الرحمن الناصر كونه وضع حداً للحروب (٢) الأهلية بين العرب والأسبان والبربر ، وأمن الحدود ، وجعل قوة من أسطوله استولى بها على شمالى إفريقيا ، وعبد الرحمن الثانى هو الذى أقام أبهة الملك ورتب الرسوم ، وكان يشبه الوليد بن عبد الملك في أبهته . قال ابن عذارى : وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة ، فشيد القصور وجلب إليها المياه وبني الرصيف وعمل

( ١ ) ففتح الطيب للقرى .

( ٢ ) معلمة الإسلام : عبد الرحمن .

عليه السقائف ، وبني المساجد الجوامع بالأندلس ، وعمل السقاية على الرصيف وأحدث الطراز ، واستنبط عملها ، واتخذ السكة بقرطبة وفخم ملكه .

تعاقب على الأندلس منذ فتحت أيام الأمويين عشرون والياً كانوا أمراءها وولاية الحرب فيها ، يلونها من قبل بني أمية في المشرق ، أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر . والفتن فيها قائمة لبعده الأندلس عن مقر الخلافة في دمشق ، حتى إذا فتحها عبد الرحمن الداخل فتحاً ثانياً ، وصفت له ولأولاده من بعده ، ساقوا الإمارة ثم الإمامة أو الخلافة في أبنائهم على الغالب وترسموا خطاً أجدادهم في المشرق حتى أن عبد الرحمن الأموي عهد بالإمارة إلى ابنه هشام لما كان يتوسم فيه من الشهامة والاضطلاع بالأمر ، وترك ابنه الأكبر سليمان . ومن ملوك الأمويين في الأندلس من عرفوا بالسياسة والدهاء والتخلي بفضائل كبار الخلفاء من آبائهم في القرن الأول وثالث الثاني .

وما انقرضت دولة الأمويين في الأندلس<sup>(١)</sup> إلا لما تواترت الفتن الأهلية وعجزوا عن أن يأخذوا من أعنة جيوشهم المؤلفة من صعاليك مستأجرة . وقدم المنصور أبو عامر رجال البرابرة وزناته في الأندلس ، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم ، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك ، وسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، وكتب اسمه في السكة والطراز ، وأغفل ديوانه مما سوى ذلك . وكان العرب الذين نزلوا الأندلس لأول الفتح من قبائل شتى وفيهم اليمانية والقيسية وفيهم بنو كلاب ومحارب وهوازن وغطفان والأزد وعقيل وقشير والجرمش وغيرهم ، ومنهم كانت جمهرة الجيش العربي هناك ، فأبدلوا بعد حين بصقالبة وبربر وغيرهم .

(١) معلمة الإسلام : الأمويون .

وفي أوائل المئة الخامسة انقرضت خلافة الأمويين في الأندلس ، فتقسم ملوك الطوائف الولايات ، وذهب ذلك الوفاق الذي يتمتع به في الأغلب من تسلسل فيهم الملك والإمارة كابرا عن كابر . وما انقطع من الملوك الخالفين مع هذا ظهور رجال تحنكوا بالسياسة وإدارة الملك . قال ابن سعيد مؤرخ الأندلس (١) : وكان الضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان ، أو جواداً يبرع الأجواد ، تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكاً من غير تدبر في عاقبة الأمر . وبعد أن يكون الملك في مملكته قد توورث وتدوولت ، يكون في تلك المملكة قائد من قوادها ، قد شهرت عنه وقائع في العدو ، أو ظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة ، قدموه ملكاً في حصن من الحصون ، ورفضوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك ، بكرسى الملك ، ولم يزالوا في جهاد وإتلاف نفس حتى يظفر صاحبهم بطلبه . قال : وأهل المشرق أصوب رأياً من الأندلسيين في مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلاف القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع .

وذكر صاحب المعجب أن المستكني بالله محمد بن عبد الرحمن من ملوك الطوائف « كان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وزر له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد ، وكان هو المدبر لأمره والمدير لدولته فقل في دولة يديرها حائك » . وتفرق أهل الأندلس فرقاً (٢) وتغلب في كل جهة متغلب للسبب الذي علل له ابن سعيد ، وتقسموا ألقاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم بالمأمون ، وآخر بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتد والموفق والمتوكل وفي ذلك يقول ابن رشيق :

مما يزهدني في أرض أندلس      ألقاب مقتدر فيها ومعتضد  
ألقاب مملكة في غير موضعها      كالحر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

(١) نفع الطيب البقرى . (٢) المعجب للمراكشي .

لما ولي علي بن حمود الناصر بالأندلس تسمى بالخلافة (سنة ٤٠٨ هـ) فبويج لإدريس بن علي بالخلافة في مالقة (٤٣١ هـ). ولما هلك لم يتسم ابنه بالخلافة، ثم بويج للحسن بن يحيى بالخلافة ولقب بالمستنصر. وهكذا صار خليفة لمالقة وسبتة وطنجة. ثم حدث في الأندلس من دعوى الملك شىء لا يكاد يسبق له نظير، وهو أن رجلاً من العامة، لا عصبية له ولا سابقة، ادعى أنه من نسل بنى أمية بعد انقراض دولتهم في الأندلس، وخطب له على المنابر عشرين سنة، وهو كاذب في دعواه. قال ابن حزم<sup>(١)</sup>: أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها، فإنه ظهر رجل يتال له خلف الحصرى، بعد عشرين سنة من موت هشام بن عبد الملك المنعوت بالمؤيد، وادعى أنه هشام فبويج. وخطب له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى، وسفك الدماء، وتصادمت الحيوش في أمره، وأقام المدعى أنه هشام نيفاً وعشرين سنة، والقاضى محمد بن إسماعيل في رتبة الوزير بين يديه والأمر إليه، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن توفى المدعو هشاماً، فاستبد القاضى محمد بالأمر بعده. وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول، ولم يزل ملكاً مستقلاً إلى أن توفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. هـ.

ذلك ما تم في الأندلس من تغلب خلف الحصرى وقاضيه، تم لها الملك بالغلبة. وبعصبية ملفقة، وليس الملك كما قال ابن خلدون<sup>(٢)</sup> لكل عصبية، وإنما الملك على التحقيق لمن يستعبد الرعية ويحجى الأموال، ويبعث البعوث، ويحمى الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة، ومن قصرت به عصبية عن بعضها مثل حماية الثغور، أو جباية الأموال، أو بعث البعوث، فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته، كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالبة في القيروان، والملك المعجم صدر الدولة العباسية. ومن قصرت عصبية أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصبيات، والضرب على يئائر الأيدي، وكان

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان. (٢) مقدمة ابن خلدون.

نوقه حكم غيره ، فهو أيضاً ملك ناقص لم تتم حقيقته . وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة ، وكثيراً ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق مثل صنهاجة مع العبيدين ، وزناتة مع الأمويين . تارة ، والعبيدين أخرى ؛ ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس .

وقول ابن خلدون لا يكاد يتخلف ، ومسألة خلف الحصرى وقاضيه من الشواذ ، وكان هذا من هزل الدهر في الأندلس ، أيام كان أهل كل إقليم يحاولون أن تكون لهم الغلبة بقاض لهم آثروه ، أو قائد أحبوه ، أو دعى عاونوه ولقد قال ابن حزم : فضيحة لم يقع في الدهر مثلها : أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، يسمى كل واحد منها بأمير المؤمنين ، ويخطب لهم في زمن واحد : أحدهم في إشبيلية ، والثاني بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالقة ، والرابع بسبته . حتى إذا ضاقت الأرض بما رحبت على الأندلسيين ؛ جاءهم من بر العدو يوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المرابطين ، فكان أول من دعا للخلافة العباسية على منابر الأندلس والمغرب ، وتسمى بأمير المسلمين تأديباً مع الخليفة ، وانتهى ملكه إلى مدينة أفرغة من ناحية شرق الأندلس ، وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من الغرب ، وملك بعدوة المغرب من جزائر بني مزغنان إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان .

واختل ملك بني تاشفين بعد الخمسمائة لإهمال السلطان ، واشتغاله بالعبادة<sup>(١)</sup> ، ولاستيلاء النساء على الأمور « فصارت كل امرأة من أكابر الملتونة ونفوسة مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل ، وصاحب خرم ومانخور » وانقطعت الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس والمغرب بقيام ابن تومرت مع المصامدة في بلاد السوس . وفتح الموحدون بقيادة ملكهم عبد المؤمن بن علي الكومي البربري إفريقية سنة ٥٢٨ هـ . ثم فتحوا الأندلس ، وهو أول من تسمى في المغرب بأمير المؤمنين بعد عصر الأمويين . ونادى

(١) المعجب بالبراكشي .

« في البلاد<sup>(١)</sup> التي ملكها بإخراج البصري منها ، وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه... ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن بقي على رأى أهل ملته ، فيما أن يخرج قبل الأجل الذي أجله ، وإما أن يكون بعد الأجل في حكم السلطان ، مستهلك النفس والمال » .

ومؤسس دولة الموحدين هو ابن تومرت ، سمي نفسه المهدي وادّعى أنه هو المهدي المنتظر وكثر أتباعه ، ورأى من بعض جموعه قوماً خافهم ، فادّعى أن الله أعطاه نوراً يعرف به أهل الجنة من أهل النار . وجمع الناس إلى رأس جبل ، وجعل يقول لكل من يخافه : هذا من أهل النار فيلقى من رأس الشاهق ميتاً ، وكل من لا يخافه من أهل الجنة ، ويجعله عن يمينه ، حتى قتل خلقاً كثيراً ، واستقام أمره وأمن على نفسه . وقيل إن عدة الذين قتلهم سبعون ألفاً . وسمى عامة أصحابه الداخلين في طاعته « الموحدين » ، ودامت هذه الدولة ثمانين سنة ( ٤٦٢ - ٥٤٢ هـ ) . وكان ملوك الموحدين كملوك المرابطين يخاطبون بأمر المؤمنين ويحرصون على هذه التسمية ، حتى أن صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام لما أرسل إلى أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعنده من<sup>(٢)</sup> الموحدين وخاطبه بسيدنا ، نقم عليه المنصور لتجافيه عن مخاطبه بأمر المؤمنين ، وأسرها في نفسه ولم يجبه إلى حاجته . وكانت حاجته طلب مدد أساطيله لتتجول في البحر بين أساطيل الافرنج ، وتحول دون مرامهم بإمداد جيوش النصرانية في ثغور الشام .

دامت دولة الموحدين في الأندلس إلى أن قام بنو الأحمر واستولوا على غرناطة ، وبالقضاء على دولتهم انقضى ملك المسلمين من تلك الديار ، وأواخر القرن التاسع من الهجرة . وأول من استولى من بني الأحمر أو ملوك بني نصر<sup>(٣)</sup> أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف الخزرجي الأنصاري . تظاهر

( ١ ) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة . ( ٢ ) مقدمة ابن خلدون .

( ٣ ) اللوحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب .

لأول أمره بطاعة الملوك بالعدوة وإفريقية فخطب لهم زمناً يسيراً ، ودعا للمستنصر العباسي ببغداد ، حاذياً حذو سبيه ابن هود ، للهيج العامة في مؤقته بتقليد تلك الدعوة إلى أن نزع عن ذلك كله .

وكان في تلمسان وإفريقية وفاس ملوك مختلفون في تلك الحقبة . واعتاد المغرب منذ القرن الثاني أن يخلع الطاعة فيه للخلافة العباسية ، قائد من القواد ويؤسس ملكاً ، وأول ما كان من ذلك دولة الخوارج الأباضية في أيام المنصور العباسي ، وتغلبها على مملكة إفريقية . وكان يسلم بالخلافة على ميمون بن عبد الرحمن بن رسم من فرس العراق<sup>(١)</sup> ورأس الصفيرية والواصلية . وتعاقبت مملكة تاهرت بنو ميمون وإخوته ثم بعث إليهم عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية أخاه الأغلب فقتل من الرستمية عدداً كثيراً ، وملك بنورستم تاهرت مائة وثلاثين سنة ، ودامت دولتهم إلى سنة ٢٠٢ هـ . وامتدت دولة إدريس بن عبد الله من السوس الأقصى إلى تلمسان ، وكان من جملة قواعد مملكته فاس ، وانقرضت سنة ٣٠٧ هـ . وكانت قامت سنة ١٧٢ هـ .

وفي النصف الأول من القرن الثالث عندما كانت تاهرت وما إليها في أيدي ميمون الرستمى<sup>(٢)</sup> كان وادي الرمل ووادي الزيتون وقصر الأسود ابن الهيثم إلى طرابلس وما وراء ذلك في يد ابن صغير البربري المصمودي ، وكانت إيزرج مما يلي تاهرت في يد إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي ، وطنجة وفاس في أيدي ولد إدريس بن إدريس بن إدريس ، ولا يسلم عليه بالخلافة . وإنما يقال : « السلام عليك يا ابن رسول الله » وكان يسلم على الأموي صاحب الأندلس « السلام عليك يا ابن الخلائف » وذلك أنهم لا يرون اسم الخلافة إلا لمن ملك الحرمين .

(١) معجم البلدان لياقوت . ويقول ابن خرداذبة إنه ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الواحد بن رسم .

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة .

وكان بنو الأغلب عمالاً للعباسيين في إفريقية ففتحهم الرشيد شبه استقلال في داخليتهم ، فأنشأوا لهم دولة في تلك الأصقاع زالت بغلطة سياسية ارتكبتها إبراهيم الثاني من بني الأغلب ، ذلك لإبعاده كثيراً من الجيوش العربية الداخلة في إفريقية عند افتتاحها ومعظمهم <sup>(١)</sup> من قيس وتميم وفهر وجريز فتطاوت رقاب كتامة من البربر فسقطت الدولة العربية . ودامت دولة الأغالبة مائة واثنى عشرة سنة كما دامت دولة بني مدرار في سلجاسة مائتين وستين سنة .

وأعاد لإدريس من ولد محمد بن القاسم الإمامة إلى بيته ، بعد أن كانت فيه مدة ثم تراجعت وذلك بعد الأربعين وثلثمائة . وقامت عدة دول في شمالي إفريقية لم يطل أمرها كثيراً كما قام في الأندلس ، مثل دولة بني عبد الواد ويعرفون ببني زياد ، قامت بالمغرب الأوسط أي في بلاد الجزائر أو جزائر بني مزغنان ، وذلك عند ضعف دولة الموحدين ، وجعلوا قاعدتها تلمسان ودامت من سنة ٦٣٣ إلى ٩٢٣ هـ . ومثل دولة بني مرين في المغرب الأقصى من سنة ٦١٣ - ٨٢٣ هـ . وهم من البربر كزناته وبني عبد الواد وقد تلقب ملوكهم بأمر المؤمنين ، وخلفتهم الدولة الوطاسية في المغرب . ولما ذاع صيت المستنصر <sup>(١)</sup> أحد أمراء الحفصيين بني أبي حفص في الآفاق أرسل إليه أمير مكة وأهل الأندلس ببيعةهم بالخلافة سنة ٦٥٧ هـ . ولقب من يومئذ بأمر المؤمنين . وكان ملك الحفصيين في تونس يدعى الخلافة ويلقب بالقباب الخلفاء ، ويخاطب بأمر المؤمنين . والحفصيون نسبة إلى أبي حفص أحد العشرة أصحاب ابن تومرت ، وهم بقايا الموحدين .

وأهم الدول التي ظهرت في المغرب وانتشر سلطانها في المشرق وأغصت الدولة العباسية بريقها الدولة الفاطمية . وقد هيا لها العباسيون دعاية ممتدة النطاق للطعن في نسب مؤسسها ، ومن المؤرخين كابن خلدون والمقريزي من

صححه ، ومنهم وهم الأكثر من زيفوه . والغالب أن أصل ملوكهم من شيعة الإسماعيلية في سَلَمِيَّة في الشام هبوا لتأسيس ملك ، فزالوا يتنقلون في ربوع إفريقيا حتى قام أبو عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ هـ . وتسمى بأمر المؤمنين وقتل أبا عبد الله الشيعي داعية ملكه ، على نحو ما فعل المنصور العباسي فقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس دولته .

وسميت هذه الدولة بالفاطمية نسبة لفاطمة بنت الرسول ، ومن المؤرخين من يطلق عليها اسم العبيديين نسبة لأبي عبيد الله مؤسسها . وادعت الخلافة ، ولقب ملوكها بأمراء المؤمنين واستولوا على القسم الأعظم من شمالي إفريقيا . وبني عبيد الله أول ملوكهم في إفريقيا « القصور ورتب السياسة وأحكم التدبير » وأمر أن يدعى له في المنابر وخطب الأعياد بمرسوم ، يقال فيه بعد الصلاة على النبي وعلى أمير المؤمنين على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين وعلى الأئمة من أولادهم : « اللهم صل على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك أبي محمد عبيد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين ؛ الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون ، اللهم وكما اصطفتيه لولايتك واخترتة لخلافتك ، وجعلته لدينك عصمة وعماداً ، ولبريتك موئلاً وملاذاً ، فانصره على أعدائه المارقين ، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته ، وأيده على العصاة الضالين ، إنك أنت الحق المبين » . وكانت أوامر المعز « تنفذ من أقصى الشام والحجاز إلى السوس الأقصى » . ويقول ابن الخطيب (١) إن المعز لدين الله (٢) كان أعظم ملوكهم خطراً ، وكان بعيد الصيت ؛ عظيم الجبروت ، وقوراً كثير التأني ، ذهب بنفسه كل مذهب ، حتى زعموا أنه أمر المؤذن أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وأن مما يشهد لذلك قول شاعره أبي القاسم محمد بن هاني الأندلسي في القصيدة الشهيرة التي أولها :

أتظن راحاً في الشمال شمولاً      أتظنها سكرى تجر ذبولاً

(١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب . (٢) يقول ابن خزم في طوق الحمامة إن منصور بن نزار الذي ولي الملك بعد أبيه نزار بن معد صاحب معبر ادمي الألبانية .

ويقول من أبيات غير متوالية :

أمديرها من حيث دار لطالما	زاحت تحت لوائه جبريلا
أورثته البرهان والتبيان والد	فرقان والتوراة والإنجيل
وعلمت من مكنون علم الله ما	لم يوث في الملكوت ميكائيل
لو كنت آونة مبشر أمة (١)	نشرت لمبعثك القرون الأولى
لو كنت نوحاً منقراً في قومه	ما زادهم بدعائه تضليلا
لله فيك خفية لو اعلمت	أحيا بذكرك قاتل مقتولا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته	لم يخلق التشبيه والتشبيلا
والكتب لولا أنها لك شهد	ما فصلت آياتها تفصيلا
لولا حجاب دون علمك خاجز	وجدوا إلى علم الغيوب سبيلا
لو لم تعرفنا بذات نفوسنا	كانت لدينا عالماً مجهولاً

وإذا أحسننا الظن بالمعز — وهو في قوم أكثرهم على خلاف مذهبه يضمرون له ولدولته. السوء — نقول إن هذه مبالغة شاعر كان الأولى بالملك الفاطمي ألا يقره عليها ، لأن إشاعتها مما يضر بسياسته . وإذا أسأنا الظن نقول إنه أوعز بعمل هذه الأبيات أو كان على الأقل لا يرضيه غير هذا اللسان ، وهذا الإغراق في مدحه . والمعز هو الذي صحت عزيمته على فتح مصر بعد أن غزتها جيوش دولته غير مرة ، وكان فتحها على يد مولاه القائد جوهر الصقلي الذي قطع خطبة بنى العباس عن منابر الديار المصرية ، ونزع اسمهم من السكة ، وعوض عن ذلك باسم مولاه ، وأزال شعار الأسود وألبس الخطباء الثياب البيض ، وأمر بالزيادة عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وفضل على الأئمة الطاهرين آباء المؤمنين » وأذن بحجى على خير العمل ، صيغة الأذان الشيعي .

(١) في ديوانه يدل « مبشر أمة » نبياً مرسلًا .

ولما دخل المعز إلى مصر أمر بأن ينقش على الجدران في مصر القديمة « خير الناس بعد رسول الله أمير المؤمنين على بن أبي طالب (١) » .

قيل إن الجيش الفاطمي لما دخل مصر كان مائة ألف ، وقيل مئة وأربعين ألف مقاتل ، معه ألف وخمسمائة جمل تحمل الذهب فقط ، ذكروا أنه كان ثلاثة وعشرين ألف ألف دينار ، وهو مبالغ عظيم يدل على اشتطاط الفاطميين في سلب من حكمهم من الأفارقة مدة ليفتحوا بما جبوا مصر ويمتدوا منها إلى الحرمين ، ثم يضعون أيديهم على الملك العباسي . واستكثر الفاطميون من العساكر بمصر فكانوا بين كتامة وبربر ومغاربة وروم وصقالبة عدداً عظيماً ، قل للدولة أن جمعت مثله و« تمتاز الدولة العبيدية على من تقدمها في الأمر بكونها تأسست بدعوة الدين والقائمين بنصرتها هم البربر من قبائل إفريقية » وأقبل العبيديون في آخر أمرهم على شراء الممالك لاتخاذهم عبيداً وحراساً وبطانة ، وأصبح جيشهم مؤلفاً من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم ، وكثر النصاري واليهود في خدمة الفاطميين على صورة مستغربة ، ثم اضطهد النصاري على عهد الحاكم بأمر الله وخربت كنائسهم ، ثم أعيدت إلى ما كانت . وأبقى الفاطميون أهل السنة في أعمالهم في البلاد المصرية والشامية والحجازية ، ثم راحوا يستعوضون عنهم ولاسيما عن كهرائهم بأناس من أهل عصبيتهم الإسماعيلية . فضنجت البلاد من مظالمهم ، ومن فرضهم مذهبهم على أهل السنة فرضاً . ومن العمال من تظاهروا بالتشيع لتسلم لهم مناصبهم ، ومنهم من أبوا فنحوا عن أعمالهم .

مهد الفاطميون لخلافتهم بالبذل الكثير للشعراء وأرباب الدعاية وأكثروا من الألقاب الغربية ، يعطونها لمن يرجون الخير منه اسلطانهم . وكان الوزراء في بعض أدوار هذه الدولة (٢) يلقبون كألقاب الخلفاء فيهم ، وكان ابن ممتا

(١) انه ظ الحنفا للحمريزي .

(٢) تاريخ مصر لابن لياس .

في الأدوار الأخيرة كالمستولى<sup>(١)</sup> على الديار المصرية ليس على يده يد ، والمسمون بالخلافة من الفواطم محجوبون ليس لهم غير السكة والخطبة . ومن أظهر الظواهر السياسية في مؤخرات أيام الفاطميين أنهم كانوا يواترون ، نقل العمال والولاة والوزراء . مخافة أن يتأصل شأنهم في البلاد ، وكانوا إذا جاء فيهم مثل المعز على جانب من الثقافة العالية لا تأخذه رحمة بمن يلاحظ أنهم مخالفوه في رأيه . فقد حرق كثيراً من أعيان مصر وأدبائها<sup>(٢)</sup> بالنار - إذا جاء فيهم مثل هذا فقد كان فيهم أضعف الضعاف الفاسدين .

ولقد بالغ بعضهم في عمل الفاطميين ، وتابعهم من يأخذون الأمور على ظواهرها ، ولو أنصفوا التاريخ لما تخرجوا من التصريح بأن ظلم الفاطميين في شمالي إفريقية أخرجها من أيديهم على أقل سبب ، واشتداد عملهم في إيذاء الناس في صقلية منع من امتداد سلطان المسلمين في جنوبي أوروبا ، حتى قال أحد المفكرين في هذا العصر<sup>(٣)</sup> إنه لم يكن على الإسلام ما جناه هؤلاء العبيديون الفاطميون ، وما ذكر من مساوئهم أنه في عهد أبي عبيد المهدي نصب على ولاية أوروبا أي صقلية خليل بن اسحق الطاغية ، فقضى في الحكم أربعة أعوام ، ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله ، ومن ظلمة أخذ المسلمون يفرون أفواجا إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ولما عاد سنة ٣٢٩ هـ إلى إفريقية كان يفتخر بمظالمه ، وحضر مجلساً فيه وجوه الدولة العبيدية في قصر الإمارة ، فقال إنه قتل في إمارته ألف ألف نسمة . فرد عليه أبو عبد الله المؤدب ، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة ما يكفيك » .

ونتطلب للفاطميين في الجرمين (٣٦٢ هـ) . وفي سنة ٣٩٦ خطب بالحرمين للحاكم بأمر الله ، وأمر الناس عند ذكره بالقيام وأن يسجدوا له . وكان الرسم أن يلتقي الناس الخليفة الفاطمي بتقبيل الأرض ، عادة لهم أخذوها من

(١) معجم البلدان لياقوت . (٢) تاريخ جوهر الصقلي لعل إبراهيم حسن .

(٣) بحث لعبد العزيز الثعالبي في كتاب تاريخ غزوات العرب لأرميلان .

« الفرس والإسلام لا يترها ، وخطب أمير بنى عقيل للحاكم الفاطمي بأعماله كلها وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ( ٤٠١ هـ ) وغيرها ، وكان ابتداء الخطبة بالموصل « الحمد لله الذي انجلى بنوره غمرات الغضب ، وانهدمت بعظمته أركان النصب » . وخطب البساسيري ( ٤٥٠ هـ ) بجامع المنصور ببغداد للمستنصر بالله العلوي خليفة مصر ، وأمر المؤذن فأذن بحمدي على خير العمل ، ودامت الخطبة له سنة .

امتد ملك الفاطميين منذ قاموا بسجله سنة ٢٩٦ هـ إلى أن توفي العاضد سنة ٥٦٧ هـ فائتين وثنتين وسبعين سنة وظلت المنابر تخطب بأسماء خلفائهم في إفريقية إلى سنة ٤٢٥ هـ . وفيها نبذت دعوتهم عقبى ثورة الإفريقيين على الشيعة في شمال إفريقية ، وخطب لبنى العباس فيها منذ سنة ٤٣٩ هـ ، واعترف خليفة بغداد بالاستقلال للمعز الذي خلف دولة الفاطميين بإفريقية . وفي أيام الفاطميين قتل الدوقس عظيم الروم على حصن قامية من بلاد الشام ( ٣٣٢ هـ ) . وقتل من عسكره ألوف وأسر منهم خلق كثير . وكان يعقوب بن كلث أحد كبار وزراءهم أوصي خليفته المعز عند وفاته بأن يسلم الروم ماسالموه ، وأن يقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، وأن لا يبقى على مفرج بن دغفل ابن جراح إن عرضت له فيه فرصة (١) . وكان المعز نصيح لنائبه يوسف بن زيري لما أزمع الرحيل إلى الشرق ، بعد أن فتحت مصر باسمه فقال : إن قسيت شيئاً مما أوصيتك به ، فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من أهل بيتك ، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بالحضر خيراً . وكانت أبدأ سياسة الفاطميين مع غير الدول الإسلامية لينة . ويقال إن من رجالهم المتأخرين من فاوضوا الصليبيين ليسلموا لهم ملكهم الذي كان في بعض الأدوار بأيدي النساء والمتغلبين من الرؤساء . وكان يوثق ببعضهم وهم أطفال يجلسون على سرير الملك . وفي سيرة بعضهم من القبح ما لو قسم على عدة ملوك لكان

( ١ ) وفيات الأعيان لابن خلكان .

فظيعاً، وإن مجد فيهم عمارة اليمن بشعره لكثرة ما أغدقوا<sup>(١)</sup> عليه من الأموال والعطايا . قال ابن ظافر جامع أخبار الدولة العلوية بإفريقية ومصر والشام : إن هذه الدولة عظم خطب الاختلاف في أحوال أربابها ، وقويت الشناعة بإبطال ما ادعته من انتمائها إلى العترة النبوية . قال وهم أصل القرامطة الذين كان هلاك الدين على أيديهم ، وظهر خروجهم على أهل ملة الإسلام وتعتديهم ، كلام فيه حق وغيره .

\* \* \*

لم تخل الأندلس وشمالي إفريقية أو الغرب الأقصى والأوسط والأدنى ، ومصر واليمن وما إليهما ، من نائر على الخلافة العباسية أو من أمير سموه خليفة ، أو من خلفاء لهم بالفعل ، كانوا على جانب من القوة واستجاء أدوات الملك أمثال الأمويين في الأندلس ، والفاطميين في إفريقية ثم في مصر ، وأمثال رجال دول المرابطين والموحدين والأداسة وبنو مرين والحفصيين : وجاء في بعض العصور عدة خلفاء في الأرض ، ومنها خلافة سنية ، وأخرى شيعية ، وثالثة خارجية ، ورابعة زيدية ، والقوة في مجموعها كانت للخوالف من أهل السنة .

كانت دول العرب الأولى إلى أواسط المئة الثامنة على صورتها الاستبدادية تجمع شمل الأمة في الحملة ، والخير يأتيها متقطعاً على أيدي الملوك العادلين وإن لم تكن صفات العدل الحزم والعلم كل حين على مقياس واحد في كل فرد تولى الخلافة أو الملك . والنوابغ قليل عددهم في كل صناعة ؛ فكيف بأصعب الصناعات صناعة الملك . وكان الصالح في القرون الأولى أكثر من الطالح في الملوك والزعماء ، وفي القرن الرابع كثر عدد من لا يصلح للملك ولا لإدارة البلاد ، وقوى الدخلاء فاستأثروا بالحكم ، وبقي القول الفصل لهم في الحياة العامة ، ولا حول ولا طول للخلفاء من العرب .

( ١ ) النكت المصرية لمارة اليمن .

هذا وعمر الخليفة أو الملك قصير ونادر أن يعمل بسيرته من يخلفه ، حتى ابنه الذى رباه وأورثه ملكه ، وقلم يكمل الخلف ما بدأ به السلف من عمل ، أو جرى عليه من سياسة وتدبير . وفى النادر أن يحافظ الثانى على أوضاع الأول إلا فيما لا غنية عنه ، وربما نفع من طالت أيامهم من الملوك على استبداد قبيهم ، لاستقرار الأمر فى حياتهم ، أكثر من ملوك استوفوا شروط الحكم ، وما امتد أجل أحكامهم غير أعوام قليلة .

لو علت سن عمر بن عبد العزيز لدخلت خلافة الأمويين ، بل الإسلام والمسلمون ، فى طور جديد من كل وجه ، ولو طال عمر المؤمن لم يعلم أحد بما كان يكون من حكمته وحنكته فى دولة بنى العباس ، وما أعاد القادر بالله (٤٢٢ هـ) جدة الخلافة العباسية وجدد ناموسها ، وكان قد طمع فيها الديلم والترك ، إلا لأن خلافته أربت على إحدى وأربعين سنة ، وما أصبح الخليفة الناصر العباسى مرهوب الجانب فى الهند ومصر والشام والعراق وخطب له ببلاد الأندلس وبلاد الصين ، ودانت له السلاطين ، إلا أنه طالت أيامه سبعة وأربعين سنة (٦٢٢ هـ) . وهكذا يقال فى الناصر الأموى الذى كانت خلافته فى الأندلس خمسين سنة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) . وقل مثل هذا فى المستنصر العبيدى من الفاطميين ، وسنجر بن ملكشاه من السلجوقيين ، وقلاوون وابنه محمد من المماليك<sup>(١)</sup> .

قد ينطوى الخليفة أو الملك الذى تدوم خلافته على عيوب تحتل فى جانب الاستقرار الذى تنتفع به الأمة ، ومن النادر أن تطول أيام الملك ولا يختلف نظر الناس فى الحكم عليه ، وتبدو لهم مقاتله وتظهر عيوبه ، وإذا كان من نسل عظماء موقرين فى الصدور ، تنشأ له هيئة فيضم شمل الجماعة ، كما كان من الناصر العباسى الذى دعوه أسد بنى العباس<sup>(٢)</sup> لإحيائه الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ثم ماتت بموته .

(١) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعى . (٢) دول الإسلام للنهشى .

ذكروا أن العباسيين الأولين صرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا ، حتى جاء بنو الرشيد فكان منهم الصالح والطالح ، ثم أفضى الأمر إلى بنهم فأعطوا الملك حقه ، وانغمسوا في الدنيا وباطلها ، ونبدوا الدين وراء ظهورهم ، فتأذن الله بحروبهم ، وانتزع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منهم ، وهذا الرأي لا يصح على إطلاقه في كل الدول التي قامت ثم انقرضت :

تم الملك لبنى العباس بجيش خراسان الفارسي ، واضمحلت خلافتهم بالجيش التركي . كان الجند الفارسي قوة الخلافة العباسية لأول أمرهم ، ومن العنصر التركي بعد ذلك ضعفهم . وفي القرن الرابع كان الجيش العباسي مؤلفاً من المماليك<sup>(١)</sup> الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية واليانسية والمفلحية والأزكوتكينية والكيغلية والكنداجية ، نسبة لقواد لهم ووزراء من الأعاجم ، كانت لهم القوة في الدولة العباسية ، فأصبحت الخلافة بتدخل الفرس أولاً وتدخل الترك وغيرهم آخرأ ، ألحوبة في أيدي كل من تتم له القوة والغلبة على غيره من الأمراء والخوارج ، ولم يكن إلا قليل حتى أصبح سلطان الخلافة الفعلي لا يتعدى بغداد وما جاورها ، بل أمسوا وليس لهم حتى في بغداد ولا في قصورهم وشئونهم الخاصة شيء من الاستقلال ، يود كل عنصر من عناصر الجيش أن يستأثر بالسلطة دون منافسه من الأجناس الأخرى ، وربما لم يكن جميع الترك والفرس ممن تمثلوا الإسلام ظاهراً وباطناً : فقد وقعت فتنة بين الأتراك والهاشميين في سنة ٣٨١ فرفع الهاشميون المصاحف على الرماح ، فرفع الأتراك الصليبان على الرماح :

فسدت العصبية العربية في القرن الخامس فساداً ظاهراً ، وفي الجنس العربي في الأجناس الغربية الأخرى ، حتى لا يكاد العربي يرى في المقامات العالية ، وأضعف بنو بويه الديلم ، وبنو سلجوق الترك ، عصبية الدولة العباسية العربية الفارسية . وانقرضت الدولة الأموية العربية من الأندلس ،

ولم يبق غير أقبال من العرب في المغرب بعد ذهاب الفاطميين من شمال إفريقيا ونزولهم مصر . وأخذ الصليبيون في العشر الأخير من هذا القرن يغزون بلاد المسلمين ، فكان هذا العصر عصر تراجع السياسة العربية في كل مكان . وبمقتل العربي مسلم بن قريش صاحب الموصل ( سنة ٤٧٨ هـ ) على يد سليمان ابن قتلمش التركي - وكانت لمسلم طاعة حلب ورياستها شورى في مشيختها - انقرض الحكم العربي من الشام ، أول قطر استصفاه العرب الفاتحون .

ثم دخلت البلاد في دور سياسي آخر ، وأصبح الناس يعاونون كل متغلب على الملك ، إذا أخلص النية في قتال الصليبيين ، فحكم البلاد التركي والكردي والشركسي ، وما عاد يخطر في البال إرجاع ملك العرب ، فنسيت معاني القومية العربية ، وماتت أو كادت روح العصية المعروفة للقدمات ، ولم يعد الملوك يعتمدون على قيس ويمن أو على إحداهما في قهر أعدائهم وتأييد سلطانهم ، وأصبحت الجيوش المقاتلة والقواد والملوك من عناصر مختلفة لا تجمعها إلا كلمة الإسلام .

قرض صلاح الدين الكردي باسم نور الدين التركي دولة الفاطميين العربية في مصر فحكمها نور الدين باسم الإسلام ، وحكمها بعده صلاح الدين وآله باسم الإسلام ، وقامت بعد في مصر والشام دولة المماليك البحرية ودامت ١٣٠ سنة ، ودولة المماليك البرجية وطال عمرها ١٣٥ سنة ، وكلتاهما حكم باسم الإسلام لا باسم عناصرهما المتنوعة . وجاء من هذه الدول عظماء من الرجال كنور الدين وصلاح الدين ولم يطل عمر دولتهما كثيراً على ما كان فيهما من الخير العظيم . وذلك لأن ولاية العهد لم تكن مقررة على قاعدة ثابتة ، فنور الدين مثلاً خلف ولداً صغيراً ارتضى به خواص أبيه ملكاً ، ولكن من الصعب أن يدبر طفل أمر البلاد في أخرج حالاتها السياسية ، فأتى صلاح الدين نائب نور الدين في مصر وتولى الأمر في الشام بحكم الطبيعة ، ولما هلك تفرق ملكه في أولاده ، فاختلفوا واشتد خلافهم ، لأنه لم يعهد إلى الكفاء منهم بولاية العهد . ولئن كان فيهم رجال على جانب من الكفاءة ، فإن اختلافهم فتح السبيل لعمهم العادل لتولى الملك .

لما مات العزيز بن صلاح الدين ملك مصر خلف ابنا عمره تسع سنين وأوصى له أبوه بالملك بعده ، وسموه الملك المنصور ، وتقرر أن يجعل له من يدبر أمره فجعلوا عمه الملك العادل أتابكه إلى أن يتأهل<sup>(١)</sup> للاستقلال بأمور المملكة فقال الملك العادل : إنه قبيح بي أن أكون « أتابك » صبي مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب ، وإنه كان يجب أن أكون بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين ، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي ، ورعاية لحقه . قال فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك عن يدي ويد أولاد أخي فسست الأمر إلى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه ، فلما ملكت هذه البلاد ، وطنت نفسي على أتابكية هذا حتى يبلغ أشده ، فرأيت العصبية باقية ، والفتن غير زائلة ، فلم آمن أن يطراً على ما طراً على الملك الأفضل ، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبوا إقامة إنسان آخر ، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبي إلى الكتاب ، وأقيم له من يودبه ويعلمه ، فإذا تأهل وبلغ أشده ، نظرت في أمره وقمت بمصلحه . فوافقوه على رأيه وحلفوا له ، وخلفوا المنصور الطفل وخطبوا للعادل .

كان المعتول ما تم من بيعة العادل ، مستشار أخيه صلاح الدين ومؤتمنه ، لبعده غوره في سياسة الدولة . أما هو فقد قسم مملكته في أربعة من أولاده ، ووقعت مصر للكامل فتولاها نائباً ومذكاً أربعين سنة ، وجرى على سنة أبيه وعمه في جهاد الأعداء وأبان عن كفاءة ظاهرة ، وكان يخطب له بمكة ( مالك مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ، ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين ، الملك الكامل أبو المعالي ، ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين ) وكان أولاد<sup>(٢)</sup> العادل كالتنفس الواحدة باتفاقهم . قال ابن الأثير فيهم « فلا جرم

( ١ ) السلوك للعقريزي . ( ٢ ) تاريخ الكامل لابن الأثير .

زاد ملكهم ، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم ، ولعمري إنهم نعم الملوك ، فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام » .

وكان ملوك دولتي المماليك أشبه برؤساء عصابات متغلبة ، وقد جاء منهم من كانوا يحسنون السياسة ، ومنهم من حملوا على رقاب الناس الحصيان والنسوان والصبيان . « ولم<sup>(١)</sup> يكن نظام الوراثة مألوفاً عند المماليك فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية ، وكثرة الأتباع والخذق في تدبير المؤامرات » وما كانت مع هذه ذولة المماليك أقل غناء من كثير من دول الأحرار وأدعياء الشرف .

ولم يسمع بعد عصر المماليك بظهور قائم من العرب ، حتى قام فخر الدين المعنى الثاني في القرن الحادي عشر فاستولى على لبنان وأكثر الساحل الشامي ، يرضى العثمانيين بما أمكن من إتاوة ، ويعطى السلطان طاعته ، فقتلته الدولة . وقام في القرن التالي في جزيرة العرب عبد الله ابن سعود فاستولى على نجد والحرمين ثم أخذه العثمانيون أيضاً وقتلوه ( ١٢٣٣ - ١٨١٨ م ) ومزقوا ملكه . وما سمع بعد ذلك صوت لعربي تحدّثه نفسه بالحكم في العراق والشام والجزيرة ومصر وغيرها ، وصفت كلها للترك العثمانيين بدون منازع .

( ١ ) تاريخ العصور الوسطى لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوي .

## سياسة الترك العثمانيين :

عشيرة من عشائر الترك جلت من تركستان على عهد جنكيزخان ، وضربت في الأرض معرجة على بلاد فارس ، آخذة إلى سمت الغرب ، تنتقل من إقليم إلى إقليم ، حتى ألفت رحالها في صميم آسيا الصغرى ، وأنشأ رئيسها عثمان بن أرطغرل سنة ٦٩٩ هـ ، إمارة صغيرة في أرض الدولة السلجوقية وكان أنشئ على أنقاضها في الأناضول ثلاث عشرة دولة كانت إمارته إحداها ، كبرت مع الأيام حتى غدت سلطنة عظيمة ، تملك أجمل الأقطار في آسيا وأوروبا وإفريقية ، هذا تعريف الدولة العثمانية التي كان رأس مالها يوم نشأتها شجاعة رئيسها وآله ، وطاعة مروءسيها ونجدتهم . وضع العثمانيون أى المنسوبون لعثمان أساس مملكتهم في جوار « سكود » و « اينه كول » أولا ثم استولوا على « ينشهر » « فبورسا » واتخذوا هذه قاعدة بلادهم . ولما رأى إمبراطور القسطنطينية « يان كنتاكوزن » قوة هذه الإمارة الإسلامية في جواره ، وأن أورخان ثانی ملوكهم فتح « بولاير » و « كليبولى » و « تكفور طاغى » من غرب بلاده ، عقد معه صلحاً وزوجه من ابنته تيودورا ، وجاء السلطان العثماني إلى « اسكدار » على شاطئ الآسيوى من فروع ، وهناك زفت إليه ، وكان أول ملك عثمانى تزوج من غريبة عن دمه ، مخالفة له في عاداتها ودينها ، وظهر من مجرى الحوادث أن العثمانيين كانوا على اتصال وثيق بالروم ، ولهم مع زعمائهم وقوادهم<sup>(١)</sup> صلات كانت تزيد على الأيام استحكاماً ، بدأت منذ استولى آل عثمان على بروسا . ولما ضموا إلى إمارتهم إمارة « قره سى » على عهد أورخان أنشأوا بحرية تفوق أساطيل الإمارات الأناضولية الأخرى ، كما كان لهم جيش بدئ بتنظيمه على عهد أورخان أيضاً .

كان على العثمانيين أن يستولوا على عشر إمارات تركية صغيرة قامت في آسيا الصغرى في جوارهم ، ولكنهم وجهوا وجهتهم إلى غاية أخرى ،

(١) معلمة الإسلام . ترك .

وجهوها إلى أرض أوربا ، وبعد الاستيلاء على مفاتيح الدردنيل بفتح كليولى وما إليها فتح ثالث ملوكهم فيلبه وأدرنة ونقل إلى هذه عاصمته ، يريد بانتقاله من بروسا أن يؤسس دولة شرقية في أرض الغرب . وساعد السلطان مراد الأول على انتصاره في قارة أوربا ما كان من التنافس المتبادل<sup>(١)</sup> بين دول البلقان أى بيزنطية ومملكتى البلغار والصرب ، وما كان من التطاحن بين حكومتى البندقية وجنوة على التفوق في الشرق ، وما كان من غيرة الباباوات لإرجاع الكنيسة اليونانية إلى حجر كنيسة رومية . فكان للعثمانيين أنصار في معسكرات النصارى نفسها . ولما<sup>(٢)</sup> رأت دول أوربا توسع مراد الأول (١٧٩١هـ) في فتوحه عقدت بينها تحالفاً على العثمانيين ، ودخل في هذا الحلف ملوك الصرب والبيجناكية (البشناق) والبلغار والأفلاق والبغدان والمجر والبولونيين والتشكيين ، وهاجموا العثمانيين في مئتي ألف جندي في صحراء قوصوة<sup>(٣)</sup> فارتدوا خاسرين ، وقتل ملك الصرب وغيره من أمرائهم في المعركة وصفت تلك البلاد لبني عثمان . واتفق بعد قليل من الزمن أن قام تيمورلنك حليف صاحب القسطنطينية . وكانت حكومات النصرانية تحاول منذ قام العثمانيون بفتوحهم الأوروبية أن يكون لهم حلفاء من ملوك آسيا ، لصد غارات بني عثمان ، فداهم تيمورلنك بلاد آسيا الصغرى ، وقاتل ييلديرم بايزيد رابع ملوكهم وأسره فمات في أسره بعد أشهر قليلة ، وتمزقت مملكة العثمانيين ، وكان يخشى أن تدرج مع الدول البائدة لولا قيام محمد الأول لضم شتاتها ، فعدّ بعمله العظيم المؤسس الثاني للدولة العثمانية . وما كان بايزيد أسير تيمورلنك بالملك الذى يستهان بقوة شكيمته ، لُقب بالصاعقة ( ييلديرم ) لمبادرته إلى الزحف وتسارعه في أعماله . فقد فتح بلاد اليونان وحاصر القسطنطينية عشر سنين وضرب الجزية على إمبراطورها ، مشروطاً عليه أن يخص المسلمين بحجى

( ١ ) معلمة الإسلام . مراد الأول . ( ٢ ) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .

( ٣ ) اشتهرت هذه الصحراء بوقعتين عظيمتين كانت الأولى سنة ٧٩١ هـ . وفيها قضى

مراد الأول الملقب بخداوندكار هل مملكة الصرب ، والثانية ج ت في سنة ٨٥٦ هـ . وفيها اتفق

مراد الثاني على جيوش المجرين والنمساويين والرومانيين وكانوا بقيادة هوقياص صاحب المجر .

من أحياء القسطنطينية ، ويسهل لهم السبل لإنشاء جامع وإقامة قاض يحكم بينهم ، فلما زحف تيمور على بلاده أبطل صاحب الروم ما كان تعهد به لبايزيد . وكان خف سجسموند ملك المجر في جيش من المجرين والألمان والفرنسيين لرفع الحصار عن القسطنطينية فانقض عليهم بايزيد انقضاض الصاعقة وهزمهم شر هزيمة في نيكبولى على نهر الطونة ( الدانوب ) .

وسار مراد الثانى على قدم أجداده فتوسعت فتوحه فى آسيا الصغرى ، وأسر فى أولوباد إمبراطور الروم وحمله إلى أدرنة فصلبه فيها ، ولم يبرح يغادى القسطنطينية القتال ويرأوحها ، ويحاصرها فيضيق حصارها . ثم اعتزل الملك وبويع لابنه محمد بالسلطنة ، وكانت الدولة أمام مشاكل خطيرة فخاف رجالها أن يضعف السلطان الفتى عن صد هجمات الأعداء ، لصغر سنه وقلة تجاربه ، فاتفقوا معه على أن يرجع والده إلى السلطنة فعاد من عزله بعد الإلحاح ، وقاتل جيوش التحالف المجرى الألمانى البجناكى الأفلاقى البغدانى فشنت شمله فى صحراء قوصوة . ثم عادت جيوش النصرانية فجيشت على العثمانيين جيشاً مؤلفاً من المجرين والبولونيين والتشيكين وغيرهم ، قدر بمائة وخمسين ألف جندي ، فهزمهم شر هزيمة وقتل كثيراً من ملوكهم وحكامهم . ولما جاء سابع ملوكهم محمد الثانى يتولى زمام السلطنة كان أجداده قد فتحوا أمامه السبل للاستيلاء على القسطنطينية بما فتحوه فى أطرافها من البلاد ، فحاصرها براً وبحراً ، وساعدته المدافع التى كان جيشه مجهزاً بها ، وكان اختراعها حديث العهد ، وبعد معارك دامية قتل فيها قسطنطين دراكاكيس آخر إمبراطورها ، فتح الترك القسطنطينية ( ٨٥٧ - ١٤٥٣ م ) ولقب محمد الثانى بالفاتح ، وغدت هذه العاصمة الجميلة عاصمة العثمانيين إلى آخر أيامهم ، بعد أن كانت عاصمة الروم نحو ألف سنة . وعد فتحها مبدأ عهد سياسى جديد أرنخ به المؤرخون ، ذلك لأنه قضى على المملكة البيزنطية الشرقية التى طالما صاولت المسلمين منذ عهد الراشدين والأمويين والعباسيين ،

وبفتح القسطنطينية أصبحت الدولة مرهوبة الجانب موقرة السلطان ، وتوقع الغرب منها أحداثاً جديدة تنبعث من الشرق الجنوبي في أوروبا ، على نحو ما كان من دولة العرب الأندلسية في الجنوب الغربي من تلك القارة . وحسب فتح القسطنطينية<sup>(١)</sup> من أعظم حوادث التاريخ في العالم ، وأثر في حالة أوروبا السياسية ، وبه كتب التفوق للأتراك في الشرق قروناً ، وكان منه على اليونان مصيبة كبيرة دامت تأثيراتها إلى عهد الثورة التي قاموا بها في النصف الأول من القرن الماضي ، وأوشك هذا الحدث العظيم أن يبدل مجرى التاريخ ، واصطلح العلماء على أن جعلوا من أيام شهرى نيسان وأيار ( أبريل ومايو ١٤٥٣ ) تاريخاً عظيماً ختمت به القرون الوسطى وبدأت العصور الحديثة .

وتوسع الفاتح في فتوحه على البحر الأسود ، ففتح مملكة طبرزون الرومية في سنة ١٤٦١ ، واحتل عدة جزر من جزائر البحر المتوسط ، وكان يرمى إلى فتح جميع شبه جزيرة البلقان . وخلفه ابنه بايزيد الثاني فما حاد عن خطة التوسع فاستولى على البانيا وغيرها ، وخرج عليه أخوه « جم » والتجأ إلى قايتباي ملك مصر والشام فاستاء بايزيد مما عومل به أخوه في بلاد العرب واتخذ من إيواء مصر أخاه حجة على قتال المماليك في أرجاء أذنة وشمال الشام ، كانت الغلبة في عدة وقائع للمماليك فاستخلصوا من الترك عدة حصون ، وأسروا جماعة من كبار قوادهم . وسبب هزيمة الترك أن الدولة العثمانية كانت منذ عهد محمد الأول إلى أيام بايزيد الثاني تصرف قوتها في قتال أوروبا .

ثم قام تاسع سلاطينهم سليم الأول واستجاش على الشاه الصفوى صاحب العجم ، فتغلب عليه في وقعة جالديران ، وفتح تبريز وهمدان وأذربيجان والقوقاز ، وانقلب فجأة نحو بلاد العرب ففتح في طريقه ديار بكر وما إليها وقضى على مملكة ذى القدرية في أنحاء مرعش والبستان ، وتقدم إلى الشام فالتقى بالغورى ملك مصر في مرج دابق من عمل حلب ، والتحم بينهما القتال

( ١ ) تاريخ تركيا للأموث Lamouche : Histoire de la Turquie

فكانت الغلبة للسلطان العثماني ، وقتل الغوري في المعركة واختفى أثره . ودخل سليم الشهباء فلقبه الخطيب في خطبة الجمعة مالك الحرمين الشريفين ، فقام السلطان من محله ، وتقدم إلى الخطيب بقوله أنا أقل من أن أملك الحرمين الشريفين ، ومفخرتي أن أكون لها خادماً .

وبهذه الواقعة الفاصلة فتحت الشام ومنها سار الفاتح إلى مصر براً فاستولى عليها ، وأمن ملكها طومان باي آخر ملوك المماليك ثم قتله . وأرسل إليه شريف مكة يبذل له الطاعة ، فدخلت الحجاز أيضاً في ملكه . وأضحت مملكته بهذه الأقطار التي افتتحت توازي بمساحتها ضعف المملكة التي فتحتها أجداده الثمانية . وفي عهد ابنه سليمان القانوني عاشر ملوكهم فتحت اليمن والحبشة والعراق وطرابلس وبرقة وتونس والجزائر والصحراء الكبرى والسودان ، وفتح العراق أصبح السلطان العثماني بحق « سلطان البرين والبحرين » وساحل سليمان الاستيلاء<sup>(١)</sup> على الغرب الأقصى وأرسل إلى سلطانها اثني عشر فاتكاً من فتاكه سنة ٩٦٤ فاغتالوه إلا أن سلطان الأتراك لم ينبسط على تلك البلاد ، وغاية ما في الباب أن شريف مراكش اعترف بسلطان العثمانيين<sup>(٢)</sup> ( ١٥٨٠ م ) . وعلى هذا ضمت البلاد العربية في آسيا وإفريقية إلى السلطنة العثمانية كما كان دخل فيها بلاد الروم والأفلاق والبغدان والبلغار والبجناكية والمجر والصرب والأرناؤد والقفجاق والقرم واللاز والكرد فم دور الفتوح .

أعان العثمانيين على فتوحهم البحرية بعض من تطوعوا في خدمتهم من قرصان البحر<sup>(٣)</sup> ، وما كتب قط للدولة تفوق عظيم بأساطيلها ، وسارت البحرية<sup>(٤)</sup> العثمانية بشجاعة ربابيتها أكثر من سيرها بعددها ونظامها ، على أن السلطان سليماً بذل جهوداً كثيرة لترقيتها ، وجرى ابنه سليمان على خطته ، فارتقت ارتقاء عظيماً على عهد سليمان بكثرة مراكبها وملكفيتها وعدد بحارتها ،

( ١ ) الاستقصا للسلوى . ( ٢ ) معلة الإسلام . مادة ترك .

( ٣ ) تحفة الكبار في أسفار البحار لكاتب جلبي . ( ٤ ) تاريخ تركيا للاموش .

ولكن الإخفاق كان حليفها أكثر من النجاح ، بخلاف الجيش فإن نجاحه كان باهراً ، والتوفيق حليفه في معظم ما خاض نغماره من حروب . وفي موقعة لبانتو ( ابنه بنحتي ) ، وفي حاربت الدولة أساطيل إسبانيا والبندقية وجنوة بإيعاز البابا ( ١٥٧١ م ) ؛ وفي الحروب البحرية في البحر الأسود مع روسيا ، برهان على هذا الضعف البحري ، ولولا أن الدولة تقدمت وفتحت قطعة صالحة من مملكة بيزنطية من غربي الآستانة وفتحت مملكة طربزون على البحر الأسود ، لصعب عليها استبقاء هذه العاصمة وأروبا لم تفتأ تتابع إرسال أساطيلها عليها لإنقاذ بيزنطية ، بل لإنقاذ النصرانية من غارات العثمانيين ، ولذلك كانت الدولة أبداً ترعى جمهورية البندقية اتقاء أسطولها ، وأصبحت في آخر أيام سليمان الأول بين جارتين عظيمتين يخشى بأسهما : مملكة النمسا في أوروبا ، والدولة الصفوية في آسيا . ولكن الدولة العثمانية أصبحت مؤلفة من ثلاثين مملكة تمتد من جون البنادقة إلى خليج فارس ومن جبال الكاربات إلى النيل .

كان القصد من ظهور سليم الأول بمظهر جديد لم يظهر فيه أجداده ، ونعني به فتح بلاد العرب الذي أكمله ابنه سليمان ، جمع شمل المسلمين تحت علم واحد ، وإنقاذ الخلافة الإسلامية<sup>(١)</sup> ، وكانت أصبحت ولا راعي لها ، ولو ساعده الأجل لغدت معظم ممالك آسيا وإفريقية في سلطانه ، ولغدت الهند وفارس وتركستان من جملة بلاده ، ولاستطاع أن ينفذ أمنيته في جعل اللغة العربية لغة الدولة العثمانية الرسمية ، يرضى بذلك جميع العناصر المسلمة ويؤسس مملكة إسلامية لانظير لها . وينقذ الدولة من غوائل التطاحن مع أوربا على الدوام ، من أجل استبقاء بلاد نصرانية لا رابطة بينها وبين العثمانيين في الدين ، ولا في العنصر ولا في المدينة . وكأن الترك بعد أن شبعوا من مغنم البلاد التي افتحوها في أوربا سميت بهم همهم أن يتعرفوا إلى عالم آخر يعيشون بغنائمه مدة .

( ١ ) قاموس الإسلام لشمس الدين سامي .

يقول جايارد<sup>(١)</sup> : « كان الإسلام صريحاً في المؤاخاة بين الناس ، واسع المدى في فهم معنى الحياة ، بدأ به عهد جديد كان فيه للعرب وكثير من شعوب الشرق نحو عشرة قرون ، مبعث نهضة ودور فلاح وعظمة وغنى ، وبعد أن بلغت المدنية العربية قمة مجدها بتأثير الإسلام السعيد ، وبما في تعاليمه من الفضائل ، نشأت إمارة صغيرة لعثمان (عثمان بن عفان) تألف منها في أقل من قرنين أعظم مملكة وأوسعها حولا . امتد سلطانها في أوروبا وآسيا وإفريقية وبفضل « إده بالي » و« جاندارلي » واجتماع الفكر الإسلامي ، وقوة جيش عثمان وبايزيد والفتح وسليم وسليمان فشل التحالف الذي عقده عدة ممالك ، وأسست دولة امتدت من نهر الدون وبحر أزوف إلى مدينة فينا ، ومن مراکش إلى أبواب الهند حيث وضع الإسلام قواعده » . وقال كرامر<sup>(٢)</sup> : إن الفتوح العثمانية السريعة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تكن تشبه فتوح جماعة من البربر ، بل كانت تحقيقاً لخطة مرسومة في أذهان عظماء الفاتحين ، أمثال بايزيد الأول ومحمد الثاني وسليمان الأول وبعض رجال دولتهم ، وكان من أثر الفتح في تلك العصور أن انبعث طراز من المدنية ظهر في مظهره الأخير في القرن السادس عشر .

\* \* \*

كان سليم الأول أسير في وقعة مرج دابق الخليفة المتوكل العباسي الذي وافق الغوري من مصر ، وكانت الخلافة العباسية انتقلت من بغداد إلى القاهرة بعد مقتل آخر ملوك بني العباس على يد هولاكو ، وأمسى الخليفة العباسي في مصر ، وليس له من عمل إلا أن يصادق على أعمال الملك ، والملك يجري عليه ما يعيش به . دام هذا الترتيب مدة استيلاء المماليك على مصر . فحمل السلطان العثماني هذا الخليفة إلى دار ملكه في الآستانة ، وكان أحد أجداد هذا الخليفة منح

( ١ ) نهاية عصر أو على عتبة جيل جديد جايارد : La fin d'un temps. Au seuil d'un nouvel âge

( ٢ ) معلمة الإسلام . مادة الترك .

أحد أجداد الملك العثماني وهو ييلديرم بايزيد لقب سلطان : وقيل إن الخليفة العباسي نزل للسلطان العثماني عن الخلافة في جامع أياصوفيا ، وقيل إنه لم يعرض له بشيء في هذا الشأن ، وقيل إن الخليفة العباسي سجن في « يدى قله<sup>(١)</sup> » في ظاهر الآستانة وأنه عاد إلى مصر بعد مهلك السلطان سليم ، ولقب السلطان التركي بلقب الخلافة منذ فتح بلاد العرب وخفقت رايته على الحرمين الشريفين . ويقول أرنولد من علماء المشرقيات الإنجليز<sup>(٢)</sup> إن مراد الأول هو الذي لقب بالخلافة لما فتح أدرنة وفيلبه ، وإن العثمانيين وغيرهم من الملوك كانوا يخاطبون بالخلافة ، وقبل أن ينقل السلطان سليم من مصر الخليفة المتوكل ، كان أجداده اعتادوا منذ قرن ونصف أن يلقبوا بالخلافة ، وبعد قرنين لم يبق في ملوك الإسلام من يستحق أن يطلق عليه اسم الخلافة غير سلطان العثمانيين وإمبراطور المغول في الهند ، وذلك لسعة بلادهما ، وامتداد سلطانهما ، وادعى غيرهما هذا اللقب من غير استحقاق ، ولما سقطت دولة المغول في الهند خلال القرن الثامن عشر أصبح السلطان العثماني أعظم ملوك المسلمين في الأرض . وطلبت كاترينا الثانية في معاهدة « كوجك قينارجة » التي عقدت بين تركيا وروسيا أن يكون لدولة القيصرية الحق في حماية الروم الأرثوذكس في بلاد العثمانيين أن يذكر في شروط الصلح أن للخليفة العثماني الحق في حماية التتر المسلمين . قال وقد كثر بعد ذلك التلقب بالخلافة : والظاهر أن عبد الحميد الثاني أرسل دعاة إلى العالم الإسلامي يوطدون له الدعوة إلى الخلافة .

وبينا كانت الشعوب النصرانية إلى آخر القرون الوسطى لا يفتحون بلادهم إلا لمن انتحلوا النصرانية ، كان العثمانيون يرعون النصارى في بلادهم ، عملاً بطريقة الدول الإسلامية التي تقدمتهم . بيد أن آل عثمان عملوا على نشر الإسلام منذ عهد أورخان ، ليكثروا سواد المسلمين في بلادهم ولا سيما في الولايات الأوروبية . فكانوا إذا أسروا أولاد النصارى من البجناكية والروم والصرب

(١) تاريخ مصر لابن إياس .

(٢) معلة الإسلام . الخلافة .

والبلغار والألبان يربونهم تربية إسلامية ثم يجندونهم في جيش الإنكشارية<sup>(١)</sup>، ولا يتعرضون لأبناء الروم والأرمن من سكان ساقر ورودس . وانتشر الإسلام في رومانيا وبلغاريا وألبانيا وصربيا واليونان بقبائل من التتر أنزلتهم الدولة في معسكرات أنشأتها في قواعد البلاد الكبرى ، أو في الحصون المشهورة ، على نحو ما فعل محمد الثاني فأنشأ ( سنة ١٤٦٦ م ) في ايلبصان من بلاد الأرناؤود مستعمرة إسلامية كبرى . وانتشر الإسلام في البلاد الصرب والخروات بعد وقعة قوصوة بإسكان قبائل تركية رحالة فيها ، وبطبقات من الجند المسلم رابطة في بلغراد .

ولما فتحت ألبانيا هاجر من أهلها إلى صقلية وقلورية والبندقية وجنوة ومرسيلية وإسبانيا بضع مئات الألوف من أهلها ، وما لبث أن أسلم ثلثا الباقي من أهل البلاد ، لما رأوا زعماءهم ومقدميهم يسارعون إلى الإسلام . ولما فتحت البوسنة والهرسك الفتح الأخير على عهد محمد الثاني<sup>(٢)</sup> دخل نصف أهلها في الإسلام . وقيل إن الإسلام دخل ألبانيا وتركيا ومقدونية حتى بلغ أواخره على يد درويش تترى اسمه « صارى صالتق » من تلاميذ رجل من الصلحاء اسمه حاجي بكتاش<sup>(٣)</sup> . وانتشر الإسلام في يساراييا ودوبرويجة وفي الجرج . ومنذ القرن السادس من الهجرة<sup>(٤)</sup> كان في بلاد المنكر أو هنغاريا أو الجرج طوائف من المسلمين أسلموا على أيدي أناس من مسلمي بلغاريا سكنوا بينهم .

لا جرم أن العثمانيين بذلوا جهوداً غير قليلة في ولاياتهم الأوربية لنشر الإسلام بطرق من الدعاية يجيزها الدين ، ولا تخالف أصلاً من أصول حرية الأديان ، فزجوا السكان بمجاليات كثيرة من التتر استدعواهم من بلاد الترك في آسيا ، وسهلوا لهم سبل الهجرة والاستيطان : ودولة حكمت بلاداً بضعة قرون لا بد أن تبقى فيها أثراً من دينها وعاداتها ولغتها ، وكان هذا الأثر ضئيلاً في الجرجين والرومانيين والصربيين ، وكثيراً في الألبانيين والبيجناكيين

( ١ ) هذه اللفظة محرفة من لفظة ( يكي جري ) التركية ومعناها العسكر الجديد .

( ٢ ) قاموس الأعلام لشمس الدين سامي . ( ٣ ) معجم البلدان لياقوت .

والبلغاريين . يقول لاموش<sup>(١)</sup> : إن الأتراك ليسوا متعصبين في ذاتهم ، إن لم تهجهم أمور خارجية أو يأتهم أمر صادر من مقام سام ، وإذا بدا في تضاعيف تاريخهم أنهم ارتكبوا فظائع ومذابح ، فهذا كان للاستيلاء على بعض الحصون خلال حروبهم ، أو عندما كانوا يريدون قمع ثورة ، أو يحاولون انتقاماً عن فظائع يقابلون بها خصومهم بالمثل . ويندر جداً إكراه العثمانيين أحداً من النصارى على انتحال الإسلام . ذلك لأن المسلمين أدركوا أن إخراج غير المسلمين إلى دين الإسلام مخالف لمصلحتهم<sup>٢</sup> ، فيقل عديد من يؤدون الجزية فيضمحل العاملون الخاضعون لإرادتهم ، وبدافع نفسى وقع لإسلام جماعات كثيرة من أهل البوستان وألبانيا وإقريطش ، رأوا التمدد بالإسلام من مصلحتهم . ودان الأشراف وأرباب الأملاك الكبرى ممن أصبحوا « بكوات » فيما بعد ، دين الفاتح ، وجاراهم أتباعهم في هذا الشأن للاحتفاظ بأملهم وامتيازاتهم . وقد أدرك محمد الثانى بما رزق من بعد نظر في السياسة أن من الواجب رعاية النصارى وإدخالهم في أعمال الدولة بقدر ما تسمح به الشريعة الإسلامية ولم يبق من جميع أوضاع الإمبراطورية الشرقية الرومية غير أوضاع رجال الدين يتمتعون بمراتبهم وتراتيبهم ، وجعل بطريك الأستانة مرجعاً للروم في بلاه . ٥١ .

وبعد فلم يخرج العثمانيون في معاملتهم غير أبناء مذهبهم عن حد ما رسمته الشريعة الإسلامية ، وما كان الحكم التركى الذى امتد ظله إلى المجر ظالماً ولا قاسياً كما قال كستلو<sup>(٢)</sup> فقد كان العثمانيون يرعون أديان الشعوب المحكومة ويحترمونها عاداتها وظلت تركيا متمسكة بهذه القاعدة إلى القرن العشرين : وما تعدت قط أن تتمثل العناصر بل اكتفت بإرادتهم وفرض الضرائب عليهم . قال ورأينا الشعوب التى خضعت لحكم السلطنة أضاعت قوميتها ، وكانت مع هذا أيام استعبادها أسعد حالا من العصور المضطربة المحاربة أيام

( ١ ) تاريخ تركيا للاموش ( بالفرنسية ) .

( ٢ ) قانون التاريخ لجليف كستلو . Jolivet Castelot : La Loi de l'histoire .

للاستقلالها ، وربما لم تريج إلى اليوم من هذا التبدل في الحكم ، وهم على كل حال يتألف منهم خطر دائم على أوروبا . وقد خلفت المسألة البلقانية المسألة الشرقية من دون ما فائدة تعود على راحة الغرب . اهـ .

لم يصل تريك العناصر التي خضعت لسلطان العثمانيين في البلاد الأوروبية إلى أكبر مما بلغه في بلاد العرب ، ورأينا أرمن الأناضول تركوا لسانهم ، وأصبحت التركية لغتهم الوطنية ، فسطت اللغة التركية على الأرمن النازلين في السهول لامتزاجهم بالترك منذ عهد السلجوقيين ، وسلمت لسكان الجبال في إرمينية لغتهم بعض السلامة . وترك<sup>(١)</sup> الروم العثمانيون كالأرمن ، وترك أرمن الآستانة في كل مظاهرهم وعاداتهم ، حتى ما يميزون عن الأتراك ، ولذلك كان غلاة القومية التركية يفضلون الأرمن على العرب المسلمين ، لأن هؤلاء عصوا على الترك .

استفاد الترك من اتخاذ مدينة القسطنطينية عاصمة لملكهم مدنية جديدة ، أخذوا يتقلبون في أوضاعها ، ولكنهم أضاعوا بعض صفاتهم في التمسك والتكشف ، وكان إليها يذنب أكثر نجاحهم ونجاح كثير من الدول التي قامت في المشرق . ذلك لأن بيئة قنوق وبيئة بالترف ، مذكاة الروم سلاطينها ، فهي جنة حفت بالشهوات ، ومن الصعب أن يسلم نازلها من عوامل الافتتان ، وإذا قدر له أن يحتفظ بعاداته ومثاقه ، فأولاده أو أحفاده يتخلقون بأخلاق البلد الذي نشأوا فيه لا محالة . وقد تبدلت أخلاق العثمانيين باختلاطهم بعناصر غير شرقية فأصبحت حياتهم تتطلب مطالب جديدة ، واعتبر سلاطين آل عثمان أنفسهم ورثاء إمبراطورة بيزنطية فأخذوا بمصطلحاتهم وبكثير من عاداتهم ، وتجاؤا عن بعض ما كان لهم من عادات ، وبخاصة ما كانت تتجلى به أهمية السلطان وبذخه وعزه في مواكبه وقصوره . يقول « اوهسون » إنه لم يكن يقابل عداد من في القصر السلطاني في آخر القرن الثامن عشر عن

(١) مقدمات تاريخية . لجلال نوري .

اثني عشر ألف رجل ، فيهم الضابط والحصى الأبيض والأسود والغلّام ،  
والحاجب وغيرهم .

كان مراد الأول ملك عثمانى<sup>(١)</sup> وقيت في أيامه المملكة التي وضع عثمان .  
أساسها إلى مستوى أرقى من مستوى إمارة تركمانية ، أي من الطراز الذي .  
كانت عليه تلك الإمارات في آسيا الصغرى ، وكان على جانب من التدين .  
والعدل . وكذلك كان مراد الثاني ( ١٥١٨ ) وقد وصفه مؤرخو<sup>(٢)</sup> بيزنطية  
وغيرهم من مؤرخي النصارى بأنه ملك عادل حلیم ، جاءه العلماء من العراق .  
وفارس فانضموا إلى جملة ، وأدخلوا في الآداب التركية روحاً جديداً .  
وكان أول سلطانٍ عثمانى جعل بلاطه مثابة للشعراء والأدباء والعلماء من  
المسلمين ، وعلى ذلك جرى خلفاؤه ولا سيما محمد الفاتح ، فإنه فتح أبواب  
عاصمته للعلماء والأدباء ، يستدعيهم من الأقطار لنشر الثقافة الإسلامية .  
وكان سليم الأول يحسن عدة لغات ، وينظم الشعر بالتركية والعربية .  
والفارسية ، وكذلك ابنه سايمان أدرك ما بدأ من تبشير النهضة الغربية  
الحديثة في إيطاليا وفكر في الاشتراك بها . ويقول « روبرتسون » إن  
السلطان سايمان فاق سلاطين الدولة العثمانية بنخصاله الحميدة الجليلة  
ومشروعاته العظيمة وفاقهم أيضاً بنجاحه وظفره بأعدائه . قال : وكفى  
عصره فخراً أن ظهر فيه أعظم الملوک الذين ظهوروا إلى ذلك العهد في أوربا .  
ولو كان السلطان سايمان والبابا ليون العاشر والإمبراطور شارلكان والملك  
فرنسيس الأول والملك هنرى الثامن قد ظهوروا في عصر مختلفة ، لكانت  
معارف كل واحد منهم تكفى العصر فخاراً ، فما بالك وقد ظهوروا كلهم  
كالكوکب الساطعة في القرن السادس عشر فكان لهذا القرن من  
الرونق والبهجة ما لم يسبق لغيره من القرون اه . وكانت لمعظم السلاطين  
ثقافة شرقية يشاركون في مسائل كثيرة ويثقفون في قصورهم ثقافة دينية  
وسياسية .

( ١ ) معلمة الإسلام . مراد الأول . ( ٢ ) معلمة الإسلام . مراد الثاني .

أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة في النصف الأخير من أيام سليمان القانوني الطويلة . وقال بعضهم إن عهد الانحطاط بدأ في دور محمد الثالث ( ١٠١٢ هـ ) على كثرة ما وفق إليه من الفتوح ، وعلى ما كان من تعلقه بأحكام الشريعة ومعاقته على المسكر وتضييقه على الحانات . ومنذ وفاة سليمان القانوني<sup>(١)</sup> ( ١٥٦٦ م ) إلى تولى سليم الثالث ( ١٧٨٧ م ) الذي حاول إدخال الإصلاح على الدولة ، لا نحصى من سبعة عشر سلطاناً سوى محمد الثالث ومراد الرابع ومصطفى الثالث كانوا على صفات تؤهلهم للحكومة والسلطنة ، وإن كان من هؤلاء الثلاثة من فطر على قسوة ظاهرة ، فقد قتل مراد الرابع صدرين أعظمين خسرو ورجب وكانا من عظماء رجال الدولة ، بدون سبب معقول . وربما كان هو وبعض آله يقتلون حباً بالقتل ، واتفق أن اعتبط بعض من كان يرجى منهم الخير للمملكة من السلاطين ، وكثير منهم كانوا أطفالاً عندما جالسوا في دست السلطنة . فما كانت سن أحمد الأول وعثمان الثاني أكثر من أربع عشرة سنة ، عندما بويعا بالسلطنة ، وكان عمر مراد يوم مبايعته اثنتي عشرة سنة وكان لمحمد الرابع سبع سنين . دع من كان من هؤلاء السلاطين أغبياء . ومثل هذه الطبقة من الملوك تسهل الحكم للنساء والندماء فتقع الفوضى في الجيش . وقد تجلى انحطاط الدولة في القرن الثامن عشر وإن كتب لها أن ظفرت بالروس في حرب سنة ١٧١١ و ١٧٣٢ م .

ولعله يعد من الأسباب الجوهرية في الانحطاط تغير الدم السلطاني في آل عثمان تغيراً كبيراً لكثرة<sup>(٢)</sup> ما اقتنوا من السراري والحواري والنصرانيات فكان ساييم الثاني نصف روسي لأن أمه روسية . ومحمد الثالث نصف بندق لأن أمه بندقية ، وعثمان الثاني ومراد الرابع وإبراهيم الأول أنصاف أروام

( ١ ) تاريخ تركيا للأزموش .

( ٢ ) التاريخ العام للأفيس ورامبو .

لأن أهمياتهم روميات ، وكثر عدد من تولوا أعمال السلطنة ممن دانوا بالإسلام من نصارى الروم والألبان والصرب والبلغار . وعلى عهد سليم الثانى كان من ثمانية رجال تولوا الصدارة العظمى ستة من المهتدين إلى الإسلام حديثاً ، فيهم الجنوى والبجناكى واليونانى والروسى . وكان فى المناصب العالية الطليانى والحجرى وغيرهما . أصاب العثمانيين فى العصور الحديثة ما أصاب العباسيين فى العصور الوسطى من تغير الدم العربى فيهم ، لما غلوا فى الاستكثار من اقتناء الجوارى الروميات والفارسيات يستولدونهم أبناء الخلفاء ، وبذلك كثر المهجناء وقل الصرحاء .

وبرى مؤرخو الإفرنج أنه جاء من سلاطين آل عثمان منذ القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر من كانوا عظماء حقاً ، وأن سليمان القانونى كان من طرازهم ، لكن خلفاءه استرسلوا فى الرذائل والشهوات ، فكان سليم الثانى شريباً خيراً فلقب بسليم السكير ، وكان مراد الثالث قاتل إخوته الذى قتل ثلاثة عشر أخاً له وعشر نساء حاملات من أبيه ، محفوفاً بالندماء والنساء يتأثر بموثراتهم . وحاول مراد الرابع وكان نشيطاً حازماً أن يبقى المملكة من السقوط السريع فلم يفلح<sup>(١)</sup> . وكان ضعف السلطنة محسوساً على عهد أحمد الأول ومصطفى الأول وعثمان الثانى .

كان مصطفى الأول المعروف بالأبله مجنوناً . وكان مراد الثالث مظهرًا من مظاهر<sup>(٢)</sup> الإفراط فى كل شيء ، ولا سيما فى الاسترسال إلى شهواته وفى إدارة الإقطاعات ، وفى أيامه ثار الانكشارية لأول مرة على الديوان العالى . ويمكن أن يعد عهده عهد الضعف الداخلى فى العثمانيين . وقد أعانته أمه وامراته صفية على شهواته وخلف ١١٨ ولداً . وكذلك كان السلطان أحمد قتيل الغوانى والكؤوس ، وكذلك إبراهيم الأول الذى أخجل بنى عثمان بتهتكه وسوء سيرته . قيل إنه قتل مئة ألف إنسان ، منهم خمسة وعشرون ألفاً بنفسه وأمام عينه ، وأوقد ثورة فى آسيا الصغرى لأنه أراد أن يغتصب زوجة أحد العظماء

(١) التاريخ العام للأنبياء ورامبو . (٢) معلمة الإسلام . مراد الثالث .

لجملها . وكان يبنى كل أسبوع بيكر ، وثقام له الأفراح ثم ضعفت أعصابه فأخذوا يصفون له المقويات . قال أبو الفاروق (١) عند كلامه على السلطان مصطفى وكيف انقطع في قصره عن العالم : وحصر وكده في شهواته : لقد تفرد آل عثمان من القديم بغلبة الشهوات عليهم ، وقد وقع لمراد الثالث عارض فأخذ أهل القصر السلطاني يتعلمون أدوية الباه من الشرق والغرب وهو يسىء استعمالها .

وأكد بعض مؤرخي الترك أن ملوكهم المتأخرين بعد الفاتحين العشرة من كانوا على غباء محسوس وإسراف على النفس ، لا يحفلون بأمر الدولة والناس ، ومنهم من كانوا يعتقدون بالطالع ويخافون من صرعات الجن ، من كانوا على غباء محسوس وإسراف على النفس لا يحفلون بأمر الدولة ويقربون من يزعم من المشايخ أنهم يتسلطون عليها ويشفون من أمراضها ؛ وكان « جنجى خوجه » يدعى معرفة ذلك ويبيع المناصب العلمية بالرشاوى ( ١٠٥٨ ) . على أن بعض المداهنين من المؤرخين ولا سيما المؤرخون الرسميون لم يتخرجوا من أن يطلقوا على بعضهم صفات التجديد وسكتوا عما وقع أو رأوه فلم يدونوه جبناً ورياء ، وأنعمضوا عن مساوئ لمن دونوا أعمالهم مما تعدى ضرره إلى الملك فوهت أركانه ، وسارت البلاد إلى الانحلال بخطا سريعة ، وبقي الشؤم ملازماً لها منذ ظهر أولئك السلاطين الماجنون المتجنتون .

وأجمع مؤرخوهم أن بايزيد الثاني كان من السفاهة على جانب عظيم فانتشرت المفاسد والمنكرات في أيامه في كل مكان بين الخاص والعام ، ونسوا الشرع وعبثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمل إلى قصر بايزيد أجمل الفتيات والفتيان من كل أرض كما تحمل إليه أطيب المسكرات وألطف المغنين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات والمهرجين والمساخر . ولا شأن للكبراء ، وفي طلبتهم صدره الأعظم ، إلا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى والغلمان .

( ١ ) تاريخ « أبو الفاروق » لمراد الفاضل .

ومن أهم العوامل في تراجع أمور السلطنة أن ملوكها بعد أن كانوا ينزلون إلى ساحات الوغى بأنفسهم<sup>(١)</sup> ، وكثير منهم ماتوا في الغزو أو في طريق الغزو أخذوا يعيشون عيش الترف ، وثلاثة فقط من ثمانية ملوك ممن حكموا بعد سليمان القانوني حضروا الحروب بأنفسهم ؛ ولما بويغ الأطفال بالسلطنة غدا الوزراء والنساء يدبرون شئون الدولة . وأصبح أولاد السلاطين بعد أن كانوا يقودون الجيوش إلى ميادين الحرب ، ويدبرون الولايات والولايات ، بعيدين عن حياة العمل ومعاناة السياسة . وكان آخر من دعى إلى تولي السلطنة وهو يدير الولايات سليم الثاني ومحمد الثالث . وغدا أولياء العهد بعد ذلك يربون في حجور الخصيان والنسوان ، منعزلين عن الناس في قصورهم ، يعيشون في جو كله نعيم وفتنة وكان من أثر هذه التربية أن لا يظهر أولياء العهد بعد توليهم زمام السلطنة لأحد من الناس ، ولا يقيمون العدل ولا يراقبون وزراءهم وحكامهم ، وطفق بعض أولياء العهد يشق عصا الطاعة على السلطنة ، وعجز السلاطان عن مراقبة وزرائه لأنه لم يحسن انتخابهم ، ويكون اختيارهم بتأثيرات الموالى والعبيد والنساء ، والوزير نفسه عبد من نصبوه .

كان الملك على الأكثر يختار عماله من مماليكه وعبيده ، ومنهم البستاني والآذني وحارس الكلاب وسائس الدواب وغلام الحمام ، أو من ندمائه ومداحه وخدامه ؛ يدخلون في الإسلام فيكون منهم قواده وولاته ووزرائه . وإذا رجعنا إلى أصول الصدور العظام<sup>(٢)</sup> نشهد أن اثني عشر منهم فقط من ثمانية وأربعين صدرأ كانوا من أصول إسلامية ، وباقيهم من أصل رومي وبجناكي وألباني ، ممن رأوا في انتحال الإسلام مصلحة لهم ، فدخلوا في الجيش واستأثروا بالإقطاعات . ولقد قال وزير المال يوماً وهو عائد من مجلس الوزراء ، وكانت جهرته من العبدان والممالك : « أنا آت من سوق العبيد » وما كان

( ١ ) التاريخ العام للافيس ورامبو . ( ٢ ) التاريخ العام للافيس ورامبو .

السلطين أنفسهم غير أبناء إماء تتلاعب بهم أمهاتهم وزوجاتهم في كثير من الأمور، ويعيشن بأمور الدولة والملة . يمتنان من يرين قتله من أولاد السلطين، ويبقين على من يشأن، وينصبين الصدور والوزراء والقواد والولاة والمتصرفين ويستأثرون بأموال الدولة، وكانت تجبي لإحدى الحظايا جباية الشام كلها لنفقتها وبذخها، وهى السابعة من نساء إبراهيم الأول الذى ارتأى مرة أن الخزانة نصبت أموالها، فلا يسد العجز فيها إلا المجوهرات التى أهدها أجداده للمجرمين . فقال الصدر الأعظم لما سمع بعزم السلطان : لقد سقطت الدولة إلى هذه الدركة بفيلق من الجوارى الناقصات من بنات الروس والبولونيين والمجريين والفرنسيين، وإبراهيم الأول هو الذى قرر أن يقتل عامة النصارى فى مملكته، ولم يقنعه شيخ الإسلام بالعدول عن هذا الرأى إلا لما قال له إن فى قتلهم نقص واردة السلطنة، وإن الجباية تخف إذا قتل فى العاصمة مائتا ألف إنسان .

\* \* \*

لما حارب سليم الأول شاه العجم قتل فى حدود بلاده أربعين ألف شيعى، فأصبحت للمسلمين دولتان، إحداهما سنية والأخرى شيعية، وكلمة الأولى أنفذ ومكانتها بين الدول أعظم . ذلك لأنها تحكم الأماكن المطهرة، وهى أوسع مجالا وأكثر رجالا، ومن أجل هذا كانت الدولة العثمانية أبداً عرضة لضربات الغربيين على بلادها، لما كانوا يخافون من امتداد سلطانها فى الغرب . منذ وطئت أقدام جندها قارة أوروبا، فانتبه الغرب بما أنذر به من غارات العثمانيين على شعوب البلقان، وما أحرزوه من النصر فى أكثر وقائعهم، وأيقنوا أن الأتراك إذا تم لهم الاستقرار فى البلقان وما إليه، لا يلبثون أن يصلوا إلى غربي أوروبا وشمالها . وهناك الطامة العظمى على دول النصرانية، بل على كنيسة رومية نفسها . وبشتد هذا الخوف من العثمانيين لما رأوهم فتحوا بلاد المجر وملكوها مائة وخمسين سنة وهددوا فيها غير مرة . وكانت وقعة سان جوتار أعظم قتال ظفر فيه النصارى بالترك، لم يعهد لهم مثله منذ ثلثمائة سنة على رواية هامر .

كان ملوك أوروبا ، والباباوات في مقدمتهم ، يجتمعون شمل الغربيين . كلما وهى ، ليقاوموا تقدم التيار التركي ، وما تم لهم التوفيق أو شئ يشبه التوفيق أمام سطوة الدولة لعهد قرنين من تأسيسها ، وما حاد الباباوات في إهاجة شعوب النصرانية على الإسلام ، عن الخطة التي اختطوها في المقاومة منذ فتح العرب بلاد الأندلس ، إلى الحروب الصليبية ، إلى ظهور الدولة العثمانية . تساقطت الضربات الصليبية على الإسلام قروناً ، وكان الأتراك آخر من كتب لهم أن يضربوا ويضربوا قروناً بعد ذلك كثيرة .

كانت الحروب سجلاً بين العثمانيين ومن أرادوا غزوهم ، ولكن الغلبة الأخيرة كانت أبداً إلى جانب العثمانيين . وكان العثمانيون يفشلون في بعض حروبهم مع أمراء البلقان وغيرهم لبعده المسافات ، لأن من الحروب ما يشهرها قوادهم على الحدود لضرورة حافزة ، دون أن يستعدوا لها أو يستعينوا بجيش كبير يأتيهم من أنحاء السلطنة ، فقد فتح قواد الحدود ألبانيا والمورة ، من دون أمر أتاها من السلطان ؛ لأنه كان لهم الحق إذا رأوا غرة أن يهاجموا من في جوارهم ويفتحوا بلادهم بدون أمر السلطان ، أى كان لهم الحق والحرية في أعمالهم لأن للتأخير آفات والبلاد مترامية الأطراف .

فقد فتح الفاتح مثلاً بلاد آل قرمان في آسيا الصغرى بعد حرب أربع سنين ، وما ضمت تلك الإمارة إلى الملك العثماني إلا بعد أن حاربها العثمانيون عشر مرات في مدة مئة وست وستين سنة . وقد صمد العرب في سواحل الحجاز واليمن لحرب البرتغاليين ، لما جاءوا مستعمرين أواخر عهد المماليك المصريين ، وأوائل حكم العثمانيين ، يقصدون الهند وما إليها . فرد الشريف أبو ندى أمير مكة جيش البرتغاليين عن جدة . ورد غيره من الأمراء والشيوخ غارات كثيرة من مثل هذه على أرضهم الداخلة في سلطان العثمانيين ، وكانت حروبهم مع البرتغاليين يوماً لهم ويوماً عليهم ، وذلك لبعده الشقة ، ولأن الدولة تكاد تنحصر جهودها في استبقاء أملاكها في أوروبا .

تعذر على دول الغرب أن يقضين على سلطان العثمانيين ، ولكن هؤلاء-  
 بلّوا بدولة واحدة تكفي حروبها للقضاء على الدولة العثمانية ، ونعني بها دولة-  
 قياصرة روسيا ، فكانت واقفة لهم بالمرصاد منذ ضرب الجيش الروسى بلاد  
 القرم ( سنة ١٥٥٩ م ) ، وكان خال القرم من عمال السلطنة وأهل بلاده من-  
 عنصر ترى لإسلامي . وزادت غزوات الروس على الترك العثمانيين بقيام بطرس  
 الأكبر ، وكان هذا يفكر منذ صغره بعقد تحالف نصراني<sup>(١)</sup> لطرد الأتراك  
 من أوروبا ، وأوصى دولته أن لا تغفل عن حرب الترك ، لتنزع الآستانة  
 وبيت المقدس من سلطتها . وفي معظم الحروب التي شهرتها روسيا على تركيا  
 كان الظفر حليف الروس ، لأن روسيا كانت منذ عهد مصلحتها بطرس  
 الأكبر تنظم جيشها بالنظام الأوربي الحديث ، والعثمانيون ناموا على ماكان  
 لجيشهم من قوة وسمعة ، يغرم عدده ، ولا يعبأون كثيراً بتنظيمه وعدده ،  
 فقد رأينا بطرس الأكبر يرد بأربعين ألفاً<sup>(٢)</sup> جيشاً من الترك مؤلفاً من  
 مائتي ألف على نهر بروت ، ورأينا روسيا أيضاً في سنة ١٧٦٨ تقضى بسبعة  
 عشر ألف جندي على جيش تركي لا يقل عن مائة وخمسين ألفاً . والدول  
 إذا أقبلت كثرت العدة وان أقلت العدد ، وإذا أدبرت كثرت العدد  
 وأقلت العدة .

ظهرت منذ القرن الخامس<sup>(٣)</sup> عشر في عالم السياسة الأوربية مسألة سموها  
 « المسألة الشرقية » ومعناها اتقاء الخطر الذي داهم أوروبا من زحف العثمانيين  
 عليها . وتغير وجه هذه المسألة منذ بداية القرن الثامن عشر ، فلم تكن المسألة  
 الشرقية مسألة اتقاء خطر ، بل كانت مسألة الإبقاء على الأتراك العثمانيين ،  
 أو تقسيم بلادهم تبعاً لتفاوت الدول في المنزلة والمصلحة . ومنذ سنة ١٨١٥  
 كان هم رجال السياسة الأوربية أبداً معالجة المسألة الشرقية وهي تعرض كل  
 مرة في شكل غير شكلها . وبعد أن كان النساء في الغرب إذا أردن تخويف  
 أولادهن قلن لهم « جاء سليمان القانوني » أصبحت أوروبا في القرن التاسع عشر

( ١ ) تاريخ روسيا لمارك سمنوف . ( ٢ ) تاريخ روسيا لسمنوف .

( ٣ ) تاريخ القرن التاسع عشر لمحمد قاسم وحسن حسنى .

تطلق على المملكة العثمانية كلها وعلى سلطانها اسم « الرجل المريض » وحقيقة أن السلطنة كانت مصابة منذ قرنين بمرض داخلي وخارجي . والسبب في هذه التسمية أن إنجلترا وروسيا عقبى حرب القرم سنة ١٨٥٣ كانتا تطلقان هذا الاسم أثناء المفاوضات السياسية على الدولة ، وروسيا تقترح اتخاذ الأسباب لتقسيم إرث الدولة التركية ؛ وإنجلترا تجيب إن الأوفق أن يبذل الجهد في شفاء هذا الرجل المريض .

أمست الدولة العثمانية بعد ضعفها لا تكفي غائلة دولة من دول الغرب ، إلا إذا استعانت بأخرى عليها ، وهذا قلما وقع ، ولا تنفع إلا من انقسامات الدول العظمى ، فإذا اتفقت مصلحتها ومصلحة إحداهن ترتاح زمناً من المشاكل والغوائل في بلادها . ففائدتها كانت إذاً في تخالف الدول ، وتباين أغراضهن فقط . وكانت أيام شبابه تنال من دول أوروبا مجتمعات ومنفردات . ولقد قال بعض الباحثين إن علائق الدولة في القرن الثامن عشر أصبحت ودية مع دول الغرب ، ولا سيما مع إنجلترا وفرنسا وهولانده والسويد والدانيمرك فكن يتوسطن لها في مسائل الصلح ، وكان لفرنسا من ذلك قسط عظيم ، وذلك بعد أن أخذت من الدولة عهداً بامتيازاتها الأجنبية (١٧٤٠م) وأخذت تحمي الرعايا الكاثوليك في الأرض العثمانية . وقد تعاقدت الدولة بعد تعاقداً يشبه الامتيازات الأجنبية مع الولايات المتحدة والبلجيكا والبرتغال وإسبانيا .

ولم تر الدولة في سياستها الداخلية أسهل من إلقاء الفتنة بين العناصر غير التركية على الدوام . تضرب العربي بالتركي ، والأرمني بالكردى ، والصربي بالأرناؤدى ، والرومى بالكاثوليكى ، والمسلم بالنصرانى ، والفرق الإسلامية المختلفة بأهل السنة . فكانت حروبها الداخلية أيام ضعفها حروب عناصر وشغب بين أبناء الوطن الواحد ، وحروبها الخارجية مع دول قوية كالنمسا وروسيا والبندقية . وتروج سياسة التفرقة أيام الأزمات السياسية ، ويتجاهر أهل الدولة في الدعاية إليها ، وتحريك العرق الحساس في الغوغاء من الناس .

أرادت الدولة يوم ثورة المورة أن تنتقم من الروم في مملكتها ، لأن أبناء دينهم في الأرض الأوربية هبوا يطالبون باستقلالهم . فأوعزت إلى والى دمشق أن يقتل المسلمون جميع نصارى الشام من طائفة الروم الأرثوذكس ، فاستشار الوالى أعيان دمشق فأشاروا عليه أن يكتب إلى العاصمة أن ليس في البلاد خائن ، وأن النصارى عبيد السلطنة يؤدون الجزية ، وبذلك نجوا نحو خمسين ألفاً من القتل . ولما أرادت الدولة أن توطد حكمها في الشام أثارت الدروز على النصارى في لبنان ، وأهاجت غوغاء المسلمين والدروز على نصارى دمشق وما إليها ، وتدخلت الدول في الأمر فحكمت المحكمة العسكرية على بضعة مئات من المسلمين بالقتل والنفي وغرمت الأهلين غرامات فاحشة ، وما عاقبت الدروز على أعمالهم في الثورة الأهلية لحماية انجلترا لهم .

كان من تخالف الرعايا في المذهب ، وتباينهم في الأخذ بحظ من المدنية ، سلسلة من المصائب لا تنتهى إلى حد . وفي ألفاظ التحقيق والمثلث التي كانت تطلقها الدولة في بعض رسائلها الرسمية على غير المسلمين ، وفي ألقاب العبودية العجيبة التي تلقب بها موظفيها<sup>(١)</sup> ، وتطلتها على سفراء الدول حتى القرن

(١) صدر عن ساهم الثالث كتاب سلطاني بعث به إلى قوجه يوسف باشا لما عينه للصدارة للمرة الثانية ، كان غريباً في معناه قال له فيه : يا يوسف باشا لو حزت رضائى في وزارتك السابقة ما عزلتك ولكنك حدثت عن جادة الاستقامة وظلمت وتعديت ، وتناولت الرشوة ، وجريت على الهوى بما لا يليق صدور مثله من الضدور ، بل ولا من الوزراء ، وربما لا يليق مثله بمقام الناس ، وعاملت رؤساء الجند خلال الحملات بخشونة وعنف وتهديد ، فردوا واستوحشوا ، وتعطلت الأعمال إلى أمثال ذلك مما يخالف رغائبى السلطانية ، ولذلك نحييت عن الصدارة والآن أعدت إلى منصبك والمأمول أن تكون قد رجعت عن أعمالك فإذا بلغت مسامعى السلطانية أنك سرت في صدارتك الجديدة على ما كنت عليه ، وارتكبت أقل خطأ من خطيئاتك السابقة ، لا أكتفى هذه المرة بعزلك بل لا بد من إهلاكك ، فاعتصم بما يجب عليك من العفة والاستقامة ، وارحم الفقراء وأشملهم بشفتك وارجع عن أغراضك النفسية لا تصمر الشر لأحد ، وتب من الرشوة في شرك وجهرك ، ووفق أعمالك على ما يجلب لك رضا الحق ورضا سلطاني ، ثم ذكر ما ينبغي له جمعه من أدوات السفر لحرب عيناها له ، وأنه سيمود ظافراً من حربه بما أوتيته من حسن حيلة ونافع معرفة .

السابع عشر - في كل هذا دليل على ذلك الروح الذي تريد الدولة بثه في الناس ، وهو روح التعصب والتفزز من كل مخالف . ومثل هذه السياسة العوجاء يكتب لها التفاق كثيرأ في بلاد ضمت أرجاؤها عشرين نخلة ومذهبأ ، وأهلها متأخرون في سلم المدنية . وما كان للعقلاء سلطان على أحد لوضع حد لهذا التهور ، مخافة ألا تقع نصائحهم موقع الرضا من نفوس السياسيين . ولولا أن حض الإسلام على حماية أهل الذمة ، ووصى بهم أحسن توصية ، لاضمحل غير المسلمين في كل بلد كانت كثرت الغامرة منهم ، ورأينا الغرم في كل فتنة أهلية على السكان ، والغنم للدولة على الأكثر . وفيما عامل به النصارى في البلقان جمهور المسلمين ، لما كانت تكتب لهم الغلبة على الدولة ، من ضروب الإفناء ، وهتك الأعراض وتدمير العروض ، برهان جلى على ما كانت تكنه صدور النصارى من الأحقاد على المسلمين ، بسبب أولئك العمال الذين كانوا يصدعون بأمر ساسة الآستانة ، لإيقاد جذوة التعصب بين الطوائف وما كانت هذه السياسة بالتى تخفى على رجال السياسة في أوربا . بيد أن الدولة في مؤخر أيامها كانت تسكت الدول النصرانية بإرشاء القويات منهن بامتيازات تصان فيها حقوق غير المسلمين أكثر من المسلمين . وهناك رؤساء دين يمتون إلى إحدى الدول العظمى بحق المذهب ، ودالة الحسب والنسبة . فطائفة تنتمى إلى روسيا ، وأخرى إلى إنجلترا ، وغيرها لفرنسا ، والمسلمون من بين عناصر السلطنة ، ولا سيما العرب منهم كانوا أشبه بالمنومين أو المخدرين باسم الدين . كأنه لا جناح على الدولة أن تظلمهم لأنهم عبيدها ، وكان علماء بغداد لما وافاها التتر أفتوا أن الدولة الكافرة العادلة خير من الدولة المسلمة الظالمة . كانت الدولة في أيام عزها إذا أتاها أحد سفراء الأجانب أيا كان يحمل إلى السلطان وإلى وزرائه الهدايا الفاخرة ، فلما تراجع أمرها أخذت هى تلطف لأكثر وكلاء الدول وتهاديهم وتناحفهم وتتساهل معهم ومع رعاياهم ، حتى لقد اعترف ريشاروود<sup>(١)</sup> الإنجليزى أن الكنائس كثر عددها جداً في بلاد السلطنة ،

(١) تقرير الإسلام والإصلاح لريشاروود .

مختصاً ما كان منها للأجانب ، وبرهن على تساهل الدولة العثمانية بإعفاؤها كل ما يرد إلى بلادها برسم الكنائس والأديار والمستشفيات وغيرها من الضريبة الجمركية ، سواء كان أثاثاً أو لباساً أو كتباً أو آلات أو طعاماً أو غيرها . قال وهذا الأمر لا نعلم أنه يوجد في بلاد أخرى . وفي الامتيازات الأجنبية من البلاء ونمط حقوق الوطنيين والإغضاء عن ربح الدولة ما لا ينكره عاقل .

\* \* \*

زاد في القرن التاسع عشر تدخل الدول العظمى في أمور السلطنة ، بطرق سياسية خفيفة الملمس في الظاهر خشنة عند التنفيذ وما أخذ الملوك فيه من عنان استبدادهم وشهواتهم ، ولا حدثهم أنفسهم أن يدخلوا إصلاحاً حقيقياً على أوضاع السلطنة التي صارت إلى البلى . وكانت تتذرع بالمحافظة على المظاهر الصورية ، أكثر من التثبيت بالجد والعمل النافع . مثال ذلك الجيش حامى حى المملكة في داخلها وخارجها ، فإنه كان أيضاً صورياً . فبعد أن قضى محمود الثانى على جيش الانكشارية الذى كاد يؤدى بالدولة إلى الاضمحلال ، لم يستطع أن ينظم جيشاً يصلح حقيقة للدفاع والهجوم ، لأن روح الدولة قام بالفوضى فصعب عليها أن تعتمد على النظام ، وأرادت من جيشها الجديد أن تتبع فيه أيضاً سياسة إرضاء الغربى ، فكان جيشاً غربياً في تكوينه اسمه النظامى فقط ، وهو الفوضى بعينها في تركيبه وتدريبه وتجهيزه . ووصفه أحد مدربيه الضابط مولتكه الألمانى بقوله : إنه كان على مثال الجيوش الأيوبية ولكن معاطمة<sup>(١)</sup> روسية ، ونظامه فرنسى ، وبنادقه بلجيكية ، وعمائم أفرادها تركية ، وسروجه مجرية ، وسيوفه إنجليزية ، ومعلميه من كل أمة ، وهو مؤلف من جماعة الاحتياط ممن لا أحد لخدمتهم ، ورؤساؤه من المجندين آنفاً . ومنهم من كانوا بالأمس أعداء وكأنه مجموعة عناصر ومدنيات .

وهذا الجيش العجيب التركيب هو الذى انهزم المرة بعد المرة أمام جيش محمد على والى مصر ، فتقدم واستولى على الشام وقلقية ووصل إلى كوتاهية

(١) تاريخ الحضارة لسنيوبوس .

في صميم أرض آسيا الصغرى، وهدد دار الملك ، وأثبت أن قوة الدولة كانت ورملاً لا شحماً ، وأن دعوى قوتها خيال أكثر مما هي حقيقة . وأى غضاضة على الدولة أن ينهزم جيشها أمام أحد ولايتها ، حتى اضطرت أن تعقد مع روسيا معاهدة « خنكاراسكله سى » لتدفع عنها بأس أحد عمالها، فنجدتها بائنة عشر ألف جندي لتحميها في عتق دارها من جيش محمد على وابنه إبراهيم . وأى ضعف أفضع من أن يقوم تركى من ولاية الدولة في طرابلس الغرب ( ١١٢٣ هـ ) اسمه أحمد قره مانلى ، ويبايع له بإمارة طرابلس على عادة الولاية فيها أيام العثمانيين ، ويسمى بأمير المؤمنين<sup>(١)</sup> ، ويستقل وآله بطرابلس قرناً وربعاً ( ١٧١١ إلى ١٨٣٥ ) بمال دفعه إلى أحمد الثالث<sup>(٢)</sup> ، ولا ينتهى حكمه في ذاك القطر إلا بإيعاز إنجلترا للدولة سرّاً أن تتقدم إلى إرجاع سلطتها على تلك الولاية . وكانت إنجلترا عقدت مع ذاك المتغلب - الذى أطلق عليه أو أطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين في بلاد أمير المؤمنين - معاهدة من دون أخذ رأى الدولة المنتمى إليها ، لتأمين على أسطولها من غزوات سفنه وقرصانه ( ١١٦٤ هـ ) ، وتضطر سفنها إذا صادفت سفن القرّة مانلى في عرض البحر إلى إظهار جوازها لقائد سفنه .

ومثل هذه المعاهدة عقدتها مع طرابلس في عهد آل القره مانلى جمهورية البندقية وجمهورية طشقانه ومملكة نابلى ومملكة فرنسا وغيرها من أمم الجنوب . وعقدت الولايات المتحدة الأمريكية ( ١٢٢٠ هـ ) معاهدة تقضى بأن ترفع طرابلس الرق عن النصارى . وكان لطرابلس جعل معين تتقاضاه من دولة السويد . ذلك لأن الدول البحرية كانت تخاف على تجارتها من غزو قرصان البحر في شمالي إفريقيا . وشأن أسطول طرابلس وقرصانه في هذا المعنى شأن أسطول تونس والجزائر ومراكش . وكان فيخر<sup>(٣)</sup> الدين المعنى الثانى أمير جبل لبنان وما إليه عقد قبل أكثر من قرن مع كوسموس الثانى كبير

( ١ ) المذكور فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن عابون .

( ٢ ) معلمة الإسلام . مادة قرّة مانلى .

( ٣ ) خطط الشام للمؤلف .

دوجات طسقانة ، معاهدة دفاعية هجومية ، وذلك في غفلة الدولة العثمانية ، واستظهر بأسطول فرديناند الطسقاني فغلب على أكثر سواحل الشام وقهر جيش الدولة ( ١٠٤٣هـ ) ، ومثل ذلك وقع لبای تونس وهو وال عثمانی في سنة ١٥٧٧ فعقد معاهدة مع فرنسا<sup>(١)</sup> وبعد سنة ١٧٤١ عقد بايات تونس عدة معاهدات مع الدول النصرانية باسم تونس فقط .

وعلى هذا بدأت دول برأسها تنفصل بطرق مختلفة عن الدول العثمانية ، وإن كان ظاهرها أنها تابعة لها . ولو ظلت الدولة وحدها تصاول روسيا فقط لقضت هذه عليها ، واستولت على المضائق وخرجت إلى البحر المتوسط ولكن ذلك لم يكن من مصلحة إنجلترا ، فكانت هذه منذ اتحدت روسيا والنمسا ( ١٧٨٧ ) على تقسيم البلاد العثمانية في أرض أوربا تسعى بما أوتيته من دهاء سياسي لفصم عراكل اتحاد ينتهي بضرب الدولة العثمانية الضربة القاضية . وكانت أوربا في هذه الحقبة ترى بقاء السلطنة العثمانية ضرورياً للتوازن السياسي . ولما رأت بريطانيا العظمى أن معاهدة « خنكاراسكله سى » بين العثمانيين والروسين تقضى بجعل السلطنة العثمانية تحت حماية روسيا ، سعت مع الدول الأخرى إلى حل المسألة الشرقية بالطرق السلمية . واتفق الدول ما عدا فرنسا أن لا تتجدد هذه المعاهدة بين العثمانيين والروسين ، وأن السلطان إذا اقتضت له معاونة لسلامة بلاده تعاونه الدول على أن تبقى المضائق والدردنيل تحت إشرافهم . ولما طلبت روسيا أن تحمي الروم الأرثوذكس في بلاد السلطنة ، على ما كانت فرنسا منذ القديم حامية الكاثوليك فيها ، نشبت حرب القرم ، وحطمت روسيا أسطول تركيا في البحر الأسود ، وكادت فيلقها تصل إلى الاستانة ، فأرسل الإنجليز والفرنسيين والطلليان أسطولا وجيشاً لمعاونة الدولة العثمانية ، فظفرت هذه بالروس ( ١٨٥٦ ) مع الدول المحالفة لها ، ودفعت بريطانيا نفقات الحرب ، وضمنت السلطنة استقلالها .

( ١ ) معلة الإسلام . مادة تونس .

رأينا مما تقدم أن الدول كانت إذا بدا لها أن يساعدها الدولة ، ويتحجب عنها ، على ما كان من نابليون لما حملها على حرب روسيا قبل أن يغزوها بجيشه في أرضها ، وكما فعل غليوم الألماني في العهد الحديث ، فإنه ما زال يتقرب منها حتى جرها في الحرب العامة إلى القتال في صفوف حلفائه ، ففقدت نصف أملاكها وأفقرت بلادها ، وقتل مئات الألوف من أبنائها ، وما منعت سياسة الدول واختلافاتها من معاونة اليونانيين والرومانيين والبلغاريين والصربيين على استقلالهم ، وأن يرسل بعضهم لتلك الإمارات رجلا ومالا وعتادا ، لأن البلقانيين شعوب نصرانية يجب فصلهم عن دولة الخلافة ، وأردن أن يعملوا مثل ذلك للأرمن ، لولا أنهم كانوا متفرقين في كثير من الولايات ، لا يؤلفون جمهرة كبيرة في قطر واحد .

بعد أن أخفق العثمانيون في الحرب التي انتهت بصلح أدرنه ، وبه انسلخت رومانيا عن تركيا ، واستقلت الصرب بدفع خراج معين للسلطنة ، واعترفت الدول باستقلال اليونان ، أصبحت هذه الإمارات بحكم مذهبيها تحت وصاية روسيا ، وأصبح الحق لدولة القيصرية أن تدخل المضائق والخليج إلى الآستانة ، وعندئذ لقب الإمبراطور نقولا الروسي الدولة العثمانية بالرجل المريض ( ١٨٢٩ ) ، ولا تفتأ إنجلترا تقول : لا بأس بالعمل على شفاء الرجل المريض ، والواقع أن ثلاثة أرباع مصائب الدولة أتها على يد روسيا . كأن هذه الدولة جاءت في العصور الحديثة تنقم من الأتراك عما نالها من مصائب إخوانهم التتر أو المغول ، من غزو بلاد الروس في العصور الوسطى .

وكانت تركيا في كل نازلة سياسية وقعت فيها تنذر بما لا ينتج من الاحتجاج ، أو تهدد الجامعة الإسلامية ، وكل احتجاج يعقبه استسلام واستكانة للأمر الواقع . احتجت على احتلال إنجلترا مصر ( ١٨٨٢ ) وعلى ضم الروم إلى الشرق إلى بلغاريا ( ١٨٨٥ ) ، وعلى المراقبة الإدارية على مقدونية ، وعلى ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا ، وعلى ضم كريت إلى اليونان ، وما أجدى

احتجاجها ولا قلامة ظفر ، والدول ذوات الشأن يعملن ما يصلحهن ، ويتفق مع مصالحهن ، ولما حاربت الدولة العثمانية حكومة اليونان تقدمت الدول فأعلنت أن الغالب لا ينال من المغلوب شيئاً من أرضه فخرجت الدولة ظافرة ، ولم تجن ثمرة انتصارها . أما التهديد بالجامعة الإسلامية فلم يأت الدولة العثمانية بفائدة أيضاً ، وربما عاد بضرر على المسلمين الذين قضى على بلادهم أن تحتلها فرنسا أو إنجلترا أو إيطاليا أو هولاندا أو روسيا ، فتشتد الدول المحتلة لبلادهم في الضغط عليهم ، وإحصاء أنفاسهم عليهم كلما كانت تردد تلك النغمة . على أن المسلمين تختلف أغراضهم في قطر عن آخر ، والناس أرغب في السلام منهم في الخصام ، إذا لم تسقهم يد جبايرة إلى الحرب ، ولم يكن لهم منها مغنم عظيم ، لا يعرضون حياتهم وراحتهم للخطر ليحيبوا داعي الجامعة الإسلامية .

كانت خسارة الدولة في كل حرب حاربتها في القرن التاسع عشر كبيرة في المال والرجال والبلاد ، حتى اضطرت إلى فتح أبواب الاستدانة من أوروبا بالفائدة الفاحشة ، ولا تفناً تحمل ما خسرت من الضرائب والمكوس من ولاياتها المفقودة على ولاياتها الموجودة . بدأت بالاقتراض في حرب القرم وما مضت أعوام قليلة حتى عجزت عن وفاء ديونها وأعلنت إفلاسها ( ١٨٧٦ م ) فبدأ استعبادها الاقتصادي وظلت على ذلك إلى آخر أيامها . وكيف لا تختل مالياتها والفوضى عامة شاملة في عامة فروع الإدارة ، والسلطان يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء من مال الدولة بدون حساب . بدد السلطان عبد المجيد أموال السلطنة ، وكان السراري والجواري والمقربون في القصر السلطاني يحكمون في مقدرات البلاد بدون علم ولا تجربة ولا إخلاص ، ولما زوج هذا السلطان لابنته أنفق على جهازها وعرسها مليوني ليرة فرنسية ذهبية . وآلى عبد العزيز من بعده أن يمسك عن الإسراف لأول سلطنته ، ثم عاد إليه على صورة بشعة (١) ، وتعهده أن يكتفي بزوجة واحدة ، فأصبح في الحرم بعد مدة تسعمائة امرأة وثلاثة آلاف خادم ووصيفة ، وكانت تمتد في قصره كل يوم خمسمائة مائدة

( ١ ) التاريخ العام للأنبياء ردايو .

ويجلس إلى كل واحدة منها اثنا عشر شخصاً ، فشقت الدولة بإدارته ، وأصبح لا ينفذ أمراً للوزراء فتأمروا عليه ، وأخذ هو يفاوض روسيا سرّاً لتحميمه ، ويتذرع بنقل ثروته إلى البلاد الأجنبية ، فتمكن رجال الدولة من خلعه بفتوى من شيخ الإسلام - كما كان رجال الدولة خلعوا إبراهيم الخليل بفتوى أيضاً - أثبتوا عليه العته والجهل بالأمور السياسية ، والإسراف في أموال الدولة ، بما لا تستطيع تحمله لينفقه في شهواته ، وأنه أدخل بعمله في أمور الدين والدنيا فساق الملك والدولة إلى الخراب .

وما كان عبد الحميد الثاني أقل إسرافاً في المال من أبيه وعمه ، فإنه اقتطع ألفاً من القرى من أيدي مالكيها وجعلها ملكاً خاصاً له تدر عليه مليوني ليرة عثمانية ذهبية كل عام . ومنها كان ينفق كل يوم البدر على جواسيسه ومقربيه والصحف الأجنبية وبعض من يعتقد فيهم له النفع من سياسة الغربيين وسماستهم ، وتصرف في قصره مئات الألوف من الدنانير على البذخ والزينة والأطعمة ، كان جيشه جائعاً وضباطه وعماله وصغار موظفيه لا يقبضون رواتبهم سوى أشهر معدودة في السنة ، ولما زار الإمبراطور غليوم الثاني بلاد السلطنة العثمانية أهدى عبد الحميد الإمبراطورة تاجاً قوم بنصف مليون جنيه عثماني فقال الإمبراطور إن الأتراك مجانين ، ولو عقل عبد الحميد لأهدى الإمبراطورة تذكاراً منه فيه خطه أو شارته ، وصرف هذا المبلغ الجسيم على التاج المهدي إلينا في ابتياع بارجة حربية يصون بها سواحل ملكه ، فعبد الحميد كان والأمر على ما ذكر صورة من أعظم الملوك المستبدين ، وكان من يرضى عنه يغدق عليه من الأموال والرتب والأوسمة ما يعمى به بصره وبصيرته ، وفوق هذا يغضى عنه في كل ما تطمح إليه نفسه من مال الدولة والملة ، وبلغ من حججه على الأفكار والحرية طوراً مضحكاً مبكياً ، ومن جوده بالرتب والراتب وشارات التشريف ومظاهر الأبهة ما لم يعهده من قبل ولا من بعد ، فقد يرق طفلاً لأحد مقربيه في الرتب العسكرية ويصل به إلى رتبة المشيرية ، أرقى مناصب الدولة في الجندية ، وهو غلام يافع ، ويشرف بأوسمته المومسات والمهرجين والمتجسسين .

كان عبد الحميد تعهد للوزير مدحت لما نصبه سلطاناً أن يؤسس حكومة دستورية نيابية وما لبث أن أحرق فيما قيل دار مدحت ، ليحرق فيه سند تعهده ، ثم قتله في الطائف ، لأنه خلع عبد العزيز الذي قيل إنه انتحر وقيل إنه نُحر . يقول لاموش<sup>(١)</sup> إن عبد الحميد كان على دهاء ومكر ونشاط للعمل ، ولو قدر له أن يعمل إلى جنبه وزير من مثل مدحت لأعاد إلى السلطنة بهاءها ولكن عبد الحميد كان يكره الرجال العقلاء ولا ثقة له إلا بمن يدلّس عليه ، وأعدى عدوه من ينصح له شأن كل مستبد جبار ، وكان رجال المايين في عهده من أخبث الرجال .

\* \* \*

كان رجال الدولة على مثل اليقين أن السلطنة إذا لم يدخلها الإصلاح على مثال الدول الغربية يقضى عليها لا محالة . فنهض في القرن الماضي جماعة من كبار الموظفين في العاصمة ثم تبعهم بعض علماء<sup>(٢)</sup> الدين يفكرون في الطرق التي تؤدي إلى إنقاذ الدولة وقبول مدنية الغرب ، وانتشرت هذه الأفكار في الولايات ، ولا سيما بين الأتراك في آسيا الصغرى وعرب الولايات العربية . وأيقن العثمانيون المسلمون أن الحاجة ماسة إلى الإصلاح ، لما شاهدوا أن معظم بلاد الإسلام استولى عليها الدخلاء ، فانضم جمهور المطالبين من الأتراك إلى جمهور من العرب ، وحالت الأحوال ومضت الأعوام ، وبعد أن كانت هذه الأفكار تجول في صدور أفراد أصبح يرددونها الخاصة وكثير من العامة ، وعلى أثر ذلك نشأت جمعية الاتحاد والترقي مؤلفة من معظم عناصر السلطنة . على أن يكون الأتراك أرباب الكلمة النافذة وحدهم في المملكة العثمانية . وأثارت الجمعية الجيش في الروم إلى فخاف عبد الحميد الثاني وأعاد في سنة ١٩٠٨ القانون الأساسي الذي كان أبطله أوائل حكمه (١٨٧٦) وأراد أن يعيد حكومته الاستبدادية بعد قليل ، فأنشأ جمعية ارتجاعية سماها الجمعية الحميدية قامت بفتنة

(١) تاريخ تركيا للاموش . (٢) مجلة الإسلام ، ترك .

في العاصمة وقتلت أناساً من الأحرار والمنورين ، فانهى الأمر بخلعه ، وجيء بأخيه رشاد باسم محمد الخامس ، وكان فيه شيء من بله السلاطين ، فأصبح العوبة بأيدي الاتحاديين الذين كانوا قبضوا على زمام السلطنة منذ أبعدوا عبد الحميد من الملك . ولما قضى محمد الخامس نحبه جىء بأخيه وحيد الدين باسم محمد السادس ، فارتقى في أحضان دول الحلفاء أواخر الحرب العالمية ، فأخذت الحمية الوطنية بعض رجال الدولة ، وألفوا في آسيا الصغرى جيشاً قضوا به على الجيش اليوناني الذي كان احتل بإيعاز من بعض الحلفاء معظم ولايات أدرنة وأزمير وبروسا ، وضربوا اليونان في وقعة سقارية ( ١٩٢٢م ) ضربة دامية ، ووضعوا السيف في أروام السلطنة ما خلا الاستانة ، ويومئذ صار لتركيا صوت يسمع في السياسة ، وكان دول الحلفاء قرروا تقسيم آسيا الصغرى إلى مناطق نفوذ بينهن أو بين إنجلترا وفرنسا واليونان . ولما رأى محمد السادس ما ارتكبه من الجرم الفظيع ، غادر عاصمة السلطنة على بارجة انجليزية ونادى المجلس الوطني التركي بعبد المجيد خليفة ، ولم يلبث غير قليل حتى قرر المجلس الوطني إسقاط الخلافة العثمانية ( ١٩٢٣ ) وطرد جميع آل عثمان من البلاد العثمانية ، ونادى بمصطفى كمال ، صاحب الأعمال الحربية التي حفظت على الأتراك استقلالهم ، رئيساً للجمهورية التركية .

لما نشبت الحرب العالمية الكبرى في سنة ١٩١٤ انضمت تركيا إلى ألمانيا والنمسا والمجر فخرجت هذه الكتلة من الحرب مغلوبة ، وقيل إنه كان من الحلفاء وفيهم إنجلترا وفرنسا أن قطعوا لشريف مكة الحسين بن علي عهداً ( ١٩١٦ ) تكون به بلاد العرب مستقلة ففشى في صفوفهم ، والتحق به جماعة من أبناء العرب العثمانيين من جنود وضباط ، فتنادى به الحلفاء ملكاً على الحجاز ، وقام بثورته حتى دخل الحلفاء الشام . وكان بعض المنورين من أبناء العرب ، ولا سيما بعض رجال الجندية والإدارة ألفوا في أواخر العصر الحميدي جمعيات سرية لتطالب الدولة العثمانية بإصلاح حاك العرب أو لتزع يد العرب من طاعة الترك ، وساروا على مثال الأتراك في التغلغل

بجب الجنسية والقومية ، ولم يكن لهذه الفكرة من أثر قبل سنين قليلة في غير قليل من الرؤوس المفكرة في العرب . وجاهر الأتراك الاتحاديون بتريك العناصر منذ قبضوا على زمام الملك ، وهذه الخطة من الخيالات التي لم تتم للأتراك أيام عزتهم ، فصعب تحقيقها وهم في دور انحطاطهم ، وما أورثت المجاهرة بها غير تمزيق أجزاء القلوب ، وتأريث نار البغضاء بين العناصر ، ولا سيما بين التركي والعربي ، وانتبه العرب إلى ما يراود بهم ، وعلمهم غلاة القومية التركية ما لم يكونوا يختلفون به كثيراً من التناغم بالقومية ، فزاد عدد المبغضين للحكم العثماني . وكذلك فعل الألبان في السلطنة فأنشأوا الجمعيات السرية وتناغوا بتعلم لسانهم وتاريخهم على نحو ما كان من الأرمن والصرب والبلغار والرومان واليونان .

خرجت الدولة في حرب سنة ١٩١٣ مع البلقانيين من أرض الروم إلى بعد أن حكته خمسمائة سنة وكانت افتتحت في خمسين ، فاقتطعت منها ولايات أدرنة وقوصوة وأشقودرة ويانيا ومناستر وسلافيك ، كبرت بها رقعة دول البلقان . وكانت إيطاليا في السنة التي قبلها (١٩١٢) استخلصت طرابلس وبرقة (ليبيا) من أيدي العثمانيين وضمت إليها الجزائر الاثنتي عشرة (دودكانيز) كما ضمت اليونان جزائر أخرى في البحر المتوسط ، وضمت إنجلترا جزيرة قبرص (سنة ١٢٩٥ هـ (١)).

(١) ولقد كتبنا مقالة في جريدتنا «المقتبس» صدرت في دمشق يوم ١٩ شعبان ١٣٣١ و٢٣ يولية ١٩١٤ قبل الحرب العالمية وقلنا فيها ما نصه تحت عنوان «العيد السادس» . تمت أسس السنة الخامسة لنشر القانون الأساسي في السلطنة ، واليوم قد دخل في عامنا السادس ، نودع الماضي غير آسفين ، ونستقبل الآتي مؤملين مستبشرين . ولقد جرت عادتنا على رأس كل عيد أن نقدم للقراء صافي حساب السنة الفائتة ، ومن الأسف العظيم أن العجز قد أربى كثيراً هذا العام على الدخل ، والبأساء قد زادت على النعماء . فقد انتكبتنا خلال الحول الماضي نكبة لم يكده يعهد لها نظير في تاريخ دولتنا ، فكانت حربنا سجلاً مع إيطاليا في طرابلس وبرقة منذ ثلاثة وعشرين شهراً ، فاستأمت الطرابلسيون في الدفاع عن بلادهم ، وقصرت الحكومة في إغاثة لطفهم ورد عادية الأجنبى عنهم ، ولما أعلنت حكومات البلقان الحرب علينا في الحريف الماضي ، اضطرت حكومتنا إلى أن تقدم مع إيطاليا الصلح على طرابلس وبرقة صلحاً أخرجتنا عن آخر أملاكنا في قارة إفريقية .

« ويسودنا - لعمرو الحق - أن الحكومة التي تساهلت ضمناً في حماية ليبية بحجة اتقاء الهجمات على الروم ايل قد خانها السعد ففقدت ما لم يهمها وما أهمها أيضاً ، ولم يقصر جندنا المسكين في الدفاع ، ولكن سلاحه ومؤنثه وقيادته كانت دون ما عند البلتانيين من مثلها ، وبيننا كان الجوع والعري والخلل سائداً في صفوفنا في أشد شهور الشتاء برداً ، كانت أسباب الراحة موفورة عند أعدائنا المتحالفين علينا بلغاريا وصربيا ويونان والجبل الأسود .

وما راعنا اتفاق هذه الحكومات الصغرى علينا ، وتحالفهم في غفلتنا عنهم ، بقدر ما راعنا خذلان الألبانيين لنا ، بعد أن رأيناهم منذ خمسة قرون في طليعة المقاتلين في جيشنا . ورأينا ألبانيا تخرج أعظم رجال العلم والسياسة الذين أخلصوا في خدمة الدولة العثمانية ونشلوها من سقوطها مرات .

وأعظم من هذا وذلك أن الألبانيين هم الذين أعلنوا القانون الأساسي في الحقيقة . ومن بلادهم انبعث قيس الحرية ، ومع هذا كنا بسوء سياستنا معهم ، وحملتنا عليهم مرتين بدون حق ، وقتلنا رجالهم وتخربنا ديارهم ، ونجريدهم من سلاحهم ، نحن الحاملين لهم على شق عصا طاعتنا ، والخروج عن جماعتنا .

فبدلاً من أن يقاتلوا معنا عدونا وعدوهم ، قلبوا لنا ظهر المحن فذكرونا يوم الخطوب بما لقوه من أفاعيلنا ، وتخلوا عن نصرتنا ، بل وجهوا وجوههم نحو غيرنا ، فكان ذلك من أهم الدواعي إلى خروج الروم ايل عن حكمنا ، فسلمنا في خمسة أسابيع ما تعب أجدادنا في فتحه خمسين سنة .

لما أعلنت الحرية تصافح أهل الأديان المختلفة في السلطنة ، وتآخى المتنافر من العناصر ، وبطل عمل العصابات البلغارية واليونانية والصربية ، وأحسن أوروباً ظناً بنا ، فأخرجت مقدونيا عن المراقبة الدولية ، على أمل أن نستجمع قواها ونصلح أنفسنا بأنفسنا ، ولكن ظهر بعد بضعة أشهر أن تلك الفئة التي قبضت على قياد الملك لأنها هي الساعية لنيل الحرية ، أخذت تقبل في جهلها الشريف والوضيع ، والصالح والفساد ، فتراجع أمرها ، والتوت مقاصدها ، وعاد من ذلك الضرر العميم على الأمة والدولة .

بدأ غدر جيرافنا بنا بإعلان بلغاريا استقلالها ، وضم الروم ايل الشرق إلى أملاكها ، واكتساح النمسا والمجر لولايتي البوسنة والهرسك ، ثم قيام الفتن الداخلية التي أوجدناها قبل إيجادها ومنها فتن الارتجاعيين ، وخلع السلطان عبد الحميد ، وفتن اليمن وعسير وحوارن والكرك والعراق ، فقتل في هذه المعارك والحروب من الرعية والجند ما لا يقل عدده عن نصف مليون نسمة في خمس سنين فتعطلت بذلك الزراعة ووقف دولاب التجارة ، وأصيبت الأمة والدولة بأزمة مالية شديدة لم تكده ترى مثلها .

وإذا قضى القانون الأساسي أن يحارب غير المسلمين أعداء الوطن العثماني ، كان من البلغاريين والصربيين واليونانيين من التهمة العثمانية في مقدونية وتركيا أن ساعدوا تلك الحكومات ، وفروا يكثر من صفوفهم . أما البلاد الأخرى فقد زادت هجرة المسلمين وغيرهم منها ، وبعضهم للتخلص من الخدمة العسكرية ، فبارت بعض أصقاع سورية مثلاً من قلة اليد العاملة ، وإذا دامت الحال على ذلك ثلاثاً أو أربع سنين تنقص الجباية فلا تستطيع الحكومة أن تتقاضى من الأعشار والأموال والغرائب نصف ما تستوفيه الآن . ولا نغالي إذا قلنا إن مجموع ثروتنا قد نقص كثيراً في -

السنين الخمس الأخيرة ، فكثرت الحرائق في العاصمة وبعض مراكز الولايات ، واشتدت الأوبئة في بعض أصدعنا ، وأضمتنا من عددنا في برقتنا وبحريتنا ما يقدر بعشرات الملايين من الليرات .

كل هذا والحكومة لم تنظ إلى العلة من أصلها فتنزعها ، ولم تقم بتدبير يسكن الأفكار . ويزيد أثره ويقلل الفقر ، بل إن المجلس النيابي الأول صرف وقته في الجدالات الحزبية ، ولما قويت شوكة المعارضين الذين كانوا يعدون الأمة الوعود الكثيرة إذا هم قبضوا على أزمة الحكم ، انحل المجلس الأول وحل محله مجلس انتخب قوابه بسيف القهر والضغط . ثم استولت على الأمر وزارة مخالفة ففضت المجلس أيضاً ، وهكذا لم نستفد من مجلسنا النيابي سوى القليل والمقال واحتدام الخصام والجدال ، اللهم إلا بعض قوانين ضئيلة ليس فيها كبير أمر ، ومعظمها يرمى إلى تقييد حرية الصحافة ، وحرية الاجتماع والحرية الشخصية ونظريات كأنها علم جابر يتعذر تحقيقها ولا تأتى الأمة بفائدة .

وكيف نقول إننا تمتعنا بالحرية على أصولها والعاصمة قد عاشت معظم سنى الدستور تحت الأحكام العرفية وكذلك بعض الولايات وذلك من غير داع سوى الوهم وكان من بعض الأنصار أن اتبعوا سياستين غريبتين أضرت إحداهما بالداخل والأخرى بالخارج ، ونعنى بهما سياسة « تترك العناصر » وسياسة « الجامعة الإسلامية » فالأولى نفرت قلوب شعوب المملكة لأن لغة المرء عزيزة عليه كدينه ، ومن لم يقر على قوميته يستحيل عليه أن يغار على عزيز عليه . والثانية نفرت أو با منا قترامى للنمسا وروسيا أن العثمانيين عادوا إلى حماسهم الأولى بإعلان الحرية ، ويوشكون بقوتهم المادية وقوة المسلمين من غير العثمانيين المعنوية ، أن يسترجموا . ما كانت أخذته تائفك الدولتان من أملاكنا ، وأن يعود العلم العثماني فيخفق على بودابست . والقارص وباطوم والقريم ، وخشيت انكلاترا وفرنسا على مستعمراتها الإسلامية ، وقد بدت . مظاهر ذلك من معاضدة الحكومة للحزب الوطنى في مصر حتى صارت تبدو في جرائده ، بل . وفى صحف الاستانة الموالية للحكومة بوادر ضد انكلاترا ، وأصبحت تهدد في مصر والهند كما تهدد فرنسا في تونس والجزائر ، وهذا مما دعا إلى رفع ثقة الدول منا وبقيتنا في حجر ألمانيا وهى تسقينا الدردى من دنها وتكرع الصافي الزلال ، فربحت من حيث خسرنا ، ولم نستفد من صداقتها شيئاً في داخلتنا ولا في خارجتنا .

ومن المصائب التى جرت وبالا على الدولة تدخل ضباط الجيش في السياسة فانقسموا شيعاً ، وتركوا واجباتهم في تعليم كتائبهم ، وراحوا يفكرون فيما هو من شأنه الأمة ، فالجيش الذى حرد البلاد من رق السلطان عبد الحميد لم يحسن إليها بقدر ما كان يؤمل منه ، وكذلك كان من حال الأمة فإنها تخالفت في الأهواء السياسية لا كتخالف الأحزاب في العالم بل تخالف العبادى ، وأدى الأمر إلى ما لا يرضى عنه عاقل في الأرض ، ولا ينطبق مع أصل من أصول الحرية السياسية والحرية الشخصية وحرية ليرجدان ، فدلّت الأمة أنها طفلة في السياسة لم تبلغ أشدها .

ومن قوائد السنين الماضية أنها كشفت لغطاء عن مخبآت الضمائر ، فانتفضع من رجالنا من كان يباليغ في إيمانهم لمظاهرهم أورتهم ، وظهر المخادعون من اندسوا في صفوف الأحرار ظلماً ، أهم . فاستبهم ثوبى لا يومهم خراب البلاد ولا عمرانها ، وأثبتوا خيانتهم لأوطانهم أنهم لم ينتصروا بها . ثم حين العسرة على الأقل ، وأن كل ما ادعوه من حبهم الدستور والحرية وأنصارها تجرؤ وكذب .

واستولت تركيا في آخر الحرب العالمية على قارص وأردهان وباطوم وكانت روسيا سلختها عنها منذ سنين ، كما توسعت في حدودها في أوروبا . فاستعانت من اليونان تراكيا الشرقية على نهر المريج ومحطة أدرنة وجزيرتي إمرور وتنيديوس ( بوزجه أظه ) . أما سائر البلاد العثمانية العربية فكان نصيبها مختلفاً ، انسليخت كلها عن جسم السلطنة ، كأن الصلح الذي اوتضى به الخلفاء كان بأخذهم لها . وكأن تركيا استعادت الأرض التركية من بلاد الدولة العثمانية المنقطعة بحد الحسام ، أو فتحتها فتحاً ثانياً .

كانت مصر تعتبر في عرف السياسة عثمانية لأنها ظلت إلى أواخر الحرب العالمية تدفع خراجاً مقطوعاً كل سنة للسلطنة العثمانية ، فقطعته إنجلترا في الحرب الكبرى ، وأعلنت حمايتها على مصر ، وبعد الحرب ثار المصريون على المحتلين من الإنجليز فاعترفت إنجلترا لمصر باستقلالها ، ثم فصلت عنها السودان وهو الجزء المتمم لها ، وما برح جيش الاحتلال إلى الآن في القطر المصري (١) وسلطان إنجلترا مازال نافذاً فيها ، واليمن استقل بها إمام الزيدية ماعدا السواحل على المحيط الهندي وخليج فارس ، فإن إنجلترا كانت احتلتها ، ومنها ما حكمته مباشرة كعدن ومنها ما عاهدت عليه أمراءه وسلاطينه ، وحمتهم ووسعت عليهم

— ونحمد الله على القليل مما أصبنا وأحسننا استعماله من الحرية الصحافية ، بأن ظهر بلسانها فضل الفضلاء وعلم العلماء وكرم الأسخياء الأبرار وغيره المصالحين الأخيار . فعرفت الأمة خيارها ورذلت شرارها وأيقنت بضعفها وعجزها وأن التبجح بالماضي لا يفيد أمام قوق العلم والعمل في هذا العصر ، وأن التمجيد بالآباء والأجداد من دون احتذاء مثالهم في «فضائلهم ومضائهم» لا يجدي صاحبه فتيلة .

فعمى أن يكون العمد الماضي من هذه السنين قد علمنا معاصر العثمانيين دروساً نافذة وعلم القائمين بالأمر فينا أن الناس بعد الآن لا يحكمون إلا بالعدل والإحسان لا بالشرنة والإرهاب . وأن السيف والمدفع ليس لهما حكمهما في كل ساعة وإنما القوة الحقيقية في تأليف اقلوب وبث العلم النافع بين طبقات الشعب وحكمهم بالطرق المعقولة وإحسان الإدارة والسياسة ، فقد ستمت النفوس رائحة الدماء المهرقة والدمار المتواصل والبؤس المقيم المقعد ، وهي تريد دور سلام ترتاح فيه الأرواح والأشباح ، وينوب إلى الأمة رشدها لتضم شملها وتنسى مصائبها وتعرف أن الدستور نعمة كبرى لمن يحسن الانتفاع به ، وأنه لو هيئت أيد تنفذه حق تنفيذه لم العالمين أثره وطاب في الوانع خبره ونخبه .

فكانوا عمالها مثل الحج والنواحي السبع (الصبيحة والحواشب والقطيب وأبين والضالع واليافع والعلوى) وحضرموت وعمان ومسقط البحرين والكويت ، وكانت الدولة التركية تنازلت لبريطانيا العظمى في سنة ١٩١٣ عن حقوقها في مرافئ الكويت وقطر والبحرين ومسقط وعمان على أن تتعهد بريطانيا بإدارة الخليج الفارسي وخفارته .

وقضى عبد العزيز بن سعود على إمارة آل الرشيد في نجد ، ثم استخلص الحجاز من ملكها الجديد الحسين بن علي حليف الإنجليز بالأمس ، وجعل من نجد والحجاز وما إليها مملكة واحدة . وكان الإنجليز جعلوا فيصل ابن الحسين بن ملك الحجاز ملكا على العراق عقبى خروجه من الشام ، وكانوا فيها بايعوه ملكاً فلم يرض الحلفاء عن هذه المبايعة ، وبعد مدة أعلن الإنجليز انتهاء ما سموه بالانتداب على العراق ، وجعلوا من بلاد الرافدين حكومة ذات سيادة مخالفة لهم وضامنة لانجلترا أوفى قسط من حقوقها .

وقسمت الشام بين انجلترا وفرنسا ، فاندبت انجلترا على فلسطين وعبر الأردن ، جعلت من الأولى وطناً قومياً لليهود ، وأنشأت في الثانية إمارة صغيرة نصبت عليها عبد الله بن الحسين وهو ابن الملك حسين بن علي . وأنشأت فرنسا من سائر بلاد الشام خمس دول جعلت تحت انتدابها . وهي سورية الداخلية أو المدن الأربع دمشق وحلب وحماة وحمص ، جعلت بأخرة جمهورية ، واستقل لواء الاسكندرونة في داخلته وإن كان في ظاهره من أعمال سورية ، بدعوى أنه يكثر فيه العنصر التركي ، وجعل جبل لبنان جمهورية بضم بلاد كثيرة إليه من الشرق والشمال والجنوب ما كانت في دور من الأدوار تعد من لبنان ، وحكمت فرنسا بلاد العلويين أو النصيرية وجبل دروز حوران حكماً مباشراً . أى أن القطر الشامي بفضل الحلفاء قسم إلى سبع دول استقل كل منها عن الآخر ، والانتداب أو الإشراف أو الحماية لانجلترا وفرنسا . فكانت صفقة الشام بذلك خاسرة . والغريب أن تجتمع بعد الحرب في بلاد النصرانية في أوروبا جميع البلاد المتشاكلة بعناصرها ، وتتفرق بلاد العرب .

العثمانيين المجتمع هذا التفريق ، والأغرب أن تستقل العراق والحجاز واليمن ونجد وأهلها أقل من الشاميين مدنية وكفاءة ، وتنتدب على الشام دولتان عظيمتان ليعلم أهلها أصول حكم أنفسهم باسم ما سموه الانتداب ، وهو أنفق ما جاءت به سياسة الحرب العظمى لأنه حماية مستترة ، كما قال أحد علماء القمانون<sup>(١)</sup> من الافرنج . وأغرب من هذا وذلك أن يفتح جنوب الشام أو فلسطين لليهود من أمم الأرض ، ينهالون عليهم بعلمهم وأموالهم ، ويكثرون سواد أبناء نحلهم في وطنهم القوي الحديد ، ويفتح قلب الشام وجنوبها وشمالها لجاليات كثيرة من الأرمن والشركس والأكراد والأشوريين والسريانيين يزيدون فقر أهل البلاد فقراً ، ومجموعة طوائفها كثافة وأمورها ، السياسية بلبلة .

يقول يونغ<sup>(٢)</sup> « وهكذا احتل الغرب البلاد الإسلامية احتلالاً تدريجياً ، وكانت الحروب المتوالية التي شملت على الدولة العثمانية ، المتولى الخلافة عليها خليفة العثمانيين ، تعتبر لأسباب شتى حروباً دينية . قال وعلى هذا المنوال يؤخرون حدود الإسلام ليسهل استعباد بلاد متجزئة غير مرهوبة الجانب ، والخلاف يعبث بسكانها بدسائس كثيرة ومصالح شخصية . قال وبعد الحرب أجهز الغرب على الشرق » .

\* \* \*

رجع الأتراك أصحاب هذه الامبراطورية الكبرى إلى عشمهم الذي كانوا منه درجوا قبل ستمائة سنة وهو آسيا الصغرى . استقلوا بها جمهورية تركية صرفة وأجلوا بقايا الأرمن والروم من بلادهم حتى لا يكاد يرى أحد الآن في ولايتهم ما خلا مدينة الآستانة ، واستعاضوا عن الروم العثمانيين بأتراك من بلاد اليونان وغيرها من البلاد البلقانية ، بادلوا عليهم حكوماتها وأسكنوهم الأرض التي خلت بجلاء الأرمن والروم ، وتشرّد بقايا الأرمن في أرجاء الأرض ، وأصاب الشام منهم أكبر حصة . وأخذ الأتراك يتركون الأكراد والشركس

(١) مخطوط الشام للمؤلف ج ٣ . (٢) استعباد الإسلام ليونغ .

واللازم المتخلفين من العناصر المسلمة في أرضهم ، ونقلوا عاصمتهم إلى أنقرة في أواسط بلادهم . وقلبوا الاستانة ولاية فذهب عزها الذي كان لها قروناً في العهد البيزنطي والعثماني ، وبقي الإسلام بدون خليفة ، ولم يتقدم سوى الحسين بن علي فتقلدها أشهراً . وبايعته بعض الشام والعراق والحجاز ثم خسر ملكه في الحجاز ونفى إلى جزيرة قبرص ثم قضى نحبه . وهكذا قر الأتراك في أرضهم بعد أن اتعبوا العالم ، وأتعبوا الشعوب المحكومة قروناً ، كثرت أيام بوئسها وقلت أيام نعيمها .

وعاد العرب المسلمون في السلطنة العثمانية ، وقد خابت آمالهم وأحلامهم في الاستقلال والوحدة العربية ، وكانوا يتوقعون خيراً هذه المرة أيضاً من انجلترا ، ورجوا بعد الحرب العامة أن يحقق الإنجليز وعودهم المعسولة بتأليف مملكة عربية تضم جزيرة العرب والعراق والشام ، ولكن البريطانيين لا يسعهم إلا أن يفوا بما عاهدوا عليه فرنسا معاهدة سرية زمن الحرب ، قسموا بموجبها البلاد العربية بحسب مصالحهم ، قبل أن يصلوا إليها ، وإنجلترا لا ترضى الآن على ما يظهر عن تأليف دولة عربية ذات سيادة في طريق هندا . وهذه هي المرة الثالثة التي خاب فيها أمل عرب السلطنة العثمانية بتأسيس مملكة عربية مستقلة ، وفيها كانت انجلترا السبب المباشر على ما يظهر . كانت أول مرة في عهد عبد الله بن سعود في القرن الماضي أيام استولى على نجد والحجاز وتقرب من أطراف الشام والعراق ، فهاجت انجلترا الدولة العثمانية عليه حتى أرسلت جيشاً من مصر ضربه ضربة قاضية ، فقضى على العرب بأيدي العرب . والمرة الثانية كانت يوم استيلاء محمد علي والي مصر على الشام وما وراءها من أرض قيليقية ، وفي هذه النوبة أيضاً كان الأمل قوياً بإنشاء مملكة عربية بزعامة مصر ، فقاتلت انجلترا بأسطولها جيش محمد علي في الشام وأخرجته منها ، كما كانت أخرجت نابليون من مصر في سنة ١٨٠٢ وعادت بعد ثمانين سنة ( سنة ١٨٨٢ م ) فاحتلتها .

ويسأل القارئ بعد إلماعنا إلى حالة الدولة العثمانية في أدوارها المختلفة عن الأسباب التي أدت إلى ذاك العلو وانتهت بهذا السقوط . وقد أوردنا بعض هذه

العوامل في الصفحات الماضية ، ونريد أن نقول هنا إن انحطاط الدولة بدأ بأسراف الجنود السلطانية في العصيان ، والعبث بما يعلو عن مستوى عقولهم من شؤون السياسة، وكم من صدر أعظم ومن ملك قتل بمكايدهم وموافراتهم ، وما دخل الجند في الأمور المدنية إلا دخل الفساد . ثم إن العلماء كانوا في عهد الفتوح والعظمة يسيطرون على ملوك العثمانيين وكان منهم في العهد الماضي رجال أعلام سلمت نفوسهم من المفاسد ينكرون المنكر ويدعون إلى المعروف ، ومن يرد جماح الملك المستبد إذا لم تكن أمامه قوة يخافها ما دام أعظم عظيم في الدولة عبده وابن عبده ، وله الحق كل ساعة أن يصدر إشارته بقطع عنقه أو حمله إليه في قصره يعذبه .

كان سليم الجبار يحاذر أن يقع في غضب مفتيه « زنبيللى على » وسليم هذا طالما قتل وزرائه من دون سبب ، وكان الأمر بالقتل إلى شفتيه أقرب من الشمال إلى اليمين . ولما أحدث ابنه سليمان الألقاب والرتب العلمية ، وأمال على العلماء الدنيا ، على ما لم يكن لهم به عهد ، أمسوا يتنافسون في الإملاء للظالمين من السلاطين ، ويقلبون سيئات الملوك حسنات ، لا يأخذون على أيديهم فيما يرتكبون من الكبائر ، ولا يردونهم إلى صراط الحق في مسائل الدولة . قال ضيا : وسهل على سليمان ومن بعده من السلاطين بهذا العطف الظاهر على العلماء ، أن يستصдروا فتاوى بقتل الأبرياء ممن تغضب عليهم الدولة . ويقول أبو الفاروق<sup>(١)</sup> : إن هؤلاء العلماء وسماهم « بالمزايد » على الأحكام الشرعية أصبحوا يفسرون الأحكام للمتغلبين على السلطان على ما يشاءون وتشاء أهواؤهم ، وسماهم الجرارين أيضاً أى طلاب الصدقات فقال إنهم كانوا من جملة الأسباب إلى تداعى أركان السلطنة وهم كتائب من المداح جاء كثير منهم من فارس يستوكفون الأكف فاستأثروا بالزوايا ؛ وانهالت عليهم عطايا السلاطين، وأعان على هذا الانحطاط أناس من الروم زعموا

(١) تاريخ « أبو الفاروق » لمعاد الداغستاني .

أنهم انتحلوا الإسلام مثل ميخال وأوره نوس من أمراء الروم وغدوا بما لهم من المكانة في المتنامات العالية يؤثرون فيها بأفكارهم ومنازعهم ، ولما رأى بايزيد أن التمساء أمسى العوبة في أيدى تلك الطبقة الفاسدة ممن تسموا باسم العلماء وقد أصبحت مثاراً للفساد والرشوة وضياع الحقوق ، جلب منهم ثمانين قاضياً إلى ينشهر وأراد قتلهم لولا أن توسط الصدر في الكف عنهم واستتابهم . قال أبو الفاروق : وما الحيلة في مملكة وضع أساسها على أسوار بزنطية ، واتخذت مادتها من فارس ، والمملكتان في الفساد « كرندين في وعاء (١) » .

يقول ريشارود (٢) « إن الراسخين في العلم من المسلمين لا ينكرون أن هذه الفوضى في المملكة العثمانية ناشئة من تسهيل العلماء على السلاطين المستبدين ما تشاؤهم أهواؤهم ، ومن إغصائهم عن أعمالهم مهما كانت » . وكانت المناصب الدينية توجه في بدء أمر العثمانيين للكفاة من الرجال في الحملة ، وذلك بالامتحان أو بالقدم ، فغدت تسند بالشفاعات وبالرشاوى إلى الجهلة ، ويصرف رجال القضاء من الخدمة بدون سبب . وبانحطاط القضاء انحطت الدولة ، وغدت المناصب الشرعية تباع وتشترى وتورث وتوهب . فتولى الحكم بشرعية الرسول الأميون والجهلة والسفلة من طبقات المجتمع . كانت الدولة متعاسكة الأجزاء والتوفيق حليفها لما كانت وحدات قوتها منظومة العمد بجندها وضباطها وأمرائها ، وعتادها يفوق عتاد من تحاربهم ، وسلاطينها ورجال الأمر فيها لا يفكرون في غير مصلحة الدولة ، ولما كان لها مدافع (٣) تستعملها قبل معظم الدول ظفرت في وقعتي جالديران ومرج دابق

(١) تاريخ « أبو الفاروق » لمعاد الداغستاني . (٢) الإسلام والإصلاح

لريشارود .

(٣) يقول مؤرخو الترك إن رجلين من رجال المجر أسديا للدولة العثمانية أعظم الخدم أحدهما « أوربان » المدفنى جاء القسطنطينية في عهد الفاتح وعلم أرباب السلاح في الدولة صب المدافع الكبيرة . أما الثاني فهو « إبراهيم منفرة » المجرى ورد على تركيا أسيراً فأسلم . وألف كتاباً في الإسلام ( ١١٠٦ هـ ) ثم أسس تحت حماية الصدر الأعظم مطبعة في فروع جلب لها الحمايين ومن يصب الحروف ويحسن الطبع من فينا فأسست المطبعة العثمانية سنة ١١٤٠ هـ بفتوى من شيخ الإسلام بعد أن نطق العلماء كثيراً بتحريم الطبع ، وكان ذلك بعد اختراع الطباعة في أوروبا بثلاثة قرون .

بالفرس والماليك في آسيا ، وبملوك البلقان ودول المغرب المتفتحة عليها في أوروبا ، حتى إذا تفسخ جيشها ، وجمدت على طرائقها القديمة في الحرب ، مجتزئة بما كان عندها من سلاح ، تراجعت عظمتها ، واضمحلت سلطانتها . ولما انتهى جلب الغنائم من البلاد المفتوحة وضعفت مواردها زاد السلب في رعاياها فاعتلت أمورها ، وفسد جمهورها .

بهر الدولة اتساع ما انضوى إلى علمها من الأقطار والأمصار ، فما فكرت في توحيد البلاد ، ولا تعرفت إلى حقيقة ما ينهضها ، ولا ربت رعاياها تربية مشتركة ، ولا سارت في تعليمهم على سياسة معينة ، تضمن لها ولهم المستقبل . وكان همها مصروفاً إلى الساعة التي هي فيها ، وتكتفى من الناس أن يظهروا الطاعة والمشايعة ، ويؤدوا الضرائب والمغارم ، وكان أعدى عدوها من ينشر في قومه فكراً جديداً ، ولو كان ظاهره وباطنه الخير لها ولبلادها . ذلك لأنها كانت ترى العلم أداة ضارة بكيانها ، وتذهب إلى أن سلطانتها يزول يوم يتعلم رعاياها . وما كان النصارى بما منعوا به من امتيازات منذ عهد الفتح ، وبما كان لهم من حماية الدول النصرانية في القرون الأخيرة ، يعدمون مبشرين ومعلمين يفتحون لهم في القاصية والدانية مدارس وكتاتيب ، حتى ارتقى بطول الزمن مستواهم العقلي . ولقنوا معنى الحياة الحرة ، واستعدوا للجلاد في ميادينها ، فكان من ذلك ضرر غير قليل على مجموع الدولة والسواد الأعظم من أهلها . وبينما كانت الجندية في العصر الأخير إجبارية على المسلمين دون غيرهم ، كان المسلمون ينقرضون في حروبها المتوالية ، والنصارى يرتعون في دعة ينمون ويسعدون ، ولا يطلب منهم غير جزية ضئيلة . تغافلت الدولة عن تقليد الغرب في ماديانه ، فقلبا أهميتها مشاركتها في نهضته الرائعة ، وكان غنيها يصادر ، وعالمها يضطهد ، وماهنا يمتن ؛ فقضى على حركة العقول والأيدى . وأنى تقوم لدولة قائمة إذا كانت بلادها فقيرة وشعوبها جاهلة ؟ ولقد كانت الدولة نحس ضعفها عقبي هزائمها ، وسرعان ما كانت تنسى أسباب محنتها ، وكانت إلى أخريات أيامها تحول دون تعلم العرب المسلمين .

وهم النصف الذي لا يستهان به في السلطنة . ومن الإنصاف أن يقال إنها لم تعلم الأثرak أيضاً ، اكتفت بتلقيهم قشوراً من العلم يراد منها صوغ عمال وأرباب ولايات ، فأصبحت الطبقة المتعلمة مستهلكة غير مستحصلة ، وما كان لفقير مقيد أن يرتقى نشاطه إلى أكثر من تحصيل قوت يومه .

واعتقد الناس أن لا شرف إلا بما أتى من قبل السلطان ، وأن من لم يشرفه بمرتبة أو مرتبة أو وسام فلا شأن له في المجتمع العثماني ، ففسدت الأخلاق في سبيل الحصول على هذه المظاهر الخلابية ، وشغل الناس بالتافهات ، وقصارى الدولة أن ترى رعاياها يطلعون الجدد . وبعطفها على الدجالين من مشايخ الطرق زاد المسلمون زهداً في العمل والخنوع لأصحاب السلطان ، فعلموهم أن ما هم فيه هو السعادة في الدارين ، وأن علم أوربا كفر وهراء وسخرية ، جهل المسلمون حتى أمسوا لا يتوقعون الخير إلا من الحكومة ، وكان معظم عمالها ، وهم أرقى طبقة متعلمة في الأمة ، على جانب عظيم من الفساد ، يتطلعون أبداً إلى ما بأيدي الناس من دون خشية ولا رحمة .

انتظم علم الترك العثمانيين البلاد التي احتلوها في الجنوب الشرقي في أوربا نحو خمسمائة سنة فأثروا فيها تأثيراً قليلاً ، وقاوموا جيوشاً غربية ما كان لها من النظام ما كان لهم لأول أمرهم ، وما حملوا إلى أهل الأرض التي دخلوها حضارة أنيقة طريقة ، فكان سلطانهم قائماً على الغلب لا على العلم والصناعات . واستصفى العرب جزيرة الأندلس وصقلية وما إليها في الجنوب الغربي من أوربا ، وعلى ما فرقهم في أكثر الأدوار من الخلاف الداخلي ، وما عانوه من حرب أعدائهم في الشمال يعاونهم على الأكثر جيوش الإفرنج وغيرهم ، فإنهم أثروا في تلك البلاد أثراً عظيماً بعلمهم وصناعاتهم وأخلاقهم وعاداتهم ، أثروا في الأسبانيين والبرتغاليين والكتلانيين والفرنسيين والنورميين والإيطاليين في لغتهم وآدابهم وصنائعهم ومضى أربعمائة سنة على خروجهم من الأندلس ، وأثرهم ماثل للعيان في الأوضاع والمصانع ، على شدة الكراهة التي بدت ممن احتلوا أرضهم ، وعلى محاربتهم بعد كل ما يدل على آثار أعدائهم في تلك الديار (١) .

(١) راجع مدينة العرب في الأندلس ومدينة العرب في جزيرة صقلية في الجزء الأول ..

كان إضعاف قوة العناصر من أعظم العوامل في تهيئة الأسباب لكل خلل في الدولة والأمة . وإذا أضفنا إلى ذلك تدخل النساء في أمور السلطنة في القصر السلطاني ، ومن يتبعهن من طبقات الحاشية والغاشية ندرك سرّاً من أسرار هذا الضعف . فقد أفاض التاريخ أن خُرّم ( روكسلان ) البولونية زوج سليمان القانوني لعبت بأقدار المملكة زمناً ، تعلن الحرب وتعتد الصلح ، وسعت بقتل ابن ضرته ليكون عرش السلطنة لابنها ، وعصا شقيقه فهرب إلى فارس فدفع السلطان لشاه العجم أربعمائة ألف دينار<sup>(١)</sup> ليعيد إليه ابنه ، فما إن حل إليه حتى قتله وخمسة من أولاده . وكانت هذه السلطنة السبب في إهلاك إبراهيم وأحمد من الصنادور العظام<sup>(٢)</sup> أيضاً . ومثلها « كوسم والده » التي لعبت بأقدار المملكة نحو خمسين سنة وما انتهت من تدخلها إلا بقتلها . فالنسوان والغلمان كان لهم مدخل عظيم في تقويض بنيان السلطنة .

وهل أعظم من أن يقتل الجوارى من أولاد السلاطين من يردن قتله ، وقد يكون في القتل من أبناء الملوك الدراكة الحصيف ، على حين لا يكون من يبقون على حياتهم غير أشباه الرجال . والسلاطين منذ عهد الفاتح ، وقبل بايزيد ، رخص لهم بقانون وضعوه لولاية العهد أن يكون لأولاد الفاتح وأحفاده ممن يجلسون على العرش العثماني الحق أن يقتلوا إخوتهم حباً بإقرار الراحة في الناس . يقول أبو الفاروق بدأت سيئة قتل الإخوة من عهد بايزيد الأول وسود الفاتح صحيفته بمثل هذا المنكر ، فنشأت من ذلك سلسلة من الفجائع ، ورأى الزمان لهذا النوع من القتل مبرراً ، فوضع في قالب الحرص على سلامة الأمن العام ، وما رأوا غير هذا التدبير للقضاء على النزاع إلى السلطنة ، وجرت مثل تلك الفظائع في فارس والحكومات الأوروبية ، غدت [ هذه السنة السيئة معمولاً بها ، وقلما خلا ملك من ارتكاب هذا القتل الفظيع ، ومنهم من اتهم بقتل أبيه ، وأصبح قتل السلطان لإخوته وأولاده وأحفاده وبناته والحاملات من نساء السلاطين مما لا يستنكر . وظلت هذه العادة القبيحة من قتل أولاد السلاطين جارياً حكماً إلى عهد محمد الرابع ( ١٠٩٩ هـ ) وكان

( ١ ) تراجع الأعيان للبوري . ( ٢ ) قاموس الأعلام لشمس الدين سمي .

حاول قتل شقيقه فنعته والدته ، وحاول المفتى الأعظم بينه وبين القتل .  
أورد له كلام الله وخوفه من عذابه ، وبذلك انتضى دور قتل أبناء الملوك  
الذى دام أكثر من ثلثمائة سنة ، وأخذ كل سلطان بعد ذلك يراقب أولياء  
العهد مراقبة شديدة ويقيمهم بمعزل عن الناس لا يختلطون بهم . وكان  
يتولى العرش السلطاني أكبر أولاد السلاطين إلى عهد أحمد الأول فحاء هذا  
عن القانون بنصب أخيه مصطفى ، وأصبح من القواعد المعمول بها إلى  
أواخر أيام العثمانيين أن يتولى العرش أكبر الأسرة المالكة سناً أو أقربهم من  
الحد الأول . وكان العثمانيون قبل اتساع سلطانهم يولون الأرشد من أبنائهم  
وإن كان أصغرهم سناً ، ويرجحون من كانت أمه من أسرة نبيلة لا من  
السراري والحواري والإماء (١) .

ما خلت الدولة من أيامها الطويلة من ظهور نوابغ في السياسة من  
رجالها ، وكانوا إذا تركوا وشأنهم يديرون دفة السياسة الداخلية والخارجية  
في الحملة على غفلة من الملوك المنحطين ، وكثيراً ما كانوا يكمون أموراً  
مهمة عن سلطانهم ، لا يطلعونهم عليها إلا بعد أن تتم . فقد كانت  
الدولة مرة مشغولة بحروب هائلة على عهد عبد الحميد الأول فاحتل  
العجم البصرة ، فكتم وزراؤه الأمر عنه أربع<sup>٢</sup> سنين حتى تسنى للدولة  
إخراج أعداء بلاده من أرضه . ولذلك كان مؤرخو الأفرنج على  
صواب في قولهم إن ما كتب من التوفيق للدولة ، يعزى إلى عبقرية  
الصدور العظام والقواد المحنكين ، وإلى الصناعات التي تفرد بها الجندی  
التركي من الصبر والطاعة ، والمران على الحرب والضرب لا إلى  
السلاطين الذين آثروا حياة القصور المفتونة ، وركبوا إلى الشهوات كل  
مركب . وكان معظم هؤلاء النوابغ من عناصر أقوى من التركي ، وأوسع  
حيلة وتواضعاً في العمل والدؤوب عليه . ظهرُوا باللباس التركي . وفيهم

(١) تاريخ « أبو الفاروق » لميراد الداغستاني .

(٢) تاريخ بغداد لعثمان بن منذر البصري .

البجناكي والألباني والكردي والقوقازي وغيرهم يكتمون أنسابهم ، ويخفون عن الشمس والقمر ما يدور في مغيبات نفوسهم .

ذكر لاموش<sup>(١)</sup> أن الحالة السياسية في الدولة العثمانية أواخر القرن الثامن عشر كانت صورة كاملة من حكومة مطلقة يتصرف السلطان في أرواح أهلها وأموالهم . ولئن كان القرآن وهو القانون السامي في المملكة يقضى بقبض يد السلطان عن الاسترسال فيما يريد . فقد رأينا غير واحد من ماوك العثمانيين يستعملون الخمر ، بل يفرطون في تناولها وفي تعاطي الأشربة المخمرة ، مخالفين بذلك صريح آيات القرآن ، وقلما كان السلاطين يعبأون بأوامر الكتاب الكريم ، أو يراعون القواعد الإسلامية ، إذا عن لهم اغتصاب أموال الدولة ، إن كان في آياته ما يخالف شهواتهم وأهواءهم ومطامعهم . قال ولكم كانت حال أرباب المكانة من رجال الدولة حرجة ، أخذاً من الصدر الأعظم فنازلاً . وكل عمل مهما باغ خطورته لا يجعل صاحبه بئامن من المحن ، بل لقد كانت مكانة الوزير كثيراً ما تعجل بسقوطه ، ذلك لأن الملك يحسده على ما خوله من سلطة مطلقة ، وقد يحاذر أن تنشأ له حظوة من الأمة ، وكلما قرب المرء من أنظار السلطان بحكم منصبه يستهدف لغضبه وهواه ، والموظفون يحرون على هذا المثال مع موظفيهم ومستخدميه . فكانت الإدارة الذوقية والعسف والسرقة ، ولاسيما في الأعوام الآخرة عامة شاملة ، من أعلى درجات المناصب في إدارة المملكة إلى أدناها . ولهذا السبب تحزى الثورات العديدة التي حدثت أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد شهدنا لحيها يتدلّع في المسلمين قبل أن يهب في النصارى .

وقال أيضاً : إن العظمة التي قدرت للمملكة العثمانية أن تأخذ بضبيعها إلى أبعد مدى ، كانت تحمل معها جرائم الانحطاط . والسلطة قد تفقد وحدتها وقوتها في مملكة واسعة الأطراف متنوعة العناصر . وانتشرت عادة الترف

(١) تاريخ تركيا للاموش Lamouche : Histoire de la Turquie

والرشوة بين كبار رجال الدولة ، وأصبحت السياسة تدار بأيدي النساء ، وصعب مراس أصحاب الإقطاعات ، وكثر سواد الجند الانكشارى ، وكانت تتألف منه إلى ذلك العهد نواة صالحة من الجيش العثمانى ، ثم بطات الطريقة القديمة فى التجنيد من أبناء النصارى وكانوا يؤخذون صغراً ويربون ، فدخل المتشردون والأفاقون فى هذا الجيش المختار ، بما فتح أمامهم من طرق المغنم . وأصبح الإنكشارية فى حل من أن يتزوجوا ، وأن يدخلوا أولادهم فى الجيش ، وما زالت الحال على ذلك حتى مال هؤلاء الجند إلى القوضى فى البلاد ، وكانوا على جانب عظيم من الشجاعة فى الحروب ، وغدوا يرون لهم قوة أمام السلطان وراحوا ينصبونه أو يسقطونه . قال وكانوا عقبى تولى كل سلطان جديد يطلبون زيادة رواتبهم فيجابون إلى طلبهم ، وأصبحت هذه القاعدة مطردة يسرون عليها .

وعزا ميشو<sup>(١)</sup> انحطاط الدولة العثمانية إلى عدة أسباب أهمها الجهل والحمود والغرور فقال : كان العثمانيون لأول أمرهم الأمة الوحيدة التى كان لها جيش منظم دائم ، وبه أحرزوا التفوق على الأمم التى أرادوا إخضاعها لسلطانهم ، وغدت أوروبا فى القرن السادس عشر ولمعظم ممالكها جيوش يدفعن بها هجمات الأعداء . ولشد ما انتشر النظام والتربية العسكرية بين شعوب النصرانية ، وأخذت المدفعية والبحرية تزدان كل يوم نظاماً ورقياً فى الغرب . هذا والأتراك يزهدون فى التجارب التى وصلت إليها الجيوش البرية والبحرية وهم قلم يستفيدون من العلوم التى انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم .

قال ومن الأسباب التى أضعفت قوة الجندية فى الأتراك تلك الحروب التى شهروها على أوروبا وفارس ، فقد صدتهم حربهم الفرس عن حملاتهم على النصارى ، وأضر جهادهم فى النصارى بنجاحهم فى حروب آسيا . فبعد أن قاتلوا زمناً متتالاً ما وراء النهر والقوقاز عجزوا عن قتال أوروبا ، فوهنوا

(١) تاريخ الصليبيين لميشو . Michaud : Histoire des croisades

في حرب الفرس وحرب النصارى من أمم الغرب . ثم إن طريقة الإقطاعات التي أتوا بها من بلادهم الأصلية لم يتركوها وراثية لينشأ إلى جانب السلاطين طبقة من الأشراف على ما هو الحال في الحكومات الأوروبية المطلقة ، وبهذا لم يبق في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق إلى جنبها ديمقراطية عسكرية . وربما كان من استئصال الزعامة ( الأرستقراطية ) الوراثية ما قضى على الأمة العثمانية أن تبقى في حالة الهمجية . وبطبقة الزعماء في الأمم تهذب الأخلاق ، وتثقف العادات ، وبالطبقة الوسطى تنتشر المعارف وتستفيض المدنية .

قال وبالنظر إلى زهد الأتراك في العلوم والآداب ، ظلت أعمال الصناعة والزراعة والملاحة في أيدي مواليتهم ، وهؤلاء كانوا في الحقيقة أعداءهم . ذلك لأن الأتراك كانوا يشتمزون من كل جديد ، وتنبو نفوسهم عن كل مالم يحماوه معهم من آسيا ، فاضطروا أن يلجأوا إلى الغرباء في كل ما اخترع ونظم في أوروبا . فأمسوا وليس لديهم نقض ولا إبرام في مصادر سعادتهم ومنعتهم ، وفي تعزيز جيوشهم وأساطيلهم ، ولما كان الشأن في حروبهم للفتاى المتحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، حتى إذا جاء دور العاوم البشرية ، والانتفاع بما أبرزته العقول من المخترعات والمكشوفات كان العقل المساعد هو الذى أبطل حكم الشجاعة التي اتصفوا بها . وأهم ما أخر الأتراك وقادهم إلى الانحطاط ذكرى مجد سالف ، وإعجاب وطنى ، لا تناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم ، فكانوا إذا حدثت لهم قوة يستهينون بالأخطار التي تهددهم ، فإذا كتب لهم النصر سكروا وقربوا القرابين ، وإذا غابوا حملوا على رؤسائهم اهـ.

وقال كورنو<sup>(١)</sup> : كان القرن السابع عشر بلا جدال عصرأ عصيباً في تاريخ الدولة العثمانية ، كان عهد صراعها مع أوروبا النصرانية . وما كان التعصب الإسلامى في زمن من الأزمان أشد تهديداً للنصرانية مما كان عليه

(١) Cournot : Considérations sur la marche des idées et de événements

dans les temps modernes نظرات في سير الأفكار والحوادث في العهد الحديث لكورنو .

في القرن السادس عشر على عهد سليم وسليمان . ومما لا مجال للشك فيه أن الهرم كان في القرن الثامن عشر دخل جسم المملكة التركية ، ولكن وقع لها في الفترات أى خلال القرن السابع عشر ما يقع نظيره في عصور الانتقال ، أى ما يدل على إقبال وإدبار معاً . عاد الأتراك يغيرون على الغرب ووقفوا على أبواب فينا ، فانتبهت فكرة البطولة والقيام بحرب صليبية حتى في رجال دولة فرنسا ، استولى الترك على قندية على ما لقوا من مقاومة أشرف الفرنسيين ، وبعد انسلاخ أعوام قليلة كان من جهد حكومة مشرفة على السقوط (أى فرنسا) ما كفى لنزع المورة من أيدي الأتراك . ومن الواجب أن يلاحظ أن التفوق القطعي في الحضارة الأوربية على الوحشية التركية لم يكن ذا صلة بتقديم العاوم ولا بارتقاء فنون الحرب . وكان من ذاك الجندى الوحشى الذى لا يعرف النظام ، ومن ذاك الوزير الجاهل ، إذا نشب القتال وضاق الحصار أن يحولا دون توفيق القواد والمهندسين ممن تدربوا أحسن تدريب ، على حين كان يمزق أوربا النصرانية شقاقها الداخلى ، ولم يكن لأحد من ملوك النصرارى من السلطان في الواقع مثل ما كان لصاحب تركيا يومئذ ، فاستلزم ذلك أحياناً أن تتغلب القوة الجسمية والعديدية على العلم والدربة . وما مال الميزان إلا بارتقاء النظام والإدارة وتطبيقهما على مسائل الحرب ، وكان من استفاضة الغنى عاملاً قوياً من جملة العوامل في كف عادية العثمانيين ، فأصبح في وسع كل دولة أوربية أن تجند جيوشاً وتمرنهم وأن تجهز أساطيل وتمدها ، وعجزت الشعوب الآسيوية ، بما كانت عليه من الحالة الاجتماعية ، عن مقاومة الغرب مقاومة فعلية ، إلا ما كان يخدمها من بعد المسافات واختلاف الأجواء ، وبذلك بطلت معاودة الأتراك الغزو والغارة .

هذا رأى مؤرخين غربيين في الدواعى إلى انحطاط الدولة العثمانية ، واليكم آراء أربعة لمؤرخين من الأتراك ، كتب الأول رأيه في أول عهد انحطاط الدولة وهو « قوجى » في رسالته فقال إن مما أدخل الحلل في الدولة زمن السلطان سليمان القانونى كونه تجافى عن حضور الديوان بنفسه ، فبعد

ما بينه وبين أمراء دولته وقوادها وغدا ينكرهم ولا يعرفهم . وقد عهد بالصدارة العظمى إلى إبراهيم باشا من خواص خدامه من دون سابقة له في خدمة ، وما نظر إلى القاعدة التي كان يجرى العمل عليها في توسيد منصب الصدارة ، وأصبح من المألوف أن يرقى كل سلطان إلى هذا المنصب الجليل من ترغب فيه نفسه ، وهو قليل الخبرة ولا يسترشد مع هذا برأى العارفين ، ففسدت أمور الناس واختل نظامهم ، وزوج القانوني ابنته من رستم باشا فنحى من الإقطاعات ما لا يتناول إلى مثله ملك من ملوك الطوائف . وأخذ ذراري أولئك المالكين يقفون الإقطاعات فأضاعوا بذلك دينهم ودنياهم ، إذ خالفوا الشرع بإخراب هذه المزارع وهى ملك بيت المال ، وأنشأ رستم يعهد إلى اليهود بإدارة إقطاعاته ونزعها من أيدي المسلمين ، فقل ارتفاعها وخرب عمرانها ، وبهر السلطان ما انهال عليه من الأموال فزاد في الرفاهية والبذخ وتطلب الشهرة والصيت فاقتدى به وزراؤه ، وأمسى الناس لا يفكرون في غير البذخ والتفخل وعم الاعتداء على الناس فخربت البلاد .

وقال أيضاً على ما رواه راسم في التاريخ العثماني : لقد أصبحت المناصب السلطانية بعد سنة ٩٩٠ هـ . تباع بالرشاوى إلى غير ما تأهلوا لها ، وقام أشقياء الجلالى في سنة ١٠٠٤ وأغاروا على القرى والمزارع في ولايات كثيرة في الأناضول وبلاد العرب ، فخربوا العامر وجعلوه قاعاً صفصفاً ، ثم أغاروا على بروسيا وحرقوا كثيراً من أحيائها . وخرج العربان والتركمان عن حظيرة الطاعة وغلوا في إطالة أيدي ظلمهم وتعليمهم على فقراء الرعية ، فخربت قرى كثيرة في تلك الديار أيضاً . وقام أشقياء القوزاق في سواحل البحر الأسود واعتدوا على السكان وأسروا الآمنين من المسلمين ، وأتوا على العروض والحدائق والحقول فنسفوها . وبعد أن أعد ما خرج من سلطان الدولة من الأقاليم ، وما لقيه أهلها من العنت والمغارم قال وهكذا شأن سائر المملكة أتى الظالمون منا عليها فألبسوا الرعايا لباس الجوع والخوف ، فأى مصيبة أعظم من هذه المصيبة ، ومن المعلوم أن لا قيام للسلطنة إلا بالجند ولا جند

بلا مال ولا مال إلا ما أتى به الرعايا ، ولا تقوم لرعية قائمة إلا بالعدل ؛ أما الناس في هذه الأرض فتمد أصبحوا وقد سلب قرارهم وباتوا غير آمنين في سرهم ، تتحينهم المظالم ، وتمزق شملهم الغوائل ، فقل بذلك ارتفاع بيت المال ، وآض أرباب السيف إلى هذه الحال ، تنزع البلاد الإسلامية من يد سلطانها ، ولا ترى لهم تدبيراً يدبرونه ولا دواء يصفونه ، ولا يرجعون عن سفاهتهم ، ولا ينتهون من غفلتهم .

وقال أحمد راسم يوم أن زالت سلطة الاستبداد باسقاط عبد الحميد الثاني :  
تغبط أعظم إمبراطوريات العالم الدولة العثمانية على ما كان لها من الملك العظيم ، والسلطان الذي يضم تحت لوائه زهاء ثلثمائة مليون من المسلمين ، ارتبطوا بالخلافة العثمانية برباط معنوي أكيد ، ولكن سوء الإدارة وقلة المعارف وسيئات الحكومة وكسل الأهالي وما أشبه ذلك من المساوئ المادية والمعنوية أفقد الدولة كثيراً من أملاكها وطأمن عزة سلطانها ، وأمسبت على عهد عبد الحميد الأول بعد أن عتمدت معاهدة كوجك قينارجة مع روسيا أشبه بإيالة روسية لا تتحرك إلا بحركة حليفها ، وأصبحت في عهد عبد الحميد الثاني تهدد حياتها كل ساعة أصغر الحكومات شأناً ، وهي بلغاريا المعدودة من الإمارات التابعة لها .

وقال جلال نوري<sup>(١)</sup> في عهد الحرية العثمانية الأخيرة على عهد الاتحاديين :  
يشبه الأتراك الرومان ، فقد كان الرومان أمة حربية لاشأن لها إلا اقتسام الغنائم ، فاضطروا إلى أن يتركوا للأثم حريتها لتتوفر على العمل والإنتاج ، وبدأوا يسلبون الغرباء والبربر ، ثم أخذوا يطيلون أيديهم على أموال الأمم في آسيا وإفريقية ، ثم أنشأوا يهبون رومية . وقال<sup>(٢)</sup> : كان الأتراك يعلقون شأناً عظيماً على الغنائم فتمد دخلوا إلى صميم بلاد النمسا ، وتوغلوا في أرض الأفرنج حباً في المغنم ، وما كان لهم متسع من الوقت يصرفونه في التجارة والصناعة ،

( ١ ) مقدرات تاريخية لجلال نوري . ( ٢ ) تاريخ تذييلات عثمانية لجلال نوري .

فكانت حالة الترك كحال رومية في هذا المعنى . كانت رومية مقر الدولة الرومانية لا صناعات فيها ولا تجارة . والذريعة الوحيدة لجمع ثروة العظماء ، إعلان الحرب وتقسيم الغنائم . وهكذا كان شأن البلاد العثمانية الأولى : إذكاء نيران الحروب أبداً والتوفر على تقسيم الأسلاب والأنفال . وما وقع في المجتمعات التركية والتترية وقع مثله في المجتمعات الرومانية ، فقد كان لتقسيم المغنم قواعد وأصول ، ولما كانت رومية عرضة على الدوام للحروب والغارات والانتقامات امتزج فيها حب انفس بحب الأسرة ، وحب الوطن بالاستعداد الحربى . ومثل ذلك وقع للأتراك ، أصابهم ما أصاب الرومان ا هـ .

وقال رابعهم<sup>(١)</sup> رضا نورى عهد تركيا الجمهورية: يرجع انقراض دولة العثمانيين إلى عوامل كثيرة أهمها انقطاع البطولة من المسلمين ، وقيام الترك سداً أمام النصرانية جلب عليهم خصومة أوروبا جمعاء، ونسبت القرون ومطارق النصرارى تتساقط على رؤوس الأتراك ، وبالتغافل عن حقوق الوطنية التركية ، والرغبة عن جعل التركية أساساً لسياسة الدولة ، صانوا أديان من سقطوا عليهم من العناصر، وأبقوا على ألسنتهم بل عزروها ونصروها . وبمنح محمد الفاتح الروم امتيازات مذهبية أحدثوا دولة في دولة ، ولم تصبح البلاد متجانسة ، بل أمست كبرج بابل يتبلبل الألسن فيها . ولقد حافظ السلجوقيون لما نزلوا آسيا الصغرى على جميع الأديان والقوميات الغربية التى كانت فيها ، وجرى العثمانيون على طريقهم ، فاحتفظوا بما وجدوه ولم يعرفوا ما هو التمثيل . وكانت هذه العناصر كلما افترصت فرصة استلبت من بناء الدولة حجراً وذهبت به . وهذه الأجناس هى التى فتحت للأجانب سبيل المداخلة فى الشؤون الداخلية فى الدولة ، فكانت العامل فى انقراضها . قال : ومن خرق رأى الإبقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة ، وهذا من أساليب العرب وأصولهم . وعد من العوامل المؤخرة تدخل الدين فى مصالح الحكومة ، وجهل الملوك واستبدادهم وسفاهتهم ، والعناية بتربية أبناء الصرب والروس .

(١) تودك تاريخى لرضا نور .

والأولاح والأرمن والعرب والأرناؤود والكرج والشركس وغيرهم من العناصر ، وتسليم زمام أمور الدولة إليهم ، بدلا من أن يؤخذ بأيدي الأتراك أنفسهم . وكانت هذه العناصر تبذل الجهد للقضاء على التركية وإسداد الحجاب ، دونها . واعتصم ملوك الأتراك بالإسلام ، فزادوا التعصب قوة . وكانت روسيا تنتقم لمملكة بيزنطية فتحارب العثمانيين على الدوام . قال : وكان على الترك أن يضموا العنصر التركي بأجمعه تحت علم واحد . ومن أخطائهم أن توسعوا في إفريقية ، وأن نطحوا برءوسهم قلاع فينا في أوربا ، ثم وقفوا وأدمغتهم دامية . وزعم أن من دواعي الأسف فتحهم السبيل لرواج اللسانين العربي والفارسي ، فداس هذان العنصران لسانهم الخاص أي التركية ، وعبث بالامة الفقر ، وعصف بها عاصف الجهل .

هذا رأى الغريب عن الترك والقريب منهم في انحطاط الدولة ، وهو حق في جملته ، وآية كل هذا أن قوة السيف لاتدوم إذا لم يؤيدها العقل ، وأن فتح الأرض لا يطول إن لم تفتح قلوب أهلها بالإحسان . ولما لم يرع للعناصر في هذه الدولة العظيمة حقه بقيت على حذر ، ولم تمتزج بالفاتحين ولا أحببتهم ولا أحبوها ، فكان من كل ذلك القضاء على الدولة العثمانية .

## الخاتمة

سيقول من تابعونا إلى هذه المرحلة فيما كتبنا ، إنك يا هذا ذكرتنا بما تيسر من حاضرنا وغابرنا ، وذاكرتنا في حكمة الصعود والتدلى في تاريخنا ، وأوردت ما تم من الحسنات على أيدي أجدادنا ، وشفعتها بما وقع عليهم وعلينا وعلى غيرنا من التبعات . فما السبيل بعد هذا إلى استعادة مجد ضاع أكثره ، في زمن غل فيه الغريب أيدينا عن عمل ما يصلحنا ؟

السبيل أن نعود أبناءنا الصديق في القول والعمل ، وندرهم على إعمال الروية والتفكير الصحيح ، وننشئهم على قوة الإرادة والاعتماد على الذات ، ونؤدبهم بأدب النفس وأدب الدرس ، ونعلمهم أن إتقان لغتهم الفصحى هو الأصل الأول في نهضتهم ، وأن تجويد كل ما تصنعه اليد ويهيئه العقل هو السر الأعظم في قيام مجتمعاتهم ، وأن كل عمل نافع بقدر ما ينتج من فائدة ، وكل صناعة شريفة إذا لم تكن مما يثلم الشرف والمروعة . نخرج أطفالنا في صناعات يقتصدون من ربحها ليوفر في نفوسهم أن عليهم تبعة في الحياة ، ولا يجعلهم الاتكال حتى على آبائهم إلا في سن معينة ، نعود البنين والبنات أن يفكروا في مصلحة الجماعة تفكيرهم في مصالحهم الخاصة ، وأن يؤمنوا أن المرء لا يعيش إلا بالتكافل مع أخيه الإنسان .

نلقن أولادنا المجمع عليه من الأصول الدينية والمدنية ، وندعوهم إلى أن يمتنعوا من تقليد الغربيين إلا في الأمور المادية النافعة التي لا تضر بمشخصاتهم ومقدماتهم . نحملهم على ألا يبتعدوا عن الغريب كل البعد ، ولا يفنوا في تقليد كل الفناء ، ونأخذ كل فرد بالحد في كل شأن . ونعنى بتهديب المرأة عنايتنا بتهديب الرجل ، ونقتصر في حجب نساء المدن الحجاب الشرعى ، على مثال نساء القرى والبوادي من دون تبرج ولا تبذل . ونلتمس من الحكومات أن تسن قانوناً لإكراه الشبان على الزواج وتخفيف المهور إلى حد يتلاءم مع

اقتصاديات كل بلد ، ونقتصر ما أمكن على تثير ما تنتج أرضنا وتصنع أيدينا من حاصلات وصناعات . ونحذف كل زائد من الرفاهية والبدخ . ونعاون الحكومات على تربية ناشئتنا ، فننشئ من أموالنا بالاكتتاب كتاتيب في كل حي ومنزلة وضيعة ، ومدارس عملية للصناعة والزراعة والتجارة ، ودروساً ليلية نقضى بها على الأمة . ونربي في الناشئة الذوق والحس والشعور بالجمال ، ونحبب إليهم التمثيل والموسيقى والغناء والإنشاء لتطبيب الحياة وبدخل السرور إلى البيوت ، ونتوخى أن تدور معاني الأغاني والأناشيد على تقوية العزائم وتنشيط الآمال والدعوة إلى الواجبات البشرية والاجتماعية ، ونبذل الجهد في كل صقع أن لا يتولى الأعمال الدينية والمدنية إلا من ثبتت كفائتهم ، وسلمت من الضعف والنقص أخلاقهم ، فيخرج الجهالة من بيوت العبادة ودور الحكم والقضاء والإدارة . ويطلب إلى كل حكومة أن تصرف ربع دخلها وأوقافها على التعليم والصحة ، وتوزع ما تملكه من الأرضين على الفلاحين والعاملين ، ويعنى أهل كل حي وقرية ومزرعة أن ينشئوا لهم كتاباً وجامعاً وحماماً وملعباً وخزانة كتب صغيرة تلائم حاجتهم ومحيطهم .

ينقب أهل كل حرفة النقباء ، وينزلون على رأى المخنكين من الشيوخ في نقاباتهم . وتتألف جمعيات لمكافحة المخدرات والمسكرات والتدخين والفحش والإسراف . وجمعيات للرياضات البدنية والسياحية العلمية . وجمعيات ينشر فيها الخاصة بين العامة رسائل دورية واضحة مشكولة تكتب بلغة معربة مفهومة ، في موضوعات أدبية واقتصادية واجتماعية ، فيها لحو ولعب وفيها تعليم وتهذيب وجد . ويطوف المتعلمون في أيام مخصوصة يحاضرون قومهم ويسامرونهم في مسائل تطبعهم بطابع الوطنية وحب العرب والعربية ، وتعرفهم إلى المشهورين من رجال الإسلام وغيرهم في الدهر الغابر والحاضر . وتذكرهم بما لهم وعليهم من الحقوق والواجبات .

وتحول ما أمكن الزكوات والصدقات إلى ملاجئ يأوى إليها اليتامى والعجزة ومن قعدت بهم الأيام عن الكسب ، حتى تبطل الكدية ويقل الشقاء والبؤس ، ويضطر كل صحيح الجسم إلى ممارسة عمل يعيش منه بكده : ويكون من أولى القواعد أن لا يبدأ بعمل قبل التفكير فيه طويلا ، وأن لا يستهان بمال قليل يجمع لهذه الأغراض من أول الأمر ، ثم تترك سياسة كل بلد للصالحين من أهله ، لا يشاركهم فيها جمهور الناس إلا عند الحاجة القصوى وبقدر معلوم إلى حد معين . والزمان كفيل مع اتخاذ الأسباب بحل كل معضل ، والأمة الصحيحة العقل والجسم ، المجهزة بالأجهزة اللازمة في كفاح الحياة ، مضمون لها البقاء ، وميسور لها أن تعيش حرة ، إذا صمدت وصبرت وعملت واغتنت ، والله ولى التوفيق .

---

## تعاليق

## التعليقة الأولى ( ج ١ - ١١ )

ذكر أحد الباحثين في جريدة الكوتيدين Le quotidien الباريزية تحت عنوان « تاريخ الأمم المغلوبة على أمرها لم يكتب » أن المجلس الأعلى لبقايا هنود أمريكا في الولايات المتحدة أرسل إلى شيخ مدينة شيكاغو احتجاجاً جاء فيه : أن الكتب المدرسية المستعملة الآن في الولايات المتحدة ، صورت تاريخ قبائل الهنود في صورة مخالفة للحقيقة التاريخية . قال الكاتب ولينا تفكر قليلاً فيما كانت عليه أمريكا قبل أن يفتتحها كولمبس ، ونقرأ ما قصه الفاتحون الأولون وأرباب الرحلات الأقدمون من الأفاصيص الغربية ، ونلقى رائد الطرف على المدن القديمة في العالم الجديد وما بلغته من الازدهار ، وما غصت به المعابد العظيمة التي تضاهاى بعظمتها معابد مصر ، وتمثيلها العظيمة المحلاة بالذهب ، وما كان هناك من متاحف وخزائن كتب ومراصد فلكية ، وإذا كتب لك أن تتوغل في مدينة المكسيك ومدينة الماياس في يوكاتان والأنكاس في الأند - إذا رأيت كل هذا استنتجت والدهشة آخذة منك بأن فتح أمريكا كان من أعظم جنایات أوربا . قال وليست هذه الجريمة وبالأسف وحيدة في بابها ، فقد كان تاريخ المدنية والعالم خلال أدوار طويلة مغموساً بالدماء المكروهة ، والجنايات آخذاً بعضها برقاب بعض . قال وإن تاريخ العالم ، على النحو الذي تعلمناه في الكتاتيب والمدارس والجامعات ، لا يذكر الغالبين بخير إلا إذا أريد إيراد فضائحهم ، والنظر إلى سقوطهم نظر عداء ومكر ، ومنذ عهد قريب فقط أخذوا يذكرون في كتب التاريخ القديم ما قام به الإيجيون سكان شواطئ بحر هيجاي من الأعمال الجليلة ، وما كان من أمر المملكتين القديمتين العظيمتين أكاد وسومر ، ومنذ زمن غير بعيد رجع العلماء عن القول بالخرافة القديمة في أصولنا الآرية أو الهند الأوربية .

وقد تلتطف كميل جوليان المؤرخ كل التلطف حتى وفق إلى إدخال أصول جديدة في التاريخ الرسمي من مقتضاها أن المدينيات الأولى في فرنسا ، كانت حضارات إيبيرية إسبانية وليغورية إيطالية ، يتجلى طابعها في سحناتنا وربما تجلّى في عقليتنا ، وإن نفينا زمناً هذا الطابع من طوابع أجدادنا ولم نعرف به . قال : ومن قرأ تاريخ إفريقية الشمالية القديمة يعرف أنه قامت حضارة زاهرة في جبل الأطلس قبل ألوف من السنين للميلاد ، وكان في تلك الأصقاع مدينة بربرية قديمة ذات علم وفن ، تعب المصريون والفينيقيون في القضاء عليها ، وأنه كان لإيرلاندا حضارة بديعة فيها البطولة والتقوى ، ولم يتعرض المؤرخون من البريطانيين لذكرها ووصفها ، ومثل ذلك قل في الشعوب الإيطالية الأولى ، قبل أن تؤسس رومية وتنمو ، فإن أمرها مجهول ، حتى لنجهل اللغة التي كان يتكلم بها الايتروسيكون الذين شرعوا لرومية الشرائع ، وأقاموا لها الملوك ، وخلقوا لها أرباباً وآلهة . ا هـ .

### التعليقة الثانية ( ج ١ ص ٢٢ )

قال ابن الجوزي في كتاب الموضوعات : معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصص لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق ، والصحيح ثقل في هذا . واختلف أهل البصرة في القصص فأتوا أنس بن مالك فسأله أكان النبي يقص ؟ قال : لا . وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا لم يقص في زمان النبي ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر ، وإنما القصص محدث . أحدثه معاوية حين كانت الفتنة . قالوا : ما أمارت العلم إلا القصص ، يجالس الرجل القاص سنة ، فلا يتعاق منه بشيء ، ويجلس إلى العالم فلا يقوم حتى يتعلق منه بشيء ، وفي كتاب « تحذير الخواص من أكاذيب القصص » للسيوطي فصل في إنكار العلماء على القصص ما زووه من الأباطيل ، وسفه القصص عليهم ، وقيام العامة مع القصص بالجهل ، واحتمال العلماء ذلك في الله .

### التعليقة الثالثة ( ج ١ - ص ٣٩ )

نص القرافي وابن حزم على أن من حق حماية أهل ذمتنا إذا تعرض الحريون لبلادنا ، وقصدوهم في جوارنا ، أن نموت في الدفاع عنهم ، وكل تفريط في ذلك يكون إهمالا لحقوق الذمة . ويقول القرافي إن من واجب المسلم للذمين الرفق بضعفائهم ، وسد خلة فقرائهم ، وإطعام جائعهم ، وإلباس عاريهم ، ومخاطبتهم بلين القول ، واحتمال أذى الجار منهم ، مع القدرة على الدفع ، رفقا بهم لا خوفا ولا تعظيما ، وإخلاص النصح لهم في جميع أمورهم ، ودفع من تعرض لإيذائهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وأن يفعل معهم كل ما يحسن بكرم الأخلاق أن يفعله <sup>١</sup> . ولما تغلب المسلمون على التتر في الشام خاطب ابن تيمية قطلوشاه في إطلاق الأسرى ، فسمح له بالمسلمين ، وأبى أن يسمح له بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم له .

### التعليقة الرابعة ( ج ١ - ص ٥٥ )

يقول جوليفه كستاو في كتابه قانون التاريخ Jolivet Castelot : d'e l'histoire : كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول عظيما ، جرى على أسرع ما يكون ، وكان الزمان مستعدا لانتشار الإسلام ، فنشأت المدنية الإسلامية . نشأة باهرة ، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ، ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم . وقبض العرب بأيديهم ، خلال عدة قرون ، على مشعل النور العقلي ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر ، مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التي استخدموها بقرينة وقادة للغاية . وكانت المدنية العربية قصيرة العمر ، إلا أنها باهرة الأثر ، وليس لناس إلا إبداء الأسف على اضمحلالها .

ولقد كانت المملكة العربية من السعة والانتشار بحيث يتعذر بقاؤها ، وسرعان ما تمزقت بتأثير المناقشات السياسية والدينية ، فقد نشأت ثلاث خلافات أواخر العهد العباسي ( بغداد ومصر وقرطبة ) ، قامت في ثلاثة مراكز قوية عظيمة . وكانت سيرة الخلفاء كسيرة المستبدين من المشاركة ، يحبون البذخ ولهم أدب ومكانة ، بيد أنهم كانوا قساة لا يبالون ما يصيب رعاياهم من بؤس ، يغفلون أبدأً في تقاضيهـم الضرائب الفاحشة ، ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثر ، فإن العمل الذي تم حولهم كان أسمى منهم ، ومنه نشأت مدنية مدهشة ، وإن أوربا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء ، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى ، وإن أوربا لتتجلى لنا منحة جاهلة أمام المدنية العربية ، وأمام العلم العربي والآداب والفنون العربية ، وأوربا تدين بالهواء النافع الذي تمتعت به في تلك العصور للأفكار العربية ، وقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماءها هم حملة لوائها الخفاق اهـ .

### التعليقة الخامسة ( ج ١ - ص ٩٥ )

جاء في تاريخ غزوات العرب لرينو أن عدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسا كان كبيراً ، وهذه نتيجة طبيعية للحالة التي كانت يومئذ . ولكن الفرنسيـس الذين اتخذوا الإسلام ديناً كانوا أكبر عدداً ، فإن الغزوات الإسلامية الأولى لفرنسا ، وسبى المسلمين الذراري من أهلها ، وما كان التجار يتجرون من الريق ، كل هذا قد أدخل في الإسلام عدداً لا يحصى من الإفرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون النصارى الداخلين في دينهم بمزيد التساهل ، ويُعنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم ، وبهذا كثر عدد النصارى الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا في الإسلام .

### التعليقة السادسة ( ج ١ ص ٩٦ )

يقول يوهان يورت في كتابه أزمة الحقيقة L crise de la vérité : أثناء كلامه على ما قامت به النصرانية من تخريب أوروبا ، لما أرادت نشرها فيها وقضاءها على أناس من سكانها كانوا أقل من المهاجرين قوة ، إنه فرغت أرجاء كثيرة من سكانها على حين كانوا ينقلون ملايين من الزوج من إفريقية إلى أمريكا ، ليكون حكمهم حكم الحيوانات الأهلية ، فقضت عليهم الأمراض والغول التي جاءوهم بها من أوروبا ، وطوردوا وأبيدوا وأكروها على أعمال قاسية ، وقرضوا لهم الحيوانات التي كانوا يغتذون بها . وبعد أن ذكر ما أبقتة حرب الثلاثين سنة من الفجائع في أصقاع واسعة من بلاد ألمانيا ، وذكر ظلم القضاء ولا سيما ديوان التحقيق الديني ، ودعاوى السحر ، وكل ما يمكن الخرافات اختراعه . قال : كانت السجون بؤرة الفظائع ، ومغارات الشقاء والظلم ، وكان اليتامى إذا فقدوا معينهم يموتون أو يعيشون عيشاً شقياً ، ولطالما رأت الشمس عصابات من جباع الأطفال هلك آباؤهم في الحروب ، وهم هائمون على وجوههم في الحقول ، يغتذون بالأعشاب والحدود .

### التعليقة السابعة ( ج ١ ص ٢١١ )

لم يتمكن أهل أسبانيا من أن يحاولوا دون تغلغل النفوذ الإسلامي في صميم حياتهم ، حتى أن ممالك أسبانيا النصرانية استعملت النقود الإسلامية أربعة قرون . واستحضر كثير من ملوك قشتالة وأرجون جما غفيراً من علماء المسلمين واليهود ، وقدموهم في مجالسهم ، ورفعوا من أقدارهم ، كما استخدم كثير من ملوكهم مهندسين وبنائين من المسلمين ، وفتحوا أبواب مجالسهم لكثير من الموسيقيين والشعراء من المسلمين ، للتلذذ بطيب أنغامهم وحلو حديثهم ، ومات روح النسامج هذا بالقضاء على الإسلام في إسبانيا ، وحل محله روح خبيث ملوّه بالتعصب الأعمى الذي أشعل ناره القساوسة الكاثوليك لتصبح إسبانيا أسيرة رقهم وعبوديتهم .

وكان المسلمون في الأندلس يفضلون أبداً أن تكون أمهات أولادهم من الأسر النصرانية العريقة في المجد والحسب ، فأخذ الدم العربي بطبيعة الحال يقل في عروقهم مع مرور الزمن ، ولذلك كان من الخطأ أن نقول إن كل مسلمي إسبانيا عرب ، أو أن كل نصاراها رومانيون أو قوط ، كانت اللغة العربية في إسبانيا اللغة الرسمية ، ولغة الرومان لغة دارجة يتكلم بها الجميع ، العرب والمستعربون ، وهي عامة في جميع طبقات قرطبة حتى في المحاكم ، وفي القصور الملكية . الفصحى لغة العلماء والأدباء ، والعربية العامية لغة الحكومة والإدارة ، وهناك لغة رومانية اشتقت من اللاتينية وهي التي تولدت منها اللغة الإسبانية .

ومما زاد في انتشار الحضارة الإسلامية في الأقطار الإسبانية الشمالية النصرانية ، ومنها انتشرت في أرجاء أوروبا ، هجرة المستعمرين ، فراوآ من الاضطهاد الذي لحقهم ، على عهد دولتي البربر المرابطين والموحدين ، خصوصاً في الدور الذي انقضى بين سنة ١٠٩٠ وسنة ١١٤٤ م . وهذه أول مرة في تاريخ الأندلس نشأ فيها تعصب ديني ، وقد جاء به ملوك البربر من الجنوب وقساوسة الكاونياك من الشمال .

وما كاد القرن العاشر الميلادي يتبلج حتى كانت المدينة الإسلامية قد انتشرت في إسبانيا كلها ، في البلاد الإسلامية والنصرانية سواء ، ولما سقطت مدينة طليطلة في حكم الممالك النصرانية ، انتشرت حضارة الإسلام في عامة أصقاع أوروبا . وخلفت طليطلة مدينة قرطبة في التفرد بالحضارة والعلوم ، واحتفظت بمكانتها إلى ما بعد سقوطها في أيدي الإفرنج في سنة ١٠٨٥ .

كان بلاط الملك الفونسو السادس متشعباً بالمدينة الإسلامية ، على نحو ما كان بلاط فرديناند الثاني في بلرم في القرن الثالث عشر ، حتى لقد لقب الفونسو نفسه بإمبراطور الديانتين . وكان الطلبة يؤمّون مدارس طليطلة من كل ممالك أوروبا ، حتى من إنجلترا واسكتلندا . ومن أعظم ما خلفه مسلمو

إسبانيا للمدينة الغربية ما كتبه فلاسفة المسلمين . وعلى ما كانت عليه دولنا المرابطين والموحدين من التعصب ، لم تتعرضا للفلاسة بل شجعتهما ، ولكن على أن لا يندروا تعاليمهم بين الناس ، ولم يظهر أعظم المفكرين في المسلمين في عصر خلفاء قرطبة الزاهر ، بل ظهوروا في عصر الفوضى والاضمحلال السياسي . وكان هؤلاء الفلاسفة همزة الوصل في نقل فلسفة أرسطو إلى العرب وكان الإنجليزى أو الاسكتلندى يضطر إذا أراد أن يدرس الفلسة اليونانية ، أن يرحل إلى طليطلة ليدرسها باللغة العربية على شيوخ المسلمين .

كان الفونسو التاسع ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٣٨٤ م) أعظم علماء النصرانية في إسبانيا ، استدعى كثيراً من اليهود لترجموا له الكتب العربية ، وكتب بنفسه شيئاً كثيراً من النثر الأسباني تجلى فيه الروح العربى . ( عن مقالات من تراث الإسلام أو أثر الإسلام في المدينة الحديثة عربها عن الانجليزية مأمون عبد السلام ونشرها في جريدة البلاغ المصرية في ١٤ من ربيع الثانى ١٣٥٣ وما بعده ) .

ويقول رينو فى تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، إن المسلمين فى مدن الأندلس ، كانوا يعاملون النصرانى بالحنى . كما أن النصرانى كانوا يراعون شعور المسلمين ، فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير . وقال إن النهضة الحقيقية فى أوروبا لم تبدأ إلا منذ القرن الثانى عشر ، أى منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق ، ووقفت النصرانية والإسلام فى الصراع وجهاً لوجه ، فوقع الاحتكاك بين المسلمين والنصارى ، وأفاق الفرنسيين والانجليز والألمان من رقتهم ، ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة الاشتراك فى المدينة الإسلامية . وكان علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليونانى غير معروف إلا عند العرب ، فأخذ النصرانى من فرنسا وجوارها يؤمنون إسبانيا لأجل ترجمة التأليف العربية المنقولة عن اليونان .

قال رينو وبالحملة فقد كان العرب لذلك العهد هم الأمثلة العليا والأقيسة البديعة في الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة وقسري الضيف . تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة منها ما رواه بعض مؤرخي الإشبانيول من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك أشتورية أذفونس الكبير أن يثندب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة حرصاً على تهذيبه ، إذ لم يجد في النصارى إذ ذاك كفواً لهذه المهمة .

### التعليقة الثامنة ( ج ١ - ص ٢٢٤ )

ذكر رينه مارسيال في كتابه العنصر الفرنسى . René Martial : La race française أن النورمانين الذين امتزجوا بالعنصر الفرنسى قد باضوا وفرخوا في انجلترا وساعدوا على عمران تلك البلاد ، وكانوا أبدأً محاصمين للفرنسيين وأعداء لهم ومنافسين . أما العرب فكانوا على العكس من ذلك فإنهم لم يتركوا في غالبا وفي فرنسا غير حضارتهم وعدداً كبيراً من الخلاسيين بدون أن ينشأ منهم اختلاف جنسى أو عنصرى . واليوم وقد أصبح شمالى إفريقيا جزءاً من فرنسا أخذ الناس يدركون أحسن من ذى قبل أن الطابع الذى أبقاه العرب الفاتحون كان عظيماً ، وأنهم شاركوا مشاركة عظيمة في نشوء التهذيب العقلى والفنون في أوربا . لما ضرب العرب في سنة ٧١١ اليزغوت في وقعة شريش أصبحوا سادة إسبانيا ، ودخلوا بلاد غالبا من إقليم نريونة وكان اسمها إذ ذاك سبتانيا . وفي سنة ٧٢١ حال « أوددوج اكييتين » دون تقدم العرب في وقعة طلويزة ، وكان هاجمه العرب من كل جهة ، وبعد أن هاجموا الاكييتين تقدموا في سمت الشمال حتى بلغوا مدينة تور فأنقذ شارل مارتيل هذه المدينة ، وقضى على العرب قضاء مبرماً في وقعة بواتيه ( أكتوبر ٧٣٢ م ) وترك العرب من آثار حضارتهم ما لم تتركه الشعوب الجرمانية لتفوقهم في الحضارة إذ ذاك ، ولما كان العرب مؤرخين وشعراء كان من إبقائهم لنا قصة ألف ليلة

وليلة أجهل مصدر استقى منه أدباء الغرب ومتفنتوه ، ونفعت هذه القصص العلماء من عدة وجوه . والقرآن نفسه كتاب عظيم من الطراز الأول ، حوى الدين والأدب والشرع وما زال تأثيره فى حياة العرب ولا يزال ، بحيث لا يستطيع فهم روح المسلمين وفكرهم إذا لم يدرس ويقرأ فى ترجمة صحيحة ، لأن كثيراً من الترجمات كان رديئاً وأكثر منها التفسير . وأرى أن قلائل فىنا عرفوا العرب معرفة حقيقية ، ولا أستطيع أن أدخل فى هذا العدد القليل غير المارشال ليوتى والأستاذين غوتيه وريكاس .

ثم ذكر ما تفرد به العرب فى خدمة الحضارة ومما قال أن اختراعهم الورق دعا إلى استكثارتهم من خزائن الكتب ، وهى وحدها دليل على تقدمهم فى سبيل الحضارة ، وأنه لا وجه للتشبيه بين غارات العرب وغارات برابرة الجرمان . وذكر ما كان من العلائق التجارية بين بلاد المسلمين ومرسيلية منذ الحروب الصليبية وقال إنه كان فيها جامع للمسلمين يؤدون فيه فرائضهم منذ الزمن الأطول ، دلت على ذلك المعاهدات التى عقدت بين فرنسا ودول الإسلام وإن مرسيلية مدينة بكثير من حضارتها ونجاحها لتجارها مع العرب منذ القرن العاشر . قال لو كانت العرب غابت شارل مارتيل لكانوا تمثّلوا تمثلاً حسناً فى الأرض الفرنسية أكثر من السلتين فى الأرض الليغورية ، فإن مقامهم الطويل فى إسبانيا شاهد بذلك ، وكذلك يدل ما أبقوا من الآثار إلى أى درجة كانت حضارتهم متفوقة على حضارتنا إذ ذاك .

### التعليقة التاسعة ( ١ ج - ص ٢٢٨ )

كتب داوسون فى كتابه أصول أوروبا والمدنية الأوروبية Christopher Dawson : Les origines de l'Europe et de la civilisation Européenne كانت الحضارة العباسية ، ولسانها العربية ودينها الإسلام ، مكملة بمظهرها العقلى للحضارات القديمة التى مثلتها مملكة العباسيين الواسعة ، ويصح ذلك

على الخصوص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلم العربي اللذين ارتقيا في ذاك العصر ، وأثرا تأثيراً عظيماً في أهل القرون الوسطى عامة . ولقد كانت الحركة العلمية في العالم في أكثر من أربعة قرون بأيدي الشعوب الإسلامية ، وعن العرب أخذت أوروبا الغربية أصولها العلمية ، ويرجع العمل العلمي والفلسفي في العالم الإسلامي إلى العرب وإلى الإسلام نفسه ، هذا وإن لم يكن فيه إبداع جديد ، ولم يتوفر على غير إكمال العلم اليوناني ، وقد انضم إلى الثقافة الإسلامية أشياء بفضل رجال كانوا من أصول أرامية وفارسية . وإذا استثنينا الكندي فيلسوف العرب فقط نجد حظ العرب قليلاً من هذه الحركة . وقد أثمرت هذه الحضارة في تخوم البلاد الإسلامية ، أثمرت في آسيا الوسطى أمثال الفارابي وابن سينا والبيروني ، وفي إسبانيا والغرب الأقصى ابن رشد وابن طفيل .

وقال إن النصاري السريان في بابل والصابئة في حران كانوا واسطة لنقل الثقافة اليونانية إلى الثقافة الإسلامية ، وأن علماء البصرة أخذوا منطق أرسطو عنهم ، وأن هذا الاقتباس عن اليونان كان قليلاً لا شأن له ، وأن العرب لم يأخذوا شيئاً في الشعر ولا اقتبسوا التمثيل ، ومع هذا ترك البيان اليوناني أثراً ظاهراً في الآداب العربية ، ولا سيما في كتابات الجاحظ ، أكبر منشيء وأعظم أستاذ في القرن التاسع . وعظم النفع بما أبقت الثقافة اليونانية في العلوم والفلسفة ، وتلقى المسلمون باليمن ، ما كانت مدارس آثينا والاسكندرية قد تركته منذ القرن السادس . وكانت آراؤهم في الفلسفة كآراء فلاسفة اليونان ، أي التوفيق بين الفلسفة الأرسطاطاليسية والأفلاطونية الجديدة ، ومزج كل منهما بالأخرى . أخذوا أصول هذا التحليل فحققوه بقوة فكر ونزاهة علمية ، وكان عملهم فيها من أتم وأحكم ما وفقت إليه الفلسفة في عصورها الماضية . ونجح علماء العرب بتنظيم الفلسفة فما كانت عندهم مجموعة معلومات مختصرة مركومة ، بل جعلوها قواعد تامة لا تتجزأ من مجموعها الاسطقات أو العناصر ،

واختفظت الحضارة الإسلامية بتفوقها خلال القرون الوسطى فى الشرق وفى أوروبا الغربية . وبينما كانت النصرانية سائرة إلى الاضمحلال بها انهار عليها من غارات العرب والفيكنج Vikings والمجر ، كانت الحواضر الإسلامية على شواطئ البحر المتوسط الغربى تدخل فى أعظم طور من أطوار نهضتها ، قال : إنا اعتدنا اعتبار مدينتنا كأنها تألفت من جوهر الحضارة الغربية ، حتى ضعب علينا أن نعتقد بأنه أتى زمن وأهم قطر متحضر فى أوروبا الغربية لم يكن سوى ولاية ذات مدينة غربية عنها ، وأن البحر المتوسط مهد حضارتنا كان مهدداً بأن يصبح بحراً عربياً ، وكادت النصرانية فى الغرب والإسلام فى الشرق يكونان شيئاً واحداً فى زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية ، وكانت إسبانيا والبرتغال وصقلية تؤوى حضارة إسلامية زاهرة . وهكذا كانت الحال فى القرن العاشر . وقد فعلت هذه الحضارة فعلها العظيم فى ترقى العالم فى القرون الوسطى ، فانتشرت الثقافة الغربية فى ظل حضارة الإسلام ، واستطاعت النصرانية فى قرونها الوسطى بفضل هذه الحضارة أن تأخذ طرفاً من التراث العلمى والفلسفة اليونانية ، وما كان ذلك قبل القرن الثالث عشر ، ولم يتم إلا عقبى الحروب الصليبية . وبعد فاجعة المغول الكبرى تمكنت الحضارة النصرانية الغربية من بلوغ مكانة مساوية بعض المساواة للمدنية الإسلامية ، وبقيت مع هذا متأثرة بالموثرات الشرقية .

### التعليقة العاشرة (م-١ - ص ٢٣٠)

قال ابن بسام فى الذخيرة إن إشبيلية صارت مجمعاً لصوب العقول ، لا سيما من أول المئة الخامسة من الهجرة « حين فرح كل حزب بما لديه ، كل رأس على ما فى يديه ، بعد الدولة الحامدية » « حتى اجتمع فى الجانب الغربى ما باهى الأقاليم العراقية ، وأنسى بلغاء الدولة الدبلوماسية وطريقتهم فى الشعر الطريقة المثلى التى هى على طريقة البحترى فى السلاسة والمثانة والعذوبة والرصانة .

### التعليقة الحادية عشرة ( م ١ - ص ٣٢٢ )

بحث بعض علماء الأمريكيين والإنجليز في لغات الهنود في أمريكا فوقعوا على كلمات عربية ترجع إلى سنة ١٢٩٠ م أي إلى قرنين قبل وصول كولمبس إلى أمريكا . وقد يكون أصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين ، وهناك مستعمرات عربية وجدت بين سنة ١١٥٠ و ١٢٠٠ وقد وجدت آثار عربية في شاطئ الخليج المكسيكي خاصة . وكان العرب يتجرون بع أمريكا قبل كولمبس بزمان طويل . وثبت أن سفن العرب أقلت من جزيرة كناريا ، ومن هناك إلى أزوارد في وسط الأطلنطي ، ونزلت لإيرلاندا جزائر إنجلترا الغربية . وفي هذه الناحية من تلك الجزائر بئر تسمى بئر عباس يستدل بها أن العرب استعمروا تلك الناحية . وكان في لشبونة مصور بلاد أميركا ، صنعته أيدي العرب . ولنا أن نقول إن التجارة بين العرب وهنود أمريكا كانت قبل موافاة كولمبس لها بخمسة قرون . ولما أبحر كولمبس من أوروبا كان متزوداً بمصورات وخرائط للعرب وبها اهتدى إلى تلك الأرض . واستصحب رجلين من العرب كانا عبرا إلى أميركا قبل ذلك عرفا الطريق . وعثر أحد علماء الأثرياء على ألواح مكتوبة بحروف ربية ولغة عربية ، فاتجهت أنظار علماء الآثار إلى استطلاع كنه هذه الحقائق . اريخية التي لا تلبث أن تنطق بأفصح لسان بفضل العرب على الإنسانية في يع الميادين ( لمحمد بن عمار الورتاني في كتابه كشف الحجب ) .

### التعليقة الثانية عشرة ( ج ١ - ص ٢٥١ )

نقل ليفي بروفنسال في كتابه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر E. Lévi : L'Espagne musulmane au Xème siècle عن مصادر عربية ، أن الكاتب في الدولة الأموية كانت رتبته تعادل رتبة الوزارة ، وأنه كان يطلق على الوزير لقب الكاتب تخفيفاً . وأن كاتب الدم كثيراً ما كان على

رواية ابن سعيد نصرانياً أو يهودياً ، سواء في ذلك الأندلس وشمال إفريقيا ، وكانت الأعمال توسد في الأندلس إلى العرب والبربر والأسبانيين المولدين والوظائف مما يتقلده النصارى واليهود . ووصل المولدون مع الزمن وهم من أصول غير عربية إلى أن تولوا الأعمال العامة إلا قليلاً . وقال إن أولاد الخلفاء من الأمويين وذوى قرباهم قلما كانوا يتولون أعمالاً للدولة وقلما يظهرون إلا في أيام البيعة للملك جديد ، وأن المناصب العالية قد يطمع فيها من العمال من يودى للخليفة ما لا مما جناه أو جناه أهله ، وأن النصارى واليهود كانوا في العهد الأموى هناك يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية ، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية ، وقال إن الجيش الأندلسى كان بعد عهد الأمويين ينظم على مثال الجيش العباسى من حيث تربيته وطبقاته . وزعم أن جميع طبقات المجتمع الإسلامى كانت تتعاطى الخمر كالنصارى واليهود . وأن شاربى الخمر ما كانوا يعاقبون بشدة كما يقضى به الشرع وأن الخمر ما كان يشرب في كل ناحية علناً .

### التعليقة الثالثة عشر ( ج ١ - ص ٢٦٤ )

الظاهر أن المسلمين غزوا رومية مرتين : الأولى في سنة ٢٣١ هـ - ٨٤٦ م ، وفيها ضربوا الحصار على مدينة القياصرة ، فارتاع البابا سرجيوس واهتز الشعب الرومانى فرقا ورعباً ، وبادر الامبراطور لويس الثانى ملك الفرنج واللومبارد بإرسال حملة لمقاتلة الغزاة ، وجهزت ثغور نابل وأمانى وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم ، فرفع المسلمون الحصار عن المدينة بعد أن اقتتلوا مع جند الامبراطور وسفن الثغور الإيطالية قتالاً رائعاً وعادوا مثقلين بالغنائم والأسرى . وفي سنة ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م نشط أمراء البحر المسلمون في ثغور إفريقيا والأندلس إلى تجهيز حملة كبيرة فوصلوا إلى رومية وهددوها حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون ، أن يفاوضهم في الجلاء على أن يدفع

لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب ( عن مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام لمحمد عبد الله عنان ) .

#### التعليقة الرابعة عشرة ( ج ١ - ص ٢٧٨ )

لما دخل الإفرنج القسطنطينية في سنة ٦٠٠ هـ . نهبوا كل ما في البيع من ذهب ونقرة ، حتى ما على الصليبان وما على صورة المسيح والحواريين وما على الأناجيل ، ثم أخرجهم الروم عن البلاد فعادوا إليها وقتلوا كل من اعتصم بالكنيسة وغيرها ( قاله ابن الساعي في الجامع المختصر ) .

#### التعليقة الخامسة عشرة ( ج ١ - ص ٢٩٥ )

قال جولايفه كستلو : عصفت الحروب الصليبية في قرن حملت ريحاً من الجنون تبلور في أفكار الناس ، فانتقل من القوة إلى الفعل . وما هي إلا سلسلة من الحملات قامت بها شعوب أوروبا النصرانية للاستيلاء على القبر المقدس في إيليا . وذكر أن البابا أوربانوس الثاني ، وكان من أصل فرنسي ، هو الذي جيش الحملة الأولى ، والبابا هو الذي زين للشعوب الأوروبية ما حملها على الاشتراك في هذه الحرب الزبون ، وهو الذي وضع لهم ما وضع من المغريات فقبلوها راضين . وكانت الحملة الأولى ( ١٠٩٥ م ) مؤلفة من مائة ألف فرنسي وألماني ، فنيت في الطريق ، ولم تصل إلى غير القسطنطينية ، ثم مزق الأتراك شملها في آسيا الصغرى . والتحقّت بها حملة مؤلفة من مليون إنسان فيهم النساء والأولاد ، والمحاربون منهم ثلاثمائة ألف خلص منهم ثمانون ألفاً إلى القدس ففتحوها . أما سائر الحملات فقد أخفقت ، ومع هذا كانت كنوز الشرق تغوى الحملات الأخيرة ، أكثر مما تستهويهم أوهام الدين . ولكم أن تشبهوا حملات النصارى على الشرق بحملات البرابرة المتوحشين وإن كانت دعوى إنقاذ القبر المقدس المشكوك في أنه قبر المسيح ، قد اتخذها الباباوات ثم الملوك ، حجة ليحمسوا الشعوب ويجندوا الناس . وغدا التجنيد

إلجائياً بعد الحملة الثانية . وكانت هذه الحملات الكبرى شوقاً على أوروبا ، استنزفت من البلاد رجالها الأشداء الشجعان غير مرة ، واقتطعت بسببها فرنسا وإنجلترا وألمانيا فقراً دون كل فقر ، لما قضت عليه هذه الحروب من مئات الألوف من الأيدي النافعة ، دع ما صرف عليها من النفقات الباهظة . وكان من طمع البابوات ما استغلوا به سذاجة الجاهل فكلفهم باهظ التكاليف . وتجلت في ذلك شهواتهم المفرطة ، كى يحرزوا الثروة السهلة المأخوذة من غير حلها . وتولت المحنة تكذيب أوهامهم فكان من ذلك أشد المصائب . وبينما كانوا يرجون أن يسقطوا على سعادة وغنى ومجد لم يشهدوا إلا آلاماً وبؤساً . وقد أرخوا العنان لغرائزهم المتوحشة مدفوعين إليها بعامل الفاقة والأمل . وستظل الحروب الصينية إحدى فضائح النصرانية السياسية المؤمنة ، ونحن لا نرى فيها ما يعزوه إليها المؤرخون من القوائد إلا كذباً وبهتاناً عظيماً ، ولن يوافقهم على ما يدعون إلا من كان تحت سلطان الوطنية والدين . إن تبادل الأفكار بين الشرق والغرب قد نتج من الاحتكاك بين عرب إسبانيا والأوربيين أكثر مما كان من أثر الصدمة البربرية بين جيوش النصرانية والإسلام . وعلى كل حال فإن أوروبا مدينة كثيراً للحضارة العربية والتركية أكثر مما تدين الحضارة العربية للحضارات المنحطة في الغرب بين القرن الحادى عشر – والثالث عشر . هـ ١ .

### التعليقة السادسة عشر ( ج ١ ص ٣١٩ )

تاريخ البرتغال لتيودريك لكران Théodoric Legrand : Histoire du Portugal أن المغاربة المسلمين الذين نزلوا بلاد البرتغال كانوا أشبه بالمدجنين من غير المسلمين الذين نزلوا إسبانيا ، ويطلق عليهم اسم « موروفوروس » Mouros Forros كانوا يؤدون ضرائب خاصة ، وتجري عليهم أحكام خاصة . ويؤلفون شعباً اشتهر بصناعاته ، عاون كثيراً على رقى الزراعة في البرتغال ، قال إن الملك هنرى ( ١٤٦٠ م ) الذى لقبه التاريخ بالملاح ، قد توقف بموته سير الاكتشاف بعض التوقف . وكان هو الموحى بجميع المكتشفات التى كان منها النجاح الممجد لوطنه مدة قرن من

الزمن ، لما خص به من علم ورزقه من عمل ، فجعل للبرتقال المقام الأول بين أمم العالم . وقد تعاقد فاسكو دى جاما الملاح البرتقالى مع ابن ماجد الملاح البصرى فى سنة ١٤٩٨ فى ملندة فى البحر الهندى ، على العمل فى الأسطول البرتقالى . وكانت البرتقال فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كما كانت البندقية ، أعظم دولة فى العالم ، وأنه أعان على إخراج العرب من لشبونة جيش من الصليبيين من أدل الاورين وفلمنديا ، وكان متوجها إلى القدس فحارب فى صفوف البرتقالين فى شنترين وشنرة ولشبونة .

### التعليقة السابعة عشرة ( ج ١ ص ٣٢٢ )

لما وضعت إسبانيا حمايتها على الشواطئ الإفريقية فى القرن العاشر من الهجرة ، وتدخلت فى فض بعض القلاقل الداخلية فى تونس ، خرب عمرانها وتبدد سكانها بالهجرة والقتل ، فانقرض نحو ثلث سكانها ، وأصبح شطر كبير من معالمها أطلالا دوارس ، وأقى الإسبانىون على العمران الذى كان لتونس زمن الدولة الحفصية ، ولم تعد إلى البلاد حياتها إلا بنزول جاليات من الأندلس ممن فروا من الإسبان ، لما استولوا على بلادهم ، فعمروا المدن والقرى ، وأحيوا الزراعة والصناعات . وفى كتاب شهيرات النساء لحسن حسنى عبد الوهاب أنه لم يمض غير زمن يسير حتى زدت حاضرة تونس بالفنون الجميلة ، مثل الهندسة والنقش والموسيقى والصناعات المختلفة ، وهكذا كان الأندلسيون فى كل بلد نزلوه فى مراكش وشمال إفريقيا بأسرها .

### التعليقة الثامنة عشرة ( ج ١ ص ٣٢٩ )

قال جوليفه كستلو : تشبه الطريقة التى جرى عليها الإنجليز فى استثمارهم الطريقة التى سارت عليها حكومات أوربا . المختلفة . وطريقتهم الاعتماد على قوة الجند التى لا تقاوم ، وامتهان حقوق الوطنيين . ولما كان الاستعمار البريطانى .

قائماً على الثبات والدؤوب أكثر من استعمار الممالك الأخرى ، جاءت منه فوائد محسوسة مثمرة . وغدت المملكة الاستعمارية الإنجليزية منبع غنى فائض للبلاد الانجليزية ، والهند وأستراليا أجمل أزهار ذاك التاج ، بيد أن قوة المستعمرات ليست اليوم غير صورة ظاهرة ، وتوشك على ما يظهر أن تقطع صلتها بانجلترا ، فتمزق قوة إنجلترا النائية عن أوربا ، وتلك هي الرجعة العادلة في الأشياء ، هذا إذا كان في التاريخ عدل . ذلك لأن الجرائم التي احتقبتها إنجلترا في الهند والفرنسفال وفي إيرلاندا سيكون منهارد فعل طبيعي ، ينال فيه القاعلون جزاء ما قدمته أيديهم .

وقال أيضاً : إن عهد السياحات الكبرى بدأ في القرن الخامس عشر ، قامت بها البرتغال أولاً على يد فاسكو دي جاما ، ثم إسبانيا على يد كريستوف كولمبس والبوكرك وأمريك فسبوس ، بإيحاء ماركو بولو ، وبفضل المعلومات التي تمفوها بواسطة العرب في الجغرافيا والفلك . وقد عرف العرب كروية الأرض على النحو الذي قال به الأقدمون ، خلافاً لما كان يعتقده الأوروبيون . وما عثم الأسبان أن أسسوا مملكة استعمارية حقيقية في أمريكا ، بفتحهم المكسيك وبيرو فتحاً سريعاً سداه ولحمته التوحش . وكانت حضارة الاستيك والإينكاس ، سكان هاتين المملكتين ، سامية في ذاتها بل أرق من حضارة من أخضعوهم لسلطانهم ، ممن لم تكن لهم غاية سوى الاستيلاء على المدن والكفور في تلك الأرجاء الواسعة . وما الفتح الإسباني في الواقع إلا سلسلة طويلة من القذائع والفجائع ، وحوادث مكررة من الجنايات والسرقات . ولقد قضى الإسبان على الوطنيين قضاء مبرماً ، وجلبوا من إفريقيا عدداً عظيماً من السود ، فكان ذلك الأصل في استرقاق الزنوج الشنيع ، وعلى أثر الإيبانيين سارت جميع شعوب أوربا ، وما انتهى دور الرق إلا في أواخر القرن التاسع عشر . وكان بالطبع من هذه الحملات الواسعة تبدل اقتصادي وعلمي عظيم ، فانهاالت المعادن الثمينة من بيرو على إسبانيا والبرتغال ، واغتنى بها الملوك خاصة ، حتى استطاعوا أن يزيلوا في جيوشهم ، ويوسعوا سلطتهم السياسية

كما اغتنت الطبقة الوسطى من السوق والتجار ، وارتفعت أسعار الحاجيات لتكاثر الذهب والفضة .

### التعليقة التاسعة عشرة ( ج ٢ - ص ١٩ )

يقول الفارابي في إحصاء العلوم : إن صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصره الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل ، وهذا ينقسم جزئين أيضاً : جزء في الآراء وجزء في الأفعال ، وهي غير الفقه ، لأن الفقه يأخذ الآراء والأفعال التي صرح بها واضع الملة مسلّمة ، ويجعله أصولاً فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها . والمتكلم ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولاً من غير أن يستنبط عنها أشياء أخرى . فإذا اتفق أن يكون للإنسان منا قدرة على الأمرين جميعاً فهو فقيه متكلم ، فيكون نصرته لها بما هو متكلم ، واستنباطه عنها بما هو فيه فقيه . وعلم الكلام يسمى علم أصول الدين ، وعلم التوحيد والصفات ، وكان أبو حنيفة يسميه « الفقه الأكبر » .

### التعليقة المكملة للعشرين ( ج ٢ - ص ٦٠ )

سمع أبو الرملي وكان مسناً يقول : حضرت مجلس أبي القاسم المرتضى وأنا إذ ذاك صبي ، فدخل عليه بعض أكابر الدولة فتزحزح له ، وأجلسه معه على سريريه ، وأقبل عليه بمسائل ، فسار به الديلمي بشيء لم نعلم ما هو فقال له متضجراً : نعم ، وأخذ معه في كلام كأنه مدافعة ، فنهض الديلمي ، فقال المرتضى بعد نهوضه أهؤلاء يريدون منا أن نزيل الجبال بالريش ، وأقبل على من في مجلسه فقال : أتدرون ما قال هذا الديلمي فقالوا : لا يا سيدي ، فقال ، قال : بين لي هل صح إسلام أبي بكر وعمر ، قلت : رضى الله عنهما . وسمع أبو القاسم بن برهان يقول : دخلت على الشريف المرتضى أبي القاسم العلوي في مرضه الذي توفي فيه ، فإذا هو قد حول وجهه إلى الجدار

فسمعته يقول : أبو بكر وعمر وليا فعديلا واسترحما فرحما ( طبقات الأدباء - لياقوت في ترجمة علي بن الحسين المرتضى ج ٥ ) .

### التعليقة الحادية والعشرون ( ج ٢ - ص ٨٠ )

جلس قاص ببغداد فروى تفسير قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » وزعم أنه يجلس معه على عرشه ، فبلغ ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري ، فاحتد من ذلك وبالغ في إنكاره . وكتب على باب داره . « سبحان من ليس له أنيس ، ولا له على عرشه جليس » فثار عليه عوام بغداد ورجعوا بيته بالحجارة حتى استد بابيه بالحجارة وعلت عليه ( رواه السيوطي في تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ) .

### التعليقة الثانية والعشرون ( ج ٢ - ص ١٣٥ )

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : لا تستقضين إلا ذا حسب أو مال ، فإن ذا الحسب يخاف العواقب ، وذا المال لا يرغب في مال غيره .

### التعليقة الثالثة والعشرون ( ج ٢ - ص ١٤٤ )

كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى قثم بن العباس عامله على مكة : أما بعد فأقم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين ، فأفت المستفتي ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم . ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك . ولا صاحب إلا وجهك ، ولا تحجب ذا حاجة عن لقائك بها ، فإنها إن ذيدت عن أبوابك في أول ورودها ، لم تحمد فيما بعد . على قضائها ، وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله ، فاصرفه إلى من قبلك . من ذى العيال والحجاجة ، مصيباً به مواضع الفقار والخلات ، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا ، لنقسمه فيمن قبلنا ، ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجراً . فإن الله تعالى يقول : « سواء العاكف فيه والباد » فالعاكف المقيم به ، والباد الذي يحج إليه من غير أهله . وفقنا الله وإياك لحابه والسلام .

## التعليقة الرابعة والعشرون ( ج ٢ - ص ١٤٤ )

لم يكن في زمن النبي وأبي بكر وعمر وعثمان سجن ، وكان يحبس في المسجد أو في الدهليز حيث أمكن . فلما كان زمن عليّ أحدث السجن ، وكان أول من أحدثه في الإسلام ، وسماه نافعاً ولم يكن حصناً ، فانفلت الناس منه ، فبنى آخر وسماه مخيسا « بالخاء المعجمة والياء المشددة فتحاً وكسراً » ( رواه الخفافى في شفاء الغليل ) .

## التعليقة الخامسة والعشرون - ( ج ٢ ص ١٤٥ )

كان على يأخذ الجزية من كل ذى صنع : من صاحب الإبر إبراً ، ومن صاحب المسان مسان ، ومن صاحب الحبال حبالاً ، ثم يدعو العرفاء فيعطهم الذهب والفضة فيقتسمونه ثم يقول : خذوا هذا فاققسموه ، فيقول : أخذتم خياره ، وتركتم على شراره ، لتحملنه . قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال بعد أن نقل هذا : وإنما يوجه هذا من علىّ أنه كان يأخذ منهم هذه الأمتعة بقيمتها من الدراهم التي عليهم من جزية رؤوسهم ، ولا يحملهم على بيعها ، ثم يأخذ ذلك من اليمن لإرادة الرفق بهم ، والتخفيف عنهم ، وهذا مثل حديث معاذ حين قال باليمن : ائتوني بخميس أو لبيس آخذه منكم مكان الصدقة ، فإنه أهون عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينة . وكذلك فعل عمر رحمه الله حين كان يأخذ الإبل في الجزية . والخميس الثوب الذى طوله خمس أذرع ويقان له الخموس أيضاً واللبيس ما يلبس من الثياب .

## التعليقة السادسة والعشرون - ( ج ٢ ص ١٤٥ )

سئل الحسن البصرى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : كان والله سهماً صائباً من مرامى الله ، وكان وبانى هذه الأمة في ذروة فضاها وشرفها كان ذا قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبا الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وزوج فاطمة الزهراء ، ولم يكن بالسروقة لمال الله ،

ولا بالنزوة في أمر الله ، ولا بالملولة في حق الله ، أعطى القرآن عزائمه ،  
وعلم ما له وفيه وما عليه ، رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه .

### التعليقة السابعة والعشرون ( ج ٢ ص ١٧٧ )

دراهم النكاح أو النكاح يعنى به بغايا كان يؤخذ منها الخراج .

### التعليقة الثامنة والعشرون ( ج ٢ ص ١٧٩ )

كتب عمر بن عبد العزيز أن اقضوا على الغارمين . فكتب اليه : أنا نجد  
الرجل له المسكن والخدام والفرس والأثاث فكتب عمر : إنه لا بد للمرء المسلم  
من مسكن يسكنه ، وخدام يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن  
أن يكون له من الأثاث في بيته ، نعم فاقضوا عنه فإنه غارم .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : إن عمر بن عبد العزيز قرض على  
رهبان الديارات على كل راهب دينارين ، ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه  
ببطاقتهم له ، وأن أهل دينهم يتحملون ذلك ، كما أنهم يكفونهم جميع مؤناتهم .  
عزل عمر بن عبد العزيز قاضياً فقال له : لم عزلتني ؟ قال : بلغني أن  
كلامك أكثر من كلام خصمك .

### التعليقة التاسعة والعشرون ( ج ٢ ص ٢٣١ )

لما قتل المأمون ابن عائشة وجد في منزله قماطر فيها مكاتبات بعض الجند  
له فجلس وأحضرها وجع الناس وقال : أنا أعلم أن فيكم المستزيد والعائب ،  
وأن نظرت في هذه الكتب فسلت عليكم وفستم على وقد وهبت مسيئكم  
لحسينكم ، وأمر فأحرقت القماطر وأسقرت وجوه القوم واستصيب رأيه .

### التعليقة الثلاثون ( ج ٢ ص ٢٦٣ )

في تاريخ الخلفاء للسيوطي أن أول حملات القرب بالإضافة إلى الدين كان  
في سنة ٣٧٦ هـ . وقد ولي الوزارة أيوشجاع محمد بن الحسين ولقب ظهير الدين ،

## التعليقة الحادية والثلاثون (ج ٢ ص - ٢٨٥)

في أيام الأمر بأحكام الله الفاطمي بالديار المصرية ، امتدت أيدي النصاري . وبسطوا أيديهم بالخيانة ، وتفتنوا في أذى المسلمين وإيصال المضرة إليهم ، واستعمل منهم كاتب يعرف بالراهب ، فصادر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندي وعامل وتاجر ، وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ، ولما خوفه بعض مشايخ الكتاب من سوء عواقب أفعاله . قال أمام من كان في مجلسه من المسلمين والقبط : نحن ملاك هذه الديار حرثاً وخراجاً ، ملكها المسلمون منا وتغلبوا عليها وغصبوها ، واستملكوها من أيدينا ، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبة إلى من قتل من رؤسائنا وملوكنا في أيام الفتوح ، فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين ، وأموال ملوكهم وخلفائهم ، حل لنا وهو بعض ما نستحقه . فإذا حملنا لهم مالا كانت المنة لنا عليهم وأنشد :

بنت كرم يتموها أمها \* وأهانوها فديست بالقدم

ثم عادوا حكموها بينهم \* ويلهم من فعل مظلوم حكم

« ملخصاً عن شرح الأعشى »

## التعليقة الثانية . الثلاثون (ج ٢ ص - ١٩٨)

يقول فان فلوتن في السيادة العربية : إن امتزاج العناصر المتباينة في الإسلام قد ساعد على ظهور نظم جديدة ( كما كان في العراق مثلاً ) فقد حل محل النظام الذي يقضى بإعفاء العرب من دفع الجزية باعتبارهم حماة الإسلام ، نظام جديد لا يفرق بين العرب والفرس في خدمة الحكومة ، ويفرض للجميع على سواء مرتبات معينة ، على الرغم من بقاء ذلك النظام القديم وعدم إلغائه صراحة . ومنذ ذلك الحين أصبح الخراسانيون من الإيرانيين أو النصف الإيرانيين أشد الناس ولاء للعرش الجديد . وكذلك رفع الموالى المضطهدون الذين كانوا السبب في سقوط الدولة الأموية ، رؤوسهم وأسندت إليهم المناصب المهمة في قصر الخليفة وفي الجيش والمالية وإمارة الولايات .

### التعليقة الثالثة والثلاثون ( ج ٢ - ص ٣٥٣ )

بعد أن نقل ابن كثير في البداية والنهاية أحاديث السقيفة قال : ومن تأمل ما ذكرناه ظهر له إجماع الصحابة المهاجرين منهم والأنصار على تقديم أبي بكر ، وظهر برهان قوله عليه السلام : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » . وظهر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس ، لا لأبي بكر كما زعمه طائفة من أهل السنة ، ولا لعلى كما يقوله طائفة من الرافضة ؛ ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذى لب وعقل إلى الصديق . إلى أن قال : وفي الصحيحين أيضاً من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : خطبنا على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال : من زعم أن عندنا شيئاً نقرؤه ليس في كتاب الله وفي هذه الصحيفة - لصحيفة معلقة في سيفه فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات - فقد كذب . وفيها قال قال رسول الله : « المدينة حرم ما بين عمير إلى ثور من أحدث فيها حدثاً ، أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » . وهذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما عن على رضى الله عنه يرد على فرقة الرافضة في زعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إليه بالخلافة . ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة ، فإنهم كانوا أطوع لله ورسوله في حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه ، فيقدموا غير من قدمه ، ويؤخروا من قدمه بنقصه ، حاشا وكلا ولما . ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك ؛ فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والثواطؤ على معاندة رسول الله ومضاداتهم في حكمه ونصه . ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربة الإسلام ، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام ، وكانت إراقة دمه أحل من إراقة المدام . ثم لو كان مع على ابن أبي طالب رضى الله عنه نص فلم لا كان يحتج به على الصحابة ، على إثبات

إمارته عليهم وإمامته لهم ، فإن لم يقدر على تنفيذ ما معه من النص فهو عاجز ، والعاجز لا يصح للإمارة ، وإن كان يقدر ولم يفعله فهو خائن ، والخائن مسلوب معزول عن الإمارة ، وإن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل ، ثم قد عرفه وعلمه من بعده . هذا محال واقتراء وجهل وضلال الخ .

### التعليقة الرابعة والثلاثون ( ج ٢ - ص ٤٥٨ )

كتب إلينا فريتز كرينكو من علماء المشرقيات الألمان أنه يعتقد أن زوال الدولة العربية ، أعنى خلافة بني أمية وانتقال مركز الإسلام من دمشق إلى العراق ، وظهور الفرس على العرب ، كان السبب الأول في الحيلولة دون انتشار الإسلام في الأمم النازلة في الشمال الغربي أى في أوروبا ، وأن الدولة العباسية قامت على أنقاض الدولة الأموية ، وأن دخول الفرس في المناصب العالية ، أدخل الغش والخيانة في الأعمال المالية ، وانتهى الحال بالخلفاء والوزراء إلا النادر الشاذ أن لا يفكروا في شيء من أعمال الشام ومصر ، دع ما وراء ذلك من البلاد كإفريقية والمغرب والأندلس ، إلا يوم يريدون نقل أموال الخراج من العراق لشراء الجوارى والجواهر وإيجاد الجوائز للمغنين والشعراء ومن مائلهم . ولو نظرنا في أمهات الخلفاء لرأينا خلفاء بني أمية كلهم ، ما خلا مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ، كانوا أبناء حرائر ، وبالعكس كان خلفاء بني العباس أو أكثرهم أولاد جوار ، جلبن من بلاد غير إسلامية . ثم هناك آفة ثانية وهي جلب الغلمان الأتراك إلى بغداد ليكون منهم عمد الدولة ، فأصبحوا أرباب الخلفاء أنفسهم في أقل من قرن . وآفة ثالثة وهي المناقشات والحروب التي انتشرت بين أهل السنة والشيعة ودامت إلى زماننا هذا . وقد شاهدت منها ما نغنى في بلاد الهند ورأينا هاهنا في إنجلترا بعض الشيعة في العهد الأخير يمتنعون من الصلاة خلف إمام سني المذهب ، وهذا مما يهين أهل الإسلام في عيون من لا يعتقدون به . وفوق كل هذه الآفات التي كان فيها أكبر سبب في خمول الأمم الإسلامية أن كان السلاطين والأمراء في حروبهم

يستنجدون بالأمم النصرانية من مجاورهم . وكان خلفاء العبيدين في مصر أول من جنى على الإسلام يوم استيلاء الصليبيين على الشام وفلسطين ، ثم أصبح هذا داء عقماً في الممالك الإسلامية . قال ولا الحسد السارى والشره المبين بين أمراء الهند لم تستحوذ إنجلترا على البلاد الهندية .

### التعليقة الخامسة والثلاثون ( ج ٢ ص - ٥١٠ )

من كتاب نظرة عامة في الأصول الغربية من سكان تونس لحسن حسنى

عبد الوهاب H. H. Abdul Wahab : Coup d'oeil général sur les ap-ports ethniques étrangers en Tunisie.

يدعونا واجب الحق إلى القول بأن القرصنة لم تنتشر في بحار الممالك البربرية - شمالى إفريقية وشرقها - إلا بإغراء الأندلسيين الجالين عن الأندلس فقد كانوا بعد أن حلوا في شمالى إفريقية يدعون إلى القرصنة ويرونها الذريعة الوحيدة للانتقام من الممالك النصرانية التى لم تبد عطفاً عليهم .

### ملحق

ظهرت الطبعة السابقة في عام ١٩٣٦ . وكان ما ذكره المؤلف - رحمة الله عليه - تقريراً للواقع وقتئذ . أما في هذه الأيام فقد تغيرت الأوضاع في العالم كله تغيراً جوهرياً ، نتيجة للحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) وكان لا بد من كتابة هذا الملحق ليكون واقع اليوم ، بالنسبة للبلاد العربية ، ماثلاً تقارياً إلى جانب واقع عام ١٩٣٦ .

فقد تحررت سوريا ولبنان من النفوذ الفرنسى واستقل البلدان الشقيقان واستقلت ليبيا وتونس ، كما استقل السودان . وانتهت الحماية الفرنسية التى

كانت مفروضة على تونس والمغرب (مراكش) . وتناضل الجزائر نضالاً مسلحاً في سبيل التحرر من السيطرة الفرنسية . وقامت بالفعل حكومة الجزائر ، واتخذت مركزاً مؤقتاً لها في مصر ، واعترف كثير من الدول بقيامها . واشتد نضال الجنوب العربي ضد إنجلترا ، محاولاً التحرر من سيطرتها .

ونخص مصر - قلب العالم العربي - بكلمة موجزة ، لأن الأوضاع فيها تنعكس على العالم العربي كله شرقيه والغربي .

كما ذكره المؤلف عن مصر في صفحة ٥٢٠ « وما برح جيش الاحتلال الآن بالقطر المصري ، وسلطان إنجلترا نافذاً فيها » .

كان ذلك في عام ١٩٣٦ . أما الآن فقد تغير وضع مصر تغيراً كلياً ، نتيجة مباشرة لثورة البلاد التي انفجرت في يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بزعماء جيشها ولم يعد لإنجلترا سلطان على مصر ولا نفوذ سياسي أو اقتصادي . فبند قامت الثورة ضيقت مصر الحناق على القوات المحتلة الرابضة في قاعدة السويس وأرهقتها . وبعد التخلص من النظام الملكي الفاسد ، والقضاء على الإقطاع وعلى الرجعية أعوان الاحتلال ، أبرمت مصر مع إنجلترا اتفاقية ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ . بإنهاء الاحتلال بشروط . وقد تخلصت مصر من تلك الشروط وذلك بإعلانها في أول يناير سنة ١٩٥٧ أن اتفاقية ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٤ صارت ملغاة اعتباراً من ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وهو اليوم الذي بدأت فيه الطائرات غاراتها على الأراضي المصرية أي في اليوم الثالث من أيام العدوان الثلاثي الغادر على هذه البلاد . وقصة ذلك العدوان ، ومقاومته مقاومة بأسلة ، وخللان المعتدين ونتيجة ذلك كله معروفة للجميع . ومن هذه النتائج تصفية النفوذ الأجنبي جملة في هذه البلاد سياسياً كان ذلك النفوذ أو اقتصادياً ، وبروز شخصية مصر المستقلة في المحيط الدولي .

لم تكن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ثورة سياسية فقط ، ولكنها ثورة شاملة على الأوضاع التي كانت سائدة في البلاد قبل الثورة . هي ثورة سياسية واقتصادية واجتماعية . وقد حققت البلاد نصراً عظيماً في جميع هذه الميادين : ففي الميدان السياسي تحررت تحرراً تاماً . وفي الميدان الاقتصادي والاجتماعي تقدمت تقدماً ملحوظاً باتباع أسلوب التخطيط المدروس ، لإيماناً منها بأن الاستقلال السياسي وحده لا يكفي للتحرر التام .

ولما كانت الأوضاع في مصر تنعكس على البلاد العربية الأخرى وكان من أغراض الثورة المصرية تقوية تضامن البلاد العربية ، فقد أخذ هذا التضامن يبرز بعد الثورة في صور شتى . وأصبحت الشعوب العربية تؤمن بما تؤمن به مصر ، وهو أن القومية العربية هي أقوم سبيل إلى تحرر العرب وكفالة استقلالهم ، فسلكته . وبالرغم مما يلقاه هذا الاتجاه الطبيعي من ضغط وتعتيق ، فإن الشعوب العربية ماضية في طريقها . وقد التفت إرادة الشعب السوري بإرادة الشعب المصري ، فكانت « الجمهورية العربية المتحدة » بإعلان اتحاد الإقليمين في شهر فبراير سنة ١٩٥٨ . وكان إعلان قيام « الدول العربية المتحدة باتحاد اليمن مع الجمهورية العربية المتحدة في شهر مارس سنة ١٩٥٨ .

والمأمول أن يتم التضامن المرجو على أى صورة من الصور الفعالة ، وبمحض الاختيار والاستجابة لداعى المصلحة ، وذلك بفضل نهوض الوعي العربي ، ومتى انضوت الشعوب العربية تحت راية القومية العربية المنتصرة ، فسيكون العرب المتضامنون قوة فعالة تساهم مساهمة مثمرة في إرساء قواعد السلام العالمى وتلدعيمها .

## مراجع الكتاب

### الكتب العربية

- القرآن الكريم .
- تفسير القاضى البيضاوى ، طبع ليبسك .
- تفسير الجلالين ، طبع القاهرة .
- صحيح مسلم ، طبع القاهرة .
- مسند أحمد ، طبع القاهرة .
- صحيح البخارى ، طبع القاهرة .
- تيسير الوصول لابن الديبع الشيبانى ، طبع القاهرة .
- إعجاز القرآن للباقلانى ، طبع القاهرة .
- المدونة الكبرى لتمام مالك ، طبع القاهرة .
- الذريعة إلى مكارم الشريعة لأراغب الأصفهاني ، طبع القاهرة .
- إحياء علوم الدين للغزالي ، طبع القاهرة .
- المستصق له ، طبع القاهرة .
- التفوق بين الإسلام والزندقة له ، طبع القاهرة .
- الرسالة اللدنية له ، ( مخطوط ) .
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، طبع القاهرة .
- تلخيص إبلين لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
- منهاج السنة لابن تيمية طبع القاهرة .
- معارج الوصول له ، طبع القاهرة .
- الحسبة فى الإسلام له ، طبع القاهرة .
- الجواب الصحيح له ، طبع القاهرة .
- رفع الملام له ، طبع القاهرة .
- الجوامع فى السياسة الإلهية له ، طبع القاهرة .
- السياسة الشرعية له ، طبع القاهرة .
- الواسطة وفصل المقال له ، طبع القاهرة .
- الرسالة التدمرية له ، طبع القاهرة .
- إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، طبع القاهرة .
- الفوائد له ، طبع القاهرة .

- بلوغ المرام لابن حجر ، طبع القاهرة .  
 لسان الميزان له ، طبع حيدر آباد الدكن .  
 إيثار الحق على الخلق للمرتضى اليماني ، طبع القاهرة .  
 تاريخ التشريع الإسلامي لمحمد الخضرى ، طبع القاهرة .  
 خلاصة الأثر لطاهر الجزائري ، طبع القاهرة .  
 رسالة التوحيد لمحمد عبده ، طبع القاهرة .  
 الإسلام والنصرانية له ، طبع القاهرة .  
 مفتاح السنة لعبد العزيز الحولى ، طبع القاهرة .  
 سيرة ابن هشام ، طبع القاهرة .  
 الروض الأنف للمهيلى ، طبع القاهرة .  
 محمد المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ، طبع القاهرة .  
 طبقات المدلسين لابن حجر العسقلاني ، طبع القاهرة .  
 خمس رسائل فائدة لابن تيمية وابن المقفع والذهبي وعمر الخيام ، طبع القاهرة ..  
 تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، طبع القاهرة .  
 السيامة الشرعية لعبد الوهاب خلاف ، طبع القاهرة .  
 تدريب الراوى للسيوطى ، طبع القاهرة .  
 علوم الحديث المعروفة بمقدمة ابن الصلاح ، طبع حلب .  
 أقضية الرسول للقرطبي ، طبع القاهرة .  
 الإسلام دين عام خالد لمحمد فريد وجدى ، طبع القاهرة .  
 الاعتبار فى النسخ والمنسوخ من الآثار للحازمى ، طبع القاهرة ..  
 ذكرى العاتل لعبد القادر الحسنى ، طبع بيروت .  
 المواقف له ، طبع القاهرة .  
 القضاة فى الإسلام لعارف النكدى ، طبع دمشق .  
 القضاة والنواب لشكرى العسلى ، طبع دمشق .  
 الإسلام وأصول الحكم لعل عبد الرارق ، طبع القاهرة .  
 أدب الدنيا والدين للماوردي ، طبع القاهرة .  
 الأحكام السلطانية له ، طبع القاهرة .  
 الأحكام السلطانية لأبى يعلى ؛ ( مخطوط ) .  
 تلقيح فهم أهل الأثر لابن الجوزى ، طبع دهلى .  
 صيد الخاطر له ، طبع القاهرة .  
 الخراج ليحمى بن آدم ، طبع لندن .  
 نظام القضاء والإدارة لأحمد قمحة ، طبع القاهرة .

- تاريخ الفقه الإسلامى للحجوى ، طبع فاس .
- الخراج لقدماء بن جعفر ، طبع ليدن .
- كتاب الديات للضحالك الشيباني ، طبع القاهرة .
- الحكم الجديدة بالإذاعة لابن رجب ، طبع القاهرة .
- الفتوى فى الإسلام لجمال الدين القاسمى ، طبع دمشق .
- تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ، طبع ليدن .
- صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد الترطبي ، طبع ليدن .
- تاريخ اليمامة ، طبع ليدن .
- مروج الذهب للمسعودي ، طبع باريز .
- البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى ، طبع باريز .
- تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبع ليدن والقاهرة .
- تاريخ ابن خلدون ، طبع القاهرة .
- تاريخ الكامل لابن الأثير ، طبع القاهرة .
- الغزى لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، طبع غريفزولد .
- المختصر فى تاريخ البشر لأبى الفداء ، طبع القاهرة .
- ذيل تاريخ دمشق لابن القلائسى ، طبع بيروت .
- البداية والنهاية لابن كثير ، طبع القاهرة .
- عجائب المقدور فى أخبار تيمور لابن عربشاه ، طبع القاهرة .
- الحوادث الحاسمة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لابن القوطى ، طبع بغداد .
- إنباء العمر فى أبناء العمر بن حجر ، ( مخطوط ) .
- الكواكب السائرة بأعيان المئة الماضية للنجم الغزى ، ( مخطوط ) .
- فتوح البلدان للبلاذرى ، طبع ليدن .
- فتوح مصر لابن عبد الحكم ، طبع ليدن .
- الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبع ليدن .
- الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، طبع القاهرة .
- النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، طبع ليدن والقاهرة .
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ، طبع القاهرة .
- تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصرى ، طبع القاهرة .
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، طبع القاهرة .
- تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط ومطبوع بدمشق .
- تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ، طبع بيروت .
- تاريخ مصر لابن إياس ، طبع القاهرة .

- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار ، طبع تونس .  
 تاريخ الدولتين الموحدية والحنفية للزركشى ، طبع تونس .  
 الخلاصة النقية في أمراء إفريقية للباچى ، طبع تونس .  
 الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول ، طبع الجزائر .  
 تاريخ مكة للفاكهى ، طبع ليبسليك .  
 أخبار مكة للأزرقى ، طبع ليبسليك .  
 المنتقى في أخبار أم القرى ، طبع ليبسليك .  
 الأعلام بأعلام البيت الحرام للنهروالى ، طبع ليبسليك .  
 تاريخ المدينة للمهودى ، طبع القاهرة .  
 شذرات الذهب لابن الهاد ، مخطوط ومطبوع في القاهرة .  
 دول الإسلام للذهبى ، طبع حيدر أباد الدكن .  
 مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى ، طبع القاهرة .  
 الخراج لأبى يوسف ، طبع القاهرة .  
 طبقات ابن سعد الكبير ، طبع ليدن .  
 أسد النابة لابن الأثير ، طبع القاهرة .  
 الإصابة في تمييز أسماء الصحابة لابن حجر ، طبع كلكته .  
 طبقات الحنفا للذهبى ، طبع غوتنغن .  
 ذيل تذكرة الحنفا للحسينى وابن فهد والسيوطى ، طبع دمشق .  
 الوافى بالوفيات للصلاح الصمدى ، ( مخطوط ) .  
 ذكت الهيئان في نكت المميان له ، طبع القاهرة .  
 تحفة المجاهدين في أحوال البرتكاليين لابن الدين المبرى ، طبع لشبونة .  
 تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الحضرى ، طبع القاهرة .  
 طبقات أئمة القراء لابن الجزرى ، ( مخطوط ) .  
 طبقات علماء إفريقية وعلماء تونس للتميمى والخشنى ، طبع الجزائر .  
 تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبورى ، ( مخطوط ) .  
 التكملة لكتاب الصلة للتضاعى المعروف بابن الأبار ، طبع الجزائر .  
 وثائق عربية صادرة عن ملوك المغرب الأقصى والشرق ، طبع لشبونة .  
 الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى ، ( مخطوط ) .  
 الضوء اللمع في أعيان القرن التاسع للمخاوى ، ( مخطوط ) .  
 أخبار مصر لابن ميسر ، طبع ليدن .  
 الشروط والعقود السياسية بين ملوك إيطاليا والمسلمين ، طبع إيطاليا .

- مرآة الزمان ليوسف سبط ابن الجوزى ، طبع شيكاغو .
- زبدة كشف الممالك للظاهري ، طبع باريز .
- وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبع القاهرة .
- فوات الوفيات للصالح الكتبى ، طبع القاهرة .
- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة ، طبع القاهرة .
- الذيل على الروضتين لأبى شامة ، ( مخطوط ) .
- الفتح القدسى للعقاد الكاتب ، طبع ليدن .
- سيرة صلاح الدين لابن شداد ، طبع القاهرة .
- تاريخ سعيد بن البطارى ، طبع بيروت .
- تاريخ يحيى بن سميد الأنطاكى ، طبع باريز .
- البيان المغرب لابن عذارى ، طبع ليدن وباريز .
- طبقات المفسرين للسيوطى ، طبع ليدن .
- طبقات الحنابلة لابن أثير ، طبع دمشق .
- طبقات الشافعية للسبكى ، طبع القاهرة .
- طبقات الشعراء للجهمى ، طبع ليدن .
- طبقات الأئم لابن صاعد الأندلسى ، طبع بيروت .
- كتاب الولاة والقضاة الكندى ، طبع بيروت .
- القضاة الذين ولوا قضاة مصر للكندى وذيله لابن برد ، طبع رومية .
- تاريخ الوزراء لأبى هلال الصائى ، طبع بيروت .
- كتاب الكتاب والوزراء للجهمى ، طبع ليبسيك .
- الإشارة إلى من قال الوزارة لابن الصيرفى ، طبع القاهرة .
- مناقب عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، طبع ليبسيك .
- سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
- سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
- طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، طبع القاهرة .
- أخبار الحكماء للقفطى ، طبع ليبسيك .
- تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ، ( مخطوط ) .
- تاريخ شارل كان لروبرتسون ، طبع القاهرة .
- قلائد العقبان للفتح بن خاقان ، طبع القاهرة .
- مطلع الأنفس له ، طبع القاهرة .
- الإحاطة بأخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، طبع القاهرة .

- أعمال الأعلام له ، طبع يلزم .
- اللمحة البدوية في الدولة النصرانية له ، طبع القاهرة .
- طبقات المهندسين في الإسلام لأحمد تيسور ، ( مخطوط ) .
- بلوغ الأرب للألوسي ، طبع القاهرة .
- حياة الإسلام لمصطفى نجيب ، طبع القاهرة .
- فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض ، طبع القاهرة .
- تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل من سنة ١٨٦٣-١٨٧٩ لإلياس الأيوبي ، طبع القاهرة .
- أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ، طبع القاهرة .
- الجزء الحادي عشر من تاريخ مصنف مجهول ( البلاذري ) ، طبع غريغزولد .
- تاريخ الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا ، طبع القاهرة .
- تاريخ كلدو وآفرر لادى شير ، طبع بيروت .
- تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب ، طبع تونس .
- ديوان التحقيق "لدينى" لمحمد عبد الله عثمان ، طبع القاهرة .
- التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ليلنت وتمهيد لعبد القادر حمزة ، طبع القاهرة .
- تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ، طبع القاهرة .
- تاريخ اليهود في بلاد العرب لإسرائيل ولنفسون ، طبع القاهرة .
- الأنساب للسمعانى ، طبع ليدن .
- طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ، طبع رومية .
- طبقات النحاة للسيوطى ، طبع القاهرة .
- تهذيب الأسماء للروى ، طبع غوتنغن .
- زبدة النصر للماد الكاتب ، طبع ليدن .
- كتاب بغداد لأحمد بن أبي طاهر طينثور ، طبع سويسرا .
- كتاب الباشات وانتقضاة ل محمد بن جعة المقار ، ( مخطوط ) .
- الشماتق الذمائية في علماء الدولة العثمانية لطاشكبرى ، طبع القاهرة .
- الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصميد للادفوى ، طبع القاهرة .
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، طبع القاهرة .
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبع القاهرة .
- معجم الأدباء لياقوت ، طبع القاهرة .
- مناقب بغداد لابن الجوزى ، طبع بغداد .
- للأخيرة لابن بسام ، ( مخطوط ) .
- الدارس للنعماني ، ( مخطوط ) .

- كتاب الجمان للشطبي ، (مخطوط)
- تاريخ ملكة حاب لابن الشحنة ، طبع بيروت .
- أخبار عبيد بن شربة ، طبع حيدر آباد الدكن .
- النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم للمقريزي ، طبع ليدن .
- القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ، طبع تورينو .
- خلاصة من تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة على ذيل رواية آخر بني سراج لأرسلان ، طبع القاهرة .
- تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها لإبراهيم مغلطاي ، طبع ليدن .
- البدر الطالع بمحاسن من القرن السابع للشوكاني ، طبع القاهرة .
- تاريخ الدولة الرسولية للخزرجي ، طبع القاهرة .
- الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار ، طبع القاهرة .
- تاريخ المدن الإسلامي لرجي زيدان ، طبع القاهرة .
- الحضارة الإسلامية لأحمد زكي ، طبع القاهرة .
- تاريخ القرن التاسع عشر لمحمد قاسم وحسين حسني ، طبع القاهرة .
- كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني ، طبع الجزائر .
- أخبار ملوك الأندلس للزيري ، طبع غرناطة .
- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ، طبع القاهرة .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، طبع لبنان .
- خطط الشام لمحمد كرد علي ، طبع دمشق .
- تاريخ نجد لشكري الألوسي ، طبع القاهرة .
- تاريخ العلويين للسويل ، طبع اللاذقية .
- ذكر تملك الجمهورية الفرنسية الأنظار المصرية والبلاد الشامية ، لبقولا الترك ، طبع باريس .
- لطائف أخبار الدول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول للاسحاق ، طبع القاهرة .
- تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين لعبد الله الشرقاوي ، طبع القاهرة .
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ، طبع ليبسيسك .
- مفتاح العلوم للخوارزمي ، طبع ليدن .
- تاج المروس للزبيدي ، طبع القاهرة .
- أساس البلاغة للزمخشري ، طبع القاهرة .
- غريب الحديث لابن الأثير ، طبع القاهرة .
- النهروست لابن النديم ، طبع ليبسيسك .
- كشف الظنون لكاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة ، طبع القاهرة .
- معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس ، طبع القاهرة .

- قاموس الكتاب المقدس ليوست ، طبع بيروت .  
فتح الرحمن العلمى ، طبع بيروت .  
دستور العلماء للأحمد نكرى ، طبع حيدر آباد الدكن .  
معجم ما استعجم للبكرى ، طبع غوتنغن .  
معجم البلدان لياقوت ، طبع ليبسيك .  
المشتركة وضمها والمفترق صغماً لياقوت ، طبع غوتنغن .  
الصحفة في مشكل الأسماء والنسب لابن خطيب الدمشقي ، طبع ليبسيك .  
التقريب لأصول التعريب لطاهر الجزائري ، طبع القاهرة .  
التعريب في أصول التعريب لأحمد عيسى ، طبع القاهرة .  
الانفاظ الفارسية المعربة لادى شير ، طبع بيروت .  
المسائل والأجوبة لابن قتيبة ، طبع القاهرة .  
الأوائل لأبي هلال العسكري ، طبع القاهرة .  
الشعر والشعراء لابن قتيبة ، طبع الآستانة .  
المشقبه في أسماء الرجال للذهبي ، طبع ليبسيك .  
أحسن التقاسيم المقتضى البشاري ، طبع لندن .  
المسالك والممالك لابن حوقل ، طبع لندن .  
صفة جزيرة العرب لأهمداني ، طبع لندن .  
تزجئة المشتاق للأدرسي ، طبع رومية .  
مسالك الممالك للاصطخري ، طبع لندن .  
المسالك والممالك لابن خردادبة ، طبع لندن .  
الأعلاق النفسية لابن رسته ، طبع لندن .  
المكتبة الصقلية لآماري ، طبع ليبسيك .  
أنوم المسالك لخير الدين التوفقي ، طبع تونس .  
ال سفر إلى المقيم لأحمد زكي ، طبع القاهرة .  
رحلة الأندلس للبنتوني ، طبع القاهرة .  
الرحلة الحجازية له ، طبع القاهرة .  
رحلة ابن جبير ، طبع لندن .  
رحلة ابن بطوطة ، طبع باريس .  
الإفودة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي ، طبع القاهرة .  
المخطط للمقرئزي ، طبع القاهرة .  
غرائب الغرب لمحمد كرد علي ، طبع القاهرة .

- حضارة الإسلام في دار السلام لجميل مدور ، طبع القاهرة .
- الإكليل للهمداني ، طبع بغداد .
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، طبع القاهرة .
- كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ، طبع لندن .
- كتاب البلدان للبرقوقي ، طبع لندن .
- وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية بليان نقله إلى العربية مخلصاً يوسف كمال طبع القاهرة .
- الارتشافات اللطاف لشكيب أرسلان ، طبع القاهرة .
- صفوة الاعتبار لمحمد بيرم ، طبع القاهرة .
- حضارة العرب في الأندلس للبرقوقي ، طبع القاهرة .
- الواسطة في أحوال مالطة لأحمد فارس الشدياق ، طبع الآستانة .
- رحلة الحبشة لصديق المزيدي تعريب رفيق وحق العظم ، طبع القاهرة .
- رحلة محمد علي إلى جنوبي أمريكا ، طبع القاهرة .
- رحلة محمد علي إلى جاوة ، طبع القاهرة .
- تأثيرات سياحة موسى كريم ، طبع سان بولو .
- البرازيل والشرق له ، طبع سان بولو .
- معيان الاختيار في ذكر المعاهد والديار لسان الدين بن الخطيب ، طبع ناس .
- موعة فيها ثلاث وعشرون رسالة بعضها في التاريخ الأخير ، ( مخطوط ) .
- رحلة الأمير يشيك ، ( مخطوط )
- رحلة ناصر خسرو ( سفرنامه ) ، طبع باريز .
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، طبع القاهرة .
- روضة العقلاء لابن حبان البستي ، طبع القاهرة .
- الكامل للمبرد ، طبع ليبسيك .
- نهاية الأرب للنويري ، طبع القاهرة .
- الاعتبار لابن منذر ، طبع لندن .
- الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا ، ( مخطوط ) .
- رسالة الفقراء للمعري ، طبع القاهرة .
- وسائل الصابي ، طبع بيروت .
- وسائل بدیع الزمان الهمداني ، طبع بيروت .
- وسائل أبي بكر الخوارزمي ، طبع القاهرة .
- وسائل القاضي الفاضل ( مخطوط ) .
- وسائل البلغاء لمحمد كرد علي ، طبع القاهرة .

- للمقد الفريد لابن عبد ربه ، طبع القاهرة .  
 قفح الطيب للمقرئى ، طبع القاهرة .  
 بلاغات النساء لأحمد بن أبي طاهر ، طبع القاهرة .  
 زهر الآداب للحصرى ، طبع القاهرة .  
 المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب ، طبع القاهرة .  
 لطائف المعارف للثعالبي طبع ليدن .  
 يقيمة الدهر له ، طبع دمشق .  
 المعارف لابن قتيبة ، طبع غوتنغن .  
 عيون الأخبار له ، طبع ستراسبورغ والقاهرة .  
 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، طبع القاهرة .  
 كتاب الصناعتين لأبي هلال المسكوى ، طبع الآستانة .  
 قشوار المحاضرة للتنوخى ، طبع القاهرة ودمشق .  
 الفرج بعد الشدة له ، طبع القاهرة .  
 معبد النعم ومبيد التهم للسبكى ، طبع القاهرة .  
 كتاب الحيوان للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 البيان والتبيين للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 التاج المنسوب للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 البخله للجاحظ ، طبع ليدن .  
 المحاسن والأضداد للجاحظ ، طبع ليدن .  
 الترييح والتدوير للجاحظ ، طبع ليدن .  
 مناقب الترك وفخر السودان على البيضاء للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 تفضيل النطق على الصمت للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 مدح التجار وذم عمل السلطان للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 العشق والنساء للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 الوكلاء للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 مذاهب الشيعة وطبقات المذنبين للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 استنباز الوعد للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 ثلاث رسائل في الكتاب والقيان والرد على النصارى للجاحظ ، طبع القاهرة .  
 الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير للجاحظ ، طبع حلب .  
 التبصرة بالتجارة للجاحظ ، طبع دمشق .

- رسائل الجاحظ متتقة من كتب لم تنشر جمعها حسن السندوني ، طبع القاهرة .
- الباذة هوميروس تعريب سليمان البستاني ، طبع القاهرة .
- التقديم والحديث لمحمد كرد علي ، طبع القاهرة .
- غمر الحصائن للوطواط ، طبع القاهرة .
- الكتايات للشماسي ، طبع القاهرة .
- المخساف والمنسوب له ، طبع القاهرة .
- مجمع الأمثال للسيداني ، طبع القاهرة .
- الحاسن والمساوي للبيهقي ، طبع جيسين .
- الصاديق والصدافة لأبي حيان التوحيدي ، طبع الآستانة .
- كتاب الأوراق للصولي ، مخطوط ومطبوع في القاهرة .
- الشاهنامة للفردوسي ترجمة البنداري بتعليق عبد الوهاب عزام ، طبع القاهرة .
- النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية لهمازة اليماني ، طبع باريس .
- كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني ، طبع لندن .
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي حسن الأشعري ، طبع الآستانة .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن خزم ، طبع القاهرة .
- الملل والنحل للشهرستاني ، طبع القاهرة .
- الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر البغدادي ، طبع القاهرة .
- الانتصار لابن الحياط ، طبع القاهرة .
- ذكر المعتزلة للمرتضى ، طبع حيدر آباد الدكن .
- حدوث المذاهب الأربعة لأحمد تيمور ، طبع القاهرة .
- الأصنام لابن الكلبي ، طبع القاهرة .
- المقابسات لأبي حيان التوحيدي ، طبع الهند والقاهرة .
- اعتقادات الأمامية لبهاء الدين العاملي ، طبع بغداد .
- علم الأخلاق لأرسطوطاليس تعريب أحمد لطفى السيد ، طبع القاهرة .
- الأخلاق لمموثيل سميلز تعريب محمد الصادق حسين ، طبع القاهرة .
- السعادة والإسماع لأبي حسن بن أبي ذر ، (مخطوط) .
- كتاب تهذيب الأخلاق ليعيسى بن عدى ، طبع دمشق .
- تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، طبع القاهرة .
- حداواة أتنفوس لابن خزم ، طبع القاهرة .
- مراج الملوك للطوطشي ، طبع القاهرة .
- آراء المدينة الفاضلة للفارابي طبع القاهرة .

- ثمان رسائل للفارابي ، طبع القاهرة .
- محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب لجويدى ، طبع القاهرة .
- تاريخ علم الفلك لنابليو ، طبع ورمية .
- محاضرات الفلسفة لسانتلافة ، طبع القاهرة .
- فجر الإسلام لأحمد أمين ، طبع القاهرة .
- ضحى الإسلام لأحمد أمين ، طبع القاهرة .
- مبادئ الفلسفة لابورت تعريب أحمد أمين ، طبع القاهرة .
- تحرير المرأة لقاسم أمين ، طبع القاهرة .
- المرأة الجديدة له ، طبع القاهرة .
- حاضر العالم الإسلامى للوثروب استودارد تعريب عجاج نويهض بتعليق شكيب أرسلان ، طبع القاهرة .
- روح الشرائع لبنتام تعريب أحمد فتحي زغلول ، طبع القاهرة .
- المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها لعبد الله عفيفى ، طبع القاهرة .
- حقوق المرأة فى الإسلام لأحمد آجايف تعريب سليم قبمين ، طبع القاهرة .
- أصول الفلسفة لأمين واصف ، طبع القاهرة .
- أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي ، طبع القاهرة .
- طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي ، طبع القاهرة .
- الآثار الباقية للبيري ، طبع ليبسيك .
- رسائل لإخوان الصفاء وخلان الوفاء ، طبع القاهرة .
- أدب الوزير للماوردي ، طبع القاهرة .
- قوانين الدواوين لابن محاق ، طبع القاهرة .
- التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله النعمري ، طبع القاهرة .
- عصر المأمون لأحمد فريد الرفاعى ، طبع القاهرة .
- منتخبات الجوائب لأحمد فارس ، طبع الآستانه .
- تقرير كرومر عن مصر ، طبع القاهرة .
- تحرير مصر تعريب محمد لطفى جمعة ، طبع القاهرة .
- التصوير عند العرب لأحمد تيمور ، ( مخطوط ) .
- تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ، طبع القاهرة .
- الإسلام خير أوطار وسوانح لهنرى دى كاستر تعريب أحمد فتحي زغلول ، طبع القاهرة .
- إقطاظ العرب للإسلام لهيدلى تعريب أحمد حامى البارودى ، طبع القاهرة .
- الرق فى الإسلام لأحمد شفيق تعريب أحمد زكى ، طبع القاهرة .
- إقارنات والمقارنات لمحمد حافظ صبرى ، طبع القاهرة .

- التيسير والاعتبار المأدبى ، ( مخطوط ) .
- الطب العربى وتأثيره فى مدينة أوربا لزكى على ، طبع القاهرة .
- ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد ، طبع القاهرة .
- فى الأدب الجاهل لظه حسين ، طبع القاهرة .
- حديث الأربعاء لظه حسين ، طبع القاهرة .
- تحليل نقد الأدب الجاهل لمحمد أحمد الغمراوى ، طبع القاهرة .
- الأبطال وعبادة الأبطال لكارليل تعريب محمد السباعى ، طبع القاهرة .
- لماذا تأخر المسلمون لشكيب أرسلان ، طبع القاهرة .
- التربية الوطنية لعبد العزيز البشرى ، طبع القاهرة .
- على بساط الريح لفوزى المعلوف ، طبع القاهرة .
- مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن لعمر طوسون ، طبع الإسكندرية .
- الجيش المصرى فى عهد الفراعنة إلى الآن لعمر طوسون ، طبع القاهرة .
- البحرية المصرية فى عهد الفراعنة إلى الآن لعمر طوسون ، طبع القاهرة .
- الصنائع والمدارس الحربية والرمثات العلمية على عهد محمد على لعمر طوسون ، طبع الإسكندرية .
- كتاب الحيدة لمبد العزيز الكثانى ، طبع القاهرة .
- آراء غربية فى مسائل شرقية لدينه وسليمان إبراهيم ، طبع بيروت .
- كنوز الأجداد لمحمد كرد على ، ( مخطوط )
- أمراء الإنشأ له ، ( مخطوط ) .
- العقد الفريد للملك السعيد لابن طلحة الوزير ، طبع القاهرة .
- آداب المعلمين مما دون محمد بن سحنون التنوخى عن أبيه ، طبع تونس .
- كتاب الأذكياء لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
- الفلاكة والمفلوكون للدبلجى ، طبع القاهرة .
- كتاب المعمرين للسجستانى ، طبع القاهرة .
- الإشارة إلى محاسن التجارة لجعفر بن على ، طبع القاهرة .
- سر تقدم الانجائين السكسونيين لأدمون ديمولين تعريب أحمد فتحى زغلول ، طبع القاهرة .
- أدب الكتاب للصوى ، طبع القاهرة .
- النهرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو ، طبع بيروت .
- الآفات الاجتماعية وعلاجها لتولستوى تعريب محمد رضا ، طبع القاهرة .
- مجموعة الحفيد للهروى ، طبع القاهرة .
- المواهب اللدنية للتسلافى ، طبع القاهرة .
- بيان زغل العلم والطلب للذهبى ، طبع القاهرة .

- كتاب السلوك لمعرفة الملوك للمقرئى ، طبع القاهرة .  
 أخبار الدول المنتطحة للزرى ، مخطوط وطبع أوروبا .  
 تاريخ محبوب بن قسطنطين المنبجى ، طبع باريز .  
 التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن غلبون ، طبع القاهرة .  
 تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لابن حميد السالمى ، طبع القاهرة .  
 فتح العرب مصر لبتلر تعريب محمد فريد أبو حديد ، طبع القاهرة .  
 تاريخ المصور الوسطى لحسن إبراهيم وأحمد صادق الخطاوى ، طبع القاهرة .  
 مذكرات قلبنى فهمى ، طبع القاهرة .  
 مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق ، طبع القاهرة .  
 الأعلام لخير الدين الزركلى ، طبع القاهرة .  
 ديوان أحمد شوقى ، طبع القاهرة .  
 ديوان حافظ إبراهيم ، طبع القاهرة .  
 ديوان خليل مطران ، طبع القاهرة .  
 ديوان معروف الرصافى ، طبع القاهرة .  
 كشف الحجاب عن مدنية العرب لمحمد بن عمار الورتانى ، طبع تونس .  
 الاكتفاء فى منازل صفى والثلاثة الخلفاء للكلاعى ، طبع الجزائر .  
 بين أبى العلاء المعرى وداعى الدعاة الفاطمى ، طبع القاهرة .  
 السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات لفان فلوطن تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم ، طبع القاهرة .  
 الاعتصام للشاطسى ، طبع القاهرة .  
 أخبار سيبويه المصرى للحسن بن زولاق ، طبع القاهرة .  
 شہرات التوثيقيات لحسن حسنى عبد الوهاب ، طبع تونس .  
 الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير لابن الساعى ، مخطوط وطبع بغداد .  
 الفاطميون فى مصر لحسن إبراهيم حسن ، طبع القاهرة .  
 التعرف لمذهب أهل التصوف للكلابانى ، طبع القاهرة .  
 جمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى ، طبع القاهرة .  
 الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، طبع القاهرة .  
 آلات الطب والجراحة والكجالة عند العرب لأحمد عيسى ، طبع القاهرة .  
 طوق الحمامة لابن حزم ، طبع ليدن .  
 الحضارة القديمة لأحمد كمال ، طبع القاهرة .  
 حديث عيسى بن همام لمحمد المويلجى ، طبع القاهرة .  
 تاريخ العتسى ، طبع القاهرة .  
 خزانة الأدب للمعتمدى ، طبع القاهرة .

- الموشح للمرزباني طبع القاهرة .  
 تحذير الخواص من أكاذيب التصاغر للسيوطي ، طبع القاهرة .  
 في المرأة لعبد العزيز البشري ، طبع القاهرة .  
 أتعاط الحنفيا للمقريزي ، طبع القدس .  
 آثار اليباد للتزويني ، طبع القاهرة .  
 مجلة المتكطف ، طبع بيروت والقاهرة .  
 مجلة الضياء ، طبع القاهرة .  
 مجلة المشرق ، طبع بيروت .  
 مجلة المنار ، طبع القاهرة .  
 مجلة المقتبس ، طبع القاهرة ودمشق .  
 مجلة المحجم العلمي العربي طبع دمشق .  
 مجلة الكلية ، طبع بيروت .  
 مجلة النبراس . طبع بيروت .  
 مجلة الهندسة ، طبع القاهرة .  
 السياسة الأسبوعية ، طبع القاهرة .  
 مجلة الرسالة ، طبع القاهرة .  
 مجلة المعرفة ، طبع القاهرة .

### الكتب التركية :

- تاريخ تدفيمات عثمانية ، جلال نوري طبع الآستانة .  
 مقدرات تاريخية ، جلال نوري ، طبع الآستانة .  
 تاريخ أبو الفاروق ، مراد الداغستاني ، طبع الآستانة .  
 تاريخ جودت ، طبع الآستانة .  
 عثمانلي تاريخي ، أحمد راسم ، طبع الآستانة .  
 تورك تاريخي ، رضا نور ، طبع الآستانة .  
 قاموس الأعلام ، شمس الدين سامي ، طبع الآستانة .  
 أورو با مكتوبلري ، جناب شهاب الدين ، طبع الآستانة .  
 تاريخ نعيما ، طبع الآستانة .  
 جهان نما . كاتب جلبسي ، طبع الآستانة .  
 تحفة الكبار في أسفار البحار له ، طبع الآستانة .  
 تاريخ سياسي كامل باشا ، طبع الآستانة .  
 عهد الحميد ودور سلطنتي . عثمان نوري .

## الكتب الافرنجية :

GUSTAVE LE BON : La civilisation des Arabes.

- Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire.
- La vie des vérités.
- La Révolution Française et la psychologie des révolutions.
- Psychologie politique.
- Premières conséquences de la guerre.
- Psychologie des temps nouveaux.
- Les opinions et les croyances.
- Psychologie des foules.
- La psychologie de l'évolution des peuples.
- L'évolution actuelle du Monde-Illusions et réalités.
- Lois psychologiques de l'évolution des peuples.

ALFRED FOULLÉE : Esquisse d'une psychologie des peuples européens

- Tempérament et caractère.

LAVISSE ET RAMBAUD : Histoire Générale

SÉDILLOT : Histoire Générale des Arabes.

CLÉMENT HUART : Histoire des Arabes.

MAXIME PETIT : Histoire Générale des peuples.

PETIT DE JULLEVILLE : Histoire de la Langue et de la littérature Française.

RENÉ DUSSAUD : Les Arabes en Syrie avant l'Islam.

IGN. GUIDI : L'Arabie Antéislamique.

CHARLES DIEHL : Byzance.

- Palerme et Cyracuse.

RENAN : Mission de Phénicie.

- Histoire des Langues Sémitiques.

MONTET : L'Islam.

- L'Etat Présent et l'Avenir de l'Islam.

DŌZY Histoire des Musulmans d'Espagne.

CHARLES SEIGNOBOS : Histoire de la civilisation.

- Histoire Politique de l'Europe contemporaine.

R. H. TOWNER : La Philosophie de la civilisation.

EMILE DERMENGHAM : La vie de Mahomet.

- EDWARD WESTERMARCK : L'origine et le développement des idées morales.
- CHARLES RICHET : Le Savant (Dans les caractères de ce temps).
- MEIDLET ET MARCEL COHEN : Les Langues du Monde.
- AHMED CHAFIK : L'Egypte Moderne et les influences étrangères.
- G. HANOTAUX : La Fleur des histoires Françaises.
- CHAGAS FRAFCO : Les gloires et les beautés du Portugal.
- PUBLICATION DE LA REVUE HISTORIQUE : Histoire et historiens depuis cinquante ans.
- MAURICE PERNOT : En Asie Musulmane.
- ROBERT CHAUVELOT : Où va l'Islam ?
- REINACH : Histoire des religions.
- C. CLEMEN : Les religions du Monde.
- HERBERT, H. GOWEN : Histoire de l'Asie.
- CHARLES BENOIST : Les maladies de la démocratie.
- MARC SEMENOFF : Histoire de Russie.
- ALFRED BERTHOLET : Histoire de la civilisation d'Israël.
- GAUTIER : Mœurs et coutumes des Musulmans.
- ANDRÉ SERVIER : L'Islam et Psychologie du Musulman.
- LAURA VECCLA VAGLIERI : Apologie de l'Islamisme.
- CARRA DE VAUX : Les penseurs de l'Islam.
- JULES SIMON : Liberté de conscience.
- Liberté politique.
- Liberté civile.
- MASSIGNON : L'Annuaire du monde musulman.
- ALBERT MÉTIN : L'Inde d'aujourd'hui.
- MARIVAUD : L'Espagne au XXe siècle.
- LOUIS RAMBERT : Notes et impressions de Turquie.
- BLUNTSCHLI : La politique.
- HENRI SECRÉTAN : La population et les mœurs.
- HENRI DAMAYE : Sociologie et éducation de demain.
- CARLI : L'équilibre des nations.
- JEAN MELIA : Le Coran pour la France.
- H. H. ABDUL-WAHAB : La domination musulmane en Sicile.
- Coup d'œil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie.

- B. G. GAULIS : La Question Arabe.  
 — Le Nationalisme égyptien.  
 EUGÈNE JUNG : Le réveil de l'Islam et des Arabes.  
 PAUL LOUIS : Le tableau politique du monde.  
 A. LE CHATELIER : L'Islam dans l'Afrique Occidentale.  
 — La position économique de l'Islam.  
 — La politique musulmane.  
 ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM.  
 LAROUSSE ILLUSTRÉ AVEC TOUS LES SUPPLÉMENTS.  
 REVUE DU MONDE MUSULMAN.  
 REVUE DES ÉTUDES ISLAMiques  
 B. FARIS : L'honneur chez les Arabes avant l'Islam.  
 ERNEST VON BRUYSEL : La vie sociale et ses évolutions.  
 W. HEYD : Histoire du commerce du Levant au moyen âge.  
 MICHAUD : Histoire des Croisades.  
 MOMMSEN : Histoire romaine.  
 LAMOUCHE : Histoire de la Turquie.  
 JOLLIVET CASTELLOT : La loi de l'histoire.  
 DE HAMMER : Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine  
 jusqu'à nos jours.  
 PINON : L'Europe et l'Empire Ottoman.  
 DE LA JONQUIÈRE : Histoire de l'Empire Ottoman.  
 A. ROUMANI : Essai historique et technique sur l'administration  
 ottomane.  
 COURNOT : Considérations sur la marche des idées et des  
 événements dans les temps modernes.  
 CHRISTOPHER DAWSON : Les origines de l'Europe et de la  
 civilisation européenne.  
 LEVI-PROVENÇAL : L'Espagne musulmane au X<sup>ème</sup> siècle.  
 RENÉ MARTIAL : La race française.  
 JOHAN HJORT : La crise de la vérité.  
 THÉODORIC LEGRAND : Histoire du Portugal.  
 LOUIS HALPHEN : Les Barbares.  
 HERRIOT : Créer.
-

طبع بمطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر  
٩ شارع الكرداسى بعابدين - القاهرة